

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي.

جامعة البليدة -2-

كلية الآداب واللغات.

قسم اللغة العربية وآدابها.

الرحلة في الأساطير والملاحم القديمة.

دراسة في الفضاء والزمان والشخصيات

أطروحة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في اللغة العربية وآدابها.

تخصّص: الأدب العربي قديما وحديثا.

إشراف:

أ. د. قرطي خليفة

إعداد الطالبة:

دعدي ليلي

2018/2017

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي.

جامعة البليدة -2-

كلية الآداب واللغات.

قسم اللغة العربية وآدابها.

الرحلة في الأساطير والملاحم القديمة.

دراسة في الفضاء والزمان والشخصيات

أطروحة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في اللغة العربية وآدابها.

تخصّص: الأدب العربي قديما وحديثا.

إعداد الطالبة:

دعدي ليلي.

أمام اللجنة المشكّلة من:

عبد الله شطاح	أستاذ	البليدة 2	رئيسا.
خليفة قرطي	أستاذ	البليدة 2	مشرفا ومقررا.
إبراهيم فضالة	أستاذ محاضر أ	البليدة 2	عضوا مناقشا.
شميسة خلوي	أستاذة محاضرة أ	الجزائر 2	عضوا مناقشا.
مهدي ساهل	أستاذة محاضرة أ	الجزائر 2	عضوا مناقشا.
مليك بن بوزة	أستاذة	الجزائر 2	عضوا مناقشا.

2018/2017

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء

إلى أمي الحبيبة، دائما وأبدا...

إلى روح أبي، ذكرى ووفاء...

إلى عائلتي الصغيرة:

زوجي؛

أبنائي: منال، ضياء الحق، نوران، نبراس الحق، أحمد سنا الحق.

وإلى إخوتي جميعا...

مع المحبة كلها.....

ليلي.

شكر وتقدير

شكرا جزيلا، ووفيرا للأستاذ المشرف الذي تبقى الكلمات واقفات في حضرة كرمه، وصبره، ودعمه.

شكرا للجنة التي انتُخبت لقراءة هذه الأطروحة ومناقشة ما جاء فيها ومعالجة المزيد من الأفكار، وإظهار ثغراتها ونقائصها ليتم بإذن الله تقليص تلك الفجوات والفراغات التي تسربت وتسلفت عبر عناصر البحث.

أشكر كل أستاذ بشخصه واسمه على حسن صحبته، ورفقته لهذه الرسالة، وعلى ما بذل من أجلها من جهد وصرف من وقت.

الملخص باللغة العربية

يلاحظ المطالع للآداب الكلاسيكية القديمة أن الرحلة موضوع دائم الحضور في النصوص الأسطورية والملحمية، وقد تناولت العديد من الدراسات الأساطير، والملاحم، والرحلة، وعلاقة الأساطير بالآداب والملاحم، ولكن الدراسة التي تجمع بين الأساطير وأدب الرحلة، والملاحم وأدب الرحلة، هي التي ظلت تحتاج إلى شيء من الاهتمام والتخصيص بالبحث الدقيق المتعمق.

واخترنا هذا الموضوع لقلة الإشتغال به، ولإهتمامنا الخاص بالمادتين الأسطورية والملحمية، ونظرا لأهميته التي تكمن في توفير مصدر جديد يعنى بالدراسة الأسطورية والملحمية المتعلقةتين بأدب الرحلة، وتعميق أدب الرحلة في التراث الإنساني الممتدة جذوره إلى الفكر الأسطوري والإبداع الملحمي المتفرد.

وتتبعنا في دراستنا المنهج الوصفي التحليلي، مع التلميح أحيانا إلى بعض المقارنات وفق منهج الأدب المقارن لأن النصوص الأسطورية والملحمية مقتطفة من حضارات مختلفة.

وهكذا توصل البحث إلى مجموعة من النتائج والملاحظات... فالرحلة إنتاج إبداعي إنساني قديم، وكذا الأساطير، والملاحم، ثم تعلق موضوع الرحلة بالأسطورة، وبالملمحة أيضا، وصار البطل الأسطوري رحالة، كما صار البطل الملحمي رحالة كذلك. ولأن الإنسانية أنتجت حضارات كثيرة مختلفة جدا حسب المواقع والأزمنة التي ظهرت فيها، ولكن الإبداع الأدبي وحدها، خاصة في مميزات الرحلة والأسطورة والملحمة، واجتهد البحث في أن يلاحظ أوجه التلاقي وأوجه التميز.

فإذا انتخبنا ست حضارات متباينة زمانا ومكانا (الهند، مصر، العراق، الفرس، الإغريق، الرومان) فسنتخلص مجموعة من الملاحظات حسب الفصول التي تناولنا بها الدراسة:

- الفصل الأول: الشخصية: إن الرحالة بطل بكل ما تحمله الكلمة من معان، حتى وإن كان أنثى، وسيحقق النجاح دائما فردا أو جماعة.

- الفصل الثاني: الفضاء: قد يستحوذ الفضاء الأزرق (البحر) على أوسع مجال لتتنقل الرحالة البطل الأسطوري/ الملحمي، ولكنه أيضا يتجول في كل الفضاءات الأخرى (الأخضر...) بل حتى في فضاء الأموات (الأسود).

- الفصل الثالث: الزمن: حتى وإن كان الإتجاه نحو المستقبل فإن الرحالة الأسطوري/ الملحمي يعيش حاضره، ويستحضر ماضيه ولو بالرحلة إليه عبر العالم الآخر وزيارة الأرواح.

لقد كان توظيف الرحلة أسطوريا وملحميا ديدنا جماليا مألوفا ومتداولاً، في قالب فني خيالي أسر، قبل أن يتحول إلى الرحلة الواقعية الفعلية المتكئة على الحقيقة. وتبقى الأسئلة التي أثارها البحث محل استنفار واستفزاز، قابلة للتحويل إلى بحوث أخرى.

قائمة المحتويات

رقم الصفحة	الموضوع
03	إهداء.....
06	الشكر والتقدير.....
06	الملخص باللغة العربية.....
08	قائمة المحتويات.....
	محتويات الرسالة
13	مقدمة.....
21	تمهيد.....
23	I - مفهوم الأسطورة.....
23	أ - لغة.....
32	ب - اصطلاحا.....
42	II - مفهوم الملحمة.....
42	أ - لغة.....
67	ب - اصطلاحا.....
59	III - مفهوم الرحلة:.....
59	أ - لغة.....
61	ب - اصطلاحا.....
74	IV - مفهوم البطل.....
74	أ - لغة.....
76	ب - اصطلاحا.....
78	V - نظرية الأجناس الأدبية.....
82	VI - توطئة تاريخية.....
91	الفصل الأول: شخصية الرحالة الأسطوري والملحمي.
93	المبحث الأول: ملامح الرحالة الأسطوري.....

93	I - ملامح الرحالة الأسطوري في عالم الأحياء
93	1- الرحالة الأسطوري في بلاد الرافدين.....
98	2- الرحالة الأسطوري في مصر القديمة.....
111	3- الرحالة الأسطوري الهندي.....
113	4- الرحالة الأسطوري الفارسي.....
118	5- الرحالة الأسطوري الإغريقي
132	6- الرحالة الأسطوري الروماني.....
136	II - ملامح الرحالة الأسطوري في العالم الآخر.....
136	1- الرحالة الأسطوري في بلاد الرافدين
140	2- الرحالة الأسطوري في مصر القديمة.....
142	3- الرحالة الأسطوري الفارسي.....
144	4- الرحالة الأسطوري الإغريقي.....
147	5- الرحالة الأسطوري الروماني.....
149	المبحث الثاني: ملامح الرحالة الملحمي.....
149	I- ملامح الرحالة الملحمي في عالم الأحياء.....
149	1 - الرحالة الملحمي في بلاد الرافدين.....
177	2 - الرحالة الملحمي الهندي.....
184	3 - الرحالة الملحمي الفارسي.....
190	4 - الرحالة الملحمي الإغريقي
190	أولا- في الأوديسة.....
208	ثانيا- في الأرجوناوتيكا.....
220	5 - الرحالة الملحمي الروماني.....
225	II- ملامح الرحالة الملحمي في العالم الآخر.....
225	1 - الرحالة في بلاد الرافدين.....
231	2 - الرحالة الهندي.....
234	3 - الرحالة الاغريقي.....
237	4 - الرحالة الروماني.....
241	ملاحظات ونتائج الفصل الأول.....
251	الفصل الثاني: الفضاء في الرحلة الأسطورية والرحلة الملحمية
252	المبحث الأول: الفضاء في الرحلة الأسطورية.....

252	I- الفضاء الأخضر.....
252	1 - الفضاء الأخضر في الرحلة الأسطورية البابلية.....
255	2 - الفضاء الأخضر في الرحلة الأسطورية المصرية.....
255	3 - الفضاء الأخضر في الرحلة الأسطورية الفارسية.....
256	4 - الفضاء الأخضر في الرحلة الأسطورية الإغريقية.....
261	5 - الفضاء الأخضر في الرحلة الأسطورية الرومانية.....
263	II- الفضاء الأزرق:
263	1 - الفضاء الأزرق في الرحلة الأسطورية البابلية.....
265	2 - الفضاء الأزرق في الرحلة الأسطورية المصرية.....
266	3 - الفضاء الأزرق في الرحلة الأسطورية الفارسية.....
267	4 - الفضاء الأزرق في الرحلة الأسطورية الإغريقية.....
269	5 - الفضاء الأزرق في الرحلة الأسطورية الرومانية.....
270	III- الفضاء الأسود:
270	1- الفضاء الأسود في الرحلة الأسطورية البابلية.....
272	2- الفضاء الأسود في الرحلة الأسطورية المصرية.....
273	3 - الفضاء الأسود في الرحلة الأسطورية الفارسية.....
276	4 - الفضاء الأسود في الرحلة الأسطورية الإغريقية.....
278	5 - الفضاء الأسود في الرحلة الأسطورية الرومانية.....
279	المبحث الثاني: الفضاء في الرحلة الملحمية:
280	I- الفضاء الأخضر:
280	1- الفضاء الأخضر في الرحلة الملحمية البابلية.....
286	2- الفضاء الأخضر في الرحلة الملحمية الهندية.....
291	3 - الفضاء الأخضر في الرحلة الملحمية الفارسية.....
293	4 - الفضاء الأخضر في الرحلة الملحمية الإغريقية.....
295	5 - الفضاء الأخضر في الرحلة الملحمية الرومانية.....
296	II- الفضاء الأزرق:
296	1- الفضاء الأزرق في الرحلة الملحمية في بلاد الرافدين.....
297	2- الفضاء الأزرق في الرحلة الملحمية الهندية.....
299	3 - الفضاء الأزرق في الرحلة الملحمية الفارسية.....
299	4 - الفضاء الأزرق في الرحلة الملحمية الإغريقية.....

301	5 - الفضاء الأزرق في الرحلة الملحمية الرومانية.....
302	III- الفضاء الأسود:
302	1-الفضاء الأسود في الرحلة الملحمية في بلاد الرافدين.....
302	2- الفضاء الأسود في الرحلة الملحمية الهندية.....
304	3- الفضاء الأسود في الرحلة الملحمية الفارسية.....
305	4- الفضاء الأسود في الرحلة الملحمية الإغريقية.
305	5- الفضاء الأسود في الرحلة الملحمية الرومانية.
313	المبحث الثالث: اتجاه الرحلة الأسطورية.
313	أ - اتجاه الرحلة الأسطورية في عالم الأحياء.....
326	ب - اتجاه الرحلة الأسطورية في العالم الآخر.....
336	المبحث الرابع: اتجاه الرحلة الملحمية:
336	أ - اتجاه الرحلة الملحمية في عالم الأحياء
397	ب - اتجاه الرحلة الملحمية في العالم الآخر.....
420	ملاحظات ونتائج الفصل الثاني.....
423	الفصل الثالث: الزمن في الرحلة الأسطورية والرحلة الملحمية
424	المبحث الأول: الزمن في الرحلة الأسطورية.....
425	I - الزمن في الرحلة الأسطورية في فضاء الأحياء.....
425	1 -عند البابليين.....
432	2 - عند المصريين.
436	3 - عند الفرس.....
438	4 - عند الإغريق.
445	5 - عند الرومان.
450	II - الزمن في الرحلة الأسطورية إلى العالم الآخر:
450	1- عند البابليين.
451	2- عند المصريين.....
455	3- عند الفرس.....
456	4- عند الإغريق.....
460	5- عند الرومان.....
461	المبحث الثاني: الزمن في الرحلة الملحمية.
461	I - الزمن في الرحلة الملحمية في فضاء الأحياء.

504	II - الزمن في الرحلة الملحمية إلى العالم الآخر.....
513	المبحث الثالث: وسيلة حركة الرحلة في الفضاء.....
513	I- وسيلة حركة الرحلة الأسطورية.....
513	أ - وسيلة حركة الرحلة الأسطورية في عالم الأحياء.....
517	ب - وسيلة حركة الرحلة الأسطورية في عالم الأموات.....
520	II- وسيلة حركة الرحلة الملحمية.....
520	أ - وسيلة حركة الرحلة الملحمية في عالم الأحياء.....
525	ب - وسيلة حركة الرحلة الملحمية في عالم الأموات.....
530	ملاحظات واستنتاجات الفصل الثالث.....
540	النتائج والمناقشة والتوصيات.....
549	المصادر والمراجع.....
557	قائمة الملاحق.....
565	الملخص باللغة الفرنسية.....

مقدمة

كنت في دراستي السابقة لموضوع الأساطير - أثناء تحضيرتي لمذكرة الماجستير - قد ألممت بشيء من عوالم هذه المادة، وأسرارها، وما أنتجته من ملاحم أيضا، وشد انتباهي موضوعة الرحلة في كل منهما: (الأسطورة والملحمة) وحاولت أن أتقصى بعض ما جاء عن هذه الظاهرة فأعياني البحث، ولم أعر على شيء مباشر يناقش هذه الفكرة، فراودني شغف البحث فيها وعزمت على خوض غمار المعركة من جديد وفي عين المكان.

إن موضوعة "الرحلة الأسطورية" في الأساطير والملاحم هي في حد ذاتها سؤال يستحق البحث والتتقيب والمغامرة والرحيل في إثرها من أجل إيجاد ما يشفي غليله ويطفيء لهيبه.

وشيئا فشيئا بدأت تظهر أسئلة أخرى وبغزارة تؤيد وتعزز حاجة موضوعة الرحلة الأسطورية إلى بحث خاص يعالجها ويسبر بعض أغوارها ويتتبع خطاها وأخبارها.

وما جعلني أترك باب البحث في هذا الموضوع مشرعا دون التقيد بنموذج واحد، أو بفترة خاصة، أو بحضارة معينة، هو محاولة تقصي سمات التباين بين هذه الرحلات الأسطورية عندما تختلف أزمنتها والأمم التي أنتجتها (سومر، مصر القديمة، الهند، الفرس، الإغريق، الرومان...).

ولقد تفرع عن هذه الإشكالية توقع آخر، وهو أنه قد يكون هناك تميز يجعل الرحلة الأسطورية الملحمية تختلف عن الرحلة الأسطورية العامة، فهذا الطرح قد يفرز المزيد من عناصر تحتاج المساءلة.

إن بماذا امتازت الرحلة الأسطورية الملحمية عن الرحلة الأسطورية؟ وما هي أشهر الملاحم القديمة التي استغلت هذه المادة فأنتجت بها عوالم ومعالم خاصة؟ وما هي أهم عناصر بنائها؟

الاطلاع على مجموعة معتبرة من الأساطير الإنسانية، وعلى مجموعة أخرى من الملاحم القديمة، أتاح لي أن ألاحظ سمة عامة. لقد رحل الكثير من الأبطال الأسطوريين في تلك النصوص التي قيدت وخلدت ذكراهم، وجعلتهم مثل النجوم تشع وتنتظر منا أن نسأل ونجيب.

- هل لهذا التنقل ولهذه المغامرة ما يمكن أن نصلح عليه (رحلة)؟

وبالتالي:

- ما هي خصائص ومميزات الرحلة الأسطورية؟ وهل دخول هذه الرحلة نص الملحمة

يجعلها تتفرد بمزايا أخرى؟ وأين تتجلى آثار وملامح وبصمات هذا التفرد؟

هناك أبحاث ودراسات كثيرة أنجزت في مواضيع شتى تناقش الأساطير عامة، وخاصة، وتتبع خطى هذا البطل، أو ذاك، وتحلل هذه الملحمة أو تلك، وترصد وقائعها وأخبار صناعاتها، هذا بالنسبة إلى جل أساطير العالم وملاحمه، ولكن البحث الذي يختص ويتفرد بتتبع وتقصي فكرة الرحيل والانتقال وأهدافه ومرامييه وإنجازاته وأهميته بالنسبة إلى المرتحل (البطل) وأتباعه، والحضارة التي أنتجته والأثر الأدبي والاجتماعي والجغرافي والثقافي والفلسفي... الذي تركه صدى ذلك الرحيل أو تلك الرحلة. لم ينجز بالشكل والطرح الذي أود أن أقوم به.

إن هذا البحث قد انطلق من أسئلة، ومن افتراضات وتوقعات، وهو بالتالي يسعى بشيء من الأمل والحماس إلى أن يحقق أهدافا سطرها ورآها جديرة بنور المعرفة. وبعون الله تعالى قد يتيسر إثبات أن موضوع الرحلة الأسطورية أو الرحلة في الأسطورة/ أو الرحلة الملحمية/ أو الرحلة في

الملحمة كانت ذات أبعاد وآفاق وخصائص ومميزات مستقلة، وأخرى ملتحمة وذات وشائج وأنها كانت عنصرا مؤسسا وجوهريا، ومستقرا بنصه، أو داخل النص الذي تنتمي إليه. وأنها كانت تعكس شيئا ما من حياة وفلسفة وأحلام ومعتقد الإنسان القديم، وأنها لم تكن عرضا زائلا، بل إن أهميتها لا تقل عن أهمية شقيقتها الرحلة الحقيقية الفعلية في العصور الوسطى والعصر الحديث.

كما يهدف البحث إلى الإقتراب شيئا ما من تحديد ملامح الرحالة الأسطوري وفضاء الرحلة وزمانها وعناصر أخرى...

وأنا أطرح هذه الإنشغالات . في مجموعة من الأسئلة التي رأيت أنها لا زالت تحتاج إلى أجوبة خاصة وواضحة . اعتقدت أنني أسعى إلى معالجة موضوع هام يمكنه أن يساعد في تقديم آفاق جديدة ومعلومات ورؤى أكثر عمقا وأقرب إلى الدقة والحرص مما هي عليه في نفس هذا المجال من عمومية وشمولية.

إذ أن الموضوع متأثر في فضاء بعض الأساطير الإنسانية وملاحمها القديمة، ولكنه مثلما تبين لي غير معالج وغير محصور بالدراسة في موضوع الرحلة الأسطورية/ الملحمة، هذه الدراسة قد تجعلنا نخرج بمجموعة معتبرة من الملاحظات الخاصة بفن الرحلة الأسطورية والرحلة الأسطورية الملحمة، وقد نصل إلى تعيين العناصر التي تجمع بين الرحلات الأسطورية على حدة، ثم بين الرحلات الملحمة على حدة أيضا، ثم بين الرحلات معا، خاصة إذا ركزنا على بعض العناصر التي تتوفر وتبنى عليها مثل عنصر البطل (الشخصية)، المكان، والزمان.

لأن البحث يطرح العديد من الأسئلة، وفي مختلف الإشكالات المتعلقة بموضوعه، ولغياب المصدر الأصلي لهذه المادة أحيانا وخضوعه لترجمات عدة، ولأن مجال الأساطير فضفاض ومفتوح على تأويلات كثيرة تحتاج الوقوف خارج النص أحيانا، فقد ارتأيت أن أترك للأسئلة حرية

الحق في البحث عن أجوبة لها من خلال المنهج الوصفي التحليلي الذي سيكون لنا وطيعا في الطرح والمناقشة ومعالجة الافتراضات، وقد نستعين بشيئ من آراء الأدب المقارن لأننا سنكون بمعية نصوص من مصادر مختلفة حضارة ولغة... ومتقاطعة في الرؤية والصورة والفكرة في كثير من الأحيان.

وهكذا أنجزت الأطروحة التي عنوانها: (الرحلة في الأساطير والملاحم القديمة. دراسة في الفضاء والزمان والشخصيات).

والتي تبدأ بالتمهيد الذي يحاول مقارنة بعض المفاهيم الخاصة بالمصطلحات القريبة من موضوع الرحلة الأسطورية، مثل: الأسطورة، الملحمة، الرحلة، البطل، ثم علاقتها بالأنواع الأدبية، كما احتاج البحث لمدخل تاريخي تصنيفي لتبرير الترتيب الذي اعتمده للنصوص وفق الحضارات (العراق القديم، مصر، الهند، الفرس، الإغريق، الرومان).

ثم تنقسم إلى ثلاثة فصول، يكون لكل منها مباحثها المحاثة لفكرتها العامة وتساؤلاتها الخاصة، بيد أن نصوص الأساطير والملاحم قد لا تتغير من فصل إلى آخر، لأن كل فصل سيدرسها من جانب معين.

ففي الفصل الأول كان التقسيم إلى مبحثين: الأول عن ملامح شخصية الرحالة الأسطوري، والثاني عن ملامح شخصية الرحالة الملحمي. وكان مقام البحث يوجب تقديم مدخل بسيط يذكرنا بالأجواء الحضارية لظهور النص في بيئته وتاريخه، وهذا قبل التطرق إلى أي شخصية أسطورية/ أو ملحمة، ممن انتخبها البحث عينات للطرح والدراسة، ثم إن كل مبحث عالج أسئلته وفق عنصرين: أولهما الرحلة في عالم الأحياء، والثاني الرحلة في عالم الأرواح، وانقسم كل من هذين

العنصرين إلى ست موضوعات بحسب النماذج الحضارية في العنصر الأسطوري، وإلى خمس في العنصر الملحمي، لأننا نقصي (مصر القديمة) لعدم إثبات وجود النص الملحمي في تراثها القديم.

أما الفصل الثاني فتناول الفضاءات التي ساح وجال فيها الرحالة الأسطوري، والرحالة الملحمي وفق أربعة مباحث: الفضاء في الرحلة الأسطورية، الفضاء في الرحلة الملحمية، اتجاه الرحلة الأسطورية، اتجاه الرحلة الملحمية.

والفصل الثالث يعالج الزمن في الرحلة الأسطورية، والزمن في الرحلة الملحمية، قسمته إلى ثلاثة مباحث: أسطوري، وملحمي، ومبحث خاص بوسائل الرحلة، واشتغلت عبر عنصرين لكل مبحث: في ظلال الأحياء، ثم في ظلال الأرواح، للخروج بالنتائج التي تيسرت لنا في هذا الفصل.

ووصلت إلى الخاتمة النهائية، التي وقفتُ بها عند جملة معتبرة من النقاط رأيْتُها نتائج وفرتها لي الجولة الرحلية في عالم الرحلتين؛ الأسطورية ثم الملحمية، ومن خلال محطاتها: شخصية الرحالة، والمكان، ثم الزمان.

وأظن أنني قد قمت بمناقشة الموضوع حسب تصور منهجي خاص اقترحته في هذا البحث دون أن أدعي تميزاً أو سبقاً، أو تفوقاً، وإنما تركت للأسئلة الكثيرة والمتراكمة . والتي كانت تزداد وتتناسل كلما قطعت شوطاً أو بعض الشوط . دفة السفينة لتقود المشوار في رحلة البحث عن الإجابة واستخلاص النتائج.

هذه الجولة التي صادفت - مثل الرحالة - مجموعة من المشاكل والصعوبات، تمثل بعضها

في:

- عدم توفر النصوص الكلية، المترجمة بشكل دقيق وأقرب إلى الأصل، فترجمة البنداري للشاهنامة، التي حققها عبد الوهاب عزام، يبدو أنها خضعت لمقص الإختصار، والتلخيص كثيرا، وخالفها ترجمة سمير مالطي في مواضع عديدة.

- و(الأرجوناوتيكا) النص الملحمي لأبولونيوس الرودي لم نجد له الترجمة الكاملة في اللغة العربية، ويُخلط بالنصوص والمصادر الأسطورية السابقة.

- و(الرامايانا) التي ترجمتها دائرة المعارف الهندية ضعيفة، وكثيرة الأخطاء الطباعية التي زحفت حتى على اللغة.

- إشكالية تصنيف النصوص الأسطورية والملحمية: أياكون بتاريخ بروز الحضارة؟ أم بتاريخ ظهور النص؟ أم بتاريخ تدوين النص؟ مثلا: (الأرجوناوتيكا) الأسطورة ظهرت قبل 1200 ق.م أي قبيل حرب طروادة، والأرجوناوتيكا الملحمة ظهرت بعد ألف سنة (حوالي 280 ق.م).

- إشكالية تناول الرحلة في سياق رحلي وأسطوري في آن، وسياق رحلي أسطوري ملحمي في آن آخر، فاجتهد البحث أن يعطي لجميع الأجواء المتجاورة على النص حقها.

- إشكالية تمطُّط البحث بسبب معالجة كل نص أسطوري رحلي خلال الفصول الثلاثة معا (الشخصية، الزمان، المكان): فلم يكن بالإمكان تجاوز أي نص رحلي أسطوري أو ملحمي سبق النظر إليه في فصل الشخصية، إذ توجب التطرق إلى فضاءاته وأزمته، وكأن البحث قد أبرم عقدا افتراضيا مع كل نص سيق في الفصل الأول.

والآن، قد وضع البحث نقطة نهايته، وماهي في الحقيقة سوى فاصلة، إذ يمكن لي ولغيري مواصلة هذا البحث، الذي لا نهاية لأسئلته، كما لا نهاية لإجاباته الثرة، التي يغدق بها دون

حساب، على من يجيد طرق الباب، وأنا هنا سأطرق أبواب الكثيرين لأقول شكرا جزيلا لكم على ما أسبغتم من فضل على هذا البحث الشره الضمان أبدا، أثناء رحلة العمل.

أقول شكرا بلا عد للمشرف الطيب، المحسن الذي طاعني في تكاسلي حتى تعبت من الكسل، ثم فاجأني بتكشيرة الليث في حمى أشباله، وجعلني أعدو بلا هودة حتى ما دريت للتمهل محطة، إلا محطة آخر المطاف والبحث في ديباجته يشبه هدية الأطفال التي تشع بالألوان القزحية.

أقول شكرا بلا عد ولا إحصاء لأولئك الذين لا عد لهم ولا إحصاء، وهم يوصلون جهودهم بجهدي، وأقلامهم بقلمي، ومراجعهم وكتبهم بمكتبة البحث، حتى وصلت إلى العراق والهند وبلاد فارس مرورا بروما والإغريق ومصر، مكتبة التهمت تراثا إنسانيا عريضا، قصم ظهري الذي يأبى إلا أن يبقى منحنيا طويلا أمام هامات أولئك المساندين للبحث.

تمهيد

I- مفهوم الأسطورة

II- مفهوم الملحمة

III- مفهوم الرحلة

IV- مفهوم البطل

V- نظرية الأنواع الأدبية.

VI- توطئة تاريخية.

تمهيد

إن الولوج إلى عمق موضوعات هذا البحث يستوجب إعطاء تفصيل محكم ودقيق بما فيه الكفاية عن مجموعة من المصطلحات الهامة المتعلقة بمادته، ويكون من المستعصي الوقوف على هذه المفاهيم دون مرور استقصائي فاحص يجلي خبايا وخفايا كل من مصطلح: أسطورة، ملحمة، رحلة، وبطل أسطوري، وبعد ذلك مفهوم مصطلح النوع الأدبي وعلاقة هذه المصطلحات به.

وبعد هذا، سيحاول البحث أن يتتبعها وهي على شكل عناصر تكوّن هذه اللحمة المتجانسة، وهذا النسيج المحكم، حيث استقرت العلاقة وتوطدت مشكّلة النص الواحد؛ في أغلب الحالات والنماذج المستهدفة بالبحث والدراسة.

وبقدر ما نجدها عناصر متصلة نجدها في الآن نفسه منفصلة وتمثل كل منها جنسا أو نوعا أدبيا مستقلا، أو نراها تنتمي إلى حقل معرفي آخر مختلف:

إذ نجد الأساطير تنتمي إلى عوالم ثقافية مختلفة كعلم الاجتماع، وعلم النفس، أو الفنون التشكيلية أو النحت أو المسرح...

كما نجد الرحلات العلمية المنتمية إلى سياقات ثقافية متباينة مثل الرحلات الدينية، الاستكشافية، الإطلاعية والدراسية...

وللملاحم هي الأخرى فضاءات أوسع تنشط فيها المخيلة الشعرية لإنتاج نص ثري يحمل من الغنى الثقافي والمعرفي والعلمي والجمالي، الشيء الكثير، إذ يتجاوز فيها الخيال والواقع فينتجان

الأساطير السحرية الغربية في عوالم مستحيلة، وأخرى واقعية موجودة بين صفحات التاريخ والجغرافية والدين والاجتماع والفن...

وفي خطوة أولى، وأساسية وهامة، يجب على الباحث دائما وعلى العموم أن يقدم في مدخل بحثه تعريفات ومفاهيم تؤسس لعمله خاصة إذا تعلق الأمر بمصطلحات ذات علاقة جذرية بالبحث المزمع الخوض فيه "فبدون هذه الخطوة المبدئية التي من شأنها تعريف الظاهرة وتوضيح حدودها قد يجد الباحث نفسه وهو يلاحق ظواهر بعيدة عن موضوع دراسته، أو ينساق وراء جوانب ثانوية من الظاهرة المعينة على حساب جوانبها الرئيسية.⁽¹⁾ أو أن حصره لعناصر محددة ودقيقة من الظاهرة . والتي يعتقد أنها تمس بحثه دون غيرها من بقية العناصر. تجعله عرضة لسوء الفهم والإبهام والغموض وصعوبة التلقي والإدراك والتواصل مع قارئه. فبدلا من التبسيط والتقريب ووضع المتلقي على الخط في سياق واحد معه، فسيجد نفسه أكثر ابتعادا وشططا، ومدعاة لقلّة الفهم وصعوبة الاستقبال "على أن المشكلة التي تواجهنا عندما نحاول أن نستهل دراستنا بتعريف للظاهرة وتوضيح مصطلحاتها، هي أننا لا نستطيع التوصل إلى تعريف مرض قبل أن نكون قد قطعنا شوطا في تقصي ظاهرتنا لأن التعريف الذي لا يأتي نتيجة الدراسة المتأنية والمعمّقة، سوف يعكس أهواء الباحث ومواقفه المسبقة وإسقاطاته الخاصة، عوضا عن أن يكون مرشدا موضوعيا له"⁽²⁾ أو قد يعكس تذبذب وتبلبل وتششت ذهن القارئ، فيعرقل طاقة استيعابه ويكهرب فضاء تواصلهما، وهي شرّ بلية يمكن أن يبلى بها باحث، إذ ينصرف عنه من طمع في إفادتهم وإقامة جسر التحاور معهم، "من هنا فإنني أرى أن دراسة أية ظاهرة من ظواهر الثقافة الإنسانية يجب أن تسير على مرحلتين: تهدف المرحلة الأولى إلى التوصل إلى تعرف دقيق للظاهرة انطلاقا من تعريف مبدئي

1 - السواح فراس: الأسطورة والمعنى، دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية، منشورات دار علاء الدين، دمشق، ط2/ 2001، ص 07.

2 - نفسه.

عام وفضفاض... أما المرحلة الثانية فتعود إلى نقطة البداية مزودة بتعريف واضح ودقيق للموضوع، وتقبل عليه مجدداً وقد صار مميزاً عن بقية الموضوعات المشابهة له أو المتداخلة معه⁽¹⁾. وعلى هذه الخطة النيرة الميسرة، ووفق هاتين الخطوتين ستبدأ مسيرة هذا البحث؛ بتوفيق من المعين - عز وجلّ ..

أ- مفهوم الأسطورة:

أ- لغة: إن التقصي اللغوي للكلمة يضعها قريباً من سياقها الاصطلاحي ويعين على فهمه وهضمه وإدراك ما الذي يجعلها تصل إلى ذلك المصاف من المعنى الاصطلاحي؛ ووشائج القربى بين المعنيين (أو المفهومين).

وإن بعض المصطلحات لها وجودها اللغوي في أكثر من لغة، لهذا يكون من المستلزم متابعة معناها لغة واصطلاحاً في لغة البحث المزمع إنجازه؛ إلى جانب لغة الترجمة الأقرب والأوفر استعمالاً لهذا المصطلح والمعتمدة سنداً للبحث.

أ- 1- في اللغة العربية:

في المعاجم القديمة: جاء في لسان العرب:

سَطَر: السَطْرُ والسَطْرُ: الصف من الكتاب والشجر والنخل ونحوها، والجمع من كل ذلك أسطُرٌ وأسطارٌ وأساطير (عن اللحياني) وسطور. ويقال بنى سطرًا وغرس سطرًا... والسطر الخط والكتابة، وهو في الأصل مصدر... وقال الزجاج في قوله تعالى: (وقالوا أساطير الأولين) خبر لا ابتداء محذوف، المعنى؛ وقالوا الذي جاء به أساطير الأولين، معناه سطره الأولون؛ ووحد

الأساطير أسطورة، كما قالوا أحوثة وأحاديث، والأساطير أحاديث لا نظام لها، واحدها إسطار وإسطارة، بالكسر وأسطير وأسطيرة وأسطور وأسطورة بالضم. وقال قوم: أساطير جمع أسطار، وأسطار جمع سطر، وقال أبو عبيدة: جُمع سطرٌ على أسطرٍ، ثم جُمع أسطرٌ على أساطير، وقال أبو الحسن: لا واحد له، وقال اللحياني: واحد الأساطير أسطورة وأسطير وأسطيرة إلى العشرة. قال: ويقال سطر ويجمع إلى العشرة أسطاراً، ثم أساطير جمع الجمع.

وسطرّها ألفها. وسطرّ علينا: أتانا بالأساطير. اللَّيْث: يقال سطرّ فلان علينا يسطرّ إذا جاء بأحاديث تشبه الباطل... يقال سطرّ فلان. فلان إذا زخرف له الأقاويل ونمقها، وتلك الأقاويل الأساطير والسطر⁽¹⁾.

وهو نفس الكلام الذي نجده في مختار الصحاح للشيخ الإمام محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي: في مادة سطر.

• وفي معاجم اللغة العربية الحديثة: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، وفي المنجد في اللغة والأعلام.

فكل هذه المعاجم تتطرق إلى أصل الكلمة العربية ومشتقاتها، وتشير إلى أنها تحمل معنى الخط والكتابة والتأليف.

ثم معنى الباطل والأباطيل في جمعها، أي قصة غير حقيقية، وبعيدة كل البعد عن الصدق، فسطرّ: ألف الأساطير، وسطرّ عليه: جاءه بأحاديث تشبه الأباطيل وزخرفها له.

لفظ الأساطير في القرآن الكريم:

¹ - ابن منظور: لسان العرب، ج3، دار المعارف، القاهرة، د.ت مادة سطر ص 2007.

إن ورود لفظة . كلمة . أساطير في القرآن الكريم دليل كبير على أن العرب كانوا يعرفونها ويتداولونها بيد أننا لا نجد لها الأثر الكبير في مدونة الشعر الجاهلي.

1- قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ

الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾^(١)

أي مأخوذ من صحف الأولين المسطورة، التي ليست عن الله، ولا عن رسله، وهذا من كفرهم، وإلا فكيف يكون هذا الكتاب . الحاوي لأنباء السابقين واللاحقين، والحقائق التي جاء بها الأنبياء والمرسلون، والحق والقسط، والعدل التام، من كل وجه . أساطير الأولين؟^(٢) وهي الاستعمال الرابع للمصطلح، وفيها نجد أن الأساطير تتميز بكونها نصا تقريريا لا يحتاج إلى إثبات ولا إلى تجربة. بل إلى الإيمان به وقبوله والانصياع (عكس النص القرآني الذي يدعو إلى الجدل).^(٣)

2- قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا

أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾^(٤)

وهذا من عنادهم وظلمهم، وإلا فقد تحداهم الله، أن يأتوا بسورة من مثله ويدعوا من استطاعوا من دون الله، فلم يقدرُوا على ذلك، وتبين عجزهم. فهذا القول الصادر من هذا القائل مجرد دعوى، كذبه الواقع، وقد علم أنه . صلى الله عليه وسلم . أمي لا يقرأ ولا يكتب، ولا رحل ليدرس من أخبار

¹ - سورة الأنعام الآية 25.

² - السعدي البشير بن ناصر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق محمد الصالح العثيمين، دار الغد الجديد، المنصورة، مصر. ط1/ 2005. ص: 235.

³ - الضاوي محمد الصالح: أساطير الأولين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1/ 2011، ص 60، 61.

⁴ - سورة الأنفال، الآية 31.

الأولين، فأتى بهذا الكتاب الجليل، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.^(١)

3- قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٢)

أي إذا سئلوا عن القرآن والوحي، الذي هو أكبر نعمة أنعم الله بها على العباد. فما قولكم به؟ فيكون جوابهم أقبح جواب وأسمجه فيقولون عنه: "إنه أساطير الأولين" أي كذب اختلقه محمد على الله، وما هو إلا قصص الأولين التي يتناقلها الناس جيلاً بعد جيل، منها الصدق ومنها الكذب، فقالوا هذه المقالة ودعوا أتباعهم إليها. وحملوا وزرهم ووزر من انقاد لهم إلى يوم القيامة.^(٣) وخاصية هذه الآية أنها تفرق بين الوحي باعتباره تنزيلاً، وبين الأساطير التي هي تصعيد إنساني للمنتوج المنحرف والمشوه.^(٤)

4- قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٥)

أي بل سلك هؤلاء مسلك الأولين، من المكذبين بالبعث واستبعدوه غاية الاستبعاد. وقالوا ﴿قَالُوا

أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾^(٦) أي هذا لا يتصور ولا يدخل العقل

بزرعهم "لقد وعدنا نحن وآبائنا من قبل" أي ما زلنا نوجد بأن البعث كائن، نحن وآبائنا، ولم نره، ولم

¹ - السعدي، البشير بن ناصر: تيسير الكريم الرحمن، ص 309.

² - سورة النحل، الآية 24.

³ - السعدي، البشير بن ناصر: تيسير الكريم الرحمن، ص 435.

⁴ - الضاوي، محمد الصالح: أساطير الأولين، ص 62.

⁵ - سورة المؤمنون، الآية 83.

يأت بعد "إن هذا إلا أساطير الأولين" أي قصصهم وأسماءهم التي يتحدث بها وتلهي، وإلا فليس لها حقيقة وكذبوا . قبحهم الله . فإن الله أراهم من آياته أكبر من البعث.(1)

5- قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ۖ﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٦﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧﴾

أي: وقال الكافرون بالله، الذي أوجب لهم كفرهم أن قالوا في القرآن والرسول إن هذا القرآن كذب، كذبه محمد وإفك وافتراه على الله، وأعانه على ذلك قوم آخرون. فرد الله عليهم ذلك، بأن هذا مكابرة منهم وإقدام على الظلم والزور، الذي لا يمكن أن يدخل أحد، وهم أشد الناس معرفة بحال الرسول . صلى الله عليه وسلم . وكمال صدقه، وأمانته، وبره التام، وأنه لا يمكنه، لا هو، ولا سائر الخلق، أن يأتوا بهذا القرآن، الذي هو أجل الكلام وأعلاه، وأنه لم يجتمع بأحد يعينه، على ذلك، فقد جاؤوا بهذا القول ظلما وزورا، ومن جملة أقاويلهم فيه أن قالوا: هذا الذي جاء به محمد "أساطير الأولين لمن اكتتبها" أي هذا قصص الأولين وأساطيرهم، التي تتلقاها الأفواه، وينقلها كل أحد استنسخها محمد "فهي تملى عليه بكرة وأصيلا"(3). ثم إن آية الفرقان هذه أول خاصية هامة تميز بها الوحي عن الأساطير وهي: خاصية السرّ، فإذا كان الوحي نصا مقدسا، يحتوي على أسرار إلهية، فإن (أساطير الأولين) نصا يدعي القداسة، ويدعي احتواءه على أسرار السموات والأرض.(4)

1 - السعدي البشير بن ناصر: تيسير الكريم الرحمن، ص 564، 565.

2 - سورة الفرقان، الآيات 4، 5، 6.

3 - السعدي البشير بن ناصر: تيسير الكريم الرحمن، ص 586، 587.

4 - الضاوي محمد الصالح: أساطير الأولين، ص 59.

6- قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٦٨) ﴿١﴾

أي هذا بعيد غير ممكن، قاسوا قدرة كامل القدرة بقدرهم الضعيفة "لقد وعدنا هذا" أي البعث

"نحن وأبائنا من قبل" أي فلم يجئنا ولا رأينا منه شيئا ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾

إن هذا إلا أساطير الأولين" أي قصصهم وأخبارهم التي تقطع بها الأوقات وليس لها أصل ولا صدق فيها. (٢) وإن ورودها في هذه الآية (68/ النمل) وهو الترتيب 45 من ترتيب النزول، وفيها نتعرف على الخاصية الثانية من خصائص التمييز بين الوحي والأساطير وهي خاصية المستقبلية. (٣)

7- قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أُفٍّ لَكُمْ أَتَعَذِّلِي أَنْ أُخْرِجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا

يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٧) ﴿٤﴾

أي: إلا منقول من كتب المتقدمين، ليس من عند الله، ولا أوحاه الله إلى رسوله، وكل أحد يعلم أن محمدا . صلى الله عليه وسلم . أمي لا يقرأ ولم يتعلم من أحد، فمن أين تعلمه؟ وأنى للخلق أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا. (٥) وفي هذه الآية أيضا نجد خاصية أخرى للأساطير ألا وهي الزمن الإنساني، حيث رغم ادعائها الفوقية الزمانية، إلا أنها تحتوي على زمان بشري تاريخي، نستطيع اكتشافه واكتشاف التشويه الحاصل للوحي بها. (٦)

¹ - سورة النمل، الآية 68.

² - السعدي، البشير بن ناصر: تيسير الكريم الرحمن، ص 222.

³ - الضاوي، محمد الصالح: أساطير الأولين، ص 59، 60.

⁴ - سورة الأحقاف، الآية 17.

⁵ - السعدي، البشير بن ناصر: تيسير الكريم الرحمن، ص 809.

⁶ - الضاوي، محمد الصالح: أساطير الأولين، ص 62.

8- قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُطْع كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَتَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ

﴿١٢﴾ عُتِلَّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ ءَايَتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ

﴿١٥﴾ ﴿١﴾ أي لأجل كثرة ماله وولده. طغى واستكبر عن الحق، ودفعه حين جاءه. وجعله من جملة

أساطير الأولين التي يمكن صدقها وكذبها. (٢) وإذا استعرضنا الآيات الواردة فيها مصطلح (أساطير

الأولين) حسب ترتيب النزول، نجد أن هذا المصطلح دخل مبكرا حلبة الصراع ضد القرآن من

خلال الآية 15 من سورة القلم التي هي السورة الثانية في ترتيب النزول حسب الإتيان للسيوطي. (٣)

9- قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بَيِّمَ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكْذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ

أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ ءَايَتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ (٤)

أي من ترهات المتقدمين وأخبار الأمم الغابرين، ليس من عند الله تكبرا وعنادا. (٥)

لما كان المعنى اللغوي الأول للسطر هو الصف وكان الخط مصفوا وكانت الكتابة مصفوفة

أيضا تابعة للخط فإن هذا المعنى اللغوي للسطر قد انسحب على كل من هذه الألفاظ ثم ليست

لفظه ومعناه معا . وهذا الذي يحمله بخاصة معنى قوله تعالى: "أساطير الأولين" في تسع آيات من

القرآن الكريم وإن المفسرين لم يتحدثوا عما تحمله هذه الأساطير بوصفها كتابة قديمة خطها

الأولون وتروي أخبارهم:

¹ - سورة القلم، الآيات 10، 11، 12، 13، 14، 15.

² - السعدي، البشير بن ناصر: تيسير الكريم الرحمن، ص 910.

³ - الضاوي، محمد الصالح: أساطير الأولين، ص 57.

⁴ سورة المطففين، الآيات: 10، 11، 12، 13.

⁵ - السعدي، البشير بن ناصر: تيسير الكريم الرحمن، ص 947.

ويمكن تلخيص ما ورد من تفاسير في شأن هذه الآيات التسع حتى يمكن الاهتداء على ضوءها والوقوف على مقربة من المعنى الذي تحمله لفظة "الأساطير": إذ أوشك الكفار والمشركون أن يساوا بين السورة والأسطورة وهذا نظرا لما حوته السور القرآنية من قصص الأنبياء وأخبار أممهم، بيد أنها اليقين يوحيه الله إلى رسوله:

1- صحف الأولين المسطورة.

2- أخبار الأولين.

3- كذب اختلقه محمد (صلى الله عليه وسلم) قصص الأولين التي يتناقلها الناس جيلا بعد جيل منها الصدق ومنها الكذب.

4- القصص والأسمار التي يتحدث بها وتلهي.

5- قصص الأولين التي تتلقاها الأفواه وينقلها كل أحد.

6- قصصهم وأخبارهم التي تقطع بها الأوقات وليس لها أصل ولا صدق فيها.

7- المنقول من كتب المتقدمين ليس من عند الله ولا أوحاه الله على رسوله.

8- أساطير الأولين التي يمكن صدقها كما يمكن كذبها.

9- ترهات المتقدمين وأخبار الأمم الغابرين ليس من عند الله.

وعليه فالأساطير نصوص قصصية، تاريخية، مخطوطة قديما أو منظومة وفق طريقة أو إيقاع ما، يتسامر بها الناس تروي أخبار الأمم التليدة صدقا وكذبا، فالنص الأسطوري بهذا المفهوم الوارد في تفسير الآيات التسع، هو نص مقدس، يعتقد فيه الصدق واليقين أوحى به الإله إلى صفوة

البشر، رغم أنهم شبهوا السور التي تتحدث عن أخبار الأنبياء وأنباء أممهم بالأساطير وبالتالي فالجانب الديني فيها وارد، وإن كان مشحونا بتكذيبهم، إذ أنهم لم يقولوا أنه من كلام اليهود أو النصارى فندخل نصوصهم وهم من (أهل الكتاب) ضمن (أساطير الأولين) فتصير هذه ذات طبيعة دينية (لم يتهم الرسول بأنه قد اعتنق اليهودية أو المسيحية فهو يتلو كتابها)، غير أنهم قالوا أنه ساحر، وشاعر، وكاهن، ومجنون.

1- أ- 2- في اللغة الأجنبية: (في اللغات الأوروبية القديمة والحديثة):

- في الإنكليزية: myth ظهر لأول مرة في العام 1830 و mythology في القرن 15.
 - mythical في 1678 بمعنى قصة غير حقيقة.
 - mythe في الفرنسية
 - في الألمانية der mythus، في الإيطالية mito، في الإسبانية mito.
- إن أصل الكلمة واحد في أغلب اللغات الأوروبية الحديثة، وهو أصل إغريقي وهو كلمة muthos التي تحمل أكثر من معنى:
- كلمة تخرج من الفم.
 - مجرد كلمة أو حديث أو قصة أو رواية "من دون النظر إلى كونها حقيقية أو غير حقيقية"⁽¹⁾

لقد وردت هذه الكلمة ميثوس لدى هوميروس في إلياذته حيث استخدمها لتعني الحديث أو القول

¹ - شعراوي، عبد المعطي: الأسطورة بين الحقيقة والخيال، مجلة عالم الفكر، المجلد 4، العدد 40، 2012، ص208.

أو التصريح⁽¹⁾ وما شابه، ثم مع ظهور كلمة (لوجوس) التي كانت تعني التعبير الشفهي والكتابة النثرية، ثم تطورت لتغطي العديد من الأحاديث المنطوقة، "الكتابة العقلانية اللاحقة" تقلص دور (ميثوس) بحيث صارت عادة ما تستعمل في القرن الخامس ق.م للتعبير عن الخيال أو القصص الخيالي المقترن بكتابة الشعراء الأوائل (القصص الخيالي الشعري القديم)⁽²⁾ وهكذا أصبحت الكلمتان على طرفي نقيض حيث اشتق من لوغوس اسم علم المنطق في اللغات الأوروبية الحديثة (logique _ logic). واستولت (ميثوس) على عالم الخيال وتربعت على عرشه، منتجة روائع الأدب القديم لدى الإغريق وغيرهم.

أ- ب - الأسطورة اصطلاحاً:

نظراً لطبيعة البحث وخصوصيته الأدبية يفترض بنا أن نتساءل عن ذلك الذي يدخل في نظام بنيتها ليجعل منها تحمل الإمكانية الأدبية؟ بمعنى هل يحمل النص الأسطوري بذرة أو نواة أدبية؟ وهل يمكن دراسة الأساطير كمادة خام ضمن بحوث ذات صبغة أدبية؟

لا يمكن الوقوف باطمئنان وهدوء عند حدود معينة لتعريف (الأسطورة) ويمكن القول بعدم وجود هذه الحدود الفاصلة لأنها ليست ميداناً لعملية مضبوطة للتفكير أو التعبير أو الاعتقاد، بل هي وسط ميدان للعديد من الأنهج التي تلتقي لديها لتفترق من جديد.

¹ - رغم أن أصل الاصطلاح كان تابعاً للفظ الحديث والقول والتصريح ثم تعداه إلى القص الشعري القديم، إلا أن هناك نوعاً من الأساطير الطقوسية (الطقسية) أو أسطورة الطقس الخاضعة لبعض التقاليد والشعائر والممارسات... فالطقس إذن تابع للنص الذي يستدعي بعض الممارسات الشعائرية خارج الكلام، أو إضافة إليه، ومتزامن معه، مثل أساطير ديونيسوس التي أنتجت التراجيديا (المسرح عند الإغريق).

² - محمد عبد الغني محمد السيد: نظرة الأثينيين إلى الأسطورة، مجلة عالم الفكر، المجلد 4، العدد 40، 2012، ص7.

ما يهم البحث مما يمكن التوصل إليه من كل مفاهيمها هو ذلك الذي له علاقة مباشرة، أو عميقة، أو متقاطعة، مع ما يمكن أن يسمى أدبا، وبالتالي يضم إلى إطار الإفادة منه خلال تحليل النصوص المقترحة نماذج للدراسة.

ولهذا كان النظر مركزا على ما جاء في المعاجم المتخصصة في الحقل الأدبي، أو ما متَّ إلى ذلك بصلة.

ا- ب- 1- الأسطورة في معاجم المصطلحات الأدبية العربية:

جاء في معجم (المصطلحات العربية في اللغة والأدب) لمجدي وهبة وكامل المهندس أن الأسطورة (le gend ؛ myth) : (le gend) : هي غير mith في غيره من المعاجم والكتب المتخصصة).

1) قصة خرافية يسودها الخيال، وتبرز فيها قوى الطبيعة في صور كائنات حية ذات شخصية ممتازة وينبني عليها الأدب الشعبي.

2) تستخدم في عرض مذهب أو فكرة عرضا شعريا قصصيا مثل أسطورة الكهف عند أفلاطون (مج12). والأسطورة بهذين المعنيين سرد لا تتفق عناصره مع الحقيقة الملموسة.. علما بأن السرد الذي يبتكره قد يضيف عليه الإنسان (وهذا ما يحدث في أغلب الأحيان) قيمة دينية... وقد تفيد الأسطورة أيضا بأن تعطي تفسيراً قصصياً شبه منطقي لتجارب الإنسان... والأسطورة عند العرب: سرد قصصي لا يمكن إسناده إلى مؤلف معين

يتضمن بعض المواد التاريخية، إلى جانب مواد خرافية شعبية ألفها الناس منذ القدم مثال ذلك قصص الزير سالم وعنترة.⁽¹⁾

يشير المعجم إلى ارتباط المفهوم الإصطلاحي لكلمة أسطورة بمفهوم السرد والقصص الديني والذي له علاقة بالأداءات الجمالية التعبيرية الفنية وصورها، وأساليبها.

كما جاء في معجم الفولكلور: ".... تشير إلى أنها حكاية إله أو شبه إله، أو كائن خارق تفسر بمنطق الإنسان البدائي ظواهر الحياة والطبيعة والكون والنظام الاجتماعي وأوليات المعرفة، وهي تنزع في تفسيرها إلى التشخيص والتمثيل والتحليل وتستوعب الكلمة والحركة والإيقاع، وقد تستوعب تشكيل المادة. وهي عند الإنسان البدائي عقيدة لها طقوسها.⁽²⁾

يظهر من خلال هذا التعريف أنها ذات خصوصية دينية وتفسيرية في إطار حكاوي يستثمر كل الإمكانيات التعبيرية المتاحة للوصول إلى الهدف (الاقناع).

يشارك هذان المعجمان في التأكيد على الخصوصية الدينية ذات الطابع الأدبي للنص الأسطوري وهكذا تتاح لنا فرصة النظر إليه من زاوية فنية أدبية.

1- ب - 2 - الأسطورة في معاجم المصطلحات الأدبية الأجنبية (الغربية):

"الأسطورة: الخرافة (mythe) يرجع أصل هذه الكلمة إلى اللفظة اليونانية (mythos) التي تعني "حكاية أو (خرافة) بل وأكثر من ذلك (كلام) وبالتالي فإن الأسطورة هي حكاية خرافية

¹ - وهبة مجدي وكامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط2/ 1984، (طبعة منقحة ومزودة)، ص 32.

² - يونس عبد المجيد: معجم الفولكلور مع مسرد إنكليزي - عربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2009، ص 85.

(تروى). هذه الحكايا التي اتخذت شكل تقليد، تقدم غالبا بطريقة رمزية تفسيرا لما يستعصي على التفسير. بالمعنى الضيق. ينظر المتخصصون إلى الأسطورة باعتبارها حكاية ترد إلى حالة عالم سابق للحالة الراهنة وتهدف إلى تحليل نظام الأشياء: الأسطورة بهذا المعنى حكاية البدايات. وبالمعنى الأكثر تداولاً إنها كل حكاية تقوم على معتقدات خرافية وتضوء على سمة أساسية من المسلكيات البشرية⁽¹⁾. يرى المعجم أن الخرافة هي (mythe)، وهو غير ما يقول به المتخصصون الذين يفرقون بين المصطلحين⁽²⁾.

إن البدايات الأولى المجهولة للكون، وللإنسانية والخلقة، يثير غموضها سحر الحقيقة الغابرة المطموسة، إن الغموض يحيل إلى ضبابية الحقيقة وبالتالي لا يمكن الخوض فيها إلا من منطلق حكاية يتكهن بما يرويه، ويملاً به فضاء سرديا ينوب عنه في ملء الفراغات والإجابة عن الأسئلة الملحة. ويفسر به ما أغلق عليه.

ولهذا السبب كانت "الأساطير موجودة في جميع الثقافات. سنكتفي هنا بالطبع بما يتعلق بالغرب المصدر الأسطوري الأساسي هو الثقافة اليونانية، وفي الصميم منها (نسب الآلهة) لهيزيود الذي يبين السلالات والصراع بين الآلهة، ومن خلال هذا يقدم تفسيرات للعالم. غالبا ما اتخذ الأدب اليوناني والتراجيديا بخاصة، أبطالاً من عالم الأساطير... كما أن الفلسفة لم تأنف من اللجوء إلى الأسطورة للتمثل بها: من هنا أسطورة الكهف عند أفلاطون. جرى استعادة الأساطير اليونانية في

¹ - آرون بول، دينيس سان، جاك آلان فيالا: معجم المصطلحات الأدبية، تر/ محمد محمود، نشر مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1/ 2012، ص 110.

² - ينظر تعريف الخرافة لنبيلة ابراهيم: أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار غريب، القاهرة، ط3/ د.ت، ص 77 إلى 116.

روما على نطاق واسع. خصص لها أوفيد كتابه (تحولات) ورجعت إننيادة فرجيل إلى أسطورة طروادة. كما اخترع الأدب الروماني أساطيره أو أقلم أساطير شرقية...⁽¹⁾

تؤكد هذه الفكرة أن الأساطير أدب وأنها أنتجت الآداب وأوحت بها لدى جميع الأمم، وكانت استراتيجيات أشهر الآداب العالمية القديمة (اليونانية والرومانية) تتأسس على قواعد عريقة من الإرث الميثولوجي.

"...وأخيرا، فإن التاريخ غني (بأساطير الأدب) لقد قام أروفيه بتصوير الشعر على أنه أسطورة صامدة في تصورات الأدب باعتباره إلها قادمًا من العالم الآخر، ومواجهة من الإنسان للموت. غير أن أسطورة بروميتيه/ بروميثيوس التي تجعل من الشاعر (سارقا للنار) بهدف تحرير البشر، بإقدامه على تضحية خاصة، ليست أقل حضورا. أسطورة برج بابل هي الأخرى، واحدة من أكثر الأساطير إلحاحا: تقسيم البشرية إلى جماعات، وبالتالي إلى ثقافات وآداب، ولغات مختلفة، يصور هنا، على أنه وفي آن معا، دليل على استحالة اتصال حقيقي شامل. وبالتالي بلوغ العالمية، كما يؤشر على نقص كل لغة. وبالتالي بلوغ الحقيقة. هذا النوع من الأساطير، يعبر عن بطولة العملية الأدبية كعملية معرفية(بروميثيوس) وعن خيبتها التي لا مفر منها (أوروفيه، بابل)"⁽²⁾

إن جميع دارسي الأساطير الإنسانية باختلاف جذورها والثقافات المنبثقة عنها، قد أجمعوا على المهاد الديني للنص الأسطوري وعلى خاصية العقيدة التي تتجلى فيها وتتبع منها، فهي مصدر أساسي وهام من مصادر النصوص المقدسة للشعوب البدائية، ومنها تبعت وتنتشر الطقوس، غير أن دراسات أخرى لا تقل أهمية عن البحث اللاهوتي والأنثروبولوجي قد استطاعت التوصل إلى

¹ - بول آرون وآخرون: معجم المصطلحات الأدبية، ص 110.

² - السابق، ص 114.

وجود نصوص أسطورية أدبية، ليس في شكلها فحسب، وإنما تحمل فكرا ورسالة أدبية إلى جانب روح المقدس فيها، مثل أسطورتَي (أورفيوس) و (بروميثيوس) الإغريقيين، وكذا أسطورة (برج بابل). فكل منها تعالج علاقة المعتقد الروحي بالمطلب الفكري والجمالي للإنسان.

إن الأصل الإغريقي لكلمة (myth) في أول نشأته كان يحمل معاني ثلاث متصلة ومختصة به، وهي:

أولا: خاصية الحكيم؛ التي تقتض استمرارية سردية من حيث الشكل، فهي تروي حدثا جرى في الزمن البدئي. ولذا فهي تمتاز بالحيوية والنشاط وتختلف عن الرمزية والمجاز اللذين يتسمان بصفة الثبوت.

ثانيا: خاصية الأصل الديني، فموضوعها عقيدة دينية، أو على الأقل يجعل للكائنات وضعية مقدسة، فخاصية القدسية التي تعتقد بها جماعة ما تجعل الأسطورة تختلف عن الحكاية الشعبية.

ثالثا: خاصية التفسير والشرح، فهي تهتم بالأساليب وتتخيل عللا للظواهر المعروفة، إنها تعود إلى بدء الخليقة، ونشوء السلطة السياسية، وأيضا تصور ما يجري في العالم الآخر، وما ينتظرنا فيه، كما تشرح للإنسان المبادئ التي يجب أن تسيّر حياته الدنيوية، وتكشف لنا بعض ما نجهله من ذواتنا.⁽¹⁾

رأي أفلاطون: يتحدث أفلاطون عن الأسطورة في خضم حديثه عن التعليم والتربية والمجتمع في كتابه (الجمهورية) يقول: "في البداية فإننا نحكي الأساطير للأطفال وهكذا كقاعدة عامة في تقديري أمر زائف (أو خيالي)" إذ يعتبر أن مقدار الزيف أو الخيال في الأسطورة أكبر من مقدار الحقيقة،

¹ - Christophe Carlier. Nathalie Criton: Des mythes aux mythologies , Rotterdam Edition Marketing, France. 1994, p 7,8.

ولكن لا ينبغي رفضها تماما كمصدر للتاريخ لأن بها بعض الحقائق، ولكنه في الوقت ذاته كان يرى تربويا رفض معظم الأساطير السائدة وقتذاك. مثل أستاذه سقراط. وأن معظم الذنب يقع على عاتق هوميروس وهيسيود لأنهما يسيئان تصوير طبيعة الآلهة والأبطال.⁽¹⁾

رأي أرسطو: يرفع أرسطو من مكانة الشعر مقارنة بالتاريخ، فيعتبره أكثر حكمة ورزانة لأنه ينحو إلى تقديم الحقيقة الصرفة، حتى وإن كانت حملته أسطورية، في حين يسعى التاريخ لأن يمدنا بوقائع معينة وحقائق فعلية.

ومن هذا المنظور الأرسطي الذي يعطي الأفضلية للعلوم والآداب التي تعنى بالكليات أكثر من اهتمامها بالجزئيات والخصوصيات . ومن هنا جاء تمييزه للشعر والفلسفة على حساب التاريخ . تجده يعتبر الفكر الأسطوري أكثر أهمية من التاريخ بنفس المنطق والقياس السابق . فالأسطورة عنده قريبة في نسيجها الفكري من الفلسفة . لأن الأسطورة . كالفلسفة . تولد من رحم الإثارة الناجمة عن الدهشة، ومن هذا المنطلق فالأسطورة . في معالجتها الكلية العمومية . عنده أفضل من التاريخ ومن ذلك فهو يرى أن الأسطورة تقدم تفسيراتها وشروحاتها للعموميات في لغة شخصية (بحديثها عن شخوص وأبطال الأسطورة) وبهذا تجمع الأسطورة بين النظرة العامة الكلية والخصوصية الجزئية . من هنا فإن الأسطورة تقع في موقع وسط بين الفلسفة والتاريخ الذي يأتي عند أرسطو في نهاية هذا الترتيب.⁽²⁾

الأسطورة القصيدة:

¹ - محمد عبد الغني محمد السيد: بعض ملامح الفكر اليوناني القديم، المكتبة الجامعية، المكتب الجامعي الحديث. الإسكندرية، 1999، ص 41.

² - السابق، ص 43.

حين نظرنا إلى بعض المفاهيم الاصطلاحية للأسطورة من خلال بعض المعاجم الأدبية العربية أو غيرها من اللغات، اكتشفنا الاشتراك في القول بأنها تمتُّ إلى النوع السردى بصلة، وهذا ما نجده لدى معظم مؤرخي الأدب ونقاده ومنظريه، فهي "بمعنى أوسع، تعني أية قصة مؤلفة تتحدث عن المنشأ والمصير"⁽¹⁾ إلى جانب ذلك نجد الربط الوثيق بينها وبين الشعر، وهذا منذ الفلاسفة الإغريق الأوائل، وهكذا يمكننا طرح السؤال عن مدى اعتبار النص الأسطوري قصيدة شعرية؟

"لقد كانت اللغة أول أشكال الترميز الموضوعي التي ابتكرها الإنسان... كما اكتشف مقدرته الكبيرة على التعامل مع الكلمات واستخدامها في مجالات غير مباشرة وغير نفعية وهذا ما قاده إلى إنتاج الشعر والأسطورة؛ أقنومان في نظام رمزي واحد، عمل من خلاله على تحويل وموضعة تجربته الانفعالية مع الكون والنفس الداخلية. والإنسان في ترميزه الأسطوري لهذه التجربة، لا يلجأ إلى التحليل والتعليل الخطير المنظم، بل إلى إنتاج بنية أدبية تحاول من خلال تمثيلها وصورها الحركية إعادة إنتاج العالم على مستوى الرمز. وذلك في وحدات أدبية رمزية تعمل على إختزاله وتقديمه مجدداً إلى الوعي"⁽²⁾

إن لغة النص الأسطوري ليست لغة عادية مستهلكة للعامة والسوقة في محيط الحياة اليومية وانشغالاتها البسيطة الرتيبة. بل أنتج النص وفق لغة خاصة مليئة بالرمز والإيحاء تحاول قراءة الوجود والكون بنظام لغوي راق ومتميز هو أقرب إلى الشعر وفيضه وسحره، بل إن انسحاب الأسطورة بموضوعاتها من هذا الكيان ترك الوليد الجديد الفطيم "قالشعر هو السليل المباشر للأسطورة. وابنها الشرعي، وقد شق لنفسه طريقاً مستقلاً بعد أن أتقن عن الأسطورة ذلك التناوب

¹ - ويليك، رينيه، أوستن وارين: نظرية الأدب، تر/ محي الدين صبحي، الدار العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2/ 1981، ص 198.

² - السواح، فراس: الأسطورة والمعنى، ص 20.

بين التصريح والتلميح، بين الدلالة والإشارة، بين المقولة والشطحة".⁽¹⁾ فالانفصام لم يكن بترا أو عقوقا، بل حافظ على أواصر القربى وصلة الرحم حيث مازال الشعر والأسطورة يتبادلان المنافع والمصالح.

هناك شبه إجماع على أن النص الأسطوري هو نص شعري، وإن كان يحتكم إلى التقاليد الدينية والسنن العقائدية، وعلى هذا الأساس، لوحظ أن الإنسان القديم قد أنتج هذه النصوص المشبعة بالفكر الأسطوري الديني، بلغة وصور وأخيلة شعرية حتى باتت "الأسطورة لدى العديد من الكتاب هي العامل المشترك بين الشعر والديانة"⁽²⁾ فالكثير من الدراسات التي أنجزت عن مصادر ودلائل النص الأسطوري، والنص الديني، والنص الشعري القديم، لاحظت هذه الخاصية، إذ أن أي بحث في واحد من هذه النصوص يؤدي إلى اكتشاف هذا الإشتراك. وفي الوقت نفسه كانت "الأسطورة الدينية هي مصدر المجاز الشعري على نطاق واسع"⁽³⁾ فحدث هذا التبادل والتحاور والامتصاص، فلم يعد هناك فرق بين ما هو نص ديني وما هو نص شعري، خاصة وأن الصور والمجازات الأسطورية هي عملة من النصين في ذات الوقت بيد أن الشعر قد يعتمد على بعض الموضوعات الأسطورية لغاية فنية جمالية محضة بينما تتفوق هي باعتبارها "ضرب من الشعر يسمو على الشعر باعلانه عن حقيقة ما..."⁽⁴⁾ حيث أن البحوث التي أجريت على مختلف أساطير العالم أفرزت مدارس وتيارات ونظريات عديدة ومختلفة تشرح وتحلل وتنتقد الظاهرة الأسطورية باعتبارها مخزونا ثقافيا يخفي أسراراً لا بد وأن يبوح بها، وهكذا "يمكن القول بأن الخيال الأدبي للإنسان القديم

¹ - نفسه. ص 22.

² - رينيه ويليك، أوستن وارين: نظرية الأدب، ص 200.

³ - نفسه.

⁴ - فرانكفورت، هنري وآخرون: ما قبل الفلسفة "الإنسان في مغامراته الفكرية الأولى، تر/ابراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2/ 1980، ص 19

هو الذي ساهم في إنشاء وتأليف الأسطورة، ولكن الحقيقة هي اللبنة الأولى والأساس الذي تقوم عليه، فالأسطورة هي حكاية مقدسة يؤمن أهل الثقافة التي أنتجتها بصدق روايتها إيماناً لا يتزعزع، ويرون في مضمونها رسالة سرمدية موجهة لبني البشر، فهي تبين عن حقائق خالدة وتؤسس لصلة دائمة بين العالم الدنيوي والعوالم القدسية"⁽¹⁾

وتبقى التعاريف المعجمية اللغوية والمصطلحاتية ناقصة غير تامة ولا تفي المعرفة حقها، بالنسبة لمن يريد الإقتراب أكثر من هذه المفاهيم لهذا وجب علينا الاستمرار في التنقيب عنها في معظم مجالات التخصص والميادين المتقاطعة معها، حيث نجد للأسطورة باحثين متخصصين ألحوا في طلب معناها، وجدوا في اقتفاء آثارها، وسبروا أغوارها كل حسب مساحة اشتغالها وانشغاله.

خلاصة:

إن ما يمكن استخلاصه بعد عرض كلّ هذه المفاهيم واستنتاجها سواء في اللغة العربية أو غيرها هو أن الأسطورة:

1. كلام، نص، كتابة، خط.
2. عقيدة (دين)، مقدس.
3. قص، سرد، حكي، رواية، تأليف، تنميق الأقاويل.
4. خيال، خرافة، أباطيل، أكاذيب.
5. شعر، قصيدة، أدب.
6. تاريخ.

¹ - السواح، فراس: الأسطورة والمعنى، ص 15.

وكل هذه التعاريف تتقاطع في عنصري النص والسرد، وبالتالي يمكن الإستنتاج بأن الأسطورة (أدب)، أو هي نص أدبي بالدرجة الأولى ثم هي نص ديني، ثم تفتح باب التعليل والتفسير لتصير طبيعية أو تاريخية... بتعبير آخر هي نص أدبي في شكلها ولغتها التي يقدم بها المعنى الديني الذي تحمله وتكلف بإبلاغه عن طريق التعليل والتفسير للظواهر الطبيعية ونواميسها.

II- مفهوم الملحمة:

II - 1 - لغة: إن هذه الكلمة مثل الكلمة السابقة (أسطورة) هي في عداد المصطلح الأدبي الذي له مقابل في اللغة الأجنبية، لذلك يستوجب علينا المقام البحث عنه في لغة ثانية بعد اللغة العربية ومحاولة المقاربة بينهما . والنظر إن كان لهما مفهوم واحد متطابق.

II - 1 - أ - في معاجم اللغة العربية:

جاء في لسان العرب:

"لَحِمَ الرجل فهو لحيم، وألحم: قُتل. وفي حديث أسامة: أنه لَحَمَ رجلا من العدو، أي قتله...

واستلحم: روهق في القتال. واستلحم الرجل إذا استوحشه العدو في القتال والملحم: الذي أسر وظفر به أعداؤه...

والملحمة: الواقعة العظيمة القتل؛ وقيل موضع القتال. وألحمت القوم إذا قتلتهم حتى صاروا لحما. وألحم الرجل إلحاما واستلحم استلحاما إذا نشب في الحرب لم يجد مخلصا. وألحمه غيره فيها... وفي الحديث: اليوم يوم الملحمة، وفي حديث آخر: يجمعون للملحمة؛ وهي الحرب وموضع القتال، وجمع الملاحم مأخوذ من اشتباك الناس واختلاطهم فيها كاشتباك لحم الثوب بالسدى؛ وقيل هو من اللحم لكثرة لحوم القتلى فيها؛ وألحمت الحرب فالتحمت.

والملحمة: القتال في الفتنة... قال ابن يري: شاهد الملحمة قول الشاعر:

بملحمة لا يستقبل غرائبها دفيناً ويمشي الذئب فيها مع النسر.

والملحمة: الحرب ذات القتل الشديد. والملحمة الواقعة العظيمة في الفتنة وفي قولهم نبي الملحمة قولان: أحدهما نبي القتال... والثاني نبي الصلاح.⁽¹⁾

يستعرض المعجم الوسيط مادة (لحم): ومن معانيه: نشب، ضربه فأصاب لحمه، قرب منه حتى لزنق به. وألحم الثوب نسجه، التحم الجرح: التأم. و. الحرب: اشتدت، ويقال التَّحَمَّ الجيشان: اشتبكا واختلطاً. استُلْحِمَ فلان: أحاط به العدو في القتال.

(اللَّحْمَة): القطعة من اللحم. و. ما يُطَعَّمه البازي مما يصيده. و. في الثوب: خيوط النسج العرضية يلحم بها السدى.

(الملحمة): الحرب الشديدة وموضعها. وعمل قصصي له قواعد وأصول، يشاد فيه بذكر الأبطال والملوك وآلهة الوثنيين، ويقوم على الخوارق والأساطير. وقد يكون شعراً كالإلياذة عند الإغريق، والشاهنامة عند الفرس، وقد يكون نثراً كسيرة عنترة. (ج) ملاحم.⁽²⁾

وهو ما نجده في المنجد في اللغة والأعلام.⁽³⁾

¹ - ابن منظور: لسان العرب، ج5، دار المعارف، القاهرة، دبت، مادة لحم، ص 4011.

² - أنيس، إبراهيم وآخرون: المعجم الوسيط، ج2، ص 819.

³ - المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت، ط43/ 2008، ص 716.

نلاحظ أن المعاجم اللغوية الجديدة قد بدأت تستعرض المعنى الاصطلاحي لبعض الكلمات التي صارت لها مفاهيم اصطلاحية حديثة، إلا أنها تبقى ناقصة غير واضحة في علاقة المفهومين ببعضهما.

II - 1 - ب - في معاجم اللغة الأجنبية: ظهر مصطلح *èppopée* و *Epic* من اللفظ الإغريقي "epopoia" المركب من معنى: القول/ الكلام/ الحكى والفعل: صنع/ عمل/ نظم/ أنشأ.

ويعني إذن هذا الأصل اليوناني القول الذي يروي ويحكي وعمل الشاعر الذي ينظم ويؤلف هذا القول.⁽¹⁾

II - 2 - الملحمة (إصطلاحاً):

مثلاً هو حال الكلمة السابقة التي عالجنا وضعها اللغوي ثم الإصطلاحي يتحتم علينا هنا أيضاً أن نلج إلى بعض المعاجم الأدبية للنظر في مفهوم (الملحمة) وعلاقته بسابقه:

II - 2 - أ - في معجم المصطلحات الأدبية العربية:

جاء في أحد معاجم المصطلحات إنّ "الملحمة epic : 1) قصيدة قصصية طويلة موضوعها البطولة وأسلوبها سام. 2) ذلك النوع من القصائد الطويلة الذي يهدف إلى تمجيد مُثُلٍ جماعية عظيمة (دينية أو وطنية أو إنسانية) بسرّ مآثر بطل حقيقي أو أسطوري تتجسد فيه هذه المُثُل. ويخضع هذا النوع من القصائد عادة لبعض الموضوعات المستمدة من ملحمتي هوميروس Homeros المعروفتين، كإعلان الشاعر في مستهل القصيدة لموضوعها، وابتهاالاته لربة الشعر، وبدئه القصة من وسط أحداثها، وتدخل الآلهة في شؤون البشر، والتشبيهات الطويلة المعقدة والقوائم

¹ - الشرقاوي، عبد الكبير: شعرية الترجمة، الملحمة اليونانية في الأدب العربي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1/ 2007، ص 101.

الطويلة لأسماء الأبطال ولأسماء أشياء هامة لحياة الأبطال كالأسلحة والسفن وما إلى ذلك، وزيارة العالم السفلي، وخطب التفاخر، وخطب الإثارة للمعارك أو المبارزات البطولية. كل هذا ينطبق على الملحمة الأدبية.

أما الملحمة الشعبية فواضح فيها النقل مشافهة والتكرار وتجروء السرد. الأمر الذي يدل على أنها لم تكن نتاج زمن واحد، أو قريحة واحدة، ويمكن اعتبار سيرة (أبو زيد الهلالي) أقرب ما عند العرب إلى هذا النوع.⁽¹⁾

إن هذا التعريف حاول أن يقدم مفهوما حصريا واضحا ومركزا ويبلغ هدف الفهم والتوضيح، معتقدا الأنموذج الهومييري وغيره من الملاحم الغربية، ولكنه لم يشر إلى العلاقة المحتملة والافتراضية بين المعنيين اللغوي العربي والاصطلاحي وكذا ترجمته Epic حيث كان يجب عليه أن يشير إلى أصل الاشتقاق وأصل المعنى ليتضح التعريف ويكتمل.

حيث يتوفر هذا في المعجم الأدبي باللغة الأجنبية المترجم إلى العربية والذي جاء فيه:

II - 2 - ب - في معجم المصطلحات الأدبية الأجنبية (الغربية):

"الملحمة EPOPEE: واحد من أكثر الأنواع الأدبية حظوة في التراث الكلاسيكي: تتألف بحسب القواعد التي صاغها أرسطو في الشعرية، من حكاية "بانشاء رفيع" لأمجاد البطل "أمراء وآلهة" وخاصة الإنتصارات الحربية، كما تتضمن تدخل قوى فوطبيعية، إذن الخارق، تبدل المعنى، كما

¹ - وهبة مجدي وكامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ص 384، 383.

تغيرت هوية النوع خلال القرن الثامن عشر عندما جعلت منه نظريات ما قبل الرومانطيقية القصيدة التي تخص حضارة أو أمة بدائية".⁽¹⁾

إنّ الـ (EPOPEE) حسب هذا المعجم جنس أدبي عريق عرف منذ أرسطو طاليس (القرن الرابع قبل الميلاد)، الذي صاغ قواعده في (فن الشعر) انطلاقاً من قراءة هوميروس (القرن الثامن قبل الميلاد).

"... في اليونان القديمة تعني (EPOS) بشكل عام كل ما يقال بوساطة الكلام، وبشكل خاص الكلام بحد ذاته، الخطاب. وبهذا المعنى استخدمها هوميروس. وصف هيرودوت* هذا الكاتب بأنه (إيبوبويا EPOPOUA) (hist.2/116) مما يجعله من بين (Les epopouos) أي الشعراء الذين تحدثوا عن أحداث طروادة والذين لا يمكن الركون إليهم في الواقع (hist.2/120). تتناقض مؤلفاتهم مع التاريخ ("الشاهد histori")⁽²⁾ إن هوميروس الذي نسبت إليه أولى ملاحم الغرب القديم كان قد استعمل هذا اللفظ لغويا، مثلما كان قد استعمل لفظ الـ (ميثوس) أيضا.

ظروف ظهور الملاحم:

ظهرت الملاحم القديمة بظهور نظام الحكم المطلق الذي يعرف بنظام الأوتوقراطي⁽³⁾، حيث أن أمما وجماعات استقرت في مساحات محاذية للمساحات المائية الكبرى، التي تساعد على انتاج الغلال الكثيرة، وتمكن من الادخار الوفير، وصنع الثروة، التي يستولي عليها أصحاب السلطة فيحققون

¹ - آرون بول، وآخرون: معجم المصطلحات الأدبية، ص 1102.

*هيرودوت: (484-425 ق.م) مؤرخ ورحالة يوناني، زار العالم المعروف آنذاك لا سيما العراق وفينيقيا ومصر. له (تاريخ) هو من أهم المراجع لمعرفة أخبار الأمم القديمة وأساطيرها.

² - السابق، ص 1103.

³ - الأوتوقراطية: هي شكل من أشكال الحكم تكون فيه السلطة السياسية بيد شخص واحد، بالتعيين لا بالانتخاب.

الغنى إلى جانب المجد، وتنتقل السلطة، من رعاة القبيلة الميسورين، الذين لا يزيد غناهم عن غنى رعيتهم، إلى الملك وحاشيته المعدودة، فيصنعون طبقة ولمحكومهم طبقة أخرى "فيلجأ الرجال الذين وهبوا ملكات متميزة إلى التغني بالترانيم، والشعر القصصي، يشيدون فيه بمجد الملوك والقادة، ومجد الآلهة والأبطال الذين بنوا صرح الأوتقراطية ومعنى هذا أن أدب الأوتقراطية، المتمثل في الترانيم والملاحم . ليس إلا مجرد ظاهرة اجتماعية أنتجتها الظروف المادية".⁽¹⁾

في العصر الأوتقراطي لا يعتمد على وحدة الدم، ورابطة النسب، لتكوين المجتمعات، بل يكفي استحواذ الملك على البلدة الأصلية، وجيرانها، عن طريق القوة والسلاح، أو بالألأعيب السياسية، وفي مقابل الدخول تحت ولائه يعرض الملك الحماية، "وإذ تتنوع حاجات الناس، وتتعدد مطالبهم، تتعدد كذلك أشكال الأدب... ثم إن تغير الوسيلة التي يقيد بها الأدب . من المشافهة والرواية إلى التقييد بالكتابة . يدفع الأدب في سيرته إلى الأمام، فالكتابة هي التي ستنتشل الأدب الأوتقراطي، والأدب الديمقراطي من بعده، من أصوله البدائية إلى مكان أسمى ومنزلة أرفع".⁽²⁾

واليونان كغيرها من الأمم المتمدنة التي أدركها العصر الأوتقراطي، عرفت التمثيل الذي يدور حول الأفكار الدينية، والقصص الأسطورية التي فاضت بها روحهم الأدبية . أكثر مما فعلت في العصور القبلية . حيث ظهر الشاعر الكبير "هوميروس"، ليكون شاهدا على الأعياد المقدسة التي تقام فيها مهرجانات التمثيل، والرقص، والغناء "كما نرى الشعر يتطور في هذا العصر الأوتقراطي، سواء في ذلك الشعر الغنائي الذي يعبر عن العواطف أو الشعر القصصي، كشعر الملاحم،

¹ - أمين أحمد، وزكي نجيب محمود: قصة الأدب في العالم، الجزء الأول: في الأدب القديم وأدب العصور الوسطى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1955، ص 13 وينظر أيضا إلى الآداب الأوربية: فواد مرعي، عالم الأدب للترجمة والنشر. بيروت، ط1/2016. ص 23، 24، 25.

² - السابق، ص 14.

فأغاني الحروب، والزواج، ترقى في أسلوبها"⁽¹⁾ وتبلغ ذروتها، مفرزة أروع النصوص التي عرفها تاريخ الأدب القديم.

وكل هذا يعود سببه إلى سياسة الأوتقراطي، حيث السلطة مطلقة، والتملك تام، والثروة وافرة... إذ أن معظم شعوب هذا العصر تعيش هذا الظرف، فتعتقد أن الملك يتلقى الدعم من المعبود، وليس من شعبه، فيتبنى هذه العقيدة التي تصير مادة "الأساطير الدينية، والخرافات والتهاول، ويصبح هذا الحاكم المتصل بالآلهة والأبطال الماضين رمزا تنسج أقاصيص التقديس والتبجيل، وعلى الأخص حين يكون هذا الملك بطلا في فنون الحرب بصيرا بأساليب القتال، ومن هنا ينشأ شعر القصص أو شعر الملاحم".⁽²⁾

ليس للملحمة في فن الشعر لأرسطو طاليس "سوى وظيفة النوع المقارن الشارح لخصائص تفوق النوع الأول الذي استبد بتحليلات الفيلسوف وإعجابه كذلك"⁽³⁾ فهو يستهل حديثه عنها بنسبتها إلى النوع المحاكاتي، يقول: "أما المحاكاة قصصا وشعرا فيجب فيها كما يجب في المآسي"⁽⁴⁾ إذ أنها تعتمد طريقة القص وسرد الأحداث بأداة التعلم وموضوعها محاكاة الأفاضل من الناس، ثم إنه يجب فيها: "أن تؤلف الخرافة بحيث تكون درامية وتدور حول فعل واحد تام كله، له بداية ووسط ونهاية لأنه إذا كان واحدا تاما كالكائن الحي أنتج اللذة الخاصة به، وهذا بين، وينبغي في التأليفات ألا تكون مشابهة للقصص التاريخية التي لا يراعى فيها فعل واحد، بل زمان واحد"⁽⁵⁾ فلا بد أن

1 - نفسه.

2 - السابق، ص 18.

3 - الشرقاوي، عبد الكبير: شعرية الترجمة، ص 171.

4 - أرسطوطاليس: فن الشعر، مع الترجمة العربية القديمة وشروح الفارابي وابن سينا وابن رشد، تر/ عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت، د. ت. ص 64.

5 - السابق، ص 64، 65.

تختلف رواية الملحمة عن رواية التاريخ باعتبار وحدة الفعل في الأولى، أو أنها تحكي حدثاً واحداً مكتملاً من حيث البدء والإنهاء دون الإلمام بجميع ما حدث في نفس الزمن، أو بجميع ما حدث لنفس البطل، فهذا من اختصاص القص التاريخي الذي يحاول أن يتقصى أكبر قدر ممكن من الوقائع لعين الزمن أو عين الشخص ليتحقق له الإكتمال والتوثيق بينما السرد الملحمي غير مطالب بذلك "بيد أن معظم الشعراء يرتكبون هذه الغلطة"⁽¹⁾ إلا الفحول منهم والعباقرة أمثال هوميروس الذي يعرف كيف يعالج الحدث الملحمي في شعره، فلم يقص علينا ما جرى زمن حرب إليون ضد الإغريق رغم أن الواقعة كان لها بداية ونهاية. فهوميروس سيد الشعراء "لم يتناول غير جزء محدد من تلك الحرب ثم عالج كثيراً من الوقائع الأخرى على أنها دخائل (أحداث عارضة)"⁽²⁾ فأحياناً نتوهم نظراً لطول نصي "الإلياذة" و"الأوديسة" وتشابك الأحداث فيهما أنهما معقدتان وعسيران على الإدراك ولكن بالقراءة المتأنية الدقيقة والكاملة ننتهي عندها إلى تحديد الموضوع الواضح الواحد لكل منهما وكل ذلك في إيجاز واختصار. وقد يكون هذا هو سر إعجاب سيد الفلاسفة بسيد الشعراء، حيث خصه بالفصل الخامس والعشرين كاملاً ليقف مناصراً لشعره داحضاً حجج النقاد محاولاً إيجاد لكل هنة أو هفوة حلاً وعذراً، حتى وإن كان في المقال يقدم نظرية كاملة للتراجيديا على حساب الفن الملحمي الهوميروى إلا أنه ينتصر بشكل أو بآخر للملحمة فلا يبخسها شيئاً من حقها فهي "قد سايرت المأساة بوصفها محاكاة . بواسطة الوزن . الأفاضل من الناس، ولكنها تختلف عنها في كونها تستخدم وزناً واحداً وفي كونها حكاية* ويفترقان كذلك في الطول فأحدهما (المأساة) تنحو

¹ - السابق، ص 65.

² - نفسه.

*نفهم من تحليلات الكتاب بأكمله أن أولوية الحكاية مطلقة وأنها هي عمود التأليف ووفقاً لما كرره أرسطو عن تركيب الأفعال في التراجيديا. فإذا كانت الحكاية هي روح التراجيديا... فيمكننا استخلاص أن الحكم نفسه يصدق على الملحمة وأن الشاعر الملحمي هو صانع حكايات قبل أن يكون صانع أوزان، لأنه شاعر بسبب المحاكاة وأن ما يحاكيه هو الأفعال) عبد الكبير الشرقاوي: شعرية الترجمة ص 175.

إلى حصر نفسها قدر المستطاع، في زمان مقداره دورة واحدة للشمس، أو لا تتجاوزه إلا قليلا، بينما الملحمة لا تحد بزمان، ففي ذلك يفترقان أيضا، وإن كان الشعراء في البدء لم يتقيدوا بزمان لا في المأساة ولا في الملحمة.

والعناصر الداخلة في تركيب كليهما، بعضها مشتركة، وبعضها خاصة بالمأساة، ولهذا فمن يحسن تمييز المأساة الجيدة من المأساة الرديئة، يحسن أيضا هذا التمييز بالنسبة إلى الملحمة لأن العناصر التي تتضمنها الملحمة موجودة في المأساة، بينما عناصر المأساة لا توجد في الملحمة⁽¹⁾

أركان الملحمة:

لقد كان (أرسطو طاليس) في مقاله (فن الشعر) أول من تحدث عن أجزاء الملحمة، وقوانينها وأركانها وملامحها بشيء من الوضوح والدقة والإلمام، ولم يزد المتأخرون والدارسون الآخرون لها شيئا يذكر، لأن الملحمة اعتمدت النموذج الهومييري الذي اعتمده (أرسطو) ولم يحاول أحد فيما تلا أن يتكرر لهذا المثال إبداعا أو تنظيرا.

لم تكن ملحمتا (هوميروس) قالباً جامداً يملأ ويفرغ، بل كانتا عالماً جديداً حياً ينبض بروح الإنسان والكائنات ويعبق بعطر اللغة الشعرية وأساليبها ويلد الحكاية الأسرة، كما كانتا منظارا إلى أعماق النفس البشرية وغياهب الدنيا ومنعرجات الزمن.

وإذ جمعنا كل آراء (أرسطو) في فن الملحمة المبنوثة عبر فصول المقال يمكن الوقوف بعناية على العناصر الرئيسية المركبة لمفهومها انطلاقاً من كونها نوعاً شعرياً محاكاتياً*.

¹ - أرسطوطاليس: فن الشعر، تر/عبد الرحمن بدوي، ص 18 (الفصل الخامس في الهزلي والكوميديا والفرق بينهما وبين التراجيديا).

*اعتمدت هنا العناصر الرئيسية التي استخلصها عبد الكبير الشرقاوي في شعرية الترجمة (مرجع سابق).

1- محاكاة الأفاضل: لا يقدم أرسطو صورة دقيقة ومباشرة للبطل الملحمي أو الشخصية الملحمية، بيد أنه أعطى صورة واضحة وجلية للبطل التراجيدي حيث سعى إلى رسم ملامحه بكل عناية واهتمام، خاصة في الفصلين 13 و 15 عند حديثه عن الأخلاق إذ يقصد بها الشخصيات. ومن خلال ذلك نلتقط له بعض التشبيهات التي يعتمد فيها على النص الملحمي الإلياذة تارة والأوديسة تارة أخرى. وقد يتأتى لنا أن نسحب تنظيره عن الشخصية التراجيدية على الشخصية الملحمية معتمدين على قوله بأن: "الملحمة قد سايرت المأساة بوصفها محاكاة . بواسطة الوزن . للأفاضل من الناس"⁽¹⁾ وبالتالي تكون الملحمة قد حاكت شخصيات امتازت بشيء من الفضيلة. وكانت على قدر من النبل والأخلاق ورفعة المنزلة بين أهلها. إذ لا يصلح للبطولة الملحمية أيا كان. وفي الفصل 15 تفصيل دقيق عن صورة البطل التراجيدي المعني بالهمارتيا (الخطأ)، ثم التطهير.

2- صيغة السرد: ولأن الملحمة نص شعري محاكاتي فهذا يعني أنها نص قصصي يسرد مجموعة أفعال مثل المأساة "ولكنها تختلف عنها في كونها تستخدم وزنا واحدا وفي كونها حكاية"⁽²⁾ وهذه الحكاية تختلف أيضا عن السرد التاريخي الوقائعي، فأرسطو فصل بين الشعر بوصفه تمثيل المثل الأعلى وبين التاريخ بوصفه تصوير الأحداث الواقعة، لأن الشعر يمثل ارتباطا ضروريا ومحتملا بين الأفعال، لا يكفي لتحقيقه تصوير الواقع وحده... وعالم الشعر وإن كان مخالفا لعالم الواقع، أقدر على إدراك أسرار القلب الإنساني لأنه يحسن استنباط المنطق من الأفعال الإنسانية والانفعالات. فكل من الشاعر والمؤرخ يروي أحداثا إلا "أن مهمة الشاعر الحقيقية ليست في رواية الأمور كما وقعت فعلا، بل رواية ما يقع. والأشياء الممكنة: إما بحسب الاحتمال أو بحسب

¹ - السابق، ص 17.

² - نفسه.

الضرورة⁽¹⁾ ثم إنه كان بالإمكان الفهم من خلال "تحليلات الكتاب بأكمله أن أولوية الحكاية هي "روح" التراجيديا فيمكننا استخلاص أن الحكم نفسه يصدق على الملحمة، وأن الشاعر الملحمي هو صانع حكايات قبل أن يكون صانع أوزان، لأنه شاعر بسبب المحاكاة وأن ما يحاكيه هو الأفعال⁽²⁾.

3- الوسيلة الشعرية للملحمة: جاء في فن الشعر و"التجربة تدلنا أن الوزن البطولي هو أنسب الأوزان للملاحم، ولو أن امرءاً استخدم في المحاكاة القصصية وزناً آخر أو عدة أوزان لبدت نافرة، لأن الوزن البطولي هو الأرزن والأوسع، ولهذا يتلاءم مع الكلمات الغريبات والمجازات كل التلاؤم، إذ في هذه المسألة تفوق المحاكاة القصصية غيرها... ولهذا لم يضع شاعر تأليفاً واسعاً في بحر آخر غير البحر البطولي"⁽³⁾ وبالجزم من خلال أرسطو أن الملحمة نص شعري أولاً وقبل كل شيء فهذا يستوجب لونا إيقاعياً خاصاً بها وقد أوحى الطبيعة والعبقرية لشعراء الملاحم وعلى رأسهم (هوميروس) وزناً ملحمياً خاصاً ولأنها نص لحمة واحدة بفعل تام.

استوجب هذا أن يكون الوزن موحداً يلتزمه الشاعر منذ البداية حتى النهاية في النص الواحد وفي سائر النصوص الملحمية الأخرى، إنه البحر البطولي.

4- الوسيلة الأسلوبية واللسانية للملحمة: يقول أرسطو "... وهو مبروس بخاصة هو الذي علم سائر الشعراء فن الإحتيالات المتقنة الصنع، أعني المغالطة... وينبغي أن نفضل المستحيل المحتمل على الممكن الذي لا يقبل التصديق، وينبغي ألا تتألف الموضوعات من أجزاء لا معقولة:

¹ - نفسه، ص 26.

² - الشرقاوي، عبد الكبير: شعرية الترجمة، ص 175.

³ - أرسطو طاليس: فن الشعر، ص 68.

بل بالعكس لا يمكن أن يكون فيها أمر لا معقول" (1) فحتى الثقل الأسطوري الذي تتن تحت سنايكة الملاحم القديمة، لا يجعل منها نصوصا غير معقولة، أو غير قابلة للتصديق، بل تلعب على وتر المستحيل المحتمل.

"أما المقولة (اللغة) فإن أريد التأنيق في صناعتها فينبغي أن يكون ذلك في الأجزاء الخالية من الفعل وفيما لا يتضمن خلقا ولا فكرا، لأن الإسراف في التتميق يخفي الأخلاق والأفكار" (2) فالعبرة من نظم الملاحم هي التركيز على أخلاق الشعوب، وسير الأمم، من خلال سُنَّة بطلها ودوره، فلا يحسن بالشاعر التهافت على حدائق الصنعة وجنائن التزييق والتتميق، وإنما (كما كان هوميروس شاعرا فحلا من النوع العالي من الشعر . لأنه لم يبرع فقط في فخامة الديباجة الشعرية، بل وأيضا في جعل محاكياته ذات طابع درامي" (3) إذ يبقى الإقتداء به وبسنته في الفن الملحمي، هو المنهج الأمثل.

5- وحدة الفعل: وهي التي تحصر الموضوع وتحدده في إيجاز ويسر وبساطة، وأما ما يزيد عن ذلك فهو الدخائل "التي تعطي للملحمة سعتها" (4) فطول الملحمة وامتدادها لا يعني تعدد الأفعال وكثرتها، بل إنها تدور حول فعل واحد تام كله، له بداية ووسط ونهاية، لأنه إذا كان واحدا تاما كالكائن الحي أنتج اللذة الخاصة به". (5)

1 - السابق، ص 69.

2 - السابق، ص 71.

3 - السابق، ص 14.

4 - السابق، ص 50.

5 - السابق، ص 65.

لقد كان تحليل وتتنظير أرسطو لهذه الفكرة واضحاً تماماً وركز عليه بشدة في كثير من المواضع في المقال، سواء وهو يتحدث عن المأساة أم عن الملحمة أم تضمينا لهذه في تلك. فوحدة الفعل هي العمود الفقري للقصة (الأسطورة، الخرافة) وهي: "لا تنشأ كما يزعم البعض عن كون موضوعها شخصا واحداً لأن حياة الشخص الواحد تنطوي على ما لا حد له من الأحداث التي لا تكون وحدة... ولهذا يبدو أن جميع الشعراء الذين ألفوا هرقليات أو تيسوسييات... قد أخطأوا وضلوا، لأنهم حسبوا أن كون البطل شخصا واحداً، (هرقل) (مثلاً) يقضي بالضرورة أن تكون الخرافة واحدة. أما هوميروس وله في كل شيء المقام الأعلى، فقد أصاب شاكلة الصواب في هذه المسألة بفضل معرفته بأسرار الفن أو بفضل عبقريته: إذ أنه حينما ألف (أودوسيا) لم يرو جميع حوادث حياة أودوسيوس... إنما ألف أودوسيا بأن جعل مدار الفعل فيها حول شيء واحد وكذلك فعل في الإلياذة".⁽¹⁾

6- الإمتداد والطول: قال أرسطو "وفي مقابل هذا تختلف الملحمة عن المأساة في طول التأليف وفي الوزن أما عن الطول فإن الحد الذي بيناه عادل* وهو أن يكون من الميسور يستغرق النظر البداية والنهاية، ولبلوغ هذا الحد ينبغي في الملاحم أن يكون مقدارها أقل من الملاحم القديمة وأن تكون متساوية تقريباً لمجموع المآسي التي تقدم في حفلة واحدة، وللملحمة خاصية مهمة تسمح لها بالإتساع"⁽²⁾ حيث يرى أرسطو أن الملحمة يجب أن تكون ذات طول معين، قد يكون مساوياً لمجموع أطوال التراجيديات التي تعرض في عرض واحد، نحن نعلم أن الإغريق قد اعتادوا على عرض ثلاث تراجيديات ومسرحية ساتورية متتاليات في عرض واحد (حفلة واحدة)، وبالتالي فإن

¹ - السابق، ص 24، 25.

* في الفصل 7 (ص 22، 23، 24) حيث يتحدث عن الفعل ومداه في المأساة.

² - السابق، ص 67، 68.

طول الملحمة الذي يقترحه أرسطو يبلغ ثلث طول ملحمة الإلياذة، ويساوي طول ملحمة الأرجوناوتيكا تقريباً.⁽¹⁾

وقال أيضاً: "الملحمة لا تحد بزمان"⁽²⁾ حين قارنها بالمأساة التي تنحو إلى حصر نفسها قدر المستطاع في زمن مقداره دورة واحدة للشمس أو لا تتجاوزه إلا قليلاً"⁽³⁾ وهكذا يكون الزمن الذي قصده أرسطو هو زمن الفعل أي زمن الحدث داخل الحكاية وليس زمن العرض أو زمن الإنشاد والإلقاء، ولكن الاقتصاد في الأول يؤدي حتماً إلى الاقتصاد في الثاني والهدف دائماً هو تيسير الإلمام بالبداية والنهاية في نظرة واحدة شاملة.

7- الملحمة تتقبل اللامعقول والعجيب والمدهش: يشير الفيلسوف إلى أنه "ينبغي أن نستعين في المآسي بالأمور العجيبة، أما في الملحمة، فيمكن أن نذهب في هذا إلى حد الأمور غير المعقولة التي يصدر عنها خصوصاً العجب، لأننا في الملحمة لا نرى الأشخاص أمام أعيننا يتحركون"⁽⁴⁾ كما أنه أشار أيضاً إلى ضرورة الإعتماد على إثارة الروعة يعني بذلك كل ما هو خارق للطبيعة ويحدث على غير توقع، وقد استعمل قدماء الإغريق هذا النوع من الروعة في ملاحمهم ومآسيهم على السواء وهي نتيجة لتدخل الآلهة وأنصاف الآلهة في أمور البشر إما لدفع القصة إلى الأمام بطريقة مصطنعة وإما لحل حبكة تستعصي على الحل بطريقة أخرى.⁽⁵⁾

¹ - شعراوي عبد المعطي: النقد الأدبي عند الإغريق والرومان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1999، ص146.

² - أرسطو طاليس: فن الشعر، ص17.

³ - نفسه.

⁴ - السابق، ص 69.

⁵ - وهبة، مجدي وكامل المهندس: معجم المصطلحات في اللغة والأدب، ص 189.

8- حياد السارد "الموضوعية": يؤكد الفيلسوف على أنه "ومن بين المناقب التي تجعل هوميروس خليقا بالثناء أنه كان الوحيد من بين الشعراء الذي لا يجهل متى يتدخل بنفسه في القصيدة. فالحق أن الشاعر يجب ألا يتكلم بنفسه ما استطاع إلى ذلك سبيلا. لأنه لو فعل غير هذا لما كان محاكيا"⁽¹⁾

فالملمحة شعر قصصي يحاكي به الآخرون لهذا فهي تستوجب الموضوعية وعلى الشاعر أن يبقى بعيدا مسافات زمانية ومكانية من أشخاصه فلا يظهر نفسه أمامهم ولا يطغى صوته على أصواتهم ما أمكنه ذلك. وهذا حتى يبقى محافظا على خصوصية المحاكاة التي يتمتع بها النص الملحمي وعلى خصوصيته الموضوعية أيضا.

يرى الفيلسوف أن الملمحة بلغت غاية كمالها ونضجها في شعر هوميروس . ويؤكد أن هوميروس هو الشاعر الوحيد الذي كان يعلم . فطرة أو صناعة . ما كان ينبغي لتأليف ملمحة جيدة، ويبدو في ذلك مختلفا عن الشعراء الآخرين.

والخلاصة أنه من العسير تصور تطور لاحق للملمحة بعد هوميروس، فهو البداية والنهاية، نهاية لكمال النوع الملحمي، وبداية لنضج نوعي التراجيديا والكوميديا... ويورد أرسطو في كتابه قائمة واسعة من عناوين المسرحيات التراجيدية... ولكنه بالمقابل لا يورد سوى أربعة عناوين للمؤلفات الملحمية، اثنان منهما غامضان..."⁽²⁾

¹ - أرسطو طاليس: فن الشعر، ص 68، 69.

² - الشرقاوي، عبد الكبير: شعرية الترجمة، ص 172.

ويستعير أرسطو أجزاء التراجيديا التي كان قد ذكرها في الفصل السادس ليؤكد في الفصل الرابع والعشرين أنها نفسها التي تتألف منها الملحمة فيما عدا الغناء والمشهد (أو الإخراج) المسرحي وإذن فأجزاء الملحمة أربعة هي:

الحكاية أي ترتيب الأفعال، والأخلاق (أي الشخصيات) التي تقوم بالفعل أو يقع عليها الفعل، وتكون ناشئة عن تركيب الأفعال وترتيبها، والعبارة أو الأسلوب أو التعبير والفكر.

لقد عرف الأقدمون الملحمة منذ جلامش عند السومريين، ومنذ إلياذة هوميروس وأوديسيته عند الغرب حيث صنفوهما جنسا أدبيا منذ أفلاطون وأرسطو عند الحديث عن أنواع الشعر: الموسيقي والملحمي والدرامي.

أما العرب فلهم تراث ثقل (بداية من القرن الخامس للميلاد) تنوع وفق أجناس أدبية كثيرة وإن عدم القدرة على الجزم بإبداع شعراء العربية للفن الملحمي وفق النموذج الهومييري لا يلغي الحدس بوجود نظير له مثلما وجد النموذج الفارسي في ملحمة الشاهنامة⁽¹⁾ فقد أبدع العرب فيما اصطلح عليه بالسير الشعبية، والأيام (أيام العرب) والحماسة...

وإذا كانوا في الاستعمال الاصطلاحي لم يتداولوا لفظ (ملحمة) ولم يركنوا إلى جعله قرينا لـ الفرنسي Epic و épopée الانجليزي قبل سليمان البستاني، مراوحين بين الشعر الحماسي، الشعر القصصي، الشعر البطولي، الأشعار السردية، الأغاني، أنشودة المآثر، القصائد الشعرية...

بيد أنهم كانوا يستعملون الكلمة (ملحمة . ملاحم) بمدلولها المعجمي القديم المرتبط بالموضوع أو الثيمة المميزة لسياق النص؛ أي الحروب، والوقائع وميادين النزال، مثل:

¹ - لاحظ السمات الثيمائية التي يقوم عليها تعريف الملحمة التاريخية من نمط الشاهنامة، في المرجع السابق، ص

الطبري (ت310هـ / 923 م) الذي يوردها في تاريخه في الجزء المخصص لملوك فارس وسيرهم.

والبندياري (1190 . 1245) يعرب شاهنامه الفردوسي دون أن يذكر مصطلحا يصنفها به نوعيا

(جنسا أدبيا) بيد أنه يستعملها في معناها اللغوي.

وابن خلدون (1332- 1406) تكلم عما يمكن أن يتحدث به الكهنة أو المنجمون، أو الأولياء

مما يترقبونه من ملك أو دولة وما يمكن أن يحدث لهم من الحروب والملاحم.⁽¹⁾

وكان روعي الخالدي في كتابه "تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفكتور هيغو" أول من

عرض بدقة الملحمة وموقعها بين أجناس الأدب وسماها (الشعر الحماسي) ترجمة لما عرف بـ

(ايبويه عند الغرب) وبذلك فهو رواية الوقائع العجيبة الملفقة المشتملة على غرائب الشجاعة ونوادر

الفروسية القائمة على السرد التخيلي.⁽²⁾

بينما كان سليمان البستاني أول من اصطلح على تسمية هذا النوع من الشعر الحماسي السردى

التخيلي، بالملحمة، في مقدمته الإلياذة التي قام بترجمتها إلى العربية شعرا، مقدما بذلك عملا رائعا

(الإلياذة) بعمل رائع (الترجمة العربية الشعرية) وبمصطلح جديد ودقيق وقِيم سرعان ما تقشّى بين

المصطلحات الأدبية العربية، فقد "بحث العرب في أبواب الشعر وضروبه، وفنونه، ودعوها جميعا

بأسماء تنطبق عليها. ولكنه لم يتصل بنا أنهم وضعوا اسما لمنظومات الشعر القصصي من نظائر

الإلياذة، إلا أن يكون ذلك ما استحدثه أهل المغرب* وسماه بعضهم بالملاحم، وهو عندهم،

¹ - ابن خلدون، عبد الرحمن: المقدمة، (تاريخ العلامة ابن خلدون)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982، ص 588.

² - الشرقاوي، عبد الكبير: شعرية الترجمة، ص 76، 77، 78.

*- أهل المغرب: الإشارة إلى ابن خلدون في استعماله للفظ الملاحم في مقدمة تاريخه.

كالملاعب بالشعر بالعامي، ما تضمن من المنظوم أحوال أمة أو قوم وفصلت فيه وقائع الحروب والتاريخ، ولعلمهم أخذوا ذلك من التحام القتال، والملحمة في اللغة الوقعة العظيمة... ويقول العرب أيضاً: ألحم فلان الشعر وحاكه بمعنى نظمه، تشبيهاً لبيت الشعر ببيت الشعر وبالثوب المَحْكُوك، كأنهم يريدون الإشارة إلى تأليف أجزائه بإحكام اللحمة بينها، ومنه الملحمة لمختارات سبع من قصائدهم. ومهما يكن من النسبة المعنوية بين لفظ الملحمة والشعر القصصي فالنسبة بينه وبين الملاحم أظهر، ولهذا سميناً إلیاذة هوميروس وأشباهاها بالملاحم، تقادياً من استحداث لفظة لم يسبق لها استعمال بين الكتاب⁽¹⁾ وهكذا طغى استعمال هذا المصطلح، دون غيره، عند العرب مشرقاً ومغرباً، واستمرّ البحث* عن المدونة التي تنطبق عليه في تراثهم. كما انطلق التأليف وفق بعض نماذجه.

III - مفهوم الرحلة:

III - أ - الرحلة لغة:

III - أ - 1 - في معاجم اللغة العربية: إن كلمة رحلة عريقة في الاستعمال العربي وشهيرة وكثيرة التداول لما عرف عن العرب من كثرة الترحال والتنقل. فهي من الكلمات العديدة الإشتقاق، نظراً لما يحيط بها من معاني قريبة متداولة بشدة.

حيث جاء في معجم لسان العرب لابن منظور:

¹ البستاني سليمان: مقدمة الإلياذة (ج2)، درس ومنتخبات: فؤاد أفرام البستاني، دار المشرق، بيروت، ط4/ 1981، ص 106.

* - توصلت بحوث كثيرة إلى القول بأن فن السيرة هو فن ملحمي. مثل: محمد فخر الدين: البنية السريديّة والمتخيل في سيف بن ذي يزن، قراءة في الملحمة الأزلية العربية الخالدة، وفوزية الصفار الزاوق: جمالية السيرة الشعبية العربية... العربية...

يقال: رحل الرَّجُلُ إذا سارَ... ورجل رَحُولٌ، وقوم رُحَلٌ أي يترحلون كثيراً.

ورجل رَحَّالٌ: عالم بذلك مجيد له.

وناقة رحيلة أي شديدة قوية على السير - وكذلك جمل رحيلاً - وبعبير ذو رُحلة أي قوة على السير.

وارتحل البعير رحلةً: سار فمضى. ثم جرى ذلك في المنطق حتى قيل ارتحل القومُ عن المكان

ارتحالاً، ورحل عن المكان يَرْتَحِلُ. وهو راحل من قوم رُحَل: انتقل.

والترحل والارتحال: الانتقال: وهو الرَّحْلَةُ والرُّحْلَةُ. والرحلة: اسم للارتحال للمسير. يقال دَنَتْ رِحْلَتُنَا،

وَرَحَلَ فلان وارتحل وترحَّل بمعنى⁽¹⁾.

لقد أفاض المعجم في تقصي معنى اللفظة واشتقاقاتها الكثيرة جداً. وما حام حولها من معاني

تجري في فلكها. نظرا لتماشيها الشديد مع حياة العرب الذين عرفوا بالحركة. واستعمال الرواحل.

والتدقيق في التسمية والإصطلاح.

أما في المعجم الوسيط:

(رحل) عن المكان. رَحَلًا، وَرَحِيلًا، وَتَرَحَّالًا، وَرِحْلَةً: سار ومضى.

و. البعير، رَحَلًا، وَرِحْلَةً: جعل عليه الرَّحْلَ، فهو مرحولٌ، وَرَحِيلٌ.

... (ارتحل): رحل. (ترحل): رَحَلَ.

(الرَّاحِلَةُ): من الابل: الصالح للأسفار والأحمال.

(الرَّحَالَةُ): الكثير من الرحلة (والتاء للمبالغة)

¹ - ابن منظور: لسان العرب، الجزء 3، ص 1608 إلى 1611.

(الرحلة): الارتحال: (ج) رحلّ. وفي التنزيل العزيز: "رحلة الشتاء والصيف"

و . كتاب يصف فيه الرحالة ما رأى.⁽¹⁾

III - أ - 2 - في معاجم اللغة الأجنبية:

تترجم الكلمة العربية (رحلة) إلى الكلمة الفرنسية Voyage و "ظهرت Voyage بهذا الشكل سنة 1480 منحدرة من الكلمة اللاتينية viaticum بمعنى مستخدم الطريق.

وجاءت voyoge بمعنى المسافة التي تطوى

وفي 1080 خصصت للدلالة على الحج.

ثم ارتبطت بمفهوم الحروب الصليبية 1190.

أما في القرن الخامس عشر فقد أخذت معنى عاما هو انتقال الإنسان من مكان وزهايه إلى مكان آخر بعيد نوعا ما.

ثم عن طريق المجاز اللغوي، قالوا قصة رحلة وهم يقصدون voyage وبهذه الدلالة يعبرون عنها الان ب: كتاب، أو جريدة، أو قصة... للرحلة⁽²⁾ وهكذا نجد أن الكلمة المستعملة في اللغة الفرنسية (مثلا) للدلالة على مصطلح (أدب الرحلة) هي ذاتها المستعملة لغة في سياقات أخرى مختلفة ومتعددة.

III - ب - الرحلة اصطلاحا:

¹ - أنيس ابراهيم وآخرون: المعجم الوسيط، ص 334، 335.

² - Le rebert. Dictionnaire historique de la langue française. Sous le direction d'ALAIN REY. 2000. Paris. Tome 3. P : 4130.

ب- 1- في معاجم المصطلحات العربية:

إن الباحث في فن الرحلة لا يعثر على تعريف اصطلاحي موحد ودقيق له، وهذا عائد إلى أسباب كثيرة، ربما كان أقواها هو أن الفن الرحلي غني ومتنوع ومنفتح على ميادين معرفية وثقافية كثيرة وهامة. تسايه فتأخذ منه وتمنحه: "إن أدب الرحلة (travel literature) هو مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، ولتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد... ويعتبر أدب الرحلات . إلى جانب قيمته الترفيهية أو الأدبية أحيانا . مصدرا هاما للدراسات التاريخية المقارنة." (1)

والمتتبع لعموم أهداف الرحلة باختلاف أهلها ومصدرها سيرى أنها كانت من أجل تجارة أو كسب مادي أو للحصول المعرفي والأدبي، أو نقل الدين إلى شعوب أخرى، أو تبليغ شيء من المعرفة أو العلوم، وربما كانت من أجل السياحة والترفيه عن النفس، أو النظر في طبائع وأخلاق الأمم، أو تمثيل قومه في سفارة، (ويضاف إلى الأهداف السابقة طلب الاستشفاء، والأحكام بالنفي، والفرار من البلدان المنكوبة بالحروب أو بالأوبئة، وزيارة الأقرباء والأصدقاء، والتوسط في فض الخصومات وتصفية النزاعات، وللتشاور في القضايا المهمة". (2) بيد أن كل هذا، سيبقى رهين المدونة، التي سيخطها الرحالة مسجلا فيها ما مر به، وما وقف عليه وما لامس شغاف قلبه، فجعله مقيدا مكتوبا.

¹ - وهبة مجدي وكامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ص 17.

² - توما جان عبد الله: أدب الرحلة والرحالون العرب، المؤسسة الحديثة للكتاب. طرابلس/ لبنان، ط1/ 2014، ص 8.

فلقد أثبتت الكثير من البحوث والدراسات في علم التاريخ والآثار الجغرافية أن المدونة الرحلية شاهدة على اهتمام الانسان منذ أقدم عصوره بالرحلة وبتدوين انطباعاته عنها وذلك عبر النقوش والمنحوتات الصخرية قبل الوثائق والكتب...

فمثل رحلات الصيد وطقوس الزراعة وتقديم القرابين كانت هناك مخطوطات تتم عما قام به الإنسان منذ القدم من رحلات وتنقلات وسفر عبر البحر بخاصة مثل الفراعنة نحو الصومال وسواحل البحر الأحمر في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد. ثم الفينيقيين أسياد التجارة الذين غزوا مرافئ بلاد الروم وشواطئ أوروبا الغربية إلى بريطانيا وسواحل إفريقيا حتى الغرب. حيث كان (حنون)* بطل إحداها، وما أوتر من رحلة (عملقون) نحو سواحل أوروبا الغربية⁽¹⁾ ولأن العالم القديم كان محفوفاً بالماء، أكثر من انعزاله داخل القارات، فقد طغت الرحلة البحرية، وسادت على غيرها من الرحلات المأثورة. وقام الاغريق برحلات. طافوا بها في أقطار الأرض المعروفة في أيامهم وأنشأوا مستعمرات لهم في سواحل آسيا الصغرى أو إيطاليا وتركوا معلومات واسعة في وصف المناطق التي زاروها... كما اشتهر هيروdot الذي قام برحلة طويلة إلى مصر وبابل وبلاد فارس والفينيقيين وسواحل البحر الأسود مكتشفا خلالها طرقا كانت مجهولة. ومدونا معلوماته في تاريخه الكبير.⁽²⁾

*حنون: بحار قرطاجي، أول من طاف حول افريقية. بحرا نحو 500ق.م، ترك وصفا لرحلته، وصل إلينا باليونانية.

1 - السابق، ص 9.

2 - السابق، ص 10.

"وَحَلَفَ الرومانيون اليونان وأصبحوا سادة الدنيا بعدهم، وطافوا بدولتهم في إفريقية وآسية، وبلغوا الهند والشرق الأقصى وجزر الكناري وقد وصلتنا من أخبار رحلاتهم ما قصه مؤرخوهم في كتبهم ولاسيما (التعليقات) ليوليوس قيصر والعشريات (لطيّش ليوش*)⁽¹⁾

وهكذا صرنا نحتكم الى الكثير من الحفريات والنقوش والتي تشير وتؤرخ لما كان من رحيل وهجرة وحملات عسكرية أو توسعية أو تجارية أو فتوحات... فالكل تغنى بسياحته وسفرته ولكن هل أنتج هؤلاء جميعاً فناً رحلياً أو أدب رحلة؟

لقد جاء الإنسان إلى وجوده مدعواً إلى القراءة والعلم عبر الدفاتر والأقلام ثم بالنظر والتأمل وتسريح العين في ملكوت الله فقد قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ^ع ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ^ع إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾^٢

ومنذ رحلة (آدم) - عليه السلام - من السماوات العليا إلى أرض الكفاح والجهاد وهو لا ينفك يجري ويعود ويهاجر ويرحل بحثاً عن شيء ما، لنفسه أو للآخرين؛ وهكذا لما بدأ عصر الكتابة والتدوين والتأريخ، والتقييد، شرع يسجل حكايا رحلته لتعيش وتنتعش، وحتى قبيل ذلك كان يتغنى بها أناشيد تقجر عروق الروح والذاكرة، وتنتصر على النسيان والإهمال. فمثلاً كان مجبولاً على الغناء والأراجيز كان مفطوراً على الرحيل والسفر. يكسر قيود النفس والأزمنة والأمكنة والناس. ولربما كان يساير مقتضى الحال والحياة ويطاوع طبيعته البشرية التواقة إلى التجديد الباحثة عن الأفضل والأجمل أو التعرف على عوالم أخرى أوسع وأفسح من أهله وبلده، إستعلاماً واستزاقاً

*طيّش ليفيوس titus livius (95 ق.م - 17 م) مؤرخ لاتيني اشتهر بكتابه "التاريخ الروماني" من البدء حتى 9 ق.م. أحيا فيه ذكرى أمجاد روما.

1 - نفسه.

2 - سورة العنكبوت، الآية 20.

واسترواحا ورصدا لخير الدنيا والآخرة "فالرحلة إذن ممارسة انسانية ضاربة بجذورها العميقة في تاريخ الأمم، مما أكسبها من خلال قدمها وتطور أنواعها شمولية في المعارف، حيث كان لابد للرحالة القائمين بها من التعامل مع البيئات الجديدة: الدينية منها والجغرافية والأدبية والاجتماعية، وغير ذلك، مما يمكن أن يشي بأن تلك الرحلات كانت وما تزال قبلة لكثير من الباحثين الذين يتقصون أشكال المعرفة في مظانها الأساسية".⁽¹⁾ التي أمكن للتاريخ أن يحتفظ بها للذاكرة الإنسانية مدونة بأشكال مختلفة من أنواع الرقم وشواهد الآثار والمخطوطات. وأنماط الكتابة والنقوش.

بنية الرحلة: تتحقق بنية الرحلة على ضوء جملة من الأدوات الأساسية في فعل الرحلة كما ثبتت في التراث... وأبرز هذه الأدوات:

أ- السفر أو الإرتحال أو الإنتقال في المكان: ذلك أنه لم يسمّ أدب رحلة الأدب الذي وصف أماكن الإقامة المعهودة أو تحدّث عن موضوعات تتصل بالبيئة والمجتمع ذاته الذي يمثل الموطن، وإنما يتصل أدب الرحلة بحالات الإنتقال بين الأمكنة البعيدة أو الخارجية عن المكان أو الموطن محل الإقامة، ويتيح السفر في المكان إمكانية تسجيل المشاهدات التي هي أصل أدب الرحلة.⁽²⁾

ب- تنوّع الجغرافيا: تتحقق بنية الرحلة وفعلها من خلال تعدّد الأماكن التي ينتقل فيها الرحالة.⁽³⁾

ت- التدوين: لا يمكن أن تكون للرحلة آثارها المرجوة إلا إذا دوّنت، فالتدوين أداة مهمّة وفعّالة لتقييد المشاهدات والملاحظات والأخبار والمعلومات التي تستقى أثناء الرحلة... فإن معظم الرحلات المعروفة على المستوى الواقعي أو الحقيقي دوّنها أصحابها، أو الرحالة أنفسهم وقلّما

¹ - الأزمي، نادية: الآخر في الرحلة المغربية: (الرحلة التطوانية إلى الديار الفرنسية للشيخ عبد الله الصفار) (الرحلة الحجازية للشيخ ماء العينين) أنموذجين، مؤسسة آفاق، مراكش، ط1/ 2016، ص 16.

² - قرطي، خليفة: المرجعيات التراثية في الرواية العربية التجريبية، بحث في الأشكال والبنى، أطروحة دكتوراه (مخطوط)، جامعة الجزائر، 2010، ص 110.

³ - السابق، ص 111.

يمكن أن تتناقل أخبار الرّحّالين ومشاهداتهم عبر قناة المشافهة.⁽¹⁾ وهذا ما حدث مع الأساطير والملاحم قبل التّدوين.

وتقترب الرّحلة من تناول جميع انشغالات الحياة "ومن ثم يتوافر بها مادة غزيرة مما يَهُمُ الجغرافي والمؤرخ وعالم الاجتماع والاقتصاد وأيضا مؤرخ الأديان والأساطير والأدب، فالرحلة سجل أنثوجرافي حقيقي لمظاهر الحياة المختلفة والمتنوعة لشعب بعينه وفي وقت بعينه، وهي مرآة صادقة تعكس ثقافات الشعوب"⁽²⁾ ونظراتها المتبادلة وما تريده من بعضها البعض، في قالب أقرب إلى اللغة الأدبية منه إلى لغات التعامل الأخرى، ويمكن أن نستشهد بمتن قريب من فكرته الأصلية وكيف كتب، ووثق منذ عهد بعيد، ليكون وثيقة لحملة حقيقية لكنها كتبت بلغة جميلة بعيدة عن التقريرية الجافة: "... الأمير... السмир الوحيد... محبوب الملك (حرفوف) الذي يحمل كل محصولات الأقطار الأجنبية لسيد... والذي ينفذ كل ما يرغب فيه سيده... أرسلني سيدي، كما أرسل والذي السмир الوحيدة (إرى) إلى بلاد (يام)، وقد قمت بهذا العمل في ستة أشهر... وعدت محملا بكل أنواع الهدايا... وقد أثنى جلالته.

أرسلني جلالته مرة ثانية وكنت وحدي وقد سرت على طريق (الفنتين) وذهبت نحو (أرثت) و(مخر) و(أرض ترس) وذلك في ثمانية أشهر وقد عدت بعد أن حملت معي منتجات هذه البلاد الأجنبية بكميات وافرة، ولم تعرف نظائر لهذه الأشياء.

أرسلني جلالته مرة ثالثة إلى بلاد (إيام) فرحلت من (شست) عن طريق الواحات... وذهبت حتى بلاد لوبيا، وقد أخضعتها لدرجة أنها عبدت آلهة مليكي... ثم عدت بنحو (300 حمار)

¹ - السابق، ص 112.

² - السيد، صلاح: رحلة الأرجونوتيكا، للشاعر أبولونيوس الرودي، دار النافذة، الجيزة، ط1/ 2010، ص51.

محملة بالبخور والأبنوس والزيت وجلود الفهود والعاج... وكل المنتجات... ثم عاد في النهر الخادم
حرخوف نحو البلاط..."⁽¹⁾

لقد دونت بضمير المتكلم، على شكل جل مذكرات الرحالة المألوفة، حتى نفترض أن الرحالة هو نفسه الكاتب لهذه الكلمات، وما أجمل هذا الافتراض الذي سيجعل من خطوات الرحلة سياحة في الآفاق والأمصار خارج الذات والوطن ثم العودة. وعصر شجونها وصناعة مدونة من غيارها تلخص الأزمنة والأمكنة وروح الرحالة فيها، فالنص مزيج من الموضوعية تلبية لأمر الملك، والذاتية حبا في الملك والوطن، إذ تتجلى لغة النفس إلى جانب لغة الوظيفة، وقد ظهر النص في الوقت الذي ظهرت فيه معظم المدونات الأخرى ذات الطابع الميثولوجي المغالي في تقديس الملك أو الرحالة ذاته.

ب - 2- مفهوم الرحلة اصطلاحا في معاجم المصطلحات الأجنبية:

الرحلة voyage: "يشمل أدب الرحلة على مجمل الكتابات ذات العلاقة مع القيام برحلة عبارة لا تبدو منطقية إلا من حيث الظاهر ذلك لأن تنوع تجربة الرحلة وأهدافها، والمعنى الذي يعطى لها سمح بظهور نتاج غزير، وهكذا فإن نصوصا مختلفة الأشكال والطبيعة تلتقي في موضوعيات، ولا تجمع بينها فيما وراء ذلك سوى نفس إشكالية "الأنا" والعالم، مع الأوديسة لهوميروس، وكتابات هيرودوت وحتى سفر الخروج في التوراة، هناك العديد من النصوص المؤسسة في الأدب الغربي ذات علاقة بالرحلة، تفهم هذه الكلمة بمعناها الحسي الملموس".⁽²⁾

1 - حامد، اسماعيل: موسوعة الأساطير الفرعونية وروائع القصص وحكايات التراث الشعبي، مكتبة النافذة، الجيزة، ط1/ 2009، ص 322، 323، 324.

2 - آرون، بول وآخرون: معجم المصطلحات الأدبية، ص 523، 524.

رغم الإشارة إلى (الأوديسة) إلا أنها لم تخص بملاحظة تعطينا مفهوما حقيقيا عن مجالها الأدبي (الملحمي، الأسطوري، الخيالي).

أو تضعها في إطار مميز لها بالجمالية والأدبية أو الشعرية بعيدا عن الأنتوغرافية الصريحة التي ربما وجدت عند (هيرودوت) أو الدينية البحتة في سفر الخروج.

ولو استرسلنا في مادة المفهوم التي قدمها المعجم سنرى أن الرحلة قد عرفت تنويعات كثيرة مثلما عرف العالم منذ هوميروس وحتى القرن العشرين حيث برزت أفكار جديدة مثل أن تكون "الأمكنة التي تصفها الرحلة تبدو مقلوبة: لم يعد الكتاب يذكرون بالتفصيل كما كانوا يفعلون في القرن التاسع عشر، زيارات لأمكنة ذات دلالات رمزية في الثقافة الغربية لكنهم يرتادون طوعا أماكن غير معروفة 'وبدون تاريخ' وهكذا ظهر شكل جديد للدور الرفض لأدب الرحلة... وبخاصة في الولايات المتحدة باتت حكاية الرحلة تعتبر إلى حد ما صورة عن - نوع - مضاد.⁽¹⁾ غير أنها لم تعرف تجديدا جذريا أو تطورا أو تغييرا كلياً، بل مجرد تنويعات وتقريعات. فطيلة مسيرتها عبر أمكنة وأزمنة عديدة بقيت محافظة على تقاليد وموروثها المتعارف عليه وخاصة عند الحديث عما يمكنها أن تضيفه إذ "يطرح أدب الرحلة سؤالا ثلاثيا إنه يفرض سؤالا أنتروبولوجيا فلسفيا... كما يثير سؤالا يتعلق بالحدود المرسومة للأدب اليوميات، وقائع الرحلة، رسائل أو أخبار استرجاعية للرحالة، أمور يمكن أن تكون وثائق صحيحة، يقدر ما يمكنها أن تكون نصوصا ذات جمالية... وكذلك، وهذا هو السؤال الثالث: يشكل أدب الرحلة مجموعة من الترابطات غير المؤكدة رغم كونها تبدو أنها كذلك في الممارسات"⁽²⁾ وهكذا فإن هذا المعجم لا يزيد عن أن يقدم المفهوم الغربي لأدب

¹ - السابق، ص 526.

² - نفسه.

الرحلة بدون الدخول في تفاصيل من نماذج تحمل خصوصية ما أو تطرح تجديدا يمس البناء أو الموضوع. أو يؤسس لفكرة مختلفة.

موقع الرحلة في الملحمة بين الأسطورة والتاريخ: نظرا لما أثبتته دراسات علم الآثار والجغرافية وأيده بعض الرحالة المعاصرون الذين اقتنوا أثر (عوليس) و(جاسون) من أن بعض الأماكن المذكورة في الأوديسة والأرجوناوتيك حقيقية، فهذا يثبت بعض تاريخيتها ومرجعيتها الواقعية فهو ميريوس وأبولونيوس اعتمادا على معلومات جغرافية حقيقية سواء زارها بنفسيهما أو حدثها عنها بحارة ورحالة آخرون فملأوا نفسيهما شوقا وتوقا إليها، فعمدا إلى وصفها وتوظيفها ممزوجة بشطح الخيال.

أما عن نظرة الإغريق أنفسهم إلى قصصهم الأسطوري الوارد في ثنايا الملاحم المبتكرة فلم يكن لديهم تمييز واضح ودقيق بين الأسطورة والتاريخ، بل كانوا يفاضلون بين روايات تبدو أكثر مصداقية وأخرى أقل مصداقية أو زائفة، ولعل هيزيود كان أول من ألقى بذرة الشك في مصداقية الأساطير حين لمَّح في احد أبيات ملحمة الثيوغونيا (27 - 28) إلى أن ريات الفنون والوحي (الموساي) قد تصدر عنهن في بعض المناسبات أكاذيب مقبولة، إن هذه الشهادة حين تصدر عن هيسود أكبر المتحمسين للعقيدة والأساطير الإغريقية تكون لها دلالتها الموحية.⁽¹⁾ ومنه فإن التدوين الذي مسّ تراثهم آنذاك * لابد أنه قد مسه شيء من هذه الأجواء الجديدة لنسائم المواءمة بين الأسطورة والتاريخ بطريقة توحى بعدم وجود تعارض بينهما. ولا يستبعد أن يكون قد تعداه إلى

¹ - محمد عبد الغني محمد السيد: نظرة الأثينيين إلى الأسطورة، ص 8.

*- يشار إلى أن الإلياذة والأوديسة قد دُونتا في القرن السادس قبل الميلاد إذ جمع ديكتاتور أثينا بيسيستراتوس (600ق.م - 527ق.م) بين سنتي 546ق.م و527ق.م لجنة من العلماء لكتابة هذه الأشعار وتثبيتها بصورة نهائية، وأمر باتخاذها كتابا مدرسيا في بلاد الإغريق، يتخذها الأساتذة أساسا لتعليم اللغة والأدب والتاريخ ومبادئ الأخلاق والديانة، إذ أنها قامت لديهم مقام الكتب المقدسة عند أمم أخرى.

أغاني هوميروس. وهكذا انقلب السحر على الساحر. وعادت الرحلة من رحلتها نحو عوالم الميثولوجيا صوب عوالم المعقول والتاريخ.

موقع الرحلة في النص الأسطوري والنص الملحمي: لقد كنا لاحظنا استغلال موضوع الرحلة في معظم الملاحم في التراث الإنساني بشرقه وغربه، تقليده وجديده (الكوميديا الإلهية والفردوس المفقود) دونما أي إشارة تذكر إلى أنها تعتمد ركنا أساسيا أو داعما لأحداث ومسيرة الملحمة، بيد أنه كان تقليدا وسنة دأب عليها شعراء الملاحم وتوارثوها ملتزمين بها. منذ ظهور الملحمة واعتمادها جنسا أدبيا مستقلا له سلطانه وكيانه.

ويبدو أن ظهور الرحلة في متن النص الملحمي والأسطوري، كان إرهاصا لظهور أدب الرحلة، أو كان بديلا أدبيا لمكونات الرحلة المعاصرة لها، والتي اتخذت سياقات ثقافية وإنسانية أخرى ينقصها التخيل والتعبير الفني الجميل، كانت كردة فعل لتداول مخطوطات محلية في إطار جغرافي استكشافي استعماري أو تجاري.... (رحلة قورش⁽¹⁾)، رحلة حنون، حملة عملقون) أما سجلات الرحالة فواضحة وضوحا مباشرا في كتاب إكسينفون الذي ألفه عام 371 ق.م، تحت عنوان (أنابيزيس) والذي وضع به التقاليد الأدبية، وبمرور الزمن تطور أدب الرحلات وتحول

¹ - حملة قورش (ANABASIS) ويعني "الانسحاب": من مؤلفات كسنوفون المؤرخ الإغريقي (430 ق.م - 354 ق.م) وهو أمتع كتبه، وفيه وصف للحملة التي شارك فيها مع الأمير الفارسي قورش عام 396 ق.م في صراعه على العرش ضد أخيه، وبعد أن قتل الأمير قورش، وفشلت الحملة التي كانت مكونة من نحو عشرة آلاف من الجنود المرتزقة من الإغريق، الذين اضطروا إلى الانسحاب أو الفرار من وجه الجيش الفارسي، وسلخوا في سبيل عودتهم طرقا صحراوية وجبلية وعرة، حتى وصلوا إلى سواحل البحر الأسود ومنه إلى أوطانهم. وقد كان لـ"كسنوفون" في رحلة العودة هذه دور قيادي حتى بلغ بهم بر الأمان، والكتاب برمته يتصف بالحيوية والطرافة، فهو أشبه بكتب الرحلات والمغامرات، وليس من كتب التاريخ، ولكنه ممتع للقراءة، ولا يخلو من فائدة. (تاريخ الإغريق: خليل سارة، منشورات جامعة دمشق، 2016، ص 108، 109).

الوصف السردى للرحلات من مجرد حشد لمعلومات متناثرة إلى معرفة متسقة مرسومة، ولذلك اعتبر هيرودوت أبا لأدب الرحلات كما أنه أبو التاريخ.⁽¹⁾

إن للأسطورة بوصفها نصا قصصيا حدثا تبنى عليه، وكذلك هو الأمر مع النص الملحمي، ولهذا فإن البطل الأسطوري، والبطل الملحمي مطالبان بإنجاز هذا الحدث أو الوقوف على إنجازهِ وإتمامه، فقد يكون الحدث رحليا رئيسيا، تاما، وكاملا أو إلى جانب حدث آخر، أو هو عرضي عابر؛ فالرحلة مواقع مختلفة تتبوّأها في النصوص الأسطورية أو الملحمية التي ترد فيها:

أ- الرحلة حدث رئيس:

1- في النص الأسطوري: بعض النصوص الأسطورية هي نصوص رحلية بامتياز سواء في رحلتها إلى العالم الآخر: (مثل أورفيوس)

أو في مسار مختلف: هرقل.

2- في النص الملحمي: بعض النصوص الملحمية هي نصوص رحلية بشكل كلي يطغى عليها برنامج الشخصية الرحالة على غيره من البرامج. مثل رحلتي الأوديسة والأرجوناوتيكا

ب- الرحلة حدث ثانوي:

1- في النص الأسطوري: قد تكون الرحلة حدثا ثانويا طارئا في حياة البطل الأسطوري (رحلة تليماك، تيسئوس، بيرسيوس).

1- راغب نبييل: فنون الأدب العالمي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1/ 1996، ص 24.

2- في النص الملحمي: يمكن للرحلة أن تتقاسم مهام البطل وانشغاله فلا تكون هي همه الوحيد ولكن على حد سواء مع مهمة أخرى، مثل رحلة (إينياس) البحرية في بحثه الطويل المضني عن مكان يزرع فيه بذور الوطن، الذي فور إيجاده يشرع في حروب ضروس طاحنة على أرضه ضد الرافضين لاستقباله واستيطانه. وكذا ملحمة (هو الذي رأى) السومرية، وملحمتا (المهابهاراتا) و(الرامايانا) الهنديتين.

ج- الرحلة حدث هامشي:

1- في النص الأسطوري: رحلة أجاممنون عائد إلى وطنه، رحلة أوديبوس إلى معبد دلفي للسؤال عن هويته ورحلته فارا من قدره المزعوم نحو طيبة.

2- في النص الملحمي: بعض الملاحم فيها حديث عابر عن رحلة عابرة مثل الإشارة إلى تضحية أجاممنون بابنته أفيجينيا في سبيل أرتميس لتسمح للأسطول بالإبحار في رحلة استعادة هيلانة وكنوز (اسبرطة)! وكذا الرحلات الخيالية التي قصها (أوديسيوس) المتكرر على راعي غنمه وعلى (بنيلوب). والحديث عن رحلة أبناء العم (الكورافاس) نحو منفى (الإخوة الخمسة) لإزعاجهم ومضايقتهم.

ينتمي أدب الرحلة إلى الأعمال الأدبية التي لا مبنى لها فهي وصفية، تعرض دون اعتبار زمني، أي في شكل تتابع لا يراعي أي سببية داخلية. مثل الشعر الوصفي والتعليمي، والغنائي، في مقابل الأعمال الأدبية ذات المبنى الخاضعة لمبدأ السببية، فتراعي نظاما وقتيا معيناً مثل القصة القصيرة والرواية، والقصيدة الملحمية.

ولكننا في الوقت نفسه سنجد أنفسنا أمام بناء - شكل - أدبي مميز، عندما نستعرض شكل الملحمة التي تستضيف الرحلة، فنحن أمام عمل أدبي ذي مبنى (ملحمة) حامل لعمل أدبي لا

مبنى له (رحلة)، بيد أن هذه الرحلة ستكون مبنية بصفاتها مغامرة، وإذ قصصنا السلسلة إلى حلقات منفردة فتجزأت إلى قصص؛ عثرنا فيها على هيكل بناء يدعو إلى استراحة مؤقتة في جولة مع بطل مغامر يقفز بك من محطة إلى أخرى بكل شوق وتشويق.

بين فني الرحلة والملحمة:

كان الشاعر يستدعي أسلوب الرحلة وخطواتها ليخطو داخل مجال ومسيرة الرحلة وداخل مجال ومسيرة الملحمة على حد سواء.

ظلت الملحمة قرينة للشعر وإيقاعاته ووفية لصحبته وملازمة له، مثلما ظلت الرحلة ملازمة ومصاحبة للملحمة.

ظهر الأدب (الشعر) في وقت باكر قبل ظهور الكتابة والتدوين في جنوب فلسطين عام 3200 ق.م، وقبل ظهور الملحمة الهوميرية التي ستشكل لاحقاً نموذجاً يحتذى (حوالي 800 ق.م)، وبقيت تتناقلها الشفاه داخل الذاكرة والحافظة حوالي ثلاثمائة سنة، رغم أن العراق القديم كان قد دون بكل فخر واعتزاز ملحمة "جلجامش" إذن خاصية الرحلة الأسطورية والرحلة الملحمية لم تكن حكراً على المدون وعلى الشفاه، بل كميّزة عن هذا وذلك. بيد أن أدب الرحلة هو أدب مكتوب أي ظهر بقوة في عصر التدوين "وقد طورت الثقافة الكتابية الأشكال الأدبية للدراسات والمقالات وحكايات الأسفار والذكريات..."⁽¹⁾

حيث يبدو أنه من المستحيل الاعتماد على الذاكرة وحدها لإنشاء أدب الرحلة أو الاستمرار في قص حكايات الأسفار، ربما كان ذلك في وقت مضى، لكن في وقت لاحق لا يبدو الأمر هيناً أو

¹ - المناصرة، عز الدين: الأجناس الأدبية؛ (في ضوء الشعرية المقارنة)، دار الراية للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، ط 2010/1. ص 88.

معقولا حتى، إلا أنه كان على درجة كبيرة من الاستقبال والتلقي، زمن الملاحم والأساطير، والشاعر سعى بجهد وإخلاص ووفق الى حد بعيد في مهمة قص وسرد مغامرات رحلته، ودمجها داخل الموضوع الأساس لمحمته، فباتت كلا متجانسا هينا على الإلقاء، هينا على التلقي، بل شحذ بها حافظته وحشد بواسطتها جمهوره، وجعل بطله رحالة حقيقيا يجوب الأقطار والأمصار ويحقق البطولات والمعجزات والانتصارات والاهداف وينجز مشروعه بحكمة.

IV- مفهوم البطل:

IV- أ- البطل لغة:

IV- أ- 1- في معاجم اللغة العربية:

جاء في معجم لسان العرب:

بطل: بَطَلَ الشيءُ يَبْطُلُ بَطْلًا وبُطُولًا وبُطْلَانًا: ذهبَ ضَيَاعًا خُسْرًا فهو باطل... والباطل نقيض الحق.

والبطل: الشجاع، وفي الحديث: شاكى السَّلاحَ بطلٌ مجرَّبٌ... ورجل بطلٌ بَيِّنُ البَطَالَةِ والبطولة: شجاع تبطلُ جِرَاحَتُهُ فلا يكثرُ لها ولا تبطلُ نَجَادَتُهُ؛ وقيل إنما سُمِّيَ بَطْلًا لأنه يُبْطِلُ العِظَائِمَ بِسِنْفِهِ، فَيُبْهِرُجُهَا، وقيل سُمِّيَ بَطْلًا لأنَّ الأشْدَّاءَ يَبْطُلُونَ عنده. وقيل هو الذي تبطل عنده دِمَاءُ الأَقْرَانِ فلا يدرك عنده ثأرٌ، من قومٍ أَبْطَالٍ، وبَطَّالٌ بين البَطَالَةِ والبِطَالَةِ. وقد بَطَّلَ بالضمِّ يَبْطُلُ بَطُولَةً وبَطَالَةً أي صار شجاعًا وتبطل. (1)

¹ - ابن منظور: لسان العرب، ج1 (من أ إلى ج) دار المعارف، القاهرة، ص302.

وجاء في المعجم الوسيط "(بَطْلٌ) . بُطُولَةٌ: تشَجَّع واستبسل. فهو بَطْلٌ: (ج) أبطال... (تبَطَّل): تشَجَّع"⁽¹⁾

وهكذا نقف بهذه الوشائج والأمشاج التي تربط بين معاني اللفظ من منطقاته إلى اشتقاقاته على عبقرية اللغة العربية وكيف تقفز على المعاني وتستثمر فيها بدقة عجيبة متناهية. فيصير البطل: مَنْ أبطل العظام وقارع الأقران والأشداء مبطلا ثاراتهم ودماءهم. وما أقرب هذا إلى المعنى الاصطلاحي المتداول اليوم.

IV - أ - 2 - في معجم اللغة الفرنسية:

Héros البطل، مؤنثه بطلة héroïne .

اقتضت الكلمة من اللاتينية الكلاسيكية بمعنى (نصف إله) أو رجل ذو قيمة عظيمة، وأخذت الكلمة heros من الكلمة اليونانية hērōs: أي زعيم للدلالة على رتبة عسكرية عالية في حرب طروادة ك: عوليس أو أغاممنون.

ثم مع دلالة دينية (نصف إله) ورجل يرتقي إلى مصاف نصف إله بعد موته. وعموماً فالكلمة مشبعة بمعنى الأدب الجم والاحترام.

البطلة (اليونانية) اقتضت متأخرة إلى اللاتينية لتستعمل تأنيثاً لكلمة البطل heros هذه اللفظة التي مرت إلى لغات هندوأوروبية عديدة كالإنجليزية (hero) والروسية (geroi). والآن كلمة البطل تستعمل بمعنى (نصف إله) تعليمياً؛ والبطلة تستعمل في سياق ميثولوجي بمعنى امرأة تميّزت بحدث عظيم (رونسار 1578).

¹ - أنيس إبراهيم وآخرون: المعجم الوسيط. ص 61.

إن تمجيد مآثر المحاربين أبطل قداسة الكلمة التي (كما في اللاتينية) أخذت معنى مجازي (أي انسان ذو قيمة عظيمة: رونسار - البطل - 1555)، ثم من خلال التوسيع: انسان جدير بمحبة الجماهير لعبقريته وقوة روحه: (يكون بطلا لشخص ما).

ثم إن فكرة رجل فوق الجميع تعلل انتقال استخدام الكلمة الى معنى الشخصيات الأساسية في انتاج أدبي (سكارو 1651).

حيث من هنا جاءت عن طريق المجاز عبارة "بطل الرواية" للحديث عن شخص عاش مغامرات عصبية 1671.

البطلة heroine بمعنى شخصية رئيسية أنثى لنتاج ما. (1554 رونسار) ثم فكرة الشخصية الأساسية التي اقتسمت مع البطل المغامرة⁽¹⁾

IV - ب - البطل اصطلاحاً:

IV - ب - 1 - في معاجم المصطلحات الأدبية العربية:

البطل Hero

1- شخصية أسطورية . قد تكون من سلالة إلهية حسب معتقدات الديانات الوثنية والمشركة . بها قوة خارقة ومهارة تميزها عن البشر .

مثال ذلك: هرقل أو أخيل في الأساطير اليونانية القديمة.

¹ - Le robert. Dictionnaire historique de la langue française . sous la direction de ALAIN REY. 2000. Paris. Tome 2. P 1711

2- محارب شهير أو إنسان يعجب به الناس بما له من مآثر ومكرمات وذلك مثل: عنترة عند العرب، رولاند الذي كان أحب فرسان الإمبراطور شارلمان إليه.

3- ذلك الشخص الذي يلعب دورا رئيسيا في القصة أو المسرحية وتتطوي نفسه على صفات وقوى يتعاطف معها القراء أو النظارة دون غيره من الشخصيات، وقد يكون صراع الرواية أو المسرحية بين هذه الشخصية وشخصية أخرى تتسم بصفات ينفر منها القراء أو النظارة، أو يدور الصراع داخل نفس البطل، أو يدور بينه وبين الأقدار كما هي الحال في المأساة اليونانية.⁽¹⁾

• البطل المزيف: anti – héro⁽²⁾

• البطولي Heroic: صفة تطلق على أعمال الأبطال، أسطوريين كانوا أو حقيقيين.⁽³⁾

IV- ب- 2- في معاجم المصطلحات الأدبية الأجنبية: البطل الأدبي هو الشخص الذي تأتي

معرفته في آن معا: من تحديد وظيفي: . إنه شخصية رئيسية غالبا ما يعطي اسمه لكتاب. ومن خاصية محورية: إنه الذي يحمل... يُدافع أو يعيد طرح القيم المسيطرة في المجتمع، إنه بطل ملحمي، أو مأساوي، وأيضا بطل حكايا وأساطير... شريطة أن نرى الأسطورة شكلا أدبيا، عندها يمتلك البطل في الأدب تاريخا طويلا يبدأ في الغرب مع بطل الميثولوجيا اليونانية... في الملحمة البطولة هي قبل كل شيء انتصارات حربية... انطلاقا من الوقائع العسكرية التي قام بها البطل من أجل مجد أمته... رغم أنه يمكن التعرف إلى شعب من خلال أبطاله فإن هؤلاء يحتفظون بميزة تبقى خارجة على المؤلف، حتى في الموت الذي يولد تقديسهم يحتفظون بعلاقة مع الإلهي. تحديد

¹ - وهبة مجدي، وكامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ص 48.

² - نفسه.

³ - السابق، ص 79.

هوية البطل في إطار التقويم الوظيفي ندخل في قضية التراتيبية بين الشخصيات، الشخص الأكثر أهمية، هو غالبا محرك العمل ودعامته، وبالفعل فإن طموحات البطل تنقل حكاية نجد نهايتها باكتمال الطلب، هذا التحديد الذي يجعل من البطل أيضا الشخصية الأكثر حضورا⁽¹⁾.

يشير المعجم إلى وقوع البطل الأسطوري في قلب البعد الأنثروبولوجي بصفته رمزا طبيعيا، لظاهرة ما، وكذا مشاركته في بناء الثقافة، حين يشكل حضوره تراثا لأمتة، بيد أن تواجده بصفته معادلا لطاقة طبيعية، أو طقس ثقافي قد يسحب عليه الميزة الدينية، أو العقيدية، لهذا الشعب، فيشكل حيزا من الإيمان والمعتقد، فيصير بذلك بطلا دينيا، كما أن ربط البطولة الملحمية، بالإنجازات العسكرية يعتبر قسمة ضيزى في حق بقية الملاحم الأخرى، التي لم تركز على موضوع الحرب، مثل الأوديسة.

V- نظرية الأجناس الأدبية:

بما أن البحث سيتعامل مع المادة الأدبية في كل من الأسطورة والملحمة والرحلة وهي آثار أدبية مختلفة بعض الشيء ومتمايزة عن بعضها البعض شكلا ومضمونا، لكننا نجدها متجاورة ومتلاحمة ومتداخلة في النص الواحد. فهذا يستدعي التنقيب أولا في مسألة انتمائها. اجتهادا لترسيم الحدود بينها. فهل هي أنواع أدبية؟

ولمقاربة ذلك يتعين تحديد مفهوم النوع واصطلاحه.

لقد بدأ الانسان ينتج الآداب والفنون منذ أمد بعيد جدا، لا يمكن تحديده أو حصره وكان لكل مجتمع أو أمة خصوصية وملامح وكان هذا النتاج يتنوع ويختلف ويتميز لدى المبدع الواحد وفي

¹ - آرون، بول وآخرون، معجم المصطلحات الأدبية، ص 251، 252، 253.

الأمة الواحدة وفي العصر ذاته، حيث كان للإبداع حركية مستمرة وقوة جديدة ومتجددة تفرض سلطانها وديباجتها، وكان الشعراء والفنانون يتبارون في المحاكاة وفي الابتكار فظل الجديد يتدفق بعنف وعنفوان لا يعرف تياره هدنة ولا هدأة . فليس غريبا أن تظهر الفروق بين النصوص التي ينظمها الشعراء، وليس عجيبا أن يتحدث النقاد والفلاسفة والمنظرون عن هذه الظاهرة . محاولين تصنيف هذه النصوص وتبويبها كل حسب ميزته وحليته ابتداء من (أفلاطون وأرسطو طاليس) أو من غيرهما، فيعرف ذلك - لاحقا - بنظرية الأنواع أو (الأجناس) الأدبية.

إن تعدّد الصيغ الفنيّة واحتكامها إلى قواعد مميزة ومحتكرة لبعض الخصوصيات، التي تتفرع إلى روافد، أو مجموعات، تجعلها تصنف وتقرز النتاج الأدبي المتنوع، كل بحسب إمكانيات تفرده وطاقات تميزه، وهذا ما انبثق عنه ما عرف بالأنوع الأدبي، والذي يستدعي جملة من الخصوصيات المؤطرة لشكله العام وهندسته. وهكذا تختلف القوانين التي تؤسس كل نوع أدبي على حدة، وتتجلى التقاسيم والملاحم المتعددة، فنجد أنفسنا أمام نصوص إن وحدها الأدب فرقها النوع أو الجنس.

رأي أفلاطون: لقد تحدث أفلاطون بشكل مميز عن أهمية الفنون وبخاصة الشعر في حياة الإنسان، وركز على الدور الخطير الذي يلعبه في تركيب النفوس وتسيير الأخلاق ولقد كان شطط الشعر في الوثنية، وفي الخيال المؤنس للطبائعية بعد تأليهها، السبب الذي جعل الفيلسوف يقف على بعد منه منافحا عن جمهوريته.

استشهد بأمثلة ونماذج حيث يظهر في كل مرة وهو يشير إلى مادة النص الشعري المرفوضة وموضوعه سبب الاقصاء وكان كل موضوع عادة - في الأدب الإغريقي - يأخذ شكلا مستقلا يعالج في نمط معين مختلف عن غيره وكان الشعراء على تعدد واختلاف "فمنهم من يؤلف ملحمة ومنهم من يؤلف أود ode (الشعر الغنائي ينقسم إلى أود وإلى هجاء، والأول أود كان يطلق على

شعر الغزل وشعر الرثاء معا.) ومنهم من يؤلف مأساة ومنهم من يؤلف ديوانا في الشعر التعليمي⁽¹⁾

رفض أفلاطون طبيعة موضوع النص الشعري وليس نوعه أو جنسه الأدبي. فقد قسم الشعر إلى ثلاثة أنواع و"لابد أنه فكر في التمييز بينها من ناحية التركيب ومن ناحية الهدف الذي يرمي إليه كل نوع منها... كان يفضل شاعرا أقل لطفاً وأشد صراحة لا يعلم إلا الحقيقة والخير. ويتحتم عليه أن يستوحي شعره من نماذج قومية قديمة ورثها عن أجداده السابقين. وهذا النوع من الشعر جدير بالبقاء في المدينة الفاضلة ويتمثل في بعض أناشيد الشعر الملحمي وفي الأشعار الغنائية التي يمتاز ناظمها باللسان العف والرأي السديد ويحاكي الخير ليس إلا لأنه يتغنى دائما بحمد الآلهة ويسبح بأسمائهم، ويشيد بأعمال الأبطال، ويعلي شأنهم وبذلك يقنع الناس بالتحلي بالفضائل والإبتعاد عن الرذائل".⁽²⁾

رأي أرسطو: لقد تحدث (أرسطو طاليس) في (فن الشعر) عن الشعر وأنواعه مقتصرًا على ما شملته المحاكاة مقصيا الشعر الغنائي، لقد ذكر هذه الأنواع (الملحمة والمأساة والملهاة والديثرامبوس وجل صناعة العزف بالناي والقيثارة، هي كلها أنواع من المحاكاة في مجموعها).⁽³⁾

ولكنه فصل القول بإسهاب في النوع الدرامي (التراجيديا) وكان للملحمة حظ يسير فقد أشار إليها حال المقارنة والشرح، إذ كان لابد أن يعود لذكرها حيناً بعد حين ليستوفي نظريته في فن

¹ - فينسون، لابي سي: نظرية الأنواع الأدبية، تر/ حسن عون، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1978/ ط2، ص31.

² - خفاجة، محمد صقر: النقد الأدبي عند اليونان، من هوميروس إلى أفلاطون، مكتبة الأنجلو المصرية، 1981، ص 101، 102، 103.

³ - أرسطو طاليس: فن الشعر، ص3، 4.

المأساة، ومن خلال تصنيفه للأنواع الشعرية اعتمادا على معايير ثلاث تبعا لمبدأ المحاكاة . طبعا . وهو (إما بوسائل مختلفة أو موضوعات متباينة، أو بأسلوب متمايز).⁽¹⁾

مثلا أوجبت الحاجة على الإنسان إيجاد الطعام والملابس واللغة... فكذلك احتاج إلى التعبير عن كيانه للآخر والتغني لذاته، وبالتالي وبشكل تلقائي وطبيعي وتطوري ظهر الاختلاف والتباين بين هذه المواد التعبيرية، وظهرت الأسطورة التي "هي حكاية تقليدية تلعب الكائنات الماورائية أدوارها الرئيسية، غير أن التقدم في مسيرة البحث سوف يطلعنا على العديد من الأجناس الأدبية التي ينطبق عليها هذا التعريف والتي نستبعد منها دائرة الأسطورة تدريجيا، وذلك لعدم صلتها بها رغم مشابهتها لها من حيث الشكل، فننتعرف على الخرافة والقصص البطولي، وعلى الحكاية الشعبية وغيرها، وجميعها مما يشترك إلى هذه الدرجة أو تلك بالتعريف الذي أوردناه، وكلما سرنا قدما في مجهود الجمع والتدقيق والمقارنة، كلما استطعنا تمييز جنس الأسطورة عن غيره من الأجناس، واقتربنا أكثر فأكثر من تعريف دقيق يمكن الانطلاق منه إلى دراسة الأسطورة كظاهرة ثقافية متميزة وذات خصوصية عالية، وهذا التمييز لا يهم فقط باحثي الميثولوجيا، بل بقية الباحثين في حقول العلوم الإنسانية المختلفة"⁽²⁾ وفعلا فإن دقة التعريف الاصطلاحي لها يجعلها تستقل وتتفصل عن بقية الأنواع الأدبية مشكلة نوعا متميزا وخاصا يتيح لها المزيد من الدراسة المتخصصة، وفي الحقول الأدبية أيضا، وكما نتيج هي الأخرى بدورها للباحث المزيد من الدقة، وابتعادا عن الميوعة والسيولة والإنفلات.

¹ - السابق، ص 4.

² - السواح، فراس: الأسطورة والمعنى، ص 8.

وإن نص الرحلة في الملحمة يتشرب جميع خصائص النص الملحمي، وإذا ركزنا على الجانب الفني والأدبي فيها؛ لاحظنا كم اشتغلت على الأساليب البلاغية والصور الجمالية التي تجعل منها نوعاً أدبياً من دون شك، إلى جانب توظيفها لتقنيات السرد، فقد "تجمعت للرحلة . خاصة الرحلة الخيالية . كل الأساليب البلاغية التي تظهرها بين الأنواع الأدبية الأخرى في أبهى صورة؛ من تنوع في الأسلوب بين مسهب وموجز، وسرد وحوار، ومن توظيف لمفردات ولقواعد لغوية، ميزت أدب الرحلة عن غيره من الأنواع الأدبية، ومن خلالها أظهر مؤلفوها مهاراتهم الفنية، ومقدرتهم على إنشاء وتأليف رحلة متكاملة الأركان"⁽¹⁾ تتجلى فيها أدبيتها جنباً إلى جنب مع باقي خصائص الفن الرحلي المعالج للمادة في سياقات معرفية أخرى، فيستنتج بأن "الرحلة إذن ظاهرة أدبية تتداخل فيها عدة عناصر أدبية وخارج أدبية وجميع العناصر المحيطة بالأدب هي بطريقة ما مشاركة في إنتاجه"⁽²⁾، وتبقى علاقة الكاتب باللغة المستعملة هي الفيصل في أناقة النص ولباقته، وقوة أدبيته.

VI- توطئة تاريخية أدبية تصنيفية: ظهور الإنسان/ الحضارة/ الأساطير/ الملاحم:

يمارس البحث التنقيب عن الرحلة الأسطورية والرحلة الملحمية عبر ثقافات حضارية مختلفة، وكان يستوجب أن تصنف وفق ترتيب ما وإن ذلك التصنيف لا بد أن يأخذ بعداً تاريخياً حتى لا يكون خاضعاً لحكم تقييمي لم يصل البحث إليه، إذن كان الترتيب وفق الأولوية الزمنية لظهور الحضارة ولظهور النص محل البحث، فعمد إلى استقراء جملة من الملاحم والأساطير عينات لتوظيف الرحلة، فوقف على مجموعة من الملاحظات بسيط بعضها، ودقيق الآخر منها.

¹ - السيد، صلاح: رحلة الأرجونوتيكا، ص 107.

² - الساورى، بوشعيب: الرحلة والنسق، دراسة في إنتاج النص الرحلي، رحلة ابن فضلان نموذجاً، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1/ 2007، ص 12.

بعد عصور ما قبل التاريخ التي استغرقت أكثر من 99 بالمائة من حياة الإنسان والتي تقدر بنحو مليوني عام، دخلت البشرية طور الحضارة الناضجة، وقد تحقق ذلك لأول مرة في تاريخ الإنسان بانتقال وادي الرافدين ووادي النيل أواخر الألف الرابع ق.م إلى حياة التحضر والمدنية، بمختلف عناصر الحضارة الأساسية... كالآداب... وعند ذلك شرع الإنسان يعبر عن أفكاره وتصوراتهِ بأساليب مختلفة... موضوعية أو خيالية أو أسطورية، فيعبر عن الكون والحياة، تعبيراً فنيا خلفه لنا على هيئة نتاج فني، أو أدبي، كالرسم والملاحم.⁽¹⁾

وأول صورة ظهرت فيها الكتابة لم تزد على نقوش ساذجة، يصورها كاتب وينحتها على الصخر ناحت، ثم أصبحت الكتابة نقشا بمسمار على أقراص من الطُّفْل المجفّف، وقد وجدت في (كلديا) نماذج من هذه القوالب الطفلية، دَوّنت في إحداها قصة الطوفان، ولعلها أن تكون أقدم أثر مكتوب، وهناك شبه كبير بين قصة الطوفان الواردة في سفر التكوين والرواية الكلدانية التي سبقت التّورة بآلاف السنين. ويشارك الأدب الكلداني في القدم أدب المصريين القدماء الذي سجل على الآثار وأوراق البردي، وأقدم كتاب مصري انتهى إلينا علمه هو كتاب الموتى الذي دَوّن في عصر بناء الهرم الأكبر ولا تزال نسخة منه محفوظة في المتحف البريطاني وفيه دعوات وأناشيد وصلوات، ثم وصف لما تلاقيه أرواح الموتى في العالم الآخر، من حساب يتبعه عقاب أو ثواب.⁽²⁾

وأحدث علم الآثار (الأركيولوجيا) انقلاباً خطيراً في معرفة الإنسان بتأريخه، فتراجع القول بأن الحضارة اليونانية هي الأقدم، إلى القول بأن أقدم الحضارات هي حضارتا وادي الرافدين ووادي

¹ - باقر، طه: ملحمة كلكاش وقصص أخرى عن كلكاش والطوفان، دار الرشيد للنشر/ دار الحرية، بغداد، ط4/ 1980، ص 9، 10.

² - أمين، أحمد وزكي نجيب محمود: قصة الأدب في العالم، في الأدب القديم وأدب العصور الوسطى، ص 21، 22.

النيل. اللتان نشأتا وتطورتا منذ أواخر الألف الرابع قبل الميلاد، فأطلق عليهما مصطلح الحضارة (الأصلية أو الأصلية Original) وحُلَّت رموز الخط الهروغليفي (النيل) والخط المسماري (الرافدي) فكان مثار دهشة كبرى أن يجد الباحثون المدونات بذلك المستوى، خاصة أصول الآداب البشرية والموضوعات الإنسانية العامة التي تناولتها، إذ تتميز بالصفات الأساسية التي تميز الآداب العالمية الناضجة، من حيث الأساليب وطرق التعبير والأخيلة والصور الفنية والعرض القصصي والروائي.⁽¹⁾

يبدو أنه لم تحتفظ ذاكرة الأجيال ومدوناتهم في الهند بتراثهم القديم لما قبل فترة خمسة عشر قرناً قبل الميلاد، بما في ذلك تراثهم الأسطوري، وأخبار أبطالهم، ورحلاتهم، ويكاد يكون مفقوداً ما اصطلح على تسميته بحوادث التاريخ التي يظن أنها ضرورية لبعث ماضي الهند... ونحن وإن لم يكن لدينا تاريخ للهند بالمعنى الصحيح، نجد في الهند من الآثار الدينية والفنية، والأدبية ما يبلغ قدم بعضه نحو ثلاثة آلاف سنة، ولهذه الآثار من الأهمية ما ليس لقصاص المؤرخين، فبمثل هذه الآثار ننفذ حياة الأمم، فنقوش معبد هندوسي خرب خير من تواريخ الملوك في إخبارنا عن سرائر قدماء الهندوس، وقل مثل هذا عن كتب الأدباء، القصائد، والأقاصيص، والأساطير في الدلالة على تلك السرائر... وفي الآثار الأدبية يجب أن يبحث عن روح الأمم... فالشعراء والقاصون... يعانون... أكثر مما يعانيه العلماء والمفكرون، ويبدون مرآة صادقة بليغة، أجل، إن الشعراء والقاصين يشوهون ما يصفونه ويبالغون... ولكنه ينطوي تحت ذلك التشويه، وتلك المبالغة معان كثيرة، فالشعراء والقاصون يتقمصون روح زمنهم، فيألمون ويترنمون بآلام أبناء قومهم ومساوئهم، وأمانيتهم، ويترجمون عن عواطف أممهم، وعن عقائد عصرهم ومشاعره، فلا يكون أمر أية حضارة

¹ - السابق، ص 10، 11

مجهولا ما استوعبت ذاكرة الناس قصائد وأقاصيص القاصين"⁽¹⁾ بحيث لا يمكن الإدعاء باضمحلال وانحلال حضارة ما، وبضياع تاريخها مادامت تحتكم إلى تراث مادي مثل النقوش على الأطلال والآثار المهجورة، وإلى تراث أدبي تحفظه الذاكرة وتتناوله ألسنة الناس، فهذا هو كنز الأمة في قراءة تاريخها وبعثه من أرماسه، وتسييج حصنه دون لصوص النسيان، صحيح أن ذلك قد لا يعني كثيرا للكثير من الدراسات الأدبية الحديثة التي تشتغل على الخيال والجمال، وتقنيات البناء، والتركيب، والتفكيك، ولكن هذا لا يطمس عبقرية النص القديم في المحافظة على تاريخ وأمجاد أمته، وحضارته، وعلى قلاتها تلك المدونات التي عثر عليها في الهند، أو لامسها التدوين في وقت لاحق، هي كنز يضيء الحياة الثقافية وينير ميدان الأدب، وبخاصة تلك القصائد الملحمية التي تغنت بالزمن وبالبطل الملحمي الهندي الجميل.

عصور الأساطير الهندية: يمكن تقسيم الميثولوجيا الهندوسية إلى عدة عصور مختلفة، كلها أسهمت في ترسيخ الإيمان والعقيدة، وكلها تعكس الحقيقة الكونية الملتصقة بالفكر الهندوسي، وهي أن كل الأشياء ببساطة جزء من شيء أكبر وكلية.⁽²⁾

المرحلة الأولى: تنقسم إلى عصرين، الأول: ما قبل العصر الفيدي: زمن الحضارات القديمة، في وادي (الأندوس)، مثل حضارتي (الهارايا) و(الموهنجو دارو) قبل عام 2400 ق.م، وقد دمرت حوالي 1700 ق.م، واعتقد أن الآريين هم من فعل ذلك، ولكن الحقيقة الأركيولوجية ترى أن هذه الحضارة اختفت قبل الإجتياح الآري، فالغزاة الهندوآوروبيين غزوا الهند وفارس حوالي 1500 ق.م،

¹ - لوبون، غوستاف: حضارات الهند، تر/ عادل زعيتر، دار العالم العربي، القاهرة، ط1/ 2010، ص 10، 11.

² - عبود حنا: الميثولوجيا العالمية، سلسلة الدراسات (4)، إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2009، ص 139، 140.

فابتكروا (الفيدا). ومنه الإنتقال إلى العصر الثاني: العصر الفيدي: وفيه ظهرت (المهابهاراتا) و(الراماينا).⁽¹⁾

المرحلة الثانية: مرحلة العصر البراهماني ما بين سنتي 900 ق.م إلى 500 ق.م.⁽²⁾

المرحلة الثالثة: مرحلة البوذية والجانية ما بين سنتي 500 ق.م إلى 100م، وفيها تراجعت وعدلت بعض المفاهيم الأسطورية الهندوسية، وظهر نص الأوبانيشاد.⁽³⁾

المرحلة الرابعة: مرحلة العصر الكلاسيكي، وسمي كلاسيكيا لأنه عصر الملاحم، عصر الملحميتين الهندوسيتين الكبيرتين (المهابهاراتا) و(الراماينا)، ويستغرق هذا العصر من سنة 100 م إلى سنة 1000 م، ففيه جمعتا وحررتا أما أصلهما فيرجع إلى العصر الفيدي (المرحلة الأولى)⁽⁴⁾

المرحلة الخامسة: عصر الهندوسية الحديثة لأنها استعادت السيطرة على شبه القارة من جديد، وتدفق الناس إلى الإيمان الهندوسي.⁽⁵⁾

"ولعل أوضح ميزات الأدب الهندي تلك الصبغة القومية الهندية التي تميزه عن باقي الآداب... بنكهته الهندية الصوفية، فإذا ما ترجم إلى اللغات الأجنبية ظل هندياً له أسماء الهنود ودياناتهم وفلسفاتهم، وعاداتهم، ووصف بلادهم الفسيحة الأرجاء، وصف حبهم الشعري، وغزلهم اللطيف الذي ينبع من وجدان شرقي وروحانية عميقة. فنحن بدراستنا الأدب الهندي قديمه وحديثه إنما نغوص في أعماق الروح ونقترب من سرها ونحس برهبتها، كما نقترب من أمنا الطبيعة ونشعر

¹ - السابق، ص 140.

² - السابق، ص 141.

³ - السابق، ص 141، 142.

⁴ - السابق، ص 142.

⁵ - نفسه.

أننا أجزاء منها، فهي لم تخلق لنحاربها ونسيطر عليها ونسحقها، بل لنكشف عن أسرارها، ونتعلم منها ونندمج فيها ونعاين فيها صور الإله الأعظم الذي يتجلى في كل ذرة من ذراها".⁽¹⁾ وربما كان كل ذلك محفوفاً بصنوف عظيمة من الخيال والمغالاة في بناء الصورة من المجاز والكنائيات والتشبيهات، بحيث يقتبس الشاعر الهندي من حياته الغارقة في الغموض والأسرار الطقسية والنواميس الدينية والإجتماعية، فيبدع قصصاً أسطورية بطولية تحرك الزمن البطولي وتصنع أمجاد الهندي المكافح ضد الظلم المنافع على العدالة، وخاصة ذلك الرحالة الذي يطوي المسافات ويسبح في الفضاء بسرعة قصوى ليسحق الشر ويقدم العبر. "بيد أنك تبصر بين هذه المبالغات وهذا الغلو في الخيالات وتجسيم الموضوعات الحقيقية والبسيطة والشعور الصادق الخالص، وتموج الأهواء، والعواطف، تصويراً للروح والطبيعة بما هو طريف لامع".⁽²⁾ فالنفس البشرية بما يعتلج فيها في علاقتها بالطبيعة هو من أكثر الموضوعات معالجة في آداب الهند، تماشياً مع أكثر طرائقهم الدينية الداعية إلى الاهتمام بالروح وتزكيتها، والمواظبة على رفع طاقة الإيمان فيها بالاستعانة بمظاهر الطبيعة وظواهرها ومنتجاتها، وهكذا تصير لغة الأدب لغة للروح وللطبيعة، ومادة ووسيلة للاهتمام بالإنسان الذي عظمه الله ورفع شأنه وسخر له الطبيعة، واللغة، والشعر ليسمو أكثر.

أما الأمة الفارسية فلها تاريخ عريق ورد معظمه في الشاهنامه التي فيها قسم خرافي ليس فيه نصيب مما عرفه التاريخ في آثار الفرس وكتب اليونان إلا حدساً وتخميناً، إذ يذكر معظم ملوك البشاديين والكيانيين في الأبستاق محاطين بكثير من الأساطير الدينية، كما يذكر معظم هؤلاء الملوك من (كيومرث) إلى (كيخسرو) في الأساطير الهندية أيضاً، فهم بقايا من الأساطير الآرية، حفظها الهنود والفرس على خلاف فيها، وروايات أمة قديمة نسجت حول أبطال تدل أسماؤهم أنهم

¹ - تادرس، خليل: أحلى الأساطير الهندية، كتابنا للنشر، المنصورية، لبنان، ط1/ 2011، ص 12، 13

² - لوبون، غوستاف: حضارات الهند، ص 442، 443.

كانوا من قوى الخير والشرّ في الثقافة الآرية القديمة، ثم دخل الفرس في فترة صامتة بعد حروب الإسكندر دامت قرابة خمسة قرون، حتى ترجمت الأبستاق، وخلطت بأساطير الملوك الأشكانيين، فانقلب الأبطال ملوكا قدماء سيطروا على إيران، وأضيف إلى هذا ما عرفه الفرس عن عداء الأشوريين والعرب والتورانيين من أساطير قديمة أو وقائع حديثة ردوها إلى عهد قديم... بالقياس على هذا ليس بعيدا أن تكون أساطير (كيكاوس) و(كيخسرو) من قبلها ومن بعدهما قديمة جدا، أو بقايا محرفة عن حقائق بعيدة العهد أفلتت من قيود التاريخ والخلاصة أن هناك دلائل تثبت قدم القصص التي في الشاهنامة، ولا يسع الباحث إلا أن يظن أن هذه القصص دونت قبل زوال الدولة الساسانية.⁽¹⁾

كما أن الشعب الإغريقي - كما يقول الأنثربولوجيون - يرتدّ إلى جنس آريّ، وحجّتهم في ذلك هو أن النازحين منذ أقدم العصور إلى بلاد اليونان نزحوا إليها من أواسط آسيا، حيث عاش الآريّون من الشعوب الهند-أوربية، وقد يكون من العسير ملاحقة هذه الهجرات الآرية إلى اليونان وتعرّف مسالكها ومراحلها التي أخذت تنزح عن بلادها منذ القرن المتمّ العشرين قبل الميلاد، ومنذ بدأت تلك الهجرات بدأ تاريخ اليونان.⁽²⁾

غير أن ثمة ظاهرة مشتركة في هذا النتاج الأدبي على اختلاف ألوانه هي صدق التعبير وهو ما لا يتأتّى إلا عن نظرة للكون والحياة واضحة لا غموض فيها ولا خفاء، وهذا لا يكون إلا عن أناة لا تصحبها عجلة، وهداة لا تقطعها بلبله، كما نحسّ فيه كذلك أثرا للحياة الطليقة في الجوّ

¹ - الفردوسي: الشاهنامة، تر/ البنداري، تحقيق: عبد الوهاب عزام، مكتبة دار الكتب المصرية، القاهرة، ط1/ 1932، ص 27، 28، 31. (من مقدمة المحقق).

² - عكاشة ثروت: الإغريق بين الأسطورة والإبداع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (ج 15)، ط2/ 1994، ص 228. ولمعلومات أكثر ينظر: خليل سارة: تاريخ الإغريق. (مرجع سابق).

الطّليق وإقبالا على الحياة... ويعزو الدّارسون هذا كلّهُ إلى ذلك المناخ المعتدل الذي ساد بلاد اليونان على مختلف الفصول.⁽¹⁾

خلف الأشعار الهوميرية إذن يقع ماضٍ طويل وتراث عريق من أعمال أدبية لم تصل إلينا لأنها في غياب فن تدوين الأدب لم تكتب ولكنّها أُلقيت شفاهة، وتناقلتها الأجيال قرنا بعد قرن من خلال الرواية المسموعة، لا الصّحف المقروءة، ومن ثمة لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا إن هذا التراث الشعري الشفوي - مفقود الآن - وما فيه من تأثيرات شرقية واحدة يعدّ الفصل الأوّل الذي بدونه لا يفهم كتاب الأدب الإغريقي، وبشيء من اليقين يمكن العودة بهذا الأدب المفقود إلى حوالي (1600 ق. م - 1200 ق.م)، أي إلى عصر الحضارة الآخيّة التي تسمى الآن الحضارة الموكينية.⁽²⁾ وقد كتب الخطيب الروماني شيشرون عام 55 ق. م أنّ طاغية أثينا هو الذي إبان القرن السادس ق. م، قد رتّب كتب هوميروس التي لم تكن من قبل على هذا التّرتيب الذي نعرفه⁽³⁾

أما بالنسبة للأدب اللاتيني فإن الفترة الممتدّة بين عامي 753 ق.م و 240 ق.م، أي تاريخ التأسيس الأسطوري وتاريخ الإنتصار على قرطاجة، فترة قحط شامل في إيطاليا مقارنة بالأمجاد العسكرية والفتوحات وقد يعود هذا إلى عدم الاستقرار اللغوي "فاللغة اللاتينية كانت تسير ببطء شديد جدا وراء الجيوش الرومانية المحاربة والفاتحة في أنحاء إيطاليا ذات اللغات واللهجات الرومانية"،⁽⁴⁾ حتى جاء جيل الرواد الأوائل أمثال (أندرونيكوس) مترجم الأوديسة إلى اللاتينية في

¹ - السابق، ص 227.

² - عثمان أحمد: الشعر الإغريقي تراثا إنسانيا وعالميا، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1984، ص 20.

³ - السابق، ص 24.

⁴ - عثمان أحمد: الأدب اللاتيني ودوره الحضاري، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989، ص 7.

النصف الثاني من القرن الثالث قبل الميلاد، و(إنيوس) أبو الأدب اللاتيني (239 ق.م - 169 ق.م) صاحب الملحمة الحولية البونية الذي يربط فيها الأسطورة بالماضي، ويوصل الماضي بالحاضر، ويعبد بها الطريق للأمير الشعر اللاتيني.⁽¹⁾

¹ - السابق، ص 13 إلى 33.

الفصل الأول

الشخصية في الرحلة الأسطورية والرحلة الملحمية.

المبحث الأول: ملامح الرحالة الأسطوري.

أولاً: ملامح الرحالة الأسطوري في عالم الأحياء

ثانياً: ملامح الرحالة الأسطوري في العالم الآخر.

المبحث الثاني: ملامح الرحالة الملحمي.

أولاً: ملامح الرحالة الملحمي في عالم الأحياء.

ثانياً: ملامح الرحالة الملحمي في العالم الآخر.

الفصل الأول: الشخصية في الرحلة الأسطورية والرحلة الملحمية.

مدخل: يتبع عادة الحديث عن الأساطير والملاحم مصطلح البطل، حين التطرق إلى الشخصية الرئيسية خاصة، ولكّني أثرت توظيف مصطلح الشخصية لما فيه من ليونة في الإستعمال السردية كافة، خاصة وأن الرحلة من ألوان السرد التي توظف الرحالة شخصية رئيسة، إلى جانب رفاقه باعتبارهم شخصيات ثانوية، بيد أنني كنت أعود من حين إلى آخر إلى التنكير بأصله البطولي حتى لا نغفل عن إمكاناته الأسطورية المتراوحة بين الخارق والملحمي.

إن أي نص سردي إلا وتوفر على شخصية مؤطرة بزمان ومكان حتى تحدث الحياة فيه، واستقبال المتلقي لهذه الشخصية يكون وفق التقنية التي لجأ إليها المبدع لتعريفنا بها، وهي إما:

- تقديم الشخصية بأدق تفاصيلها.

- تقديم الشخصية بحجب كل وصف مظهري.

- تقديم الشخصية بشكل مباشر (طبائعها وأوصافها عن طريق المبدع، أو شخصية أخرى، أو هي نفسها).

- تقديم الشخصية بشكل غير مباشر: يترك للقارئ أمر استخلاص النتائج والتعليق على خصائص

الشخصية من خلال الأحداث التي تشارك فيها أو عبر الطريقة التي تنتظر بها إلى الآخرين.⁽¹⁾

¹ - بحراوي، حسن: بنية الشكل الروائي، الفضاء - الزمن - الشخصية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط2/ 2009، ص 223.

ونحن نجد أن القصص الأسطورية والرحلية وكذا الملحمية، تعتمد كثيرا على إجلاء مظهر الشخصية المادي بشكل مباشر وبأدق التفاصيل أحيانا وللوهلة الأولى، فتعتمد إلى وصف سماتها الخارجية، بينما يترك للمتتبع غالبا مهمة اكتشاف الباقي عنها باستخلاص طبائعها ودخائلها من خلال قيامها بالحدث أو موقفها من فعل أو شخص آخر، فهي تشرك المتلقي في رسم الشخصية والحكم عليها، وهذا ما سنراه من خلال تعقبنا لنماذج شخصيات الرحالة.

المبحث الأول: ملامح الرحالة الأسطوري:

أولا: ملامح الرحالة الأسطوري البطل في عالم الأحياء:

مدخل: الرحلات الأسطورية أو الرحلات في الأسطورة: هي رحلات إبداعية خيالية نسبها مبدعو الأساطير القدامى سواء من الإغريق أو من الرومان، أو الهنود، أو المصريين، أو السومريين... أو من غيرهم من الأمم إلى بعض الأبطال الأسطوريين، محاولين تتبع خطى الإنسانية، في سفرها عبر البر والبحر، وهي تجوب مختلف المواطن والمواقع لتتعرف على عالم الأرض وسكانه، ولكن رغم قدمها وأسطوريته، إلا أنها تتميز ببعض مواصفات الرحلة الواقعية، فرغم الخيال المجنح، والتلفيق، والتصوير، يبقى الشيء اليسير من الحقيقة يسري في الجسد الأسطوري.

تتحدث (كارين أرمسترونغ) عن الشامان (الصياد) منذ آلاف السنين، وكيف يخضع إلى مجموعة كبيرة من التمارين، والطقوس، والتدريبات ليصير بطلا وعلى رأسها الرحلة/ الخروج.⁽¹⁾

1 - ملامح الرحالة الأسطوري في بلاد الرافدين:

¹ - ينظر أرمسترونغ، كارين: تاريخ الأسطورة، تر/ وجيه قانصو، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط1/ 2008.

مدخل: عصر البطولة في ميثولوجيا بلاد الرافدين: (العصر البطولي السومري): هو أقدم⁽¹⁾ ما عرفته بدايات الحضارة في عالم الإنسان، إذ بلغ أوج ازدهاره في سومر منذ الربع الأول من الألف الثالث لما قبل الميلاد، ويعني ذلك أنه سبق العصر البطولي اليوناني بخمسة عشر قرناً، وأهم ميزات العصر البطولي هو أن الشعراء كانوا ينشدون البطولة والمغامرات التي كان يقوم بتحقيقها أفرادهم الأبطال. ولم يكونوا يتغنون أو يحتفلون بتفوق الممالك أو المجموعات، وفي سومر سبق العصر البطولي عصر التدوين، لذلك كانت التقاليد تتناقلها شفويًا، مع أنها (سومر) هي أقدم من سجل سير الآلهة والأبطال والحكماء اعتباراً من الثلث الأول من الألف الثاني قبل الميلاد، وتتحدث النصوص ذات الأساس التاريخي لفترة الملكية الأولى (2850 - 2500 ق.م) والثانية (2500 - 2350 ق.م) عن المدن (أوروك... كيش... أراتا...) والملوك (جلجامش... إينمركاز، لوجال باندا، دموزي) الذين بنيت حولهم أحداث الفترة البطولية السومرية وصيغت عنهم القصائد والملاحم.⁽²⁾

وهي الفترة المثالية التي حفظتها لنا ذاكرة أحلام الشعراء الذين ابتدعوا نصوصاً حببت إلينا أبطال وأحداث تلك الفترة حين كانت الخلافات بين الممالك لا تولد حروباً دامية، بل كان يتخذ القرار بشأنها بحل الخلاف بالوساطة والتحكيم، أو في أسوأ الاحتمالات باللجوء إلى مبارزة بين بطلين أو ساحرين، يختار كل طرف ممثله، ويخضع للطرف المنتصر.⁽³⁾

ملاحم الرحالة إنانا: (أسطورة إنكي وإنانا):

¹ - يبدأ كارم محمود عبد العزيز كتابه أساطير العالم القديم بأساطير مصر القديمة ثم يليه العراق القديم.

² - الشواف، قاسم وأدونيس: ديوان الأساطير سومر وأكاد وآشور، الكتاب الرابع: الموت والبعث والحياة الأبدية، دار الساقى، بيروت، ط1/2001، ص 242، 243.

³ - السابق، ص 13.

لقد قررت (إنانا)⁽¹⁾ القيام برحلة تزور فيها أباه (إنكي)، وقد عقدت العزم على إلهائه وإطلاق الغشاوة على قلبه وبصيرته، حتى تتمكن من إقناعه بالتنازل لها عن أسفار (نواميس الحضارة) المقدسة التي يحتكرها لنفسه منذ عهد بعيد.

استغلت إنانا مائدة الضيافة التي احتفى بها أبوها على شرفها، وراحت تسقيه الكأس تلو الأخرى من الخمرة، التي أطبقت على عقله ولبه، فجعلته يهبها⁽²⁾ كل ما بحوزته من أسفار الحكمة الحضارية القوية.

شخصية الرحالة البطلة (إنانا): لقد كانت سيدة على مدينة (أوروك) العظيمة، ولكن حضارة مدينة (إيريدو) كانت أعظم وأقوى لأن أباه الحكيم كان يملك نواميس الحضارة الحقة، فعاشرت مدينته أزهى وأعظم حقب المجد الذهبي، وأبهى أعصر العطاء والنماء، بيد أن أوروك لم تكن كذلك. ولأنها تحب مملكتها، وأهل مملكتها، وشغوفة بالتطور والإزدهار، فقد وضعت نصب عينيها أن تستولي على كنوز الحكمة من مكان آخر، حتى ولو كان (إيريدو) مملكة أبيها وحتى لو اضطرت إلى استعمال الخديعة واللؤم، والغش، والتغريب بالأب الغافل السعيد بزيارة ابنته له.

شخصية الأب (إنكي): كان أبا مسرورا ومبتهجا بزيارة ابنته له، ويبدو أنها كانت حبيبة أثيرة إلى قلبه، فقد جالسها وتركها تغريه بكؤوس الشراب حتى ذهب إدراكه واتزان تفكيره، فراح يمنحها في كل مرة هبة سخية من (نواميس الحضارة) حتى ما بقي له منها شيء، بل وزاد على ذلك أن أوصى بها خادمه كي يسهر على عودتها إلى مدينتها آمنة على قاربه القوي، زورق السماء.

¹ - ومدلول اسمها في السومرية: سيدة السماء.

² - نتذكر ما فعلته (إريس) مع أبيها (رع).

شخصية الرفيق: كان لإنانا رفيقة في رحلتها هذه، مقاتلة شرسة، وحكيمة نصوح، هي خادمتها

(ننشوبور)⁽¹⁾ التي صاحبت بها لما شعرت بمطاردة خادم أبيها لها:

"لقد كنت فيما مضى ملكة الشرق

والآن أنت القِيمة المخلصة على هيكل أوروك

فيا معينتي التي تقدم النصح الحكيم

ويا مقاتلتي التي تحارب في صفي

تعالني أنقذي زورق السماء والنواميس المقدسة"⁽²⁾

وفعلا لقد ألبت هذه الخادمة نداء سيدتها (إنانا)، خاصة وهي تعدد لها المنح التي ستفوز بها إن

نجحت في مساعدتها، فهي سترفعها إلى رتبة (درجة) كاهنة معبد.

"ننشوبور شقت الهواء بذراعيها

وأطلقت صرخة تهز الأرض

قدفت تتانين الإينكوم، وأعادتهم إلى إيريدو"⁽³⁾

واستمرت في قتالها ودفاعها المستميت عن زورق السماء عدة مرات، كلما حاول (إنكي) وخادمه

معاودة الكرّة لإعادة النواميس المسلوبة، وكانت تنجح في كل مرة، رغم استعانة (إنكي) ب:

1) تتانين الإينكوم.

¹ - ننشوبور تظهر في نص آخر رفيقا، ذكرا (لا أنثى).

² - السواح، فراس: الأسطورة والمعنى، ص 122.

³ - السابق، ص 123.

(2) خمسين من عمالقة الأورو (العمالقة الطائرون).

(3) خمسين من وحوش اللاباما.

(4) الكوكالجال ذوي الصوت الثاقب.

(5) الإنيونون.

(6) حراس قنال الإيتورونجال.

شخصية العدو:

1 - إيسموند (خادم إنكي): لقد كان (إيسموند) خادما لأبيها (إنكي) وتابعاً له ومعيناً. في البداية راح يكرر بهدوء وروية لمليكه نفس الجواب أربع عشرة مرة، ثم حاول باجتهاد أن يسعى لاستعادة ما أخذته الابنة (إنانا) بدهاء.

أولاً بالحكمة والهدوء: "كلمات إنكي ينبغي ألا تعصى

لقد قال مليكي دع إنانا تتابع طريقها إلى أوروك

واستعد زورق السماء والنواميس إلى إيريدو"⁽¹⁾

ثانياً بالقوة والعنف: لقد قاد مجموعات من الجنود في كل مرة مكرراً الكر والفر. دون أن يستسلم، حتى استسلم الأب لما تمكنت (إنانا) من دخول مدينتها بالكنوز المقدسة، فلم يجد أمامه سوى مباركتها ومباركة (أوروك) على مجدها الجديد الذي جلبته لها (إنانا).

2 - الأب (إنكي): لقد كان الأب مبهتجاً بزيارة ابنته (إنانا) له، وفي غمرة الفرح والنشوة منحها دساتير القوة الحضارية، التي يملكها جميعاً والتي تعلي مجد مدينته (إيريدو) فكان لزاماً عليه لحظة

¹ - السابق، ص 122.

صحوه أن يسعى لاستعادة هذه النواميس، واستعمال الرجاء أولاً، ثم العنف ثم الإستسلام أخيراً لما أدرك أنه لن يتمكن من إرجاعها.

3 - الجيوش: قَدَم (إنكي) لخادمه مددا من جيوش جبارة وكثيرة، (التنانين، عمالقة الأورو، وحوش اللاباما، الكوكالجال، الإنيونون، حراس قنال الإيتورونجال). ولكن ذلك لم يُجِدْه نفعاً، أمام حرص وإصرار (إنانا) وخادمتها الشرسة.

2 - ملامح الرحالة الأسطوري في مصر القديمة:

مدخل: عصر البطولة في ميثولوجيا المصريين القدامى:

تصوّر قدماء المصريين أن آلهة قد حكمت الأرض منذ بدايات الخلق وحتى أوائل الأسرة الثامنة عشرة (1800 ق م . 1304 ق م) حيث تركت الحكم للبشر وقد كان حكمها وراثياً مقدساً متتالياً، وعلى رأس هؤلاء: رع، بتاح، جب، أوزيريس، ست، حوريس، تحورت وماعت ليكونوا مجموعة العشرة، ثم السلالة التي تأتي بعدهم ويطلق عليها (أنصاف الآلهة) أو (أرواح أخ) والتي تمثل الانتقال إلى العصور التاريخية وبداية عصر الأسرة الفرعونية.⁽¹⁾

وإن هذه الأساطير من ابتداع الكهنة المصريين ولا يبعد عن الظن أن تكون بعينها تحكي حكايات دينية حدثت فعلاً، وقد يكون لبعضها علاقة بالانبياء والرسل الذين مكنوا في أرض مصر منذ قديم الزمان، إلا أن الكهنة شوهوا وحرفوا بعض هذه الوقائع بما يخدم مصالحهم ويزيد نفوذهم⁽²⁾ حيث أنهم تمتعوا بصلاحيات لا حدود لها إبان العصر الفرعوني المستفيد بدوره من خدمات هؤلاء الذين كانوا يبتدعون أساطير ونبوءات تظهر رضا الآلهة عليهم.

¹ - حامد اسماعيل: موسوعة الأساطير الفرعونية، ص 16.

² - السابق، ص 31.

والذي يمعن النظر في هذا الاعتقاد الذي كان يؤمن به المصري القديم منذ بدايات التاريخ (حوالي 3200 ق م) قد يخلط عليه الأمر كثيرا، فهل هذا الاعتقاد بحكمهم على الأرض وتلك الفترة التي جعلته يحدد المدة التي حكمها كل إله. يدخل في طور الأساطير التي ابتدعها انسان مصر القديم؟ أو - بالفعل - يشي بأمر من الحقيقة؟

أم أن الأمر كما يظن البعض (كالمدرسة التاريخية) أن هذه الآلهة التي حكمت الأرض لم تكن إلا بشرا حكموا بالفعل على أرض مصر القديمة، وبعد أن ماتوا قدّسهم المصريون بل إنهم غالوا في ذلك التقديس⁽¹⁾ ولكن المثير والمدهش هو أن يغلفوا هذا الاعتقاد ببلاغة اللغة الشعرية وأن يمزجوا تصورهم المقدس بخيال أدبي متقجر، عالج جميع القضايا والأفكار بحدث قصصي عجيب، فيه المغامرة، والرحلة والكفاح. وأن يلبثوا عليه عاكفين آلاف السنين وتستمر الرحلة في الرحيل دون شكوى.

الرحلة في الأساطير المصرية القديمة:

لعبت الحضارة المصرية القديمة دورا رياديا في العالم القديم، باتصالها بمختلف الحضارات المعاصرة والمتاخمة لها، وأنتج كهنتها الكثير من النصوص الأسطورية التي تتحدث عن هذه العلاقة، وعن هذه الإتصالات والتواصل فظهرت بذلك مدونات زاخرة، موضوعها الرحلة، وبطلها رحلة جاب الأفاق والأمصار من أجل مهمة ما، وربما كان أشهرها رحلة (إيزيس) التي راحت تنتقل هنا وهناك من أجل زوجها أوزوريس، كما نعر على "رؤية أسطورية في قصة الملاح التائه التي ترجع إلى عصر الدولة الوسطى والتي تدور حول رحلة في مناجم الملك والبردية محفوظة في المتحف الإمبراطوري في سان بطرسبورغ، وتحتوي على نص لحكاية الملاح التائه الذي كان ضمن

¹ - السابق، ص 17.

مجموعة من البحارة الذين تغربوا عن بلادهم حيث تجسد القصة مشاعر الوحدة والخوف والمعاناة والحنين إلى الوطن، وهي المعاناة التي لاقاها بحار غرقت سفينته وتشبث بالحياة حتى رسى على جزيرة بها خيرات كثيرة وغير مأهولة بالسكان تماما، وبعد أن إستعاد عافيته فوجئ بظهور شعبان كبير أدار حوارا مع البحار، الذي قص له حكاية غرقه ورغبته في العودة الى بلده، فطمأنه الشعبان وعاد البحار إلى وطنه محملا بخيرات كثيرة من تلك الجزيرة.⁽¹⁾

إذن فموضوعات الرحلة/ البحر/ الضياع/ العودة... كانت موجودة ومتوافرة في الفن المصري القديم، وكانت مادة الإبداع الأدبي، ومرمى فكري وروحي للحضارة، والمعالجة الأسطورية للحدث تتبع من الوجه المألوف للحياة اليومية والاجتماعية للإنسان المصري، فالعقدة الحكائية برغم أسطوريته وأدبيتها فهي أزمة تدلهم في الواقع المعيش بحياة من ألفوا الرحلة وجعلوها خبز حياتهم.

ملاح الرحالة خنسو* منفذ المشاريع من طيبة المصرية إلى (بختن) إمارة ما بين النهرين:

ربما لم يتحدث الإغريق عن حركة مجسمات معبوداتهم، ولكن المصريين فعلوا، إذ أن في بعض أساطيرهم حديث عن بعض المعبودات وهي الأرواح بمجسماتها، فبعد رحلة العلماء (بيت الحياة) إلى بلاد نهارينا (ما بين النهرين . مملكة الحثيين) للناية بالابنة الصغرى لأمير (بختن)⁽²⁾ وعجزهم عن طرد الأرواح الشريرة، أرسلوا في طلب إله يستطيع التغلب على هذا المرض الخبيث، في العام

1 - سليمان، محمد عبد الفتاح: الأسطورة والتوظيف الحضاري في الثقافة المصرية القديمة، مجلة علم الفكر، العدد 04، المجلد 40، ص 55.

وانظر نص القصة في أشهر القصص الفرعونية: أيمن عادل، دار مشارق للنشر والتوزيع ودار طيبة للطباعة، الجيزة، ط1/ 2008، ص: 19- 23.

*- خنسو معبود مصري ابن آمون وموت، عبد معهما في الكرنك.

2 - في صياغتهم لقصة الأميرة والشيطان، حرّف كهنة البطالمة الحقائق الخاصة بحكم رمسيس إلى حد بعيد حتى توافق رغباتهم في الحقيقة، وفي عام 1285 ق.م، خاض رمسيس معركة كبيرة ولكنها غير حاسمة مع الحثيين، شعب يسكن في آسيا الصغرى (تركيا الآن). وبعد سنوات عديدة، قامت الدولتان بتوقيع معاهدة سلام؛ ختموها بزواج رمسيس من ابنة ملك الحثيين. في رواية الكهنة المكتوبة على لوحة حجرية، يتزوج رمسيس على العكس من ابنة ملك بلاد بختان البعيدة (والتي ربما تمثل بكتريا القديمة في شمال أفغانستان الآن، أو أنها دولة من وحي الخيال).

السادس والعشرين، الشهر الأول من الفصل الثالث في موعد الاحتفال بآمون في طيبة⁽¹⁾. ولهذا حُمل تمثال (خنسو) الجميل . الخير إلى تمثال (خنسو) منقذ المشاريع الأعظم، فزود الأول الثاني بقوته السحرية مرة بعد مرة حتى بلغت أربع مرات ثم أمر جلالة الملك (رمسيس) أن يُنقل (خنسو) منقذ المشاريع إلى سفينة تحرسها خمسة قوارب نيلية، وجهزت بعربات وخيول كثيرة من الغرب والشرق، ووصل إلى بلاد (بختن) بعد رحلة بلغت عاما وخمسة شهور، فاستقبله الأمير بجيوشه وضباطه مرعبا، ولكن أخذه الهلع منه لما سمع تحاوره مع الروح الشريرة التي رضخت واستسلمت وقررت الرحيل والعودة من حيث جاءت، ففرح وأسّر في نفسه أمرا (سأدعو هذا الإله ليبقى بيننا في بختن ولن أدعه يرحل إلى مصر) فاستقر المقام بخنسو الإله الرحالة مدة ثلاثة أعوام وتسعة أشهر، وحدث ذات مساء أن رأى الأمير (بختن) في منامه (خنسو) وقد خرج من ناووسه كصقر ذهبي وحلق في السماء باتجاه مصر، فأسرع وزود الكاهن بالكثير من الهدايا القيمة، وبأعداد لا تحصى من الجند والخيول وطلب إليه أن يسرع مع (خنسو) بالعودة إلى الوطن، فنزل بمعبده في طيبة بسلام وسعادة في السنة الثالثة والثلاثين في اليوم التاسع عشر من الشهر الثاني من الفصل الثاني من حكم ملك الشمال والجنوب (أوسر . معات . رع . سبت . إنترع) معطي الحياة مثل رع إلى الأبد.⁽²⁾

ومما يبدو في هذه القصة أن الشعوب والأمم تتبادل بينها المنافع والمصالح، فترحل في طلبها من مكان إلى مكان مهما شطّ وبعد. وكانت حكمة التطبيب والبحث عن الدواء والشفاء من مشاغل الإنسان واهتماماته، ولهذا سارع الأب أمير "بختن" للاستجداد بالطب المصري لما عرف عنه من

1 - طيبة أو ثيبة: (الأقصر حاليا) مدينة قديمة في صعيد مصر على النيل بمحافظة "قنا"، عاصمة الدولة الحديثة، ازدهرت في عهد سلالة 11، واشتهرت بعبادة آمون، بدأت بالانحطاط في عهد السلالة 19، وتحولت إلى مركز ديني، نهبها الفرس 663 ق.م، خربها البطالسة، عمرت بالنسك في القرون المسيحية، أهم آثارها الأقصر والكرنك، وعلى ضفة النيل الغربية مدينة (هيو) ودير البحري وتمثالا ممنون.

2 - عادل أيمن: أشهر الأساطير الفرعونية، دار مشارق، دار طيبة، الجيزة، ط1/ 2008، ص 61 إلى 67.

قوة وفعالية، ولبي الملك الالتماس من حليفه وسارع بإرسال الحكماء، فلما يؤسوا، من جديد سارع بإرسال تمثال (خنسو) منقذ المشاريع وطارد الأرواح الشريرة وقد ذهب في هذه الرحلة طائعا، إذ أنه سئل فأجاب بموافقة وتلقى حكمة العلاج من (خنسو) الجميل الخير وقضى عاما وخمسة شهور في طريق الذهاب قبل أن يتمكن من بلوغ هدفه والقيام بواجبه وعلى وجه السرعة والحضور. فلحظة وصوله عالج الفتاة دون إبطاء أو شروط. ثم لبي داعي الضيافة فمكث ثلاث سنين قبل أن يوحي برغبته في العودة.

إن رحلته طويلة ومتعبة ومضنية ومكلفة، ولكن واجب مساعدة المرضى وتلبية دعوة الحلفاء واجبة والرحالة رغم ضخامته فلم يكن من المستحيل أن يتحرك إن توفرت الإرادة والرضا بالمهمة الموكولة إليه، وقد كان يمكن حمل الفتاة ببسر إليه ولكن الحكمة والأسطورة أثبتت إلا أن تجعل من (خنسو) رحالة ذهابا وإيابا، فإن الانتهاء من المهمة يوجب العودة إلى الوطن، فالوطن والأهل أولى بخدماته ووجوده بين أهله فيه شعور مختلف عن الإقامة ضيفا في دار الغربة طويلا.

ملامح الرحالة الأنثى: (إيزيس)⁽¹⁾

مولد البطلة الرحالة: كان الجد الأكبر (رع) يخشى أن يثمر زواج حفيديه (نوت) و(جب) عن ولادة تتازعه حكم الكون فحرم على (نوت) أن تنجب خلال أيام السنة الثلاثمائة والستين (360) وهذا هو تعداد أيام السنين في ذلك الزمن. فلجأت (نوت) إلى الحكيم في العلوم واللغات (تحت) فراهن (سيلينا) القمر التي تعكس نور (رع الشمس) في غيابه على حزم من ضوءها إن هو تغلب عليها،

1- إيزيس: تعد هذه الأسطورة أحد أقدم الأساطير المصرية القديمة ويعتقد أن تاريخها يرجع إلى حقبة بعيدة قبل بداية التاريخ المصري القديم. وقد تطورت هذه الأسطورة بمرور الزمن، بما كان يدخل عليها من التحوير والإضافات في كل حقبة تاريخية. وأول صورة لهذه الأسطورة تظهر في متون الأهرام - وهي متون دينية كانت تنقش على الجدران الداخلية للأهرام وكان الملك (أوناس) - آخر ملوك الأسرة الخامسة أول من قام بنقشها - وتتحدث الأسطورة عن تأمر الآخر الشرير (ست) على أخيه الطبيب (أوزير) فقتله وألقى بجثته في الماء، وتصور هذه الأسطورة، أو لنقل هذه الملحمة العظيمة أعظم مظاهر الوفاء لإمرأة وهي "إيزيس" التي ظلت تبحث عن زوجها المفقود في كل مكان ورغم ما كانت تكابد في البحث إلا أنها لم تفقد الأمل.

فجمع ما يعادل الضوء المنسكب في خمس ليال قمرية لنفسه، ولا زالت (سيلينا) إلى اليوم تعاني من آثار هذه الخسارة فلا تملك القدرة على الإشراف بنفس القدرة من القوة طوال الشهر. وأضاف (الحكيم تحوت) هذه الأيام الخمسة بين نهاية وبداية كل سنة. فأنجبت (نوت) في أول ليلة (أوزوري) وفي الليلة الثانية (حورس)⁽¹⁾ وفي الليلة الثالثة (ست) وفي الليلة الرابعة (إيزيس) وفي الليلة الخامسة (نبت . حت) أنجبت هؤلاء جميعا دون أن تعصي (رع)!⁽²⁾

مقتل أوزوريس زوج الرحالة إيزيس: ونودي أن أوزوريس ملك الملوك ورب الخير للبشرية. وصار (ست) يعمل بخبث ودهاء للتخلص منه طمعا في عرشه. فصنع تابوتا على مقاييس جسد أخيه ملك الملوك، صنع تابوتا نادرا من خشب الآبنوس والسكر الذين لا ينبتان في أرض النيل وطعمه بالذهب والفضة، ثم أقام مأدبة على شرفه ضمت اثنين وسبعين من أعوانه ورفاقه في مؤامرة لم تشهد لها الدنيا مثيلا. ثم أحضر التابوت فسكر به الأنظار وأعلن "ان من يرقد في هذا التابوت فيناسبه أصبح له..." ولكن أنى يفوز به أحد وقد صنع خصيصا لأوزوريس "إنه يناسبك تماما، وجدير به أن يناسبك إلى الأبد" وسارع بإلقائه في نهر النيل بكل الحقد الطاعي في قلبه. وأبحر التابوت شمالا حتى (دلتا) ثم غادره إلى البحر الأعظم ولم يتوقف حتى شاطئ (ببيلوس) إمارة الملك (مالكاندر) تحت جذوع شجرة عظيمة سرعان ما نمت أغصانها حول التابوت ليختفي في جوفها. وفي رحلة استجمام إلى ذلك الشاطئ، أعجب (مالكاندر) وزوجته (أستارات) بالشجرة العظيمة المتشابكة فأمرأ بسحبها إلى قصرهما وتابوت (أوزوريس) لا يزال في جوفها!⁽³⁾

¹ - يظهر حورس أخا لأوزوريس وإيزيس، ثم ابنا لهما؟!

² - حامد اسماعيل: موسوعة الأساطير الفرعونية وروائع القصص الشعبي، ص 104.

³ - السابق، ص 107، 108.

قلب إيزيس: رغم أن أحدا لم يخبرها بمقتل زوجها إلا أنها استشعرت ما لم يطمئنها عن سر غيابه المفاجئ، فخرجت بطفلها، وخاضت مستنقعات دلتا النيل حتى وصلت جزيرة (بوتو) فتركته هناك ثم نسفت قواعد الجزيرة لتتحرك فلا يعلم أحد بمكان صغيرها (حورس).

استأنفت (إيزيس) رحلة بحثها في أرجاء الكون دون دلالة ما أو إشارة، فتكللت بالفشل تلك الرحلة، وعادت أدراجها تحاذي النيل الأعظم مستاءة تكاد تفقد الأمل وصارت تسأل هذا وذاك ممن تمر بهم من بني البشر خشية أن تصاب باليأس فكان أن أشار بعض الصبية إلى النيل زاعمين مرور صندوق شبيه بما تدعي!. فأسرعت الولهى تسابق الأمواج المتكسرة الصاخبة حتى بلغت البحر، فهامت على طول شاطئه حتى أعيها التعب، وقد بلغت (بيبلوس/ جبيل!)، فراحت تستريح مع بعض فتيات القصر السابحات وتجدل ضفائرهن ببراعة متميزة فدعتها أستارات لترعى طفلها ولما عرفت قصتها احتفلت بها ومنحتها التحف والهدايا والغرائب والطرائف ومنها الشجرة الجميلة المعقدة المتشابكة الجذور والجذوع والأغصان!⁽¹⁾

رحلة العودة: أعد الملك مالكاندر سفينة ضخمة لـ (إيزيس) لنقلها إلى أرض النيل ضمن موكب حاشد يليق بملكة وجثمان زوجها، ورافقها ابنه الأكبر حتى أوصلها الدلتا، حيث جزيرة (حورس) ابنها، ثم مواصلة طريق العودة إلى الديار وصار أن خبأت التابوت من ضوء القمر بين سيقان النبات حتى تعود بالصغير (حورس) فشاءت الأقدار أن يخرج ست في رحلة صيد ليتفاجأ بالتمتع الذهب والفضة أمام عينه، كانت الصدمة أقسى مما يحتمل فجن جنونه فأخرج الجسد من التابوت وشرع في تقطيعه بلا رحمة إلى أربعة عشر جزء، ثم نثرها بكل ما أوتي من قوة في المياه راجيا أن تأكلها التماسيح.

¹ - السابق، ص 103.

عادت (إيزيس) المخلصة بابنها (حورس) وعلمت بالحادثة فأسرعت تبحث في رمال الصحراء عن أجزاء الجسد تحرسها سبعة عقارب مقدسة، لما لم يفلح بحثها، صنعت مركبا من ورق البردى وخاضت به غمار المستنقعات، حيث كانت التماسيح تتراجع من أمامها ولم تقترب من أطراف الجثة الممزقة. فجمعت إيزيس بعد عناء وجهد عظيمين ثلاثة عشر جزء ولم تعثر على الأخير وبقيتها السحرية العظيمة التأمت الأجزاء⁽¹⁾ في جسد واحد وعوضت الجزء المفقود، وحنطت الجثة ودفنتها في مقام لا يعلم أحد بمكانه، وقامت بتشييد ثلاثة عشر معبدا في أرجاء البلاد وأوحت أن أجزاء الجسد مدفونة كل على حدة في هذه المعابد حتى تبعد ست وجنونه. ومضت تعد (حورس) وتنشؤه النشأة الحربية العادلة المحبة للخير الدافعة للشر والظلم، ورحلت رحلتها الأخيرة معه إلى أرض المعركة نحو جنوب البلاد حيث معقل (ست) الظالم وأعوانه فواجهت الأهوال والأخطار مالا يطاق هي وفلذة كبدها حيث أصيب بالحمى ثم انقلبت مياه النيل، حجبت السماء بالغيوم الحالكة. إلا أنها كانت تقضي على جميع حواجز ست ولعناته، بطهر قلبها وصفاء نيتها ونبل مشروعها الرامي إلى الخير والجمال والحياة والنماء. وإذا تشكل (ست) وحشا ناريا ضخما عالجته (حورس) بضربة قاضية من رمحه الجبار.⁽²⁾ فانهزم المطر وانطفأ الشر، ولبثت (إيزيس) تنتظر أن تقوم برحلة أخيرة نحو عالم (أوزوريس) في الخالدين.

وقد نقف مع إيزيس في رحلتها على:

- إنها امرأة مؤمنة يحدثها قلبها بمسارات جثة زوجها، فترحل في طلبها من أجل جنازة وقبر يليقان بمقام سيد الملوك وللتخلص من سطوة جشع شيطان الشر.
- إنها رحلة رحالة، امرأة، أنثى، ملكة، زوجة، أم، شابة...

¹ - عادل أيمن: أشهر الأساطير الفرعونية، ص 102، 103، 104، 105.

² - السابق، ص 106.

- كلفتها الأقدار فاستجابت بقلب مليء بالرضا.
- وحيدة سارت تحتضن وحيدها ثم تستودعه جزيرة (بوتو) لتواصل بمفردها.
- بهدوء وسريّة وحكمة وحنان ووفاء.
- لم تستقر حيث توفر لها الرغبة والأمان (بيلوس)، بل آثرت مواصلة الرحلة والعودة إلى المبتدأ.
- أنهت رحلة البحث عن الجثة المفقودة، والروح الموعودة بجمع الأشلاء والتحامها، وتحنيطها، وبناء المقام مزارا مجهولا لها وحدها.⁽¹⁾
- بدأت رحلة أخرى للقضاء على وجع المتألمين من الأشرار لتخليص العالم من دنس الحقد، وكره الجمال، ووأد الحقيقة.
- وقفت خلف ابنها، طفل جميل، وبطل محارب، وجندي في وجه الظلام والظلم، لتبذر الحق وتزرع أزهار الحياة الوادعة، ومن الشمال إلى الجنوب رحلت وإياه من أجل تغيير ما تغلغل في أعماق (ست) وأتباعه.
- ذهبت في رحلة قاسية خطيرة من أجل الأسرة (الزوج، الابن) والوطن (تاج مملكة الشمال والجنوب)

ملاح الرحالة الأمير (نفر - كا - بتاح):

معنى الاسم: يعني هذا الاسم في اللغة المصرية القديمة (جميل هو قرين بتاح).

¹ - رواية أخرى للأسطورة تقول أن القبر كان مزارا للجميع، ولهذا اكتشفه (ست) فعمد إلى نبشه وتمزيق الجثة إلى أربع عشرة قطعة، ورماها في النيل، ومن هنا تبدأ رحلة (إيزيس) الثانية في البحث عن أشلاء الزوج.

إنه الابن الوحيد لفرعون مصر زوجته الحسنة (أهورا) وابنه (ميراب). وقد وجه همه إلى المخطوطات القديمة التي دَوَّنَها الكتبة المصريون على لفائف البردي وأودعوها (دار الحياة) أو تلك الرموز المحفورة على جدران المعابد، وكان ينفق أيامه في دراسة ما خطّه الأقدمون ولكن أحد الكهنة سخر منه قائلاً أن كتاب الحكمة هو الذي يستحق القراءة والاجتهاد، لقد دون (تحت) ذلك الكتاب بيده... وهو يحوي كل ما في العالم من فنون السحر: الصفحة الأولى تكشف الغطاء عن السماوات والأرض، والكهوف والبحار، ولغة الطيور في الهواء، والصفحة الثانية تمكن من العودة إلى الدنيا بعد الموت، ورؤية الشمس والقمر، وكل الكواكب في لحظة واحدة، فقال الفتى (نفر . كا . بتاح): سيصبح ذلك الكتاب ملكي. فردّ الكاهن وقد تسلم المقابل: "إن كتاب الحكمة لـ(تحت) يوجد في قفط، في وسط النهر، وفي صندوق من الحديد، داخله صندوق آخر من البرونز، وآخر من خشب الصندل، وآخر من الأبنوس والعاج، وآخر من الفضة، داخل صندوق الذهب حيث تجد كتاب الحكمة، وحول الصندوق الحديدي تسعى أفاع وعقارب... وأنواع شتى من الزواحف وفوق كل ذلك أفعى مهولة لا يقتلها إنسان.⁽¹⁾

خرج الفتى فرحاً، وأسرع إلى زوجته لتعد له عدة الرحيل فوراً، نحو (قفط) للحصول على هذا الكتاب الفريد، فقالت: "اعدل عن هذه الرحلة لأنها رحلة متاعب وأحزان" ولكن الأمير لم يكن ممن يتراجعون، فقصد توا أباه: "اعطني القارب الملكي حتى أذهب إلى الجنوب وأحصل على كتاب الحكمة، مع زوجتي (أهورا) وولدي (ميراب)، وافق الفرعون، فأبحر القارب في النهر عدة أيام حيث استقبل في موكب عظيم واحتفل به في قفط أربعة أيام، وفي اليوم الخامس دعا الأمير الكهنة والسحرة فصنعوا صندوقاً سحرياً يشبه الغواصة أودعوه تماثيل ومؤناً، ودبت الحياة في التماثيل بتعويذة سحرية، وغمر الصندوق السحري داخل النهر بينما ركب الأمير قاربه الملكي وحيداً، مع

¹ - حامد، إسماعيل: موسوعة الأساطير الفرعونية، ص 305، 306، 307.

كمية من الرمال، وبعد ثلاثة أيام توقف وألقى حمولة القارب من الرمل في النهر صانعا سدين وبين السدين كان فراغ خمسون ذراعا وعرضه خمسون ذراعا وفي وسط الفراغ كان الصندوق ملقى وإلى جواره التفت أفعى مهولة على نفسها وأفاع وأنواع شتى من الزواحف، فصاح فيها الأمير وتلا تعويذة جمدها جميعا إلا الأفعى، فنزل من القارب ووقف وجها لوجه معها، وكان كلما فصل رأسها عن جسدها عادا فالتأما من جديد، فما كان منه إلا أن ذر عليها الرمل، حتى إذا ما حاول الشطران الإتصال ثانية لم يتمكنوا لوجود رمال تفصل بينهما، فأخذ الصندوق الذي يحتوي على مجموعة من الصناديق داخل بعضها البعض، ثم كتاب الحكمة، ففتحه وقرأ الصفحة الأولى، فكشف عن بصره غطاء السماوات والأرض... ثم قرأ الصفحة الثانية فرأى الشمس مشرقة والقمر بدرا في آن واحد، فأسرع وتلا تعويذته على خدمه من التماثيل، فجذوا ليلا ونهارا في العودة به، حتى وصلوا (قفت)، حيث كان قد ترك زوجته وابنه والقوم ينتظرون، ثم دعا بقطعة طاهرة من ورق البردي فكتب عليها كل التعاويذ التي يحتوي عليها (كتاب الحكمة)، ثم تناول كوب جعة وغسل فيه رقعة البردي حتى ذابت الكتابة تماما في الكوب فتجرعه حتى الثمالة. وهكذا حفظ كل التعاويذ عن ظهر قلب.⁽¹⁾

ولما تقطن (تحت) إلى سرقة كتابه قرر الانتقام من الأمير (نفر . كا . بتاح) باختطاف زوجته وابنه، وبينما كان القارب الملكي مبحرا باتجاه الشمال في هدوء ورخاء خرج الصبي من تحت المظلة، وتقدم حتى بلغ حافة المركب، وحقق في ماء النهر، فاجتذبتة قوة خفية فسقط وغرق، ولم يتمكن أحد من إنقاذه أو انتشاله، فقرأ الأمير تعويذة فطفت جثة الطفل (ميراب) الذي تكلم وأخبر

¹ - السابق، ص 308 إلى 311.

أباه بسر سقوطه وموته، فأمر البطل البحارة أن يعودوا أدراجهم إلى (قفط)، لإقامة جنازة تليق بابنه.⁽¹⁾

ولما انتهت طقوس الجنازة، أبحر القارب الملكي ثانية في طريق العودة نحو الشمال، وفقدت الرحلة بهجتها وأثقلت الهموم قلب الأم (أهورا) الثكلى، وتوقعا لأحزان جديدة، ولما وصل القارب إلى ذات المكان الذي غرق فيه ابنها أخذت تحرق في المياه للذكرى والسلوى، فسقطت وغرقت في الحال، واجتهد البحارة فلم يتمكنوا من إنقاذها. فتلا الأمير ثانية تعويذة جعلتها تطفو وتخبره بما كان من أمر انتقام (تحوت) ومن جديد قررت الرحلة العودة إلى قفط من أجل طقوس الجنازة ومراسم الدفن المناسبة للأميرة. وثالثة أبحر القارب الملكي تجاه أرض الشمال، وما أحزنها رحلة، فقد فقدوا (أهورا) و(ميراب)، ومازال (تحوت) يريد الإنتقام، ولما وصلت الرحلة إلى ذات مكان الغرق، شعر البطل بأن قوة ما تجذبه فأسرع وربط كتاب الحكمة إلى صدره، ورغم ذلك فقد سقط وغرق، ولم يستطع البحارة إنقاذه، فواصلوا رحلتهم دونه حتى مدينتهم (منف) وأخبروا الملك بتفاصيل هذه الرحلة الحزينة، ودهشوا لما اكتشفوا جثة أميرهم طافية بجوار القارب، وكتاب الحكمة مازال مربوطا إلى صدره، فدفن معه بعد طقوس واحتفالات جنائزية تليق بالرحالة البطل قاهر (تحوت).⁽²⁾

خرج المصري القديم في رحلات كثيرة في حضارته العريقة التليدة، وكان موضوع هذه الرحلات متعدد ومتباين، والغرض مختلف من رحلة لأخرى، ولأن الحضارة المصرية كانت تمجد العلم والمعرفة، فقد جعلت من أسطورة (كتاب الحكمة) موضوعا لأشهر رحلة قام بها أحد الأمراء من أبناء الفراعنة من شمال مصر (منف) إلى جنوبها (قفط)، وذلك لجلب هذا السفر العظيم،

¹ - السابق، ص 312.

² - السابق، ص 312، 313، 314.

والحصول على الحكمة، والتبصر، ومعرفة الأشياء بسهولة ويسر، ومما يلاحظ في هذه الرحلة الشيقة:

- الكاهن يستقر أميراً، شاباً قادراً، طالباً للعلم، شغوفاً بالحكمة. (القدرة والإرادة).
- طلب الأمير من أبيه الموافقة، فوافق الأب الفرعون.
- خرج الأمير ابن الملك في رحلة شاقة، ومجهولة العواقب، وهذا إشارة إلى مكانة العلم والحكمة عند الطبقة الحاكمة، فالحاكم يسعى إلى العلم وهو ضالته.
- اصطحب الأمير زوجته معه، فالمرأة يمكن أن تكون رفيقة للرحالة، ولتشارك مع زوجها في ثمار العلم والحكمة من السفر ومن السفر.
- اصطحب الأمير ابنه في رحلته، فالصغار يمكنهم المشاركة في الرحلة ليتعلموا فنونها ويتمرنوا على الصعاب والمغامرات، ويستعذبوا طلب الحكمة، ويثمنوا فائدة مشاركة الأسرة والآخرين في تجشم عناء البحث عن كنوز المعرفة؛ هم المتشبعون بكنوز المال باعتبارهم من الأسرة الحاكمة.
- خاطر الأمير بروحه في مغامرة رهيبة في مواجهة (تحت)، وجنود من حراس كتاب الحكمة.
- الحكمة كنز مدفون في الأعماق يمكن البحث عنه واستخراجه.
- فقد الرحالة البطل ابنه وزوجته، ونفسه، ولم يستسلم.
- يمكن أن يكتب النجاح والتوفيق للرحلة في الهدف، وفي مسيرة الذهاب، ولكنها تخفق في العودة بسلام.

- لقد خطط الأمير للرحلة، وذهب، ونجح في التوصل إلى الهدف ثم العودة؛ فالرحلة قد حققت مغزاها وانتصرت على احتكار المعرفة.

3- ملامح الرحالة الأسطوري الهندي:

مدخل: إن محاولة الإطلاع على أقاصيص الهند وأساطيرها سيجعل القارئ يفتح نافذة واسعة على المجاز والسحر، والخيال العجيب، والطرائف الغريبة، ولكنه أيضا لن يبتعد عن الخيال الأدبي الذي تشكله الحكايا والقصص الآسرة التي زحرت بها المدونة الأسطورية العميقة السائحة في جغرافية الهند وتاريخها التليد. وقد أشار أحد الباحثين إلى ضرورة وأهمية إدراج آداب الهند في قوائم الإهتمام ، إذ أنها كغيرها من أساطير العالم كله "تستحق الأساطير الهندوسية، التي ملئت بها الكتب الدينية أو التاريخية، دراسة خاصة، لا من أجل فائدتها الضئيلة على العموم، بل من أجل المعارف النفسية التي تستنبط منها عن الهندوس... فلا بد من قراءة أساطير غير قليلة للوقوف على منطق الهندوسي الخاص، وتطور فكره، وطرز ربطه الأمور بعضها ببعض... فأوصي المتخصصين في آثار الهند أن يدرسوا أسطورة بيرويشكا... وأن يدرسوا أسطورة الرحالة سمبل الذي شاهد أصحابه الخمسمائة تقترسهم خمسمائة عفرية في أثناء سياحته في سيلان"⁽¹⁾ فبالوقوف على مجموعة من النصوص تكتمل الصورة تقريبا وتتوضّح، وتصبح أقرب إلى إدراك مسرح الحدث في العمل الأدبي من خلال فضائه الأسطوري، مثل الحديث المستمر والمطرّد عن الشياطين والعفاريت والحيوانات الغريبة وجزيرة سيلان (لانكا) بالنسبة لأساطير الهند القديمة والتي مازالت مستمرة ومتداولة بقوة، ومثل الحديث عن البحث عن بعض أفراد العائلة المفقودين بسبب الحرب، أو اللّعة، أو الاختطاف من قبل الشياطين أو العفاريت، وما أكثر ما تناول هذه الموضوعات النص الأسطوري

¹ - لويون، غوستاف، حضارات الهند، ص 471.

الهندي خاصة والنص القصصي عامة، حيث نجد أن النص يركز عقدة الحدث على ما يترتب عن رحلة خارج الديار من اتصال بالآخر، ثم انفصال عنه بسبب العودة، ثم الاجتهاد من أجل الاتصال ثانية، وقد يفرض هذا الانفصال على البطل بسببه أو بسبب طرف ثالث.

رحلة دش ينته: روي أن الملك (دُش يَنْتَه) كان يصطاد، فلقي في صومعة ابنة لآلهة وناسك اسمها (شَكُنْ تِلا) * فأولع بها فتزوجها على الفور على حسب عادة أبطال الهندوس، وزواج بسيط مثل هذا مما كانت تعرف به الشريعة موقوفاً على اعتراف الفريقين المختصين به، فلما قضى منها وطراً، فتر حبه لها، فعاد إلى عاصمته (هيستي نابورا) من دون أن تحزن الزوجة كثيراً، كما يستنبط من صمت واضح في الرواية، وهي لم تعزم على اللحاق به إلا بعد أن أبصرت أنها ستصبح أمًا، وقد خامرها شك في أنه يتعرف عليها، فأخذت معها الخاتم الذي وهبه لها لتثبت حقيقة أمرها، ومن المؤسف أنها آذت أحد الزهاد بأن نسيت أن تجيب عن سؤاله متلهية، فدعا عليها، فخرس الملك ذاكرته من مكانه، فلم يعترف بها، وكان من نتائج هذا النسيان أن غضبت فأضاعت الخاتم في نهر، ووجد الخاتم صياد في بطن سمكة، غير أن الملك لم يتعرف عليها آنئذ، فرحلت إلى حيث لم يعرف أحد، وبعد مدة بحث عنها زوجها الملك، فلم يجدها إلا بعد بضع سنين، وما كانا ليلتقيا إلا بمعجزة مع ذلك، وبيان الأمر أن ملك السماء (إندرا) عجز عن قهر جيش للعفاريت فعهد إلى الملك (دش ينته) أمر إبادتهم، مما نتبين بما كان يعزى إلى الآلهة والناس من الشأن، فانتصر هذا الملك عليهم فاستأصلهم، فكافأه (إندرا) بأن وجد له زوجته وابنته.⁽¹⁾ وانتهت رحلة بحثه عنهما، ورحلة بحثهما عنه. فموضوعة رحلة البحث عن الأقارب، (الأب عن ابنه)

*- نجد في الجزء الأول من المهابهاراتا قصة (شاكونتالا) الجميلة التي أريد لها أن تكون بطلة في أشهر مسرحية هندية، وابنها القوي بهارفا الذي من أصلابه جاءت قبائل بهاراتها العظيم، أي المهابهاراتا وقبائل كورو وباندافا التي تتألف من حروبها الدموية سلسلة الحكاية.

و(الابن عن أبيه) موجودة أيضا في التراث الهندي وأساطيره وآدابه، وهي من الموضوعات المتداولة بكثرة، وتشكل حدثا قصصيا مشوقا، وعقدة التّيه والضّياح يكون اللقاء أو الاكتشاف أو التعرف هو حلها، والمادة الأسطورية واضحة في النص عند الاعتقاد بأن هذه الفتاة، الزوجة/ الأم/ الابنة هي ابنة إلهة من ناسك مثلما آمن الهندوس ذات يوم بذلك الزواج، وبذلك الإنجاب. رمزا أو مجازا للدالة على طيب العنصر، أو قوة العلاقة بين السماء والأرض، أو بين أبدية الخلود وحتمية الموت، والقصص الأسطوري يذكر الناس، وينشط الذاكرة ويدعو إلى التأمل والتفكير، خاصة إذا دعي الأبطال إلى الترحال من منطقة إلى أخرى، بحثا عن مفقود، فيجالدون الكثير من العقبات في نيل ذلك، وتنتهي الرحلة وقد بلغت شوطها الأخير فحققت هدفها بالإضافة إلى نتائج أخرى طيبة، تبقى رصيда في خبرة الرحالة، مع الحياة وزاد من الحكمة يورثه لأبنائه ونصا بديعا يفيض خيالا فيأسر سامعه جيلا بعد جيل، فيعيشه رحالة رفيقا وأنيسا.

4- ملامح الرحالة الأسطوري الفارسي:

مدخل: (تاريخ أساطير الفرس وملاحمهم): إن الفرس من أكثر الشعوب التي تمتلك الأساطير، فقد هاجر إليهم الآريون ومعهم الشيء الكثير من القصص والروايات عن الأجداد الذين عاشوا معهم في مكان واحد في ربوع آسيا الوسطى، ثم دخلوا في سلسلة من الحروب مع سكان الهضبة الإيرانية الأصليين ومع المهاجمين المعتدين الذين هاجمهم بعد استقرارهم في ربوع إيران وعندئذ ظهرت القصص الجديدة عن الأبطال الذين ضحوا بأرواحهم في هذه الحروب، وانطلق الخيال الشعبي في اختلاق العجائب والغرائب والخوارق عن هؤلاء الأبطال وبطولاتهم، وانتقلت بهم هذه العجائب من جانب التاريخ إلى جانب الأسطورة مع إغفال البعدين الزماني والمكاني، وحدث تغيير في هذه

الأساطير والقصص بمرور الزمن وكان ذلك نتيجة التغيرات الفكرية والدينية وظروف البيئة المحيطة.

تراكمت القصص الأسطورية الفارسية وتزايدت مع مرور القرون إلى أن تكاملت وانتظمت وصارت قابلة للتدوين، كان هذا قبل ظهور الإسلام في عهد الدولة الساسانية، في حين دونت الأفيستا وغيرها من الكتب الدينية والبطولية بما تحتوي عليه من أساطير القوم واستمر هذا الأمر إلى أن ظهرت حركة تعمل على جمع شتات هذه الأساطير وتنظيمها في القرن الرابع الهجري (العاشر للميلاد) وهو القرن الذي عادت فيه القومية الإيرانية إلى الظهور، وعمل فيه الإيرانيون على إحياء تراثهم وتاريخهم القديم، فكتبت الروايات والملاحم والأساطير المعروفة بالشاهنامات، أي كتب الملوك، والتي تتحدث عن تاريخ ملوكهم الأسطوريين.⁽¹⁾ الذين يمثلون بؤرة النص أحياناً، أو يمثلها أحد الأبطال المؤازرين لحكمهم (رستم)، وقد يركز الحدث على المعركة أو الرحلة.

ملاحم الإسكندر الرحالة:

معنى الاسم: عشب طبي، عولجت به أمه وهي حبلى به.⁽²⁾

¹ - بكر، أحمد حسين: أشهر الأساطير الفارسية، دار المشارق، القاهرة، ط1/ 2007، ص 4، 5.

² - الإسكندر الأكبر: أو الإسكندر الثالث ابن فيليب الثاني المقدوني، يعرف في المصادر العربية بالإسكندر المقدوني أو الرومي، أو بذى القرنين، وهو أعظم القادة العسكريين في التاريخ القديم، (القرن الرابع قبل الميلاد)، انتصر في مواقع كثيرة وفتح الكثير من البلدان وحكم إمبراطورية شاسعة في سنوات قليلة، أشرف أرسطو الفيلسوف اليوناني الشهير على تعليمه، سار على رأس جيش ضخم (35 ألف جندي) لغزو إيران. امتدت إمبراطوريته من الشام ومصر والعراق وتركيا وفارس حتى الهند، ورافقه في رحلته الطويلة طائفة من العلماء والمؤرخين الذين كتبوا الكثير مما لا يخلو من المبالغة والتوهم ورواية الأساطير. يذكر بالملعون والمخرب في المصادر الإيرانية قبل الإسلام لأنه يعتقد أنه قتل الملك (دارا) وشتت شمل الأسرة المالكة، وأطفا نيرانها وأهان دينها وأحرق "الأفيستا" وقسمها إلى تسعين ولاية، وبمرور القرون والأزمان يتغير الرأي فيصير المؤمن الموحد، ثم تحدث المصالحة الكبرى حينما تزعم الأساطير أنه ابن الملك الفارسي (داراب) من ابنة الملك الرومي (اليوناني) "فيليب"، وهكذا حافظوا على كرامتهم التي أهانها الإسكندر بإسقاطه لدولة كبيرة من دولهم (الأخمينية).

أ- الملاح النفسية: تقول الأسطورة بأنه كان مهذباً ودبلوماسياً محنكاً، لا يتسرع بقرار الحرب بل يتبادل المشورة والمراسلة مع أعدائه، وكثيراً ما نزل ضيفاً في قصورهم على أنه مجرد رسول من الإسكندر حتى يقف على الحقيقة بنفسه (الصين، الأندلس، إيران).

الجرأة: إنه شجاع شجاعة أسطورية لا يمكن أن يجاريه فيها أحد، إذ كان يدخل قصور أعدائه بنفسه مدعياً بأنه رسول يحمل رسالة ملكه، وربما هذه الميزة نجدها في معظم الأساطير الفارسية التي تنسب إلى أبطالها خاصية التكر والتسرب إلى عرين الأسد (رستم). كما أنه فضل أن ينوب عن جيشه بمنازلة ثنائية حتى يكفي الجنود شر معركة طاحنة، وفعلاً تمكن من القضاء على خصمه وهكذا جنب أيضاً جيش أعدائه مغبة معركة خاسرة.

- كان جسوراً في وجه الموت في النزال، وفي وجه الجهل حيث يسارع إلى المغامرة بالتقدم نحو المجهول للإطلاع على خباياه.

- كان رحالة يقود جيشاً عظيماً (35 ألف جندي) يخوض به غمار المعارك من أجل فتح الطريق أمام رحلته وكثيراً ما كان يتفاوض كي يسمح له بالمرور بسلام دون إراقة الدماء ويغدق على مضيفه التحف والنواذر الثمينة.

العلم: كان محباً للعلم والثقافة يسعى بجهد وإخلاص وبشتى الوسائل ليحصل على المعلومة ويعاين التلذذ والطريف والغريب، وكثيراً ما استفسر وسأل واستعلم واستعمل المترجمين. وصحب أهل العلم والفلاسفة في رحلته وجعلهم رفقا له في حله وترحاله.

- لم يكن يخشى مواجهة الأمكنة الغامضة المليئة بالسحر والكائنات الغريبة، بل يسعى بلهفة لإلقاء نظرة وإماطة لثام وفك لغز، ورؤية ما لم تره عين قبله بالجرأة والشجاعة والإقدام، ولكن في

الوقت نفسه لم يكن متهورا مستبدا برأيه بل كثيرا ما يلجأ إلى استشارة خاصته من مرافقيه من العلماء والفلاسفة.

الإيمان: الإسكندر شديد الإيمان بالخالق متمسكا بعقيدته، مقدسا لدينه ورغم عديد النبوءات التي أشارت إلى قرب أجله وانتهاء زمن حياته إلا أنه لم يفقد إيمانه بالخالق والقضاء خيره وشره، ربما جزع وفزع، واهتم واغتم، ولكنه أبدا لم يفتر ولم يستسلم، ولم يتراجع عن أحلامه وطموحاته ولم يوقف من طغيان رحلاته بل بقي ممتطيا جواده وقطع مسافات شاسعة ورأى مدنا وأمصار واسعة، قبل أن يأتيه يقين النبوءة فيهزم الجسد المغوار، ويبتز بسيف الحق مسيرة الرحلة ويجعل معراجها رحلة إلى دار الأبد.

الطيبة والبر: كان برا بوالدته، لم يقطع رسائله عنها، رحيمًا شفوفا عليها، فقد خشي عليها من وطء نبا موتها وهو بعد في ميعة الصبا ومقتبل العمر فأرسل يعزيها في نفسه بنفسه ويوصيها بأهل بيته (زوجته) ويذكرها بضرورة الصدقة على الفقراء وكثرة الدعاء إلى الله.

الوفاء: لقد شعر بالوفاء دائما للمدينة الجميلة التي بناها في مصر (الإسكندرية) فبقي يحن إليها، لذلك لما دنا أجله أوصى أن ينقل إليها فيدفن فيها.

التواضع: لم يكن متشددا في طقوس الملك ومظاهر السلطة بل كان بسرعة يتمنى أن يمثل دور السفير أو الرسول فيتخلص من ديباجة الملك ويهرع إلى مهمة أخرى ومهنة أخطر.

الجدية: جمع جيشا عظيما من الروم والمصريين وأسياد إيران لمحاربة ملك الهند في طريق وعرة المسالك أثارت حفيظة جنوده فنهزم وزجرهم وعن غيهم أرجعهم، فمشوا معه خاضعين وإلى "قنوج" متجهين.

الفضول الكبير: بسرعة يتساءل الإسكندر، فور وصوله إلى مكان جديد، خاصة وقد صارت لديه فكرة عن المكان الذي بلغه وأنه حتما مليء بالعجائب.

القرار السريع: بمجرد أن حدث عن إمكانية الدخول إلى عين الظلمات حتى فكر في الطريقة والوسيلة إلى ذلك (الدواب).

سرعة التنفيذ: أمر بجمع الخيل وانتقاء المهور الصالحة للرحلة.

حسن التخطيط واختيار الدليل والصاحب: (الخضر - عليه السلام)

حسن الايمان والهدف الجليل من الرحلة: فإننا إن عثرنا على ماء الحياة بقينا نعبد الله تعالى إلى آخر الأبد.

الحزن والأسف على ضياع الفرصة الثمينة.

حسن الإستغلال: رغم أنه ضيع الهدف الأساس إلا أنه لم يضيع فرصة تعلم المزيد، والتعرف على عالم آخر مختلف.

اليقين: الاستسلام للقضاء والقدر والوثوق من خياراته في حياته، فإن الحياة هي التي كتبت عليه أن يكون رحالة طوفا في العالم، ولا يستطيع أن يختار لنفسه شيئا آخر غير ذلك وليس عن جهل بل عن بينة وحكمة، ولمزيد من البينة والحكمة لنفسه خاصة ولسرائه ورفاقه، وللعلم عامة.

التمهل: لمراجعة ذاته وعسكره، فقد أقام أسبوعا قبل أن يقرر الرحيل من جديد بتغيير الإتجاه نحو الشرق.

الملاحم الجسدية:

القوة: تغدق عليه الأسطورة حملا من الصفات الدالة على القوة، والقدرة الجسمية ولكن بمقدار يعادل قوته الذهنية والروحية، فهو لا يطغى في استعمال العنف في رحلته حول أقطار العالم بحيث كان يبعث الرسل ويتحاور قبل الشروع في القتال إن توجب عليه. وحتى لو وجد نفسه مضطرا إلى خوض الحرب كان يدعو أولا إلى مقاتلة ثنائية وجها لوجه مع خصمه حتى يجنب الجند إراقة الدماء. فيستغل مهاراته وفنونه القتالية الخاصة ولا يجبن في مواجهة عدوه (ملك الصين).

كان واثقا من قواه الجسدية وحريصا على صحته إذ كان يصطحب طبيبا خبيرا خاصا به، ودائم السؤال والاستفسار من الحكماء عن سر الصحة والعافية في البدن، خصوصا فيما تعلق بالأطعمة والأغذية.

الجمال: بدأ رحلته حول بلدان العالم وهو شاب في مقتبل العمر يمتاز بوسامة ورثها عن أصوله من آل إيران (الخشروانية)، ومات وهو بعد يتألق في حلة الشباب وحسنه.

5- ملامح الرحالة الأسطوري الإغريقي:

مدخل: إن جل أبطال الأساطير لم يكونوا معفيين من إنجاز عملية الخروج في شكل تنقل وانتقال من مكان إلى آخر والقيام بمهام خاصة تجعلهم في ثياب رحالة مثل:

- الرحلة العسكرية نحو طروادة/ الرحلة العسكرية نحو طيبة (السبعة ضد طيبة)
- ورحلات العودة من طروادة إلى الديار والتي نجدها في الأساطير التي تحدثت عن عودة (أغاممنون) وعودة (منيلاس)، وعالج بعضها شعراء التراجيديا.
- ومثل خروج (أوديب) من (كورنثة) نحو (دلفي)، ثم نحو (طيبة)، ثم نحو (كولون).
- وكان (زيوس) وحاشيته في تنقل مستمر لا ينقطع بين أعالي الأولمب إلى أهالي الأرض.

- رحلة الصيد: رحلة (أطلنطا) ورفاقها لصيد الوحش الكاليدوني.

ولقد أنتج الإغريق القدامى الكثير من النصوص الأسطورية التي عاشت وأثمرت لحقب طويلة في التراب اليوناني وأقاليمه حيث "نشأت الحضارة الإغريقية وبعبارة أصح - الحضارة الهيلينية - قرب أواخر الألف الثاني ق. م وظلت قائمة حتى منتصف القرن الرابع ق. م".⁽¹⁾ ولقد رأينا مفهوم الأسطورة وكيف أنها كانت لغة الشعوب القديمة دينا وأدبا وحياة ثقافية كاملة. ثم إن كل شخصية صورة ميتافيزيقية لقوى طبيعية أو فيزيائية. أو شخصية ذات سمات آدمية إنسانية بيد أنها أحرزت شيئا من الامتياز أو التفوق بفضل مآثر صنعتها بخيال من صنعوها. ومن هذه الشخصيات تلك التي يحاول هذا البحث النباش تحت أقدامها المغامرة.

كانت حرب طروادة هي المفصل التاريخي لعصري أساطير البطولة الإغريقية التي هي إما قبيلها أو إبانها أو بعيدها؛ ورغم أن هناك أساطير الخلق ونشوء الكون التي تقص أخبار الأولين وكيف تكونت السماء والأرض والبحار والمخلوقات التي تبدو بعيدة عن عصري البطولة، فلها أبطالها الذين عُبدوا تقديسا لا تنزيها. والبطل الإغريقي إنسان فان، وربما كان على صلة بأهل الأوليمب (المعبودات) ويحظى بشيء من التقديس والتعظيم والتبجيل نظرا لأعمال جليلة قام بها، وتمتليء أساطير المغامرة والرحلة للبطل هرقل و(بريسوس) و(تيسوس) و(بليريفون)، و(جاسون) وملحمنا (هوميروس) بأخبار هؤلاء وغيرهم... وحسب (هيزيود) فقد كانوا ذرية الجيل الرابع من

¹ - سارة خليل: تاريخ الإغريق، منشورات جامعة دمشق، 2015، 2016، ص 251. وظهرت أولا في حوض بحر (إيجة)، وانتشرت من هناك إلى المناطق الواقعة حول سواحل البحر الأسود والبحر المتوسط، ثم امتدت عبر القارة شرقا إلى آسيا الوسطى والهند، وغربا إلى سواحل شمال إفريقية وأوروبا المطلة على المحيط الأطلسي... ونجد اليوم بعد مضي نحو ألف وثلاثمائة عام على اندثار الحضارة الهيلينية أن اللغة الإغريقية لا تزال حية، حيث دخلت هذه اللغة إلى البلقان نحو عام 1900 ق.م، أي مع بداية عصر البرونز: فاللغة الإغريقية والحضارة الهيلينية لم تتفقا دائما سواء من حيث العصر الذي ازدهرتا فيه، أو من حيث مدى انتشارهما.

الرجال الأسطوريين الذين لعبوا دورا هاما في معارك طروادة وطيبة⁽¹⁾ إذ عرف العالم خمسة أجيال سكنت الأرض. (جيل العصر الذهبي/ جيل العصر الفضي/ جيل العصر النحاسي/ جيل العصر البرونزي/ جيل العصر الحديدي).

شخصية الرحالة البطل:

1- الرحالة هرقل: لقد تغنت الكثير من الأساطير الإغريقية بشخصية البطل هرقل وجعلت منه الرقم الأول بدون منازع في القوة الجسمية، حتى صار مضربا للمثل، وتجلت هذه القوة الخارقة للعادة في مغامرات كثيرة جدا قام بها لأسباب متعددة،⁽²⁾ وما يلاحظ:

- أن كل مغامرة هي رحلة نحو هدف ما.
- كل مغامرة رحلة تكلل بالتفوق والنجاح الباهر دائما.
- الأسطورة ركزت على بطولاته ورحلاته منذ الميلاد وحتى الوفاة.
- أنه كان يخرج عادة وحيدا، دون رفيق، إلا فيما يروى عن خروجه مع الأرجوناوتيك. وفي الرحلة الثامنة (ثلة من أصحابه وصفيه المحبوب (أوبديروس) الذي ستلتهمه أفراس ديوميد).
- جاب برحلاته كل بلاد اليونان تقريبا وكل العالم المعروف آنذاك (تساليا: تيرموس ثم كنكوس، جبل القوقاز، البحر الأسود، (بروميثوس) وإلى أقصى الغرب أطلس وحيث شق أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق)، لينجز ممرا من المتوسط إلى الأطلسي، الذي لم يكن معروفا في زمنه.

وجاب بلاد الأمازونات وليبيا ومصر، وأثيوبيا وطروادة...

1 - معدى، الحسيني الحسيني: أساطير الأبطال، سلسلة أساطير العالم، كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1/ 2012، ص 06.

2 - السابق، ص 07 إلى 17.

- كان ينتقل على قدميه أو يستعمل السفن (سفينة الشمس، أبحر مع الأرجوناوتيكاً)
 - كان مهذباً مع مضيفيه، وممن يقدمون له يد العون، أو يطلبون مساعدته.
 - قام أثناء رحلاته بأعمال خيرية كثيرة لفائدة الآخرين.
 - كان وفياً للأصدقاء والرفاق ظل مدة يبحث عن (هيلاس) رفيق رحلته الضائع وأعاد لصديقه (أدميتوس) زوجته (ألكستيدا) من ملك الموت، حين افتدته. وانتقم لمقتل رفيق رحلته الثامنة.
 - كان ذكياً جداً، تخلص من حمل جبل أطلس.
 - كانت عدوته هيرا لأنه ابن ضرتها، ولم يكن عدواً لأحد إلا للشر.
 - قضى جل حياته رحالة لا يعرف الاستقرار.
 - أحضر معه زوجة من إحدى رحلاته.
- رفاق هرقل:** قام هرقل باثنتي عشرة مهمة خارقة وأخرى رئيسية، وأخرى ثانوية، وكان في أغلب الأحوال يخرج وحيداً منفرداً، وقليلاً ما كان يصطحب رفيقاً (أوبديروس) أو مساعداً (بولايوس) أو يشارك في حملة عسكرية (مع الملك لوكوس ضد البيروكيين) أو رحلة جماعية (الأرجوناوتيكاً):
- ولا نجد الإستعمال النكرة في الإسم العلم الذي يذكر في رحلات هرقل، وهذا ما أثر عن الأساطير الإغريقية عامة، فالأسطورة كانت تنتخب له الرفقة المتميزة، هو البطل المتميز، وكأمثلة على ذلك:
- الرحلة الثانية:** وصل بعربته السريعة التي كان يقودها (بولايوس) بن شقيقه (إيفيكليس)...صاح يطلب العون من يولايوس... أشعل يولايوس النار في أشجار الدغل المجاور، طفق يكوئ بالنار

مكان كل رأس يقطعها (هيراكليس) من رؤوس الأفعوان... رفض يوروستيوس أن يحتسب ذلك ضمن الأعمال الخارقة الإثنتي عشرة بحجة أن (يولايوس) قد ساعد هيراكليس.⁽¹⁾

الرحلة الثامنة: ترك الخيول في حراسة تابعه "أبديروس" وتراجع يحارب "ديوميديس" ولكن لما رجع وجد أن الأفراس قد التهمت رفيقه.⁽²⁾

في رحلات أخرى: بعد تحرير الأميرة (هزيون)، ابنة (لاوميديون)، الذي رفض أن يقدم له المكافأة، عاد إلى (اليوم) مع ست سفن، وحاصر المدينة، وأخذها قسرا. وقتل (لاوميديون) وأبناءه وأعطى (هزيون) زوجة إلى صديقه (تلامون).

الرحلة التاسعة: بدأ (هيراكليس) رحلته إلى مملكة الأمازونيّات، مر بجزيرة فاروس، هناك لقي اثنان من بحارته مصرعهم، اضطر البطل إلى الإشتباك مع أهل الجزيرة، حاصرها، ولم يفك الحصار، إلا بعد أن رضي أهلها بالشروط... انطلق مصحوبا ببعض الأبطال المشهورين، (تيسيوس، تيلامون، بيلوس).⁽³⁾

2- الرحالة إيجيوس: قبل أن يصبح (إيجيوس بن بانديون) ملكا على أثينا طال تجواله، فزار أغلب مناطق بلاد الإغريق... أثناء تلك الرحلات المتعددة وصل إلى (بيزا) حيث تزوج (أيثرا) ابنة الملك (بيثيوس) ولكنه تركها عائدا إلى مملكته...⁽⁴⁾

¹ - شعراوي، عبد المعطي: أساطير إغريقية، أساطير البشر، ج1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2008، ص 408، 409. وينظر أيضا: Edith Hamilton. La Mythologie, traduit par Abeth de Beughem, Marabout, Allzur Balgique, 1978, 1997.

² - السابق، ص 416.

³ - السابق، ص 417.

⁴ - معدي، الحسيني الحسيني: أساطير الأبطال، ص 65.

3- الرحالة ثيسوس: ولدت (أيثرا) طفلاً أسمته (ثيسوس) الذي ما لبث أن شبّ وقرر الرحيل للحاق بوالده؛ نصحته أمه أن يذهب عن طريق البحر؛ فطريق البحر آمن سالم قليل العقبات وطريق البر مليء بالأخطار.. زاهر بالمعوقات لكنه فضل السير على قدميه إذ لم يكن ممن يخشى المخاطر والأهوال، فهو ليس شاباً رقيقاً، لكن كان شاباً مغامراً خشن السلوك، صعب المراس، أراد أن يقلد صديقه البطل (هيراكليس). في (إبيداوروس) قتل قاطع الطريق (بريفيتيس)، وعند مضيق (الاستموس) القريب من (كورنثة) قتل الشرير (سينيس)، وفي (كروميوم) قضى على الخنزيرة التي كانت تفسد المحاصيل. وعلى الساحل قضى على (سكيرون) الذي كان يرمي ضحاياه إلى وحش البحر... وهكذا حتى وصل إلى (أركاديا) وصارع (كركيون) ابن الأرض وتمكن منه أخيراً بعد طول تجوال ومغامرات بطولية فائقة وصل أثينا، حيث كان أبوه المسرور جداً بقدومه قد تزوج الساحرة (ميديا)⁽¹⁾ التي ستحاول التخلص منه فتقتل... فتفر...

لكن عاشق السفر سيلبي النداء نحو كريت ليخلص شباب وطنه من وليمة (المينوتاوروس) الثور المسخ، ويعود منتصراً متربعا على عرش أثينا دون أن يتوقف عن الرحيل نحو المغامرات والانجازات الساطعة حتى الممات...⁽²⁾

ما يلاحظ:

- أن رحلاته البطولية تساوي نصف ما قام به هرقل، فهو شبيهه إلى حد كبير خاصة في تخليصه الناس من الوحوش.

- حظي بمساعدة من الأميرة أرياني ابنة ملك كريت بخطة الخيط.

¹ - هي نفسها ميديا التي ساعدت جاسون في الحصول على الجزة الذهبية من أبيها، ثم رحلت مع الأرجو، وتزوجت البطل الرحالة جاسون، قبل أن يطلقها فتتزوج إيجيوس والد ثيسوس.

² - شعراوي، عبد المعطي: أساطير إغريقية -1- أساطير البشر، ص 192 إلى 204.

- قتل (المينيثور) أبشع وأفضع مسخ.

- نصحته أمّه بركوب البحر لقلة أخطاره وقصر مسافته نحو أبيه، ولكنه فضل طريق البر الأطول والأكثر مغامرة، والأعقد مسلكا، وفي الأسطورة إشارة تاريخية إلى ضعف الملاحة في الحاضرة الأثينية آنذاك.

- قام بأعمال خير جلييلة وكثيرة لفائدة عابري السبيل.

- تزوّج ابنة السفاح (سينيس).

- وصل إلى غايته (أثينا . الأب) سالما غانما، ولكنه فضل مبارحتها إلى كريت مكلفا نفسه برحلة القضاء على الوحش الذي يلتهم فتية وطنه حسب المعاهدة.

- يرحل (تيسوس) باحثا عن أبيه قائلا لأمه أنه سيصير راعيا على أغنامهم عندما يكبر لأنه ترعرع في وسط رعوي، فهو لم يتصور نفسه إلا راعيا بحكم الأجواء التي نشأ فيها، وتعمل الرحلة على صقل شخصيته الجديدة المنبثقة من روح راعي الغنم، فيظهر الدرب الفعلي والرمزي نحو أثينا (المملكة والأب) من كل قطاع الطرق. أعداء الرحالة وكل رحالة يعبر البلاد الجميلة نحو أثينا المجيدة فيكتسب:

- مملكة ويصير مسؤولا على رعيته.
- يكتسب قوة وشجاعة وخبرة.
- ويصبح الطريق معبدا وآمنا بين أمه وأبيه (بين مملكتي ترويزن وأثينا).

- كللت الرحلة بالتوفيق لكنه لم ينقطع عن حمل نفسه على الخروج لمزيد من المجد والأعمال الجلييلة.

4- الرحالة قدموس: اختفت أوروبا ابنة (أجينور) الذي رحل من مصر واستقر بأرض الكنعانيين.

فأرغم الأب أبناءه الأربعة على الرحيل للبحث عن أختهم:

- أبحر (فوينيكيس) نحو الغرب، عبر ليبيا، حتى (قرطاجة) ولكنه عاد بعد وفاة والده ويصير أبا لأدونيس.

- رحل (كيليكس) إلى أرض (الهيباخين) واستقر بها، وبنى مدينة (كيليكيا).

- رحل (فينيوس) إلى (ثونيا) وهي شبه جزيرة تفصل بين بحر (مرمرة) والبحر الأسود. واستقر بها رغم مضايقة (الهاريات) له، حتى أنقذه من شرهن (جاسون) ورفاقه.

- رحل (قدموس) مع أمه (تليفاسا) إلى جزيرة (رودوس)، ثم (ثيرا)، ثم (تراقيا)، ولما ماتت أمه رحل سيرا على قدميه إلى (دلفي) ليسأل عن أخته. جاءه الجواب: عبثا تنتهي حياتك بحثا عن (أوروبا)، كف عن ذلك، واتبع بقرة تسير على غير هدى، وابن المدينة الجديدة (طيبة).⁽¹⁾

- رحل إلى (ساموثريس) زائرا، فزوجته (أثينا) بـ(هارمونيا) ابنة (آريس) و(أفروديت)، وشهد حفل الزفاف أهل الأولمب بهداياهم الأسطورية التي مازالت تذكر.

- سمع قدموس النصيحة، فبنى (كادميا/ ثيباي) وتزوج الحورية (هارمونيا) ابنة (آريس) و(أفروديت).

¹ - شعراوي، عبد المعطي: أساطير إغريقية، أساطير الآلهة الصغرى، الجزء الثاني، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط1/ 1995، ص: 53، إلى 62.

إن خروج أوروبا من الشرق (فينيقيا) نحو الغرب (جزيرة كريت) جعل كل الغرب يأخذ اسمها (أوروبا)، وإن رحيل إختها اقتفاء لأثرها جعلهم ينشؤون المدن والمستعمرات الجديدة، ويخالطون الأقوام والشعوب الأخرى المختلفة ويتصاهرون في ظل المجتمع الجديد.

- لقد أضاع (أجينور) طفلة الجميلة (أوروبا)، ولكن قلبه الأبوي الرحيم لم يضيعها فدفع بكل أبنائه إلى الرحيل في كل الإتجاهات من أجل استرجاعها، فالرحلة الأسطورية من مهامها البحث عن العزيز المفقود، وهي صرخة قوية تنادي في العالمين أن أين هي طفلي؟ أين هي شقيقتي/أختي؟

- خرجوا جميعا حتى الأم/ زوجة (أجينور) بحثا عن فلذة كبدها، وقضت نحباً دون تحقيق أمنية القلب المفجوع.

- الخروج في رحلة البحث، هو سعي الأمل وراء اليقين بحياة المفقودة.

- لقد توزعت الرحلة في مختلف بقاع العالم الذي صار يحمل اسمها العزيز.

- خرج الإخوة طاعة لأمر أبيهم وبرا به، وعطفا ومحبة لأختهم، فالرحلة خروج وشتات لِلْمِ الشمل وجمع الأهل من جديد.

- لم يكن الأب (الرجل) يخاف على الابن (الرجل) إن خرج في رحلة، فهي من مهام الرجال، وتصل الأبطال.

- لم يحقق الأبناء/ الإخوة الهدف من رحلاتهم، ولكنهم حققوا نجاحا باهرا بتأسيس مدن جديدة، وبناء أسر ومصاهرات جيدة، تعتبر ثمارا حفظتها النصوص الأسطورية واشتغل عليها التاريخ وعلم الإناسة.

- ربما لم يكن الأب يهدف إلى العثور على البنية الضائعة بقدر ما كان يأمل في وصول أبنائه إلى غايات يصنعونها بأنفسهم، وأمجاد يشيدونها لأسرتهم ووطنهم.

الأم لم تستطع صبرا على ضياع ابنتها، ولم تستطع أيضا المكوث في دار خاوية من كل أبنائها. لم تكن تقدر على الانتظار والجلوس في جلد وهدوء، فقامت وخرجت مع أحدهم. بينما كان الأب يبني أمله بانتظار الخارجين في إثر أختهم. أفضل من انتظارها معهم بسلبية وبدون تحريك ساكن.

- كانت المرأة عزيزة على قلب الرجل (الأب/ الأخ/ الزوج...)

- كانت المرأة قوية بإمكانها تحمّل أعباء الرحلة. وبإمكانها اتخاذ قرار المشاركة في الرحلة.

5- الرحالة برسيوس (بيرسه): قالت الكاهنة (بيثيا) في معبد أبوللو لملك (أرجوس): إن حفيدك سيسقيك كأس الردى"، لهذا حاول منع وحيدته من الزواج، ولكنها فعلت وأنجبت (برسيوس) فوضعها في صندوق خشبي وألقى بهما في البحر. أنقذهما صياد وتبناهما. وأراد ملك تلك الجزيرة الزواج من (دناي) الأم الصغيرة الجميلة واستقر الابن (برسيوس) ليحمله على الرحيل نحو مغامرة خطيرة لإحضار رأس الجورجونة (ميدوسا) التي تحجّر الناظر إليها. أراد أن يرحل بلا عودة، ولكن الفتى كان محظوظا بمساعدة حُفّي هرمرز المجنحين، ونصائح أثينة، فاندفع إلى تحقيق مهمته فوق البحر الواسع المضطرب اضطرابا شديدا. وأتى إلى منطقة شهيرة حيث تنتشر المدن والبلدان الآهلة بالناس، ثم حلق بعد ذلك فوق سلسلة جبال مغطاة بالثلج؛ تكثفت خلفها غابات عظيمة، أشجارها باسقة، وسهولها فسيحة، تشقها، وتتعرج فيها أنهار غزيرة، تصب جميعها في البحر وبرزت أبعد من هذه السلسلة، سلسلة جبلية أخرى لا تقل عنها ارتفاعا، وثلثها مستنقعات متجمدة، وكان إلى جانبها بركة...

وأخيرا وصل... إلى الكهف... حيث العجائز الشمط الثلاث اللواتي افتك منهن عينهن الوحيدة
وسنهن الفريدة، وراهنهن بهما، فدللنه بدقة متناهية على أقرب الطرق التي تمكنه من العثور على
العذارى اللواتي يحرسن التفاحات الذهبيات أقصى الغرب... فقفز من جديد في الهواء، وشقه بعد
جهد بخفيه حتى بلغ موطنهن فسألنه: لماذا تجشمت عناء السفر؟ فقال: لأجل ثلاثة أشياء لا بد
منها فهي التي ستساعده في حربه الخطرة مع (الجورجونات) فمنحته الأولى سيفاً مرهف الحد
معقوفاً كالمنجل، والثانية ترساً لمّاعاً كأنه المرآة. والثالثة: جراباً سحرياً واسعاً. وأضفن له الشيء
الرابع وهو القبة السحرية للإخفاء.

فارتداها وانطلق يشق المسافات الشاسعة قاصداً الطرف الأبعد من العالم وعبر المحيط الذي
يزنّ الأرض كلها، وكانت نهاية رحلته بمكان مظلم يقع في موضع منعزل بعيد عن الأنظار،
وبحيطة وحذر استل السيف البتار وانقض به بكل قوة على الجورجونة ميدوسا ففصل رأسها وتدفق
منه دمها الأسود كالجدول الجاري، فدفح الرأس المريع في الجراب السحري وانطلق عائداً إلى وطنه
محلّقا بين الغيوم، وبمرور مدة قصيرة جداً استطاع برسيوس أن يسبق الجورجونتين اللتين كانتا
تطارداناه اقتفاء لرائحة دم أختهما. وبعد ذلك تلاشى صراخهما المخيف فأضحى آمناً في الجو،
فعبر المحيط حالا وعاد ثانية إلى بلاد الغرب وحلق فوق البحر العظيم باتجاه مستقيم نحو الشرق
وأخيرا وصل إلى البلاد التي يزينها ثلوث رائع. النخيل الجميل والنيل النبيل والأهرامات الهرمات.
واضطر إلى الهبوط هناك لإنقاذ الفتاة (أندروميذا) لأن وحشا بحرياً ضخماً كان يتوجه نحوها
ويمني نفسه بافتراسها. فأخرج (برسيوس) رأس (ميدوزا) قبالة ناظري الوحش فتحول حجراً. وتزوج
الفتاة الحسناء وركب السفينة وعاد إلى وطنه ليجد الملك يسوم أمه الهوان فرفع الرأس المحجر
أمامه ليعيش الجميع بعده في سلام.

ويرحل هو من جديد صوب (أرجوس) مملكة جده الخائف على روحه من الرحالة المرتحل بشبح الموت معه. فيتركها الجدّ هائماً على وجهه ولكن الرحالة يخرج قاصداً ألعاباً رياضية في مدينة مجاورة ومن دون سابق إنذار يصوب القرص بخفة فيصيب أحد المتجمهرين.⁽¹⁾

ومما يمكن أن يلاحظ:

- أن الأسطورة طوحت بالبطل منذ اللحظة الأولى لميلاده في رحلة بحرية قاسية فشبح محباً للترحال لا يطيق عنه صبراً أو جَوْلاً.

- الأسطورة تجعل من الرحلات مغامرات متسلسلة وجب النجاح فيها جميعاً لتحقيق الهدف المنشود.

- أحضر معه زوجة: الأميرة (أندرويدا) ابنة (كيفيوس) ملك (أثيوبيا).

حظي بمساعدة من هرمل (خفي هرمل السحريين الطائرين) ونصائح (أثينة).

- والسيف القاطع والدرع اللامع والجرباب الواسع وطاقيّة الإخفاء من بنات أطلس حارسات التفاحات الذهبية.

- قتل (الميدوزا) أبشع وأقوى مسخ.

- قام بأعمال خيرة جليّة.

- كان مهذباً.

¹ - بالدوين، جيمس: أقاصيص من الأساطير اليونانية، تر/ جميل منصور، دار العرب ودار نور، دمشق، ط1/ 2011، ص 129 إلى 155.

6 - الرحالة بيليروفون: اشتهر بجمال أخاذ وجرأة مذهلة وقدرات روحية وجسمية فائقة. لكن بعد مقتل أخيه خرج من كورنثيا راحلا إلى برويتس تحت سحابة تخفي خطواته. ولكن زوجة ملك برويتس دست له الدسائس فجعلته يخرج ثانية حاملا معه رسالة كتب فيها (انتزع حامل هذه الرسالة من العالم) متجها بها إلى لوكيا فطلب منه ملكها أيوباتيس أن يقتل المسخ (خيمايرا)، فما كان منه إلا أن توجه إلى هيليكون ثم إلى بيرين ليلقي اللجام الذهبي على الحصان المجنح بيجاسوس وليكبح جماحه ويستخدمه في رحلته نحو الخيمايرا التي أمطرها بوابل من السهام ودفع برمحه بين فكيها كتلة من الرصاص أذابتها أنفاسها الحارقة في حلقتها فأهلكتها. وبدلا من المكافأة أرسل ثانية إلى السوليمين وحلفائهم الأمازون، ثم إلى القراصنة... وأثبت براءته فزوجه الملك ابنته (فيلونوي) وجعله وريثا للعرش.⁽¹⁾

وخلصتها:

- يخرج الرحالة من الوطن مجبرا وقد ظن الجميع أنه سافك دم أخيه.
- ثم يخرج من ملجئه مجبرا حاملا أمرا بإعدامه والشكوك تحوم حول خيانتة. (وفي هذا إشارة إلى بدء زمن الكتابة في عهد هذه الأساطير).
- ثم يخرج لترويض الحصان المجنح بيجاسوس الذي تخلق من دم الجرجونة (ميدوسا) التي قتلها بيرسيوس.
- ثم يخرج للقضاء على الوحش المسخ (الخيمايرا) التي عاثت فسادا حوالي مملكة مضيغه الجديد.

¹ - معدي، الحسيني الحسيني: أساطير الأبطال، ص 73 إلى 76.

- ثم يخرج للقضاء على الأعداء وحلفائهم ثم على القراصنة ثم على جيش مضيفه الذي كان يظن به سوء.

تنتهي الرحلة بالمقام السعيد بإثبات البراءة والنية الصادقة والشجاعة الفائقة والفوز بالزوجة وولاية العرش، وسيكون جدًا للبطل (ساربيدون) قائد اللوكيين حلفاء طروادة.

- إن حالة الطوارئ التي فرضت عليه جعلته يعيش رحالة كل حياته ولكنه أخذ الدروس والعبر وعلم الدروس والعبر لغيره؛ علمهم ألا يحكموا على الناس بالقليل والقال وسوء الظن دون دليل أو برهان، ووطن نفسه على أن يكون لسان حال شخصيته الجميلة، بالحلم والنبيل والعفو عند المقدرة، لكن (بيجاسوس) مازال... فالرحلة مازالت مستمرة.

خلاصة:

تغنى الإغريق القدامى في أساطيرهم بالكثير من أبطالهم ممن خرجوا في رحلة من أجل مهمة ما، والرحالة هو شخصية بطولية من هؤلاء، تركزت بطولتها في مغامرة رحلية قامت بها لهدف نبيل سام.

وهم مجموعات تشكل أنواعا متداخلة أحيانا:

1- البطل الرحالة المؤسس للمدينة: قدموس، (طيبة)/ هرقل (تيرنتوم).

2- البطل الرحالة إلى العالم الآخر: هرقل/ أوديسيوس/ أورفيوس/ ثيسيوس.

3- البطل الرحالة المكلف بمهمة: جاسون/ هرقل/ تليماخ/ قدموس.

4- البطل الرحالة العائد إلى الوطن: أوديسيوس/ جاسون.

5- البطل الرحالة الحر: إيجيوس وابنه ثيسوس/ بيليريفون.

قد نجد هذه الأنواع تتداخل مع بعضها مثل البطل قدموس الذي خرج من وطنه في رحلة بحث عن أخته أوروبا يتحول إلى رحالة مؤسس للمدينة وإينياس قبل تأسيسه للوطن الجديد يرحل إلى العالم الآخر. وأوديسيوس أثناء رحلة العودة يرحل إلى العالم الآخر هو أيضا.

6 - الرحالة في الأساطير الرومانية القديمة:

مدخل: خصائص الأسطورة الرومانية:

أولاً: إن الرومان اقتبسوا الكثير عن الميثولوجيا الإغريقية مما أدى إلى امتزاج الإثنتين إلى درجة أن التمييز بينهما أصبح صعباً - ولا بد في الروايات الميثولوجية المسهبة التي نقلها الكتاب القدامى- من غريبتها لإبراز تلك الصيغ التي تشكل الرواية الرومانية بالذات، لهذه الأسطورة أو تلك.⁽¹⁾

ثانياً: غالباً ما كان الكتاب المختلفون ينقلون الأسطورة نفسها... بشكل متناقض، فقد كانوا يعتقدون أن كل شيء جرى في الأسطورة على هذا النحو، أو على هذا النحو تقريباً... ولذا لا بد لدى الباحث في تشابكات الصيغ المختلفة للروايات عن الأحداث نفسها، وعن الشخصيات الواحدة، من:

- إما اختيار الصيغة التي تبدو الأقرب إلى الوعي الروماني.

- وإما سرد اثنتين أو أكثر، أو جمع عدة صيغ معاً. بغية إعطاء تصور كامل، أقل أو أكثر (على الأرجح أقل وليس أكثر) عن الرواية. ولهذا الغرض تستخدم مؤلفات الرومان المختلفين: فرجيل،

¹ - سيركين، بولي: أساطير روما القديمة، تر/ هاشم حمادي، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2011، ص

لفيوس، شيشرون، أوفيدوس، وغيرهم، بالإضافة إلى كتاب الإغريق أمثال ديونسيوس الهارليكارناسي، وبلوتارخ وغيرهما.⁽¹⁾

ثالثاً: إن الرومان لم يروا ولم يشعروا بالفرق بين العصر البطولي والعصر التاريخي، فكان كل منهما ينتقل إلى الآخر بكل سلاسة وتناغم، إذ غالباً ماكانت الأسطورة البحتة تتحول إلى خرافة تحاط فيها القصة عن الأحداث والأعمال الفعلية بكبة من التفاصيل الميثولوجية، وهكذا أطلقت صفة الأسطورة على مجمل التاريخ الروماني قبل الحروب البونية مع قرطاجنة. بداية من عام 264 ق.م.⁽²⁾

الرحالة إيفاندر: قيل إنه ابن الحورية (كارمينتا) (إحدى حوريات النبوءة) وأبوه (ميركوري) رسول أهل (الأولمب)، ولد في (أركاديا)، ولما شبَّ شدَّ الرحال إلى إيطاليا وأسس مدينة البلاتيوم، وجلب معه الأحرف اليونانية الخمسة عشر، لكن أمه (كارمينتا) التي رافقت ولدها في رحلته هذه غيرتها إلى أحرف رومانية.⁽³⁾ ويمكن أن نتنسم من الأسطورة:

- (إيفاندر) رحالة إغريقي (أركاديا)، وأثمرت إحدى رحلاته عن تأسيس إحدى المدن الإيطالية، مثلما حدث مع غيره، ولكن تستعمله المصادر الأسطورية الرومانية على أنه أحد الأصول الإيطالية، فتسمي أباه (ميركوري) لا (هيرميس).

- إن الثقافة الإغريقية ولغتها وأحرفها كانت مؤسسة لبعض الحضارة الإيطالية.

¹ - السابق، ص 29، 30.

² - السابق، ص 30، 31.

³ - معدي، الحسيني الحسيني: أساطير الأبطال، ص 206.

- إن الرحلة كانت عائلية (الابن، الأم، الأب) حيث نجد اسم (ميركوري) ضمن قائمة أسماء المعبودات الإيطالية القديمة.

- إن الرحالة الأنثى، الرفيقة للبطل الرحالة، الأم (كارمينتا) كان لها دور في العمل الحضاري، الثقافي، العلمي على وجه الخصوص.

ملاحح بسيشة: الرحالة الأنثى: كتب (لوكيوس أبوليوس) الحمار الذهبي باللاتينية، وكانت قصة (أمور وبسيشة) جزء من الرواية، ورغم أن أصول القصة تعود إلى الأساطير اليونانية نظرا لطبيعة الشخصيات الأسطورية فيها إلا أن جميع المصادر تعود إلى (لوكيوس أبوليوس) فلا يظهر لها أي مصدر أقدم منه، فهي "المصدر الوحيد الذي يروي القصة"⁽¹⁾ ولهذا ونظرا لظهورها باللسان اللاتيني (مرجعية أسماء الأعلام) فقد اعتبرناها أسطورة رومانية.

- تقول الأسطورة أن بسيشة فتاة جميلة، ظنها الناس (فينوس) تفقد زوجها لأنها عصت أمره بعدم النظر إليه، كانت ضحية مؤامرة من شقيقتها، فكان عليها إذن أن ترحل بحثا عنه، لتثبت خطأها، وندمها، وتوبتها.⁽²⁾

- لإطفاء لهيب الغيظ كان عليها أن تقوم برحلتها الأولى نحو إحدى شقيقتها للانتقام.

- وقامت برحلتها الثانية إلى شقيقتها الثانية للانتقام منها أيضا.

- شدد الرجال بحثا عن الزوج الغائب المختفي.

¹ - شعراوي عبد المعطي: أساطير إغريقية، الآلهة الكبرى، ج3، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2005، ص 455.

² - أبوليوس، لوكيوس: الحمار الذهبي، تر/ أبو العيد دودو، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت/ منشورات الاختلاف، الجزائر ط2/ 2004، ص 108 إلى 142، وينظر أيضا: عبد المعطي شعراوي: أساطير إغريقية (الآلهة الكبرى) ج3، ص 455 إلى 460.

- اتجهت نحو الحماة (فينوس) القاسية.
- كلفتها (فينوس) بعدة أعباء مثل الرحلات الثلاث إلى مواطن الموت.
- كانت (بسيشة) تجد في كل مرة من يساعدها، ويشرح لها كيفية النجاح، (القصة، النسر، البرج)
- كانت ترحل وحيدة لا رفيق لها.
- كانت ترحل على قدميها، من دون وسيلة تنقلها أو تركبها.
- كانت تكلف بالرحلة للتخلص منها، فهي رحلات نحو المستحيل.
- كانت تنجح في هدفها وتعود بما طلب منها.
- كان اليأس هو الذي يسوق خطاها، ولكنها كانت تجد دائما عوناً ومساعدة.
- كانت فقيرة إلى القوة، والحيلة، تكاد تستسلم في كل مرة.
- كان حبها لـ (كيوبيد) وحلم عودته إليها هو الذي يدفعها إلى مغامرة الرحلة.
- وكان الموت هو مطلبها الوحيد كبديل للإخفاق.
- لقد وثق (كيوبيد) أنها فعلا جادة في حبها وإخلاصها وندمها، لذلك واصل نيابة عنها رحلة (لم الشمل) بإقناع أمه ومجمع الأولمب.
- قامت بالرحلة في البداية بمحض إرادتها. بينما كانت مجبرة ومضطرة للقيام بثلاث رحلات اشترطتهن (فينوس) حماتها.

- رغم حالتها الصحية الخاصة (الحمل)، ورغم أنها لم تكن معتادة على المشي والخروج إلا أنها قررت ذلك.

- كانت تسير على غير هدى، تقدم رجلا وتؤخر أخرى، وكانت تحاول أن تنفخ في الأمل من شدة حبها لزوجها، ولكنها كانت تئأس بسرعة فتفكر في الانسحاب من الحياة.

ثانيا: ملامح الرحالة الأسطوري في العالم الآخر:

1- الرحالة الأسطوري في بلاد الرافدين:

أ- شخصية الرحالة البطل: إنكيديو: تقول أسطورة (جلجامش وإنكيديو والعالم الأسفل)⁽¹⁾ أن جلجامش قد حصل على آلي البكو والمكو من (إنانا)، عرفانا له على مساعدته لها في التخلص من الكائنات التي استوطنت شجرتها.⁽²⁾ ولكن وبسرعة سقطتا منه في كوة إلى العالم السفلي، فبدأ يشكو ويطلب الإعانة، فقال له خادمه (إنكيديو) أن لا يحزن ولا يبكي فسيعيدهما إليه، فنصحه جلجامش بألا يلبس الثياب النظيفة ولا يستعمل عطرا، ولا رمحا، ولا هراوة، وأن لا يقبل زوجته التي يحب ولا يضرب زوجته التي يكره، ولا يقبل ابنه الذي يحب ولا يضرب ابنه الذي يكره، وإلا فإن

¹ - بقي نص (جلجامش وإنكيديو والعالم الأسفل) متداولاً في الثقافة الرافدية منذ العهد السومري الجديد وحتى أواسط الألف الأول قبل الميلاد، إذ تم العثور على نسخة أكادية ملحقة بملحمة (هو الذي رأى)، وقد جاء هذا النص في نسخته السومرية بمثابة استمرار لنص (إنانا) وشجرة الحلبو) وبما أن النص السومري شديد التشوه، فالاعتماد على مصدره من النسخة الأكادية التي تعتبر ترجمة شبيهة كاملة للنص السومري مع بعض التعديلات الطفيفة. وهذه النسخة هي التي تشكل اللوح الثاني عشر من الملحمة حسب النص الأساسي ولا تشكل جزءاً عضوياً منها.

² - وملخص أسطورة (إنانا وشجرة الحلبو) حسب النص السومري: نمت شجرة حلبو (دلالة الاسم مجهولة) على ضفة الفرات، فاقتلعتها الريح، ورمتها في مجرى آخر حيث عثرت عليها (إنانا) فانتشلتها وزرعتها في الحديقة المقدسة بأوروك المدينة، فنمت وكبرت وصارت فتنة للناظرين، فجاءت بعض الكائنات لتسكنها مثل الحية العملاقة، وطائر الزو الهائل، وليليت شيطانة القفار. وحرموا (إنانا) من شجرتها الأثيرة. فشكت إلى أخيها أوتو، فسمعها جلجامش، فجاء وصرع الأفعى، ففر طائر الزو الهائل وليليت وطائر القفار، وقطعت الشجرة وصنع منها كرسيًا وسريرا لإنانا، كما صنعت منها آلتين موسيقيتين لجلجامش مكافأة له على صنيعه. (البكو والمكو) وربما كانت الأولى طبلًا والثانية عصا الطبل. وقال بعض الدارسين أن البكو والمكو هي بعض أدوات التباري (التنافس) بين جلجامش والفتيان.

مصيره هو البقاء في العالم الأسفل. ولكن (إنكيديو) لم يصنع إلى مشورة سيده ونصائحه، فأمسك به عالم الأموات. ومن جديد بدأ جلامش يبكي، و"مضى وحيدا إلى إيكور، بيت إنليل:

أيها الأب إنليل، لقد سقط بكي إلى العالم الأسفل

وقد سقط مكّي إلى العالم الأسفل.

بعثت إنكيديو ليرجعهما فأمسك به العالم الأسفل"⁽¹⁾

فلم يجبه إنليل بكلمة، فمضى إلى (سن) فلم يجبه بكلمة واحدة، فمضى إلى (إيا) الذي توجه إلى (نرجال) قائلا:

"نرجال أيها البطل المحارب، يا ابن بيليت إيلي.

افتح الآن ثقباً في العالم الأسفل،

تتسلل منه روح إنكيديو من العالم الأسفل،

فيشرح لأخيه مسالك العالم الأسفل،"⁽²⁾ فحدثت أن صعدت الروح دون الجسد، ودار حوار طويل جدا بينهما. وكان جلامش يسأل عن أهل العالم الأسفل وروح إنكيديو تجيب بتفصيل دقيق.

وهكذا تظهر شخصيته:

1- الوفاء والصدق والخدمة: فبمجرد ما رأى سيده (صديقه) يبكي ما فقدته من أدوات (بكو، مكو)

حتى سارع دون تقاعس أو خور إلى عرض خدماته وجرى نافذاً إلى العالم السفلي لاسترجاعها.

¹ - السواح، فراس: جلامش ملحمة الرافيدين الخالدة، دار علاء الدين، دمشق، ط2/ 2002، ص57.

² - السابق، ص59.

2- التهور: بقدر ما كان إنكيديو على درجة عالية من تحمل المسؤولية، وطاعة سيده إلى أقصى حدود الطاعة، حتى أنه غامر بالرحلة إلى العالم الآخر من أجله، إلا أنه كان متهوراً جداً كذلك، إلى حدود عصيان أوامر ونصائح سيده الذي أوصاه بمجموعة من الممنوعات التي يجب عليه تجنبها حتى لا يصير من أهل العالم الآخر ولا يُمسك به هناك. ولكنه فضل المغامرة والتجريب بكل تهور. فربما أراد أن يثبت لنفسه وسيده قدرته على تحديه قواعد وقوانين العالم السفلي، بكل شجاعة دون خوف.

3- الإخلاص: لما استدعى البطل المحارب (نرجال) إنكيديو، لبي بسرعة وظهر وسلم على جلجامش وجلس يحادثه ويحجب على أسئلته بكل وضوح ودقة.

4- الانتباه ودقة الملاحظة: خلال المدة التي مكثها إنكيديو في العالم السفلي تمكن أن يلاحظ الكثير من الأمور الطارئة هناك. فقد استطاع أن يميز بين كل نزلاء العالم السفلي وأسباب نزولهم وحدّث جلجامش عن أحوالهم النفسية، وأوضاعهم ومكانتهم.

سمة إنكيديو في العالم الآخر: طلب جلجامش من إنكيديو أن يخبره بمسالك العالم الآخر: فأجابه إنكيديو: "لا أحب أن أخبرك أيها الصديق، لا أحب./ فإذا كان علي أن أخبرك بمسالك العالم الذي شهدت،/ اجلس أولاً وابك/ سأجلس وأبكي./ إن جسمي الذي عانقته وقلبك مبتهج،/ تنهشه الحشرات كخرقة بالية./ إن جسمي الذي عانقته وقلبك مبتهج،/ جثة مليئة بالتراب./ فصرخ يا ويلتاه وانكب فوق التراب."⁽¹⁾ فإنكيديو وهو في عالم غير عالم جلجامش يدرك تأثير ذلك على الأحياء، بالحزن والرتاء، فلم يشأ إخباره. ثم هَيَّأ نفسه وأعدّه لتلقي خبر كونه مجرد شبح وأنّ الجسد قد صار تراباً تحوم حوله الحشرات.

¹ - السابق، ص 59، 60.

سَمَت إنكيدو قبل أن يمسك به العالم الأسفل: ارتدى إنكيدو أجمل الثياب وأنظفها وضمَّخ نفسه بالعطّر الفاخر. وارتدى صندلاً يحدث ضجة.

عائلته: لإنكيدو زوجتان: وابنان. وتقول الأسطورة أنه كان يحب زوجة وابنا ويكره زوجة وابنا. عواطف الرحالة: كان يحب سيده جلجامش كثيراً، وساءه أن يجده باكياً فاقترح عليه الذهاب للأسفل لاستعادة المفقودات. وعند استعداده للنزول ودع زوجته وابنه اللذين يحبهما. بينما ضرب زوجته وابنه اللذين لا يحبهما. متناسياً نصيحة سيده. بألا يفعل ذلك فالعواقب وخيمة.

ب- ملامح شخصية الرفيق: قد لا نعتبر جلجامش رفيقاً لرحلة الالعودة لإنكيدو إلى العالم الآخر لأنه فعلاً لم يرافقه إلى هناك. ولكنه سعى من أجل لقائه واسترجاعه، ومضى هو الآخر وحيداً في رحلات عديدة ساعياً بين القادرين على مساعدته، ثم لما استرجع روحه مكث بقربها يجاذبها أطراف الحديث ويسألها عن أحوال العالم السفلي وحال ساكنيه. وأنه هو الآخر مثال للسيد المحب والمخلص لخدمته والوفى لذكرى خدماته ورفقته وحسن تضحيته من أجله، إذ لم ينس ولم ينكر أنه كان السبب فيما لحق بخادمه (إنكيدو)، فهو يتحمل شيئاً من المسؤولية، حتى وإن كان قد أخلص في نصحه وتوجيهه.

عدو الرحالة: صراخ العالم الآخر:

كان جلجامش يعلم أن من يُحدثُ جلبة في العالم الآخر سرعان ما يمسك به وسيبقى هناك أبداً. ولكن إنكيدو لم يمتثل لوصايا ونصائح سيده حين قال له: "فإن لدي كلمة أقدمها لك، فخذ بها، ونصيحة أزودك بها فاتبعها: لا... وإلا أمسك بك صراخ العالم الأسفل"⁽¹⁾ فقام بجميع الممنوعات

¹ - السابق، ص55.

والمحظورات التي نهاه وحذره منها، فكان مصيره أن "أمسك به صراخ العالم الأسفل/ صراخ تلك المضطجعة، أم الإله ننازو/ منعت عنه، من عالم الأموات، صعوداً"⁽¹⁾

ملاحظة واستنتاج: لقد افترضت الأساطير السومرية والبابلية والأكدية في بلاد الرافدين أنه بالإمكان إرسال رحالة، يجوب أعماق العالم السفلي، هذا الرحالة الذي يمتاز بالإيثار والصدق في خدمة سادته ورفاقه، سينفذ إلى هناك حيا يرزق، ولكن لخطأ ما لا يمكن الإفلات من مصيدة الموت الحتمي التي تنتظر الجميع، إن إنكيديو مجرد خادم استطاع النفاذ إلى عالم الأموات المقدس، وكان بإمكانه العودة منه، لو أنه احترم نواميسه، فلم يحدث صخباً وجلبة وإزعاجاً لأهله.

فلا بد لنجاح الرحلة من احترام وصايا ونصائح السادة والعارفين، ويجب احترام طقوس العالم الآخر المقدسة، التي لا يستهان بها، وإلا كان مصير الرحلة الفشل. لأن الرحالة فشل في الحفاظ على شخصيته الأولى الملتزمة بالواجب والإحترام فشلت رحلته ولم يتمكن من الهدف ولا من العودة.

2- ملامح الرحالة الأسطوري في مصر القديمة:

الرحالة رع: رحلة الشمس في عالم الآخرة (الدوات): (أو رحلة مركب الشمس في الدوات): ترسل الأساطير الفرعونية كل يوم (رع/ الشمس) ليقوم برحلة عبر الظلام (الدوات) في العالم الآخر، عالم الموتى، وهذا ليستجلي للأحياء خفايا وخبايا هذا العالم الرهيب.

إن (رع) يزور هذا العالم وهو (ميت) مثل كل الذين يلجونه، فهو غير معفي من استشعار تجربة الموت، ولهذا قد لا تظهر شخصيته الحقيقية التي يحيا بها في عالم الأحياء ككبير للأسرة

¹ - نفسه.

الحاكمة بين الأرباب ذوي السلطة والقوة، ولكن تأثير شخصيته ينتقل مع جثمانه المسجى في قارب (منعجت)، إنه بنفس الهيبة والتأثير.

الجلال: يركز الإنسان المصري القديم على عنصر الرحلة للإشارة إلى الشمس التي تغرب يومياً، ومن الشمس الغاربة تتضح ملامح (رع) الجلييلة حتى وهو في مساره اليومي المنحدر نحو الأفق الغربي.

الموت: ثم يسجى في قارب ينقله في رحلة الإثنتي عشرة ساعة عبر الظلام الذي يساوي الموت، "يرقد جسد (رع) ميتاً وقد فارقتة الحياة... وفي قمرة القارب يرقد (رع) ميتاً ولا حياة فيه"⁽¹⁾

الجهل بمسار الرحلة: لا أحد يعرف مجاهل (الدوات) حتى (رع) نفسه وتحتل ربات الليل الإثنتي عشر أماكنهن حيث يقطن القارب خلال الظلام لأنهن قباطنة النهر.

الضعف: حول القمرة بعض الآلهة هم حماة (رع) وحراسه من الأرواح الشريرة، ومن هجمات (أبوفيس) عدوه اللدود في بلاد الدوات بلاد الظلمات.⁽²⁾

السيادة/ السلطة: في المملكة الثانية/ الساعة الثانية، من الليل ينتشر سلطان (رع) فهو الملك والسيد، ويحيى سكانها في سلام لأن أحداً لا يستطيع أن يخترق تلك البوابات.⁽³⁾

مصدر النور والفرح والحياة:

عندما يتجه قارب رع نحو الشروق يولي الليل والظلام:

¹ - حامد، اسماعيل: موسوعة الأساطير الفرعونية، ص 142.

² - السابق، ص 143.

³ - السابق، ص 144.

"فعد شروقك يشيع السرور في الناس

لأنك تحكم العالم

فتسبب للناس الحياة..."⁽¹⁾

رفيق الرحلة: إنَّ (رع) رحالة يومي يقوم بنفس الرحلة بداية كل مساء، منذ المغيب وحتى الإشراق، وله رفاق يصحبونه، وبعضهم يتناوبون على المسير معه: "وفي مقدمة القارب يقف ووب - وات فاتح الطريق، وحول القمرة يقف بعض الآلهة أولئك هم حماة رع وحراسه من الأرواح الشريرة."⁽²⁾

ويمكننا أن نجد رحلة أخرى لا تَقَلَّ روعة وانسجاما، ودقة في الوصف في نصَّ (رحلة إلى الآخرة) بطلها (سنوزيريس) الذي يقود أباه ليتعرّف على أحوال الدّار الآخرة وكيف يكون مصير السعداء والتّعساء فيها، والرحلة تستمر مسارا مسارا، ومحطة محطة حتى العودة، وقد أيقن الأب أن ديباجة الجنازة الفاخرة لا تعني السّعادة في الدّار الآخرة، وبساطتها لا تعني الشقاء.⁽³⁾ وما أشبهها بتقنية الرحلتين الإغريقية والرومانية.

3- الرحالة الأسطوري الفارسي:

أرداويراڤ: عندما رأى (أردشير بابكان) ما تعرضت له الديانة الزردشتية، وتعاليمها من الضعف والإهمال منذ أن غزا الإسكندر الأكبر بلاد إيران نهاية القرن الرابع قبل الميلاد، دعا جميع أهل العلم والحكمة والدين في مملكته لبحث الوسائل المؤدية إلى إحياء الديانة الزردشتية وتطبيق تعاليمها ومبادئها. واجتمع في بلاطه عدد كبير منهم فاختر أقدّهم وأعلمهم، وكون منهم هيئة

¹ - السابق، ص 154، 155.

² - السابق، ص 142.

³ - مظهر، سليمان: أساطير الشرق، دار الشروق، القاهرة، بيروت، ط1/ 2000، ص 35 إلى 38.

تتولى هذه المهمة. وجعل على رأسها الحكيم (أرداويراف)، وكان على هذه الهيئة أن تضع مجموعة من المبادئ والقوانين الخلقية والدينية، تساعد الناس على تنكيرهم بالدين، وردهم إلى مبادئه وتعاليمه، وتصور هذه المجموعة ما ينال الناس في العالم الآخر، سواء في الفردوس أو في الجحيم، حسب ما قدمت أيديهم من أعمال، وقد تخيل أرداويراف أنه رحل إلى العالم الآخر، واطلع هناك على أحوال أهل الفردوس، وما يصيبهم من نعيم وسعادة، جزاء ما قدموا في الدنيا من خير، وعلى أحوال أهل الجحيم، وما يلاقونه هنالك من عذاب وشقاء لقاء ما اقترفوه من شر وإثم. وسميت هذه المجموعة من المبادئ (إلهامات أرداويراف) أو كتاب أرداويراف، وعلى هذا المحور (الجزء) تدور قصة أرداويراف، وفق التعاليم الزردشتية، وبعد أن أنهى جولته في العالم الآخر، هبط إلى الدنيا ليحدث الناس بما رآه، وليرغبهم ويرهبهم، وليهديهم إلى طريق الخير والحق.⁽¹⁾

وهذه الرحلة تسمى الدنيا العالم السفلي، بينما الآخرة هي العالم العلوي، يسأل الملاك الحكيم أرداويراف "ماذا أعددت لرحلتك الأخيرة من العالم السفلي إلى العالم العلوي، ومن هيأت من الرفاق لإصطحابك في هذه السفرة الطويلة؟"⁽²⁾ وهكذا نستشف أنّ لوازم الرحلة معروفة منذ القديم، فيها ما هو أساسي وجب على الرحالة توفيره، والإعداد له، بدقة وحرص شديد واهتمام، حتى وإن كانت رحلة إلى الدّار الآخرة:

- عدة الرحلة.

- ورفاق الرحلة: مثل غيرها من رحلات الأمم الأخرى، يفضل اصطحاب الرفاق للإستئناس من وحشة الطريق، ووحشة المكان، ولمقاسمة الغير نعيم هذه الدار حين الوصول إليه.

¹ - نداء، طه: الأدب المقارن، دار النهضة العربية، بيروت، 1975، ص 133، 134.

² - السابق، ص 134.

لأن نجاح الرحلة رهين بعناية الرحالة بالإستعداد لها، وتوفير كل ما يعتقد فيه الأهمية واللزوم، حتى ونحن بصدد رحلة أسطورية، إلى عالم غريب غير مطروق فهذا قد يستوجب الإهتمام أكثر والحرص أبلغ، وعدم الإستهانة بأبسط الضروريات والواجبات. وتظهر شخصية أرداويراف عليمه حريصة بشأن هذه الرحلة، نظرا لما يمكن أن تقدمه من فوائد سطرها الحكيم وسعى إليها، إنها شخصية حكيم عارف بما يستوجب عليه إزاء مهمته التي انتدب إليها، فلا بد أن تكون رحلته مقنعة، وذات نتائج إيجابية للمتلقي.

4- ملامح الرحالة الأسطوري الإغريقي:

ملامح الرحالة أورفيوس: بعدما فقد (أورفيوس) الشاعر زوجته (يورديكي) وهي بعد في ميعة الصبا، انقلبت حياته رأسا على عقب، وتغيرت ملامح شخصيته التي عُرف بها مثل السعادة والطرب، إلى ملامح وسمات جديدة:

الحزن والجزع: أحس بوحدة موحشة، لم يصبح للحياة طعم بعد فراقها، ولم يذق طعم النوم في الليل، ولم يعرف الراحة في النهار.⁽¹⁾

الألم وعدم النسيان: هام على وجهه يبحث عن طريقة لإسترجاع زوجته، نصحه الجميع بالصبر، لكن الصبر لم يعرف طريقه إليه، وأشاروا عليه بمحاولة النسيان، لكن النسيان لم يكن يطاوعه.⁽²⁾

الإخلاص والوفاء: عرض عليه أصدقاؤه ومعارفه أن يبحث عن زوجة جديدة لكن (أورفيوس) كان يؤمن بالحب الوحيد الذي لا يقبل البديل.

¹ - شعراوي، عبد المعطي: أساطير إغريقية/ أساطير البشر، ج1، ص 161، ويمكن أن ينظر: دريني خشبة: أساطير الحب والجمال عند اليونان، (ص 149 إلى 153).

² - نفسه.

التّحدي والثّقة في النفس: أشار عليه بعض السّاحرين بأن يستعيدها من العالم السفلي، فصمم على القيام بهذه المغامرة، حتى ظن أصدقاؤه أنه مقدّم على الموت لا محالة، لكنه لم يدركه ذلك الخاطر أبداً وأحس أن الفن الصادق قادر على تحقيق المعجزات.⁽¹⁾ فراح يترجى (زيوس) بأن يسمح له بزيارة عالم (هاديس)، وانطلق إليه وظل يستعطف (خارون) ويتوسل إليه حتّى لان ونقله.

الخوف والفزع: استولى الفزع على (أورفيوس) فتوقفت الدماء في شرايينه، وجف اللعاب في حلقه وتقطعت أنفاسه، ووقف كالتمثال المرمري بلا حركة، ولم يعد قادراً على الدفاع عن نفسه وهو بين أنياب المسخ (كربروس).⁽²⁾

الإصرار: وهو في حضرة ملك العالم السفلي (هاديس) وزوجته (برسيفوني) واصل العزف والغناء ولم يتسلل اليأس إلى نفسه وكان يتمادى في الغناء والعزف كلما لاحظ ترددهما.

الإنّصار: أحس (أورفيوس) بسعادة منقطعة النظير، وعادت الابتسامة إلى شفتيه، وانشرح صدره، وامتلاً قلبه بالإيمان، فلقد استطاع الفن أن يقهر الموت، وبدأ يشق طريقه إلى خارج عالم الموتى، ثم بدأت (بيوروديكي) تسير خلفه وعلى مسافة غير بعيدة.⁽³⁾

الخيبة: استطاع (أورفيوس) أن يقهر الموت بصدق فنه، لكن الموت عاد فقهره لسوء تقديره حين نسي أن (بيوروديكي) تسير خلفه على مسافة غير بعيدة، ظن أنها غادرت عالم الموتى أيضاً في اللحظة نفسها التي اجتاز هو فيها بوابة (أركوس)، هكذا قدر فأساء التقدير، لأنّه عندما عبر البوابة

¹ - السابق، ص 167، 168.

² - السابق، ص 169.

³ - السابق، ص 170.

التفت وراءه وفي تلك اللحظة لم تكن (يوروديكي) قد عبرت البوابة بعد، فراحت تتسحب إلى عالم الظلام وعاد إلى عالم الأحياء وحيدا خائبا فاشلا.⁽¹⁾

سبب الرحلة: موت الزوجة (يوروديكي) الشابة الجميلة التي لم يكن الشاعر يرضى عنها بديلا.

رفيق الرحالة:

هرمس (رسول الأولمب): تحتفظ جل أساطير الإغريق به رفيقا إلى عالم الأرواح (هرقل).

القيثارة⁽²⁾: كانت القيثارة رفيقة لأورفيوس طوال حياته، وفي كل رحلاته، حين خرج من تراقيا

متجولا، ودخل مصر متفسحا، وركب مع الأرجو مغامرا ثم هاهي ذي ترافقه إلى العالم السفلي.

- بها ألان قلب المعداوي (خارون) الصلب الذي لم يصغ إلى التوسلات والإستعطاف، لكنه

عندما استمع إلى الأنغام مد يده يساعد (أورفيوس) للنزول في قاربه العتيق.

- هي التي فككت ألقائها مفاصل الكلب (كيربروس) المسعور، وسرت أغانيها في شرايينه

الصلبة، ومست شغاف قلبه القاسي على بوابة (أركوس) لما وجد ذلك المسخ المهول...

حتى أخذ يلحق بألسنته الثلاث في حنان وهدوء أطراف (أورفيوس).

- ظل يتجول في عالم الموتى ويسير على غير هدى في ممراته المظلمة لا أنيس له سوى

قيثارته، وألقائها الساحرة، حتى وصل قصر الملك.

¹ - السابق، ص 171.

² - قيل أن (هيرميس) هو من ابتكر القيثارة، ثم أعطاه (أبولون) الذي صاغ ألقانا شجية عليها. و(كاليوبي الشقراء) أم (أورفيوس) واحدة من (الموسيات) التسع، ذات الصوت الرخيم، وأبوه هو (أبولون) نفسه. وعلى يديه تعلم العزف والغناء على القيثارة. نشأ في منطقة (تراقيا) الواقعة شمال بلاد الإغريق، الذين اشتهروا بالإحساس الفني المرفه، وعرفوا بمواهبهم الموسيقية الرائعة، وبزوا أهل الأرض جميعا في كل فنون العزف والغناء، أما أورفيوس فلم يكن يباريه أحد في (تراقيا) أو في أي مكان آخر، لم يكن لبراعته في العزف نهاية، ولم يكن لقوة تأثير صوته حدود، وكان بموسيقاه وغنائه قادرا على تحقيق المعجزات، فلم يستطع كائن من الكائنات على وجه الأرض أن يقاوم قوة تأثيره.

- تسلل إلى قاعة العرش فاستولى الغضب الشديد على (هاديس) و(بارسيفوني) فأمسك بقيثارته وطفق يعزف عليها ويروي قصته المؤثرة، ويزرف الدموع الغزيرة، ويتمادى في العزف والغناء حتى رضخت (بارسيفوني) وانضمت إلى صفه محاولة إقناع (هاديس) الذي ما لبث أن رضخ هو الآخر مستجيباً لأنغام القيثارة وغناء الرحالة.

أعداء الرحالة: لقد استطاع (أورفيوس) أن يروّض كل أعداء رحلته ومعارضيه حتى سكان العالم السفلي (الملاح خارون، الكلب كريبروس، هاديس، برسيفوني)، بوساطة قيثارته ونشيده السحري، إلا (سوء التقدير) الذي جعله يفقد (يوروديكي) إلى الأبد، فلم يحسب حساباً لخطواتها المتأخرة عنه.

خبرة الرحالة: كان (أورفيوس) خبيراً جداً بخبايا الرحلة، فهو قد:

- غادر (تراقيا) يحمل قيثارته.
- رحل إلى مصر وشنف آذان المصريين بأغانيه الرائعة.
- اشترك في رحلة السفينة (أرجو)، وأنقذ رفاقه الخمسين فيها من السرينيات بقوة عزفه.
- ولكنه لم يطرق عالم (هاديس)، لذلك لم يحسن إخراج (يوروديكي) منه.

5- ملامح الرحالة الأسطوري الروماني:

بسيشة: قامت بسيشة برحلة إلى العالم الآخر، ضمن ما كلفت بإنجازه من رحلات، كانت رحلتها الثالثة (الأخيرة) إلى عالم (هاديس) إذ طلبت منها حمايتها (فينوس) أن تحضر علبة مليئة بالجمال من مليكة العالم السفلي (بروسربينا) زوجة (هاديس)⁽¹⁾، فظهرت بسيشة كعادتها:

- وحيدة، لا رفيق ولا أنيس لها.

¹ - أبوليوس، لوكيوس: الحمار الذهبي، ص 140.

- خائفة لا تكاد تقوى على حمل نفسها.
- يائسة تفكر في دخول عالم (هاديس) جثة هامة.
- لكنها محظوظة إذ خاطبها البرج ودلها بنصائحه الثمينة على طريق النزول، والعبور، وأصول الضيافة، ثم طريق العودة، وشروطها، وفرائضها، فانقلبت شخصيتها إلى إنسانة رزينة تصغي بانتباه شديد وتستوعب كل الكلمات وتطبق جميع التعليمات بدقة قصوى، بكل تمهل وتركيز.

ملاح الآخـر في الرحلة الأسطورية: يلتقي الرحالة الأسطوري بالآخرين في طريق رحلته وقد ينزل بينهم فيحسنون وفادته، أو يرفضونه، فيعلن عليهم حربه، وحيدا إن كان بمفرده (تيسوس) أو مع عصبته (الإسكندر)، فتكون المغامرة (هرقل: الهراوة)، أو الحديث الطيب اللين (إيزيس في بيبولوس).

فالرحالة سواء استعمل العنف أو الهدوء، فما تلك إلا طريقة من طرائق تواصله مع الآخر، والقسوة هي لغة خطابية للمسالمين بأنه قد أزاح العقبة من طريقهم، بينما إظهار الطمأنينة في كنف الآخر هو إعلان عن الرضى، والجنوح إلى السلم لنيل المآرب. والآخر في الرحلة الأسطورية قد يكون مسخا، أو وحشا، أو إنسانا عاديا، ولا يزيد الوحش عن كونه عدوا يحظى بقوة كبيرة جدا تحاول أن تعرقل الرحالة الذي سيقضي عليها.

المبحث الثاني: ملامح الرحالة الملحمي:

أولاً: ملامح الرحالة الملحمي في عالم الأحياء:

1- ملامح الرحالة الملحمي لبلاد الرافدين (بابل):

نصوص جلجامش الأسطورية والملحمية: بعد أكثر من نصف قرن من اكتشاف ملحمة جلجامش البابلية في (نينوى) تم اكتشاف موقع سومري في مدينة (كيش) (ق 19م) فأخذت روائع الأدبيات السومرية تخرج من تحت الأنقاض وبينها نصوص جلجامش الست، مثل نص جلجامش وأرض الأحياء، والذي يعتبر من روائع الأدب السومري سواء بأفكاره أم بأسلوبه وبنائه الفني وإيقاعه الذي يعتمد التكرار المؤثر، ويدور موضوعه حول انشغال جلجامش بفكرة الموت التي تلاحقه وهو يرى المنية تخطف الناس من حوله، وبحثه عن طريقة يخلد بها اسمه بعد مماته، فإذا كان لابد من الموت فلا أقل من فعل جليل يترك لصاحبه ذكراً باقياً على مر الأزمان، فيجمع القيام بحملة على غابة الأرز البعيدة التي يسكنها ويحميها كائن وحشي مخيف اسمه حواوا⁽¹⁾.

أ- ملحمة جلجامش السومرية: بعد اكتشاف مدينة (الجش) الأثرية السومرية نهاية القرن التاسع عشر أخذت روائع الأدبيات السومرية تخرج من تحت الأنقاض من بينها نصوص جلجامش الست. التي تم تدوينها عصر أسرة (أور الثالثة).⁽²⁾

ب- الملحمة الأكادية:

¹ - السواح، فراس: جلجامش ص 41، 42.

² - السابق، ص 41.

1- النص البابلي القديم: وضعت ملحمة جلجامش في صيغتها الأكادية المتكاملة في وقت ما من العصر البابلي القديم (2000. 1600 ق.م) وربما إبان فترة حكم الملك (حمورابي) خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وهي الفترة التي شهدت استقرارا في الحكم وحركة إحياء شاملة للآداب والفنون الأكادية.⁽¹⁾

وبما أن النقد النصي للمحكمة الأكادية القديمة يظهر استقلاليتها الأسلوبية والأدبية وابتعادها عن الجمل والكلمات والتعابير المستخدمة في النصوص السومرية فإن من المرجح أن المؤلف الأكادي لم يكن يعتمد على تلك النصوص مباشرة، بل نسخا عنها أو أعمالا تحريرية عمدت إلى جمع الأقاصيص القديمة في وحدات أدبية أكبر يشمل كل منها على أكثر من قصة.⁽²⁾

2- النص البابلي الوسيط: هناك دلائل تشير إلى وجود نص أكادي وسيط لمحملة جلجامش (1600 - 1000 ق.م) فقد وصلتنا من هذه الفترة ترجمتان للمحملة الأكادية... واحد باللغة الحثية، وأخرى باللغة الحورية.⁽³⁾ وقد التزم المحررون اللاحقون، إلى حد كبير الخطوط العامة للحدث، كما رسمها لهم كاتب النص القديم ولم يمارسوا على النص تلك الحرية التي مارسها هو على مادتها السومرية، وذلك رغم قيامهم بإضافة مادة جديدة محدودة.⁽⁴⁾

¹ - السابق، ص 79.

² - السابق، ص 87.

³ - السابق، ص 80.

⁴ - السابق، ص 87.

3- النص المتأخر الأساسي (نسخة نينوى): خلال الربع الأخير من الألف الثاني قبل الميلاد

استقر الشكل النصي والأدبي لملمحة جلجامش في ما ندعوه بالنص المتأخر، (أو الأساسي) الذي

بقيت نسخه المتعددة متطابقة إلى حد كبير طيلة ألف عام (حتى نهاية الألف الأول قبل الميلاد)

إن مؤلف النص المتأخر قد بقي أميناً للنص القديم وأشكاله الوسيطة، رغم كل الإضافات

والتجديدات النصية والأدبية وتعزو التقاليد الرافدية هذا العمل التحريري المتأخر إلى كاهن* إنشاد

بابلي (سين ليكي أونيني) (حوالي سنة 1250 ق.م)⁽¹⁾

إذ قام هذا الكاهن المحرر بتقديم إضافاته الرئيسة الثلاث على النص وعالج بعض الأحداث

والأفكار بإسهاب أكبر، وربط مفاصل الملمحة بتقنيات أدبية من ابتكاره جعلتها أكثر وحدة

وتماسكا، وصل النص إلى شكله المستقر الأخير، وذلك في زمن ما بين أواخر الألف الثاني،

وأوائل الألف الأول قبل الميلاد. وخلال الألف الأخير قبل الميلاد لم تبد نسخ الملمحة إلا

اختلافات بسيطة (لا يعتد بها) وبهذا صار النص بمثابة وهكذا اعتمد هذا النص وجاءتنا أكمل

نسخة من مكتبة آشور بانيبال بنينوى وصارت المتداولة في الأدبيات العالمية وهي المقصد حين

الحديث عن ملمحة جلجامش.⁽²⁾

*إن الشاعر الذي استعار شخصية جلجامش وقدم عنها ملمحة متواصلة الأحداث والمشاهد حافلة بما يدعو إلى التفكير والتأمل، كان على اطلاع كامل على ثقافة عصره وعلى معرفة واسعة بتراث سومر وأكاد، في شمول المعتقدات الدينية والفلسفية لذلك العصر، وآدابه وحكمته وأمثاله... وإذا ما كان أحد السجلات الآشورية ينسب جمع وتثبيت الملمحة في إحدى عشر لوحة من قبل الكاهن المعوذ (سين . ليلي . أونيني) الذي عاش في أوروك حوالي 1200 ق.م، ومعنى اسمه (سين تقبل رجائي)، وسين هو إله القمر، ويمكننا القول بأن هذا الكاهن كان أدبياً فذاً، ومبدعاً قبل كل شيء

1 - السابق، ص 83.

2 - السابق، ص 88.

أدبية الملحمة: حررت ملحمة جلجامش في آخر صيغها أكاديا صيغة شعرية لا تختلف عما أُوثر عنها سومريا، ووزعت على أحد عشر لوحا (رقما) فخاريا منقوشا على الوجهين، يحتوي كل منها على حدث أساسي من أحداث النص الملحمي الكلي، فهي أشبه بالفصول أو الأبواب مما يعمل به الآن، وكثيرا ما تبدأ المشاهد في عمود لتنتهي في آخر، أما السطور فيحتوي كل منها على بيت شعري مكون من شطر واحد أو شطرين حسب طوله، ويختلف فيه عدد التفعيلات تبعا لذلك، ففي الأبيات المكونة من شطرين يتراوح العدد بين أربعة وستة تفعيلات إذ في كل شطر تفعيلتان أو ثلاثة، بينما هناك ثلاث تفعيلات فقط في البيت ذي الشطر الواحد. ورغم أن النص أكادي الصنعة والأسلوب إلا أن الشاعر قد حافظ على بعض التقاليد الأدبية السومرية، مثل فخامة اللفظ وجزالته، والتكرار الذي يعطي المشاهد جوا طقوسيا واضحا. لأن هذه التقنيات الفنية تخدم أهداف الشاعر إلى أبعد الحدود والمتلقي سيشعر بهذا عند إنشاد ملحمة جلجامش.⁽¹⁾ حتى وهو في ترجمته الجميلة إلى اللغة العربية⁽²⁾ ويظهر فيها ما يتميز به الأدب العراقي القديم عامة (بل جميع الآداب القديمة): ظاهرة التكرار، وظاهرة استباق الأحداث أو استباق النتائج إذ تبدأ بديباجة في التعريف بالبطل والتغني بأمجاده وتوجز كذلك موضوع الرواية وخاتمتها، ولعله يمكن تفسير هذا الأسلوب أن القصد منه تحريض السامع وتشويقه.

القفلة: تأتي الملحمة إلى نهايتها التامة والمنطقية في ختام اللوح الحادي عشر، حيث يرجع جلجامش إلى أوروك وينتهي اللوح الأخير بما بدأ به اللوح الأول من وصف لأسوار المدينة ومعبيدها، الأمر الذي يوحي بانتهاء القصة. وتعتبر هذه القفلة البارعة من قبل الكاتب إحدى

¹ - السابق، ص 83.

² - ترجمت ملحمة جلجامش إلى عديد لغات العالم كما قام علماء عرب بنقلها إلى العربية على رأسهم طه باقر، سامي سعيد الأحمد، قاسم الشواف، السواح...

اللمسات الأدبية الخلاقة التي ميزت نص الملحمة المتأخر، ولحمت أحداثها إلى بعضها، إضافة إلى أهميتها القصوى في إرشادنا إلى مغزى النص ومعناه.

أما اللوح الثاني عشر الذي يحتوي ترجمة أكادية شبه حرفية للأسطورة السومرية (جلجامش وأنكيو والعالم الأسفل) وفيه نرى أنكيو حيا مرة أخرى بعد أن كان موته صانع الذروة الدرامية في الحدث الملحمي السابق. فاللوحة الثاني عشر بمثابة ملحقات أتبعه الكاتب بها توخيا لغرض معين ولاشك، إلى جانب اللوح الثاني عشر فقد احتوى النص المتأخر على إضافتين رئيسيتين هما المقدمة المؤلفة من ستة وعشرين سطرا وقصة الطوفان كاملة يحكيها بطلها الجد أوتنابشتيم.⁽¹⁾

إن الملحمة بنصها الأكدي أي البابلي السامي بدأت تتبلور في عهد سيطرة السلالة الأكادية التي أسسها سرجون الأكدي الشهير (مطلع الألف الثاني ق.م)

معنى الاسم: ولا يعلم بالضبط معنى اسم جلجامش. وقد ذكرت بعض النصوص الأكثر ترجمة له باللغة الأكادية معناه (المحارب الذي في المقدمة) كما يحتمل أن يكون معنى اسمه بالسومرية: (الرجل الذي سينبت شجرة جديدة) أي الذي سيولد أسرة.⁽²⁾

يمكن تلخيص الحضارة الرافدية في العراق القديم بهذا الجدول⁽³⁾ وقد وضعنا الملاحظات الخاصة بالنص في علاقته بهذه الحقب الزمنية، فالأساطير والملاحم تختزن، وتختزل، وتحين الأحداث التاريخية:

الشكل (1): جدول يمثل الحضارة الرافدية في بلاد ما بين النهرين:

¹ - السابق، ص 84.

² - باقر، طه: ملحمة كلجامش، ص 52.

³ - السواح، فراس: جلجامش، ص 28.

الفترة التاريخية	التواريخ التقريبية	ملاحظات على النص
1- الحضارة العبيدية (إيريدو)	5300 . 3600 ق.م	أسطورة إنانا والأب إنكي.
2- حضارة أوروك	3600 . 3100 ق.م	الانقلاب الحضاري في تاريخ البشرية (الانقلاب المدني): تبدأ حضارة المدنية الذي سبق الانقلاب الحضاري الزراعي (ثورة العصر الحجري الحديث)
3- جمدت نصر	3100 . 2900 ق.م	النماذج الأولى للكتابة، بداية عصر التاريخ (النخبة السومرية في العراق) لغة سامية.
4- عصر الأسرات الأولى (عصر فجر السلالات)	2900 . 2300 ق.م	أوروك السومرية أول مدينة حقيقية في التاريخ (2600 ق.م) (القرن السابع والعشرين ق.م) حيث وقعت أحداث ملحمة جلجامش.
5- العصر الصارغوني (الأكادي)	2300 . 2160 ق.م	عصر الفترة التاريخية الموثقة بالنصوص الكتابية السومرية اللغة الأكادية السامية.
6- أور	2160 . 2110 ق.م	العهد الذهبي للمنطقة (آخر قمة من قمم الثقافة السومرية)

العهد الذهبي للمنطقة (آخر قمة من قمم الثقافة السومرية)	2100 . 2000 ق.م	7- أسرة أور الثالثة
النص البابلي القديم للملحمة في صيغته المتكاملة/ حمورابي.	2000 . 1600 ق.م	8- العصر البابلي القديم
	1600 . 1200 ق.م	9 . الحكم الكاشي
ترجمتان للملحمة الأكادية: اللغة الحثية واللغة الحورية.	1200 . 1000 ق.م	10- البابلي المتوسط/ الآشوري المتوسط
	1000 . 614 ق.م	11- الآشوري الحديث
العثور على النص الأساسي (النص المتأخر) في مكتبة آشور بانيبال في نينوى إثر الهجوم الكلداني 612 ق.م	614 . 539 ق.م	12- البابلي الجديد (الكلداني)
أساطير الفرس وملاحمهم.(شهناماتهم)	539 . 331 ق.م	13- العصر الفارسي
	331 ق.م	14- فتوح الإسكندر ونهاية تاريخ الشرق القديم.

إن ملحمة (هو الذي رأى الأعماق)، هي أعمق نص أدبي عرفه تاريخ الأدب الإنساني، واحتفظ بأهميته وعظمته منذ ظهوره إلى يومنا هذا، ونقل إلى كثير من لغات العالم القديمة والحديثة، مخترقا الأزمنة والأمكنة بمعالجة درامية فائقة.

من حيث بناء الشخصيات (وخاصة البطل) والتوليفة الزمانية والمكانية لرحلتين قام بهما الرحالة البطل "فأي مثال على خلود العمل الفني الذي يتخطى حواجز الزمن والمكان تقدمه لنا ملحمة جلجامش ! بعد أربعة آلاف عام من تدوين نصها الأكادي (الأساسي) يقرأها البشر من شتى الثقافات في جهات العالم الأربع اليوم، وكأنها كتبت خاتمة أمس".⁽¹⁾

1- سمات الرحالة البطل (جلجامش): تغنت ملحمة الرافدين الخالدة بأمجاد البطل الرحالة (جلجامش) الذي كان ملكا جبارا مسيطرا على الرعية، تواقا للبناء والتشييد والتعمير. بصفته الفرد القادر على الإدارة والحكم وإقصاء الآخرين، ولكنه ما لبث أن استحال إلى شخص آخر، وتنازل عن جبروته السلبي اتجاه رعيته التي كان يراها مجرد وسيلة لخدمة طموحاته وشهواته، وصار يفتش عما يحقق له مجدا حقيقيا لا يزول إلا بالموت أو الإندثار، وكل هذا الانقلاب الفجائي الذي حدث في حياته وحياة شعبه وكل مدينة أوروك ذات الأسوار الحصينة كان سببه ظهور ند له أحدث التعادل ووازن الكفة، في طموحاته النفسية وإمكاناته الجسدية، وغير حتى أفق التطلع والتفكير لديه. فبمجرد أن وقف أنكيديو أمامه حتى أدرك أن كل ما قام به يمكن للآخرين القيام بمثله، وفي المقابل إن كل ما يحدث للآخرين الذين يرى من فوق السور العتيد جثثهم تطفو في النهر سيحدث له بسهولة، إذن فإن أحزان الرجال بسبب الفناء الحتمي وليس لأن جلجامش هو الأقوى، وهذا هو مصدر حزنه أيضا. "إذا اعتبرنا النتاج الفكري والأدبي مرآة لحركة المجتمع فإن جلجامش هو أول فرد في التاريخ، ومطلع الألف الثاني قبل الميلاد هو الوقت الذي حدد تمايز الفرد عن الجماعة وظهور الشخصيات التي تفعل في الجماعة وتؤثر في منحى تطورها بدل أن تكون انعكاسا لحركتها. فقبل ملحمة جلجامش لا نعثر في أدبيات الشرق الأدنى القديم (وهي أول

¹ - السابق، ص 8.

أدبيات مدونة في التاريخ) على ملامح واضحة للفرد... فجأة ينتصب جلجامش كأول شخصية تعلن عن حضورها في استقلال عن الجماعة... وجلجامش الفرد لم يؤسس لفردية فوضوية خارجة عن الكل... بل لقد جعل من نفسه النموذج الذي يمكن لأية شخصية في الجماعة أن تتشكل وفقه وتتسج على منواله، ليغدو المجتمع فريقا من الأحرار... وهو بتطوره الشخصي من الفردية الفوضوية إلى الفردية الجماعية المنظمة، ومن الإهتمام بالمصير الخاص إلى العناية بالمصير الإنساني، إنما يحدد المسار الذي يحرر الأفراد ويربطهم في آن معا".⁽¹⁾

أولاً: شخصيته ما قبل أنكيدو الند/ قبل الرحلة: من نص الملحمة، وقبل القيام برحلته نحو غابة الأرز كان يظن نفسه فردا جبارا واحدا لا ند له، وبقدر ما كانت تظهر سمات البطولة العظيمة في أعماله، إلا أن قلق الفردية كان واضحا إلى درجة أنه صار ظالما لرعيته، يريد أن تكون صورة عن مطامحه وأمجاده، هذه الرعية التي كان عزاؤها أنه: "هو راعينا القوي الوسيم الحكيم".⁽²⁾

لهذا لم تطالب بالبدل وإنما كانت ترى وجوب ظهور ند له يكون معادلا موضوعيا له. يثبتت كفة الميزان، ويجعله ينظر بتعددية إلى كل الأشياء والمطامح، ويشارك الآخرين في الأفعال والإحساس.

ثانياً: شخصيته بظهور الند إنكيدو : الرحلة:

تقول الملحمة: "لقد ظهر رجل جبار

للبطل الكامل الوسامة

لجلجامش شبيه الآلهة

¹ - السابق، ص 239.

² - السابق، ص 241.

قد ظهر الآن ند" (1)

إن الندية في إنكيديو هي التي قهرت طغيانه وألجمت أفراسه، وأعظم ما في هذه الندية هي قوة الحرية التي ورثها إنكيديو من الطبيعة الحرة والفلاة المفتوحة والحيوانات الطليقة.

إنه حر مثل جلجامش إذن يستطيع أن يفعل بقوته ما يفعل ولا سلطان له عليه. وهكذا فلا يمكن الجمع بينهما إلا من خلال الصداقة.

الند إنكيديو: لقد تمت الرعية ظهور ند لزعيمها القهار، ولم يكن هذا ما يحده أهـل أوروك فحسب، بل حتى هو نفسه بات يعرف ماذا ينقصه، ولهذا فقد "كان تأثير صداقة أنكيديو على جلجامش حاسما، والحب الذي نشأ بينهما أخذ بتوجيه طاقته المتخبطة نحو أهداف نبيلة، لم يعد جلجامش الفرد الحر الوحيد بين جماعة من المسلوبين، إذ ظهر أمامه الآن رجل حر آخر، تعلم من تعامله معه كيف يحترم حريات الآخرين جميعا، وأدرك أن الحرية الفردية لا معنى لها إن لم تتعاون مع حريات أولئك الآخرين وتتحد من خلالها، ومع تلاشي أحلام الحرية المطلقة، أتى وعي مسألة الموت والتفكر فيه" (2)

فلا شك أن جلجامش كان يبحث في أعماقه عن هذا الند، وكان يريد أن يستفز أهليه، ورعيته في أوروك عسى أن يظهر هذا الذي يقف في وجهه، ويحاور طاقته وقوته، ولهذا وبسرعة اكتشف ما كانت تريده نفسه وتحلم به في أعماقها بمجرد أن اختبر قوة إنكيديو الجسدية.

1 - السابق، ص 244.

2 - السابق، ص 249.

إن مجرد الوقوف في وجهه جعله يطمئن لهذا الآخر الذي أتى من خارج الأسوار الأسطورية ليقف باطمئنان قبالة، متحديا سلوكه الأخلاقي وبنائه الجسدي، وتفكيره الإستقزائي الظالم لعبيد الله.

كان لجلامش مشاريع جلية وجميلة، تدغدغ وجدانه. وكان يترث في القيام بها في انتظار ظهور رفيق يبرز المرأة في عملها.

وها قد ظهر (أنكيو) وسقط قناع الفردية الأنانية، فماذا عن قناع القوة التي لا تهزم؟ والحياة التي لا تنتهي. وكان أن فكر وقرر القيام برحلة تزيد من أمجاده وترفع ذكره خاصة وقد كسب الرفيق المجرب والدليل الخبير الذي لا يقل إيماننا واحتسابا.

1- في اللوح الأول عمد شاعر ملحمة جلامش إلى تقديم الرحالة وفق تقنية تقديم الشخصية بأدق تفاصيلها.

2- ثم نراه يعمد إلى تقنية تقديم الشخصية بشكل مباشر، وكان ذلك عن طريقه هو السارد، ثم عن طريق الشخصية الأخرى، وتارة ثالثة كان الرحالة ذاته يمدنا بمعلومة عن شخصيته، وفي الوقت نفسه كنا نجد نحن القراء أنفسنا نستخلص بعض صفات جلامش، والآخرين من مواقفهم أو أقوالهم، أو أحوالهم.

أ- تقديم الشخصية بأدق تفاصيلها: بمجرد أن نتصفح اللوح الأول من الملحمة، نجد الحديث عن الرحالة العملاق الجبار، وصفاته الباهرة، وتتضح جل سماته الأساسية الإيجابية، وكذا الثانوية الإيجابية والسلبية مثل الظلم الذي اعتبرناه صفة ثانوية لأنه كان يظنه لمصلحة المدينة ثم لأنه سرعان ما تخلص منه بمرافقته لإنكيو.

ويكفي أن نتعرف على كل جلامش من خلال اللوح الأول في عموده الأول وبعض الثاني

حيث تتضح كل الملامح والصفات البدنية، والنفسية، والاجتماعية، والثقافية، والجمالية (1):

الخبرة: هو الذي رأى كل شيء إلى تخوم الدنيا.

العلم: هو الذي عرف كل شيء، وتضلع بكل شيء.

الحكمة: سيد الحكمة الذي بكل شيء تعمق، هو راعينا... الحكيم.

التأمل: رأى أسراراً خافية وكشف أموراً خبيئة.

المعرفة: وجاءنا بأخبار عن زمان ما قبل الطوفان.

الرحلة الطويلة المتعبة: مضى في سفر طويل، وحل به الضنى والعياء.

الكتابة: ونقش في لوح من الحجر كل أسفاره.

البناء: رفع الأسوار (2) لأوروك (3) المنية.

العبادة: ومعبد إيانا المقدس.

الفن: أنظر فجاره الخارجي يتوهج كالنحاس، وانظر فجاره الداخلي ما له شبيه.

1 - السابق، ص 107 إلى 111.

2 - الأسوار: وصلت أوروك قمة الإزدهار خلال أواسط عصر الأسرات الأولى حوالي عام 2600 ق.م، ويرجع علماء الآثار أن سورها العظيم قد بني حوالي ذلك التاريخ، وأنه أحاط بمسافة تقدر بأربعمئة هكتار.

3 - أوروك: اعتماداً على ما توفر لدينا حتى الآن من معلومات أركيولوجية وتاريخية، يمكننا اعتبار مدينة أوروك السومرية أول مدينة حقيقية في التاريخ، والنموذج الأسبق لكل المدن التي قامت بعدها، وأنها قد بلغت مرحلة المدنية الحقيقية قبل غيرها من المراكز الحضارية في وادي الرافدين الجنوبي (2600 ق.م) وتأتي البيانات الكتابية والأخبار المتناقلة عن ذلك العصر في اتفاق مع البيانات الأركيولوجية، فإذا أراد المؤرخ أن يقدم مثلاً على أعرق مدينة في أعرق حضارة، فإن مدينة أوروك ستكون النموذج والمثال. (السواح: ص 31).

التاريخ: تلمس فعتباته قد أرسيت منذ القدم.

الإيمان: تقرب فإيانا مقام لعشتار.

المعجزة: لا يأتي بمثله ملك من بعد، ولا إنسان، شق طريقه بعزم يديه إلى أوتتابشتيم البعيد.

القدرة والقوة: عن جلامش الذي مضى عبر جميع الصعاب، متين البنيان، الثور النطوح، كصخرة

جبارة، وكموج الطوفان الصاخب يهدم الأسوار الصماء، جلامش الكامل القوة، .

الملك: الذي فاق كل الملوك.

الشهرة: ذائع الصيت.

النسب إلى مدينة قوية: ابن أوروك.

شرف النسب: نسل لونجال بندا. ابن البقرة المهور نسون.

الشجاعة والقيادة: الذي يمضي في المقدمة كما يليق بالقائد.

الأمانة: ويسير في المؤخرة كرجل مؤتمن.

التعاون: يصد عن رجاله.

الفتح: فاتح ممرات الجبال.

حفر الآبار: ناقب الآبار في سفوح المرتفعات.

الرحلة البعيدة جدا: عبر المحيط المترامي إلى حيث تشرق الشمس.

الهمة والأمل: وارتاد أصقاع الأرض بحثا عن الحياة.

الفردة: هل مثله ملك في أي مكان؟ هل يحق لغيره أن يقول أنا الملك حقا. فبالإسم جلجامش قد دعي منذ يوم مولده.⁽¹⁾

تقنية تقديم كل شيء عن البطل (شخصية العمل السردية):

الجمال: ما لهيئة جسمه من نظير.

الأنفة: كثور وحشي يرفع رأسه عاليا.

القوة: بأس سلاحه بلا شبيه.

الصرامة: وعلى صوت الطبل يوقظ رعيته.

الرعاية: وهو الراعي لأوروك المنيع، هو راعيهم وهو ظالمهم.

الجمال: هو راعينا القوي الوسيم.

الحيوية والنشاط: اخلقي الآن له ندا يعادله صخبا في الفؤاد.

الظلم⁽²⁾: هو راعيهم وهو ظالمهم، ماض في مظالمهم ليل نهار. وهي السمة الثانوية السلبية

الوحيدة في شخصية جلجامش، فقد كان ظلوما لعبيده ورعيته بشدة قهرهم ضرورة على العمل

والمداومة عليه ليل نهار. وقد كان للمترجمين والنقاد حديث كثير فيما خص هذه السمة بالذات.

وحاولوا دائما إرجاعها إلى مبالغة الملك في تسخير رعيته لبناء مدينة القاهرة.

¹ - السواح، فراس: جلجامش، ص 107، 108، 109، 110.

² - فسر بعضهم الظلم هذا بالشدة في العمل.

ثلثاه إله⁽¹⁾ وثلثه بشر:

ب- تقديم الشخصية بشكل مباشر:

1- عن طريق السارد (الشاعر): "غسل رأسه الطويل، ومسح أسلحته/ أسدل شعر رأسه على

كتفيه، نضى ثيابه الوسخة، وارتدى ثيابا نظيفة/ لبس عباءة وأحاطها بحزام وعندما وضع جلبامش

تاجه على رأسه شخصت عشتار العظيمة إلى جماله."⁽²⁾

2- عن طريق شخصية أخرى: قالت كاهنة المعبد إنكيديو: "تعال آخذك حيث عظيم البأس...

الظاهر فوق جميع الرجال كثور وحشي... رجل الميزات... كامل الرجولة... دافق الحيوية... أكثر

منك قوة... لا تهدأ حركته ليل نهار... قد وهبوه فهما عميقا، وقبل أن تصل من براريك المترامية،

في أحلامه بأوروك، سيراك جلبامش"⁽³⁾

قال إنكيديو: "رأسك مرفوع فوق الرجال... وسلطانا على الناس..."⁽⁴⁾

3- عن طريق البطل نفسه: قال جلبامش: "أريد، أنا جلبامش، أن أواجه من عنه تتحدثون، من

ملأ اسمه أرجاء البلاد/ وأصرعه في غابة الأرز./ ما أقوى ابن أوروك/ هذا ما ساجعل البلاد

تسمعه سأمدا يدي، وأقطع شجر الأرز/ فأحفر لنفسي اسما خالدا."⁽⁵⁾

¹ - قرأها بعضهم: ثلثاه إلهي (صفة أو نسبة).

² - السواح، فراس: جلبامش، ص 163.

³ - السابق، ص 120، 121.

⁴ - السابق، ص 136.

⁵ - باقر، طه: ملحمة كلكامش، ص 28.

4- كما يمكن للقاريء أن يستشف بعضا من ملامح وسمات شخصية الرحالة: فحينما دعا الجميع

آرورو: "اخلي له الآن ندا يعادله صخبا في الفؤاد"⁽¹⁾

"في أحلامه بأوروك سيراك جلامش"⁽²⁾

المثبطات النفسية لشخصية الرحالة: قال جلامش: "قد أوجعت قلبي إذ تكلمت" فلقد تحدث إنكيديو طويلا عن مخاوفه مما أزمع عليه جلامش، وراح يروج للتشكيك في قوة وقدرات جلامش البطل الرحالة، لدى شيوخ أوروك ذات الأسواق الذين استطاع أن يسحبهم إلى صفه، فضموا أصواتهم إلى صوته: "فتي أنت يا جلامش/ وبعيدا قد حفزك قلبك/ لا تعرف بعد كنه ما انتويت/ قد سمعنا عن شكل حواوا المخيف/ فمن يستطيع الصمود أمام أسلحته/ تنتسع الغابة عشرة آلاف ساعة مضاعفة..."⁽³⁾

لقد واجه جلامش قبل انطلاقه في رحلته عراقيل ومثبطات للعزيمة من رفيقه وسنده إنكيديو ثم من شيوخ مدينته المحنكين ذوي الخبرة والعلم وأهل النصيحة، الذين راحوا يحاولون تذكيره بما كان قد قاله إنكيديو من أوصاف مرعبة عن وحش الغابة، وعن الغابة نفسها. إن هذه الصفات كفيلة بأن تجعل أقوى الرجال يتراجع عن عزمه وإصراره بله إذا كانت صادرة عن مجلس شيوخ المدينة! ولكن الغريب أنها لم تزد جلامش إلا عزمًا وإصرارًا وتطلعًا، فتشرئب عنقه نحو الغابة ووحشها، واجتهد أن يشرح للجميع فكرته وطموحه فأمر الصناع بتجهيز عدة له ولإنكيديو.

¹ - السواح، فراس: جلامش، ص 112.

² - السابق، ص 121.

³ - السابق، ص 143، 144.

قوة شخصيته تميل الكفة إلى صالح الرحلة: كانت الفكرة قد اختمرت في نفس جلجامش، واقتنع أن لا شيء أكثر سلبية في الحياة من المكوث خلف الأسوار، لأن الموت مصير حتمي، والخوف من الوحوش ومواجهتها، والإحجام عن المغامرة لا يجعلانه يعيش أبداً، بل الشجاعة والمواجهة هي التي تطيل عمر الأسماء.

II - سمات الرحالة الرفيق (إنكيديو):

الخبرة: قال شيوخ أوروك لجلجامش وهو يستعد للسفر:

"دع إنكيديو يمشي أمامك/ لأنه بطريق غابة الأرز خبير/ لقد شهد المعارك وتمرس بفن القتال/ دع إنكيديو يحمي صديقه/ يعبر به فوق الخنادق."⁽¹⁾

لأن الأسطورة تقول أن الإلهة أورورو أخذت طينة وألقتها في الفلاة ومنها تخلق إنكيديو، وعاش ردحا من الزمن بصحبة الحيوانات البرية فتمرس بفنون قتال الضواري منها، وتعلم كيف يقفز على المطبات والحفر وكيف يكشفها ويتحاشاها، خاصة تلك التي كان الصيادون يقيمونها، لقد كسب من ذلك خبرة تمكنه من أن يكون دليلا جيدا لصاحبه جلجامش وهو في طريق رحلته عبر البراري نحو غابة الأرز.

القوة والفتوة: ظهر إنكيديو في البراري من طينة ألقتها أورورو، كان الشعر ينمو كثيفا على جسده وطويلا على رأسه مثل سنابل القمح وكان يرتدي جلود الحيوانات. ويرعى الكأ مع الضباء، ويرد معها الماء لاهيا عابثا. وهو في وصف الصياد أقوى من في الفلاة ذو بأس عظيم، متين العزم

¹ - السابق، ص 148.

كشهاب آنو الثاقب، هذا الرجل الجبار الرجل الفريد، يعين الطرائد على التخلص من المصائد والحفر التي ينصبها الصيادون.⁽¹⁾

وقال عنه جلجامش: "هو رفيق عتيّ، يعين الصديق عند الضيق".⁽²⁾

لأن إنكيديو الشخصية الثانية الموازية لجلجامش في البطولة فقد حرص الشاعر على تقديمه بشكل واضح يجلي مراكز القوة والتوأمة في شخصيته، ولكنه لم يعتمد تقنية التقديم بجميع التفاصيل مثلما حدث مع بطل الرحلة جلجامش، بل استعمل تقنية (تقديم الشخصية بشكل مباشر)

1- إنه يعرف نفسه بنفسه:

القوة: "لأقلل أنا من شأنه، فقوتي فائقة." / لأصرخ في قلب أوروك إنني أنا الأقوى / سأبدل الأقدار والمقدرة/ فمن ولد في البرية هو الأقوى ويملك القدرة".⁽³⁾

القائد الدليل: "فتح إنكيديو فمه قائلاً لجلجامش: / أنت الثاني من ورأي فلنبداً السفر/ لا يعرفن الخوف فؤادك، ضع ثقتك بي/ إني أعرف مكان سكناه/ وخبرت السير في طريق حواوا/ مرهم يعودون إلى ديارهم".⁽⁴⁾

2- السارد يعرفنا بإنكيديو:

هيئته الفيزيائية: لما كثرت شكاوى الناس من شدة جلجامش وسطوته وقسوته على رعيته استمع آنو وأصغى ثم ذهب يسعى فاستدعى أوروو وأمرها أن تخلق كفؤا لجلجامش يتلهم به "لتخلق ندا

¹ - السابق، ص 113، 114، 115.

² - السابق، ص 112.

³ - حنون، نائل: ملحمة جلجامش، ترجمة النص المسماري مع قصة موت جلجامش والتحليل اللغوي للنص الأكدي، دار الخريف للنشر والتوزيع، ط1/ 2006، ص81.

⁴ - السواح، فراس: جلجامش، ص 147.

لجلجامش فائق القوة، ليكن كفناً لهياج قلبه" فغسلت يديها واقتطعت طينا ألفته في البرية "وفي البرية خلقت إنكيديو المحارب، مولود الصمت،... مغطى بالشعر كل جسمه، أفرع شعر الرأس كامراً ينسدل شعر رأسه ويتكاثر كالسنابل. لا يعرف ناسا ولا بلادا، يلبس لباسا كالإله سموقان، مع الضباء يأكل العشب، يأكل العشب مع الحيوان يطفر للمسقى.⁽¹⁾ إن هذه الهيئة لا تشبه هيئة جلجامش، وهذا الشكل يفترق عنه أيضاً، ولكنهما لا بد يلتقيان في "هياج الفؤاد" فالقوة لا تصنعها الجثة الضخمة، بقدر ما تتناسب من القلب الصاخب، وفي هذا كانت الندية بينهما.

عواطفه: "نزل كلامها إلى أعماقه فجلس باكياً/ عينا إنكيديو امتلأتا دمعاً. تكدر قلبه واكتأب. عينا إنكيديو امتلأتا دمعاً. تكدر قلبه واكتأب."⁽²⁾

تأثير شكله في الآخرين: "رآه الصياد فامتقع وجهه هلعاً/ كان خائفاً مشلولاً. ساكن الحركة/ في قلبه اضطراب وعلى محياه اكتئاب"⁽³⁾، لقد كان لهذه الهيئة التي ظهر بها إنكيديو تأثيراً قوياً على الصيادين ممن صادفوه في الغابة وعلى مشارف مروج الرعاة. كان مخيفاً جداً.

خدماته: مساعدته للآخرين: ولكن ذلك الشكل المريع سرعان ما صار شكلاً مريحاً، ومصدر سعادة للرعاة والصيادين، بحمايته وخدمته لهم، فظهرت قوته المضاهية لقوة جلجامش وأخلاقه المفارقة لها: "أخذ سلاحه/ وراح يهاجم الأسود/ يريح الرعاة منها ليلاً/ قنص الذئب/ واصطاد الأسود/ ليستطيع رعاة الماشية سباتاً/ فإنكيديو اليوم حارسهم/ رجل قوي/ رجل فريد."⁽⁴⁾

¹ - حنون، نائل: ملحمة جلجامش، ص 75.

² - السابق، ص 100.

³ - السواح، فراس: جلجامش، ص 113.

⁴ - السابق، ص 129.

3- **عن طريق شخصية أخرى:** قال الصياد يصف إنكيديو: "هناك فتى منفرد هو الأقوى في البلاد، ويمتلك القدرة، مثل صلابة الإله آنو قوية قدراته، يجول فوق الربى كل يوم على الدوام يأكل العشب مع الحيوان".⁽¹⁾

ويقول أيضا: "على الدوام يخوض بقدميه في طرف المسقى. كنت خائفا فلم أدن منه. إنه يردم الحفر التي أحفرها أنا، يقتلع الشراك التي أنصبها. ويخلص من يدي الحيوانات".⁽²⁾

قال الناس: "هذا هو مثيل جلجامش في التكوين

لكنه أقصر طولا

وأقوى عظما، المولود في الروابي، ومن حليب كائنات البر كان يرضع. موجود بطل للفتى الذي سيماؤه مليحة.

لجلجامش أصبح موجودا له ند شبيه بالإله.⁽³⁾

قالت أم جلجامش: "أنكيديو لا أهل له ولا أقارب، أشعث الشعر، ولد في البرية ولا أخ له".⁽⁴⁾

سمات شخصيات أخرى في الرحلة:

1- عائلة الرحالة: تظهر عائلة الرحالة جلجامش بكل وضوح خاصة:

¹ - حنون، نائل: ملحمة جلجامش، ص 76.

² - السابق، ص 77.

³ - السابق، ص 96، 97.

⁴ - السابق، ص 100.

أ- أمه السيدة (الربة) ننسون التي تلقب بالبقرة الوحشية، ونسمع إنكيديو قائلاً لجلجامش "كمخلوق فريد أمك سيدة المدن الحصينة، البقرة الوحشية، (الربة) ننسون، قد حملت بك." (1)

ب- أبوه لوجال بندا: "قدّمها لجلجامش زيت مسح للإله لوجال بندا". (2)

كان لجلجامش ابنا للإلهة ننسون حملت به من ملك أوروك المدعو لوجال بندا فجاء ثلثه إنسان وثلثاه إله. (3)

لقد ظلوا يرددون طويلاً أن أباه إنسان ولكن فجأة يظهر لفظ (إله) وهذا ربما دليل على اعتباطية استعمال اللفظ فهو لكل قوة قادرة على الحكم والتنفيذ.

لم يظهر للرحالة أبناء أو إخوة أو زوجة (ولكن التاريخ يتحدث عن ابن لجلجامش).

2- شيوخ أوروك: "شيوخ أوروك ذات الأسواق، جلسوا أمامه، بينما كان يتحدث إليهم: أصغوا ألي يا أعيان أوروك ذات الأسواق." (4)

شيوخ أوروك ذات الأسواق، أجابوا لجلجامش: "فتي أنت يا لجلجامش، لا تعرف بعد كنه ما انتويت، قد سمعنا عن شكل حواوا المخيف، فمن يستطيع الصمود أمام أسلحته." (5)

الدعاء: قال الشيوخ: "قليبسط إلهك حمايته عليك،

1 - السواح، فراس: لجلجامش، ص 136.

2 - السابق، ص 172.

3 - السابق، ص 109، 110.

4 - السابق، ص 143.

5 - السابق، ص 143، 144.

وليضمن لعودتك طريقاً سالمة،

ليعد بك سالماً إلى مرفأ أوروك.⁽¹⁾

3- سبعة جبابرة إخوة من أم واحدة: لم يظهر في نص الملحمة (هو الذي رأى الأعماق) أن لججامش رفاقاً غير إنكيديو، ولكن النص الملحمي السومري (أرض الأحياء) يظهر أن أوتو (شمش) قد أعان الرحالة بسبعة جبابرة إخوة من أم واحدة، يذكرون ثم لا يظهر تأثيرهم في الرحلة ولكن يبقى دور القاريء (المتلقي) ليحدث كم كان دورهم فعالاً في رحلة خطيرة مثل هذه، خاصة لما يلتقي الرحالة حواوا ودروعه السبعة: الأول:؟/ الثاني: الأفعى السامة./ الثالث: التنين/ الرابع: النار الحارقة./ الخامس: الحية الهائلة التي تخلع الأفئدة./ السادس: الطوفان المدمر الذي يطغى./ السابع: البرق الوامض الذي لا يصده شيء.⁽²⁾

4- خمسون متطوعاً: من خلال النص الملحمي السومري، ورغم التشوه الذي يصيب تلك الأسطر بالذات، نرى أن لججامش قد جمع خمسين متطوعاً يذهبون معه، واشترط فيمن يرافقه أن يكون عزباً ومن غير ولد أو مسؤولية أسرية.

أعداء الرحالة: لم تتحدث الملحمة عن أعداء وقفوا في وجه الرحلة، ولكن يمكن اعتبار بعض المظاهر من أوجه معيقات الرحلة وأعدائها، مثل:

- مخاوف إنكيديو لأول وهلة. قبل الإنصياح

- مخاوف شيوخ أوروك في البداية، قبل الموافقة.

¹ - السابق، ص 144.

² - السابق، ص 43، 44.

- المسافة البعيدة والتي لم تظهر النصوص (نسخ الملحمة) معيقاتها ومشاكلها...

- بوابة غابة الأرز (شلت يد إنكيديو)

- حارس بوابة الغابة: صرعه جلامش "قمن عادة هذا الحارس أن يضع سبعة دروع من زرد.

ولم يدرك الآن إلا واحدا، والستة منزوعة.

كثور وحشي هائج انقض جلامش...

... فتراجع الحارس وكله رهبة.

حارس الغابة صرخ مستنجدا.⁽¹⁾

- أما العدو الحقيقي فهو خمبابا الذي توجس منه إنكيديو خيفة وكذا شيوخ أوروك، وكل شعبها.

حواوا: هو اسم وحش غابة الأرز في النص البابلي القديم والنص السومري، ويعادل خمبابا في

النص الأساسي، قال إنكيديو واصفا حواوا:

"قد سمعنا عن شكل حواوا المخيف

فمن يستطيع الصمود أمام أسلحته؟

تتسع الغابة عشرة آلاف ساعة مضاعفة،

فمن يستطيع المضي في أعماقها،

وفيه حواوا يزأر كعاصفة الطوفان؟

¹ - السابق، ص 154.

في فمه نار وفي أنفاسه العطب.

لماذا أنت راغب في القيام بذلك؟

انقضااض لا دافع له انقضااض حواوا".⁽¹⁾

"كيف نستطيع المضي

إلى غابة الأرز.

وحارسها، يا جلجامش، محارب

عتي لا يغمض له جفن"⁽²⁾

"... بحماية غابة الأرز،

أوكله إنيل، وجعله مخيفا"⁽³⁾

قال جلجامش: "في الغابة، هناك يعيش حواوا الرهيب.

هيا أنا وأنت نقتله.

هيا نمسح الشر كله عن وجه الأرض."⁽⁴⁾

"فإذا سقطت أصنع لنفسي شهرة:

¹ - السابق، ص 144.

² - السابق، ص 140، 141.

³ - السابق، ص 141.

⁴ - السابق، ص 139.

لقد سقط جلامش؟

صرعه حواوا الرهيب.⁽¹⁾

"أريد، أنا جلامش، أن أواجه من عنه تتحدثون،

من ملأ اسمه أرجاء البلاد،

وأصرعه في غابة الأرز.⁽²⁾

رأى جلامش حلما: "كنا واقفين في مسلك جبلي.

عندما سقط علينا جبل...

كنا إزاءه كذباب القصب"⁽³⁾ ففسره له رفيقه إنكيو:

"إن الجبل الذي رأيت، أيها الصديق، هو خمبابا.

سوف نمسك بخمبابا، سوف نقتله،

لقد كان حواوا رهيبا في قتاله وأظهر عنادا وشراسة حتى يئس جلامش وداخله الخوف والعياء

و"نزلت دموعه مدرارا"⁽⁴⁾

أنصار الرحلة:

¹ - السابق، ص 142.

² - السابق، ص 143.

³ - السابق، ص 158.

⁴ - السابق، ص 161.

دعاء الأم: سكبت ماء القربان ورفعت يديها/ صلي من أجلي.

دعاء شيوخ أوروك: إمض يا جلامش...

وليمش إلهك إلى جانبك.

لتر عيناك ما قد أسلف به لسانك.⁽¹⁾

أنكيدو: أنت الثاني من ورائي فلنبداً السفر لا يعرفن الخوف فؤادك، ضع ثقتك بي.⁽²⁾

سبعة جبابرة: دعم أوتو (شمش) جلامش بسبع قوى تيسر سبيله نحو الغابة.

خمسون شاباً: انتدب جلامش لرفقته خمسين شاباً عزياً، وهذا يذگرنا برفاق ياسون (الأرجوناوتيكاً).

شمش: سمع شمش صلاة جلامش.⁽³⁾

رياح عاتية: فهبت في وجه حواوا رياح عاتية: الريح الكبرى، وريح الشمال، وريح الجنوب، وريح الزوبعة، وريح العاصفة، وريح الصقيع، وريح الإعصار، والريح اللافة. رياح ثمانية هبت في وجهه، وضربت عيني حواوا، لم يعد قادراً على التقدم، لم يعد قادراً على التقهقر، وهكذا أعلن الإستسلام.⁽⁴⁾

مهمة الرحلة وهدفها:

¹ - السابق، ص 147.

² - نفسه.

³ - السابق، ص 161.

⁴ - نفسه.

المواجهة: القضاء على حواوا الرهيب، حارس غابة الأرز الذي هو مصدر الشر كله، وقد جزع جلامش لما وقف قبالة هذا الوحش المرعب، و"نزلت دموعه مدرارا" ولكنه لجأ إلى حصنه المنيع (الدعاء) فشرع يصلي ويدعو فهبت في وجه حواوا رياح عاتية (الريح الكبرى، وريح الشمال وريح الجنوب، وريح الزوبعة، وريح العاصفة، وريح الصقيع، وريح الإعصار، والريح اللافحة) رياح ثمانية هبت في وجه حواوا وضربت عينيه فلم يعد قادرا على التقدم ولا على التراجع، فأعلن استسلامه وقال يراوغ جلامش ويساومه أن يطلق سراحه ليكون خادمه ويهبه الغابة. ولكن إنكيدو الرفيق النصوح قرر أن لا يعيش حواوا.⁽¹⁾

¹ - السواح، ص 161.

شبكة العلاقة الشخصية التي أنتجتها الرحلة: (جلجامش/ إنكيديو/ حواوا)



جلجامش الملك + الند إنكيديو = القضاء على الوحش خمبابا والإستيلاء على شجر الأرز (الغابة).

2- ملامح الرحالة الملحمي الهندي:

أ- في ملحمة المهابهاراتا: إنّ ملحمة المهابهاراتا⁽¹⁾ تشمل على "ست عشرة شخصية رئيسية"⁽²⁾ ولكل واحدة من هذه الشخصيات سماتها المتميزة عن غيرها، وقصتها الخاصة التي تصب دائماً في المجرى العام للنص الملحمي، غير أن ما يهمّ البحث هو هذه المجموعة الصغيرة التي صنعت مجد الرحلة في المهابهاراتا.

إنّ سحر هذه الملحمة لا يهدم بالحديث المتقطع عن الموضوعات الكثيرة التي تتبني عليها، وإن سحر الرحلة فيها عميق جداً لا يمكن سبر أغواره بسرعة وعلى عجلة، خاصة إذا أردنا الحديث عن أبطالها العديدين المتماسكين في مجموعات، فهم عصابة رحالة ضد عصابة من أبناء العم!

أولاً/ الرحالة عصابة:

1- دبرت مكيدة لإخراج الإخوة الخمسة وأهمهم (كونتي) إلى قصر في مدينة (فارانااتا) ومحاولة اغتيالهم التي باءت بالفشل، إذ حين اكتشفوا المؤامرة فروا في رحلة نحو الجنوب إلى جدهم (فياسا)، واستمر رحيلهم، وتنقلهم من مدينة إلى أخرى، وقد ظن الجميع أنهم قد قضوا في ذلك الحريق، وانتهى أمرهم إلى الأبد.

¹ - تقول الملحمة أن (براتيبا) الملك الناسك خلف ابنها هو (شانتانو) الذي تزوج (غانجا) ابنة نهر (الغانج) فولدت له (غانجاداتا)، هبة (الغانج) الذي سيدعى دائماً (بهيشما)، ثم تزوج مرة أخرى من (ستيافاتي) ابنة كبير الصيادين فولدت له طفلين: (تشيترانغادا) و(فيتشيترافيريا)، لكن سرعان ما قتل أحدهما ومات الآخر، فزوجت الأم (ساتيافاتي) كنيها الأرملتين لـ (فياسا) ابنها البكر من زواجها الأول. فولدت (أمبيكا) (ديتراشترا) البكر الأعمى، وولدت (أمبيليكا) (باندو) الشاحب، كما ولدت الجارية أختا لهما (فيدورا). والملحمة ستقص بالتفصيل أبناء هؤلاء الأبناء، وبالأخص صراع (الكورفاس) أبناء الأعمى المائة مع (الباندافاس) أبناء (باندو) الخمسة (أرجونا، بهيما، يوديشترا، بناكولا، سهديفا): هؤلاء الذين سيخرجون كثيراً في رحلات اضطرابية؛ فنسيح معهم في أرض الهند العجيبة. قصة الملحمة غريبة جداً خاصة في تفصيلها أصول ورثة العرش، والمتلقي سيضيع في رحلة البحث عن الحقيقة وعن الأحقية في الشرعية وولاية العهد والسلطان، ولكنه سيتمتع كثيراً جداً من دون شك بالنص الجميل، الذي يصف كل شيء جميل في الهند وفي الإنسان.

² - كامل، مجدي: المهابهاراتا/ الرامايانا، دار الكتاب العربي، دمشق/ القاهرة، ط1/ 2009، ص 18.

2- ثم يعودون إلى المملكة، عندما يظهرون في قصر (درويدا) والد (دروبدي) وتذوب أحلام أبناء العمّ بعودتهم، واقتسام المملكة.

3- رحلة إلى المنفى، بعد لعبة النرد الفاشلة (المزورة)، أجبر الإخوة الخمسة والأميرة (دروبدي) على الهجرة وقد سلب منهم كل شيء.

4- رحلة إلى السماء بعد التنازل عن العرش، وهي رحلة إختيارية إذ اتفق الجميع على الرحيل إلى جنة (إندرا) بعد أن حكموا مملكتهم ستا وثلاثين سنة.

ثانيا/ الرحالة البطل: اقتسم البطولة في المهابهاراتا الإخوة الخمسة ترافقهم الأم (كونتي)، في رحلتهم الأولى (الفرار)، لتعوضها الزوجة (دروبدي) في الرحلة الثانية (المنفى)، والرحلة الثالثة (إلى جنة إندرا).

1- **ملاح وسمات الرحالة (يوديشترا):** صدح يوم ولادته صوت من السماء يقول: هذا (يودشترا)، ولسوف يكون له شأن عظيم في حياته، ويعلو مجده ويتلأأ في العوالم الثلاثة،⁽¹⁾ عرف بالحكمة في السياسة والعمل الدؤوب على زيادة ثروة البلاد، ومراعاة (الدارما) وإشاعة الحب بين الناس (هو بكر الأم (كونتي)).

2- **ملاح وسمات (أرجونا):** بشر به صوت شق عنان السماء، بأنه ستكون له قوة (شيفا) والأثير عند (فيشنو)، بارعا في استعمال الأسلحة الخارقة، ويكون نقمة على أهل الشر والرذيلة، ومسرة لأهل الخير والفضيلة. هو الإبن الثاني لـ(كونتي).

¹ - مجهول: المهابهاراتا، ملحمة الهند الكبرى، تر/ عبد الإله الملاح، دار ورد للنشر والتوزيع 2002، ص 45

3- ملامح وسمات (بهيماء): صادف مولده مولد ابن عمه (دريودانا) من (قندهاري)، ولقد قدر له أن يكون قويا متين البنية، مما جعل صوتا من السماء يعلن أن العالم لن يعرف بمثل قوته وبأسه فتى بعد اليوم، وحسبكم أن تعلموا أن أمه كانت تحتضنه ذات يوم، فهبت على قدميها من الجزع حين رأت نمرًا يقترب منها. فسقط الطفل على حجر فتحطم الحجر من شدة الصدمة.⁽¹⁾ ولما كبر صار فارار القامة، عريض المنكبين، قوي الذراعين، مستقيم العنق، وجمال عينيه كزهرة اللوتس.⁽²⁾ وهو الابن الثالث لـ (كونتي).

4- ملامح وسمات (بناكولا): كان على قدر عظيم من الوسامة، والشجاعة، والإقدام، وكان رجلا عارفا بالدارما: قانون العدالة)، وعلى قدر عظيم من الذكاء، مع شيء من الزهو بجماله، هو توأم (سهديفا) من أمهما (مدري)، التي تفضل الموت في جنازة (محرقة) زوجها (باندو)، فهي الزوجة الثانية له مع (كونتي) التي ستصير أما للجميع.

5- ملامح وسمات (سهديفا): كان على قدر عظيم من التواضع والحكمة، هو توأم (بناكولا) من أمهما (مدري).

لا يظهر أثر التوأم في الرحلة بشكل واضح وعملي، بيد أنهما كانا من أهم الأبطال في الحرب (الملحمة). وشاركوا إخوتهم في رحلتهم فرارا نحو الجنوب، ثم نفيا نحو الشمال، وعادا مع الإخوة من كل رحلة، وتقاسما مع الإخوة وأمهم (كونتي) مغامرات ومصاعب الرحلة.

الخبرة: خرج الرحالة جميعا إلى منفاهم مضطرين مطرودين من دون أية مظاهر السلطان أو الثروة وكأنهم منبوذون لجرم عظيم ارتكبوه، ولكنهم بالرغم من ذلك فقد كانوا يشعرون بشيء من القوة

1 - نفسه.

2 - السابق، ص 66.

والعزيمة والإصرار، لأنهم كانوا ذوي خبرة سابقة، إذ سبق لهم وأن قاموا برحلة مماثلة، قطعوا فيها أشواطاً كثيرة من الأمكنة والمسارات والاتجاهات، وتحملوا الخوف، والمشقة، والجوع، حتى أنهم كانوا يأكلون طعام الصدقات والندور.

- لقد كانت لهم خبرة بمتاعب الرحلة (رحلوا من قبل).
- كانت لهم خبرة باستعمال الأسلحة (التدريب).
- كانوا على يقين بنوايا أبناء عموماتهم (المؤامرات).

ملاح الرحالة الرفيق:

1- ملاح الأم (كونتي)/ رفيقة رحلة الفرار: زوجة طيبة صالحة، ورعة وتقية، منحت أسرار (المانترا) التي تستدعي بها قوة الآلهة، فاستدعت إله الشمس (سوريا) الذي منحها ابنها (كارنا) الذي خرج من أذنّها، وعرفت بجمال خارق لا مثيل له على وجه الأرض.⁽¹⁾

2- ملاح الزوجة (دروبي)/ رفيقة رحلة النّفي: لقد كان مولدها أسطوريا فحين تمنى الأب أن يرزق بابن يحمل اسمه ويحفظ عرشه أشار عليه أحد البراهمة بأن يشعل نارا، اندلعت منها ألسنة لهب هائلة، وكلما اضطربت كان البراهميّ يصبّ عليها الزّبد مدرارا فتزداد لهيبا واشتعالا، ومازالت النار تتأجج حتى خرج من وسط اللّهب طفل... وتسمّر القوم عند النّار وهم يرون بعدئذ فتاة تنهض من بين ألسنة اللّهب، ثم تبدّت أمامهم حورية ذات عينيّن سوداوين واسعتين، ينسدل شعرها حتى الظهر كموج البحر الأزرق، على بشرة داكنة ممثلة القوام، يفوح منها أريج الورد.⁽²⁾

¹ - السابق، ص 38.

² - السابق، ص 61.

ثم تغيّرت شخصية (دروبي) الفتاة الوديعه، وصارت امرأة نضجت نظرتها إلى الحياة بفعل لهيب الظلم الذي لحق بها مع الإخوة الخمسة، فلا يبدو هيّا أبداً أمام ملكة أن تنزع ثوب العزّ والرّفاه لترتدي مسوح الرّهبان ومتسوّلي قوت اليوم، هي ابنة النّار التي لاتبقي ولا تذر، فهي لا تنسى شيئاً عندما تحاور (يوديشترا)، وتستعيد ذكريات الماضي دأبها في ذلك أن تخوض فيما تراه مجانباً لسلامة المنطق في مسلكه وإن لم تخالفه في أمر. وحين قال لها: "أما نحن فليس لنا أن نستسلم للحق والغضب، تلك هي قناعتي"⁽¹⁾ سمعت حديثه وما وجدت فيه حجة مقنعة، بل لقد رأت صدرها يضيق بهذه الآراء ووجدت نفسها تبرم بمذهب اللّين والضعف الذي تجلّى في أقواله فلم تتمالك عن معارضته وأبدت آراءها وأحاسيسها ومواقفها اتجاه ما حدث وما يسبب استمراراً لرحلة المعاناة والألم، مبرّرة انسحابها من عالم المتسامحين والصابرين على الضيم، رغم أن كل ما ستبديه من رأي هو مجرد أقوال يسمعها هذا السيد على الرّحلة ولا تدري موقعها من نفسه وتفكيره: "هذا عالم قاس لا يسلم فيه المرء بالتسامح، فقد شططت في التّسامح أمام من يبغي بنا الشرّ، فكان ذلك وبالا علينا جميعاً، وأرى فيك عيباً لا صلاح معه، فإنك تتعلق بالمثل التي اصطنعتها، والحق أنني أفقد صوابي كلما خطرت ببالي هذه الذّكريات"⁽²⁾

وسنرى كم أثّرت أفكار هذه الرّفيقة بشخصيتها الجديدة حين راحت تلحّ على القائد بألا يبقى مسالماً وهادئاً والأعداء يترصدون مستقبلهم كما دمّروا حاضرهم.

ملامح أعداء الرحالة:

¹ - السابق، ص 134.

² - السابق، ص 135.

- أبناء العم (دتراشتر) المائة وعلى رأسهم رأس المتآمرين بكره (داريودانا)، وقد ولد وهو يزعم ويصدر أصواتا أثارت الرعب فيمن حوله، فَنُصِح الأب: "إن ابنك البكر سيأتي إلينا بالهلاك والدمار، فانفه، فإن في ذلك الخير لنا وللعالم"⁽¹⁾ ولكن الأب رفض، فنشأ الإبن وكبر، وفي قلبه غلّ كبير، وحقد أسود لأبناء عمّه (باندو)، وزرع هذه الأحاسيس المدمرة في إخوته وحلفائه، حتى أفنى أسرته في حرب خاسرة، لم تبق في أرض الأحياء أحدا.
- حلفاؤهم: منهم: (كارنا) ابن (كونتي)، لم أجد ضرورة في الإسهاب في قصته لأنها لا تخدم الرحلة.

- بيوروشانا: شريك (داريودانا) في المؤمرات (الحريق).

ب- في ملحمة الراماينا:

أ- ملامح راما البطل: إن الملحمة تصور البطل على أنه حقيقة واقعية، وليس تجسيدا لإندرا، بل على العكس من ذلك فإنه يشبه (ياذيشثيرا) الذي يماثل بدوره (دارما) تماثلا مضبوطا، ويعتبر نموذجا ملكيا وليس عضوا في مجلس المحاربين.⁽²⁾

الصدق والحفاظ على العهد: رغم أن أباه كان قد مات، وأنه كان بعيدا آلاف الأميال عن أرض الوطن، إلا أنه ظل يحافظ على شروط الإقامة الجبرية له في الغابة، وهي ألا يدخل أي مدينة أو قرية، فكان يرسل أخاه وبقية الرفاق إلى حفلات تتويج الملوك حين يكون مدعوا، وحتى عندما حرر المملكة (لانكا) من الشياطين، لم يدخل لإسترجاع سيتا، وإنما أرسل من يحضرها إليه.

¹ - السابق، ص 41.

² - مجهول: الراماينا الهندية، ملحمة الإله راما، تر/ دائرة المعارف الهندية، دار نينوى، دمشق، 2014، ص 09.

ب- ملامح رفاق الرحالة: لما خرج رامّا تبعه قوم كثير حتى حدود المملكة، ولكنه تسلل ليلا وتركهم نياما ليبدأ حياة المنفى والضياح في الغابات.

1- لاكشمان: قرّر لاكشمان شقيق رامّا مرافقته عندما اضطرّ إلى الموافقة على عهد الخروج، والقبول بالنفي الذي طلبته الملكة أم أخيهما (بهارات)، وكان (لاكشمان) يضارع (رامّا) خلقا وحسن تربية، ووفاء، فالأب حرص على تنشئة أولاده وفق أخلاق الملوك، يقول: "ستسلك طريقك المظلم وحيدا مع سيتا الوديعة، هلا أذنت لأخيك الوفي لاكشمان بحمايتها ليلا ونهارا، هلا أذنت للاكشمان بقوسه ورمحه أن يجوب الغابات جميعا فيسقط بفأسه أشجارها، ويبني لك الدار بيديه"⁽¹⁾

2- سيتا: هي ابنة ملك (الفيديهيا)، ولدت من الأرض حين شق المحراث التربة في الحقل، وقد اشترط أبوها أن يفلح الخاطب في استخدام القوس الضخم (مثلا حدث مع دروبدي).

قرّرت الزوجة أن ترافق (رامّا) وتسير معه خطوة خطوة، رغم أنها كانت أميرة وسيدة القصور، لا عهد لها بالتقشف وشظف العيش في غياهب الغابات وعلى أطراف الأنهار، وأثبتت حسن نيتها وصدق سريرتها، وإخلاصها ووفائها بشكل مميز وأسطوري منذ بداية الرحلة، وحتى تعرّضها للاختطاف من قبل ملك شياطين لانكا، وحتى عودتها بعد الرحلة إلى المملكة، ورضخت هي الأخرى للنفي عندما شكك في براءتها. تقول: "إن سيتا ستهيم في الغابة فذلك عندها أسعد مقاما من قصور أبيها"⁽²⁾

3- القرد (هانومان): عندما تبدأ رحلة البحث عن (سيتا) يكون القرد (هانومان) أحد أعوان (رامّا) الذين يبادرون بالمساعدة والمساندة، ويذل مساعي جبارة حتى يتمكن من تخليص سيتا.

¹ - كامل مجدي، المهاجرات/ الرامايانا، ص 156

² - نفسه.

3- ملامح الرحالة الملحمي الفارسي:

1- ملامح الرحالة البطل:

في الشاهنامة: (الفردوسي): كتبت الشاهنامات نثرا وشعرا، وفقدت ولم يبق منها إلا إشارات قليلة في بطون المدونات التراثية، غير أن أعظم هذه الشاهنامات هي شاهنامة الفردوسي التي نظمها في ما يقرب من ستين ألف بيت⁽¹⁾ وهي موجودة حتى الآن وقد احتوت على معظم ما عرفه الإيرانيون من أساطيرهم وتاريخهم من أقدم عصورهم حتى الفتح الإسلامي.⁽²⁾

ملامح الرحالة البطل (رستم):

جاء في الشاهنامة أن ملوك إيران القدامى كانوا أبطالاً عظاماً حققوا أمجاداً لا تضاهى، ولكن لا أحد منهم فكر في حرب مملكة مازندران* لأنها للشياطين والسحرة والجني الأبيض، حتى جاء عهد الملك (كيكاوس) الذي أثاره أحد المنشدين حين بدأ يشدو ويتغنى بسحرها وثرائها وكنوزها وكأنها الجنة، فربط قلبه الراغب في الحرب بها واجتهدت النصائح الصادقة في تنبيهه عن عزمه بيد أنها لم تزد إلا إصراراً واقتحاماً، فخرج في جيشه العرمرم، ليحقق بعض الانتصارات، قبل أن تطبق عليه جحافل الشياطين، فيطلب النجدة من والد (رستم) (زال بن سام) ملك (زابل)، بطل أبطال إيران الجميل، النبيل، الذي لم يبخل بالرأي السديد والمشورة الحكيمة.⁽³⁾ بشأن الرحلة** المشؤومة.

1 - منها الألف بيت التي نظمها الدقيقي، وأدرجها الفردوسي في ملحمة.

2 - بكر، أحمد حسين: أشهر الأساطير الفارسية، ص 5.

*- مقاطعة في إيران على بحر قزوين، قاعدتها "بابل" من مدنها "أمل".

3 - الفردوسي: الشاهنامة، ملحمة الفرس الكبرى، تر/ سمير مالطي، ص 46، 47.

**- إن أخبار هذه الرحلة الأسطورية في الشاهنامة، ترد منسوبة إلى اليمن في (غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم) لأبي منصور الثعالبي. بينما ما يشبهها من أحداث اليمن فتورده الشاهنامة منسوبة إلى مدينة تدعى "هاماران" (من يسارها مصر وعلى يمينها البربر، وقدامها البحر)

المعنويات، أخلاق رستم:

- الإيمان: كان قوي الإيمان، شديد الاعتقاد بمعونة الله له، كثير الذكر والدعاء.
- التواضع: تواضع بأصله (رغم أنه بطل من سلالة الأبطال) أمام أصل الملك (كيف لمثلي الوصول؟ وكيف يعجز الأصل والنسب وهو لطيف من أصل (كيقباد).
- الإعتداد والإعتزاز والثقة بالنفس:
- رستم يصف نفسه لـ(أولاد): "اسمي السحاب لو كانت السحابة بقوة الليث.
- ولو مر اسمي على مسامعك لتجمدت أنفاسك وروحك والدم في قلبك.
- ألم يصل إلى مسامعك في أي محفل ذكر قوس البطل الضخم الجسم ووهقه.
- إنني أسمى كل أم تلد ولدا مثلك خائطة أكفان ونائحة ثكلى"⁽¹⁾.
- كان باراً بوالده: فأطاع أمره بالخروج على وجه السرعة ولم يتكأ، ولم يتوان في التنفيذ المهمة.
- كان باراً بملكه فأسرع إلى نجدته، رغم أن الملك لم يستمع إلى نصح ومشورة (زال) والد (رستم) لما أسرع بها إليه كي يثنيه عن مغبة هذه المغامرة الخطيرة.
- رغم أنه لم يكن المقصود بطلب النجدة، إلا أنه قبل بسرور ورضا أن ينوب عن أبيه الشيخ، فيخوض غمار الرحلة والحملة المجهولة المسلك والعواقب.

¹ - بكر، أحمد حسين: أشهر الأساطير الفارسية، ص93، ويقول الكاتب أنه ترجم النص بنفسه عن شاهنامه الفردوسي (ص 6 المقدمة).

- كان برا بوالدته، عطوفا، حنونا، كريما، رحيما بها، ألان لها الحديث، وأشفق على أمومتها، وخفض لها جناح الذل من الرحمة، "وجاءت رودابة ووجهها غارق في الدموع، وكانت تبكي وتئن ويدها على وجهها، وقالت رودابة القمرية الوجه لرستم: أنت تتجّه إلى طريقك وتدعني هنا في همي وحزني أستحلفك بالله ماذا تريد وتأمل؟ فقال لها: أيتها الأم الطيّبة أنا لا أختار هذا الطريق برغبتى، هذا هو نصيبي من الزمان، فاستودعي الله روحي وجسدي".⁽¹⁾

- استمع إلى نصيحة ومشورة أبيه، حينما نصحه بأن يسلك الطريق الأقصر والأخطر بل كان سعيدا بذلك، مهتما بالوصول في أقرب مدة. / كان خفيف الروح، مرحا، خفيف الظل، حاضر النكتة. / كان جادا. / كان عنيفا مع الأعداء، لينا، طيب القلب مع المسالمين ومع حصانه (رخش). / استيقظ البطل (رستم) وقد مل النوم. / مسح بيده على جسد (رخش) وأسرجه وذكر اسم الله المحسن الإيمان. / لسان الفارس فصيح. / لم يجد حيلة للنجاة فتوجه إلى السماء: "إلهي أيها الحاكم العادل... إن كان رضاك في شقائي فإن كنزي في هذه الدنيا قد امتلأ وفاض". / كان (رستم) الضخم الجسد يحدث نفسه وقد تذكر القبر والكفن.⁽²⁾

الشجاعة: قال الملك (كاوس): "يا بطل العالم من شرقه لغربه، لقد أظهرت فضلك في كل مكان بالشجاعة ولقد استعدت الآن عرشي بفضلك، فليكن قلبك منيرا، ودينك ومذهبك كذلك".⁽³⁾

الإعتراف بالجميل (الإمتنان): والأمانة في الإعتراف بالعهد.

¹ - السابق، ص 83، ولا تظهر هذه الأم في ترجمة البنداري.

² - السابق، ص 82 إلى 95.

³ - السابق، ص 116.

قال رستم للملك (كاوس): "لقد ظهرت فضائلي هذه بفضل أولاد الذي أرشدني إلى الطريق في كل ناحية... والآن ينبغي أن تكون له خلعة الملك أولاً، وأن تكتب له العهود والمواثيق بأن يكون هو الملك في مازندران".⁽¹⁾

ملاحم البطل رستم الجسدية: تتحف ملحمة الشاهنامة (بمرجعيتها الأسطورية) البطل (رستم) بالكثير من الصفات والنعوت التي توحى بالقوة الجسدية العظيمة، إلى جانب وسامته.

فالشاعر كان يقدم هذه المميزات بمزجها بأعماله الخارقة أثناء خطوات رحلته، فكانت مدهشة فما هي إلا مقدمة تهيء المتلقي ليستقبل هذه البطولات ودائماً يقف الوصف في الدرجة الثانية من الحدث فمغامرة البطل تظهر فيها مغامرة الوصف وقد بخست الرحالة حقه وذلك لأن العبارة الأدبية تبحث عن أناقة التجسيد لمظاهر القوة والجبروت ولكن أثناء النزال تسقط عنها برودة التلميح لتدخل ساحة المعركة بحرماً ولهيبها فينجلي الغبار وقد ركب المتلقي عشرات العبارات عن هذه الرحلة وقد نسج نصه بنفسه وتعرف على البطل ورسمه.

- لقد امتطى جواده (رخش) كأنه فيل، رأى على القصب رجلاً نائماً كالفيل./ وجهه يستحق الجمال./ وقلبه ثابت أيضاً./ خرج ذلك البطل./ إن الوحوش والضواري لا تتجو من الفارس (رستم)./ لقد ألقى ذلك الأسد بوهقه الملك، ووضع رأسه في هدوء كالأسد./ جاء إليه كالأسد الكاسر./ جعل من القصب فراشاً لنومه، واطمأن في مكان الخوف والوحشة./ استيقظ (رستم) ذو المخالب الحادة./ لو كنت قد انتبهت من نومي لكفيتك مقاتلة الأسد، ثم نام ذاك الشجاع الشهير

والبطل الجسور واستغرق في النوم./ (لقد شددت المنطقة وعزمت على الرحيل ولا أرغب في غير الله العادل معيناً، وسأضحى بالجسد والروح من أجل الملك).⁽¹⁾

II - ملامح رفيق الرحالة: الجواد (رخش):

لقد أجزل الفردوسي في وصف (رخش) فرس (رستم)، ولم يبخسه حقه الأسطوري ولا الملحمي، ولكن تكاثر البنداري حرمه هذه الهالة من البطولة التي يتغنى بها شعب فارس كله، بينما نروح نحن نمتص بعض ملامحه من خلال السياقات التي يستحضر فيها، ولكننا في الوقت نفسه لا نعدم أن نراه في كامل هيئته وصورته في الكتاب العربي الموازي تماماً للشاهنامه (غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم للثعالبي) الذي جاء فيه أن زال قال: "أنا قد طعنت في السن، ووجدت مس الكبر، وهذا ابني رستم على اقتبال شبابه وغضاضة عوده مرجو لأن يقوم مقامي وينوب منابي، بل يزيد عليّ في حسن الأثر وطيب الخبر ولكنه من البسطة في الجسم وامتداد القامة واشتداد القوة، بحيث لا يحمله فرس ولا يمكنني استصحابه راجلاً إلى حضرة الملك، ثم إلى محاربة أفراسياب ثانياً، والرأي أن أمر أنا وأنتم بإحضار جميع ما لي ولكم من الخيل بزابليستان وكابل وقشмир وإيران شهر، لتعرض عليه فلعل الله يبيسر وجود ما يحمله، فسجدوا له وقالوا والله لو أمكننا أن نحول أنفسنا أفراسا لرستم لفعلنا، وتقربنا إليكما بها، ونحن وخيلنا ورجلنا وأجسامنا وأرواحنا وأملاكنا لكما، ثم أمروا بإحضار الخيول من الجهات كلها وعرضها على رستم، فكان رستم يضع يده على ظهر كل واحد منها فيتطأطأ ولا يثبت ليد، فضلاً عن رجله، حتى عرض عليه أكثر من خمسين ألف فرس لم يكن فيها ما يحمل ركابه، ويوافق اختياره، وكاد اليأس يقع من حصول ما يصلح له، فاتفق يوماً أنه أمرت بعينه خيل مجلوبة من قشмир فوق بصره على مهر كميت فيها يتبع أمه فأعجب به

¹ - الشواهد مقتبسة من شاهنامه الفردوسي، ترجمة سمير مالطي، ص 46 إلى 49.

وأمر برده، فقال جالبه أنه لا مطمع فيه، قال: لم؟ قال: لأنه لرستم. قال: وما يدريك. قال: إنه منذ وضعت أمه يسمي رخس رستم ويدعى به، وقد أركب من سنتين فلا هو يمكّن أحدا من نفسه، ولا أمه تقار من يتعرّض لأخذه. فرماه رستم بالوهق، حتى يتمكن من جذبه إلى ما عنده، وقصدته أمه للإيقاع به، فزجرها رستم وصاح بها، وضرب بقدمه الأرض فعثرت الرمكة وسقطت لوجهها من هيبتها، ثم إن رستم وضع يده على ظهر المهر فلم يتطأطأ وثبت وترفع. فقال: هذا والله فرسي الذي يحملني ويجملني، فقال له جالبه: إن لم تكن رستم فلا تمدن يدك إلى هذا المهر الذي هو لغيرك وإن كنت أنت رستم فهو حقك، وقد قادت السعود إليك. فضحك وأمر له بصلة وصرفه فأمر بالمهر فضبط وربط وأكرم مثواه وأحسن تعهده وتفقدته فلم يدر عليه الشهر حتى تخرج رائع الصورة، جبار الخلقة، جامعا بين الحسن والجودة، تنطق عنه شواهد العتق والقوة، فتقدم بإسراجه وإجامه وركبه فزاد منظره على مخبره، وحكى الطود الموثق والسيل المتدفق من تحتته، وجرى على غاية إرادته ومحبته، وكان له أطوع من عنانه، ولم يتمكن أحد من ظهره، ورأى زال رستم فارسا كالليث على الفيل والبازي على العقاب، فسُرَّ جدا به، وقال يابني: قد وجدت ضالتك وحصلت آلتك، واستنجزت مواعيد الزمان فيك.⁽¹⁾ ولهذا لم يكن رخس مجرد وسيلة، بل كان بطلا رفيق بطل.

هدف الرحالة:

لم تكن الرحلة هدفا في حد ذاتها، كانت طريقا للوصول إلى ميدان المعركة والقضاء على السحرة والشياطين والجن وتحرير (الملك كاوس) وجنوده وحاشيته، واسترداد تاج (إيران).

أعداء الرحلة:

¹ الثعالبي، أبو منصور: غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم، نشره زوتنبرج، طبعة باريس 1900، ص 140 إلى 143.

- ولكن ما فائدة الشجاعة والقوة وقد عميت عن الحظ النافع، ماذا أفعل مع هذا الجسد وذاك العطش، وكيف أتغلب على موت الروح.

- فلما فرغ من حديثه هذا صار جسده الضخم ضعيفا من العطش، حار واضطرب، وسقط (رستم) على ذلك التراب الحار وقد تشقق لسانه من العطش.

أنصار الرحلة:

- حصانه رخش.

- دليله (أولاد).

- عين الماء التي ظهرت في الصحراء.

4- ملامح الرحالة الملحمي الإغريقي (اليوناني):

أ- ملامح الرحالة البطل: الشخصية الرئيسية/ الشخصية الأساس:

أولا: في الأوديسة:

• موضوع الأوديسة ومرجعيتها: تغنى هوميروس سيد الشعراء غير منازع بالأوديسة مستلهما

قصتها من أسطورة أوديسيوس البطل الرحالة الذي شارك أبطال الإغريق حربهم ضد

طروادة وحصونها، فلما استعادوا هيلانة الجميلة قفلوا عائدين إلى الأوطان العزيزة، فقفل

مع القافلين ولكنه لم يعد مع العائدين، قيل أنّ حرب طروادة وسقوطها كان حوالي القرن

الثاني عشر قبل الميلاد (1193ق.م - 1183ق.م)

حرب أسطورية من عمق التاريخ، تغنت بها أساطير الإغريق القدامى، ومجد شعراؤهم بطولات أهليهم فيها، وبكوا بحرقة دماء أبطالهم وصناديدهم، ورَتَّوْا شهداءهم هناك تحت أسوارها العتيقة العنيدة.

أبطالها الكبار العظام كثيرون جدا، أحصاهم هوميروس إحصاء وعدهم عدا عزيزا، لم يبخلس أيا منهم حقه في المجد والعرفان، ومن بين هؤلاء كان (أوديسيوس) (أوليس/ يولييسيس/ أوديس/ عولس) بن ليرت، الذي استهوت أسطورة عودته إلى الوطن الشاعر فتغنى بهذه العودة ومغامراتها وأحداثها الرهيبة في الأوديسة، التي هي الأنموذج⁽¹⁾ الفذ في فن الملحمة ذي الطابع الرحلي، إذ كانت التقليد الهومييري الثاني الموروث والذي شكل الدرب المطروق لسلسلة الروائع (الأرجوناوتيكا... والإنياذة عند الرومان...) بطلها (أوديسيوس) وهو ذاته بطل الرحلة، حتى وإن ناب عنه الشاعر في سرد معظم أحداث رحلته المتميزة.

- حكاية الأوديسة: يبدأ (هوميروس) يروي ما يحدث للبطل بعد عشر سنين من الضياع في البحر... إن مجلس (الأولمب) يوافق على عودته، و(كاليسو) تطلق سراحه، وها هو ذا (بوسيدون) يصفع به جزيرة (سخرية)، فيروي لمليها حكايته مع الحرب والبحر، فيحمله

¹ - عند الحديث عن النموذج الملحمي الهومييري يشار عادة إلى الإلياذة على حساب الأوديسة، رغم أن أرسطو أشار إليها، واستشهد بها عند حديثه بوجوب التزام الحدث (الفعل) الواحد، حتى يتأسس النص الواحد على الوحدة الموضوعية، حيث قال: (أما هوميروس وله المقام الأعلى، فقد أصاب شاكلة الصواب في هذه المسألة بفضل معرفته بأسرار الفن، أو بفضل عبقريته: إنه حينما ألف "أودوسيا"، لم يرو جميع حوادث حياة "أودوسوس"... وإنما ألف أودوسيا بأن جعل مدار الفعل فيها حول شيء واحد بالمعنى الذي نقصده): فن الشعر، ص: 25، ولكنه لم يشر إلى فكرة الرحلة، التي يمكن أن تستحوذ على كامل النص الملحمي، فتكون الحدث الشامل، والفعل الواحد الذي دارت حوله بقية الأحداث الجزئية. ومنه، قد يعود سبب ذلك إلى قضية المسألة الهومييرية التي تزعم بعض آرائها احتمالية وجود شاعر آخر نظم الأوديسة غير هوميروس صاحب الإلياذة، وبالتالي فهذا الشاعر المزعوم، بقدر ما التزم بقواعد "النموذج الهومييري"، بقدر ما انجذب نحو موضوع الرحلة، مخترقا بذلك الأجواء العسكرية والتحام الجيوش، إلى أجواء الملاحة والتحام الأمواج، وربما كان (صاحب الإلياذة) ضريرا، وكان هذا بصيرا رأى وشاهد وعين وفحص كل تلك البقاع، والأمكنة التي تحدث عنها في الأوديسة!، لذلك فليس من الغريب أن تأتي بهذه الصورة من الدقة، وكأنها رحلة حقيقية، زينها خيال شاعر لبيب، ليسلي نفسه، بله جمهوره.

هذا في فلكه مباشرة إلى (إيتاكا)، حيث يجد ابنه عائدا لتوه من رحلة البحث عنه، ليطرد خطاب أمه من بيت أبيه، فيتحالفان، فيستأصلان جميع الدخلاء، بالقوة والدهاء، وتكمل (بينيلوب) نولها بعزيمة ونشاط.

- قصة الأوديسة: يخرج أوديسيوس من طروادة (بعد عشر سنين قضاها في حربها، وقد شارك في إحراقها ونهب كل جميل وثمرين فيها)، يركب البحر... يتذكر القربان... يعود... اللعنة تطارده... يركب البحر إلى جزيرة ()، ثم إلى أخرى () ثم إلى جزيرة () ثم إلى أخرى ()... عشرات الجزر، وعشرات المحن، والرفاق يتناقصون، الوحوش (السيكلوب، سكيلا...) يلتهمونهم، واحدا واحدا، ومثني مثني، ثم يبتلع البحر جميع ما تبقى (جزيرة ثيران الشمس)، ويعلق وحيدا في جزيرة "كاليبسو" سبع سنين حتى تسعى (أثينا) ابنة كيرير الأولمب لقرار السماح للرحلة أن تستمر، فيوافقون، وتطلق الحورية سراحه، بيد أن بوسيدون يصله رهقا، حتى تجده نأوسيكاً حطاما في جزيرة أبيها (الكينور) الذي يطعمه ويسقيه ويدأويه، ولحكايته يصغي⁽¹⁾، ولوطنه يوصله آمنا غانما، هذا الوطن الغالي إيتاكا: الابن مشرد يتنسم خبرا عنه، والزوجة تحيك نولا لا ينتهي، والخطاب يملؤن مضافة القصر، والأم قضت نحبها، والأب منعزل في كوخ حقير. وها هو ذا "أوديسيوس" يطهر بيته، ويستعيد ماله، ويجمع أهله، بعد عشرين عاما من الفراق.

شخصية أوديسيوس: لقد اعتمد هوميروس على تقنيتين من أنواع تقنيات تقديم الشخصية وهما: تقديم الشخصية بأدق تفاصيلها، وتقديم الشخصية بشكل مباشر، بل ويمكن أن نجد لنا دورا في اكتشاف بعض خصائص شخصية الرحالة من خلال استقراء بعض تصرفاته. وأقواله. منذ انطلاق الرحلة وحتى الوصول.

¹ - هنا نجد حكاية رحلة أوديسيوس وهو يرويها بنفسه لمضيفه الملك ألكينوس.

صحيح أنه لم يعرفنا بأوديسيوس بطل الرحلة الأوديسية في أول الأمر أو دفعة واحدة، لكنه تمهل في ذلك ووزع هذا التقديم على طول مراحل الرحلة حيث نصل إلى الصورة الكاملة التامة التفاصيل مع الرحلة التامة التفاصيل أيضا -فسمات الشخصية وملاحها شبه مبعثرة على مساحة الرحلة- الملحمة، وبغض النظر عن الخلفية المعرفية السابقة للملتقى بأوديسيوس من خلال تعرفه عليه في النص السابق (الإلياذة). فهو سيحاول أن يجعلنا في تذكّر دائم لبطولات الرجل في طروادة. فنستحضر ما عرفناه عنه هناك وأنداك. ولكنه في الوقت ذاته يجعلنا نشعر أننا بصدد التعرف على شخصية جديدة، ولأول مرة، وهذا التعرف سيأتي تدريجيا وبهدوء، ويحمل مفاجآت حاضر بتقديم سمة أو ملمح عتيق يعد مرجعية في تكوين وبناء شخصية أوديسيوس البطل القديم الجديد. ويمكن من خلال هذه التقنية أن نساير هذه الدقة وهذه التفاصيل تارة عن طريق الشاعر وتارة عن طريق شهادة شخصية أخرى (رفاق...) أو وصفه لنفسه من خلال:

أولا: السمات المعنوية: وهي تلك المجموعة الهامة من السمات التي تميز بها أوديسيوس الرحالة البطل، والتي ظل بعضها يلزمه طيلة تعرفنا عليه، بينما كان بعضها الآخر عارضا، أو طارئا يظهر ويختفي، والتدقيق في ملاحظة سلوكاته وتصرفاته تجعلنا نصنفها في جدولين: سمات رئيسية، وسمات ثانوية، وقد امتازت الرئيسية بالاستقرار والثبات في شخصيته بحيث لم تتغير أو تختفي، كما ظلت إيجابية طيلة الوقت⁽¹⁾ على العكس من السمات الثانوية التي كان بعضها إيجابيا والآخر سلبيا: وكل هذا طفا على شكل شهادات له من طرف جل الذين ظهوروا في الرحلة، فكل من يتحدث إلينا أو إليه إلا ويشير إلى سمة ما من سماته، أو خلق أو صفة.

¹ - هذا ما لاحظته البحث على الأقل إذ لم نتمكن من الوقوف على سلبات رئيسية مستقرة في شخصيته!.

سمات رئيسية مستقرة: كان الرحالة أوديسيوس الشخصية البطلة في مسار الرحلة الأوديسة، وهو كغيره من أبطال النص الأدبي، والنص الأسطوري الملحمي بخاصة امتاز بجملته من الصفات المستقرة التي لازمته خلال تعاملنا معه، وأكثر هذه السمات بروزا:

- الدهاء، الذكاء، المكر، الحيلة، الحكمة: أظهر الكثير من التصرفات التي تشي بغزارة حكمته ودهائه مثل خطة النجاة من السيكلوب حيث سقاه الكثير من الشراب العتيق، ثم فقأ عينه بوساطة جذع أعده لذلك، ثم تسلل وأصحابه متشبثين ببطن الكباش الكبيرة الكثيفة الصوف.

ويقول في معرض تقديم نفسه لمضيفه (أكينوس): "أنا أيها الملك، أوديسيوس... أوديسيوس ذو الذكر، المعروف في السماوات بالدهاء والمكر..."⁽¹⁾ ولقد اشتهر بإيجابية استعماله لعقله للتصرف الجيد في كل خطوات رحلته، فهو يفكر قبل أن يقدم على أي عمل، وقبل أن يقول أي كلمة، والعجيب ان هذه الميزة بات يشهد له بها من ينزل عنده ضيفا، مثلما قالت له سيرسا صاحبة جزيرة إيايا "أوديسيوس العزيز، المعروف بأصالة الرأي ورجاحة الفكر، إني لن أقسرك على البقاء..."⁽²⁾ إذ يفترض أن أوديسيوس لم يسبق له أن التقى بمضيفته، ولكن يبدو أن جزيرتها المطروقة لغيره ممن سبقه وحمل أنباء طروادة وأبطالها. (زارها أبوه مع الأرجو).

وحتى وهو يزور العالم الآخر ليلتقي العراف (تيريسياس) الذي سيساعده بنصائحه للوصول إلى وطنه، يلتقي بأحد معارفه القدامى فيتعرف عليه، فيقول "وعرفني شبح العداء الكبير (إيا سيدس)، فقال يخاطبني في خفة وظرف: أوديسيوس يا رجل الدهاء والخدع، أي تدبير ليس فيه تدابيرك

¹ - هوميروس: الأوديسة، تر/ دريني خشبة، دار العودة، بيروت، 2005، ص 83.

² - السابق، ص 104.

الماضية وحيلك السوالف...⁽¹⁾ وحتى تلك التي كان يؤمن بأنها ربة الحكمة، وأنها له نصير ومعين تشهد له مع الشاهدين: "كلانا بارع في ذلك صناع... أنت بفصاحتك ودقة فهمك وطريف حيلك بين الناس..."⁽²⁾

- لم يخبر رفاقه بأنهم سيمرون بمكان الهولة (سكيللا) لأنه فكر في أن ذلك لن ينفعهم بشيء، بل سيوترهم ويشتت قوتهم، وفضل أن يضحى بستة منهم عندما تفاجؤهم برؤوسها الستة.

- قال الملك (منيلاس) "وإن أنس لا أنسى يوم الروح الأكبر، يوم فكر أوديسيوس وفكر، ثم دبر هذه الحيلة العجيبة، حيلة الحصان المهولة الذي قهر لنا طروادة في يوم أو بعض يوم، وقد عيننا بها السنين الطوال"⁽³⁾ وقال: "لو لا أن فطن أوديسيوس فحذرنا وحبس ألسنتنا الشقشاقة التي كادت توردنا موارد الهلاك".⁽⁴⁾

_ كما شهدت له روح رفيقه الفتى (ألبينور): "يا ابن ليرتيس النبيل، المعروف في العالمين بالحكمة ودقة الفهم..."⁽⁵⁾

- وشهدت له (كاليبسو) الحورية التي احتجزته سبعة أعوام: "أهكذا يا ابن ليرتيس العليم، أيها الحكيم الصناع..."⁽⁶⁾

¹ - السابق، ص 115.

² - السابق، ص 138.

³ - السابق، ص 38.

⁴ - السابق، ص 38، 39.

⁵ - السابق، ص 108.

⁶ - السابق، ص 53.

• الإيمان واليقين: كان الشاعر قوي الاعتقاد بالآلوهية، ووجوب الإلتزام بالعبادة، والإخلاص والصدق فيها، ففيها طاقة روحية للإنسان، وهي التي تعينه على مواجهة كل الأعباء، بينما يحدث العكس لو توانى وتهاون في تقديم واجباته الدينية وشعائره، نلمح ذلك في حديث منيلاس عن رحلته لتليماخ "لما لم تصل... ثم تضح يوم غادرت طروادة؟... أن تظل في تيه هذا البحر حتى تكون تلقاء مصر فتقيم ثمة حتى يثوب إليك رشك... فقلت الحمد لله... سأفعل".⁽¹⁾

وهذا ما يحاول أن يوصله عن طريق شخصية أوديسيوس الذي ربما تقاعس عن أداء الصلاة والدعاء، لذلك طالت غيبته، وامتدت رحلته بعيدا، في الزمان والمكان رغم قصر المسافة التي لا تحتاج إلى كل ذلك الوقت. فقد كان أوديسيوس شديد الاعتقاد بوجود قوة كبرى خفية تسير الجميع، وتقرر فوق قراراتهم، وكان يصغي بهدوء وروية لتعليمات ونصائح (أثينة) التي كانت تعضده، كما كان قوي الإيمان بأنه لن يخذل، وستكتب له الأقدار العودة إلى الأهل والوطن.

وبالمقابل يشير إلى مساوئ الإستخفاف بالآلوهية، أو عدم الإيمان، لأن الجزاء سوء المنقلب مثلما حدث للسيكلوب على يده.⁽²⁾

وحتى رفاق رحلته كانوا على شاكلته، وربما هو الذي اختارهم بهذه السمة، حيث يقول له (ألينور الذي سقط ودقت عنقه ولم يدفن): "على أنني أستحلفك بكل عزيز عليك... أن تجمع ما تبقى من سلاحي... ثم تصلي لي، وتضرع..."⁽³⁾

¹ - السابق ص 42.

² - صلاح السيد: الأوديسية. للشاعر اليوناني العظيم هوميروس، مكتبة النافذة، الجيزة، ط1/ 2010، ص 191.

³ - هوميروس: الأوديسية، ص 107.

بقوة بصيرته الروحية كان متيقنا كل الوقت أن بينيلوب تبادلته الوفاء، وترعى شؤون بيته، وتخدم أمه وأباه وابنه، ولم توصل نافذة الحب رغم العواصف والأنواء، كانت هناك في الجزيرة وتدا يحميها من الزلزال، وكانت معه فكرة في البال وخاطرة في الفؤاد، إذ تقول الأسطورة أنه مكث لدى (سيرسة) مدة طويلة، وأنها أنجبت له ثلاثة أطفال: (أجاريوس، لاتينوس، تليجونيس)، ولكنه استفاق ذات يوم وقد قرر الرحيل؛ حتى السحر لم يجد نفعا مع هذا القاهر للنسيان وللذوبان، ف (إيايا) لامعنى لها أمام (إتاكأ).

- العواطف والأشجان: لم يكن يبدو عاطفيا في كل مواقفه، إذ كان طيلة الوقت يحاول أن يبدو رابط الجأش، متحكما في أحاسيسه، صارما ووقورا، قال (منيلاس) لـ (تليماخ): "أبدا ما رأيت أثبت جأشا ولا أربط قلبا من أوديسيوس"⁽¹⁾ ولكن رغم ذلك، ما أكثر ما أحصينا حديثه عن الحزن والجزع، والدموع والبكاء، حتى ليوشك أن يظهر واجدا، ضعيفا، متهاكأ، بيد أن هذا يجعلنا نلج إلى سريره الطيبة التي تهزها الشجون والمواجع، وتتعاطف مع الرفاق في آلامهم ومصائبهم، ومع الوطن البعيد الضائع، ومع الأم التي لم يستطع أن يضم طيفها النوري، والزوجة ذات النول الخالد، فلقد "كان اليونان في عصر هومر لا يرون أن البكاء والهلع من سمات الضعف والرخاوة، ولقد كان أعظم أبطالهم ينتفضون هلعاً، ويسكبون الدمع لأوهن الأسباب"⁽²⁾

¹ - السابق، ص 38.

² - راسكو، برتون: عمالقة في الأدب الغربي، تر/ دريني خشبة، وأحمد قاسم جودة، عالم الأدب للترجمة والنشر، بيروت، ط1/ 2017، ص 63.

• حب الوطن: (إيتاكة) المكان المغلق المطبق على جنان الرحالة، هي التي تصارع

الفضاءات الأخرى جميعاً وتهمشها وترمي عليها ستاراً يحجب امتيازاتها، حتى أياها التي

مكث بها متنعماً، لاهياً، و(أوجيجا) الداعية إلى الخلود.

• الشجاعة: أخبرته (سيرسا) بضرورة النزول إلى عالم الأرواح لمقابلة الكاهن (تريسياس)

الذي سينصحه ليجد طريق العودة، ثم حذرته من بعض الأخطار في طريق رحلته

(السيرينيات، سكيلا، خاروبيديس) ولكنه لم يهب ولم يتراجع، ولم يتردد في الذهاب إلى

(تريسياس)، ولا في المجازفة بالعبور في المناطق الخطرة، فلا بديل للوطن إلا الموت.

وكذلك لما أخبرته (كاليبسو) بضرورة صناعة طوف للإبحار، فقد تشجع بكل جرأة وأبحر، وهو

الذي خبر الموج وغيلاته، والبحر ومفاجآته، بحيث لم تجد معه الأساطيل (12 سفينة)، والسفن

القوية، بله الطوف.

- تشجع واقترب من الساحرة (سيرسة)، تلك التي حولت رفاقه إلى خنازير.

- تشجع في تحاوره مع السيكلوب، وفي سَمَلِ عينه الوحيدة.

• الوفاء والإخلاص: كان وفيًا بشكل مثير ومدهش لزوجته (بينيلوب) إذ رفض الخلود الذي

عرضته عليه الساحرة (سيرسة) والحرورية (كاليبسو) وفضل العودة إلى هذه المرأة التي

بادلته الوفاء، رغم الغياب الطويل جداً والبعد المديد مداً، واحتالت لصد كل الإغراءات،

متشبثة بخيوط الليل والنهار سداً وسلاً. قال الشبح الأم: "حاشا يا بني! إنها لاتزال وفيّة

لك، مبقية على ذكراك، مقيمة في قصرک، وإن تكن تقضي أيامها ولياليها في حزن ممض عليك ودموع جارية من أجلك وآلام لا تنتهي بعدك".⁽¹⁾

كما ظل وفيًا بكل حنين واشتياق إلى الطفل الجميل الذي خلفه رضيعًا، توشك سنابك الثور أن تدوسه.

الحرص: كان حريصًا على سلامة رفاقه:

- أنقذهم من السيرينيات بخدعة الشمع، ومن السيكلوب. ومن سحر (سيرسة)...

- التهذيب: كان أوديسيوس يمتاز بسلوكه الأنيق المهذب، وبالخصوص لما تجده (ناوسيكّا) مهملاً جريحاً على الشاطئ، "وأخذ (أوديسيوس) في إكلته حياء متأدباً يرد عنه تلك المسغبة الطويلة التي أنهكته وأوهنت قوته"⁽²⁾ وأمام أمها السيدة الملكة، وأمام (سيرسة)، وأمام الحورية (كاليبسو) وأمام زوجته وهو الضيف الشحاذ الغريب، وأمام الملك (أيول).
- الإصغاء إلى نصائح وتوجيهات الآخرين: (أثينة)، (ناوسيكّا)، (تريسياس)، (سيرسة)، (كاليبسو).

السمات الثانوية: كانت تظهر أحياناً وفي مواقف خاصة، ويلاحظ أنها نوعان: إيجابي وسلبي

أ - السمات الثانوية الإيجابية:

الحيطة والحذر: نجده يتمهل في إنجاز أي خطوة:

¹ - السابق، ص 109، 110.

² - السابق، ص 63.

- لا يكشف عن هويته بسرعة لكل شخص غريب، أو أي كان، بل إنه لم يكشف حقيقته لإبنه، وزوجته ومرضعته وأبيه، حتى الوقت المناسب.

- كان يوصي رفاقه بأخذ الحيلة والحذر وعدم التهور، أو الإعتداء على الأملاك دون تثبت وتيقن من أهلها.

التمثيل وتقمص الأدوار:

- لقد تظاهر بالهدوء واللين وابتلاع الطعم وهو يواجه الساحرة (سيرسة) كما أوصاه (هرمز) لينقض عليها بسيفه في الوقت المناسب.

- لقد تظاهر بأنه ضيف بسيط، وعابر سبيل أمام راعي مواشيه حين نزل في ضيافته.

- لقد تظاهر أنه متسول حقير، وشحاذ فقير أمام خُطّاب زوجته حتى يتمكن من التسلل بينهم، واتخاذ موقعه معهم.

الصبر والتحمل: رغم أن سمته الرئيسة هي الكرامة والإعتزاز بالنفس، إلا أنه سمح لنفسه بشيء من التنازل والصبر، ليوقع بالحمقى من خطاب زوجته، رغم الإهانات المريرة التي وجهت إليه رأساً، فضلاً عن الكأس المليئة داخل ضلوع الروح المتألّمة لهذا الوضع المزري الذي يعيشه بيته الغالي، وعشه الثمين.

الحكي: ظهر (أوديسيوس) حكواتياً جيداً، وقصاصاً ممتازاً، استقطب إليه الآذان والأفئدة، فقد شرع يحكي ما جرى له أثناء رحلته، بطريقة آسرة شددت الأسماع، فطالبوه بعدم الكف عن القص رغم تقدم الليل، وآثروا الإصغاء إلى الأخبار والأنباء على النوم والإسترخاء، رغم أنهم لم يكونوا في حاجة إلى من يسليهم إذ كان لديهم مغنيهم ومنشدهم الذي اعتاد أن يطربهم بالقص والغناء.

كما قال في معرض حديثه عن رحلته، أنه قد سبق له أن قص للملك (أيول) ما حدث له قبل وصوله إليه "ثم سألني فقصصت عليه قصة (اليوم) وكيف سقطت في أيدينا وما كان من إبحار أسطول الأخيين بعد ذلك وما تم من رحلتنا في ذلك العباب عاشين، ضاربين على غير هدى... ثم أني ضرعت إليه أن يعيدني في خفارته إلى بلادي فأجاب سؤلي".⁽¹⁾

ونجد للقص فوائد متنوعة بالنسبة لأوديسيوس الذي قص من أجل:

- أن يعرف بنفسه.
 - أن يتمتع جمهوره.
 - أن يقنع . تمويها . راعي غنمه.
 - أن يموه عن شخصيته ويصبر زوجته ربحا للوقت.
- وقد تتوع جمهوره بين: الملك وحاشيته، الراعي، نسوة بيته. واستطاع أن ينتخب من رحلته ما يناسب أذواق هؤلاء وأولئك على اختلافها، ووفق إلى حد بعيد، حيث أراد هوميروس أن يجعلنا نرى مدى الشبه بينه وبين رحلته، فالرحالة عادة يجب أن يقص ما جرى له، مرة ومرات عدة، وفي مواقف مختلفة أثناء الرحلة ذاتها، أو بعد أوبته إلى الديار. وبطله هو رحالة نموذجي يجب أن يفعل ذلك وإلا فهو ليس برحالة، فالقص مرتبط بالرحلة والعكس صحيح.

الصناعة: صنع ورفاقه ما يشبه الرمح، ففقوا به عين السيكلوب الوحيدة، كما صنع طوفا حمل عليه الكثير من المتاع والزاد، وأبحر به أياما طويلا بليلاتها.

¹ - السابق، ص 94.

الخبرة: لقد قطع (أوديسيوس) البحار متجها نحو أرجوس للإنتظام إلى أسطول (أجاممنون)، ثم منها نحو طروادة، وبقيت الجيوش مرابطة في سفنها عند الشاطئء تحاصر إليوم عشر سنين، لذلك فالرحالة كان على دراية كبيرة بأمر البحر والسفن وشؤون الرحلة، كما أنه ابن (ليرتيس) أحد الأبطال الخمسين الذين شاركوا في رحلة الأرجو العملاقة، ولا بد أن الأب قد حدّث⁽¹⁾ ابنه طويلا عن هذه الرحلة العجيبة، وأتعاب البحر وأهوال الجزر والأخطار المرابطة في الحل والترحال. فأوديسيوس الرحالة قد استعان بخبرة رحلة سفينة الأرجو، مثلما استعان (أبوللو رودس) الشاعر برحلة الأوديسية الهوميرية.

ب- السمات الثانوية السلبية:

الغفلة: - فقد أحد رفاقه ولم ينتبه.

- أبحر متعجلا من طروادة بعد إحراقها وغفل عن تقديم طقوس التوبة.

- نسي أحد رفاقه على جزيرة السيكلوب.

- لم يصارح رفاقه بحقيقة حقيبة الرياح التي منحها له (أيول) والتي قيد فيها الرياح كلها إلا تلك التي تسير بالسفن إلى الوطن، فظنوا أنها تحوي كنوزا، يستأثر بها لنفسه فغافلوه لما أخذته سنة من النوم، ففتحوها فانتشرت الرياح كل في اتجاهها في لحظة واحدة، فعادت السفن بهم القهقري إلى (أيول)، وقد كانوا قاب قوسين أو أدنى من تتسم شذا الوطن.

¹ - غير أن البحث لم يقف على دليل لهذه الفرضية في النصوص المنقولة إلى العربية، ولا في النصوص المنقولة إلى اللغة الفرنسية التي اعتمدها، بيد أن الإشارة إلى ليرتيس كانت كثيرة بوصفه بطلا.

الحرص والطمع: كان أحيانا يبدو حريصا على الإستزادة من الكنوز، والثناء أو استغلال بعض المواقف.

- سلبوا أشياء ثمينة كثيرة من طروادة.

- لما نزل في جزيرة السيكلوب حرص على زيارة صاحبها والنزول ضيفا عليه، عساه يزيده مؤونة أو يكرمه من فائض جوده، فوقع ما لم يكن في الحساب.

- مكث لدى (سيرسة) مدة طويلة من دون حرج مستأنسا بالنعمة والهدوء، مجاريا رفاقه الذين استعذبوا المقام، وتعذبوا من الرحيل.

الفضول: ربما جوع الرحلة وبردها كانا يجعلان منه فضوليا على موائد الذين يستضيفونه ويكرمونه، ولكنه كان فضوليا في معرفة بعض الأشياء الخاصة بالآخرين، ويسأل بجرأة وإلحاح حتى وهو يزور عالم (هاديس)، فقد استوقف مجموعة من الراحلين إلى الأبدية، لمعرفة قصصهم وأخبارهم، وخاصة النسوة اللاتي اشتهرن بما وقع لهن، ثم أنه قد استغل ما عرفه هناك وما علمه، فراح يقصه على مضيفه وضيوفه في جزيرة (الفيشيانين).

السخرية: سخر من السيكلوب حينما فقأ عينه الوحيدة.

ثانيا: السمات الجسدية: رغم ما عاناه (أوديسيوس) وما لقيه من صعاب وشدائد وأهوال يشب لها الولدان، إلا أنه ظل محافظا على جماله وبهاء طلعتة، فكان بمجرد أن يغير أسماله حتى يعود إليه ما كان عليه من مجد وقوة وجمال، ولقد دأب الشاعر على الإعتناء ببطله يقرضه، ويمدحه ويفتخر به، ويجزي له أكمل الصفات وأروعها:

- "لم يتفق وأن منحت أحدا في العالمين كل آلائها في وقت معا، بساطة في الجسم، ورجاحة العقل، وقوة البيان..."⁽¹⁾

- "تقبل أوديسيوس الهدية... ثم علق الجراز فوق كاهله الضخم"⁽²⁾

- "ثم اغتسل وتدثر وتضمخ بأحسن الطيوب، وبرز كأحد أهل الأولمب"⁽³⁾

- قال (لوداماس) أحد حاشية (ألكينوس): "نسأل ضيفنا الكريم إذا كان يحذق شيئا يفخر به من هذه الألعاب؟ إنه لا يزال غريز الشباب، بادي الفتوة، مكتنز العضلات، عظيم منة الساقين والفخذين، مفتول الساعدين، وإن له لعنقا أي عنق... كل ذلك بالرغم من بدوات الضنى وأمارات العناء، وما حطم البحر من جسمه الخصب، وهل أهلك لجسوم الرجال من أجبال العباب"⁽⁴⁾ وهي تقريبا الأوصاف نفسها التي نجدها في الرحالة (جلجامش) عندما يزور (أوتنابشتيم).

رفاق الرحالة: كان له أسطول من اثنتي عشرة سفينة. غرقت جميعها في مضائق آكلي لحوم البشر إلا سفينته.

قسم بحارة سفينته فريقين أحدهما برئاسته والآخر برئاسة (يوريلاخوس) وتحت إمرة كل منها إثنتين وعشرين بحارا. وهكذا يكون عدد بحارة سفينة (أوديسيوس) وحدها ستة وأربعين فردا. وربما كان ذات العدد في كل سفينة يوم انطلاقها من طروادة، فقد لا يقل العدد الإجمالي لرفاق الرحالة عن الخمسمائة فرد. ولكنه واصل رحلته بعُشر العدد أو أقل. وهو يقترب من عدد رفاق (جاسون).

¹ - السابق، ص 76.

² - السابق، ص 81.

³ - نفسه.

⁴ - السابق، ص 60.

يورولوخوس: الذي جاء ذكر اسمه أول مرة عندما اختار (أوديسيوس) مجموعتين من رجاله لاستكشاف جزيرة (أيايا)، فتزعم (يورولوخوس) إحدى المجموعتين بينما (أوديسيوس) المجموعة الأخرى.⁽¹⁾ وفي المرة الثانية عندما قام (يورولوخوس) ومعه بحار آخر يدعى (بيرميديس) بحراسة القربين وهم في رحلتهم إلى العالم الآخر.⁽²⁾ وفي المرة الثالثة: وهم يمرون بجزيرة (السيرينيات)... عندما كان عليه ومعه (بيرميديس) أن يشدا وثاق (أوديسيوس) إلى صاري السفينة.⁽³⁾

وفي المرة الرابعة: في جزيرة (ثريناكيا) حيث قطع الشمس عندما تزعم (يورولوخوس) ثورة بروليتارية ضد أوديسيوس من أجل الإقامة والراحة في الجزيرة. ثم زاد وأن وسوس لبقية الرفاق بأن يجهزوا على المحمية.⁽⁴⁾

بيرميديس: ظهر مساعدا لـ (يورولوخوس) في حراسة القربين في العالم السفلي، كما ساعدة في مضاعفة الوثاق لشد (أوديسيوس) إلى سارية السفينة حتى لا ينجح إلى السيرينيات.

ألينور: الذي سقط من على سطح قصر (سيرسة) ومات، ولم يعلم (أوديسيوس) حتى ظهر شبحة في العالم السفلي، طالبا إقامة طقوس الجنازة له. يقول (أوديسيوس) وهو في العالم السفلي: "لمحت روح رفيقي ألينور الذي تركناه في أرض سيرس دون أن نقيم له شعائر الموت لما كنا بسبيله من هموم... لمحت روح رفيقي فتصدعت، ثم ذرفت عبرات وعبرات، وكلمته قائلاً: ألينور! يا صديقي؟

¹ - السابق، ص 98

² - السيد، صلاح: الأوديسية، ص 133.

³ - هوميروس: الأوديسية، ص 125.

⁴ - السيد، صلاح: الأوديسية، ص 134.

كيف وصلت إلى ظلمات هذه الدار الآخرة في مثل هذه السرعة، ولم تحملنا إليها سفينتنا إلا بعد لأي! عمرك الله هل سبحت في الهواء؟"⁽¹⁾

عند فحص أحداث هذه الرحلة نجد أن أوديسيوس قد بدأها بأثنتي عشرة سفينة، ومعه من الرفاق ستمائة وأربعة وعشرين تقريبا، ثم فقد منها إحدى عشرة سفينة⁽²⁾، عندما عرج على شعب الليستروجيين، آكلي لحوم البشر.

أعداء الرحالة:

1- العواصف البحرية: بمجرد أن بارح طروادة حتى عصفت الرياح، ودفعت سفنه إلى أعلى الشمال حيث الأراضي التراقية التي ستستهلك اثنين وسبعين رفيقا من بحارته.

2- السيكلوب: التهم بعض رفاقه.

3- الليستروجيون: حطموا إحدى عشرة سفينة، والتهموا جميع بحارتها.

4- حامي جزيرة وعول الشمس: دمر السفينة المتبقية، وأطعم كل ركبها سمك البحر.

5- كاليبسو: احتجزته سبع سنوات كاملات حتى أمرها هرمز بمنحه الحرية.

¹ - هوميروس: الأوديسة، ص 107، (ويرد اسم أليينور في مصادر أخرى أليينور).

² - السيد، صلاح: الأوديسية، ص 54، وأظنه قد قام بعملية حسابية مفترضا أن عدد ركاب كل سفينة هو 46، بعد أن فقد 72 رفيقا في حربه ضد إسماروس، وبعد غرق 11 سفينة ووصولهم إلى إيبايا، وجاء افتراض العدد 46 رفيقا مستندا إلى قول أوديسيوس "ثم قسمتهم فريقين، جعلت على أحدهما يوريلاخوس... وجعلت نفسي على الفريق الآخر، وجلسنا نقترح على من يذهب لإرتياد الجزيرة، فوضعنا الرقاع في خوذتي، ثم كانت القرعة على يوريلاخوس، فمضى وتحت إمرته إثنان وعشرون من رفاقنا". هوميروس: الأوديسة، تر/ دريني خشبة، ص 98.

$$624 = 72 + (12 \times 46) \text{ إذن}$$

6- بوسيدون: كان زعيم البحار، وهو الذي تسبب في هيجانها دائما خاصة وقد صار اوديسيوس عدوه بعدما فقأ عين ابنه السيكلوب الشره.

تطرح الرحلة الأسطورية سؤالا ضمنيا عن هوية الرحالة باعتبار الفضاء الهدف، وهوية الآخر بالنسبة إليه، باعتبار فضاءات العبور أكثر، أحيانا يبدو الرحالة وكأنه لا يضع حواجز أو فروقا بينه وبين الآخر الذي ينزل عنده، حتى يظن أنه سيعامله بطيبة (أوديسيوس والسيكلوب)، وأحيانا يفوق الواقع الجميل للآخر حدود الصورة المتوقعة فيتلقى الرحالة كل الإكرام.

وقد يكون الآخر مغرقا في الغربة والنشاز بالنسبة لهوية الرحالة فيوشك أن يزهرق روحه بعد أرواح مرافقيه (الليستروجيون...).

كان أوديسيوس يشعر أن غربته مجرد غربة زمنية، تبعده في رحلة شبيهة بالمنفى والإقامة الجبرية بعيدا عن الديار، ولكن بعض الآخر سيضاعف من هذا الشعور بالغربة والإقصاء.

إن الرحلة الأسطورية بوصفها سندا جماليا يقوم على الحركة والإكتشاف، ويزاوج بين الإستقطاب والمنح، تلعب دورا رياديا في المشاركة المتبادلة بين المبدع والمتلقي وحتى البطل الذي يظل ينتج دائما المعنى الجديد كلما قرأنا النص كرة أخرى، ولأن الملحمة فضاء نصي أطول وأوسع، ففضاءات رحلتها تتفرع إلى فضاءات صغرى متباينة نلتقي فيها شخصيات بهويات كثيرة شديدة الاختلاف فيما بينها وبين الرحالة البطل:

- سيرسة الساحرة تعيش وحيدة وتحول زوارها إلى حيوانات، ولكنها مع ذلك تستقبل الكثيرين على جزيرتها (الأرجو... الأوديسية...).

- كاليبسو حورية وحيدة في أوجيجيا، تمنح الخلود، ولكن لا أحد يطرق جزيرتها.

- السيكلوب، السيرينيات، خاروبيديس، الليستروجيون، آكلي النيلوفر... تبدو فضاءات من عالم الأحلام.

- إسماروس أرض أهلة بالناس العاديين تماما، وكان بإمكانهم أن يكرموا الأوديسية لو أنها نزلت عليهم بسلام.

ثانيا: في الأرجوناوتيك:

إن نص الرحلة الملحمية يتشرب جميع خصائص النص الملحمي، وإذا ركزنا على الجانب الفني والأدبي فيها لاحظنا كم اشتغلت على الأساليب البلاغية والصور الجمالية التي تجعل منها نوعا أدبيا من دون شك، إلى جانب توظيفها لتقنيات السرد، وتركيزها على المادة المستقطبة للمتلقي، فقد "تجمعت للرحلة -خاصة الرحلة الخيالية- كل الأساليب البلاغية التي تظهرها بين الأنواع الأدبية الأخرى في أبهى صورة، من تنوع في الأسلوب بين مسهب وموجز، وسرد وحوار، ومن توظيف لمفردات ولقواعد لغوية ميزت أدب الرحلة عن غيره من الأنواع الأدبية، ومن خلالها أظهر مؤلفوها مهاراتهم الفنية، ومقدرتهم على إنشاء وتأليف رحلة متكاملة الأركان، وذلك باحتوائها على القصة والرواية والقص، ولقد توازت أحداث رواية رحلة (أبولونيوس) مع قصتها تماما بل لقد تطابقت⁽¹⁾، بحيث راح (أبولونيوس) يسرد وقائع رحلة بطله وفق مسارها الحكائي، في نصها الأسطوري بداية من أول أحداثها واسترسالا مع خطواتها المتسلسلة وصولا إلى آخر حدث، محافظا على الترتيب والتدرج وفق آلية الزمن، وطبيعة المكان وحدث الأفعال قدر الإمكان إلى حد بعيد. ولكن تقنيات القصة وفق سنن الإبداع الأدبي تبقى تراهن على عبقرية الشاعر في كيفية تقديم هذه المادة التي توحى بالوقائعية، بحيث تشتغل كفاءته على فضاءات المتخيل، ف "الرحلة إذن ظاهرة أدبية تتداخل

¹ - السيد، صلاح: رحلة الأرجوناوتيك، ص 107.

فيها عدة عناصر أدبية وخارج أدبية وجميع العناصر المحيطة بالأدب هي بطريقة ما مشاركة في إنتاجه"⁽¹⁾

موقع الأرجوناوتيك من التراث الملحمي:

نقد الملحمة: كان (أبولونيوس)* بمثابة التلميذ لكاليماخوس ولكنه كان أكثر منه طموحا وجرأة، وعندما نظم ملحمة في صورتها الأولى مني بالفشل وتعرض لهجوم ضار من خصومه، فرحل على إثر ذلك إلى رودس بانسا... وانكب هناك على الأرجوناوتيك يراجعها وينتقدها ويصوّب أخطاءه حتى نجحت ولاقت القبول في صورتها الثانية التي تلاها على محبيه من أهل الجزيرة. ومن جهة أخرى كان الأستاذ نابغة أسس اتجاهها فريدا وكانت له رؤية حصيفة في نقد الشعر وكذلك جذب الكثير من التلامذة إلى حلقاته وكان من ضمنهم أبولونيوس المنبهر بمعلمه وبطريقته الفذة واجتاحته رغبة ملحة للتقرب منه للاستزادة من خبرته. وربما حدث وأن تبني في فترة من الزمن بعض أفكار أستاذه أو التصق به برباط متين يجمع بين تلميذ نابه وأستاذ حصيف ذي خبرة ورؤية، ولقد اعتقد التلميذ (أبولونيوس) أن اختياره لملحمته موضوعا يجمع بين الإلياذة والأوديسة أنه يجمع بين العلم والإلهام معا في وعاء واحد، وأن يوسعه عن طريق إحياء التقاليد الشعرية

¹ - الساوري، بوشعيب: الرحلة والنسق دراسة في إنتاج النص الرحلي - رحلة ابن فضلان نموذجا، ص 12.

* ولد أبولونيوس الرودسي عام 295 ق.م تقريبا، وعاش في الإسكندرية أو نوكراتيس، لكنه سمي بالرودسي لأنه اعتكف في جزيرة رودس بعض الوقت لكي يتفرغ لتتقيح قصيدته الملحمية الخالدة "رحلة السفينة الأرجو"، كتبها في العقد الثاني من عمره بين 285 و 280 ق.م وكان بمثابة التلميذ لكاليماخوس الذي أعلن الحرب عليه فور نشر (الأرجوناوتيك) التي قوبلت بالنقد والاستياء من قبل خصومه وعلى رأسهم كاليماخوس ومنذ ذلك الحين أصبح خصما لأستاذه. ولقد تولى أمانة المكتبة خلال فترة الستينيات من القرن الثالث قبل الميلاد، وذلك بعد أن استكمل ملحمة في جزيرة رودس وعاد إلى الإسكندرية في تاريخ غير معروف على وجه الدقة.

الغابرة أن يبدع عملا شعريا عظيما.⁽¹⁾ وكانت الثقة تغمره وهو يعرض ملحمة لأول مرة حوالي 270 ق.م، غير أنه لاقى انتقادا وسخرية واستياء من خصومه ومن أستاذه كالماخوس. مما أصابه باليأس وجرح كرامته، وربما داخل أبولونيوس اعتقاد أن موقف أستاذه كالماخوس هو سبب فشل الأرجوناوتيك، فبيت له حقدا ورد بهجوم ذريع، مما دعا الأستاذ إلى الرد بسخرية أشد، وأنكى، وبموقف صارم بحكم تكوينه وفهمه وميوله واتجاهاته النقدية موقف لا يرى من خلاله أي دافع مقبول لنظم ملحمة طويلة فقد باتت تقليدا قديما لا طائل من ورائه ومحاكاة بائسة وساذجة لملاحم هوميروس.⁽²⁾

رأي في الملحمة:

والحق يقال أن شاعر الأرجوناوتيك لم يحاك التراث الكلاسيكي القديم بكل ما فيه، بل وقف بين ما هو تراث وما هو حديث. ولهذا فإن الانتقادات التي وجهت إلى الأرجوناوتيك لم تجعله يتراجع أو يتنازل بل ظل ينقح ويصحح متمسكا بالخطة الأساسية لعمله الملحمي.⁽³⁾

كان كالليماخوس يعتقد أن زمن نظم الملاحم قد ولى، وأن عصره يتطلب القصائد والشعر المعبر بغض النظر عن حجمه، وركز في لومه لأبولونيوس لأنه ظل مصرا على النظم في نوع أدبي لم يعد مقبولا عند الشعراء ولا القراء. حيث كان يردد "أمقت القصيدة الموسوعية ولا أجد متعة في

1 - إبراهيم، محمد حمدي: الأدب السكندري، مكتبة لبنان، بيروت، ط1/ 2013، ص 213.

2 - نفسه.

3 - نفسه.

الدرب الذي يقود الكثيرين هنا وهناك وأكره العاشق الجوال وأعاف النبع الذي رشفت منه الشفاه،
وأبغض كل ما هو سوقي مبتذل"⁽¹⁾

لقد نظم كاليماخوس قصيدة (الأسباب) وهي أطول من ملحمة الأرجوناتىكا التي راح يلوم صاحبها لأنه جعلها تدور في فلك شخصية محورية (بطل) وموضوع واحد. وهذا ما جعلها تمزج بين كونها تنتمي الى قواعد المدرسة السكندرية والنموذج الهومييري فهي تسير وفق موصوفات العصر السكندري في غالب تفاصيلها، فيما عدا القالب الشعري والأسلوب اللفظي ووحدة الموضوع.⁽²⁾

صب كاليماخوس نقده للأرجوناتىكا على شكلها وموضوعها معا. فالشكل ضعيف، والمضمون لا يقل عنه ضعفاً، ومن رأيه فلا ضرر من نظم القصيدة الطويلة بشرط أن تسرد قصصاً متتالية يجمعها خيط واحد وفكرة محورية واحدة مثال قصيدة الأسباب الأنموذج الجديد.⁽³⁾

أبولونيوس/الأرجوناتىكا/ طائر أبي منجل:

لقد شبه الأستاذ تلميذه الإفريقي (ولد بمدينة الإسكندرية) بطائر أبي منجل الإفريقي ليوضح الأخطاء الجمة التي وقع فيها عند نظمه الملحمة، فهذا الطائر القمام يلتهم كل شيء يصادفه بصرف النظر عن نظافته أو طهارته ويأكل الديدان والحشرات والهوام وتعوزه القناعة في ازدياد الطعام حيث يبتلع مما يزيد عن حاجته، وفوق ذلك فإن هذا الطائر مكرس لأحد المعبودات

¹ - السابق، ص 108.

² - السابق، ص 109.

³ - نفسه.

الخاصة باللصوص! وهذا كناية على أن صاحب الأرجوناوتيكاً قد سطا على أشعار هوميروس وغيره.⁽¹⁾

وزاده: "...ألا إن مجرى النهر الأشوري ضخم لكنه يجرف في مياه كثيرا من أدران الأرض ونفاياتها وأن الميليسيات (كاهنات دلفي) لا يحملن الماء إلى ديمتر من أي نبع أو كل نبع، بل يحملن لها الماء الصافي الطاهر من ذلك ينبوع المقدس ذي القطرات القليلة الجارية وأسماءها" وطبعا المقصود بالنهر الأشوري هنا هو الأرجوناوتيكاً، أما النفايات التي يجرفها في مياهه فهي التفاصيل المملة والتكرارات الزائدة التي حفلت بها، والتقليد الأعمى للأقدمين، والأفضل من كل ذلك بالتأكيد هي القصائد القصيرة المصقولة التي برع فيها شيخ شعراء الإسكندرية الأستاذ كاليماخوس.⁽²⁾

أسطورة الجزة الذهبية:

تقول الأسطورة أن هرميس أهدى كبشا مجنحا إلى (نيفيلي) التي هجرها (أناماس) لوقوعه في غرام (إينو) الفتاة الفاتنة القاسية وكان لـ (نيفيلي) من (أناماس) ولد (فريكسوس) وبنت (هيللي) وكانت (إينو) زوجة الأب الجديدة الشريرة تحقد عليهما وسامتهما سوء العذاب، فأرسلت اليهما أمهما الكبش المجنح ليحملهما ويطير بهما في الأجواء وينجو بهما. بيد أن (هيللي) تهاوت في البحر، بينما وصل (فريكسوس) إلى مدينة (كولخيس) على البحر الأسود حيث حف للقاءه الملك (إيتيس) وزوجه لاحقا ابنته الحسناء، وذبح الكبش أضحية. وثبت فروته الذهبية على شجرة قرب كهف (أريس) ووكل حراستها إلى أفعوان ضخم وكان يؤمن بأنها ستحفظ له الأمن والهدوء مادامت

¹ - السابق، ص 110.

² - السابق، ص 111.

مكانها. ولكنها ستصير مطمحا ومطمعا لكل راغب في حياة آمنة مطمئنة، حتى يكلف (جاسون) باستعادتها.⁽¹⁾ بدعوى أنها حق لتساليا مملكة الطفلين.

أسطورة جاسون (ياسون):

مات الملك (أيسون) بن (كرثيون) تاركا وراءه ابنا صغير يدعى (جاسون . ياسون) أرسله عمه (بيلياس) بعيدا مخافة أن يطالبه بعرش أبيه إلى القنطور (خيرون) الذي يتولى تربية أبطال الإغريق غير أن الفتى ما إن بلغ العشرين حتى عاد إلى (أيلوكوس) خفية حاملا رمحين ولابسا جلد نمر، وكان قد فقد أحد نعليه وهو يخوض النهر حاملا سيدة عجوزا توسلت إليه أن يجتاز بها النهر إلى ضفته المقابلة، (كانت هيرا) وسرعان ما انتهى خبر أوبته إلى عمه الذي قرر أن يحتال على الفتى بأنه سيعيد إليه العرش شريطة أن يستردّ الجزة الذهبية من (كولخيس) فمضى الفتى يجاهد ويجالد في سبيلها، غير مدرك أنّ عمّه لم يرد إلا التخلص منه.⁽²⁾

أسطورة السفينة الأرجو:

استعان (جاسون) بمجموعة من أبطال الإغريق ومهرة النجارين والحرفيين، لبناء سفينة ضخمة بأجود أنواع الخشب وأصلبه، ذات الخمسين مجدافا، وسميت بالأرجو نسبة إلى (أرجوس) بن أريستور) الذي أشرف على صنعها ترعاه (أثينا) ثم اقتسموا العمل فيها. فكان (جاسون) قائدها. و(تيفوس) صاحب دفتها، و(لونكوس) موجهها، وأخذ (هرقل) مكانه في مقدمتها و(بيلوس) والد (أخيل) و(تيلامون) والد (أجاس) في مؤخرتها. وانتشر الباقيون كل قد أمسك مجدافا وانطلقت

¹ - عكاشة ثروت: الإغريق بين الأسطورة والإبداع، ص 275.

² - نفسه.

الفلك تمخر عباب الموج في جو من البطولة والإقدام على أنغام (أورفيوس) الشاعر الشجي. اندفعت الأرجوناتىكا في رحلة أسطورية مليئة بالمغامرات والامتحانات.⁽¹⁾

ملاح الرحالة البطل جاسون:

1 - الصفات الجسدية:

- في عيني الملك بلياس: "مفتول العضلات، عريض الكتفين، ذو الرأس المرفوع، ذو العينين الثاقبتين"⁽²⁾.
- "رأى بلياس شابا يافعا طويلا ممشوق القدّ، شعره طويل، ملامحه تؤكد أنه من منطقة مغنيسيا، يضع رداء من الجلد يلتصق بجسده فيبرز التناسق بين أجزاء جسمه، يضع فوق كتفيه العريضتين جلد نمر أرقم، متسلحا بحريبتين عريضتين... لا يبدو عليه اندفاع الشباب."⁽³⁾
- في عيني ميديا: "أهلت عليها طلعة ياسون ولاحت أمام عينيها... وهو يخطو في شموخ مثل سيريروس الصاعد من المحيط متألقا ووسيمًا، ولكنه يلقي بالرعب في قلوب القطعان، كذلك وفد ياسون أمام بصرها رائعا أخاذا لمن يشاهده... كان ضياء إروس الجذاب يشع من رأس ابن آيسون الذهبي ببريق أسر، جعله إروس ينفذ إلى عينيها المتوهجتين"⁽⁴⁾

2 - الصفات النفسية:

¹ - السابق، ص 276.

² - شعراوي عبد المعطي: أساطير إغريقية، ج2، ص 161.

³ - السابق، ص 106، 107.

⁴ - إبراهيم محمد حمدي: الأدب السكندري، ص 227، 228.

- الصفح والوفاء: كان (أكاستوس) أحد الرفاق وهو ابن العم (بلياس) سالب العرش، ورغم ذلك فقد سعد (ياسون) برفقته في الأرجو واعترف له بفضلته ومساندته ونخوته، فلما عاد الجميع إلى الوطن فضل (ياسون) أن يتنازل عن العرش الذي استرده من (بلياس) وأن يمنحه لرفيقه (أكاستوس بن بلياس)!!
- الأدب: "لاحظ أن ياسون يتحدث بأدب جمّ، يسلك سلوكا هادئا بعيدا عن العصبية أو التشنج"⁽¹⁾
- استغلال المواقف: "لم يجد ياسون فرصة أفضل من ذلك، أيقن أنه سوف يصيب هدفين برمية واحدة سوف يحصل على الفروة الذهبية، سوف يحصل على زوجة أيضا، زوجة شابة، تحبه، مستعدة للتضحية من أجله"⁽²⁾
- العبرة والموعظة من التاريخ: تذكر ما فعله (كادموس) مؤسس مدينة طيبة حين خرج المقاتلون من جوف الأرض، إذ زرع أسنان التتین.⁽³⁾
- قالت النبوءة لعمه (بلياس): لن يقص شعره بل سيتركه مسترسلا على ظهره.⁽⁴⁾
- لقد نصت الأسطورة على أن (جاسون) كان بارعا في المبارزة والرماية، ذكيا، جميلا، محبا للمغامرة، شجاعا، وذلك في عبارات تصريحية قصيرة، وفي الوقت نفسه، لم تقدم لنا ما يدل تصريحيا أو تلميحيا على قوة جاسون، وشجاعته من خلال أحداثها، فمغامرته بطلا فردا

1 - شعراوي، عبد المعطي: أساطير إغريقية، ج2، ص 108.

2 - السابق، ص 162.

3 - نفسه.

4 - عبد العزيز، كارم: أساطير العالم القديم، مكتبة النافذة، الجيزة، ط1/ 2007، ص 280.

لم تبدأ سوى في الجزء الأخير من الأسطورة، وبعد الوصول إلى كولخيس، وقبل ذلك كان دور البطل مهماً تماماً.⁽¹⁾

- الروح القيادية: عندما صارت الأرجو على أهبة الإستعداد أخذ الرفاق يتشاورون فيمن يمكن أن يكون قائدهم، وانتخبوا هرقل الذي فصل في المسألة وأعاد القيادة إلى ياسون لأنه "رأى أن ياسون هو صاحب المصلحة في هذه الرحلة، وهو من نادى إليها، ومن قام بجمع هؤلاء الأبطال ومن ثم فهو الجدير * بالقيادة والريادة"⁽²⁾

- تحمّل المسؤولية/ الكفاءة: بعد الإنتهاء من بناء الأرجو واستكمال كل الترتيبات اللازمة لبدء الرحلة كان يبدو أن ياسون هو القائد المسؤول عنها مادياً ومعنوياً، لكن حدث وأن اعتلى منبرا صائحا: "ولكن أيها الأعزاء... عليكم إذاً أن تختاروا الأفضل من بيننا بلا تحيز كي يصبح قائداً، وعليه أن يهتم بكل شيء، عقد المعاهدات... أو شن الحروب (أبولونيوس الرودي. الأرجوناوتيكا. الكتاب الأول. أبيات 336، 340)."⁽³⁾ وهكذا ظهر بكل وضوح أنه "رجل دبلوماسي، وديمقراطي يستمع لآراء الآخرين ويطلب مشورتهم إذ أنه يرى أن رأي الجماعة... أفضل من رأيه وحده"⁽⁴⁾

ملامح رفاق الرحلة، رفاق الأرجو: أ - ذهاباً وإياباً:

1 - السابق، ص 279.

* - لقد نقدت الأرجوناوتيكا كثيراً على مر العصور، واختلفت الآراء حولها من ناحية الإجادة والقصور، وكانت حجة الفريق المعارض أن مؤلفها قد أثقلها دون داع بالإشارات المتفحمة... كذلك غاب عن جو الملحمة الجلال والسمو في أكثر الأحيان، لأن بطلها ياسون كان متخاذلاً ضعيفاً، ولولا المساعدة ما قام بتحقيق شيء يذكر، فأين ياسون هذا من أبطال العصر القديم، سواء في الأساطير أو في الملاحم، وأين هي السمات التي تجعله بطلاً يناظر أنداده، وتضفي عليه مواصفات البطولة التي أقرها الإغريق الأقدمون.

2 - صلاح السيد: الأرجوناوتيكا، ص 19.

3 - السابق، ص 128.

4 - نفسه.

جاء هؤلاء الرفاق من كل حذب وصوب، يمثلون أعراق أسر وسلالات وأصولا إغريقية متشعبة، ولكنها تجتمع تحت لواء واحد هو الإلتناء إلى الأولمب، بيد أن وراء تفرقهم أسرا وشيعا ومواطننا؛ حكمة.

كما أن وراء تجمعهم، ولم شملهم تحت راية الأرجوناوتيكا؛ حكمة أخرى.

في مائتين وأربعة أبيات من الملحمة، يذكر الشاعر (أبولونيوس) رفاق الرحلة الخمسة والخمسين، بحيث لا يكتفي بذكر أسمائهم فقط، بل يتحدث عن أصولهم وأوطانهم أيضا.⁽¹⁾ بينما اختلفت مصادر أخرى في حصر عدد هؤلاء الرفاق، فمنهم من جعلهم خمسين، وآخر جعلهم خمسة وخمسين، وثالث ذكر أنهم أربعة وستين أي أضاف إليهم من رافقهم في بعض أجزاء الرحلة فقط.⁽²⁾ إنهم من أبطال العالم الإغريقي الواسع ليس بينهم سوى امرأة واحدة، العداة أتالانتي، ذكرت أغلب المصادر أنهم جميعا كانوا يلقبون بالمينيين ذلك لأن أغلبهم من سلالة ابنة منياس.⁽³⁾

- الشباب: إنهم جميعا في زهرة العمر المليء بالحيوية والحماسة.
- البطولة: كلهم أبطال صناديد، بعضهم قام ببطولاته قبل الرحلة، وبعضهم بعدها.
- الرجولة: امتازت مواقفهم بالرزانة والحكمة والشهامة والمؤازرة.
- الشرعية: لأنهم شكلوا الأكثرية (الأغلبية).
- القنص: استغلال الفرصة السانحة.
- المصداقية: تكتلهم شكل مصداقية للرحلة، فهي ليست مجرد عبث أو تهور.

¹ - السابق، ص 17، 18.

² - السابق، ص 193.

³ - شعراوي، عبد المعطي: أساطير إغريقية، ج2، ص 115 إلى 120. حيث يذكر الأسماء الخمسين ويعدد نسبها.

- **الخصوصية والتميز:** لكل بطل خاصية تميز بها، واجتماع هذه الميزات يشكل قوة لا تضاهى ولا تقهر.
- **السيادة:** كلهم ملوك، أو أبناء ملوك (ورثة عروش).
- **المرجعية:** لكل رفيق من هؤلاء شخصية ذات مرجعية أسطورية عميقة في التراث الإغريقي، فكل واحد منهم يعرف بذاته، واسمه، فهي ليست أسماء مجهولة، بل بالإمكان أن نجد لها مرجعيتها، مثل (اليرت) والد (أوديسيوس).
- **الكفاءة:** كان الجميع يمتاز بكفاءة عالية، ومهارة فائقة، جعلت تضافر جهودهم ناجحا في التخلص من العراقيين والمطبات.
- **القوة:** تميز الجميع بقوة خارقة في أنواع مختلفة من المهارات:
 - 1) القوة الجسدية: كانوا جميعا مضرب المثل في القوة، واكتمال البنية الجسمية التي تستطيع المواجهة العنيفة (القتال).
 - 2) القوة الفكرية: نكاء خلاق (المهارة الحرفية): أرجوس مهندس السفينة.
 - 3) قوة فنية موسيقية: الشاعر العازف أورفيوس.
 - 4) قوة روحية استشرافية: العرافون: بيوتيس، أمفاريوس، إيدمون.
 - 5) قوة سحرية (التحول): بريكليمانوس.
 - 6) قوة عجيبة (الطيران): كالاييس وزيتيس، ابنا (يورياس) الريح الشمالية.
 - 7) قوة معنوية: أكاستوس بن بلياس (ابن عم جاسون)، الذي حظ جاسون على الرحلة، فمن مفارقاتها العجيبة أن نجد في طاقم الرفاق ابن ألد الأعداء، وكذا (أوجياس) الأخ غير الشقيق لـ(أيتيس) ملك (كولخيس) المحتفظ بالجزء، وكذا أبناء صاحب الجزء (فريكسوس).

- (8) قوة نفسية: (إخيون بن هرمز)، انتمأؤه إلى الأولمب منح الرحلة راحة نفسية.
- (9) قوة اجتماعية: كان رفاق الرحلة يمتنون بصلة القرابة إلى بعضهم البعض، إذ كان فيهم التوأم (ديوسوكري: بوللو كس وكاستور)، والأشقاء (كالاييس وزيتيس) والإخوة (إيداس ولونكاياس)، والأصدقاء (هرقل وهولاس)، (هرقل وأدميتوس).
- (10) قوة الملاحة: الحذق والمهارة في تقنيات الملاحة والسباحة، والتجذيف، وإدارة الدفة ((ناوبليوس) الملاح الماهر ابن (بوسيدون)).
- (11) قوة إقليمية: كانوا أبناء الجهات الأربع من الأرض الإغريقية: من الشمال: يولوكوس، فيراي (تساليا) ومن الجنوب: كريت. ومن الوسط: أثينا، طيبة، أرجوس، موكناي. ومن الغرب، ومن الشرق.
- ب- رفاق رحلة العودة: (الإياب): الأميرة ميديا: لم يسبق لأي شاعر قديم قبل أبولونيوس أن صور عاطفة الحب الجارفة بمثل هذه الروعة، أو تتبعها في قلب امرأة بمثل هذا التفوق والصدق. ولم يتمكن أحد قبله -ونادرا ما استطاع من جاء بعده - من تحليل نفسية بطلته مثلما صنع شاعرنا مع ميديا. إذ لم يكتف أبولونيوس بوصف المشاعر والأحاسيس، بل زواج في مهارة بينها وبين الأعراض الفسيولوجية التي كثيرا ما تصيب المحب الولهان حينما تسيطر العاطفة على فؤاده⁽¹⁾
- ملاحم أعداء الرحالة:
- 1- عمه بلياس.
- 2- ملك كولخييس (أبيتسيس) والد ميديا، المحتفظ بالجزء الذهبية.

¹ - إبراهيم، محمد حمدي: الأدب السكندري، ص 233.

3- العواصف البحرية.

4- المناطق الخطرة.

5- ملامح الرحالة الملحمي عند الرومان:

مدخل: مرجعية الإنيادة: ينسب لأتباع هوميروس ما اصطلح على تسميته بالأناشيد الهوميرية التي تؤرخ فيما بين القرن السابع والخامس قبل الميلاد، إذ كان من التقاليد أن يقدم المنشد الملحمي لأبيات أي ملحمة يتغنى بها باستهلال طويل أو قصير يتوجه به متضرعا... ولقد وصلنا ثلاثة وثلاثون نشيدا (أو استهلالات) هوميريا وتحتل من بينها ستة أناشيد مكانة خاصة لما لها من أهمية كبرى، منها النشيد (إلى أفروديتي) الذي يحكي قصة (أينياس) بن (أنخيسيس) من (أفروديتي) نفسها، وهي الأسطورة التي قامت عليها (إينيادة) (فيرجيليوس)⁽¹⁾ أمير الشعر اللاتيني ولها علاقة بتأسيس روما نفسها.⁽²⁾

أ - ملامح الرحالة البطل إنياس: إنه بطل أسطوري تغنت به الكثير من أساطير الإغريق التي ورثها الرومان. فجاء فرجيل ليحوّله إلى بطل ملحمي بامتياز، يسعى لأن يضع قدمه على طريق جديد غير مطروق من قبل نحو المستقبل المجهول، فهو لن يؤسس مدينة جديدة فحسب، بل سيضع الأسس لحياة جديدة تماما، ولأنه آخر طروادي على ظهر الأرض كتب عليه أن يكون أول

¹ - فيرجيل: بوبليوس فيرجيليوس مارو (70 ق.م، 19 ق.م) له الرعويات، الزراعيات، ملحمة الإينيادة التي يضع فيها إنجازات الإمبراطور أغسطس في إطار أسطوري وتاريخي ضخم، والتي قسّمت إلى اثني عشر كتابا، يروي في الأول قصة إنياس عندما اقترب من الأرض الموعودة في الغرب، فتربك الرياح سفنه وتلقي بها على الساحل الإفريقي، وفي الثاني والثالث يشرع البطل يروي لديدو قصته منذ سقوط طروادة وحتى وصوله إليها. بينما يواصل سرد بقية الرحلة الشاعر نفسه في الكتاب الرابع والخامس والسادس والسابع، والكتب الأخيرة هي سرد لوقائع الحروب الشرسة بين البطل وبعض أهالي إيطاليا الرافضين لإستيظانه.

² - عثمان، أحمد: الشعر الإغريقي؛ تراثا إنسانيا، ص74.

روماني في إيطاليا... إنه يمثل مجتمعا بأسره، أو بالأحرى فيه تكمن بذرة أمة جديدة، ويتحمل مسؤولية ضخمة، وعندما يظهر ضعفا في بعض الأحيان فإن ذلك يؤكد المعنى الجديد للبطولة.⁽¹⁾

إننا نراه للوهلة الأولى ومنذ دخول جحافل الجند الأغارقة إلى قلعة (إليون) بطلا فارسا، صنديدا مقاوما. لم يرضخ لفكرة الإحترق، والسقوط، فبقي في ميدان المعركة حتى شاهد بألم عينيه النهاية الحقيقية لطروادة الجميلة. وكان في موقفه هذا التجلي الساطع لجمال روحه وكرمه أخلاقه.

لم يكن فرجيل الشاعر السارد، نصيرا وظهيرا لبطله، يغدق وابلا من الوشي والتطريز على شخصيته حتى يجعلها الأميرة بين الجميع. بل كان يعي بشكل ممتاز ما لدور الشخصيات الأخرى في تقوية شكله، وإجلاء روحه، وما لدور المتلقي إن لامس شغاف قلبه، ودغدغ الآلة الجمالية في نفسه. ولهذا فرسم صورة الرحالة وبقية الشخصيات، كانت تتم حيناً مباشرة، وحيناً آخر كنا نحن الذين نكمل الرسم، باستعارة فرشاة رفاق الرحالة وحتى أعدائه. أو نعتمد إلى استخدام فرشائنا.

ومهما اختلفت الألوان وتباينت بين المتلقين فنحن ولا شك سنبقى واقفين برهبة أمام (إنياس) البطل البهي النبيل.

إذا كان أبطال هوميروس أفراداً نموذجيين، فإن آينياس فيرجيليوس هو الممثل المثالي للشعب الروماني، ومن ثم فهو يفتقد الخصوصية الفردية، وبوصفه تجسيدا للنموذج الروماني نجده دائما واسع الأفق، وشديد الورع والإحساس بالواجب... لأن قدره أن يصبح جدا ومؤسسا للسلالة الرومانية، وهذا هو السبب الوحيد لوجوده، هذا القدر هو أيضا بالنسبة لمعاصري فرجيليوس مغزى تاريخ العالم كله... وكانت ديدو الملكة الفينيقية على علم بهذه الأقدار الرومانية ولكنها أغفلتها وتناستها... يسير آينياس وفق خطة القدر في البداية فعل ذلك طاعة لوالده، ورويدا رويدا صار

¹ - عثمان أحمد: الأدب اللاتيني، ص 227، 228.

الأمر عنده تلقائياً، ثم وصل في النهاية إلى مرحلة الوعي بالقدر، وتنفيذ خطته عن اقتناع كامل وبحماس متدفق، وهكذا تتطور شخصيته ويعاني خلال مراحل التطور هذه، لأن المعاناة هي جوهر هذه الحياة الدنيا، ولكن طالما هناك هدف مرصود هناك أيضاً أمل.⁽¹⁾

تدعي الأساطير أنه ابن (فينوس) وما أدراك من (فينوس) في المعتقد الأسطوري الإغريقي/الروماني! ونجد هذا الإدعاء حاضراً بقوة أسرة، في النص الملحمي الإنيادة، ونجد شخصية (إنياس) مرتبطة بهذا الرحم ارتباطاً وثيقاً، فيؤثر في جوانب كثيرة من سماته وملامحه النفسية وحتى الجسدية.

ومنذ البداية يظهر مدعوماً بالنبوءات والرؤى والأحلام، فكل قراراته كان يستشفها من حلم يراه، أو إشارة يستلهمها.

الشخصية المؤمنة: رؤى وإشارات:

قرار الرحلة: لما بدأ الهجوم العنيف الحارق، على طروادة، رأى إنياس فيما يراه النائم أن (هكتور) القاتل المثخن بالجراح جاءه يحضه على الخروج من المدينة، والفرار بأهله من المحرقة المهولة، لكن والده رفض مرافقته في أول الأمر حتى رأى هو الآخر إشارة ظنها بشارة بمستقبل طيب، فقد رأى نورا يتألق فوق رأس حفيده، ويتراقص على شعره، فطلب إنياس من أهل بيته وخدمه، ورفاقه، والمقربين منه من أبطال طروادة الخروج إلى معبد (سيريس) خارج المدينة، ولما وصل إلى هناك افتقد زوجته (كروسا) (وهي ابنة بريام ملك طروادة)، فعاد يفتقي أثرها، فوجد طيفها الذي قال له: "إن حاكم الأولمب لا يريد أن ترافقكم (كروسا) في رحلتك هذه، فأنت ستقوم برحلة طويلة، وستجتاز

¹ - السابق، ص 233، 234.

بحارا عدة، حتى تأتي شاطيء (هسبيريا)... هنالك ستلقى نجاحا عظيما..."⁽¹⁾ ولما عاد وجد جمعا كبيرا مستعدا لمرافقته في رحلته، ومن جديد يسطع نجم الصباح فوق جبل (أيدا)، فاتخذ نحو الجبال سبيله، ورغم حرارة الصيف بدأ ورفاقه بسرعة صناعة السفن واستمروا حتى الصيف الموالي ليتم الإبحار.

رفاق الرحالة وأنصاره:

أبوه أنخيس: رفض في البداية فكرة الرحلة، ولكنه عندما شاهد إشارة النور على رأس حفيده قرر المرافقة. وكان خير معين للرحالة بنصائحه الثمينة.

أمه فينوس: تقول الأساطير أن (انياس ابن فينوس) ربة الجمال (أفروديت الإغريقية) وكثيرا ما تجلت لابنها لتدعمه بالنصح، والأخبار وبالأوامر أحيانا.

ابنه: كان لـ (إنياس) ابن من زوجته (كروسا)، اسمه اسكانيوس، كان طفلا صغيرا في بداية الرحلة، وصار شابا لما تحقق حلم الاستيطان.

أبطال طروادة: رافق الرحلة الكثير من الأسماء الطروادية التي عرفت أبطالاً للحرب قبيل السقوط، وكتب لها الفرار من المحرقة. ويبدو أنهم كانوا من القوة والعلم بصناعة السفن وحرفتها ما جعلهم يتمكنون من بناء أسطول كامل للخروج إلى عرض البحر بحثا عن الأرض الجديدة. إذ "كان

¹ - فرجيل: الإنيادة، تر/ عنبرة سلام الخالدي، دار العلم للملايين، بيروت، ط2/ 1978، ص 36.

أسطول أينياس الذي بدأ به الرحلة يتكون من عشرين سفينة، وبذلك يكون رفاقه من البحارة ألف شاب تقريبا، هذا غير النساء والأطفال والشيوخ...⁽¹⁾

باليوريوس: قائد الأسطول الطروادي خلال سبع سنوات.

أهالي طروادة: أشار (إنياس) على أهل بيته وخدمه بالتفرق والخروج من محرقة طروادة، والإلتقاء عند معبد (سيرس). وفي الصباح اكتشف بأن العدد كان أكبر مما ظن، وتوقع، وفيه من النساء والأطفال أيضا.

أعداء الرحالة:

جونو: من أهم أهل الأولمب، زوجة (جوبيتر)، كانت تكن عداا حادا لأهل طروادة، بسبب (باريس) الذي منح التفاحة الذهبية لغريمتها (فينوس).

إن التقليد الملحمي (النموذج الهومييري) الذي اتبعه فرجيل يتبنى الأساطير التي تتحدث عن غضب الأرباب عن الأبطال، لسبب ما حتى ولو لم يكن وجيها، ولم يكن للرحالة فيه يد، ولهذا نجده يقترح (جونو) عدوة أساسية للرحلة، وليس للرحالة شخصا. إنها لاتحب طروادة، وبالتالي لا تحب أهل طروادة أن يبنوا الوطن الجديد.

الذين حرضتهم جونو: لقيت جونو الدعم من (أيول) ملك الرياح و(أليكتو)⁽²⁾ ملكة الرعب في العالم السفلي، التي صعدت تتفث بأفاعيها السمووم في الأفئدة والصدور، فألبت (أماتا) و(تورنوس)

¹ - السيد، صلاح: الإنيادة، لشاعر العصر الأوغسطي بولبيوس فرجيليوس مارو. مكتبة النافذة، الجيزة، ط1/ 2010، ص 122. وأظن أن صلاح السيد قدر هذا العدد انطلاق من المعدل العام الذي رأيناه في كل سفينة في الأوديسية (46) والأرجوناوتيكا (50/ 55)، فيكون هذا الرقم (50 ضرب 20 مساويا للآلف).

² - ألكتو إحدى المربعات الثلاث، جندتها جونو، باعتبارها ربة الإنتقام، لتساعدها ضد إنياس وأتباعه فتورطهم في حرب ضد تورنوس والروتوليانيين، وذلك بجعل ابن إنياس يقتل غزاة سيلفيا.

وأهالي إيطاليا جميعا ضد المستوطنين الجدد من الطرود، بل أنها تحالفت أيضا مع (أمه فينوس) وأقنعتها بضرورة بقاء (إنياس) في قرطاجنة.

عراقيل تجاوزها الرحالة لحسن تدبيره: كان (إنياس) يصغي بوجوده لكلمات أبيه ونصائحه، وكان حسن الظن بأحلامه ورؤاه لذلك فقد كان يجد المخارج سريعا لأزماته: العواصف، التحالفات، احراق السفن، التورط مع الملكة (ديدو) حيث في الكتاب الرابع من الإنياذة يأتي الإغراء بقرب السعادة الشخصية... وهو ما يهدد بتوقفه عن المسيرة نحو تحقيق رسالته ويتمنى شخصيا أن يفعل ذلك، ولكن الإحساس بالواجب يدفعه دفعا لمواصلة المسيرة، وهو بضغفه الإنساني يحسد من لا تتقلهم هذه المهمة أو من انتهوا منها بالفعل فهو ينظر إلى أسوار قرطاجنة قائلا (الكتاب الأول، بيت 437): "يا لهم من محظوظين! أولئك من قامت بالفعل أسوار مدينتهم!"⁽¹⁾

II - ملامح الرحالة الملحمي في العالم الآخر:

1 - ملامح الرحالة في بلاد الرافدين: جلجامش: (أرض الخلود):

سمات شخصية الرحالة البطل: كنا قد تعرفنا على بعض ملامح (جلجامش) بعد رحلته الأولى مع (إنكيديو) وكيف ازداد رونقا ورواء حتى أن عشتار طلبت وصاله، ولكننا الآن سنرى شخصية جديدة بهيئة أخرى مغايرة، محيرة.

أولا: ملامح جلجامش قبل الرحلة: عندما يمرض (إنكيديو) ويصير طريح الفراش تبدأ شخصية (جلجامش) في التغير، إذ تظهر عليه ملامح الحزن والقلق، وعندما يموت يداخله يأس شديد، وكأبة مريرة ويقرر الخروج من أسوار (أوروك)، متخليا عن كل مظاهر الملك وديباجته، فيظهر

¹ - عتمان، أحمد: الأدب اللاتيني، ص 228.

كدرويش، أو ناسك متصوف. "من بعدك أنا سأطلق شعري/ وأكسو جسمي بجلد الأسد هائما في البراري/ عند انبلاج ضوء الفجر/ حل حزامه".⁽¹⁾

ثانيا: ملامح جلجامش أثناء الرحلة:

1- يصفه الرجل العقرب وزوجته: "قدعا الرجل العقرب زوجته: إن القادم إلينا من طينة الآلهة.

فأجابت زوجة الرجل العقرب: ثلثاه إله وثلثه بشر".⁽²⁾

2- تصفه الفتاة سيدوري: حدثت الفتاة سيدوري نفسها لما لمحتة أول مرة: إن هذا الرجل لقاتل، ثم

أوصدت باباها وأحكمت مزلاجها، ولكن لما حدثها وعزفها بنفسه، ومناقبه، تساءلت في فضول ودهشة: "فلماذا ضمرت وجنتاك، واكتأب وجهك؟/ لماذا توجع منك القلب وتبدلت الملامح؟/ لماذا

استقرّ الكرب في فؤادك؟/ فوجهك اليوم كمن ضني بسفر طويل/ وقد لفح وجهك الحرّ والقرّ".⁽³⁾

3- يصفه أورشنابي: يصفه (أورشنابي) ملاح جدّه متسائلا مثلما فعلت سيدوري، وقد لاحظ عليه

كل ما لاحظته الفتاة من علامات الهم وسمات التعب وآيات الكآبة والأسى فيعيد الكلمات نفسها.

4- يصفه أوتتابشتيم: بسبب تكسر العمود وتشوّهه لا نجد اللازمة التي يظهر فيها وصف

(أوتتابشتيم) لجلجامش عن طريق الأسئلة الحائرة التي يطرحها عليه، مثلما فعلت (سيدوري)، وفعل

أورشنابي.

¹ - السواح، فراس: جلجامش، ص 188.

² - السابق، ص 193.

³ - السابق، ص 205.

5- يصف نفسه لأوتتابشتيم: يصف نفسه لجدّه أوتتابشتيم متسائلاً بحيرة ردا على تساؤله الحائر:

"كيف لا يتوجع مني القلب وتتبدل مني الملامح، كيف لا يستقر الكرب في فؤادي، كيف لا يصبح

لي وجه من ضني بسفر طويل وكيف لا أهيّم على وجهي في البراري؟"⁽¹⁾

ثالثاً: ملاح جلجامش في مسار العودة: لقد صار (جلجامش) متقائلاً بالنبته التي دلّه عليها الجدّ،

فسعى إلى قطفها بشجاعة وثقة، وملاً بسحرها وجدانه وكلّ تفكيره في مستقبل وطنه وشعبه،

ونفسه. ولكن الأفعى التهمت كل هذه الأحلام، فأسقط في يده، ومن جديد غامت سماؤه باليأس.

رابعاً: ملاح جلجامش بعد الرحلة: عندما رافق (أورشناي) الملاح الطريد من جنة الخلود ووصل

به إلى أبواب وأسوار (أوروك) تدفق إحساسه الجديد القديم واستعاد كلّ نظرتة الطيبة إلى الحياة

والكفاح والبناء.

أخطاء الرحالة:

الغضب: ثار ساخطاً في وجه (سيدوري).

الغفلة: غفل عن كنزه الثمين (نبته الشباب) فالتهمتها الأفعى.

التحطيم: بتهور، وغيظ قام بتحطيم الصور السحرية تعويذة المرور عبر بحر الموت.

سمات شخصية الرحالة الرفيق:

¹ - السابق، ص 213.

أ- أورشنابي: رأينا جلامش، وهو أمير عزيز برفقة إنكيديو الخبير القوي، المخلص في رحلته الأولى إلى غابة الأرز/ أرض الحياة، ولكن هذا الند الوفي يلقي حتفه فيخرج جلامش في رحلة أخرى وحيدا.

ويقطع عشرات الساعات المضاعفة دون رفيق، وقد قرر هو نفسه ذلك مفضلا هذه الوحدة، وهذا التفرد في البراري. ولكنه عندما يصل إلى مشارف الأوقيانوس البحر المحيط الذي يفصله بمياه الموت عن جده يستعين بالملاح أورشنابي الذي يكسر ألواحه دونما قصد ويصلان بسلام إلى أوتنابشتيم الذي يقنع جلامش بضرورة العودة أدراجه من حيث أتى مرافقا للملاح الطريد.

القوة والشجاعة والعمل: قالت الفتاة سيدوري إنه يحتطب في الغابة: فهو لابد شخص مجتهد ونشط وقوي البنية، محب للعمل وإلا كفاه كونه ملاحا لأوتنابشتيم. وشجاع لا يخشى سباع الغاب وهو وحيد يحدث كل تلك الضجة.

الأخلاق والحكمة والفراسة: لقد استقبل جلامش متأسفا لحاله متسائلا عن سبب كآبته، وأنصت إلى الشكوى والأحزان من شخص غريب لا يعرفه، وبمجرد أن سأل جلامش عن الطريق إلى أوتنابشتيم، والإتجاه هل هو البحر أم البراري! حتى أجابه أنه قد تسبب في تضييع الفرصة الذهبية بكسره الصور الحجرية، ولكنه لم يئد الأمل فورا، بل لقد لمح في جلامش قوة تجعله يستطيع صناعة مائة وعشرين مرديا للتجديف، ولامس الحرارة والصدق والإندفاع القادر على فعل ما تفعله الصور السحرية بقوة الإصرار حتى الموت. فإن نجح فقد سهل عليه هو ذاته عناء التفكير في وسيلة للعبور إلى أوتنابشتيم، فيضرب عصفورين بحجر واحد، ويجعل جلامش يكفر عن خطئه في كسر الرقم السحرية. رغم أن هذا جنى عليه غضب أوتنابشتيم الذي طرده. ولكنه بذكائه أيضا فضل صحبة جلامش عاقدا عليه آمالا كبيرة، فهو الملك، القوي، المحظوظ، ذو العزيمة

والإصرار. وهو بذلك لن يخسر شيئاً إن صحبه، بل سيكسب صحبة جيدة، ويضمن ملجأ لبقية عمره معززا مكرما. في أوروك الحصينة ولم يخب ظنه.

ب- إنكيديو: خرج وحيدا حزينا لا يلوي على شيء ولكن خلال جميع مساراته وحتى بلوغه جنة أوتنابشتيم لم يتوقف عن تذكره والبكاء عليه، فقد رافق إنكيديو جلامش في رحلته الثانية في قلبه ووجدانه، إذ كان يهتف باسمه في كل خطوة يخطوها في كل مسار يجتازه وفي كل محطة يتوقف عندها:

"إنكيديو الذي أحببت كثيرا... أدركه مصير البشر في الليل وفي النهار بكيت عليه... فمنذ أن مضى ما لي حياة... أهيم على وجهي كصياد في أعماق الفلاة"⁽¹⁾ صديقي، أخي الأصغر، صديقي الذي أحببته جما...⁽²⁾ دائما يذكر أنهما كانا معا فريقا واحدا. ويدا واحدة: "معا قهرنا الصعاب، ورقينا مسالك الجبال./ إن من لزمني في المشقات جميعا"⁽³⁾ "والذي صاحبني في كل الصعاب"⁽⁴⁾

سمات جلامش وإنكيديو معا: "معا قهرنا الصعاب/ ورقينا مسالك الجبال/ أمسكنا ثور السماء وقتلناه/ صرنا خمابا ساكن غابة الأرز./ صديقي الذي أحببته جما،/ ومضى معي عبر المهالك،"⁽⁵⁾

¹ - السابق، ص 201.

² - السابق، ص 206.

³ - السابق، ص 200.

⁴ - باقر، طه: ملحمة كلكامش، ص 77.

⁵ - السابق، ص 206.

لقد ساوى جلامش بينه وبين إنكيدو، وجعل منه رفيقا، وصديقا، وأخا، فقد كان ندا له. فكثيرا ما كان يجمع بينه وبين صديقه في الصفة، والحدث. ثم يكون جزعه من أن يكون مصيرهما واحدا. الموت والدودة التي تخرج من الأنف. "أدركه مصير البشر، فصديقي الذي أحببته صار إلى تراب/ ... وأنا، أفلا أرقد مثله، ولا أفيق أبدا".

الشخصية الهدف:

الجد أوتنابشتيم⁽¹⁾: كان هدف جلامش من رحلته هو لقاء جده أوتنابشتيم الذي قفز إلى ذهنه بسرعة لما قضى إنكيدو نحبه وخرج الدود من أنفه. لقد قرر الرحالة السعي بكل قوة وعزم من أجل الوصول ولقاء جده عساه يخبر بسر خلوده، دون الجميع، فقد كان جلامش خائفا من المصير السيء الذي يلحق جسده فور وفاته. ولم يكن هناك من حل آخر سوى السؤال والإلتماس من الجد الذي حقق المنعة من هذا المآل الشنيع -دود يتساقط من الأنف- فلو كانت الجثة تحافظ على جمالها وتماسكها عندما تخرج الروح، ربما ما كان جلامش يقلق كل هذا القلق ويسعى نحو العالم الآخر بحثا عن الجد المتواري وزوجته في الجزيرة النائية وراء بحر الموت، ويصدم عندما يجده: "أنظر إليك يا أوتنابشتيم، شكلك عادي، وأراك مثلي، نعم، شكلك عادي وأراك مثلي، قد صورك لي جناني بطلا على أهبة القتال، ولكن ها أنت مضطجع على جنبك أو قفاك، فقل لي كيف صرت مع الآلهة ونلت الحياة؟"⁽²⁾

¹ - قصة أوتنابشتيم (صانع الفلك الذي أنقذ البشرية من الطوفان شبيه سيدنا نوح عليه السلام).

² - السواح، فراس: جلامش، ص 217.

2- ملامح الرحالة الملحمي الهندي:

أ- رحلة يودّهشتيرا إلى الجحيم: تبع (يودّهشتيرا) رسول السماء من العليا بخطا واسعة، فيا له من سقوط مشؤوم! ويا لها من رحلة هائلة! ذلك هو مأوى الأرواح المجرمة الغارقة في ظلمات حالكة، والمدثرة بنبات خبيث والمتنشقة رائحة الإثم الوبيء واللحم والدم، ذلك هو المأوى المليء بالجثث والشعر والعظام، والفاسد بالديدان والهوام، ذلك هو المأوى الذي يرمي بالشرر، وتحلق فوقه الغربان والعقبان، وغيرها من الكواسر المجنحة التي تهبط مبتورة مهیضة فوق الجبال.⁽¹⁾

سار الملك خائفا مُرَبَّر الشعر بين تلك الجثث والروائح المنتنة، ورأى أمامه نهرا من الأمواج الملتهبة وغابة من النصال ذات الأغصان الحادة، وصخورا من الحديد، وخوابي مملوءة لبنا فائرا وزيتا حارا، وعوسجا قاتلا أعدت للمجرمين.⁽²⁾

راعت تلك الأبخرة الوخيمة (يودّهشتيرا) فارتد إلى الوراء حيث سمع القول الآتي يخرج من مهالك الليل: "واحرياه، قف أيها الملك العادل الشهير ثانية لتخفيف آلامنا، يحوم عطر روحك التقية حولك كالرخاء، ولنا في هذا العطر سكينه ننظرها منذ زمن طويل، امكث هنا يا ابن بهارات القدير فبك يزول العذاب"⁽³⁾

أثرت هذه العجائج المحزنة في البطل فتحسر من غير أن يميزها، لما تعبر عنه من التباريح، ثم علمها، فقال لرسول السماء منورا مذعورا... مرتجفا في سواء ذلك الجو الخانق: ارجع إلى أولئك الذين تمثل أوامرهم في السماء، لأنني عدلت عن العودة إليها، فسأبقى هنا عند من أحب لما يوجبه

¹ - لوبون، غوستاف: حضارات الهند، ص 457.

² - نفسه.

³ - السابق، ص 457، 478.

وجودي بجانبهم من تخفيف آلامهم. فلما سمع الرسول ذلك عاد إلى قصر (إندرا) وأخبره بما عزم عليه حفيد (بهاراتا)، ولما أقام (يودّهشتيرا) حيناً بدار العذاب، هبط (إندرا) و(يما) وغيرهما، إلى الهاوية، ولما بلغوها بددت أنوارهم الظلام، وزال العذاب عن المجرمين، فصرت لا ترى نهراً مضطرباً، ولا غابة شائكة، ولا بحيرة من نار، ولا صخراً من قُلز، ولا جثة كريهة، بل صرت تجد ريحا طيبة عطرة، تنتشر فوق الأرضفة، وصرت ترى النار منارة بنور السماء الساطع.⁽¹⁾

ملاحم يودّهشتيرا في عالم الظلام:

لقد عرف (يودّهشتيرا) بكونه بطلاً عظيماً من أبطال ملحمة (المهابهاراتا)، وقد أوثّر عنه أمجاد وأعمال باسلة قام بها وتقاسمها مع إخوته الخمسة.

ويظهر هنا وهو يقوم برحلة نحو الجحيم، حيث عالم الأرواح المجرمة. وسار خائفاً، مزبور الشعر مرتجفاً، مذعوراً، متحسراً، مرتاعاً، مرتداً. رغم أنه لم يكن وحيداً في رحلته بل رافقه رسول السماء. وهو البطل الذي لم يهب شيئاً سلفاً، ولما خاطبته الأرواح التي تسكن هذا العالم التعيس، واصفة إياه بالملك العادل الشهير ذي الروح العطرة، النقية، التي تبعث على السكينة، هو ابن (بهاراتا) العظيم والذي به يزول العذاب، قرر بكل شجاعة ويقين وإصرار البقاء في ذلك العالم الرهيب من أجل تخفيف آلام ساكنيه معتقداً أن هذا من واجبه، إذ لطالما كان هذا هو إحساسه، وهو على رأس مملكته في الدار الدنيا، يلزمه شعور بالمسؤولية الواجب، حتى أمام هؤلاء التعساء الذين يجنون ما حصده زمن الغفلة والضياح، إن البطل الهندي في رحلته الإستطلاعية إلى مأوى الأرواح المجرمة، رغم خطواته الوجلة وقلبه الخائف وروحه المتحسرة، إلا أنه لم يتراجع ولم يهرب من هذا المكان الموحش الخطير بل بقي ثابت الجنان، وقرر بكل جرأة وقناعة عدم العودة إلى

¹ - السابق، ص 458.

وطن الهناء والضياء، بل كلف نفسه بما أوشر عنه من مساعدة للآخرين في محنهم، والوقوف إلى جانب التعساء والمعذبين. وهكذا كلف الرحالة (يودّهشتيرا) نفسه بمهمة لم تكن في الحسبان، بيد أنها كللت بنجاح باهر إذ قرر أهل النور النزول معه إلى الهاوية، حيث بددوا الظلام وأزالوا العذاب، وفاز البطل، فوزا أدبيا ساحقا.

ب- رحلة أرجنا إلى جنة إندرا:

ودع البطل الطليق من قيود الأرض (أرجنا) الجبل وهرع فرحا إلى الموكب الإلهي صاعدا في الأجواء فوصل إلى البقاع المحرمة على أبناء الأرض، فوجد فيها عشرات الألوف من المركبات المنيرة بذاتها، لا بفعل الشمس والقمر وأي ضياء، والتي بلغت من البعد ما نعجز معه عن قياس حجمها، والتي تبدو لهذا البعد مصابيح شاحبة، فدنا منها، فشاهد تألقها وانسجامها الرائع، فمرت أمامه مئات من الملوك العاديين والحكماء الراشدين وضحايا الحرب، والمعتكفين الذين فتحوا السماوات، ورأى منزل الأولياء والتائبين ذا الأزهار الجميلة فتنسم شذاها العطر، وشاهد غابة (مودانا) التي تنتشر جميع الغواني تحت أشجارها الخضر، وإن شئت فقل شاهد المأوى المعد لأفئدة المؤمنين، فلا يدخله من لا يعرفون التوبة، ولا يقربون القربين، ولا يثبتون في ميدان القتال، ولا يقدمون الضحايا، ولا يميلون إلى الزهد ولا ينصتون لـ(الويدا) إذا قرئت، ولا يزورون الأماكن المقدسة، ولا يدخله من يستخفون بالغسل، وبالصدقات، ومن يجحدون بالدين... ولا تدخل مدينة "إندرا" قبل مجاوزة هذه الغابة الساطعة، الربانية الغناء.⁽¹⁾

وقفت أمام مدينة (إندرا) ألوف المركبات الحية وفيها مجد (إندرا) بصوت الشعراء والغواني على حين كان النسيم ينشر أطيب رائحته وفيها استقبلت الآلهة والسعداء فرحين ذلك المحارب ذا

¹ - لويون، غوستاف: حضارات الهند، ص 459.

الذراعين المفتولين بسلام التبريك على صوت الموسيقى السماوية فسار على الطريق ذات الكواكب، وعلى درب الشمس ذوات الأنوار، محاطا بملائكة السماء، والأرض والهواء، وبصفوة البراهمة والملوك، فوصل مكرما.⁽¹⁾

ملاح أرجنا في رحلته إلى الجنة: لقد تحرر (أرجنا) من قيود الأرض، فصار بإمكانه أن يرحل إلى مملكة السماء بخطا سريعة، لقد حصل على الحرية والفرح والنسيم الشذي العطر.

- واستقبل هو المحارب ذو الذراعين المفتولين بسلام التبريك، ووصل مكرما إلى حضرة الأرباب.

- لقد كان بطلا متميزا في حياته الدنيا، وحرص على أن يتصف بكل الصفات النبيلة التي يحمدها له أهل السماء، لقد كان بطلا فاضلا في عمل الخير، ولذلك استحق أن يكون ممن يستقبل باحتفاء في الجنة الخاصة بأهل التوبة، وصفوة أهل الإيمان، ممن يسرعون إلى هذه المملكة فرحين، فقلوبهم متعلقة بهذا المكان منذ زمن بعيد، وهم موعودون به، فرحلة الصعود إليه مما يجلب المسرة، ويجعل الرحالة منبها بالنور، ساعيا إلى الوصول إلى مقامه النير، حيث هناك ينتخب لصحبته ملائكة السماء والأرض والهواء. أولئك الذين حرص في دنياه أن يكون شبيها بهم، ليصير رفيقا لهم.

3- ملاح الرحالة الملحمي الإغريقي:

أوديسيوس: قضى (أوديسيوس) عند الساحرة (سيرسة) في جزيرتها (إيايا)، عاما كاملا، وهو لا يشعر بمرور الوقت حتى ذكره رفاقه، فقام يستأذن مضيفته التي أشارت عليه بضرورة زيارة العالم الآخر قبل استئناف رحلته استشرافا لمستقبله.

¹ - السابق، ص 460.

الخوف: لقد وجل واستبد به خوف وفرق وحاول التملص من الفكرة، لأن مجرد التفكير في ذلك العالم لم يكن بالأمر الهين، فكيف لمن يسوق قدميه إلى هناك! كالساعي إلى حتفه بضلفه، ولكنه استجاب أخيرا واقتنع بأهمية هذه الزيارة بالنسبة لمستقبل رحلته، بيد أن الخوف لم يفارقه فبقي طيلة الوقت يحمل سيفه ويلوح به في وجه الأشباح الذين "أقبلوا يتدافعون نحو الوهدة صائحين صاخبين، قاذفين في قلوبنا الرعب... ورحت أنا أدود الأشباح الهائمة... بسيفي أضرب به ههنا وههنا".⁽¹⁾

الحزن: لم يكن (أوديسيوس) يعلم أن رفيقه (ألينور) قد لقي مصرعه، وهم يبرحون (إيايا)، لذلك فقد استبد به الجزع حين رآه هناك، "لمحت روح رفيقي فتصدعت، ثم ذرفت عبرات وعبرات"⁽²⁾

البر بالأم: "وفجأة لمحت بين أرواح الموتى شبح أمي! أمي المحبوبة (أنكليا) ابنة الشجاع (أوتوليكوس)، التي تركتها يوم يمت شطر طروادة قوية، غريضة الصبى ريانة الشباب، وما وقعت عيني عليها حتى أجهشت وأجهشت، ثم انهمرت من مقلتي أحر العبرات... ومع ما كان يعتلج به صدري من الأسى عليها، فقد ذدتها عن الدماء كذلك، وبني من الهم لتلك الفعلة ما أوهمني وأضواني...."⁽³⁾ وماكادت تفرغ من حديثها حتى أزفرت إليها أود لو ضمنتها إلى صدري بيد أني فشلت مرة وأخرى وثالثة، إذ كانت تتفتل في كل مرة من بين ذراعي كما يفتل الظل، أو كما يسري الحلم، ولم أطق على ذلك صبرا فقلت لها: لماذا تأبين علي عنائك يا أماه وقد نتداوى به مما بنا من شجون، ولو كنا هنا في مملكة بلوتو؟!⁽⁴⁾

¹ - هوميروس: الأوديسة، ص 107.

² - نفسه.

³ - السابق، ص 108.

⁴ - السابق، ص 110.

وربما زايله بعض الرعب عندما تحدث إلى (تريسياس) وعادت إليه نفسه وهو يحاور أصدقاء الماضي (أجامنون، إخيل...)

الفضول الأدبي: رغم ما كان فيه من ترقب وتوجس، إلا أنه لم يفوت الفرصة فاستدعى نساء الإغريق الشهيرات وراح يسألهن الواحدة تلو الأخرى عما حدث لها، وأصغى بانتباه شديد لحكاياتهن (تيرو، أنتيوب، ألكمينة (أم هرقل)، أبيكاست (أم أوديب)، فلوريس، ليدا، إيفيمديا، فيدرا، أريان، بروسيز، ميرا، كليمينيه، إريفيل)، وغيرهن كثيرات.⁽¹⁾

الشخصية الهدف: كان على (أوديسيوس) أن يستحضر روح الحكيم العراف الطيبي الضرير حتى يستعلم منه عن طريق الرحلة وكيفية تجنب بعض العقبات، والعجيب في هذه الرحلة أنها لم تشبه بقية رحلات الإغريق إلى أرض الموتى (أورفيوس، تيسيوس، هرقل) بينما رحلة (إنياس) قد شابقتها وكان الأولى للتقاليد الإغريقية أن تشابه بعضها.

ملاحق رفاق الرحلة: لم يكن (أوديسيوس) ينوي العودة إلى (إيايا) حين خرج منها نحو العالم الآخر لزيارة (تريسياس) ومعرفة منه بعض دلائل الطريق الصحيح نحو الوطن، خرج من (إيايا) ليواصل طريقه مباشرة إلى (إيتاكة) إن أحسن (تريسياس) إرشاده، لذلك فقد اصطحب معه جميع الرفاق المتبقين له، بيد أنهم لم يلجوا معه تلك الوهدة التي حفرها للقرابين، وبالتالي لم يكونوا رفقة له في هذه الرحلة، بل مكثوا على مقربة في انتظاره ولم يروا ما رأى ولا سمعوا شيئاً مما دار بينه وبين نزلاء ذلك العالم.

¹ - السابق، ص 111، 112.

4- ملامح الرحالة الملحمي الروماني:

شخصية الرحالة إنياس: (أرض الأشباح)

الشجاعة وسرعة المبادرة: حيث لم يخش الوحوش الرهيبة وسارع إليها إذ كان هناك في منطقة الجحيم أشكال من جميع أنواع الهولة الشريرة مثل (بريارو) ذي المائة يد وغيرها من الأشياء التي حينما رآها إنياس. أسرع إليها بسيفه ناويا قتلها. وكانت مرشدته حذرتة بأنها ليست إلا أشباحا.⁽¹⁾

السؤال والإستفسار عند العجب: استغرب إنياس من مرأى حشود من الناس وهم يتزاحمون على الشاطيء بينما الملاح شارون ينتخب بعضهم ويطرد بعضهم الآخر، فسأل رفيقته، فأجابته أنه نهر (ستيكس المقدس)، لذا يرفض الملاح نقل من أخطأهم طقوس الجنائز.⁽²⁾ وفي ذلك دلالة على أهمية إقامة شعائر الدفن للموتى مهما كانت أسباب موتهم أو مكانتهم الإجتماعية.

البر بوالديه: لقد ترجى إنياس العرافة (سبيل) كي تساعد في ولوج بوابة عالم الأرواح من أجل رؤية والده الذي كان قلبه يخفق شوقا إليه، هذا الأب الذي تمنى أن يزوره ولده كي يطلعه على بعض معالم العالم الآتي. وقد لامست العرافة هذا البر في إلحاح إنياس فقالت للملاح شارون مفندة جميع توقعاته السلبية بخصوص هدف الرحلة: "لكن إنياس الطروادي نزل إلى جهنم لكي يخاطب أباه. وإذا كنت لا تأبه لبر كهذا، فإنك ستتعرف على الرمز"⁽³⁾ ثم إنها أرته الغصن الذهبي الذي كان يحمله إنياس هدية للملكة.

¹ - فرجيل: الإنيادة، ص 134، 135.

² - السابق: ص 137.

³ - السابق ص 138.

الحزن والأسف: لما رأى ديدو ملكة قرطاجنة التي انتحرت بسبب رحيله عنها، انتحب، واجتهد أن يستوقفها ويسترضيها، ولكن قلبها كان قاسيا عليه، قساوة الصخر.

الصداقة وحسن الصحبة: لما التقى بأحد أشقاء زوجته (كروسا)، وهو ذيفوب بن برياموس جلس إليه وجاذبه أطراف الحديث طويلا، معزيا، ومسليا، متناسيا الوقت حتى نبهته رفيقته إلى ضرورة مواصلة الرحلة لقضاء شأنه منها.

الشخصية الهدف:

الأب أنخيس: كان هدف إنياس من رحلته هو لقاء أبيه الذي دعاه في أحد أحلامه إلى زيارته لينبئه بما يمكن أن يكون من أمره وأمر رفاقه في المستقبل القريب والبعيد.

كان إنياس يهدف من وراء زيارته للعالم السفلي لقاء أبيه الشيخ العراف (أنخيس) الذي وافته المنية في صقلية، قبل الإقامة في قرطاجة وقبل دخول الأرض الإيطالية.

لما كان أنخيس على قيد الحياة، طالما نفع ولده بحسن مشورته وتدبيره، وصدق نصائحه ووصاياه.

ولبت كذلك حتى وقد أخذته المنون إلى العالم الآخر، فصار يزور إنياس في أحلامه ونومه، ثم حدث وأن طلب منه الشخص إلى لقائه في ذلك العالم الموحش المليء بالأرواح والأشباح.

لبي إنياس نداء أبيه، وسعى إلى لقائه رغم بعد الشقة واستحالة الرحلة، ولكن نصيحته له بطلب المساعدة من (سبيل العرافة) جعل المهمة تتيسر والمصاعب تنوب. وكان (أنخيس) كما عهده ابنه، بارعا في رؤية ملامح المستقبل واستشرافه، وبارعا في الإقناع، والحجة، حتى يجعل من

مستمعه يحلق أملاً ورجاء، ويشعر أن المستقبل نول خيوطه بين يديه يحيكهما لحمة وسداة بوحى عينيه وقلبه كما شاء هو، ولكنه يعود فيقول: إن الأقدار لن تظهر للبشر إلا بمقدار.⁽¹⁾

لقد وفق إنياس في لقاء أبيه، وفي قطف ثمار رحلته إلى العالم الآخر حيث جاء بأمل عريض ورجاء كامل في مستقبله ومستقبل أمته ووطنه الجديد.

عدة الرحالة: لقد نصحت سيبيل الرحالة بأن يقطف غصنا ذهبيا من الغابة المتاخمة للمغارة التي فيها المنفذ نحو مساكن الموتى، هذا الغصن الذهبي الذي سرعان ما يتجدد فور قطفه، ولا يتأتى لأي كان إيجاده والإستيلاء عليه.

لقد وفق إنياس في الحصول عليه، ووافق على حمله هدية إلى مليكة العالم السفلي، فهو رمز جميل للهدية الثمينة اللطيفة، رغم كونه من الأبطال الأشداء إلا أنه كان خبيراً بأذواق النساء والملكات منهن على وجه الخصوص.

شخصية رفيق الرحلة:

1- شخصية سيبيل: على غير العادة كان للرحالة الأسطوري الملحمي في نص الإنيادة رفيقة (أنثى) وليس بطلا ذكرا كغيرها من الرحلات.

العرافة والتنبؤ: عندما تنهياً للعرافة يتغير منظرها، ويحول لونها، وينحل شعرها، ويخفق صدرها. وتضخم قامتها حتى تفوق قامات الرجال.⁽²⁾

ولقد انتدبها رفيقة له أبوه إنخيس لما دعاه إلى ضرورة زيارته في العالم السفلي.

¹ - السابق، ص 148.

² - السابق: ص 128.

ونجدها تقوم بمهمتها على أكمل وجه، تسخر طاقتها السحرية والتنبؤية لخدمة إنياس ورحلته، إذ كانت قائدة ورفيقة ومرشدة. وكثيرا ما كانت تتوب عنه في الإجابة عن الأسئلة والاستفسارات عن سبب مقدمه (أجابت شارون).

الخبرة: لقد سبق لها وأن زارت العالم السفلي وزارت جناح المعذبين فهي أدرى بدروبه وساكنيه.

حسن التدبير: أشارت على إنياس بضرورة حمل هدية جميلة ثمينة لمليكة العالم السفلي (الغنص الذهبي).

2- شخصية الملاح شارون: لم يكن رفيقا لإنياس و(سيبيل) ولكنه كان نعم المعين لهما عندما ساعدهما على اجتياز نهر الجحيم (ستيكس)، فمن دونه ما كان لهما أن يبلغا الضفة الأخرى من النهر فهو المخول الوحيد حسب الأساطير الرومانية (الإغريقية) باجتياز هذا الفضاء من المستحيل. إنه شديد وقاس وصارم جدا لا يغفل عن مهمته (وظيفته) ولا يمكن الإستهانة بشخصيته الحديدية. ولقد كانت "له لحية طويلة بيضاء شعناء وقد ثبت ناظريه بتحديق متقد، وعقد على كتفيه شال كما هي عادة الملاحين، وهو كهل عجوز، ولكنه صحيح الجسم مورد الوجه".⁽¹⁾

ملاح الآخر في الرحلة الملحمية:

- لا تظهر ملاح الآخر في الرحلة (الجلجامشية) الأولى، بينما في الرحلة الثانية (إلى جده) يلتقي بالرجل العقرب، والفتاة الساقية (سيدوري) والملاح (أورشنابي)، والجد (أوتنابشتيم)، وزوجته. وقد لا يبدو وصفهم تاما (نظرا لتشوه الألواح)، ولكن أصواتهم واضحة جدا، بحيث تحدث صدى عميقا في نفس الرحالة.

¹ - السابق، ص 135.

- في (المهابهاراتا) يبدو الآخر أكثر ودا وسلاما من أبناء العم المجاهرين بالعداء.
- يلتقي (راما) في الغابة أشكالا كثيرة من الناس المسالمين الباحثين عن ظل الأمان، وغيرهم من الأشرار (العفاريت والشياطين) الزارعين للألغام فيضطر إلى إعلان الحرب المدمرة.
- يلتقي (رستم) بالملك (أولاذ) فيتعاركان لحظة، ثم يتحالفان حتى يحقق كل منهما هدفه من هذه الصعبة.
- في الأوديسة نرى أهل (إسماروس) وهم يقتصّون من (أوديسيوس) ورفاقه، ونلقى (أبول) الذي يرحب بهم ثم يطردهم، ونجد (السيكلوب) الذي يجعلهم عشاء يلتهمه دون حاجة إلى خوان، و(ناوسيكاً) وأبيها الملك وأمها وهم يفتحون جميع بوابات قصور (سخيرية) لاستضافته.
- ونرى في الأرجو نساء (لمنوس) وهن يحتلن على (جاسون) ورفاقه لحراثة الأرض، وجمع المحاصيل حتى نبه هرقل الغافلين.
- يسعى (إنياس) بين الآخر ذي الوجه العابس (تراقيا)، وبين الآخر الودود، أهل صقلية، وقرطاجنة... فيفر من بعضهم، ليحتمي بالبعض الآخر في انتظار الوصول إلى المكان المنشود.
- والآخر في الرحلة الملحمية هو إنسان سوي، جميل (ديدو/ ناوسيكاً/...) أو هو مسخ بشع (السيكلوب...) يناور من أجل القضاء على الرحلة والرحالة، ولكن البطل يتمكن من إزاحته عن طريقه.

ملاحظات واستنتاجات الفصل الأول: لم يشر أرسطو إلى الشخصية الملحمية، ولا إلى الشخصية الأسطورية، ولكنّه يقول: "الملحمة قد سايرت المأساة بوصفها محاكاة بواسطة الوزن - للأفاضل

من الناس".⁽¹⁾ وهكذا تكون الشخصية الملحمية شبيهة بالشخصية التراجيدية، وتكون الشخصية الأسطورية شبيهة بها أيضا، وإن كانت هي أصل التشبيه أو وجه الشبه لأن الشخصية التراجيدية (البطل التراجيدي) ذات أصول أسطورية دائما بدليل تلك النماذج محل التمثيل والإستشهاد الأرسطي (أوريست/ أوديب/ أنتيغون/ إكترا).

لم يثبت عن الشخصية الأسطورية أو الملحمية الرحالة أنها قد امتازت بسمة أساسية سلبية، بل قد لاحظنا مدى اهتمام شعراء الأسطورة وشعراء الملحمة، بالبطل الرحالة وكيف كانوا حريصين على أن يكون نموذجا مثاليا للرحالة الذي يجب أن يتفوق على جميع المحيطين به، بسمات أساسية متميزة بالإيجابية، رغم نقائصه التي تفرضها طبيعته البشرية، والتي يحرص الشاعر على إظهارها عن طريق هذه السلبيات الهينة التي تجعل المتلقي يتماهى مع بطله العظيم الذي يوشك أن يشبهه في هذه السمة أو تلك، وفي هذه التقاسيم أو تلك. إننا نراه ومنذ الوهلة الأولى كامل الأوصاف:

أولا: الملامح والسمات النفسية:

1- البطولة والشجاعة: كل رحالة هو بطل قومه، إمتاز بالإقدام، والجسارة، فالرحلة مغامرة خطيرة جدا، يقوم بها بجسارة وتفوق.

2- الإيمان بالخالق: كل رحالة مؤمن بأن هناك قوة عظيمة تسيّره وتسير كل الموجودات من حوله، وإن الإستعانة بهذه القوة الجبارة هو عين الصواب والواجب، فكان الدعاء ديدنه، والصبر على الشدائد والمكاره، والتسليم بالقضاء والقدر.

¹ - أرسطو طاليس: فن الشعر، ص 17.

3- السمعة والصيت: سواء تحدث عن نفسه، أو تحدث عنه الآخرون، كان ذائع الصيت حسن السمعة.

4- الذكاء: كل رحالة لبيب، سريع البديهة والفهم، شديد التركيز، دقيق التفكير، كل خطوة يقوم بها مدروسة جيدا، حسن المشورة والتدبير.

5- الإبداع: كل رحالة هو مهندس الرحلة واقعا وإبداعا، إذ يظهر في نص الأسطورة كما في نص الملحمة أيضا أن الرحالة يقص على الآخرين بعض أخبار رحلته وأهم مساراتها، بطريقة مشوقة فيها قدر من العلم وقدر من الترفيه.

ثانيا: الملاحم والسمات الجسدية: يبدو أنه ليس هناك عناية بالغة بالجانب الوصفي المادي لأبطال الرحلات، إذ لا تهتم النصوص بالوصف المباشر للرحالة، وهكذا "يجب ملاحظة أن مؤلف الرحلات الخيالية لا يعطي وصف تفصيليا للمظهر الطبيعي للرحالة، وإنما تظهر لنا صورهم من خلال أحاديثهم وتفاعلهم مع الأحداث التي تقع لهم"⁽¹⁾ ولكن هذا لم يمنعنا من الوقوف عن كثب على أهم تلك الملاحم التي تجعلنا نلاحظ:

1. القوة: للرحالة بنية جسدية تمتاز بالقوة والنشاط الدؤوب والحركة، فهو قادر على حمل السلاح والدفاع عن نفسه ورفاقه، والقيام بأعمال تستلزم طاقة بدنية هائلة مثل التجديف، والصيد، وصناعة بعض الأغراض.

2. الفتوة: يقوم الرحالة بإنجاز رحلته في مرحلة الشباب والرجولة، وهو في كامل عنفوانه وعطائه بالعمل والمشورة.

3. الوسامة: البطل رجل ذو ملاحه، وجميل المحيا، تظهر وجاهته في حسن السمات والطلعة.

¹ - السيد، صلاح: الأوديسية، ص 193.

إن الرحالة الأسطوري، والملحمي، هو بطل مغامرات، لذلك نجده يجنح إلى أفعال يغامر فيها للوصول إلى الهدف، كما نجده أحياناً يواجه بكل جرأة وشجاعة ما يعترضه من عقبات:

أ. الرحالة يتنكر: يضطر بعض الرحالة إلى التنكر/ الاختفاء/ التمويه:

- (أوديسيوس) يختفي تحت ضبابية، ويتنكر في ثياب شحاذ أو متسول.
- (الإسكندر) يتنكر في ثياب ووظيفة رسول الملك.
- (إنياس) يختفي تحت سحابة.
- الإخوة الخمسة ورفيقتهم (دروبيدي) يتنكرون في ثياب ووظائف أخرى مدة سنة في قصر (فيراتا).
- (إيزيس) تنكرت في رحلة البحث عن التابوت في قصر (بيلوس، جبيل) في ثوب ماشطة/مرضع.

ب. الرحالة يواجه:

- واجهت بيسيثة حماتها بشخصيتها مباشرة.

- يشهر رستم شخصيته لجميع أعدائه.

الرحالة وقرار الرحلة: يقرر البطل الأسطوري/ الملحمي، القيام بالرحلة تحت طائل قوي، وعنيف يهز نفسه من أعماقها ويدفعه إلى اتخاذ قرار السفر والمغادرة من أجل تحقيق ما كان ينقصه. إن دافعا ما يجبر الرحالة على اتخاذ قرار الرحلة دون سواء، فالرحالة يختار عن قناعة هذا البديل، وبقدر ما يكون هناك جبر؛ يكون ما يعادله من رضى واختيار فتتطلق الرحلة مشبعة بالطمأنينة والتفاؤل.

عائلة الرحالة: تظهر عائلة الرحالة، في كل رحلة أسطورية/ ملحمية في أسماء بعض أفرادها، وفي موقعهم من حياة الرحالة، ومن مجتمعهم.

الأم: كانت الأم تظهر بصورة واضحة ومبجلة، تظهر كامرأة صالحة وجميلة، قلب مفعم بالحب وعينان تشعان بالنور، وكانت مصدر فخر واعتزاز للرحالة، ومصدر طاقة وقوة.

الأب: رجل جميل ونبييل دائما، يحمل محبة كبيرة لطفله الرحالة، داعما للرحلة.

شكل (2): جدول يلخص أهم الشخصيات المقربة من الرحالة.

الرحالة	أمه	أبوه	غيرهما
جلجامش	الربة ننسون	نرجال بندا	صديقه إنكيديو
إيزيس	نوت	جب	زوجها: أوزوريس، ابنها حورس.
الإخوة الخمسة	كونتي: رافقتهم في رحلة الفرار.	باندو الشاحب	الأم مدري
راما	كوشاليا.	دازاراثا (داشارات)	إخوته: لاکشمان، بهاراتا، شاتروجان.
رستم	روذابة بنت سهراب، ودع أمه قبل المسير إلى مازندران.	زال: استمع إلى نصائح أبيه.	
أوديسيوس	أنتيكلييا: خلفها في إيتاكة ووجدتها في العالم الأسفل.	ليرت (ليرتيس): أحد أبطال الأرجو.	مرضعته: زوجته بنيلوب.

ابنه: تليماك.			
زوجته ميديا.	أيسون	ألكميدي: ودعها قبل المسير في رحلة الذهاب.	جاسون/ ياسون/ ديوميديس
زوجته كروسا. ابنه اسكانيوس (أيول).	أنخيسيس: رافقه في معظم طريق الرحلة.	فينوس: إحدى ربات الأولمب.	إينياس
زوجته روكسانا (روشنك) ابنة دارا.	فيليب: يموت قبل توليته العرش ورحيله نحو أبواب الدنيا.	أولمبياس كان يرسلها وقبل موته أرسل بوصيته إليها، ويعزيها في نفسه.	الإسكندر الأكبر
	ميركوري: رسول الأولمب.	كارمنتا: رافقته في رحلته.	إيفاندر
زوجته: ديانيرا	زيوس	ألكميني	هرقل

إن موتيف شخصية الرحالة الضائع، العائد بعد مغامرات وصعوبات، وفترة طويلة هو موتيف قديم تناولته معظم الحضارات في إبداعاتها الأسطورية، قد يعود إلى نص (الملاح التائه) المصري القديم، وحتى جلامش كان يخشى أن يضيع لأنه يجهل الدروب المؤدية إلى غابة الوحش، لذلك راح يؤمن للرحلة رفيقا خبيراً.

هناك تكثيف كبير في استعمال الشخصيات في النص الملحمي، ولكن البطولة تظهر تميز شخصية الرحالة وتفوقه، ليس بالأخلاق (أوصاف الشخصية) فقط، بل بالحدث أيضاً، فحتى المبالغات (الخوارق) التي تبدو كأنها محسنات بديعية (من خصائص الملحمة) إلا أنها ميزات جوهرية في البطولة الملحمية، وفي الصناعة الفنية للبطل ورفاقه، وللمتلقي على السواء.

الشخصيات الثانوية قليلة جدا، وفاعلة جدا، حتى في النص الملحمي الرحلي الذي يزخر بكثرة شخصياته بشكل معجز أحيانا، ولكن إذا استخلصنا مسار الرحلة بالتأمل والدراسة وجدناه على العكس من ذلك تماما، حتى وإن كان رفاق الرحلة خمسين أو يزيدون، إذ يبقى البطل الرحالة يتصدر الواجهة وتظهر حوله بعض الشخصيات من الرفاق أو الأعداء لتؤدي دورا مهما في حياة الرحلة والرحالة، ثم تتراجع. "وقد صوّر الأبطال في الملحمة من خلال أعمالهم وسلوكهم أكثر مما صوّروا من خلال عوالمهم الداخلية."⁽¹⁾

الرحالة الأنثى: إيزيس/ بيسيثة/ ميديا/ إنانا: في أساطير الخلق ونشوء الكون نجد المعبودات القديمة تتناسل وتتكاثر وتملأ العالم بذراري الحكم في كل شيء من المخلوقات والموجودات، ويكون لإسم الأنثى نصيب في هذه الأجواء، ولا ينقطع هذا إذا جئنا إلى العوالم البطولية، فنرى صورتها تشترك في كثير من الأمور:

- سواء أكانت (إلهة) مثل (إيزيس) عند فراعنة مصر.
 - أو كانت كنة (فينوس) في أساطير الروم.
 - أو امرأة ساحرة في أساطير الإغريق.
- فهي رحالة تشد حزامها وتتطلق خلف هدفها (الزوج) سواء:
- كان ميتا: إيزيس (أوزوريس).
 - كان عازما على الإختفاء من حياتها: بيسيثة (كيوبيد).
 - كان غريبا من بلاد بعيدة، فتبيع أهلها من أجله: ميديا (جاسون).
 - قتيلا تنزل إلى العالم السفلي لإسترداده: عشتار (أدونيس).

¹ - حاتم، عماد: مدخل إلى تاريخ الآداب الأوروبية، الدار العربية للكتاب، بيروت، ط2/ 1984، ص 66.

أو تشد الرجال من أجل مدينتها (إنانا)، أو ابنها (أم إيفاندر)، أو ابنتها (أم أوروبا).

فالأساطير لم تعف المرأة من الرحلة بل أقحمتها فيها، لتروج لقدرتها وطاقتها على التحمل والتكيف مع الظروف الجديدة المختلفة عن مخادع الحريم وأسوار القصور وحدائقها، لقد نظرت الأساطير ومنذ عهود سحيقة جدا إلى الإنسان بشكل إيجابي سواء أكان ذكرا أم أنثى، ولم تفصل الأنثى عن مهامها الإنسانية لتفترض ضعفها البدني في شكلها الفيزيائي أو سذاجتها العقلية في بنائها الفكري والروحي، بل إن الأسطورة قد وظفت الرحالة المرأة على أنها إنسان كامل، والقارئ (المتلقي) هو الذي ينفذ إلى ضعفها بصفاتها أنثى، فيلتبس في شخصيتها التفوق في مقابل التوقع السلبي بالضعف والليونة والهشاشة.

إنها أقوى من ظل الرجل الذي تعدو خلفه فتصنع بخطاها رحلة أسطورية وملحمية خالدة، فايزيس وحيدة كانت تركض خلف تابوت (أوزوريس)، و(بسيشة) وحيدة تثب من مغامرة إلى مغامرة في رحلة مفتوحة بين الأرض وجوفها من أجل أن يتراجع زوجها عن قراره فيعودان إلى عش الزوجية، و(ميديا) راحت ترافق (جاسون) في خط رحلة الأوبة إلى دياره وهي تودع خلف ظهرها ديارها ومملكتها، وصار دورها في الأرجو أثمن من دوره.

تقول الأسطورة عن (إيزيس وبسيشة وميديا وإنانا) إنهن فانتات يفقن بجمالهن كل ذوات حسن ودلال، وأنهن ملكات وأميرات وريات، فلا يقف في حضرتهم إلا من ظن بنفسه الظنون، وهكذا لم تمنح ولم تنتخب الأساطير لرحلتها رحالة أنثى إلا من جمع يسمو ويتفوق في ركنه الاجتماعي، ولكننا في المقابل نظن فيه العجز عن القيام برحلة كلها عناء وشقاء ونصب حدّ الإستحالة، ولكنهن ينبرين لها بعزم واجتهاد. وقد نلاحظ في مسار الرحلة بواذر العجز والتعب واليأس، لكننا نصل معهن إلى نهاية كاملة ناجحة، يحقق بها الآخرون الإنتصار قبلهن:

- (أوزوريس) ترتاح روحه وهي الملكة على الأموات.
- و(جاسون) يستولي على الجزة الذهبية ويستعيد المملكة.
- و(كيوبيد) يفك الأغلال والقيود التي فرضتها عليه أمه.
- والأب (إنكي) يبارك انتقال حضارة مدينته (إيريدو) إلى مدينة أخرى (أوروك).

الرحالة يؤسس أسرة أثناء الرحلة: قد لا يظهر للمرأة حضور في حياة الرحالة الأسطوري/ الملحمي إذ لم يخرج الرحالة بحثاً عن امرأة بشكل كثيف أو محوريّ، فكان حضورها حضوراً طيفياً يشبه الظل، ولكنه وارد على كلّ حال، ويسهم في بناء الأسرة.

- (الإسكندر) يتزوج ابنة (دارا) الفارسية.
- (أوديسيوس) يتزوج (سيرسة) وينجب منها أطفالاً ثلاثة.
- (إنياس) يتزوج (ديدو) ثم (لافينيا).
- (هرقل) يتزوج (ديانيرا).
- (تيسيوس) يتزوج ابنة قاطع الطريق السفاح (سينيس)، وينجب (مينالبيوس).
- (بريسيوس) يتزوج (أندروميذا) ويعود بها إلى الوطن.
- (ياسون) يتزوج (ميديا)، ويعود بها إلى الوطن.
- (بليريفون) يتزوج ويستقر.
- (إيجيوس) يتزوج (أيثرا) التي تنجب له الرحالة (تيسيوس).
- (قدموس) يتزوج ابنة (أفروديت) و(مارس).

الرحالة والمكان: الرحالة موزع الحواس بين ما هو مجتمع، وحضارة، ومدينة، وبين ما هو أفق مفتوح: طبيعة وبراري، وقد يتوزع شعوره بالحرية والحصار وفق علاقته بالمكان، فجلبامش يتحدث بحرارة وهو يصف أسوار (أوروك) وأوديسيوس يترك الخلود في (أوجيجيا) عائداً إلى (بينيلوب) رغم أن النول الجديد سيكون من حظه من دون شك، وسينجز بطريقة أسرع. والإسكندر رغم الأمصار التي فتح، والمدائن التي بنى، إلا أنه عاش خارج القلاع والقصور والدور، ولأن النص الرحلي ضمن إطار ميثولوجي عام فإن ظهور (إقامة/ زيارة/ بناء) المعابد جزء لا يتجزأ من مجمل الفضاءات الرحلية، فكل رحالة إلا وكان مرتبطاً وجدانياً ومكاناً بفضاء العبادة.

الفصل الثاني

الفضاء في الرحلة الأسطورية والرحلة الملحمية.

المبحث الأول: الفضاء في الرحلة الأسطورية.

المبحث الثاني: الفضاء في الرحلة الملحمية.

المبحث الثالث: إتجاه الرحلة الأسطورية.

المبحث الرابع: إتجاه الرحلة الملحمية.

الفصل الثاني: الفضاء في الرحلة الأسطورية والرحلة الملحمية.

المبحث الأول: الفضاء في الرحلة الأسطورية.

صحيح أن حجم جسم الإنسان صغير جدا مقارنة بحجم العالم، ولكنه لم ينظر أبدا إلى نفسه من هذه الزاوية، فلم يشعر إطلاقا بضآلة بدنه أمام الكون وبقية الأشياء، ولم يعتقد وهو يعيش في بيئة ما أنها كل عالمه، ووجوده وحياته، بل تقطن على عجل وبسرعة، إلى اتساع الآفاق والمدى، فوسع من نظرتهم ورؤاه، وجرى منطلقا باحثا ومستكشفا ما وراء حدود بصره. من عالم الماء رحل صوب البيداء، ومن تضاريس البر ساح نحو لجج البحر، لم تعوزه روح الشجاعة ولا يد الحيلة ولا الوسيلة.

1- الفضاء الأخضر:

1- الفضاء الأخضر في الرحلة الأسطورية البابلية:

رحلة عودة (إنانا): تقول (إنانا): "أنا ملكة السماوات سوف أزور إله الحكمة،/ سوف أمضي إلى الأبسو، الحرم المقدس لإريدو/ ... وأتلو صلاة عند أعماق الماء العذب"⁽¹⁾

فرغم أن كل النواميس عند ساكن (الآبسو) إلا أن رمز المياه العذبة يحيل إلى الحياة التي يمنحها الماء العذب عن طريق الفلاحة والزراعة. ثم إن كل مصدر للحضارة هو الماء والغذاء الذي ينتجه الأخضر، وإن مياه الأعماق لابد أن تطفو إلى السطح لتخرج كنوز الأرض، فالرحلة عمودية

¹ - السواح، فراس: مدخل إلى نصوص الشرق القديم، منشورات دار علاء الدين، دمشق، ط1/ 2006، ص 222.

في ذهابها من أعلى إلى أسفل. وإن استعمال قارب السماء يعني أن رحلة العودة عمودية أيضا من الأعماق إلى السماء، تماما مثلما يحدث في الطبيعة من نماء، ولكنه مهما علا فهو لصيق بالأرض.

تزور (إنانا) الأب (إنكي) في (الآبسو) مستعملة قارب السماء، فلا يظهر أثر لوصف جوانب الطريق ولا محطات الرحلة الخضراء، ففي الحين الذي كانت فيه (إيريدو) متمتعة بالخضرة والنماء بفضل نواميس الزراعة والبذر والحصاد وتربية الحيوان، فإن (أوروك) لم تكن كذلك، و(إنكي) كان في أعماق (الآبسو) يحتفظ بكل النواميس المقدسة، لهذا اضطرت (إنانا) إلى سلبها منه، إذ لم تظهر القرى الزراعية في وادي الرافدين الجنوبي إلا في وقت متأخر نسبيا من العصر الحجري الحديث الذي شهد انتشار أولى القرى الزراعية في تاريخ البشرية عبر محيط الهلال السوري الخصيب. ففيما بين أواخر الألف السادس ومطلع الألف الخامس قبل الميلاد بدأت المستوطنات الزراعية بالظهور في وادي الرافدين الجنوبي⁽¹⁾ حيث (سومر - العبيدية) وإيريدو (مدينة إنكي الأسطورة)، سوف تقدم عددا من الابتكارات المهمة في مجال الري والفلاحة، ومن المرجح أن يكون المحراث والدولاب قد ابتكرا خلال هذه المرحلة.

وهكذا تكون رحلة (إنانا) نحو (الآبسو) لتعود بالأخضر وبالنواميس التي تستطيع بها إخراج هذه الخضرة من جوف الأرض الجافة، ويكون الأخضر في (إيريدو) هو الدافع لأن تنزل (إنانا) إلى (الآبسو) وتحتال على (إنكي) المحتكر للحياة الخضراء: "إذ قالت ننشوبور لإنانا:

أي مليكتي عندما يصل زورق السماء

عندما يدخل أوروك من بوابة نيجولا

¹ - السابق، ص 228، 229.

دعي الماء يرتفع وينداح في مدينتنا

ولتمخر المراكب البعيدة المدى بخفة قنواتنا

فأجابت إنانا ننشوبور:

في اليوم الذي يصل زورق السماء

ويدخل أوروك من بوابة نيجولا

ليرتفع الماء وينداح في شوارعنا

ليرتفع الماء ويسري في الممرات

ليخرج الأطفال فرحين مغنين

ولتحتفل كل أوروك⁽¹⁾

لقد كان (إنكي) الأب يحتكر النواميس المقدسة كلها، وبالتالي نواميس الطاقة الخضراء التي هي أصل كل الطاقات الأخرى، وأفلحت في أن تخرج الكنز من الأعماق، وتجعله حراً مباحاً يكلل وجه كل الأرض الرافيدينية.

وإذا ركزنا على دلائل الإنفتاح والإنغلاق لبدا لنا تتقل الرحلة بين الفضائين المفتوح والمغلق، ولكن قد يصدمنا تحول الفضاء المغلق إلى مفتوح، فالأبسو يخرج ما في أعماقه إلى البشرية، كما يتحول المسار السماوي الذي لا حدود له إلى مكان ضيق مغلق بسبب نشوب معارك متقطعة بين الخصمين، إذ يتحول إلى ميدان حرب من أجل استرجاع النواميس.

¹ - السابق، ص 297.

2- الفضاء الأخضر في الرحلة الأسطورية المصرية القديمة:

أ- رحلة إيزيس: انطلقت (إيزيس) الأم، الزوجة، الملكة، من (طيبة) في أقصى الجنوب، وهي منطقة على ضفة النيل؛ النهر الحياة لمصر كلها، وسارت عبر المجرى المتدفق أبدا نحو الشمال، وكانت الخصرة تسير مع ذيل ثوبها المطرز بالزهور والسنابل، ثوب الفلاحات الذي تدثرت به متتكرة، كانت الخصرة تقفو أثر إيزيس وتتبعها في خفر وحياء، حتى الدلتا وحتى مدينة (ببيلوس) حيث نمت شجرة الأثل العجيبة التي احتضنت رمس (أوزوريس) السابح، وعانقته في دعة، وغطته بأفنانها الخضراء الطرية، التي ظهرت بين عشية وضحاها، وكانت الخصرة تغطي جزيرة (أخبيت) التي تركت في عهدتها ابنها الرضيع (حوريس) والتي قامت ببتز جذورها حتى تتحرك وتسير وتختفي عن الأنظار، فيكون طفلها بمنأى عن الأخطار. وكان الأخضر يحاول أن يحجب تابوت (أوزير) وخطى (إيزيس)، ومهد (حوريس) عن عيني (ست)، وعيونه الشريرة التي راحت تصطاد هنا وهناك لتزرع الظلام.

كان الفضاء الأخضر رحبا جدا في رحلة إيزيس ذهابا وإيابا، لا يمثل حقول القمح والمزروعات فقط، بل كان كل مظاهر النمو والنماء، ولكن صدر إيزيس كان ضيقا ومنقبضا لأن نفسها حدثتها بما فعل (ست) الحقوق بزوجها الجميل، فبقدر ما كان الأخضر مكانا للحياة (مهد/ حورس) كان مكانا للموت (تابوت/ ست/ جثة/ قبور كثيرة...)، وهكذا ينطبق الفضاء المفتوح، ويشد في تكثيف المشاعر إزاءه.

3- الفضاء الأخضر في الرحلة الأسطورية الفارسية:

رحلة الإسكندر الأكبر: تتفنن الأساطير الفارسية في وصف البلاد التي يصول ويجول فيها الرحالة، سواء تلك الأساطير التي ولجت عالم الملاحم (الشاهنامات)، أو ظلت تتداولها بعض المصادر

والمراجع بمتون متقاربة ومنبثة غير ذات لحمة بالنص الجامع، وقد صال وجال الإسكندر الأكبر في أرض العالم القديم وأخضعه للوائه (الأخضر) ولم تكن تهمه في ذلك خضرة أو زرقاة أو صفرة، كان الإسكندر ممن يعشقون التجوال والنظر في بلاد الله الواسعة، ودامت رحلته سنين عديدة عاين فيها الفصول الأربعة في الجهات الأربع من الأرض، فوقف على الربيع وهو يوزع نسائمه واخضراره على السهول والجبال. ويبث الطاقة والحياة، والرحالة يقتفي أثر الأجواء التي تساعد رحلته فتوفر لها المؤنة الغزيرة لتدفع بها قدما وفي أسرع وقت وهكذا يكون اللون الأخضر هو محط أنظار الرحالة يسعى خلفه ويتحرى اتجاهاته، وقد كان معه معلموه وعيونه التي ترصده له، وقد زادت مساحاته الشاسعة من رحابة صدر الرحالة، ومن تفتح آماله وطموحاته.

4- الفضاء الأخضر في الرحلة الأسطورية الإغريقية:

أ- في رحلات هرقل: يعتبر المكان عنصر بناء داخل النص، طورا يفصح عن واقعياته حين تبرز من خلاله معالم السلطة المرجعية، وطورا آخر يعلن عن متخيله حين يصير سمة التباين بين عالمي الشعر والواقع، وهذا ما يتجلى في رحلات هرقل الأسطورية.

الرحلة الأولى: من (موكيناى) إلى (كليوناى) الواقعة بين (كورنثة) و(أرجوس)، إلى (نيميا) قطع المسافة من الصباح حتى الظهيرة راجلا.

الرحلة الثانية: على بضعة أميال من (أرجوس) (مستقع ليرنا في البيلوبونيز).

الرحلة الثالثة: ظل عاما كاملا يتجول من أقصى بلاد الإغريق إلى أدناها. مترصدا الأيلة (كيرونا) بين الأدغال والغابات، والأحراش، والجبال، والوديان.

الرحلة الرابعة: على جبل أرمانوش، وجبل (لاميا) في (أركاديا) ومنطقة (باسوفيس).

الرحلة الخامسة: مملكة إليس بالبر اليوناني (شبه جزيرة البيلوبونيز) الشهيرة بالخضرة، والبساط المزدان بالحياة.

الرحلة السادسة: مستنقع (ستومفالوس) كانت مياهه ضحلة، وأرضه رطبة، أعاقَت حركة هرقل، ولكنها مكان خصب كثيف الأشجار.

لقد قام البطل هرقل بمجموعة من الرحلات الهامة، كان بعضها يصطلح عليه بالأعمال الخارقة الإثني عشر، والمجموعة الثانية عرفت بالأعمال الرئيسية، والثالثة سميت بالثانوية،⁽¹⁾ ولكن جميع هذه البطولات تتم عبر رحلة إلى أمكنة بعيدة جدا في الأغلب، يضطر فيها إلى القيام بأعمال فرعية، أو ثانوية، بعض هذه الأمكنة معروفة من خلال أسمائها المتداولة إلى يومنا هذا (كريت، تساليا، تراقيا، البحر الأسود، البحر المتوسط، ليبيا، مصر، أعمدة هرقل، إسبانيا...) ولو حاولنا رسم خريطة لجولات هرقل ورحلاته لاكتشفنا أنه قد مرّ بكل جغرافية العالم القديم، بل أنه خرج إلى المحيط الأطلسي، وقد أشارت أساطيره إلى مميزات هذه الأمكنة (حرارة، برودة، أنهار جارية، بحار، محيط، مستنقعات، مدن، قصور، أجمات، غابات/ حيوانات مختلفة، مخلوقات متعددة، الناس الطيبون، الأشرار، ممالك النساء وممالك الرجال...)، وهناك أمكنة مكث فيها طويلا (سنة)، وأخرى كان فيها أسرع.

كان كل مكان يفرض نوع العمل وضرب المغامرة، وشكل المهمة، كل مكان يختلف عن الآخر بشكل واضح وجذري، ولكنه لم يفرض على الرحالة التراجع، أو الاستسلام، أو الهزيمة.

معظم الأمكنة تحمل مفهوم الوحش/ المسخ/ الحيوان الخارق/ المكسب الثمين (حزام هيوليت والتفاحات الذهبيات).

¹ - شعراوي، عبد المعطي: أساطير إغريقية، ج1، ص 405.

كل الأمكنة تحمل معنى المستحيل، حتى بالنسبة لبطل أسطوري من وزن هرقل، ولكنه يلغي بإصراره وصموده وتحديه وقوته وذكائه ذلك المعنى ويحيله إلى الممكن.

شخصية البطل تحمل النقيض لكل الأمكنة التي رحل إليها أو مر بها في طريقه، إنها العتمة والظلام والخوف والكثرة والظلم والإجحاف... فينشر بها الضياء والسلام والأمان هو الوحيد بهراوته وسهامه التي لا تطيش.

بعض الأمكنة في رحلات هرقل هي فضاءات للحياة فيها نماء وخضرة وأزهار، ومن شيم البطل أن يحافظ على المكان الحي الجميل فلا يعيث فيه فسادا.

- وبعض هذه الفضاءات تضيق على البطل حتى توشك أن تورده موارد الهلاك، ولكنه يستطيع بقوته الجبارة مصارعة الموت المتجلي فيها، فيهزمه ويحيلها فضاء للحياة والإستمرار له وللرحالة وللعابرين.

- وقد مر هرقل بالأنواع الثلاثة من المكان، بالأزرق العريض والعميق، والأخضر المنبسط والشاهق، وبالأسود البارد، حيث الأرواح الوجلة.

ب- في رحلة بيليريفون على الرغم من كثرة المصادر التي تتحدث عن قصته إلا أنها قصيرة جدا مقارنة بغيرها، إذ حكى بعض شعراء اليونان المبكرون حدثين تراجيديين من أحداثها، وتحدث هيزيود عن المسخ البشع (خيمايرا) الذي ذبحه بيليريفون، ووردت نهايته المحزنة في الإلياذة وتحدث عنه أيضا بندار (ق.5. ق م): أبوه (جلوكوس)، وجدته (سيزيف) أشهر شخصية أسطورية في ميثولوجيا الإغريق، سليل ملوك (كورنثا) أشهر المدائن الإغريقية الأسطورية، التي اضطر إلى الهرب منها فرارا بروحه إذ اتهم بقتل أخيه، وفي (تيرينس) التي أوام ملكها اتهم بالخيانة فاضطر ملكها إلى إرساله إلى (أيوباتس) ملك (لوكيا) ليقضي عليه، فأرسله إلى العديد من الأمكنة الخطيرة

جدا، التي تورط مرتاديه هلاكهم بسرعة، بيد أنه استطاع أن يقهر هذه الأمكنة، وأن يعود منها منتصرا، مثبتا قوته، وبطولة الرجال الذين لا يرتكبون المعاصي والجرائم، لقد قدم بسلسلة الرحلات التي قام بها دليلا أبيض على براءته، وأنه مجرد ضحية لسوء التقدير وسوء الظن.⁽¹⁾

ومما يستخلص من رحلته في الأخضر:

- بحث طويلا في جبل هيليكون عن الحصان المجنح (بيجاسوس) ولم يعثر عليه.
- اتجه إلى جبل (بيرين) حيث وجده هناك فروضه، بمساعدة أثينا.
- ومن هناك توجه إلى حيث تقيم المسخ (الخيمايرا)، فأهلكها بقوة الذكاء.
- واتجه إلى حرب (السوليميين) المقاتلين المتمرسين وحلفائهم الأمازون الأشداء.
- في سهل (كاسانثوس) قهر القراصنة وسيدهم المتبجح.
- أثناء عودته إلى (لوكيا) هاجمه جيشها، فقاتلهم جميعا.
- وحتى وهو بين جدران بيته، جاءه من يقتله غيلة، فقام فصلى فدعا بأن تقترب أمواج البحر نحو البيوت والقصور حتى تثبت براءته، فأجاب الموج دعوته، واقترب يزور أهالي "لوكيا" في منازلهم.
- إن كل الأمكنة التي دفع إليها الرحالة لم يكن من السهل ارتيادها بالنسبة لغيره. إنها تعادل النهاية المحتومة بيد أن (بليريفون) شد الرحال إليها وواجهها بشجاعة، وبأمل افتكاك الشهادة بالبراءة، وإعادة الاعتبار لشخصه الطيب.

¹ - معدي، الحسيني الحسيني: أساطير الأبطال، ص 73، 74، 75، 76.

- كان يطوح به بعيدا جدا، إلى أمكنة قصية وخطيرة، لا يمكن الوصول إليها أبدا ولا يمكن العودة منها إطلاقا، ولكنه فعل بفضل مساعدة أثينا له (بالحصان المجنح)، لأنها كانت ترى فيه البراءة والكفاءة.

كانت فضاءات رحلة (بيلليفون) واسعة جدا ومفتوحة على المدى، يطير إليها عابرا السماوات ولكنها تضيق به حين يدرك أنه محاطا بالأذية ومستهدف بالقتل.

كان يطير بعيدا في رحلة قاسية خدمة لمضيفه، آملا المكافأة والرضا، ولكنه يعود ليجد المؤامرات والدسائس للتخلص منه في كل مرة يخرج فيها في رحلة.

- رغم أنه علم أن مصدر الشفاء والأذى صادر من قصر مضيفه إلا أنه لم يفر من هذا المكان الضيق -عكس ما فعل في المرات السابقة - بل فضل المواجهة وحسم الموقف، فتحول فضاء الموت إلى فضاء للحياة.

- كان (بيلليفون) يتحرك في رحلاته في فضاء أخضر بهيج: (جبل هيليكون، جبل بيرين، سهل كاسانتوس...)

- إن تواجهه الدائم بين بشائر الخصب والنمو والتجدد كان يضيف إلى شخصيته الطاقة النفسية والاجتماعية التي كان يفقدها بسبب المضايقات وسوء الظن، كان يخرج ليملأ جسمه بأنفاس الحياة، ويعبئ للروح زادا من نسائم الطبيعة المعطاء، دون مقابل ودون ارتياب، ومنها تعلم كيف يمنح وجوده ويخدم الآخرين تطوعا وبصدق وبإخلاص، وعلى يدي هذا الأخضر البهيج تتلمذ فتعلم فن الصبر، وكيف يكون مبتهجا متجددا كل صباح رغم برد الليل وظلامه، وتلج الشتاء وصقيعه، حتى تمكن من تنظيف المكان من الريبة والدسيسة والخديعة والمؤامرات، وزرع الصراحة والمواجهة والحب والغفران.

5- الفضاء الأخضر في الرحلة الأسطورية الرومانية:

أ- رحلة إيفاندر: انطلق في رحلته الأسطورية من الأخضر (أركاديا) إلى الأخضر حيث استقبله وأمه وأتباعه الملك فونوس، وكانت سفوح الجبال مكسوة بالغابات تتخللها بعض المروج حيث ترعى الأغنام، وحيث التهمت تلك الخضرة مدينة (جانكول) الأسطورية المهجورة، التي بناها (جانوس) ومدينة (ساتورينا) الخربة التي أسسها (ساتون) الأسطوري، والقرية الصغيرة التي تضم عدة أكواخ جاثية داخل الحقول، وعلى الهضبة القريبة من الأطلال بنى (إيفاندر) مدينة جديدة عرفت باسم (بالانتية).

إن الفضاء الأخضر في رحلة (إيفاندر) هو فضاء مفتوح وتسع يكفي لتشييد مدينة تعيش أبداً، متوفر على الماء والغذاء والأمن، وكانت لديه تجربة في احتضان المدن (جانكول وساتورينا).

ومنبسط (مروج، سفوح، غابات) ومرتفع إلى السماء (قمم الجبال) ويتمدد من الفضاء الأزرق العميق (شاطئ البحر، ضفاف النهر) وحتى الأعالي بهدوء (هضبة... جبال) في منظر ساحر جميل يشرح الروح، ويغرس السكينة ويسترجع إلى الإستقرار (الإستيطان)، إذ استقبله الملك (فونوس) بالترحيب والموافقة، فضمن به جيرة متعاونة ومناصرة وحامية وحليفة. في هذا الفضاء قالت أمه:

"لابد من حط عصا الترحال هنا"⁽¹⁾ فأطاعها، إنه فضاء الحياة لأمة جديدة غرست جذورها رحلة أسطورة!

¹ - سركين، يولي: أساطير روما القديمة، تر/ هاشم حمادي، ص 142.

ب- رحلة بسيشة: فوق قمة جبل سامقة لمحت معبدا (أبصرت سنابل مكومة من القمح، وأخرى قد صفرت إكليلا، وأبصرت كذلك سنابل شعير. ورأت المناجل وبقية أدوات الحصاد) لمحتها (سيريس) التي يمتلئها ثمار وتترعى تقاليد الحصاد الجالبة للمسرة، فصاحت بها:

- يجب أن تبتعدي عن هذا البيت من غير إبطاء...

- هكذا خاب أمل بسيشة، وتضاعف حزنها.

وإذا بها تبصر في حضن الوهدة معبدا وسط حديقة مائعة ولما كانت لا تريد أن تترك أي طريق، يمكن أن يبعث فيها الأمل من جديد اقتربت من العتبة المقدسة، حيث كانت تجلس سيدة نساء الأولمب يونو التي قالت: -"إن الشرائع لا تبيح لي أن أستقبل العبيد الأبقين ضد إرادة أسيادهم!"⁽¹⁾

- خارت عزيمة (بسيشة) عندما رأت محاولاتها تبوء بالفشل من جديد، فتخلت عن كل أمل لها في الحياة، لكن نملة برية عاملة صغيرة في الحقل قالت لأخواتها: "ارحمن يا بنات الأرض الولود النشيطات."⁽²⁾

ظهرت الحماة (فينوس) وقد "تحلقت جسدها ورود مألقة."⁽³⁾

لقد كان المكان الأخضر المتألق بالحياة يظهر بقوة في رحلة (بسيشة)، (الغابة/ القصبة الخضراء)، ليذكرها بضرورة التشجع، وبأن الحياة جديدة دائما، ويمكنها أن تحمل الجديد، ورغم هذا كانت النتائج مثبطة، ومحزنة، بحيث لم تكن تجد أمامها سوى الإجابة بالرفض، حتى وهي داخل

¹ - أبوليوس، لوكيوس: الحمار الذهبي، ص 132.

² - السابق، ص 136.

³ - نفسه.

معبد (سيريس) حامية السنابل روح الحياة، ومعبد (يونو) حامية الأسرة وتقاليد الزواج، ولكن في المقابل جاءت البشارة والمساعدة من النملة (ارحمن يابنات الأرض الولود النشيطات) ومن العازفة اللطيفة (القصة الخضراء) سواء في مراحل رحلاتها الأولى قبل وصولها إلى حماها أو في الرحلات التي كلفتها بها (فينوس).

وهكذا تحدث الطبيعة توازنا نفسيا لدى (بسيشة) وهي في قمة عنف الإنكسار والإحباط، وحتى منظر الورد الذي تمنطقت به عدوتها (فينوس) أثار انتباه الفتاة، فكسر تواصلها مع الهزيمة وغصة الألم.

تزرع رحلات (بسيشة) جميعها بالفضاء الأخضر المفتوح على مباحج الحياة الطبيعية الجميلة، فالأسطورة تركز على الخروج المفتوح الذي لا تحيطه جدران أو أسوار، ويقوم فيه اللون الأخضر بدور شخصية إيجابية من الشخصيات المساعدة للرحالة (بسيشة) التي كانت نفسها الحزينة هي الأسيرة بين ضلوعها، وكان عدوها في الأخضر هو الفكك لها من هذا الأسر، بينما السجين الحقيقي كان هو الزوج (كوبيدو) في قصر أمه، وفي ألم الإحترق الذي أصابته به (بسيشة) على حين غفلة، ولما شفي وخرج إلى الفضاء الأخضر المفتوح، تقحت نفسه الكئيبة المنغلقة على الحقد، فجرى باحثا عن (بسيشة) للصلح والصفح والغفران.

II- الفضاء الأزرق في الرحلة الأسطورية:

1- الفضاء الأزرق في الرحلة الأسطورية البابلية: زارت (إنانا) الأب (إنكي) في موطنه في أعماق (الآبسو). والآبسو هو المعبد الرئيس في (أريدو) إنه (بيت أبزو)، وهو تحت الأرض محجوب عن الأنظار، ولا يسمح لأحد برؤية ما بداخله.⁽¹⁾ والكلمة سومرية الأصل/ مجهولة

¹ - إمام عبد الفتاح إمام: معجم ديانات وأساطير العالم، ج1، مكتبة مدبولي، القاهرة، د.ت، ص 33.

المعنى، تسربت إلى الأكادية، ولعلها تعني الهاوية أو الأعماق، حيث يقع (آبسو) تحت سيطرة إله المحيطات والأعماق (إنكي) ونفوذ⁽¹⁾.

وأن تكون أقوى المدائن والأكثر ازدهارا تحت حماية زعيم المحيطات والأعماق، له دلالاته الرمزية، التي تحيل إلى قراءة الأسطورة والتاريخ وفق علاقة المكان بمياه الأزرق والأعماق.

خرجت (إنانا) من حدود مملكة (الآبسو) وهي على زورق السماء الذي أخرجها من الأعماق إلى السطح ثم إلى السماء لتواصل رحلتها عبر الأجواء، حتى ولو استعمل النص ألفاظا توحى بالمجاري المائية (المرفأ)، (الميناء).

قالت: "أنا ملكة السماوات سوف أزور إله الحكمة/ سوف أمضي إلى الأبسو المكان المقدس لإريدو/ وأتلو صلاة لإنكي عند أعماق الماء العذب".⁽²⁾

ثم رحلت عائدة "وتم دفع الزورق فانساب بعيدا عن المرفأ".⁽³⁾ ولما سأل (أنكي) خادمه عن مكان الزورق أجابه: "إن زورق السماء في الميناء الأول على الطريق".⁽⁴⁾ وقالت (إنانا) وهي تحقق الإنتصار: "إن المكان الذي حط به قارب السماء/ سوف يدعى بالميناء الأبيض".⁽⁵⁾

¹ - السابق، ص 106.

² - السواح فراس: الأسطورة والمعنى، ص 117، 118.

³ - السابق، ص 121.

⁴ - نفسه.

⁵ - السابق، ص 125.

2 - الفضاء الأزرق في الرحلة الأسطورية المصرية القديمة:

رحلة إيزيس: كان المصريون القدماء يسمون البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأخضر العظيم.⁽¹⁾ وقد كان لإيزيس جولة مع زرقته التي أخذت أمواجها العاتية تدفع أمام ناظريها تابوت زوجها الفقيد المفقود، فراحت تعدو على الشاطئ بمحاذاتها أياما وليالي، وبوحي هذه الأمواج المتلاطمة المتداخلة، صنعت لوصيفات قصر (ديلوس) صفائر مدتها وتشبثت بها فجذبتها مليكة القصر الدافئ، فجعلتها مرضعا لطفلها وهي تجهل أنها سليلة النيل الأزرق العظيم، ويظل الأزرق يغسل جدران القصر الفينيقي وتظل عيناها مشدودتين إلى الشجرة العمود التي تدعم وترفع سرح الإيوان. ولما يعرف سيد القصر هويتها دون هدفها، يهديها الشجرة القبر، ويحملها فلكه الضخم على ظهر الأزرق إلى دلتا النيل ثانية. وهكذا قهرت رحالة النيل زرقة الأخضر العظيم الذي رحل بتابوت زوجها فاستعادته منه. لأنها سطرت في برنامج رحلتها أن تفعل كل شيء وتقبل كل شيء، إلا كسر الرحلة بالإياب الخائب أو كسرهما بالذوبان في فضاء يحو هوية حزنها النيلي. وهكذا يصير الفضاء الأزرق في رحلة إيزيس فضاء للحياة، فقد استعادت جزء من حياتها باستعادة تابوت زوجها. حيث ستسعى لانتخاب مكان جميل لقبر الحبيب الجميل.

رغم أن (ست) سيحيله إلى فضاء للموت ثانية، عندما تكتشف عيونه السوداء التابوت فيقوم بتقطيع الجثة والتفكيك بها، ورميها أشلاء في النيل والبيداء.

قد قامت برحلة أسطورية عظيمة، ورغم عمق سفرها في تاريخ التراث المصري القديم، إلا أنها ليست مبالغة ولا مغالية في بناء أرصفة المكان وطوقسه، لقد اتسم بالغرابة وشيء من الأسطورية، ولكن ليس إلى حد بعيد:

¹ - حامد، اسماعيل: موسوعة الأساطير الفرعونية، ص 46.

- الجزيرة التي فكت إيزيس جذورها حتى تبهر بولدها.

- شجرة الأثل التي نمت بسرعة لتكون قبراً احتضن التابوت بحيث لم يعد أحد يراه إلا قلب إيزيس.

كل الرحلات المصرية القديمة مرت عبر مجرى مائي في نهر النيل/ البحر المتوسط/ البحر الأحمر، حتى تلك التي كانت نحو العالم الآخر/ عالم الأموات/ عالم الظلمات: رحلة (رع)، وهي رحلة في عالم الزمن، ولكنها استعملت نهر السماء الموازي لنهر النيل على الأرض، وصورت رحلته كأنها رحلة نهريّة عادية تماماً في مجرى مائي لا يختلف عن واقع الأحياء.

3- الفضاء الأزرق في الرحلة الأسطورية الفارسية:

في رحلة الإسكندر الأكبر: رغم طول رحلة الإسكندر واجتيازه لمواقع كثيرة جداً براً وبحراً إلا أن صورة البحر لم تكن طاغية في هذه الرحلات، فهناك حديث عن اجتيازه البحر من (جدة) إلى مصر مستعملاً السفن والزوارق الكثيرة، والحديث عن اجتيازه البحر إلى إحدى الجزر فمنعه الجند وأشاروا عليه بالتمهل وإرسال الجند، فحدث وأن ابتلعت الجزيرة القارب وغاصت، ويبدو أنه على العموم لم يهتم الأدب الفارسي القديم في أساطيره وملاحمه بالبحر وزرقته وبفن الركوب على ظهره، والرحلة والملاحاة فيه، حيث لا نجد حديثاً واضحاً عن كيفية انتقال جيش الروم (حملة الإسكندر) إلى مصر في أول خطوة من الرحلة، "ثم جمع جيوشه وتوجه إلى إيران عن طريق مصر فنزل فيها وقاتل مليكها، وانتصر عليه وانظم كل أهل مصر إليه"⁽¹⁾

¹ - الفردوسي: الشاهنامه، ص 119

كما لا نجد حديثاً دقيقاً عن الطريق الذي سلكه إلى العراق "ثم رحل وخيم على حافة الفرات، وعلى الحافة الثانية كان دارا فزار الإسكندر دارا متتبعاً بزي رسول، طالبا من ملك إيران السماح لملك الروم بالتجوال في بلاده... فقطع الفرات..."⁽¹⁾

"ثم ارتحل وإلى بحر غريب وصل. كانت أسماكها وحيواناته طعاماً لرجال متتبعين كالنساء لا يعرفون العربية ولا الفهلوية. ولما أراد الركوب إلى جبل في وسط البحر، منعه فلاسفته، فأرسل جنده في زورق صغير، ما إن وصل حتى ابتلعه الجبل فكان حوتا عظيماً كالجبل حجماً وشكلاً، ومن مياه ذلك البحر انتقل إلى مياه سامة في غدير عظيم، فعبرها إلى ساحل بحر آخر ظهرت من جوانب يابسته خنازير وأفاعي وعقارب وسباع، فتقاتلوا واقتتلوا حتى انتقلوا إلى أرض الحبشة".⁽²⁾

4- الفضاء الأزرق في الرحلة الأسطورية الإغريقية:

1- رحلات هرقل:

الرحلة السابعة: أبحر نحو (كريت)

الرحلة الثامنة: أبحر نحو (تراقيا)

الرحلة التاسعة: أبحر من (موكيناى) إلى جزيرة (فاروس)، واصل رحلته البحرية عبر مضيق البوسفور ثم الدردانيل، حتى مملكة (بافلوجونيا) ثم حتى مملكة الأمازونيات.

¹ - نفسه.

² - السابق، ص 127.

الرحلة العاشرة: أبحر من موكناي إلى إسبانيا ثم شق المضيق الفاصل بين إفريقيا وأوروبا ليخرج إلى المحيط حيث جزيرة (إيروثيا) وهناك استعمل في ذهابه وإيابه (الكأس الذهبية) الشبيهة بزهرة الزنبق.

الرحلة الحادية عشر: اخترق منطقة (اللوريا) حتى وصل حوض نهر (البو)، ثم طفق يسعى حتى وصل إلى الطرف الأقصى من العالم، حيث المارد (أطلس) يحمل قبة السماء، ثم عاد مروراً بليبيا، وجنوباً نحو مصر ثم آسيا، ثم البحر الأسود، حيث حرر بروميثيوس، ثم عاد إلى (موكناي) وهكذا مزج في رحلته هذه بين الأزرق من بحار وأنهار، وبين العالم الأخضر المتباينة خضرتيه بين أقصى الشمال الشرقي (آسيا) والشمال الإفريقي المختلف بين مصر وليبيا وجبال الأطلس، والعودة إلى اليونان بحراً.

إن مغامرات هرقل بأنواعها الثلاثة قد مسحت مساحة معتبرة من زرقة المتوسط (البحر الأيوني، بحر إيجه، البحر المتوسط) إذ قام برحلات عديدة ركب فيها اليم الذي يعتبر في أكثر الحالات الطريق المختصر والأسهل للتنقل، ويظهر من مختلف توجهاته أن البحر لم يكن عدواً، أو عائقاً في وجه الرحالة. إن أعداءه هم أعداء الإنسان وأعداء السلام، لذلك حرص هرقل على التوجه شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً عبر المياه الزرقاء من أجل إحراز النصر وطاعة الأوامر، ليس لكونه عبداً ذليلاً، بل ليحقق حرية روحه من إثم اقترفه لحظة (مس) أو (جنون)، لقد اقتنع بكل الأحوال بضرورة دفع الثمن، والسعي للتطهر، والنسيان. كان يلتمس من الزرقة أن تساعد على أن يغفر لنفسه ما جنت يداه.

5- الفضاء الأزرق في الرحلة الأسطورية الرومانية:

في رحلة إيفاندر: رحل إيفاندر إلى إيطاليا، من منطقة أركاديا في وسط جزيرة (البوليبيونيز) من بلاد اليونان البهية، كما نصحته أمه، وهكذا ألق على رأس أسطول صغير نحو الغرب، ملتقا حول إيطاليا، حتى وصل إلى مصب نهر التيبر، ومن هناك سار وضفة النهر حتى بلغ سفوح الجبال.⁽¹⁾

لقد كان مثل السمكة يسبح داخل الأزرق الكبير من الشرق مواجهها الغرب يحمل أمل الوطن المسيح بالبراءة والصدق، لقد أجبر على الخروج متدنرا بحزن الفراق والتكذيب، وهو البريء الملام، المتهم، والعدالة تنكس رأسها في حضرتة، وهكذا سيغسل هذا اليم المتواصل هذا الهم، وسينمو على جوانب نهر التيبر وطن محلى بزرقه الأمل.

قد تحمل زرقه البحر هوية الغربة والمنفى لإيفاندر، ولكنه سيحيلها إلى زرقه السماء التي تبخر فيها الطيور، التي ستجد لها وطنا في الأفق الممتد، بدون حدود، وبكل حرية وانعتاق.. هكذا قالت الأم... (لا تحزن على فراق الوطن، فالجسورون يجدون وطنا لهم حيثما حلوا، كما تجد الأسماك البحر... والطيور السماء).⁽²⁾

وإن الماء المالح يؤدي إلى الماء العذب، وإن بساط صفحة اليم أو هيجانها بالموج العاتي توصل إلى السفوح والسهول، وإلى الجبال والقمم، والبحر مطية الرحالة بزاد الحكمة والتطلع من الوطن القديم إلى الوطن الجديد، وهذه إحدى الرحلات التي أرخت تأسيس المدينة وبناء البلاد

¹ - سركين، يولي: أساطير روما القديمة، تر/ هاشم حمادي، ص 141.

² - نفسه.

الإيطالية وإعمارها، من طرف الرحالة الذين ولجوا إليها بحرا من الشرق (اليونان) حاملين الحرف، والزيتون، والأسطورة.

III- الفضاء الأسود في الرحلة الأسطورية: لا تبحث الأطروحة عن مفهوم العالم الآخر في المعتقد الإنساني القديم، بقدر ما تحاول أن ترصد ذلك الوصف الظاهر له من طرف الرحالة، ووسمه بالظلام في أغالب الأحيان، دون إغفال الجانب النوراني منه إن أبصره الرحالة فوصفه، أو زواج بينه وبين السواد.

1- الفضاء الأسود في الرحلة الأسطورية البابلية:

إن من أهم انشغالات الإنسان القديم تفكيره الدائم في المصير والجزاء و"من بين أقدم النصوص الأدبية العالمية التي تتحدث عن جهنم هي الألواح الأكادية من الألف الثاني ق.م، إنها تروي الحوار الذي جرى بين البطل غلغامش وصديقه أنكيو الذي سعدت روحه من الجحيم، فالرؤيا محزنة، تنبيه الأرواح في مكان مظلم مشحون بالغبار، فيبوح أنكيو قائلاً: إن جسدي الذي كنت تلمسه مبتهجا التهمة العتّ مثل ثوب عتيق، إن جسدي الذي كنت تلمسه مبتهجا هو مليء بالغبار."⁽¹⁾ وتعزدها أسطورة رحلة (إنانا/ عشتار) الأكثر عمقا في وصف العالم السفلي.

في رحلة (إنكيو): لا نجد في نص (جلجامش وإنكيو والعالم الأسفل) الأسطوري وصفا دقيقا للمكان الذي نزل إليه إنكيو وأمسك به. رغم أن (إيا) طلب من (نرجال) البطل المحارب أن يفتح ثوبا في العالم الأسفل حتى تتسلل منه روح إنكيو فيشرح لأخيه جلجامش مسالك العالم الآخر، فكل ما نستطيع تخيله من أجواء الفضاء، هو كونه مليء بالأرواح والأشباح والصراخ، وأن إنكيو يستطيع أن يميز بين كل هؤلاء الوافدين إلى العالم الأسفل، سواء منهم الفرحين، أو البائسين:

¹ - مينو، جورج: تاريخ جهنم، تر/ أنطوان الهاشم، دار عويدات بيروت، ط 2016، ص 20.

"هل رأيت الذي أنجب ولدا واحدا

نعم لقد رأيت

إنه ساجد عند الجدار يبكي بحرقة

.....

هل رأيت الذي أنجب أربعة أولاد؟

نعم لقد رأيت

فقلبه مبتهج مثل....."⁽¹⁾

فحسب وصف إنكيديو فالعالم الأسفل هو فضاء واحد يمكن أن نطلع من خلاله على كل حالات سكانه، وهو لم يشهد تعذيبا (عقابا) بقدر ما عايش المتألمين. وأنه حتى ولو حدث أن نزل أحدهم إلى العالم الآخر قبل الممات وأمسك به هناك. فإن مصير جسده هو نفس المصير الذي يلقاه في عالم الأحياء.

"إن جسمي...

تنهشه الحشرات كخرقة بالية

إن جسمي....

جثة مليئة بالتراب"⁽²⁾

¹ - السواح، فراس: جلجامش، ص 60.

² - السابق، ص 59.

والعجيب جدا أن هذا مصير كل المتطفلين على هذا العالم حتى وإن كانوا من صنف (الأرباب)! فهذا هو نفسه مصير (إنانا) في النص السومري: هبوط إنانا إلى العالم الأسفل، ومصير عشتار في النص البابلي: هبوط عشتار إلى العالم الأسفل.⁽¹⁾ غير أن هاتين الرحلتين قد استطاعتا رسم رحلة الإياب بعد وساطة كبرى.

2- الفضاء الأسود في الرحلة الأسطورية المصرية:

1- رحلة (رع/ الشمس) في عالم الآخرة (الدوات): لما خلق الكون خلق به نهران: نهر مصر (النيل) ونهر السماء، أما نهر السماء فكان عظيما جبارا، يجري عبر السماء وخلال الدوات، عالم الليل والظلام الدامس وعلى صفحته كان قارب رع إذا جن الليل انحدر به إلى ظلمات الدوات حيث يعيش شعبان طوله ثلاثون ذراعا، يحرس الجبل والمياه الخضراء، لا يمر به إلا رع بقاربه الخالد، وعند ثغرة أبي دوس تقف جمهرة في انتظار القارب ليعدوه لرحلته خلال الظلمات فيتعرى من حليه ويصير بسيطا ويمسك بالحبال ويجرونه على صفحة النهر الحزين.⁽²⁾

وينطلق ليجتاز إثنتي عشرة مملكة، تتصف بالحزن وتندرج في نسبة الظلام حيث يبدأ خفيفا ليزداد سماكة ويصير حالكا موحشا قبل أن يستعيد مع الفجر تألقه، وفي جل هذه الممالك أفاع يندلع من أفواهها اللهب، أو ثعابين مجنحة تنفث السم، و"أبو فيس" الحية الهائلة الفاعرة فما يبتلع كل ما يمر به النهر والتيار القوي الجارف، والحراس المدججين بالأسلحة، والنجوم الملتهبة الحارقة، وريبات العقاب يتنفسن النيران، ويقطعن الأشرار ويرمين بأشلائهم في الحفر المليئة بالنار،

¹ - يمكن الإطلاع على تفاصيل الرحلتين في مدخل إلى نصوص الشرق القديم لفراس السواح، ص 186 إلى 208.

² - حامد اسماعيل: موسوعة الأساطير الفرعونية، ص 141، 142.

وهكذا تستمر الرحلة مع العذاب والمناظر المؤلمة الرهيبة حتى المملكة الأخيرة (الثانية عشرة) لينقشع الظلام ويقبل الضياء، حيث الأفق الشرقي، وتبدأ رحلة النهار.⁽¹⁾

هذه هي صور المكان في رحلة (رع) في عالم الآخرة (الدوات): مكان يضيق بساكنيه، ورواده، إنه فضاء منكمش بالحسرة والظلام، والألم والإحترق مخصص لأهل العذاب والسوء من الأشرار.

هذه الرحلة في هذه الأمكنة الرهيبة، هي رحلة رمزية عن ساعات الليل وما يعتري فيها الإنسان من وحشة وخوف وترقب وخطر. حاولت الرحلة الأسطورية من خلال بطلها (رع) إلقاء نظرة على ذلك العالم المجهول المستتر وتذكير الناس به. والليل بحمولته الرمزية يستطيع الإشارة إلى ذلك المكان الذي يكفي ظلامه ليستشعر درجة الخطر، فيتخفز للمكاره والآلام.

إن بيئة المصري القديم مليئة بالأفاعي والثعابين وهي المعادل الطبيعي للموت والجزع والوجع، لذلك فرحلة رع مليئة بها في معظم محطاتها من الممالك (الساعات) الإثنتي عشرة. ورغم أنها رحلة أسطورية غريبة إلا أن مجالها الرمزي يرفعها إلى الأفق الأدبي الذي يزيل عن المكان وحشته العجائبية.

3- الفضاء الأسود في الرحلة الأسطورية الفارسية:

في رحلة الإسكندر الأكبر: وسار قاصدا قصد مغرب الشمس، فوصل إلى مدينة فيها ناس حمر الوجوه، صفر الشعور، فسألهم الإسكندر عن يعرف عجائبها؟ فقال له من أهل تلك المدينة شيخ طاعن في السن: "إن وراء مدينتنا عينا كبيرة فيها تغرب الشمس وتغيب، ووراء هذه العين ظلمات وفيها من العجائب ما لا يحيط به الوصف، لقد قال بعض عبادنا إن فيها عينا يقال لها عين

¹ - السابق، ص 142 إلى 155.

الحياة، من شرب منها يشرب ولا يموت لأن مدد مائها من أنهار الفردوس... فقال له الإسكندر: "كيف تسلك الدواب طريق الظلمة؟" فقال: "من أراد أن يسلك طريقها لا ينبغي أن يركب إلا مهرا"⁽¹⁾

فأمر بجمع الخيل، فاختار منها عشرة آلاف مهر... وسار في عساكره حتى وصل مدينة كبيرة... نزل فيها. وسار وحده إلى مغرب الشمس فبقي ينتظر غروبها... وانتخب من أصحابه من عرفه بالعقل والصبر وتزود لأربعين يوما واختار من يصلح أن يتقدم أمامهم ويسير بين أيديهم فوق الاختيار على (الخضر عليه السلام)... ففوض الإسكندر إليه أمره وقال: "أيها الرجل المتيقظ نبه فؤادك لهذا الأمر فإننا إن عثرنا على ماء الحياة بقينا نعبد الله تعالى إلى آخر الأبد، وإن معي خرزتين تتقدمان كالشمس، في جناح الليل. فخذ إحدهما، وسر قدام القوم، وتكون الأخرى معي وأنا والعسكر نقتفي أثرك..." ولما كان المنزل الثالث، عرض لهم في الظلمات طريقان فسار الخضر في إحدى الطريقين ووصل إلى عين الحياة، فشرب منه واغتسل وفاز بالمطلوب وضلّ الإسكندر عنه فسلك الآخر، فأفضى به إلى الضوء، وخرج من الظلمة فرأى جبلا شاهقا في السماء على رأسه أشجار وعلى كل شجرة طائر أخضر كلمه بلغته: ماذا تريد أيها الشعبان من الدنيا الفانية؟ ثم جعل يسأل والإسكندر يجيب، ثم أمره أن يصعد الجبل وحده راجلا، فلما فعل، رأى (إسرافيل) - عليه السلام - وببده الصور، وقد نفخ شذقيه، وملاً من الدموع عينيه، ينتظر متى يأتيه الأمر بالنفخ، فلما رأى الإسكندر صاح به: يا عبد الحرص؟ لا تجهذن هذا الجهد فسوف يأتيك الأمر بالمسير، ويقرّع سمعك نداء الرحيل، فأجابه الإسكندر: لم يقسم لي غير الحركة والطواف في أقطار الأرض، ثم نزل الجبل كئيبا وعاد القهقري إلى الظلمات...⁽²⁾

¹ - الفردوسي: الشاهنامه، تر/ البنداري، ج 2، ص 21.

² - السابق، ص 22.

إن تغريبة الإسكندر انتهت عند العين الكبيرة التي تغرب فيها الشمس وتغيب حيث وراءها ظلمات وعجائب، وطريقها لا تسلك إلا على المهر حيث اقتفى أثر الخضر عليه السلام، ولكنه ظل فأفضى به إلى الضوء، وخرج من الظلمة فرأى جبلا شاهقا على أشجاره طيور خضراء راحت تحدثه...

كان هدف الإسكندر من اجتياز هذه الطريق المظلمة كالنفق هو بلوغ مكان العين التي مدد مائها من الفردوس ومن طعمها عاش أبدا، ومن اغتسل بها تساقطت ذنوبه، إنه مكان السيد فيه هو الظلام الدامس، والذي تسبب في خطأ الإسكندر ورفاقه فلم يبلغوا الهدف، ورغم أن السبيل هو الظلام إلا أنه يفضي إلى الماء، والماء هو سر الخلود والتطهر، وليس إلى النور، فالهدف لم يكن النور الذي بلغه الإسكندر في هذه الرحلة هو البديل عن المكان المقصود، لقد نال العبرة والموعظة، فكأنه أرشده إلى مراجعة الذات ومساءلتها، وهو طريق إلى التوبة أيضا قد ينال المرء الغفران وتتساقط ذنوبه بالمراجعة والتراجع عن الأخطاء. إن طريق الظلام قد يكون رمزا للإسكندر عن الحياة كلها، فرغم أن الشمس قد غابت هناك، إلا أنه لا أثر لها لما اقتفى مسيرتها وسار خلفها، فربما نحن لا نرى الكثير من الحقائق رغم أننا نسير على هديها.

كان على الإسكندر أن يسير في الظلام ذهابا وإيابا، فلم يحرز على كنز الخلود والتوبة (ذهابا)، كما لم يحرز على كنوز الجواهر واليواقيت (إيابا) التي لم يجمع منها الكثير بيد أنها كانت مفروشة تحت سنابك خيله، إن مسار الرحلة المتفرع عن أكثر من سبيل أدى إلى تضليل الإسكندر الذي ربما فاتته هذه الفكرة، فلم يكن يظن أن هناك دربا آخر غير الذي يمكن أن يسلكه مباشرة.

4- الفضاء الأسود في الرحلة الأسطورية الإغريقية:

1- في رحلات هرقل: يئس (بيريستثيوس) من إرهاب هرقل، فأمره كعمل ختامي⁽¹⁾ بإحضار (سربروس) حارس بوابات الجحيم، فانتسب أولاً إلى الأسرار الجحيمية في إيليوسيس، ومن ثمة بقيادة (هرمس) طرق الممر تحت الأرض الذي يهبط حتى رأس تيناروم، وهرب الجميع من طريقه ما عدا (ميليجر) و(الغورغون)، وبعد مسافة أخرى التمس (تيسايوس) و(بيريثيوس) مساعدته (الذنان كانا قد غامرا بطيش لولوج العالم السفلي)، فأنقذ تيسايوس لكنه منع من إنقاذ (بيريثيوس) بهزة أرضية مفاجئة، وحرر (أسكالافوس) من الصخرة التي كانت تسحقه... وحصل على إذن من (هيدس) لأخذ (سربروس) شريطة أن يتمكن من التغلب عليه من دون سلاح، غير يديه العاريتين... فوثب عليه وخنقه، وجره إلى موكناي.⁽²⁾

إن الرحلة إلى العالم الآخر الفضاء الأكثر سواداً وقتامة لم تكن ميسورة لجميع الرحالة الإغريق، حتى في الأسطورة التي تسهل الأمور بهدوء وسرعة، فإن من حبته برحلة إلى العالم السفلي فهو المشهود له بالقوة المتفوقة وبالمجد العظيم.

إن الأقلية من الرحالة الذين كان لهم الحظ بزيارة ذلك المكان المعتم، ثم العودة منه بسلام، وكان هرقل أحد هؤلاء، رغم أنه لم يكن يعرف الدرب الذي سيسلكه للوصول إلى بوابات الظلام

¹ - هناك من يشير إلى أن هرقل قد نزل إلى العالم السفلي مرتين، الأولى متطوعاً حين ذهب لاستعادة (ألكستيس) زوجة صديقه (أدميتوس) ملك (فيراي) تلك التي فضلت الموت نيابة عن زوجها وافتدته بنفسها، وهناك دخل هرقل في صراع مع ملك الموت، وتغلب عليه واستعادها، كان هذا في طريق عودته من رحلة ترويض خيول (ديوميديس) آكلة لحوم البشر، أساطير أخرى تروي العكس. بينما الإقتتال مع ملك الموت كان على القبر وليس في العالم السفلي.

² - معدي، الحسيني الحسيني: أساطير الأبطال، ص 14، 15.

والأشباح، فقد اجتهد واستعان بهرمز رسول أهل الأولمب، وهكذا يكون الجهل بمسار الرحلة هو العدو اللدود الذي يضايق الرحالة مثل هرقل.

إن نفس الموصفات تطلق عادة على هذا المكان الموحش، المحفوف بالمخاطر وخاصة إن كانت المهمة "أن يعود بالكلب الجهنمي (كيربير)، حارس مملكة الأموات، كان لهذا الكلب ثلاثة رؤوس، وكانت الأفاعي تتلوى حول رقبتة، كما كان ذيله ينتهي بهامة تنين عظيمة الشدق"⁽¹⁾

2- في رحلة أورفيوس: كان المكان معتما جدا، و(أورفيوس) يجتهد لوضع خطواته في المكان المناسب وهو يتقدم نحو عالم (هاديس) يرافقه (هرمس) وقيثارته الشجية، ولكن ذلك الظلام كان أشد وأقسى في طريق العودة، إذ كان يشد قلبه المرتجف خوفا على رفيقته (يورديسي)، وإن رفيقته لهذا السواد في طريق العودة كبست على فؤاده وجعلته يتعجل الالتفات إلى الخلف فيفقد درة القلب إلى الأبد.⁽²⁾

¹ - حاتم، عماد: أساطير اليونان، دار الشرق العربي، بيروت، ط 3 / 2008، ص 248.

² - وفيما بعد سنجد أوفيد يواصل الحديث عن العودة الأبدية لأورفيوس إلى الفضاء الأسود ليستقر به مع أميرة الصبايا: "وهبط شبح أورفيوس تحت الأرض

وتعرف على جميع الأماكن التي

كان قد رآها من قبل.

وأخذ يبحث عن أوريديس

في الأماكن التي تسكنها الأرواح التقية،

فراها، وضمها بين ذراعيه المتلهفتين...

الآن، يقدر أورفيوس أن يلتفت دون خوف،

لكي يرى أوريديس" (أوفيد: التحولات، تر/ أدونيس، دار التكوين، دمشق، ط 2، 2011، ص 673).

5- الفضاء الأسود في الرحلة الأسطورية الرومانية:

1- رحلة بيسيثة: كلفت فينوس كنتها (بسيثة) بثلاث رحلات حتى تتخلص منها نهائياً، ولكن الفتاة المحظوظة، رغم يأسها كانت تجد من يقدم لها العون والمساعدة، وكانت الرحلة الأخيرة هي النزول إلى العالم السفلي لتعبئة العربة بشيء من جمال (بروسرينيا).

لما شعرت (بسيثة) باستحالة القيام بهذه الرحلة صعدت إلى برج عال لتلقي بنفسها منه، وكانت تظن أنها هكذا ستنزل مباشرة إلى العم "هاديس" لكن البرج نطق ناصحاً إياها بأنها إن فعلت ذلك فلا يقدر لها العودة منه أبداً. بل عليها أن تلج من باب الأحياء حتى ترى الشمس من جديد، وتحمل رغيفين للكلاب الجهنمي بيديها وقطعتين نقديتين في فمها لخارون صاحب القارب المرقع.

- هناك حدود للمكان وصفات: "إن (لاكيدمون)، وهي مدينة الأخيين الشهيرة، ليست بعيدة من هنا، ابحثي عن حدودها عند (تيناروس)، وهو مكان يقع في منطقة وعرة المسالك، ستجدين فيه منفذاً هوائياً يفضي إلى العالم السفلي، وسترين عند الباب العميق طريقاً وعراً، عندما تجتازين عتبه وتشرعين أنك قد تعودت على السير فيه، تكونين قد مضيت في ممر مستقيم يقودك مباشرة إلى قصر (أركوس) في العالم السفلي." (1)

- هناك حدود للزمن.
- هناك ملامح لشخصيات وأهل العالم السفلي: (على أنه لا يحق لك أن تمرى...
- هناك مواصفات وأخلاق

¹ - أبوليوس، لوكيوس: الحمار الذهبي، ص 139.

- رغم ترددّها، ويأسها، وقنوطها، وشكها في النجاح كل مرة، إلا أن مجرد موافقتها وقرارها بالدخول إلى عالم الأموات يثبت شجاعتها وإصرارها، ومدى صدق نيتها في التوبة والإصلاح.

- إنّ هذه الرحلة جواب عن ماهية شخصية (بسيشة)، أو عن مدى تأثير الأحداث والرحلات السابقة في تنمية شخصيتها.

صحيح أنها محظوظة كثيرا، خاصة بالعناية الإلهية، وهذا لا يبخل حقها في أنها قد اتعظت كثيرا وازدادت انتفاعا من تجارب الرحلات التي قامت بها.

- إن القرار الشجاع بتخطي عتبة (سربروس) والنزول لزيارة (بروسرينا) وزوجها الكال (هاديس) يجعل منها امرأة جديرة بالإحترام، والأمومة.

المبحث الثاني: الفضاء في الرحلة الملحمية:

لقد اختار شعراء الملاحم جملة من الأمكنة للوقوف عليها بطريقة تجعلنا نعتقد أننا في رحلة حقيقية، نكتشف خلالها ولأول مرة هذا الملكوت وهذا العالم الجديد، الجميل، المليء بالعجائب والطرائف.

شاعر الملحمة سارد حياي يوقف بموضوعية خارج النص، إنه يعرف سلفا خطة الرحلة وخريطة المسيرة، ودرب السفرة، ولكنه يوهمنا أنه وإيانا يكتشف هذه الفضاءات، ويتابع خطى الرحلة، وأنه معنا رفيق له في حله وترحاله، ويجعل المدهش العجيب مقبولا وممكنا، يبالغ في التهويل من أجل روح المغامرة، ونفس البطولة، ولكنه يتحدانا أن نقول "أف" أو "صه ! صه!"، بل إنه إذا غاص غصنا، وإذا سبح سبحنا، وإذا طار في الأجواء صحبناه.

1 - الفضاء الأخضر في الرحلة الملحمية:

1- الفضاء الأخضر في الرحلة الملحمية لبلاد الرافدين: كان شاعر العراق القديم، في نموذج

ملحمة جلجامش (هو الذي رأى)، يجعل الخاتمة التي يصل إليها عمله الملحمي هي المقدمة التي يفتتحه بها! فمن الأبيات الأولى نكتشف شخصية جلجامش البطل الملحمي الرحالة، الذي حاز معارف كثيرة بفضل أسفاره التي قام بتدوينها، لتكون شمعة هادية لغيره.

وفي هذه المقدمة/ الخاتمة، نجده يصف مدينة أوروك المنطلق/ العودة، ومن أهم ما جاء في نعوتها، إنها ذات بساتين ومروج "شار واحد للمدينة، وشار للبساتين، وآخر للمروج، والبقية أرض بلا زرع (أو بناء) لمعبد عشتار، ثلاث شارات والأرض غير المزروعة هي مدينة أوروك".⁽¹⁾

إذن فثلاثي المدينة هو فضاء أخضر: ثلث البساتين، وثلث المروج.

فالفضاء الأخضر (البساتين): ينتج الغلال، من خضر، وبقول، وفواكه، غذاء نباتيا طيبا مليئا بالصحة لأهل أوروك الأشداء.

والفضاء الأخضر (المروج): "والمروج أرض ذات كلاً ترعى فيها الدواب... أرض واسعة فيها نبت كثير تمرج فيها الدواب"⁽²⁾ وتنتج الأعشاب والأعلاف للحيوانات التي هي غذاء ولباس وركوب، والمروج أيضا مصدر للهواء المنعش، وحتى المعبد جعل خارج أسوار المدينة، حتى يكون جزء من الأخضر، ويستفيد المتعبد من هذه الأجواء التي تجعله يخرج من الأسوار نحو الهواء الطلق، فيغير ما بنفسه وما بجسده.

¹ - السواح، فراس: جلجامش، ص 108.

² - ابن منظور: لسان العرب، ج6، دار المعارف، القاهرة، دت، مادة مرج، ص 4168.

لقد تفنن الحكماء السبعة في جعل الفضاء الأخضر يستحوذ على ثلثي أوروک، بينما حصروا عمرانها في ثلث واحد، وجعلوا المعبد خارج العمارة، وهذا حتى يتأتى لمن شاء الخروج للعبادة المرور بالفضاء الأخضر، ويتيسر له شيء من الجو الجديد المغاير ويتيح له التأمل والترفيه، وفي ذلك مكسب للروح، كما هو مكسب للجسد.

الفضاء الأخضر والنند إنكيدو: إن فضاء الإنطلاق/ العودة (الفضاء الأخضر)، أفضل مكان على الإطلاق يمكن أن يوصف بالكمال والأهمية والمثالية، ويدعو لأن يعلن انموذجا للمدينة يصفها الشاعر/ السارد على لسان الرحالة البطل جلجامش الذي يمتدح عمل الحكماء السبعة على مسامع (أورشنابي) الملاح العائد من عالم الخالدين، إن أوروک ليست ضئيلة ولا تافهة أمام بقية المحطات التي نزل بها الرحالة وإن أقصى بهائها وجمالها أن تكون درة وسط الأخضر الذي ينعشها ويحييها.

لما ضاقت الرعية بكثرة مطالب ومطامح وتطلعات مليكها جلجامش دعت سرا وعلنا أن يخلق له ند يضاهيه قوة وجبروتا وسلطانا، حتى يردعه عن غيه، ويحمله على الهون واللين مراجعة الذات، فكان أن سمعت أوروو نداء الشعب المنهوك فتملت في فؤادها صورة آنو و"غسلت يديها وجمعت قبضة من طين رمتها في الفلاة... في البراري خلقت أنكيدو العظيم، نسل ننورتا، خصلات شعره تندفع سنابل قمح، يرقى الكأ مع الغزلان، يرد الماء مع الحيوان ومع البهيمة يفرح قلبه عند الماء، ومرة أحد الصيادين ناصب الفخاخ، رآه وجها لوجه عند مورد الماء".⁽¹⁾

فجلجامش ابن أوروک المدينة العامرة الآهلة بالرعية، ذات الأسوار القوية، المغلقة على سلطة الفرد الواحد، الأمر الناهي، بينما إنكيدو فابن الفلاة والبراري والمياه مورد البهائم، والرحلة لتكتمل وتتم فصولها بدقة ونجاح لابد لها من رفيق، هو ابن الفضاء الأخضر المفتوح على العدالة

¹ - السواح، فراس: جلجامش، ص 113.

والمساواة والبراءة، الخبير بالطبيعة وأجوائها، وهذا ما شجع جلامش على الخروج إلى غابة الأرز لمقاتلة وحشها (حواء).

أرض الأحياء: سميت غابة الأرز أرض الأحياء لأنها مليئة بالأشجار وبها الجبل الأخضر "وصلا معا الجبل الأخضر، هربت منهما الكلمات، ووقفا ساكنين، وقفا ساكنين ينظران نحو الغابة".⁽¹⁾

فألق اللون الأخضر أصابهما بالدهشة والحيرة، حتى أنهما لم يستطيعا كلاما، فلم يتحدثا عن مخاوفهما ولا عن آمالهما، ولا عن سحر وجمال ما يقع عليه بصرهما.

الغابة: سواء في القصيد الملحمي السومري: جلامش وأرض الأحياء، أو في الملحمة (هو الذي رأى) البابلية يأتي ذكر الغابة بشجون كثيف أرض الأرز الوحشية، أرض الأرز الجبلي، فالغابة/ أرض الأحياء في نظر جلامش الرحالة هي المعادل الموضوعي للحياة والخلود والذكر، في مقابل أوروك/ المدينة، المعادل الموضوعي للموت والحزن والأحداث.

أوروك/ مدينة جلامش	الغابة/ أرض الأحياء
- يموت الرجل كسير القلب.	- أخذ لنفسه هناك ذكرا.
- يقضي الرجل حزين الفؤاد.	- سأرفع اسمي.
- من فوق السور ترى الأحداث الميتة طافية في نهر.	
- أرى أنني سأغدو مثلها حقا.	

¹ - السابق، ص 156.

مصادر الفضاء الأخضر:

لقد كان جلامش خلال رحلته مثلما أوصاه شيوخ أوروك يحفر بئرا في كل محطة يتوقف بها، لتكون مصدر ريه ولتروي غيره فيما بعد، وتكون مصدر الفضاءات الخضراء فتنشع الحياة وتزهو بكل الأمكنة التي عبرتها الرحلة "ناقب الآبار في سفوح المرتفعات"⁽¹⁾ و"احفر بئرا في المساء"⁽²⁾ فهذه الجملة تعادل: اغرس شجرة.

خلاصة: لقد أولت ملحمة جلامش (هو الذي رأى) عناية مركزة على الفضاءات الخضراء في حياة الرحالة منذ خط الإنطلاق، إلى المسار وحتى الوصول ثم الرجوع أخيرا إلى نفس مكان الإنطلاق، لقد صاحب الفضاء الأخضر الرحلة في كل خطواتها وظهر تأثيره الناجح عليها.

تسهم الغابة في إبراز سمات إيجابية رئيسة في شخصية جلامش الرحالة بينما تصنع سمات سلبية ثانوية طارئة في شخصية إنكيديو سرعان ما سنلاحظ كيف تنقشع وتتحول بعد قطع شوط من رحلة الذهاب والوصول

الغابة تظهر سمات إيجابية في شخصية جلامش.	الغابة تصنع سمات سلبية ثانوية في شخصية إنكيديو.
- في الغابة هناك يعيش حواوا الرهيب. - هيا أنا وأنت نقتله. - هيا نمسح الشر عن وجه الأرض.	- اغرورقت عينا أنكيديو بالدموع - ملأ الأسى قلبه. - زافرا آهات مريرة.

¹ - السابق، ص 109.

² - السابق، ص 146.

- أراك خائفاً من الموت وما زلت هنا.	- قد وهنت قواي.
- أين ضاعت منك القوة العظيمة؟ سأمضي أمامك.	- وتلاشت قوة ساعدي.
- ليناديني صوتك أن تقدم ولا تخف.	- وضعف مني العزم.
- إذا سقطت أصنع لنفسي شهرة.	- غابة حواوا تمتد عشرة آلاف ساعة فمن يستطيع المضي في أعماقها.
- لكنني ماض فيما انتويت سأمد يدي وأقطع أشجار الأرز.	- حواوا يزار فيها كالطوفان في فمه نار.
- أريد أن أواجه من عنه تتحدثون وأصرعه في غابة الأرز.	- في أنفاسه العطب.
- ما أقوى لبن أوروك	- انقضا لا دافع له.
- أحفر لنفسي اسماً خالداً	- حارسها محارب حتى لا يغمض له.
- جبال الأرز سوف أرقى.	- تلاشت قوة ساعدي.

فضاء المدينة: يتحدث الشاعر عن مدينة الرحالة بمجرد تقديم تعريف شامل ودقيق بشخصية الرحالة الآيب من أغرب رحلة قام بها، واصطحب معه في طريق عودته رفيقا طريدا من مملكة الخلود التي كان يعمل بها ملاحا، لدى أوتابشتيم، الذي صاح في وجهه يأمره بالمغادرة، رفقة

ضيفه جلامش: "فلينبذك المرفأ يا أورشنابي، وليكرهك المعبر، وليبرأ منك الشاطيء الذي تمشي عليه".⁽¹⁾

يفتح الشاعر ملحمة (هو الذي رأى) بذكر أمجاد البطل جلامش الذي رأى كل شيء إلى أقصى حدود الممكن للمكان الدنيوي وهو الذي استطاع أن يعرف كل شيء، ويتضلع بكل شيء، حين رأى بأمر عينيه الأسرار الخافية، والأمور الخبيئة، في سفره البعيد الذي أعيا جسده وأضناه. إن جلامش كشف الأمكنة المستورة، برحلته التي حطمت حدود المستور منها، إن الأمكنة وحواجزها ومعالمها لا تغلب جلامش، هو الخير ببناء الأسوار والمدن المنيع والمعابد المقدسة، والعتبات العتيقة العريقة التي قتلت الزمن.

إذن فمن أراد أن يتعرف على الرحالة فعليه أن يتتبعه في خطوات أوبته من رحلته: "أعل سور أوروك، امش عليه، المس قاعدته، تفحص صنعة آجره، أليست لبناته من آجر مشوي، شار واحد للمدينة وشار للبساتين وآخر للمروج، والبقية أرض بلا زرع أو بناء لمعبد عشتار ثلاث شارات، والأرض غير المزروعة، هي مدينة أوروك".⁽²⁾

تبدأ الملحمة (اللوحة الأولى - العمود الأول) بالحديث عن قوة الفضاء الذي استطاع البطل جلامش أن يهزمها ويقهرها في رحلته، وأن يحشو عينيه بمرآها، رغم بعدها السحيق عن مدينته، بهذه الرحلة عرف كل شيء عن كل مكان، هتك أسرار الأمكنة وأجلى خفاياها، ومزق أستار الطريق المؤدية إلى خبر الطوفان.

¹ - السابق، ص 231.

² - السابق، ص 108.

إن جلامش مثال للرحالة صاحب المدينة، انطلق منها معززا، وعاد إليها، وهو المليك المعزز المكرم، إنه الرحالة الذي يغادر ليعود، لأنه قد ترك جذورا قوية، وجدراننا صلبة متينة تقهر العاديات، لقد خرج حزينا كئيبا، لفقد رفيقه ونده إنكيدو وعاد برفقة أورشنابي ملاح جده أوتتبشتيم.

عاد الرحالة ليجد المدينة كما تركها تنتظره، العمران والبساتين والمراعي والمعبد، فيها الأهل والغذاء من النبات والحيوان، وغذاء الروح حيث تقام الصلوات ويرفع الدعاء.

العمران ذو أساس متين والصور لبناته من آجر مشوي قوي، هذه المدينة التي خطط تصاميمها حكماء سبعة، هذه هي سمات المدينة الكاملة المثالية، مدينة أوروك الملحمية في الألف الثالث قبل الميلاد/ فجر عصر السلالات.

إن ما جاء به جلامش من رحلته هو إضافة ثمينة للمدينة، التي لا تقل غنى، لقد هجر المدينة وهو يظنها خواء في رحلة بحث عن بديل يجعل العمر أطول أو لا ينتهي أبدا، وعاد ليجد المدينة تزخر بالحياة مادام أساسها صلبا وسورها عال وقويا، وبساتينها غناء، ومروجها خضراء، ومعبدتها يضيح بالدعاء.

2- الفضاء الأخضر في الرحلة الملحمية الهندية:

أ- في المهابهاراتا: كثيرا ما اهتمت رحلات (المهابهاراتا) بالاعتناء بالحديث عن الفضاءات الخضراء المزدانة بالأزهار والمروج، إذ كانت الرحلات غناء كاملا بالجنة الأرضية (الهند) التي هي صورة عن جنة (إندرا) في السماء.

الجبال: في رحلة الإخوة الأربعة ورفيقتهم دروبدي بعد أن غادرهم خامسهم أرجونا في رحلته إلى السماء.

هبت عليها نسيمات من هواء الشمال العليل، وعبق الجو من حولها بأريج أزهار الجبال... بلغوا جبل (كيلاسا) فأقاموا عند سفح الجبل ستة أيام.⁽¹⁾ شاء (هانومان) أن يعترض "طريق بهيما بجسده الضخم في ممرات الجبل الضيقة"،⁽²⁾ وإذا بالأمطار الموسمية تهطل... فتروي الأرض العطشى، فيبرز العشب في الحقول... وتمضي الأنهار يدوي خريز مائها في الغابات والأحراج... وعندئذ يرسل الزنبق واللوتس أريجهم فتستريح النفوس.⁽³⁾

الغابة/ البحيرة: قال (بوديشثيرا) "هي إذاً اثنتا عشرة سنة من حياة العزلة في الغابات، لذا يحسن أن نبحث عن بقعة جميلة، تجتذب إليها الغزلان والضباء، وتكثر فيها الفواكه والأزهار، ويرتادها أهل القداسة والعارفون. والرأي عندي أن نقصد بحيرة دفيتافانا المقدسة ونهجع إلى ضفافها المباركة"⁽⁴⁾

إن قائد هذه الرحلة ربط بين الزمن الذي سيقضيه منفياً في عزلة بالمكان الذي يجب أن يختاره لهذا المنفى وهذه العزلة. فإذا كان الشرط المفروض عليه هو النفي والإعتزال مدة اثنتي عشرة سنة في الغابة، فالخيار الذي يبقى له هو انتخاب أجمل الأمكنة المتاحة ضمن فضاءات الغابات المتوفرة خارج المدينة التي نفته، وقد كان مقياس الجمال وارداً ومطلوباً في هذا الاختيار وهذا الإنتقاء، فالجمال هو الذي يجلب الخير والنعم (الغزلان والضباء وأهل القداسة والعارفون)، إنه يبحث عن مكان أخضر تكثر فيه الفواكه والأزهار والمراعي، وبالتالي الغذاء للروح (بقعة جميلة/ أزهار) والجسم (الفواكه/ الغزلان والضباء) والفكر (أهل القداسة والعارفون)، والمكان الأخضر فضاء يوفر كل هذه المتطلبات.

¹ - مجهول، المهابهاراتا، ص 139.

² - السابق، ص 140.

³ - السابق، ص 143.

⁴ - السابق، ص 133.

أزهار اللوتس/ الزنايق: كان سبب رحلة (بهيماء) منفردا وخروجه عن الرحلة الجماعية هو أن (دروبي) قد تآقت نفسها إلى زهرة اللوتس التي حملت مثيلاتها الرياح إلى جبل (كيلاسا) بعدما خرجوا من بحيرة (دفيتافانا)، فطلبت منه إحضار الأزهار ذات الأريج الفواح والألوان التي تسبي الأنظار.

رحالة المهابهاراتا وبناء المدينة: لما أخذ العم (ديتراشتر) برأي القائلين بضرورة استقدام أبناء أخيه (باندو). اقتطعهم نصف المملكة المتنازع عليها، فجعلوا عاصمتهم (إندرا براستا) التي كانت بلدة زاوية، وسرعان ما أخذوا في تدعيمها فشقوا حولها خندقا عميقا واسعا، لم يسمع الناس بمثله من قبل وأخذوا بطرق العمران، فأشادوا الأبراج العالية، وحشدوا فيها الجنود والأسلحة القوية للدفاع، أما في الداخل فكان الحشد أعظم خلف الأسوار العالية حيث خزّنوا أدوات الحرب الفتاكة، وعملوا على تعبئة الجنود في تشكيلات قوية، وما هو إلا حين حتى غدت جنة من جنان الأرض عامرة بالقصور والبيوت تحيط بها الحدائق الغناء من كل جانب، تصدح على أفنانها البلابل العصافير بأشجي الألحان، ولم يمض وقت طويل حتى تردد صدى اسم (إندرا براستا) في العالم كله، وباتت مقصد كل ذي موهبة، يعرض فيها فنونه وصناعاته.⁽¹⁾ وكان عهد (آل باندو) عهدا حافلا بالنجاح والإنصار، فخضعت لهم أمصار عديدة، وظل القوم على هذا النحو من السعادة والرغد لا يكره حياتهم مكر.⁽²⁾

رغم ما حدث للرحالة (الإخوة الخمسة) وما جرى لهم من أمور تجعلهم مضطرين إلى الرحيل والفرار تحت جناح الظلام، والسير ليل نهار، خوفا من لحاق الأذى بهم، إلا أنهم غامروا ببناء

¹ - السابق، ص 83.

² - السابق، ص 88.

المدينة الجديدة، الجميلة، القوية ووفروا لها الحماية الكافية لتضمن لهم شيئاً من الإستقرار الذي حرموا منه.

إن شدة التحصينات التي عمد إليها الإخوة الخمسة هي دليل الشك والريبة في نوايا أبناء العم، لقد بقيت قلوبهم تذكرهم بحرقة الرحلة والفرار من دار إلى دار، ومن جوار إلى جوار، وسنرى أن هذه المدينة لم توفر لهم ذلك الإستقرار المأمول، إذ بخبث طُلبوا من جديد لزيارة العم، فخرجوا منها في هدوء، حتى لم يعودوا إليها إلا بالحرب والدماء.

وخرج منها (أرجونا) نافيا نفسه مدة إثني عشر عاماً، لما أخطأ ودخل بيت أخيه دون استئذان رغم أنه كان على عجلة من أمره، لأخذ سلاح الدفاع عمن استتجد به.

تتحدث ملحمة (المهابهاراتا) عن إشكالية في ميراث العرش يؤدي هذا التنافس إلى دفع الأبطال إلى الخروج في رحلات خارج فضاء المملكة وفضاء العاصمة المتنازع عليها، وهكذا ينتقل هذا الصراع إلى أمكنة أخرى، وهذه الأمكنة ستغير بعض القناعات، وتثبت قناعات أخرى.

كان الأخ الأكبر (يوديشترا) يريد أن يجنح إلى السلم، ويبحث عن حوار العدالة والضمان، ولكنه يقرر في منتصف رحلة المنفى أن يطلب نجدة من أسلحة السماء ليحدث الدمار الشامل للأعداء، فلا تقوم لهم قائمة بعد ذلك أبداً. وهكذا بني نص الملحمة على رحلات كثيرات متداخلات:

■ رحل الإخوة الخمسة إلى مدينة (فارانااتا) لحضور الإحتفالات التقليدية التكريمية لأحد

الآلهة، ولكن مكيدة قتلهم حرقاً دفعتهم إلى الرحيل بعيد فراراً للإختباء والتواري عن عيون

أعدائهم من أبناء عموماتهم، ولما صار لهم حلفاء أقوياء تمكنوا من العودة ليقسموا المملكة

معهم.

- حدث أن أخطأ أحد الإخوة الخمسة فدخل دون استئذان إلى بيت أخيه، فاضطر إلى الرحيل إلى المنفى مدة اثنتي عشرة سنة، كما نص على ذلك تعاهدهم.
- بمجرد أن عاد حتى حدثت فتنة أخرى بين الإخوة وأبناء العم بسبب لعبة النرد المزورة، فاضطروا إلى الرحيل من جديد مدة اثنتي عشرة سنة، يضيفون إليها سنة أخرى للإختباء حتى لا يتعرضوا للتصفية.
- وأثناء هذه الرحلة انفصل عنهم (أرجونا) ليقوم برحلة تدوم خمس سنوات نحو سماوات (إندرا) من أجل التزود بالأسلحة الفتاكة.
- كما انفصل عنهم (بهيمّا) جريا خلف زهرة اللوتس، التي طلبتها (دروبي).
- وهناك عند بحيرة (ديفتافنا) سيلتئم شمل الإخوة الخمسة من جديد، ويحل بهم أبناء عمهم للكيد لهم وإحداث الفتن، ولكن تجري رياحهم بغير ما اشتهدت سفنهم، فينسحبون يجرون أذيال العار والخيبة، وهم مدينون لهم بحيواتهم.
- يرحل الإخوة الخمسة إلى مملكة (فيراتا) متكرين لقضاء سنة الإختباء الجبري المفروضة عليهم.
- يعود الجميع إلى مملكتهم لإستردادها، بعد حرب دموية.
- يرحلون أخيرا إلى السماء وقد تعبوا من الحياة، والكر والفر.

ب - في الرامايانا: كان نفي (راما) إلى غابة عظيمة مليئة بالوحشة والهدوء، ولكنها احتوت على فضاءات كثيرة من السهول والربى والرياض المخضرة المزهرة، إذ كان راما ومرافقوه يجدون السلوى والإنقطاع للعبادة وعمل الخير بمساعدة الفقراء والزّهبان داخل جوف الغابة الكبيرة التي تمتص في سكون الأحزان والشعور بالغربة واليأس.

كان الأخضر يلف رحلة راما كلّها، حيثما تلقّت شمله بريقه، وأنعشه أريجها، وظل صديقا له في بلواه وامتحانه حين اختطاف سيتا، وتفرق عصبته في الغابة بحثا عنها، وقد حفل نص الرحلة/ الملحمة بهذا الملكوت الذي يعطي انطبعا بجمال وجلال الطبيعة في بلاد الهند الساحرة الغامضة. جاء في الملحمة: "إن سيتا ستهيم في الغابة، فذلك عندها أسعد مقاما من قصور أبيها... وستجمع الثمار الحوشية من الغابة اليانعة العبة..."⁽¹⁾

3- الفضاء الأخضر في الرحلة الملحمية الفارسية: لقد سافر (رستم) برا من مملكة أبيه (زال ستان) إلى مملكة السحرة (مازندران) في أقصى شمال (إيران شهر)، وكان عليه أن يقتصد في مسلك وخط الرحلة حتى يصل بسرعة قبل فوات الأوان لينقذ ملك إيران الذي غامر بالحملة على (مازندران)، ففشل، ووقع في الأسر.

مر بالأخضر وهو يسلك درب الخروج من مدينته ولم يتغير الأمر كثيرا في طريق العبور، فهو مرة في غابة كبيرة كثيفة بها المراعي، حيث ترك (رخش) يرتع ثم الصحراء الجافة التي يظهر بها نبع ماء، ثم السهول الخضراء الجميلة ملك التتين، ومثيلتها الأرض المنبسطة الفسيحة المناسبة للتريض والصيد والرعي للملك (أولاد).

لقد كانت جل خطوات مراحل الرحلة السبع في فضاء أخضر ما بين غابة وسهل وحقل، ولكن الظلمات كانت تسود معظمها، لأنها تحت تأثير سحر الجن الذين يحمون (مازندران)، ثم أن الرحالة لم يتوقف لحظة حتى يتأمل هذا الأخضر البديع الذي يشرح الصدر لأنه كان في شغل شاغل عن ذلك بالجد والسرعة للوصول بأقصى ما يمكن، فكان يسير ليلا ونهارا فإذا توقف نام على عجل وبعثق لشدة نعاسه وتعبه، بيد أنه لم يفته شيء مما تتناثر حوله وهو يعدو على ظهر

¹ - كامل، مجدي: المهابهاراتا/ الرامايانا، ص 156.

حصانه (رخش) فقد كان ذكيا لمأحا سريع الانتباه حريصا على أن يسجل في ذاكرته كل ما يرى ويشاهد، فقد نصحه أبوه بذلك (اختر الطريق القصير وشاهد العجائب...)

المسافة الأولى: صحراء مليئة بالحرر الوحشية، فيها شوك وقش وحطب للشبي، وقصب للنوم، ومرج أطلق فيه (رخش) يرعى.

المسافة الثانية: صحراء لا ماء فيها، شديدة الحرارة وكأن النار قد أمسكت بها. وظهرت له عين ماء في الطريق عند المكان الذي وصل إليه الحمل... وعزم على الصيد... حمار وحش كالفييل المفترس... و(رخش) يتبخر ويرعى... جاء من الصحراء تتين...، ناجى ربه قائلا: "أيها العادل... لقد وهبتي العقل والقوة والمجد ويستوي عندي الشيطان والأسد والفييل وتستوي الصحراء القاحلة ونهر النيل.

المسافة الثالثة: عندما نزلت الشمس المضيئة من عليائها رأى العشب والماء الجاري على نحو ما يكون مكان الرجل الشاب... وكانت الصحراء وكأنها بيت فرح وسرور، فضم البطل "رستم" العود إلى صدره وأخذ في العزف والغناء.

المسافة الرابعة: كان (رستم) يجد في المسير حتى وصل إلى مكان لم ير للنيا فيه نورا... فأطلق العنان لـ (رخش)، وتوجه به فلم ير وهادا ولا نجادا من شدة الظلام، ووصل من هناك إلى حيث النور، فرأى الأرض مخضرة كالحرير وكلها حقول وصارت الدنيا شابة بعد المشيب، وكلها خضرة ومياه جارية.. خلع اللجام عن رأس رخش قليلا ثم أطلقه يرعى في الحقول والمزارع...

المسافة الخامسة: قاد جواده حتى جبل (أسبروز) إلى ذلك المكان الذي عسكر فيه (كاوس) وعندما انقضى شطر من تلك الليلة المظلمة. علا الصياح وارتفع صوت الصنج، فقد أشعلوا النار في (مازندران) وأشعلوا الشموع في كل مكان. فقال البطل رستم لأولاد: (ما هذا المكان الذي تشتعل فيه

النيران من اليمين والشمال؟) فأجابه: (إنها بوابة مدينة مازندران... حيث لا يستطيع القادة... النوم في ثلثي الليل...) عندئذ نام رستم المحارب حتى أطلت الشمس المضيئة.

المسافة السادسة: عندما أطلت الشمس من فوق قمة الجبل وزادت العالم حسنا وجلالا استيقظ البطل وذهب ثابت الجنان إلى العسكر... عاد مسرعا لجبل (أسبروز)... وسأل البطل (رستم) أولاد عن الطريق إلى المدينة التي كان فيها الملك (كاوس)، وعندما سمع منه، توجه إليها مسرعا... فلما وصل... عندها سمع الملك (كاوس) صوت صهيل (رخش) قبل أن يصل إليه البطل.

المسافة السابعة: فعزم البطل الضخم الجسم على الحرب وهمّ بالرحيل من ذلك المكان واصطحب معه (أولاد)، وكان يقود (رخش) كالريح... ولم يسترح، وكان (أولاد) دليله في هذا الطريق، ووصل إلى الجبال السبعة وفيها مرده الشياطين جماعات جماعات ووصل بالقرب من ذلك الغار.⁽¹⁾

4- الفضاء الأخضر في الرحلة الملحمية الإغريقية:

أولا في رحلة أوديسيوس: كثيرة هي الفضاءات التي وطئتها أقدام الرحالة وجال فيها مع رفاقه يجمع منها الزاد والغذاء مثل جزيرة السيكلوب التي قال عنها: "تؤتي أرضهم أكلها رغدا من غير كد ولا عناء... حبا وأبا وحدائق غلبا، وقضبا وعنبا..."⁽²⁾

■ والأخضر هو عنوان الإستقرار في الأوطان، فالسيكلوب لم يفكر في الخروج من جزيرته مادامت الخضرة توفر له كل الحياة.

¹ - بكر، أحمد حسين: أشهر الأساطير الفارسية، ص 82 إلى 95، وينظر: الشاهنامه للفردوسي، تر/ البنداري، ص 108 إلى 114.

² - هوميروس: الأوديسة، تر/ دريني خشبة، ص 85.

▪ و(أيايا) الجزيرة الخضراء كادت تُنسى (أوديسيوس) ورفاقه (إيتاكة)، إذ راحوا يرتعون ويمرحون فيها سنة كاملة في شبه غفوة عن مقصدهم وهدفهم. في براري خضراء وادعة. تملؤها دفناً وكلاً.

▪ ولذلك، ربما كان هذا الأخضر المنعش هو الشيء الجميل في رحلة (أوديسيوس)، حيث لم تبخل عليه طبيعة العالم الإغريقي القديم بألوان الزهور والنماء. وكانت تحفزه لأن يواصل بحثه عن خضرة (إيتاكة) الساكنة في الجوى.

بيد أن هذا الأخضر قد يشوبه شيء من السواد بسبب سوء أهله، مثل السيكلوب الطغاة العتاة الذين لا يؤمنون بالله، وأذاق أحدهم أوديسيوس ورفاقه ألوانا من العذاب والموت، وكذا (الليستروجيون) آكلي لحوم البشر، الذين لا تبقي حراهم ولا تذر، فقد قضوا على جميع أسطول الرحالة إلا سفينته التي كانت بعيدة عن مرمى حجارتهم وحراهم، كما أنه قد أتخم هو الوحيد دون رفاق بخضرة (أوجيجا) حتى كان ينظو عن ناظريه خضرتها الهادئة بالتأمل في الزرقة المضطربة.

ثانياً في رحلة جاسون (الأرجوناوتيكا): أبحر الأرجوننت شرقاً نحو الكنز المطلوب، ثم عادوا غرباً نحو الوطن المحبوب، وعابوا الكثير جداً من أرض المتوسط بأقاليمها الأربعة، وامتلاً الوجدان بكل ما في المعمورة من ألوان، فبقدر ما كانت الرحلة من أجل الجزة الذهبية، وهي مطلب (ياسون) إلا أن رفاقه الخمسين كانوا شتى في مطالبهم، وفي ما يرومون ويرغبون، كانوا يريدون السياحة وتأمل البلاد والبحار، فاستطاعوا أن يملؤوا أنفسهم بمباهج الأخضر في كل مكان حطوا به رحالهم، وقد كان طيباً معهم غمر أنفسهم بالسكينة والهدوء، على عكس الأزرق الذي طالما أفزعهم ورؤّعهم،

وكذا الأصفر في رمال ليبيا الحارقة الذي راح يتهدّدهم ويتوعّدهم مكشرا عن ناب الموت للجميع دون استثناء.

5- الفضاء الأخضر في الرحلة الملحمية الرومانية: (رحلة إنياس)

لم يكن (إنياس) يبحر مجددا حتى تستدعيه خضرة ما، هنا أو هناك، وتعرض عليه الإقامة حتى يكاد ينسى مهمة رحلته القدرية.

- دُعِيَ للخروج فمكث بسفح (أيذا) حولا كاملا.
- خرج مباشرة نحو (تراقيا) ليستقر بها فترة.
- أبحر نحو (كريت) لبيني البيوت والقرى داخل خضرتها الحاملة.
- استطاب المكوث في صقلية.
- إلْتَذَّ له العيش في (قرطاجنة) المدينة الفتية داخل الغابة، وسط الخضرة الدائمة التي لا تزول.

فالأخضر رمز للاستقرار والإستيطان، في مقابل الهجرة التي تسكن الأرواح والسفن العائمة داخل الأزرق المتحرّك أبدا، وفي كلّ ذلك تجميع لصورة إيطاليا الوطن المنشود المتميّز جدا عن كل هذه الأمكنة، بما حفلت به من مزايا وجمال. فإن (هيسبيريا) قدر الطّرواديين لا بدّ أنها الأجمل والأكثر نضرة واحتقالا من كلّ ربوة، وبادية، وحقولها الأوسع والأزهى حياة في كلّ المواسم، وهكذا يكون (إنياس) قد عاين بنفسه كلّ بلاد العالم، وأدرك أن الأقدار اختارت له ما هو الأسمى والأكثر رونقا مما رأت عينه ورسم خياله.

البيت في الفضاء الأخضر:

- كان (جلجامش) يشعر بالوحدة والفراغ في بيته، ولما تبنت أمه إنكيديو تفتحت عيناه إلى خارج أسوار البيت، وتضخم قلبه بالمحبة والألفة.

- لم يندع (رستم) بمظهر البيت في الأجمة، لذلك كان متحفزا لأي طارئ سيء بقدر ما استغل كل ما فيه من أطعمة وأشرية.

- أعلم الإخوة الخمسة أن قصر (فانارافاتا) أعد خصيصا لإحراقهم جميعا حتى الموت، لذلك حولوه إلى أتون من غضب.

- أقام (لاكشمان) كوخا في وسط الغابة جعله بيتا لـ (راما) و(سيتا)، ولكنه عندما ابتعد عنه اختطف الأميرة.

- يندع (أوديسيوس) بمظهر البيت في كهف السيكلوب لذلك يتوقع القرى والهدية، فيتلقى الفزع والوجع.

- كان بيت (سيرسة) عمة (ميديا) مليئا بالبهجة والأنس، والكثير من الدفء والطعام، ولكن ربة البيت طردت ضيوفها من الأرجو بالإثم الذي اقترفته أيديهم (قتل ابن أخيها).

- كان (إنياس) أكثر الرحالة إسراعا ببناء البيت (تراقيا، كريت، صقلية...)، ولكن الأمر بالخروج كان يأتيه، فيخرج إلى العواصف والأنواء.

II - الفضاء الأزرق في الرحلة الملحمية:

1- الفضاء الأزرق في الرحلة الملحمية لبلاد الرافدين (ملحمة جلجامش): كانت رحلة جلجامش

عبر البر، من مدينة أوروك وحتى غابة الأرز، لكننا نجد الإشارة إلى البحر في بداية الملحمة (المقدمة/ الخاتمة)، وهذه الإشارة لا تعني رحلته الأولى إلى غابة الأرز، بل تعني رحلته الثانية إلى

العالم الآخر؛ إلى عالم جده المخلد أوتتابشتيم، وهكذا فإنه لا حضور للأزرق العظيم في رحلة جلجامش وإنكيدو، إذ تم في المقابل، التركيز على طول المسافة برا وعلى غابة الأرز الجبلي/الوحشي المدهشة.

الأقيانوس: أما رحلته إلى العالم الآخر فقد كان البحر ضمن فضائها وإن اكتتفه السواد والظلام.
"عبر المحيط، البحر المترامي إلى حيث تشرق الشمس".⁽¹⁾

2- الفضاء الأزرق في الرحلة الملحمية الهندية:

أولاً: في المهاباراتا:

البحر: لم تظهر صورة البحر بشكل واضح في نص الملحمة، رغم أن الرحلة تتحدث عن إقدام الرحالة على اجتياز بعض الأبحر، خاصة في رحلتهم الأخيرة لما تنازلوا عن العرش "سار أهل (باندو) (المهماتما) (كذا) أصحاب النفوس السامية، يزدادون رسوخاً في تمارينهم في مجاهدة النفس وأصاله الزهد تقودهم أقدامهم إلى بلدان كثيرة عبر البحار، والأنهار".⁽²⁾ ولما تتواصل الرحلة طويلاً "كان هذا الصف يسير ويجد في السير وكان ثمة كلب لا ينقطع يتعقب خطاهم، تابع القوم مسيرهم وبلغوا البحر المعروف بلون مياهه الحمراء، وفيه رمى أرجونا قوسه الجانديفاً، وجعبته اللتين لا تتضرب منها السهام".⁽³⁾ واستمروا سائرين "ولما بلغوا ساحل بحر الملح الشمالي توجهوا نحو الزاوية

¹ - السواح فراس: جلجامش، ص 109.

² - المهاباراتا، تر/ عبد الإله الملاح، ص 300.

³ - نفسه.

الجنوبية الغربية، وما هي إلا مسيرة قصيرة حتى يمموا صوب الغرب فبلغوا موقع دفاركا فوجدوها مغمورة بمياه البحر".⁽¹⁾

رغم أن الهند محاطة بالماء الأزرق في ثلثي جوانبها، ولكن بما أنها بلد عظيم جدا فهي شبه قارة كاملة. ولهذا فملاحمها لم تخرج عن إطار هذه الجغرافية الكبيرة، فالرحلة والسياحة كانت داخل الأرض الهندية العميقة. ولكن الأزرق لم يكن مفقودا أيضا، فالمساحات الزرقاء من البحيرات كانت حاضرة داخل الفضاء الأخضر ومحفوفة بالجمال والوهاد. وغصت الرحلة بالحديث عن الأنهار، وما أكثرها في بلاد الهند، مثل نهر (يامونا).

ويظهر نهر (الغانج) مساحة مائية للتنقل، تعبرها الرحلة فتفصلها عن المكان المؤسف، والزمن الماضي، لتنتقل إلى حاضر جديد، فضاء للتطهر في قداسة (الغانج) واكتساب خبرة أخرى مختلفة وخرجت منه الحورية (غانجا) التي تلد الطفل (غانجاتا) لـ (شنتانو).

وبحيرة (ديفتافنا) في مدينة (كوفيرا) إله الثروة فتبدو هذه البحيرة مليئة جدا بأزهار اللوتس السابحة على صفحاتها، وزهور الزنبق، وأقيمت لحراستها عفاريت (الراكشا) المفزعة.

- تسكن (الغانج) حوريات كثيرات تمنح بعضهن المساعدة للرحالة (أرجونا).
- لقد وصف النهر بأنه أزرق مثل لون السماء.

ثانيا: في الرامايانا: كان البحر الفاصل بين جنوب الهند (راما) وجزيرة الشيطان (سيريلانكا)، هو الإمتداد المتناهي في الزرقة التي لا تعرف الحدود، فمذاك البحر سوى المحيط الهندي.

العجيب أن الملحمة لا تتحدث عن إمكانية صناعة وإستعمال الزوارق، أو الأطواف أو السفن، أو القوارب، أو الفلك، لعبور هذه المسافة الفاصلة بين آخر جنوب الأرض القارية للهند، وجزيرة سيريلانكا بل تستعمل مغامرة أسطورية غريبة (القرن المطاطي هانومان)! ويصير بذلك هذا الأزرق هو العائق بين رحلة إنقاذ سيتا من براثن مختطفها الشيطان، حيث تدرك الحيرة الشديدة راما ومعاونوه الأبطال في كيفية اجتياز هذه الزرق التي لم يعتدوها، ولم يحسبوا لها أي حساب، فإن الأبطال جميعا لا يمكنهم أن يخطوا خطوة واحدة داخل هذا الموج الصاخب بمده وجزره. كما زحرت الرامايانا بالحديث عن مساحات مائية كثيرة مرت بها الرحلة مع (سيتا) قبل الإختطاف، ثم في رحلة استرجاعها، وخاصة الحديث عن نهر الغانج، الذي يقول الهنود أنه يعكس لون السماء أيضا.

3- الفضاء الأزرق في الرحلة الملحمة الفارسية:

إن النص الذي عالجه البحث هو رحلة (رستم) إلى مازندران من أجل تخليص الملك (كيكافوس) من براثن الجني الأبيض الذي استتجد به ملكها، ووصفت الرحلة بشكل دقيق خطوات الرحالة وسيره من مدينة (زابلستان) حتى (مازندران) دون أن يكون في تلك المسافة أي ذكر للأزرق، لأن الرحلة كانت داخل الأرض القارية بين المنبسط والمرتفع من سهول وجبال وصحاري، ولكن هذا لا يعني أن الملحمة الفارسية أغفلت هذا الفضاء العظيم الذي يفرض سلطانه على كل النصوص الملحمة في العالم بأسره.

4- الفضاء الأزرق في الرحلة الملحمة الإغريقية:

أولا: في الأوديسة: ملأ الفضاء الأزرق جل مساحة الرحلة الأوديسية حتى وإن لم يركب على متنه أكثر من مكوثه على الأرض، لأن هذه الأرض جزر تابعة للبحر ويظل فيها جارا له، يتطلع إليه

حتى ليوشك أن تزرَقَ عيناه - إن لم تكن - خاصة وقد قضى سبعة أعوام في ضيافة الحورية (كاليبسو).

- كان الإنطلاق مباشرة نحو البحر، فطروادة (اليوم) تقع على الساحل.

- كانت كل مساراته بين الجزر، على صفحة اليم الأزرق.

- كان قصر (سيرسة) على ربوة قريبة من الشاطئ.

- كان بعض طعام الرحالة ورفاقه من جوف هذا الأزرق العميق.

- كان هذا الأزرق قبراً للكثيرين من رجال الرحالة.

- كان الأزرق طريق العودة إلى الوطن، إذ لم يكن لـ (أوديسيوس) ورفاقه طريقاً برياً يعبرونها بديلاً عن البحر.

- لم يظهر في الرحلة حديث عن طريق رحلة الذهاب إلى طروادة (القدم)، وكيف كانت؟! وهل جابهت شيئاً من المخاطر والأهوال؟!

- إنه من المنطقي أن تكون الرحلة الأولى (القدم إلى طروادة) عن طريق البحر الذي لا بديل له. ولأنه كان يملك أسطولاً (12 سفينة) مثل بقية جميع الإغريق المشاركين في حرب طروادة.

- كان البحر صديقاً لرحلة (أوديسيوس) أحياناً، عندما تكون الرياح هادئة وادعة، وكان عدواً لدوداً عندما يكون غاضباً صاخباً، وبوسيدون متحفزاً للانتقام للسيكلوب، وزيوس مستعداً للانتقام للشمس ومحمية عجولها التي التهمها رفاق (أوديسيوس) وقد أعذروا وأنذروا.

ثانياً: في الأرجوناوتيكاً: رغم أن (الأرجوننت) قد توقفوا كثيراً في الجزر للتزود بالمؤن وطلباً للراحة، إلا أن الأزرق كان رفيقهم الدائم الذي لم يبرحوه أبداً طيلة مدة الرحلة ومسافتها، حتى وهم يغيرون مسارهم نحو مجاري الأنهار داخل الأراضي القارية في (أوروبا)، وحتى والعاصفة تلقي بهم في خليج سيرت الليبي الذي حجزهم في الرمال الدافئة، وهكذا نجد في هذه الرحلة ذكراً لكل البحار في حوض المتوسط: (البحر الأيوني/ البحر التيراني/ البحر الأدرياتيكي/ بحر إيجه) بالإضافة إلى البحر الأسود، كما نجد ذكراً لعشرات الجزر المبتوثة في هذا الأزرق، ونذكر للمضائق جُلّها: (مضيق الدردانيل، البوسفور، الهيليسبوننت، صقلية)، والحديث عن مصبات الأنهار فيه الجالبة له مزيداً من الزرقة الناعمة.

5- الفضاء الأزرق في الرحلة الملحمية الرومانية:

في الإنيادة: كانت طروادة آيلة إلى السقوط والنيران تضطرم في كل الأمكنة، و(إنياس) يجتهد أن يفعل شيئاً، وتبدأ الإشارات بضرورة الخروج من ملحمة الموت، في رحلة نحو الحياة، ولما يصل جبل أيدا يبدأ ورفاقه في صناعة السفن، أسطول كامل من عشرين سفينة؛ فالوجهة كانت زرقاء وتراها العيون الزرق، رغم أنه كان بالإمكان تماماً زراعة وطن آخر في الجوار، أو التنقل برا إلى أبعد مكان في العالم القديم، بعيداً عن الإغريق الذين أخذوا في براثنهم دماء شهداء (إليون) أميرة المدائن.

لم يفكر (إنياس) ورفقته في طريق آخر غير الطريق الأزرق الممتد خيطاً واحداً صامتاً، أو هي سلسلة جبال متحركة مداً وجزراً، تموج في قوة وجبروت، وبأس، تستريح وتستيقظ بكل نشاط، وقد ملّت نساء طروادة المهاجرات هذه الزرقة فقررن إحراق هذه العوامات حتى يتخلصن نهائياً من دوار البحر.

كان البحر صديقا حميما لرحلة (إنياس) فلم يقس عليه كثيرا، إلا حينما خرج من صقلية وهو ينوي الإتجاه شمالا نحو (إيطاليا) إلا أن الرياح العاتية المفاجئة أثارت البحر وأمواجه، وأخلطت مده وجزره، فألقى به على سواحل (إفريقية) حيث وجد الملكة الفينيقيّة المهاجرة (ديدو) تبني المملكة الجديدة (قرطاجة) فليس (نبتون) سيد البحار هو الذي أغرق سفن (إنياس) وتسبب في ضياعه وضياع رفاقه، بل (جونو) سيدة النساء في (الأولمب) الحقود على أهل طروادة بتآمرها مع سيد الرياح، ونظرا لأهمية الرحلة البحرية في حياة الرومان القدماء، فقد بنوا المعابد الخاصة للرياح والأعاصير البحرية (التمبيستاتيس).

III - الفضاء الأسود في الرحلة الملحمية:

1- الفضاء الأسود في الرحلة الملحمية لبلاد الرافدين (ملحمة جلجامش): عندما تتبعنا خطوات الرحالة (جلجامش) نحو جده (أوتنابشتيم) استشرعنا أجواء رحلة (الإسكندر) بينما هي مختلفة عن أجواء زيارة عالم الموتى عند الإغريق والرومان، إنها تشبه السير في أرض الأحياء، إلا في بعض مساراتها المظلمة التي توحى بالإنقطاع عن الحياة، والدخول في مملكة أخرى، فهو لم يلق أرواحا، أو أشباحا أو أطياف الموتى، بل التقى بمن قدر له النجاح والخلود (الخضر - عليه السلام -) أو ملائكة الرحمن (إسرافيل - عليه السلام -). إن المسار هو مسار مظلم، معتم، يشد سواده، فتختفي معالم الطريق ولكن في نهايته تظهر فيه بعض مظاهر الجنة، كالحقائق الغناء.

2- الفضاء الأسود في الرحلة الملحمية في الهند:

في ملحمة المهابهاراتا: (1) رحلة الصعود إلى السماء / إلى جنة (إندرا):

¹ - يسجل البحث ملاحظة أنه لم تتناول (الرامايانا) رحلة في الفضاء الأسود.

ما أشبه اليوم بالبارحة، يوم خرج هؤلاء الستة، بعد مباريات النرد التعيسة ليعيشوا حياة المنفى، سوى أنهم بدؤوا اليوم سعداء، كانوا يسيرون في صف واحد يتقدمهم (يوديشترا) ويلحق به (بهيما) ف (أرجونا)، فأكبر التوأمين (ناكولا) ثم أصغرهما (سهديفا) ف (دروبادي) السمرء الجميلة ذات العينين كزهرة اللوتس.

المسار نحو الجنوب: لما بلغوا ساحل بحر الملح الشمالي توجهوا نحو الزاوية الجنوبية الغربية، وما هي إلا مسيرة قصيرة حتى يمموا صوب الغرب، فبلغوا موقع (دافاركا) فوجدوها مغمورة بمياه البحر.

المسار نحو الشمال: ثم قصدوا الشمال بعدئذ وتابعوا طريقهم حتى بلغوا جبل (هيمافات) الشاهق فاعتلوه، وإذ انحدروا من قمته، واجهتهم كثبان ضخمة ومن بعيد طالعهم أعلى جبل ما رأوا من قمم قمة ذلك الجبل الأسطوري جبل (ميرو).

- المحطة الأولى: سفح الجبل: توفيت (دروبي).
- المحطة الثانية: سقط (سهديفا).
- المحطة الثالثة: سقط (ناكولا).
- المحطة الرابعة: سقط (أرجونا).
- المحطة الخامسة: سقط (بهيما).
- ثم جاء (إندرا) بعربته يدعو (يوديشترا) الذي رفض صحبته، إلا إذا كان مع جميع إخوته فأخبره بأنهم قد سبقوه إلى الجنة بأرواحهم، وأنه مدعو إلى الجنة بجسده، فرفض مرة أخرى إلا إذا رافقه كلبه، واشتد في حرصه على ضرورة مرافقة كلبه له، حتى تحول الكلب إلى صورته الحقيقية، إذ كان الإله (دارما) وهذا حتى يمتحن أخلاقه ووفاءه.

وهكذا انطلقت العربية حاملة (يوديشترا)، بصحبة (دارما) و(إندرا)، اللذين أوعزا إلى دليل السماء أن يواصل به المسير نحو أهله وصحبه، فسار به الدليل عبر ممر وعر تتصاعد منه روائح كريهة.⁽¹⁾

التقت يوديشترا إلى دليله يسأله: يا للمكان العجيب، أترى هذا الممر يطول؟ أتراه من السماء أيضاً؟ فأين هم إخوتي إذ لم نلقهم بعد طول المسير؟ فتوقف الدليل قائلاً إن هذا الحد الذي أمرت أن أرافقك إليه، أما إذا كنتم جلالتم قد تعبت من مشقة السير فإني طوع أمركم لأعود بكم إلى حيث تجدون الراحة.⁽²⁾ ففكر في العودة لشدة تعبته وإحساسه بالحيرة والضياع، ولكنه سمع أصواتاً تتدب وتتنوح، فثار في أعماقه إحساس عارم بالعطف على هؤلاء البؤساء، ثم تملك رأسه دوار وفقد السيطرة على نفسه حين تعرف على أصوات أهله ورفاقه، فرفض العودة وقرر البقاء مع هؤلاء المعذبين، فجاءه ملوك الجنة وهم يقولون إنه قد نجح في الإمتحان مرة أخرى، فما رأى وسمع لم يكن إلا صوراً وهمية من فعل (إندرا)، بينما جميع أهله نزلوا في الجنة كما وعدوا، ووعد هو أيضاً.⁽³⁾ جزاء أعمالهم الصالحة، وهكذا نجح في رحلته إلى العالم الآخر ليلقى الخلود بجسده أيضاً.

3- الفضاء الأسود في الرحلة الملحمية عند الفرس: كان البحث قد وقف عند الفضاء الأسود في

الرحلة الأسطورية الفارسية، عندما عالج نموذج رحلة الإسكندر الأكبر، بينما خلا النموذج الملحمي (رحلة رستم إلى مازنداران) من رحلة إلى العالم الآخر، وبالتالي من الفضاء الأسود، وقد لا نجد فضاء أسود، ولا زيارة إلى العالم الآخر في ملحمة الشاهنامة، عدا ما عثرنا عليه في نموذج

¹ - المهابهاراتا، تر/ عبد الإله الملاح، ص 303.

² - السابق: ص 307.

³ - نفسه.

الإسكندر الأكبر الذي تبناه البحث نموذجاً أسطورياً لا ملحمياً، نظراً لخلو رحلة الإسكندر من الأجواء الملحمية البطولية على عكس ما توفر في رحلة (رستم)، التي لم تخل بدورها من الحديث عن بعض الفضائل المظلمة بفعل السحر وتأثير الجنى الأبيض الذي أطبق على الملك (كيكاوس) وجنده داخل الظلام دون سجن أو إغلاق، فالفضاء الأسود هو فضاء للظلام وليس للموت دائماً.

4- الفضاء الأسود في الرحلة الملحمية عند الإغريق: "جاء في الأوديسة أن عولس عندما زار الجحيم شاهد بعض الأبطال المشهورين: ورأيت أيضاً تيتيوس ابن الأرض الممجة... ولمحت أيضاً تانتال... ورأيت أيضاً سيزيف.

واستناداً إلى مؤلفات فيكتور بيرار فإن الفقرة السابقة قد تكون نصاً حُرِّفَ فيما بعد، في حين أن النص الأولي لهوميروس كان مكتوماً جداً حول وجود تعذيب⁽¹⁾ وهذا ما وقف عليه البحث في الترجمة العربية.

5- الفضاء الأسود في الرحلة الملحمية الرومانية:

في الإنيادة: لقد زار أنخيس ولده (إنياس) في المنام وطلب منه السعي إلى زيارته في العالم السفلي رفقة (سبيل) فلما التمس منها ذلك وافقت شريطة أن يكون شجاعاً قوي القلب. وكلاهما تحدث عن الرحلة وكأنها فعل هين بسيط: فقالت: "إنه من السهل يا ابن أنخيس أن تتحدر إلى الجحيم، فإن الباب مفتوح ليل نهار".⁽²⁾

¹ - مينوا، جورج: تاريخ جهنم، ص 30، 31.

² - فرجيل: الإنيادة، ص 130.

قال: "إن المشاق والمهالك لم تأخذني على غرة يا سيدتي... ولكنني أطلب إليك سؤالاً، فما هو باب مسكن الموتى، وكما أتمنى اجتيازها، عليّ أظفر بزيارة أبي... ألم يرجع أورفيوس امرأته من الموت وهو لا يحمل إلا قيثاره؟"⁽¹⁾

وتبدأ مسيرة الرحلة مع كل شيء مزعج ومرفوض، تمجبه النفس وتهرب منه. بداية بالروائح الكريهة، ثم بالظلام الشاحب. والمخلوقات الغريبة، وأهل العذاب... رغم أن العالم الآخر ذو وجهين: وجه للأسود ووجه للنور، وربما غلب أهل النور أهل الظلمة والسواد.

فضاء الظلام: قبل الولوج إلى دروب ومسالك العالم الآخر، "كانت هناك مغارة كبيرة تنبعث منها رائحة كريهة إلى حد لا يقدر الطير معه أن يجتازها طائراً"⁽²⁾ وعلى (سيبيل) أن تقوم بتقديم طقوس خاصة وقرايين ضرورية لإنجاح الرحلة. ثم غاصت في الكهف ومعها إنياس⁽³⁾ لقد ذهباً معها يجوزان أرض الأشباح. ولأنها مساكن الموتى والأرواح، فالعتمة هي نصيبهم هناك. خاصة في طريق الذهاب، فلا يجتازون إلا ظلاماً لا يكادون يرون من خلاله شيئاً. لأنه ومنذ الآن لا شيء ستكون له أهمية، بالنسبة لمن غادروا الحياة. إلا المرفأ الذي سيحملون إليه. فقد يستمر مظلماً وقد ينفجر نورا.

- الظلام: كانت أرض الأشباح تشبه الغابة التي يتخللها نور باهت شبيه بنور البدر الذي تراحمه الغيوم.

¹ - نفسه.

² - السابق، ص 133.

³ - نفسه.

- أبواب الجحيم: يقيم بها الحزن، الندم، السقم، الخوف، الجوع، العوز، الموت، النصب، النوم، الحرب.

- غرف ملكات الرعب.

- دردارة تسكنها الوحوش والمخلوقات الغريبة.

- نهر الجحيم (ستيكس المقدس) الذي يعمل به الملاح شارون ناقلا أرواح الموتى ممن شملتهم الجنائز الواجبة.

- سربيروس الكلب الحارس: كان ينفخ أفواهه الضارية الثلاث.

- حقول الحداد.

- أرض الأبطال.

- قصر بلوتو وسهول إليز: سبيل إلى اليمين.

- طرطوس مقر الأشرار: سبيل إلى الشمال.

ولقد حُدِّدَ مدخل الجحيم جغرافياً: "إنه في مستنقعات الأكيرون بالقرب من كان في مقاطعة كامبانيي (Campanie)، ويزكي النشاط البركاني في هذه المنطقة، والمناظر الكئيبة التي كونتها، شهرته بشكل قويّ: وظلت فوهات الجحيم تحدد لمدى طويل بين الفيزوف والإتنا في كومباني أو في صقلية، ويتم الدّخول إليه عبر كهف تخرج منه روائح تشير الغثيان"⁽¹⁾

¹ - مينوا، جورج: تاريخ جهنم، ص 38.

فضاء النور: بعد أن قدّم إنياس (الغصن الذهبي) هدية إلى ربة العالم السفلي. أسرع مع رفيقته إلى

مساكن الصالحين. فما أجمل تلك الفضاءات التي أبصرها هناك.

- الفسحات الخضراء.

- تحيطها الغابات.

- نور جنتهم أشرق وأعم مما وقعت عليه عين بشر.

- لهم شمس غير شمسنا. ونجوم غير نجومنا.

- تركت خيولهم ترعى في الحقل.

- اتخذوا من العشب مجلسا.

- فاح عليهم شذى لطيف من بستان من الغار

- الهضبة/ السهل.

- فأبصر بأنخيس وقد جلس إلى واد أخضر⁽¹⁾

أهل فضاء النور:

- بعضهم يلهو بالملكمة والركض.

- بعضهم يرقص رقصا موقعا.

- وهم يغنون أنغاما بهيجة.

¹ - فيرجيل: الإنيادة، ص 144.

- أقبل بعضهم يحتفلون.

نماذج من أهل فضاء النور في العالم الآخر:

أ- السابقون:

- أورفيوس:

- جبابرة السلف السابق مثل أيلوس ودردنوس الذي بنى طروادة.

- الذين ماتوا من أجل الوطن.

- الكهنة المقدسون.

- الشعراء الذين لم يأتوا أمرا إدا.

- المخترعون البارعون.

- الذين قدموا للبشرية خدمة عظيمة.⁽¹⁾

ب- اللاحقون: أبصر (إنياس) أباه وقد جلس في واد أخضر وهو يعتني بأرواح أولئك الذين

سيولدون من نسله... ثم نظر فأبصر أهل نهرا. وعنده حشد عظيم من الأرواح، وقد تكاثفت تكاثف

النحل على جنة الزنابق في يوم صيف هاديء، وهي الأرواح التي تشرب من نهر النسيان لتعود

إلى العالم الأعلى. أخذ (أنخيس) ابنه ورفيقته إلى هضبة يرون منها الجمع كله، وتطالعهم الوجوه

القادمة قائلا: "هؤلاء الذين سيأتون من بعدك... إن الأقدار لن تظهره للبشر إلا بمقدار".⁽²⁾

¹ - نفسه.

² - السابق، ص 146، 148.

تتحدث الأساطير والملاحم عن عالم الموتى والراجلين إلى الأبدية على أنه العالم الآخر، فالأول هو عالم الحياة الدنيا، وأنه عالم الموتى، فعالم الحياة هو العالم الدنيوي. رغم أنهم يرون أن بعض الأرواح الساكنة فيه هي أرواح أهل المستقبل، لم تعيش ولم تمت بعد. وعالم الجحيم رغم أنه للجميع المجازين بالجنة والمعاقبين بالجحيم، ولكن غلبت عليه هذه التسمية.

ومما يمكن أن يلاحظ أن الشاعر قد أبدع في وصف تخوم العالم الآخر بفضائيه المتميزين، وركز على المباني والعمارة في شقه المظلم التعيس: "أبواب الجحيم/ غرف ملكات الرعب/ رأى بناء عظيما وحوله سور ذو ثلاث طبقات/ بوابات عظيمة/ برج من النحاس جلست فيه (تيزيفون) إحدى ملكات الرعب/ إن قدم الصالحين لا تجتاز عتبة هذا المكان."⁽¹⁾ وقد يكون لهذا دلالة الإغلاق والحصار، فالمعاقبون مسجونون محرومون من الحرية والإنطلاق. مقيدون خلف الأسوار والبنائات العالية.

بينما ركز على الطبيعة ومظاهرها في شقه النوراني السعيد: "الفسحات الخضراء/ الغابات/ نور جنتهم/ شمس/ نجوم/ خيول/ حقول/ العشب/ شذى/ بستان/ النهر/ أكاليل بيضاء/ هضبة/ سهل/ واد أخضر/ جنة الزنايق/ صيف هاديء"⁽²⁾

ملاحظات واستنتاجات:

إن مجرد القبول بفكرة/ اقتراح الرحلة إلى العالم الآخر يعني أن الرحالة (بسيشة، أوديسيوس، إنياس، الإسكندر، جلجامش، أورفيوس، هرقل، أرجونا، إنكيديو، إنانا، أرداويراف...) قد غلبت فكرة الأدبية على نص الرحلة، وأنه يراهن على البقع البيضاء التي تبعث النور في الفضاء الأسود، وأنه

¹ - السابق، ص 134، 142.

² - السابق، ص 144.

لا ينظر بكل سوداوية، أو تشاؤم أو إقصاء لهذا العالم من حياة الأحياء وتفكيرهم، بل هو يحاول أن يدخله عالم الصورة الجميلة، من خلال نظرة رحلية شفافة ترى بالأبيض والأسود أن الرحلة إلى العالم الآخر هي إقرار بأنه موجود وأنه جزء من الوجود الإنساني، عليه أن يتقبله ويستعد للرحلة إليه، وما الظلام فيه إلا جزء من القتامة التي تعكر قلوب البشر.

نكاد لا نجد فروقا تذكر بين الفضاءات الرحلية الأسطورية (الأخضر/ الأزرق/ الأسود) وبينها في النص الملحمي، قد تتميز الرحلة الملحمية بالطول وهذا ما ييسر للشاعر فضاء وصفيا أوسع قد يركز فيه على ملامح ومواصفات الأمكنة، ولكن الأسطورة على قصرها، وضآلة حجمها لم يبخس الوصف المكاني حقه، إن كان ذلك يعطي للرحلة أهمية أنسب وأدق، وهذا ما لاحظته البحث، وهو يقرأ النصوص الأسطورية لرحلات هرقل، أو النصوص الأسطورية لرحلة جاسون/ ياسون قبل أن تصير نصا ملحميا لدى أبولونيوس الرودي، وغيرها كثير من النصوص التي صادفها البحث مثل رحلة الصيد (الكاليدوني)، ورحلة التطهر لأوريستيس بن أجامنون من دم أمه كليتمنسترا، وحتى رحلة الحمار الذهبي لدى لوكيوس أبوليوس. نلاحظ أن شطر الرحلة إلى العالم الآخر إلى شطرين سنة في معظم النصوص باختلاف الحضارات التي أنتجتها.

فضاء السماء:

لم يفوت مبدعو الأساطير والملاحم أي فضاء كان، حتى فضاء السماء والأجواء.

- العراق القديم: نقلت إنانا النواميس المقدسة من أعماق الأبسو إلى إيريدو بوساطة قارب السماء، وهناك من أول رحلة جلامش على أنها رحلة فضائية.⁽¹⁾ كما أورد التراث السومري قصة إيتانا والنسر.⁽²⁾

- مصر القديمة: كان رع (الشمس) يتنقل بقارب ملايين السنين بين عالمي الليل والنهار.

- الهند: في المهابهاراتا استعمل أرجونا عربة لينتقل إلى سماء إندرا، وفي الرامايانا تظهر العربة الهوائية التي يستعملها الشيطان رافانا، ثم رام.

- بلاد فارس: في الشاهنامة يتم الحديث عن رحلة يقوم بها كيكائوس الملك المغامر إلى السماء مستعملا عقبانا (أو نسورا).⁽³⁾

- الإغريق: استعمل الإغريق الحصانين المجنحين بجاسوس وأريون كما وظفوا خفي هرمس المجنحين اللذين يجعلان من يرتديهما يطير بسهولة (بريسوس) كما صنع ديدالوس وأركادايوس أجنحة طارا بها. وكان رفيقا رحلة الأرجو يجيدان الطيران (كاليس وزيتيس ابنا يورياس ريح الشمال).

- الرومان: تتبنى بعض الأساطير الرومانية الأصول الإغريقية عن الطيران.

1 - ينظر: النيلي، عالم سبيط: ملحمة جلامش والنص القرآني، قراءة جديدة تكشف عن مرموزات الملحمة وفضائية رحلاتها من خلال وحدة الشخصيتين جلامش وذي القرنين على ضوء اللغة والعلم، إعداد/ فرقان الوائلي، دار المحجة البيضاء، الطبعة الأولى/ 2004، ص 15 إلى 23.

2 - أنظر أبو السعود صلاح: أساطير سومر وبابل، دار مشارق، دار طيبة، الجيزة، ط1، 2009، ص 332 إلى 339.

3 - louis sabatié : contes et légendes. Des hommes volants, fernand nathan, editeur Paris, 1961, p51,83.

المبحث الثالث: اتجاه الرحلة الأسطورية:

أولاً: اتجاه الرحلة الأسطورية في عالم الأحياء:

1- اتجاه الرحلة الأسطورية في بلاد الرافدين: (أسطورة إنكي وإنانا):

تستعد (إنانا) المعبود الرئيس لمدينة (أوروك) في مستهل عصر السلالات الأولى/ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد . للسفر إلى موطن (إنكي) رب الأعماق المائية العذبة، والمعبود الرئيس لمدينة (إيريدو) العريقة، والتي كانت المعبد الرئيسي للثقافة العبيدية السابقة على الثقافة السومرية في وادي الرافدين الجنوبي.⁽¹⁾

أ- فضاء الإنطلاق: انطلاق نحو العودة: استقبل الأب (إنكي) ابنته (إنانا) في هيكله المقدس بأعماق (الآبسو)، ومن هناك تنطلق في طريق العودة.

لما يكثر (إنكي) من الشراب الذي كانت تحته عليه (إنانا) تلعب الخمرة برأسه فيأخذ في التخلي لها عن نواويس الحضارة، مهدياً إياها واحداً إثر آخر، وعندما تستعد لمغادرة المكان يطلب من خادمه أن يساعدها في الوصول سالمة إلى مدينتها فتجمع (إنانا) النواويس المقدسة وتحملها جميعاً في زورق السماء .

ب- فضاء المسارات:

المسار الأول: دُفع الزورق فانساب بعيداً عن مرفأ الآبسو .

¹ - السواح فراس: الأسطورة والمعنى، ص117.

المحطة الأولى: إن زورق السماء في الميناء الأول على الطريق، يهجم (إسموند) خادم (إنكي) بتنانين (الإنكوم)، تقذف (ننشوبور) خادمة (إنانا) بالتنانين، وتعيدهم إلى الأرض.

المسار الثاني: تواصلان المسير.

المحطة الثانية: إنه في المرفأ الثاني على الطريق.

المسار الثالث: المعركة مع عمالقة الأورو.

المحطة الثالثة: لقد دخل لتوه محطة (دولما).

المسار الرابع: المعركة مع وحوش (اللاباما).

المحطة الرابعة: يواصل الزورق مساره.

المسار الخامس: المعركة مع (الكوكالجال).

المحطة الخامسة: المعركة مع (الإنيونون).

المسار السادس: إنه على وشك الدخول إلى (أوروك).

المحطة السادسة: المعركة مع حراس قنال (الإيتورونجال).

المسار السابع: يواصل مسيره.

المحطة السابعة: في الميناء الأبيض.

المسار الثامن: الزورق يدخل (أوروك) من بوابة (نيجولا).

ت- فضاء الهدف (محطة الوصول) المحطة الثامنة: إن المكان الذي قُدمت فيه النواميس سوف يدعى بالميناء اللازوردي.⁽¹⁾

نتائج الرحلة: "لتبق النواميس التي أخذتها في هيكل مدينتك... /لتزدهر أحوال أوروك.... /ليكن شعب أوروك حليفا لشعب إيريدو، /ولتتبع أوروك مكانتها العظيمة.⁽²⁾

لقد كانت هناك نقطة إقلاع بسلام، استعملت فيها الرحالة الذكاء والحيلة، ثم استعملت لغة القانون في المحطة الأولى لما استوقفها الخادم، ورفضت التنازل عن هديتها، واضطرت إلى استعمال العنف لما واجهها بالقوة. وراحت في كل مسار تدافع عن غنيمتها، وكنزها الذي تريد إيصاله إلى مملكتها، لقد كانت حريصة جدا على هذا الكنز، وكانت تتوقع ردة فعل (إنكي) لذلك أحضرت معها خادماتها الأمينة والقوية، التي أمكنها الاعتماد عليها في المحافظة على الكنز، وفي تخطي جميع العقبات، حتى حققت جميع أهدافها الخاصة بالوطن.

2- اتجاه الرحلة الأسطورية في مصر القديمة:

إتجاهات (إيزيس): لقد قدر لـ (إيزيس) أن تعيش حياتها كلها مرتحلة⁽³⁾ نحو الشمال تارة، ونحو الجنوب تارة أخرى، وعلى جوانب النيل شرقا مرة وغربا مرة أخرى.

¹ - السابق، ص 125، 126، 127.

² - السابق، ص 125.

³ - إن الحديث عن رحلة أوزوريس وسياحته في أرض الله لتعليم الناس، ثم رحلات إيزيس بحثا/ عودة/ فرارا/ اختباء/ إنهاء الرحلة بالحرب لإسترجاع الحق/ الشرعية، يشبه رحلة أوديسيوس، وإنياس، ويوديشترا (وإخوته في المهابهاراتا)، وراما (لإسترجاع سيتا) إنما كان ينقص أسطورة إيزيس هو الحبكة الملحمية لتصير نصا ملحميا، إذ أنها حازت على جميع ملامح الرحلة الملحمية.

أراد (أوزيريس) أن ينشر الحضارة في أنحاء الأرض، فخلّف زوجته (إيزيس) على عرش مصر، وخرج في جيش عظيم أخذ يجول به البلاد، يعلم الناس هنا وهناك كيف يستثمرون الأرض ليأكلوا من طيبات الله رزقا حلّالا، ثم قفز عائدا إلى مصر بعد أن أدى رسالته. فكان جزاؤه عند أخيه (ست) أن أرداه قتيلا. إذ جعله يلج تابوتا جميلا ثم يحكم إغلاقه، ويلقيه في النيل.⁽¹⁾

الرحلة الأولى: شرعت (إيزيس) تبحث عن جثة الزوج القتل في طول البلاد وعرضها حتى وجدتْها وعادت بها فوارتها قبرا يليق بجثمانه.

أ- الإنطلاق: من مصر، الخروج نحو الذهاب.

ب- المسارات: عبر مجرى النيل.

المحطة: دلتا النيل.

المسارات: عبر شواطئ البحر المتوسط.

المحطة: بيلوس (جبيل).

ت- الهدف: عثرت على تابوت (أوزيريس) في أغصان شجرة اعتمد دعامة لإيوان قصر ملك (بيلوس) (جبيل).

الرحلة الثانية:

أ- الإنطلاق نحو العودة: العودة إلى مصر، حملتها سفينة ابن ملك بيلوس حتى مصب نهر النيل عبر الشاطيء الفينيقي للمتوسط.

¹ - أمين، أحمد وزكي نجيب محمود: قصة الأدب في العالم، ص 23.

ب- المسارات: عبر مجرى النيل.

المحطة: جزيرة (أخبيت) استعادت طفلها.

الإخفاق: اكتشفت (ست) التابوت/ القبر.

الرحلة الثالثة:

أ- الإنطلاق: في رحلة ثالثة بحثا عن أشلاء (أوزوريس).

ب- المسارات: في مجاري النيل، وعبر الصحاري.

المحطات: العثور على أشلاء (أوزوريس) وإنشاء قبور متفرقة في طول البلاد وعرضها.

الرحلة الرابعة: الهجرة لإخفاء الطفل (حورس) وتربيته بعيدا عن شرور العم (ست).

الرحلة الخامسة: رحلة العودة من أجل الحرب وطرد الشر واستعادة عرش النيل.

بقدر ما تالأت رحلات (إيزيس) بالرمز فهي قريبة من وجدان الإنسان.

• رحلاتها الكثيرة إشارة إلى كثرة انتقال المصري القديم هنا وهناك، وعدم استقراره في مكان

واحد:

1. رحلة البحث الأولى: رغم أن الزوج قد مات إلا أن الرحالة قد عقدت العزم على استرجاع

تابوته/ جثمانه، وقامت برحلة شاقة ومتعبة، حتى عثرت عليه.

2. رحلة العودة الأولى: كان بإمكان (إيزيس) أن تكتفي بالعثور على الجثمان فتدفنه حيث

وجدته وتستقر بقربه أو تعود بدونه، ولكنها أصرت على العودة بالجثمان في تابوته الذي

قتل فيه، دليلا ورمزا، وآية للوفاء والحقيقة والشرعية لها ولابنها (حورس).

3. رحلة البحث الثانية: اضطرت (إيزيس) على خوض غمار تجربة أخرى، بحثاً عن أشلاء (أوزوريس) بعد أن اكتشف (ست) جثمانه ومزقه ونثر أجزائه.

4. رحلة الفرار: يضطر الرحالة أحياناً أن يتخذ قراراً بالهروب، ليس جبنًا وخوراً، بل لأن هذه الرحلة ستجلب له نتائج، ويحقق بها غايات أفضل، وهذا ما فعلته (إيزيس) لتتفرغ لتربية طفلها.

5. رحلة العودة الثانية: لما شب (حورس) عادت به (إيزيس) إلى المملكة وهي أكثر عزيمة وتصميماً على إنهاء حالة الرحلة للإستقرار بسلام.

- المحطات الكثيرة: دليل على ما كان للمصري القديم من مراكز استيطان متعددة في جوانب النيل.

- المسارات الكثيرة: الحركة الدؤوب هي رمز النشاط والبحث المستمر عن الأهداف والنتائج.
- الإنطلاقات الكثيرة: الانطلاقات المتكررة تحيل إلى تجدد الأهداف والبحث عن أغراض ونشدان غايات جديدة، فالحياة لا تنتهي عند هدف واحد.

3- اتجاه الرحلة الأسطورية عند الفرس:

رحلة الإسكندر الأكبر: (رحلة ذهاب وإياب)

الإتجاهات: (جنوباً - شرقاً - غرباً - ثم العودة شرقاً): تقول الشاهنامة أنه خرج إلى مصر، ثم رحل إلى الفرات، وخيم عليه وزار خصمه (دارا) في ثوب رسول من الإسكندر، ولما هزمه استولى على عاصمته (اصطخر) وتبعه إلى (كرامان) حين حالف (فور) ملك الهند، وصار ملكاً على إيران وكل توابعها بمقتل (دارا) أخيه من أبيه، ثم توجه إلى الهند حيث أتحفه ملكها بأربعة تحف لا مثيل لها، ومنها إلى (قنوج)، ثم (القادسية)، ثم (بيت الله الحرام) حيث أعاد الحكم لآل إبراهيم.

عليه السلام .، ومن الكعبة إلى (جدة) ثم عاد إلى مصر بحرا عن طريق السفن والزواريق، ثم نزل في ضيافة مليكة الأندلس (قيذافة) على أنه رسول من الإسكندر، ثم إلى مدينة (البراهمة). وحينما قفل عائدا حيث شاهد الجبل الحوت يلتهم قوارب جنده، ومياه النهر السامة، والخنازير والأفاعي والعقارب والسباع التي خرجت منها لتحارب جيشه ومن هناك واصل طريقه إلى الحبشة ليقنتل مع أهلها، ويصادف الكركدن الضخمة، ثم مدينة العراة المقاتلين، والجبل الذي يسكن على أعلى قمته الثعبان، الرهيب فيخلص الناس من شر مؤنته (خمسة ثيران يوميا حيث سمّمها فقتله)، ثم الجبل الذي يتمدد على قمته شيخ ميت على سرير من ذهب، مسجى على ديباج يتنبأ له بالموت القريب، ثم يلج إلى مدينة أهلها النساء يكرمهن فيكرمهن، ويسمح له بالسياحة في بلادهن، حيث يلتقي أناسا سود الوجوه هدل الشفاه تتوقد النار في أحداقهم وتخرج من أفواههم، ثم يرحل إلى أرض الجنات حيث تغرب الشمس في عين ماء كبيرة، يأمل في الدخول إلى هناك ليشرب من ماء الخلود والإستحمام فيه لتزول خطاياه،⁽¹⁾ ويجعل الإمام (الخضر) - عليه السلام - دليله ولكن في أحد المنعطفات المظلمة يسلك طريقا غير الذي سلكه الخضر . عليه السلام . فيخرج إلى النور حيث يكلم الطيور والملك إسرافيل عليه السلام، ويعود. وقد أخفق في الحصول على ماء الخلود.

ومن الظلمات إلى مدينة في المشرق حيث يشكو أهلها من الأقالم، يأجوج ومأجوج، فيبني بين الجبلين سدا ويوقد نارا فيحترقون ويهلكون، وبعد مسيرة شهر يصعد جبلا لازورديا عليه بيت مغلق بالجواهر وبأحسن الذخائر ويسمع النبوءة بموعد موته فيخاف ويرتعد ويزور مدينة بها شجرة يتكلم نصفها في النهار بصوت ذكر، ونصفها الثاني بالليل بصوت أنثى ومن هناك يتجه نحو الصين وملكها (بغبور) إذ يزوره متنكرا في بردة رسول الإسكندر حيث يقيم هناك شهرا ليرحل بعدها إلى

1 - هذا ما تقوله الأسطورة الفارسية، في الشاهنامة بيد أن هناك رواية أخرى عند نبيلة ابراهيم في أشكال التعبير في الأدب الشعبي، ص 63.

السند، ليقاتل ملكها (بنداه) ثم إلى (نيم روز)، ثم إلى اليمن، ثم إلى بابل التي يموت بها، لينقل جثمانه إلى مدينة الإسكندرية مقره الأخير.⁽¹⁾

4- اتجاه الرحلة الأسطورية عند الإغريق:

في رحلة تيسيوس:

أ- **فضاء الإنطلاق:** ولد وترعرع (تيسيوس) في جزيرة (ترويزن)، وبعد أن أخبرته أمه أن أباه هو ملك أثينا، وعثر على السيف البرونزي والنعلين الذهبيين، قرّر البحث عن أبيه.

بدأ (تيسيوس) رحلته صوب (أتিকা) تلك البلاد الجميلة المشمسة التي تستقبل الجنوب، أرض العسل والزيتون، ذات السهول البديعة والمروج وقمم الجبال الفضية، والتي يطوقها بحر (إيجة)، وهي البلاد التي تقع عبر المضائق التي تمتد من مكان مولده نحو الشواطئ الزرقاء للبحر الإيحي، وقال لأمه سأصبح راعيا على قطعاني.⁽²⁾

ب- فضاء المسارات:

المسار الأول/ المحطة الأولى: عند أبيداوروس هاجمه (بيريفيتس) الأعرج اللص الخطير ابن (بوسيدون أو هيفايستوس)، صاحب الهراوة النحاسية الضخمة التي كان يقتل بها عابري السبيل، فانتزع الرحالة منه الهراوة وظل يضربه بها حتى أماته.⁽³⁾

¹ - الفردوسي: الشاهنامه، ملحمة الفرس الكبرى، تر/ سمير مالطي، دار العلم للملايين، بيروت، ط 2 / 1979، ص 119 إلى 132. وينظر أيضا الفردوسي: الشاهنامه، تر/ البنداري، تحقيق عبد الوهاب عزام/ ج2، ص 1 إلى 29.

² - عبد العزيز كارم محمود: أساطير العالم القديم، ص 283.

³ - السابق، ص 285.

المسار الثاني/ المحطة الثانية: في أضيق نقطة من سهول (أو غابات) (آيسثموس) حيث يرى خليجا (كورينثة) و(ساروني)، كان يعيش (سينيس ابن بيمون) الذي كان يثني بيديه أشجار الصنوبر حتى تلامس هاماتها الأرض ثم يطلب من عابري السبيل الأبرياء مساعدته، وعلى حين غرة يفلت الشجرة فترمي بهم بعيدا، وأحيانا يثني شجرتين متجاورتين حتى تتلامسا ويربط ذراعي أحد ضحاياه في كلتا الشجرتين ثم يفلتهما لترتدا إلى وضعهما الطبيعي، فتمزقان الضحية المسكين، فصارع الرحالة ذلك الجبار وأنزل به العذاب نفسه.⁽¹⁾

المسار الثالث/ المحطة الثالثة: تعقب طويلا فتاة كانت تفر من وجهه حتى لحق بها فعرف أنها ابنة السفاح (سينيس)، فاتخذها زوجة، وأنجبت له الإبن (مينالييوس).⁽²⁾

المسار الرابع/ المحطة الرابعة: عند كروميون كان هناك خنزير بري متوحش (فايا)، قتل العديد من أهل المنطقة، فلم يجسر الناس على الذهاب لحراثة أراضيهم، فخلصهم الرحالة منه.⁽³⁾

المسار الخامس/ المحطة الخامسة: بعد الطريق الساحلي وصل إلى منحدرات (ميجارا) الشديدة الانحدار والتي كانت معقلا للص (سكريون) الذي اعتاد الجلوس فوق صخرة ليحجر عابري السبيل على غسل قدميه وعندما ينحنون لغسلهما كان يدفعهم بقدمه فيسقطون في البحر حيث تلتهمهم سلحفاة عملاقة، بينما (تيسوس) رفض الإنحناء لغسل القدمين القذرتين ورفع خصمه عاليا، وطوح به بعيدا إلى جوف السلحفاة الجائعة.⁽⁴⁾

¹ - السابق، ص 286.

² - نفسه.

³ - نفسه.

⁴ - السابق، ص 287.

المسار السادس/ المحطة السادسة: واصل طريقه نحو أثينا وقابل (سيركيون) الذي كان يجبر المسافرين على مصارحته ويسحقهم بعضلاته القوية، فما كان من الرحالة إلا أن رفعه وألقى به أرضاً.⁽¹⁾

المسار السابع/ المحطة السابعة: عندما وصل (أتيك وريدالوس) قتل (بوليبيمون) والد السفاح (سينيس) الذي قضى عليه سابقاً (في المحطة الثانية)، كان (بوليبيمون) يمتلك سريرين يؤجرهما للنزلاء، كان يؤجر السرير الكبير للمسافر القصير، ثم يروح يسطه حتى يقضي عليه، بينما يؤجر السرير الصغير للمسافر الطويل ويشعر في قص ما زاد عن طول السرير من أعضاء النزول المسكين، فعامله الرحالة بالتقنية نفسها حتى أوداه.⁽²⁾

المسار الثامن/ المحطة الثامنة: قبل أن يدخل أثينا نزل في نهر (سيفيسوس) ليتطهر من الأدران التي علقته به وهو يصارع كل هؤلاء المزعجين.

ت - فضاء المحطة الهدف/ أثينا (مملكة أبيه): كان يتمنى أن يسير في هدوء وطمأنينة نحو أبيه وفي هذه البلاد الجميلة برا على قدميه (كانت أمه قد نصحته بالإبحار). ولكن يبدو أن مهام الرحلة كانت أن يظهر مساراته ومحطاته وكل طريق رحلته من هؤلاء الذين يعيشون في الأرض فساداً، وهو الطيب الجميل البهي، الذي يحب كل جميل وأنيق، إلا أن ميديا زوج أبيه غارت منه وراحت تسقيه كأساً من سمومها المبيدة لولا أن لمح أبوه النعلين الذهبين والسيوف البرونزي فأنقذه من موت محتم.⁽³⁾

1 - نفسه.

2 - نفسه.

3 - نفسه.

لم يتوقف (تيسوس) عن الترحال، بل تسجل أسطورته:

- خروجه من أثينا إلى سهول (ماراتون) للتخلص من الثور الوحشي.

- خروجه في رحلة نفي مدة سنة (لأنه قتل أبناء عمومته).

- خروجه إلى (كريت) للتخلص من المسخ (المينيثور).

- خروجه مع هرقل.

- خروجه مع الأرجوناوتيكاء.

- خروجه مع (بيريثيوس) إلى (إسبرطة) لإختطاف هيلانا الصغيرة. ثم إلى العالم الآخر لإختطاف

(بيرسيفوني) زوجة (هاديس) الشاحب، فيمسك بهما ظلام بيته الدامس، حتى يخلصه صديقه هرقل

عندما يزور هو الآخر العم (هاديس) من أجل استعارة الكلب (سربروس).

5- اتجاه الرحلة الأسطورية عند الرومان: (في رحلة بيسيثة)

كان يحرم على بيسيثة النظر في وجه زوجها ولكنها فعلت، لذلك حق عليها الفراق، الذي لم

تستسلم له، فقررت الخروج للبحث عنه.

رحلة الإنتقام الأولى: بخطاها المضطربة... واصلت طريقها. وبعدما قطعت مسافة طويلة نوعا ما

سارت خلالها متعبة على غير هدى، قادها طريق ضيق مجهول وقد جنحت الشمس إلى الغروب

إلى مدينة إحدى أختيها...⁽¹⁾

¹ - أبوليوس، لوكيوس: الحمار الذهبي، تر/ أبو العيد دودو، ص 125، 126.

رحلة الإنتقام الثانية: ثم واصلت أيضا سفرتها التائهة إلى المدينة الأخرى التي كانت تقيم فيها أختها الثانية... كانت (بسيشة) في أثناء ذلك تطوف البلاد لا هدف لها سوى البحث عن (كيويد)...⁽¹⁾

رحلة البحث عن الزوج: كانت (بسيشة) في أثناء ذلك تجوب البلاد تبحث عن زوجها ليلا ونهارا، ودون أن يعرف قلبها الراحة. وما إن لمحت معبدا فوق قمة جبل سامقة حتى صرخت:

- من يدري أن سيدي لا يقيم هناك.

المسار الأول: وجهت خطاها المسرعة إليه على الفور، وكانت نتعبة، ولكنها كانت تغالب تعبها بما كانت تشعر به من شوق وأمل، بعد أن تسلقت الجبل بنشاط وبلغت القمة، دخلت المعبد...

المسار الثاني: هكذا خاب أمل (بسيشة)، وتضاعف حزنها، فعادت أدراجها وإذا بها تبصر في حضن الوهدة معبدا آخر وسط حديقة ماتعة، ولما كانت لا تريد أن تترك أي طريق يمكن أن يبعث فيها الأمل من جديد، فاقتربت من العتبة المقدسة...

- خارت عزيمة (بسيشة) عندما رأت محاولاتها تبوء بالفشل من جديد، وأصبحت عاجزة تماما عن البحث عن زوجها المجنح، فتخلت عن كل أمل لها في النجاة.⁽²⁾

المسار الثالث: وهكذا فكرت بجد في أن تكون رحلتها الآن مباشرة إلى حماتها إلى أم (كوييدو) عسى أن تجده هناك في بيت أمه. بينما تلقت صنوفا وألوانا من العذاب والإهانة والطلبات المستحيلة (فرز كومة الشعير....). كما أمرتها أن تقوم بـ:

¹ - السابق، ص 126.

² - السابق، ص 127 إلى 133.

الرحلة الأولى (رحلة البحث عن الجزات الذهبية): عندما أرسلت ربة الفجر جياها عاليا. دعت

(فينوس) كَنَّتْها (بسيشة) وخاطبتها قائلة: أترين تلك الغابة. التي تمتد هناك على ضفتي النهر،

وتنتهي أطرافها عند تلك العين القريبة؟ هناك ترعى نعاج سائبة ذات لمعان ذهبي، أريد أن

تحضري لي جزء من صوفها الذهبي. وذهبت بسيشة طوعا، لا لتنفذ أمر سيدتها، وإنما لتلقي

بنفسها من قمة الصخرة في أعلى الضفة حتى تضع بذلك حدا لآلامها.

إلا أن العازفة اللطيفة، وهي القصبة الخضراء قالت لها: ستجدين في كل مكان منها ندف

الصوف الذهبي التي تبقى عالقة بفروع النباتات.

فجمعت بسهولة ندفا من الصوف ملأت بها حجرها.⁽¹⁾

الرحلة الثانية (رحلة الحصول على الماء المقدس): قطبت (فينوس) حاجبيها... (أترين القمة

الشامخة لتلك الصخور الجبلية المنحدرة التي تخرج فيها من عين سوداء أمواج من المياه...

أسرعت (بسيشة) الخطى ومضت إلى أعلى قمة في الجبل آملة أن تجد هناك على الأقل نهاية

لحياتها الشقية، وعندما وصلت إلى القمة اكتشفت صعوبة هذه المغامرة الخطيرة المهلكة.⁽²⁾ ولما

عادت بجزرة الماء المقدس صرخت في وجهها: عليك يا عروستي أن تؤدي لي عملا آخر، وقدمت

لها علبة وقالت: وانزلي بها إلى العالم السفلي:

الرحلة الثالثة (بسيشة في العالم السفلي): طلبت الحماة (فينوس) من الكَنَّة (بسيشة) أن تحضر

لها شيئا من جمال ملكة العالم السفلي (برسيفوني) داخل علبة، فكان على (بسيشة) أن تنفذ الأمر

¹ - السابق، ص 134 إلى 137.

² - السابق، ص 138.

رغم استحالاته، ولولا الدعم الأسطوري من البرج، وغيره لما استطاعت أن تقوم بهذه الرحلة التعجيزية.⁽¹⁾

ثانياً: اتجاه الرحلة الأسطورية في العالم الآخر:

1- اتجاه الرحلة الأسطورية في بلاد الرافدين: (إنكيديو ينزل إلى العالم الأسفل):

أ- فضاء الإنطلاق: (الاتجاه: رحلة الذهاب والإياب)؛ خرج (إنكيديو) من بيت سيده (جلجامش) ملك أوروك العظيمة ليلج العالم الأسفل، حتى يحضر الطبل ومطرقته (بكو/ مكو) اللذين سقطا منه فأمسى عابسا كئيبا باكيا.

ب- فضاء المسارات: يتضح من خلال النص ان أنكيديو قد قام بجولة طويلة وعريضة في أبهاء العالم السفلي قبل القبض عليه في جولة استعراضية، استكشافية لا يبدو فيها هدف البحث عن الأشياء المفقودة.

ت- فضاء الوصول: لم يتضح إن كان إنكيديو قد حقق هدفه من نزوله إلى عالم الأموات لاسترجاع أدوات سيده، ولكن سوء إصغائه للنصائح جعله نزيلا جديدا أبديا في عالم الأموات. حيث راح يواصل مشاهداته وسياحته، وقد صار جسمه خرقة بالية، إذ شرع يحكي لسيده لما سمح (نرجال البطل) للروح أن تسامر جلجامش التعيس بطله وخادمه الفقيد، فقص عن أحوال جميع الناس التعمساء والسعداء وهكذا تحول اتجاهه من رحلة الذهاب والإياب إلى الهجرة (الإقامة الجبرية).

¹ - السابق، ص 139.

2- اتجاه الرحلة الأسطورية في مصر القديمة: من أهم النصوص الجنائزية في الثقافة المصرية القديمة كتاب (أمدوات) وهو كتاب جنائزي يحتوي على نصوص جنائزية من عهد الدولة الحديثة، وقد عثر عليه في أغلب مقابر الملوك والنبلاء، وبصفة خاصة نبلاء الأسرة 21، وتكتب هذه النصوص داخل غرفة الدفن، وهي ذات طابع أسطوري متكامل، وتروي قصة (رع) الذي سيسافر إلى العالم السفلي من وقت غروب الشمس حتى شروقها في اليوم الموالي، إذ يقال إن روح الميت تتخذ المسار نفسه منذ دخول المقبرة، في نهاية الرحلة تسمو الروح بالإتحاد مع (رع) ليعيش معه إلى الأبد، وتنقسم نصوص العالم السفلي إلى اثنتي عشرة ساعة من الليل، وتعكس معاناة المصري القديم في العالم الآخر، والتعرّف مسبقاً على عجائبه خلال اثني عشر جزء، كلّ منها مقسم إلى ثلاثة سجلات:

1. في الساعة الأولى: نجد رع/ الشمس، يدخل الأفق الغربي (أختي)، وهي مرحلة الانتقال بين النهار والليل.
2. في الساعة الثانية: تظهر بداية الرحلة عبر مسطح الماء المعروف بمياه (أوزوريس).
3. في الساعة الثالثة: يعبر قارب (رع) مياه (أوزير) بأمان، فيمنحه تصريح المرور وسط مجموعتين من صور (أوزير) الجالس، مجموعة ترتدي تاج مصر العليا، ومجموع ترتدي تاج مصر السفلى.
4. ينتقل قارب (رع) إلى الساعة الرابعة من العالم المائي إلى عالم الصحراء حيث الممرات المنحدرة والأبواب الخبيئة التي تؤدي إلى أرض (سوكر) الرملية، عبر مراحل اجتياز الأبواب المملوءة بمخاطر الثعابين الشريرة، وهنا يظهر دور (حورس) و(سكر) و(أوزير) في حماية القارب من غابة الثعابين والأفعى الصحراوية حتى يعلن العبور الناجح للقارب

الشمسي من هذا القارب الخطير (يمكن رؤية نسخة مرسومة رسماً دقيقاً بالهيرايقية في

مقبرة تحمس)⁽¹⁾

5. بينما تشمل الساعة الخامسة على سلسلة معقدة من المناظر التي تمثل زيارة قارب (رع)

لقبر (أوزير)، ثم كهف (سوكر) حامي القارب في رحلته الكاملة المصوّرة على هيئة أبي الهول.

6. بينما تُظهر الساعة السادسة استعداد القارب الشمسي ليجر داخل المياه الأولية لـ (نون)

في أعماق (أوزير).

7. في الساعة السابعة ينتصر (رع) على رمز الشر الثعبان الكبير بمساعدة (أوزير).

8. في الساعة الثامنة، وبمجرد التخلص من (أبوفيس) تفتح الكهوف الخمسة أبوابها أمام الشمس.

9. في الساعة التاسعة يتزين قارب رع والمشاركين معه بأزياء العالم الآخر وهم يجلسون فوق

رموز هيروغليفية عبارة عن عيدان قمح تحملهم في قوارب.

10. في الساعة العاشرة نجد (رع) يزود بصولجان السلطة.

11. يستعدّ (رع/ الشمس) لكي يولد ولكي يرتفع على الأفق الشرقي عند بزوغ أول

شعاع لليوم الجديد.

12. يسحب القارب الشمسي من خلال جسد ثعبان، وهكذا تنتهي الرحلة الليلية الطويلة.

الفضاء الهدف: من هنا نجد أن النصّ يعبر عن دورة حياة بيئية طبيعية لعملية الخلق التي يمكن

أن نتابعها في مولد حيوان، أو نموّ نبات أو مولد إنسان يأتي إلى الحياة الدنيوية، وبالتالي فإن

المصري القديم وبتقافته الشعبية تصوّر رحلة الولادة الجديدة لرع في العالم الآخر كنموذج مشابه

¹ - سليمان محمد عبد الفتاح: الأسطورة والتوظيف الحضاري في الثقافة المصرية القديمة، ص 64، 65، 66.

للولادة الجديدة على الأرض، بعد التّخلّص من كلّ معوقات الشّر التي تعرقل خطّ سير القارب الدّي عرف باسم قارب (رع) أو سفينة (بتاح).⁽¹⁾

3- اتجاه الرحلة الأسطورية عند الفرس: (تغريبة الإسكندر، رحلة ذهاب وإياب).

أ- **فضاء الإنطلاق:** كان الإسكندر قد طاف طويلا في أمصار كثيرة من بلاد الشرق والغرب في العالم القديم، وكانت آخر محطاته مدينة النساء قبل أن يزور العالم الآخر، فعبر إليه البحر جلائل أهلها في ألفين من فوارسهن مستقبلات له، فقدّمن إليه برسم الهدية تيجانا مرصعة وجواهر نفيسة وثياب وشّي، ثم ركب الإسكندر ووصل إلى المدينة، فأكرمن مقدمه وخدمنه، ولما رأى المدينة وأهلها ووقف على أحوالها، خلع عليهن وأحسن إليهن، وارتحل.⁽²⁾

ب- فضاء المسارات:

المسار الأول، المحطة الأولى: سار قاصدا مغرب الشمس، فوصل مدينة فيها ناس حُمِر الوجوه، صُفّر الشعور، فسألهم عن يعرف عجائبها، فقليل له "إن وراء مدينتنا عينا كبيرة فيها تغرب الشمس، ووراء هذه العين ظلمات... إن فيها عينا يقال لها عين الحياة من شرب منها يخلد ولا يموت".⁽³⁾

المسار الثاني، المحطة الثانية: اختار الإسكندرُ الخضر -عليه السلام - دليلا، والمهور مطية، وكانت معه خرزتان تتقدان كالشمس، منح إحداهما للخضر الذي تقدم، وترك الأخرى معه حين راح يسير في إثره مع العسكر.

¹ - السابق، ص 65.

² - الفردوسي: الشاهنامه، تر/ البنداري، تحقيق، عبد الوهاب عزام، ج2، ص 21.

³ - نفسه.

- سار في الظلمات مرحلتين.

- ولما كان المنزل الثالث عرض لهما في الظلمات طريقان.

- سار الخضر في أحدهما، ووصل إلى عين الحياة، فشرب منها واغتسل وفاز بالمطلوب.

- ضل الإسكندر عنه، فسلك الآخر، فأفضى به إلى الضوء.

المسار الثالث، المحطة الثالثة: خرج من الظلمة، فرأى جبلا شاهقا في السماء على رأسه أشجار

من العود، وعلى كل شجرة طائر أخضر فلما رآته الطيور نطقن بإذن الله تعالى باللسان الرومي،

وكان الطير يسأل والإسكندر يجيب، ثم طلب منه أن يصعد إلى رأس الجبل.⁽¹⁾

المسار الرابع، المحطة الرابعة: صعد الإسكندر إلى رأس الجبل وحده راجلا، فرأى إسرافيل -عليه

السلام- وبيده الصور وقد نفخ شدقيه، وملأ من الدموع عينيه ينتظر متى يأتيه الأمر بالنفخ، فينفخ

فيه، فلما رأى ضيفه صاح به: "يا عبد الحرص! لا تجهدن هذا الجهد فسوف يأتيك الأمر بالمشير،

ويقرع سمعك النداء بالرحيل، فقال الإسكندر لم يقسم لي غير الحركة والتطواف في أقطار

الأرض."⁽²⁾

ت- المحطة الهدف: يغيب فضاء المحطة الهدف في تغريبة الإسكندر لأنه أخطأ الطريق، وضل

عن الهدف المنشود، ولكنه لم يخسر الرحلة لأنه وجد من الحكم والنصائح ومن درر الأقوال

والأحجار ما جعل للرحلة الكثير من المنافع، والجليل من الفوائد.

¹ - نفسه.

² - السابق، ص 22.

4- اتجاه الرحلة الأسطورية عند الإغريق:

اتجاهات رحلة (أورفيوس) في العالم الآخر: ضرب في الآفاق على غير هدى، وذرع الأرجاء في ضلال وحيرة، حتى رثت له الأرض، فنصحته الأصدقاء رثاء وهجاء صدقا وحمقا بزيارة العم (هاديس).

1- رحلة الذهاب:

أ- فضاء الإنطلاق: من ضفاف (ستيكس) ذي الزبد، النهر الذي يحيط بالدار الآخرة (هيدز) وهو يحيط كذلك بالأنهر التي تنحصر بينها جهنم، حيث وقف (شارون) النوتي الجبار الذي يحمل أرواح الموتى في زورقه، غليظ القلب، أقسى حراس جهنم.

ب- فضاء المسارات:

المسار الأول: يحمل (شارون) أورفيوس في الزورق ويجوس به عباب (ستيكس) وما يكاد يفعل حتى يرى (أورفيوس) إلى تغيض الموج وتلاطمه فيسأل عمّ يهيج النهر برغم سكون الريح؟ ثم يتناول قيثارته فيوقع إحدى أناته الشجية فيهدأ (ستيكس) النهر الصاخب.

المسار الثاني: وتطول الرحلة ويعبران (أنشيرون) نهر العدم.

المسار الثالث: (ليث)؛ نهر النسيان.

المسار الرابع: نهر (كوكيتوس)؛ نهر الآلام.

المسار الخامس: نهر (فليجتون)؛ نهر الحمم واللهب.

المحطة الأولى: يصلان آخر الأمر إلى (هيدز) دار الموتى ومملكة (بلوتو) بعد عقبات وأهوال.

المسار السادس: من هذا الشاطئ الأخير تبدأ رحلة شاقة في ظلام دامس وحلك شديد، في مسالك ملتوية، وشعاب متداخلة.

ت- فضاء الوصول:

المحطة الثانية: وصلا بوابة كبيرة الحجم تصل إلى قصر (بلوتو)، ولكن كلبا ضاريا بادي النواجذ بارز الأنياب يحرسها، ثم هذا عرش (بلوتو) وإلى جانبه (برسيفون)، وقبل أن ينبس (بلوتو) جثا (أرفيوس) لدى قاعدة العرش وتناول قيثارته، وطفق يتغنى بقصته الحزينة.

II رحلة العودة (الإياب): لا تكتمل رحلة (أرفيوس) الأسطورية إلا إذا حقق رحلة العودة بنجاح.

أ- فضاء الإنطلاق: أمر (بلوتو) فأحضرت روح (يوريديس).

ب- فضاء مسارات العودة: بدأت رحلة العودة إلى الدار الأولى في ظلمات بعضها فوق بعض، و(أرفيوس) و(يوريديس) يدلجان خببا.

ت- فضاء الوصول: المحطة الأخيرة: (محطة الخيبة والهزيمة): إنهما ليكادان يبلغان العدو الأخيرة من نهر (ستيكس)، حتى يوجس (أرفيوس) حقيقة ويظن أنها قد ظلت سبيلها من وراءه فينسى شرط (بلوتو)، ويلتفت فجأة خلفه، ليرى أنها ما تنفك تتبعه، ولكن حين تراه يلتفت إليها فيخل بالشرط، تنتهي من لدنه راجعة أدراجها إلى (هيدز). ويظل على شاطئ (ستيكس) سبعة أيام مفجوعا محزونا.⁽¹⁾

¹ - خشبة، دريني: أساطير الحب والجمال عند اليونان، دراسة ونصوص، ج1، دار التنوير، بيروت، ط1/1983، ص 150 إلى 154.

تحكي بعض الأساطير تنمة للقصة، وكيف يقتل أوفوريوس فيعود أدراجه إلى مملكة هيدز خطوة خطوة...

تشبه مسارات الرحلة ومحطاتها في عالم الأموات الرحلة الأسطورية في عالم الأحياء: أنهار، بوابات، وقصر وعرش... ونوتي وقارب وكلب حراسة...

ولكن (هاديس) عالم موحش، شديد الظلمة وعذاب مقيم، وإن من دونه مهالكا، وأنكالا وأهوالا.

5- اتجاه الرحلة الأسطورية عند الرومان:

اتجاهات رحلة (بسيشة) في عالم الأموات: نجد في زيارة (بسيشة) إلى العالم الآخر وصفا لمسار رحلتها بدقة متناهية رسمه (لوكيوس أبوليوس) مرتين:

- مرة على لسان البرج الناطق الذي حدث بسيشة.
- مرة عندما تتبع الراوي خطواتها وهي تطبق ما جاء في وصية البرج.

أ- الإنطلاق: عادت بسيشة سالمة من رحلتها الثانية إلى قصر سيدتها التي أمرتها من جديد: "خذي هذه اللعبة وانزلي بسرعة إلى العالم السفلي إلى بيت موتى أركوس".⁽¹⁾ عندئذ لاحظت (بسيشة) أن هذه هي ساعتها الأخيرة، وأنها في طريقها إلى موت أكيد، كيف لا وهي تأمرها أن تطأ هوة (تارتاروس)، وتحل بين أرواح الموتى، فلم تتردد كثيرا، وصعدت إلى برج عال لتلقي بنفسها منه، ظانة أنها هكذا ستنزل مباشرة إلى العالم السفلي، لكن البرج نطق فجأة.

ب- فضاء المسارات: المسار الأول: ليس بعيدا من هنا (البرج، قصر فينوس) تقع (لاكيدامون) مدينة الأخيين الشهيرة، وعند حدودها يقع (تيناروس)، وهو مكان بمنطقة وعرة المسالك.

¹ - أبوليوس، لوكيوس: الحمار الذهبي، ص 138.

المحطة الأولى: في (تيناروس) هناك منفذ هوائي يفضي إلى العالم السفلي.

المسار الثاني: "عبر الباب العميق طريق وعر، عندما تجتازين وتشعرين أنك قد تعودت على

السير فيه تكونين قد مضيت في ممر مستقيم يقودك مباشرة إلى قصر أركوس".⁽¹⁾

المحطة الثانية: قصر (أركوس) في العالم السفلي.

المسار الثالث: المرور عبر مملكة الظلام وقطع مسافة كبيرة من طريق الموت.

المحطة الثالثة: الإلتقاء بحمار أخرج يحمل الخشب يسوقه رجل أخرج أيضا.

المسار الرابع: المرور في صمت بالحمار وصاحبه، ومواصلة السير حتى الوصول إلى نهر

الأموات.

المحطة الرابعة: نهر الأموات الذي يقع تحت سيطرة (خارون) الذي يطالب بأجرته.

المسار الخامس: عند عبور النهر الكسول تجد عجوزا ميتا يرفع يديه يطلب منها أن تسحبه إلى

القارب، ولكنها لا تفعل، حسب وصية البرج.

المسار السادس: تطلب منها نساكات عجائز المساعدة فلا تتوقف لمعاونتهن، طبقا للوصية.

المحطة السادسة: هناك كلب كبير مخيف مربع ذو ثلاثة رؤوس هائلة ينبح في الموتى بحنجرة

مدوية، قدمت له (بسيشة) رغيفا.

المسار السابع: مرت مباشرة إلى عتبة (بروسيرينا) وقاعاتها المظلمة.

¹ - السابق، ص 139.

ت- المحطة الهدف: (محطة الوصول): المحطة السابعة: استقبلتها الملكة في بيتها بلطف وقدمت لها كرسيًا وطعامًا فاخرًا، لكنها جلست على الأرض وأكلت خبزًا رديئًا، ثم أخبرتها بمهمتها. (مطلب فينوس).⁽¹⁾

طريق العودة: (مسار العودة):

1. خذي طريق العودة.

2. اشترى نفسك من الكلب الغاضب بالرغيف المتبقي.

3. قدمي قطعة نقد ثانية إلى المراكبيّ الجشع.

4. اعبري النهر وتتبعي آثارك السابقة.

المحطة الهدف/ الوصول: تحقيق المشروع: ستعودين سالمة إلى رقصة أضواء النجوم الدائرية لهذه السماء.

ما يلاحظ في اتجاه الرحلة في العالم الآخر التي قامت بها (بسيشة) أنه قد رسم بدقة متناهية جدًا سواء من المؤلف (لوكيوس أبوليوس) أو من النص الأسطوري المصدري الذي اعتمده، والذي يظهر بشيء من الوضوح كل ملامح ذلك العالم حسب التراث الإغريقي ولدى ورثتهم من اللاتين، حيث أن التشكيك في قدمها وعراققتها وأسطوليتها يتقزم أمام هذه المتابعة الدقيقة والمفصلة لمسار هذه الرحلة بالذات.

¹ - السابق، ص 140.

المبحث الرابع: اتجاه الرحلة الملحمية:

أولاً: اتجاه الرحلة الملحمية في عالم الأحياء:

1- اتجاه الرحلة الملحمية في بلاد الرافدين (رحلة جلجامش الأولى نحو غابة الأرز):

أ- فضاء الانطلاق: (انطلاق نحو الذهاب/ الإياب):

كان الإنطلاق من (أوروك) ذات الأسوار، بعد أن أقنع شيوخها وكل الرعية بضرورة ذهابه في رحلة إلى غابة الأرز. انطلق جلجامش وإنكيدو على أمل العودة الميمونة بالغنائم والأمجاد والذكر الحسن. وقد نظمت ديباجة مقدمة الملحمة وخاتمتها لتكون بياناً على مبنى الرحلتين (ذهاب/ إياب) مشكلة حلقة واحدة وتعطي أوروك الصدارة والقلب في عملية الرحلة فمنها المنطلق وإليها العودة، إذن فهي هدف آخر من أهداف الرحلة الجلجامشية.

ب- فضاء المسار: (مسار الرحلة الملحمية):

رحلة جلجامش: تقول الملحمة أن جلجامش ملك أوروك بطل عظيم جداً، ما مثله أحد حتى أن شعبه تعب من محاولة تلبية جميع رغباته وأوامره وطموحاته الكبرى الكثيرة جداً التي لا يبدو أن لها حدوداً، ولم يعد يجد له مغيثاً إلا الدعاء. "الخلي له الآن ندّاً يعادله صخباً في الفؤاد

فيدخلان في تنافس دائم وتستريح أوروك"⁽¹⁾

وكان دعاء الضعفاء المبتلين مستجاباً فظهر إنكيدو القوي الأمين واقترب من القصر، واقترب من جلجامش وكان النزال بينهما الذي ختم بعقد تحالف وأن يصيرا خلين يساند أحدهما الآخر في

¹ - السواح، فراس: جلجامش، ص 112.

السراء والضراء "وعقب لقائه بأنكيديو غير من سلوكه في الحكم والإدارة وأرخی قبضته عن رعيته" (1) بيد أن هواه نحو البطولة والمواجهة لم يتغير ونفسه التواقة إلى الأمجاد ربما زادت وتضاعفت بصحبة هذا الند القوي والخل الوفي فما "تلبث أن نراه في حالة تأمل عميق في مسألة الحياة والموت، راغبا في الإقدام على فعل جليل يخلد ذكره عبر الأزمان بعد مماته، فيفضي بمكنون فؤاده" (2) لهذا الصديق الجديد.

"أي أنكيديو إن الختم والأجر لم يأتيا بالمصير المحتوم بعد، ولسوف أدخل أرض الأحياء وأخذ لنفسي هناك ذكرا، في الأماكن التي رفعت فيها سأرفع اسمي، وفي الأماكن التي لم ترفع فيها الأسماء سأرفع اسم الآلهة." (3)

أبدى إنكيديو موافقته ومساندته للفكرة غير أنه سرعان ما فرق وجزع وحمل هما عظيما عندما علم بتفاصيل الرحلة المتجهة إلى غابة الأرز حيث الحارس الرهيب (حواوا) وأن جلامش يريد رأسه بالذات! فاعتذر وحاول أن يثني صديقه عن عزمه المتهور وراح يعدد صور الخطر والاستحالة في الرحلة والمخاطرة، لكن جلامش ظل مصرا، بل إنه راح يخفف عن صديقه أنكيديو الهول ويشجعه على مرافقته حتى رضح أخيرا وسار معه. "ترى لماذا ترغب في القيام بذلك؟ لماذا ترغب في المضي إلى الغابة" (4)

¹ - السابق، ص 34.

² - نفسه.

³ - السابق، ص 42.

⁴ - السابق، ص 138.

"قالتت جلجامش قائلاً لأنكيديو: أي صديقي، لماذا عيناك اغرورقتا بالدمع، وملاً الأسى قلبك، زاخرا آهات مريرة؟" (1) فما كان من إنكيديو إلا أن أجاب: "أي صديقي قد وهنت قواي وتلاشت قوة ساعداي وضعف مني العزم" (2)

المسلك/ المسار الافتراضي: حسب الوصف الأدبي لإنكيديو وشيوخ أوروك قبل انطلاق الرحلة، فهو مسار فيه خطر يحتاج إلى رفيق عليم خبير متمرس في فنون القتال، يسبق الرحالة حتى يحفظه ويدله على الطريق، ويجتاز به الخنادق، وحسب وصف جلجامش له انطلاقاً من أقوال الرفيق، والأعيان: إنها رحلة طويلة.

المسلك/ المسار الواقعي: "بعد عشرين ساعة مضاعفة توقفا لبعض الزاد

وبعد ثلاثين ساعة مضاعفة أخرى توقفا لقضاء الليل

خمسين ساعة مضاعفة قطعاً في كل نهار

فاجتازا مسيرة شهر ونصف في ثلاثة أيام

ثم حفرا بئراً..." (3)

مميزاته:

- طويل جداً: يبدو أن هذا المسار طويل جداً فغابة الأرز شديدة البعد عن أوروك، واحتاجت إلى قطع مسافات شاسعة من الأرض.

¹ - السابق، ص 139.

² - نفسه.

³ - السابق، ص 153.

- متعب جدا: فالرحالة ورفيقه احتاجا إلى التوقف لتناول الطعام قبل أن يواصلتا سيرهما في كل يوم من الأيام الثلاثة.

- خطر جدا: فهما لا يسيران ليلا، بل يتوقفان في انتظار النهار، فلا بد أنهما كانا يتوقعان الكثير من الأخطار لو سريا ليلا.

- مهجور/ مجهول: إن هذا المسلك المؤدي إلى غابة الأرز هو مسلك مهجور، غير مطروق قليل الماء والزاد، ولهذا كان على جلامش ورفيقه أن يحفرا بئرا للإرتواء والإهتمام، وقد تجعل معلما لمسلك العودة.

المحطات: يفترض أن تكون هناك ثلاث محطات توقف عندها جلامش قبل أن يلج غابة الأرز.

- محطة النهار الأول

- محطة النهار الثاني.

- محطة النهار الثالث: التي حفرا فيها بئرا ويكون حينها قد بلغ مشارف بوابة الغابة.

- بوابة الغابة: كان على جلامش ورفيقه أن يخوضا معركة مع حارس بوابة غابة الأرز الذي كلفه خمبابا بذلك، ولحسن حظهما أدركاه وهو لما يرتدي من دروعه السبعة إلا واحدة، فتمكنا منه. ثم "وقفا ساكنين ينظران نحو الغابة/ شاهدا ذرى شجر الأرز/ وشاهدا مدخل الغابة/ حيث تعود خمبابا المسير، وشاهدا طريقا/ سهلا ميسور العبور..."⁽¹⁾

¹ - السابق، ص157.

مدخل الغابة: بين مدخل الغابة والغابة مسافة نصف نهار كامل، لأن إنكيديو حين تمدد محمومًا مريضًا في فراش الموت، قال مخاطبًا بوابة خشب الأرز التي صنعت لغرفته: "من مسافة عشرين ساعة مضاعفة أعجبني خشبك" ⁽¹⁾

المسلك داخل الغابة:

الجبيل: أوحى الجبل إلى جلامش وإنكيديو بأحلام فسّراها متقائلين بالقضاء على خمبابا. المسار: إن غابة حواوا تمتد عشرة ساعات مضاعفة ⁽²⁾ ولكن النص (الملحمة/ الرحلة) لم يتحدث عن التوغل داخلها إلا: "بعد عشرين ساعة مضاعفة توقفًا لبعض الزاد،/ بعد ثلاثين ساعة مضاعفة أخرى توقفًا لقضاء الليل./ حفرا بئرا تقريبا من شمش/ ارتقى جلامش المرتفع..." ⁽³⁾

مسار الرحلة:

الخطوة الأولى: فتح جلامش فمه وقال يخاطب إنكيديو: "هلم أيها الصديق لنمض إلى (معبد) إيجال ماخ حيث ننسون الملكة العظيمة، ننسون الحكمة العليمة، تسدد خطانا بنصحها" ⁽⁴⁾

دخل جلامش معبدها ومثل في حضرتها قائلاً: "أي ننسون جئت أخبرك إنها رحلة طويلة إلى موطن خمبابا، وأمامي معركة لا أعرف نتائجها (وطريق أقطعه) وأنا به جاهل فإلى اليوم الذي

¹ - السابق، ص 177.

² - السابق، ص 140

³ - السابق، ص 157، 158.

⁴ - السابق، ص 149.

أعود به إلى أن أصل غابة الأرز إلى أن أقتل خمبابا الرهيب/ فأمحو عن الأرض كل شر.../ صلي من أجلي..."⁽¹⁾

فاستجابت الأم مقدمة طقوسها وهي تدعو لولدها، ثم استدعت (إنكيديو) رفيقه وأمدته بوصاياه:
"أي إنكيديو القوي، لست من نسلي ولكني اليوم قد تبنيته"⁽²⁾

يقول فراس السواح بأن الأعمدة الأربعة من اللوح الرابع مفقودة. وهي تحتوي بالتأكيد على وصف مفصل لرحلة غابة الأرز.⁽³⁾

الخطوة الثانية: جاء في نص (هو الذي رأى):

1- "بعد عشرين ساعة مضاعفة، توقفا لبعض الزاد.

2- وبعد ثلاثين ساعة مضاعفة أخرى توقفا لقضاء الليل.

3- خمسين ساعة مضاعفة قطعاً في كل نهار

4- فاجتازا مسيرة شهر ونصف في ثلاثة أيام.

5- ثم حفرا بئراً".⁽⁴⁾

ووصلا مشارف غابة الأرز ووقفا عند بوابتها المسحورة التي يقف لحمايتها حارس أوكله بها (خمبابا)، فتهيب جلامش ولم يرد الإقدام، ولكن إنكيديو شد من عزمه وذكره بما كان يقوله في

¹ - السابق، ص 149، 150.

² - السابق، ص 152.

³ - السابق، ص 153.

⁴ - نفسه.

أوروك فامتلاً ثقة عند سماعه هذه الكلمات، وهكذا تمكّنا من قتل الحارس وفتح البوابة، لكن يد إنكيديو أصيبت بالأذى فراح يرجو جلجامش في أن يتراجعا وألا يدخل الغابة، ولكن جلجامش انقلب يشجع إنكيديو، حتى وصلا معا الجبل الأخضر.⁽¹⁾

الخطوة الثالثة: الجبل الأخضر/ مدخل الغابة:

"وقفا ساكنين ينظران نحو الغابة

وشاهدا ذرى شجر الأرز

وشاهدا مدخل الغابة"⁽²⁾

الجبل يوحى حلما لجلجامش ثم:

"بعد عشرين ساعة مضاعفة توقف لبعض الزاد

بعد ثلاثين ساعة مضاعفة أخرى توقفا لقضاء الليل"⁽³⁾

ثم أوحى الجبل حلما إلى أنكيديو.

ت- قضاء الهدف: (غابة الأرز) كان هدف جلجامش واضحا منذ البداية وهو القضاء على خمبابا

مصدر الشر، وتحقيق المجد وإعلاء الاسم وقد رافقه خله إنكيديو.

¹ - السابق، ص 156.

² - السابق، ص 157.

³ - السابق، ص 158.

وقد تمكّنا من الوصول إلى غابة الأرز واقتحام بوابتها، وقتل حارسها ثم التوغل داخل الغابة حتى مواجهة الوحش خمبابا والصراع معه حتى القضاء عليه.

لقد توغلا في الغابة مسافة عشرين ساعة مضاعفة وثلاثين ساعة مضاعفة ليواجها خمبابا ويفتكا به في عقر داره، ويقدر ما كان فضاء الهدف معلوما افتراضا بقدر ما كان مجهولا بالنسبة للرحالة ورفيقه. ولقد حقق لهما النصر وحصلا من خلاله على بغيتهما. وكان مصدر فأل جيد، فقد انبهرنا به.

هدف الرحلة: تزعم الملحمة أن في غابة الأرز يعيش وحش مرعب يثير الفزع، وينشر الرعب، لهذا يتوجب القضاء عليه، وظن جلامش أنه برفقة نده الجديد قد يفعلان ذلك.

"فتتح جلامش فمه قائلاً لإنكيدو: (في الغابة هناك يعيش)

حواوا الرهيب (هيا، أنا وأنت، نقتله)

هيا نمسح الشر كله عن وجه الأرض".⁽¹⁾

عدة جلامش في رحلته: لقد قرر جلامش السفر إلى أرض الأحياء/ غابة الأرز، مسطرا لذلك هدفا عسكريا، هو القضاء على الوحش العدو الشرير، من أجل الأمن والاقتصاد وتأمين شجر الأرز، وغيره من خيارات الغابة التي احتكرها الوحش القاتل ومن أجل هدف سياسي ونفسي هو الذكر الحسن في مقابل الالتزام الأخلاقي السابق.

لهذا كانت عدته هي عدة المحارب بامتياز، عدة المدعو للنزال والمعركة. مع وحش يعادل جيشا، خاصة وأنه قد لامس من رفيقه شيئا من الخوف والتردد.

¹ - السابق، ص 139.

"سأعطي صنّاع السلاح، يا صديقي الأوامر.

فيصنعون السلاح تحت أنظارنا

لصنّاع السلاح صدرت الأوامر

فتنادوا، عقدوا اجتماعا

صنعوا أسلحة عظيمة

صبوا فؤوسا زنة واحدها ثلاثة طالينات

صبوا سيوفا هائلة

زنة نصل الواحد منها طالينان

ومقبضه ثلاثون رطلا

وغمده من ذهب زنته ثلاثون رطلا.

تجهز جلامش وأنكيدو، كلّ بما زنته عشرة طالينات"⁽¹⁾

في مقدمة الملحمة، التي هي في الحقيقة خاتمتها، نكتشف شخصية البطل جلامش الرحالة الذي أفاد من رحلته علما وخبرة وجاء بأخبار السلف (أهمية التاريخ في صناعة أحداث الحاضر والمستقبل ولكننا نكتشف أيضا أن هذه المقدمة/ الخاتمة هي ما خص الرحلة الثانية (إلى العالم الآخر) بينما رحلته الأولى المدونة في هذه الملحمة فقد كانت رحلة للقضاء على خواوا الرهيب

¹ - السابق، ص 142.

وحش غابة الأرز الشرير، حيث عمد جلامش ورفيقه إلى القضاء عليه فخلصا الناس من شره وصنعا لنفسيهما أمجادا وأسماء وذكرًا خالدًا.

لذلك فعدة هذه الرحلة هي عدة حربية بامتياز كان لابد من التجهز بها لأن العدو لم يكن ليستهان به.

ربما كان طريق الرحلة آمن، ولكن هدفها المنشود هو الذي استوجب على الرحالة الاستعداد لها كحامية عسكرية، متجهة نحو حرب الأعداء، هجومًا ودفاعًا.

2- الرفيق الخبير: إن طريق جلامش في رحلته مسافرا بين أوروك وغابة الأرز هي مسافة طويلة غير هينة، ولا بد لها من عدة أيضا، وهي كما نصحه شيوخ أوروك:

"لا تعتمد على قوتك يا جلامش

دعه يكشف الطريق أمامك، واحفظ نفسك

دع أنكيدو يتقدمك

فلقد رأى الطريق وقد سلكه.

حتى مشارف غابة الأرز"⁽¹⁾

3- الدعاء: لقد أكثر الشيوخ من الدعاء لجلامش بحسن الرحلة وحسن المنقلب وإصابة الهدف المنشود.

¹ - السابق، ص 146.

والدعاء بقدر ما هو دعم للرحالة، فهو أيضا تذكير له بدوام الإيمان والتمسك بدعم الخالق. ففي الرحلة التزام أخلاقي واضح، وسلطة دينية مهيمنة على الفكر والروح، على القرار والمشورة.

4- الماء: قال الشيوخ ناصحين الرحالة: "احفر بئرا في المساء" لأن عملية الحفر في المساء أقل مشقة ولا يعيقه تعب الحفر عن مواصلة الرحلة، إذ سيرتاح ليلا طويلا، ولأنه سيحتاج إلى الماء حين النزول والخلود إلى الراحة والمبيت، ويتزود به في صباح اليوم الموالي قبل الإنطلاق من جديد، فيكون عذبا زلالا باردا.

وقالوا: "ليكن في قربتك ماء قراح دائما" فإنه أحسن غذاء، ودواء والطريق طويلة قد لا تجد بها ساقيا أو ساقية.

ويمكن أن يكون الماء أفضل صدقة يتقرب بها العبد إلى ربه حين يسقي ضمّانا، أو عابر سبيل، فجلجامش السيد القوي يجب ألا يكون هو عابر السبيل الذي يستسقي الناس بل بالعكس هو الذي يجب أن يتكرم على غيره بالسقاية. كما يترك البئر في خدمة الحياة صدقة جارية. وهذا جزء من العمل الصالح النبيل الخير الذي يسعى إلى القيام به وفيه أجر الذكر الحسن الذي يرومه ويطلبه في غابة الأرز.

وقالوا: "قرب ماء باردا إلى شمس" وهنا يستوي شمس بمعناه: . الله الذي يتقبل من العبد صدقته ويجازيه عليها بالبركة في مسعاه (رحلته). ويبقى صدقة جارية ينتفع بها ذكرا. كما يبقى معلما بارزا ينتفع به في طريق أوبته من رحلته.

- والعبد، عابر السبيل، الضمان بتأثير حرارة الشمس.

هذا عن الملحمة/ الرحلة، أما عن النص الملحمي "جلجامش وأرض الأحياء" فيمكن أن نضيف إلى عدة الرحلة أن جلجامش:

"توجه بالقول إلى أوتو السماوي/ إني لداخل أرض الأرز الجبلي فكن معيني/ تقبل أوتو دموعه قريانا

(ثم أسلمه) سبعة جبابرة، إخوة من أم واحدة/

الأول: ٩/ الثاني، الأفعى السامة/ الثالث التتين/ الرابع، النار الحارقة/ الخامس: الحية الهائلة التي تطلع الأفئدة/ السادس، الطوفان المدمر الذي يطغى / السابع، البرق الوامض الذي لا يصده شيء".⁽¹⁾

ويقول السواح أن بعد هذه الأسطر "تسعة وعشرون سطرا كثيرة التشوه، ولكننا نفهم منها أن جلجامش قد جمع بعد ذلك خمسين متطوعا" يذهبون معه.

بحيث نكون بصدد حملة رحلية كبيرة، يمكنها أن تتجز بقيادة جلجامش وإمارة إنكيديو الشيء الكثير من المعجزات، حتى وإن لم يظهر ذلك جليا في النص، بيد أن أسطورة القضاء على الوحش هي عمل ثنائي قام به البطلان.

خلاصة:

إن عدة جلجامش في رحلته إلى غابة الأرز هي السلاح الحربي (السيوف، الفؤوس، القوس، الجعبة) والرفيق الخبير (إنكيديو) والدعاء (شيوخ أوروك وأهلها) والماء للنفس والشمس).

¹ - السابق، ص 43.

مسار الرحلة/ الطريق: من الخصائص العامة لأدب العراق القديم تميزه بظاهرة استباق الأحداث أو

استباق النتائج⁽¹⁾، حيث يظهر في بداية النص . الملحمة أنه: "مضى في سفر طويل وحل به

الضنى والعياء، ونقش في لوح من الحجر كل أسفاره"⁽²⁾

"عن جلامش الذي مضى عبر جميع الصعاب

ويسير أيضا في المؤخرة كرجل مؤتمن

فاتح ممرات الجبال

ناقب الآبار في سفوح المرتفعات

عبر المحيط، البحر المترامي إلى حيث تشرق الشمس

وارتاد أصقاع الأرض بحثا عن الحياة.

شق طريقه بعزم يديه إلى أوتنابشتيم البعيد"⁽³⁾

فالشاعر يضع المتلقي في الصورة الكاملة لحدث الرحلة الثانية، الرحلة إلى العالم الآخر بعد

الحياة ثم يعود بنا إلى شخصية جلامش وكيف ولماذا ظهر نده إنكيديو وكيف ولماذا قام بالرحلة

الأولى إلى عالم الأحياء، غابة الأرز.

¹ - باقر طه: ملحمة كلكامش، ص 28.

² - السواح فراس: جلامش، ص 107.

³ - السابق، ص 109.

2- اتجاه الرحلة الملحمية الهندية في عالم الأحياء:

أولاً: في ملحمة المهابهاراتا:

1- الرحلة الجماعية: رحلة الإخوة الخمسة معا:

1: رحلة الفرار:

أسباب الرحلة: توفي الملك (براتيبا) خلفاً حفيدين*، الأكبر (ديتراشتر)، وكان ضريراً، والثاني (باندو) الذي استلم العرش نيابة عن أخيه ثم انسحب معيدا إياه إليه. إذ صار أبا لمائة من الأبناء الأشداء، وصار أكبرهم (دريودانا) متوجساً من أبناء عمه (باندو) الخمسة مخافة مطالبتهم بحق أبيهم، ولهذا كثيراً ماكان يوسوس لأبيه بأن ينفيعهم، أو يقصيعهم، ولكن العم الكبير الأعمى ظل مشفقاً على أبناء أخيه الأصغر (باندو) الذي قضى نحبه: "فأرسل يا أبتى آل باندو إلى فارانافاتا، فلقد ضاق صدري بهم، وما عدت أطيق وجودهم بيننا، وإذا رحلوا فرغت لتقوية حزننا وتنظيم الصفوف فلا تبقى لهم حيلة أو رجاء معنا!"⁽¹⁾

ثم أشاع (دريودانا) وأصحابه خبراً مفاده أن مدينة (فارانافاتا) الجميلة تقوق كل جمال، تستعد لاحتفال عظيم بعيد الإله (شيفا)، فبلغ مسامع الإخوة الخمسة، ولا عجب إن استهواهم الأمر ودفعهم ميل الفتان إلى الرحيل ومنتعة تجواب الآفاق، وزادهم العم تحفيزاً وتشويقاً، فعزموا أمرهم وتهيأ الإخوة للرحيل إلى فارانافاتا وأعدوا للسفر عدته"⁽²⁾ وفي الوقت نفسه كان (داريودانا) يدبر مؤامرة للتخلص منهم جميعاً وإلى الأبد، بأن أوعز سرا "بإشادة قصر منيف من اللك وأن يكثر من راتينج

* حفيدين: لم يكونا في الحقيقة حفيديه، وإنما حفيدي زوجته (إبني ربيبه).

1 - المهابهاراتا، تر/ عبد الإله الملاح، ص63.

2 - نفسه.

القُنْب، ويشبع الخشب بالزيت والزبد، ويزيد من اللّك" ⁽¹⁾ ثم تتم دعوة آل (باندو) الخمسة، وأمهم (كونتي) للإقامة في هذا القصر حتى اليوم الموعود، إذ تضرع فيه النار والناس نيام، ولكن للجدران آذانا في أكثر الأحيان، إذ أنصت (فيدورا) الحكيم لخيوط المؤامرة، ونصح (يوديشترا) أكبر الإخوة الخمسة بالحيلة والحذر من النار، وبضرورة حفر نفق يصل إلى خارج القصر.

وبعد التخطيط والتدبير قرروا المبادرة بإحراق القصر، قبل أن يفعل أعداؤهم بهم ذلك، وهكذا "اندفع بهيما يشعل فيه النار هنا وهناك بادئاً بالبواب" ⁽²⁾.

أ- **فضاء الإنطلاق:** شق الإخوة الخمسة طريقهم في النفق من القصر المحترق ومازالوا يجدون في المسير حتى بلغوا ضفة نهر الغانج.

ب- فضاء المسارات والمحطات:

المسار الأول: من القصر المحترق في (فاراناتا) إلى ضفة نهر (الغانج).

المسار الثاني: ركبوا نهر الغانج في قارب وتابعوا الرحلة جنوبا دونما هادٍ سوى نجوم السماء.

المسار الثالث: ظلوا في هذا المسير إلى أن بلغ بهم التعب والإرهاق والعطش أشد مبلغ، وكادوا أن

يتوقفوا لولا أن بهيما العملاق حمل إخوته الأربعة والأم (كونتي) بين ذراعيه الجبارتين وفوق منكبيه

العريضين، ومضى يتابع الطريق حتى نال منه الإرهاق هو أيضا. ⁽³⁾

¹ - السابق، ص 63، 64.

² - السابق، ص 65.

³ - نفسه.

المحطة الأولى: حط بهم في غابة كان قد بلغها، وهناك جلس بالقرب من أهله يحرسهم خشية أن يداهمهم خطر، وفعلا ظهر عفريت من (الراكشا) محاولاً أن يجعل الجميع غداء لبطنه المتهدل وأسنانة الثمانية، ولكن أخته (هيديمي) التي أغرمت بـ (بهيم) أخلطت حساباته وجعلته جثة هامدة تحت ضربات (بهيم) قبل انبلاج الفجر.

المسار الرابع: لما تم الأمر تهيأ الجمع للرحيل، ثم مضوا في طريقهم بين دروب الغابة، وظلت العفريته (هيديمي) تلحق بهم، رغم أن (بهيم) كثيرا ما التفت إليها مهددا إياها أنه سيلحقها بأخيها إن لم تفارق الدرب، ولكن الأم (كونتي) كان لها رأي آخر.

المسار الخامس: لم تتلكأ القافلة بعد هذا، فشددت الرحال وظل آل (باندو) يتنقلون في تجوالهم من غابة إلى أخرى، ومروا في هذا التيه بالدول والممالك (البانتاشالا، والماتسيا، والكيثشاك)، وكانوا يتخذون في تطوافهم مسلك الزهاد الفقراء، فيرتدون جلود الغزلان ويستترون بلحاء الأشجار ويطلقون شعورهم.

المحطة الثانية: نزلوا عند جدهم (فياسا) الذي نصحهم بالتخفي والتوجه إلى مدينة (إيكاتشكرا).

المسار السادس: ساروا متسترين إلى مدينة (إيكاتشكرا).

المحطة الثالثة: نزل الإخوة الخمسة وأهمهم في (إيكاتشكرا) عند أحد البراهمة الذي سرعان ما أخذوا عنه أسلوب حياة هذه الطائفة، فغلب عليهم هذا التكر، ولكن إقدام (بهيم) مرة أخرى على القضاء على عفريت من (الراكشا)، جعل الناس يشككون في أمرهم، فأدرك الإخوة الخوف من بلوغ الأنباء إلى أبناء العمومة الذين يظنون موتهم.

المسار السابع: استحث الجد (فياسا) حفدته للذهاب إلى عاصمة مملكة (البانتشالا) من أجل خطبة (دروبي) ابنة الملك (دروبا).

ت- **فضاء الهدف:** المحطة الرابعة: هناك نصب الملك (دروبا) هدفا عرضة لخمسة سهام، ففشل جميع الأمراء الراغبين في الأميرة، ولكن (أرجونا) "رفع القوس، شد الوتر، حلق في الهدف، ترك الوتر، انطلق السهم يسبح إلى هدفه مباشرة وكان السهم الثاني، فالثالث فالرابع فالخامس تجمعت الخمسة كلها في الهدف الدقيق، فتهاوى وسقط على الأرض." (1) فحصلوا على الأميرة، وعلى الحلفاء، وتمكنوا من العودة إلى المملكة، وقد اكتشف الجميع أنهم أحياء لم يموتوا حرقاً.

2- رحلة النفي:

أ - **فضاء الإنطلاق:** كان الإنطلاق من مملكتهم (هاستينبورا).

ب- **فضاء المسارات والمحطات:**

المسار الأول: دأب القوم مذ غادروا (هاستينبورا) على المسير يبحثون عن مأوى لهم بعيداً عن عيون الراصدين، فهجروا الدروب المطروقة إلى دروب لا أثر لقدم فيها، ومازالوا يضربون عصا الترحال في الأرض، حتى استقرت بهم في الغابة المعروفة بغابة (كافكا).

المحطة الأولى: غابة (كافكا): ولئن حرصوا على تجنب الناس في الطريق فما أفاد ذلك إلا انتشار أخبارهم، وما كادوا يستقرون في هذه الغابة حيناً إلا وجدوا العشائر والمعارف وأهل (دروبادي) ينظمون إليهم في وطنهم الجديد، ويعاهدونهم على النصر، ويحثونهم على الرجوع إلى

¹ - السابق، ص 74.

الوطن، ولم يجب (يوديشترا) إلا بعبارة مقتضبة: "أبقوا أسلحتكم بجنبكم واستعدوا في نهاية السنة الثالثة عشرة." ⁽¹⁾

المسار الثاني: هي إذن إثنتا عشرة سنة من حياة العزلة والوحدة في هذه الغابات، يحسن البحث عن بقعة جميلة تجتذب الغزلان والضباء وتكثر فيها الفواكه والأزهار، ويرتاها أهل القداسة والعارفون، فالأفضل أن يقصدوا بحيرة (دفيتافانا) المقدسة، وأن يهجعوا إلى ضفافها المباركة. ⁽²⁾

ت- المحطة الهدف: المحطة الثانية: أقام الجميع عند ضفاف بحيرة (دافيتانا) المقدسة، وخلدوا إلى حياة العزلة والدرس ومجاهدة النفس، وظل هذا دأب الجماعة يوما بعد يوم، وكل واحد من هذه العصابة منصرف إلى عمل يشغل به وقته. ⁽³⁾ وهنا يأمر أخاه بالرحيل (بعد حوالي سبع سنوات من النفي).

2- الرحلة الفردية في المهابهاراتا: تحدث إحدى الرحلات الفردية عند الاستقرار في مملكتهم الجديدة يقوم بها (أرجونا)، والأخرى يقوم بها (بهيم) أثناء رحلة النفي.

الأولى: رحلة (أرجونا):

سبب الرحلة: حذر أحد الحكماء الإخوة الخمسة من الفتنة فيما بينهم بسبب امرأة، فتعاهدوا على عدم الدخول على بعضهم دون استئذان، ونقض العهد يستوجب التوبة منه بالنفي إلى الغابة مدة اثنتي عشرة سنة. ولكن حدث وأن داهم اللصوص حظيرة أحد البراهمة وسرقوا بعض ماشيته، فهرع إلى آل باندو يشكو ما حل به، وصاح بالعار والشنار أن تسرق منه الزبدة المقدسة في مملكتهم،

¹ - السابق، ص 132.

² - السابق، ص 133.

³ - السابق، ص 134.

فأين الأمن، وأين الأمان؟ فطمأنه أرجونا وقطع على نفسه العهد بأن يعيد له ما سرقه اللصوص منه، ومضى لتوه إلى القصر ليأخذ قوسه، فما كاد يدخل متعجلاً لا يلوي على شيء حتى فوجيء بيوديشترا مع دروبدي في الغرفة حيث يحتفظ بالسلاح، تردد قليلاً ثم دخل وحيى أخاه وحمل سلاحه خارجاً. مضى أرجونا في حملته على اللصوص حتى استأصل شأفتهم، ثم قفل عائداً إلى العاصمة، فاستقبله الناس أحسن استقبال بعدما بلغهم نجاح حملته وتأكدوا من استتباب الأمن في المملكة. بيد أن أرجونا قطع الإحتفال، وذهب إلى يوديشترا لينبئه بعزمه على الإنزواء في الغابة الزمن المعروف،⁽¹⁾ وهكذا قرر (أرجونا) أن ينزوي في الغابة كل هذه المدة رغم أن أخاه قد غفر له زلته، إلا أنه أراد التطهر من الخطيئة.

أ- **فضاء الإنطلاق:** انطلق من عاصمتهم (إندرا براستا)، التي كان قد منحها لهم عمهم قفرا بلقعا، فأحالوها قلعة جبّارة، وروضة مخضرة.

ب- **فضاء المسارات والمحطات:**

المسار الأول: قطع (أرجونا) القفار واجتاز البحيرات والأنهار.

المحطة الأولى: لما بلغ نهر الغانج، نصب خيمته هناك، وداوم على النزول إلى النهر كل يوم للإغتسال والإبتهال حتى التقى بالحرورية (ألوبوي) ابنة (كارافا) ملك الأفاعي (الناغا)، التي منحته طلسمًا يحصنه من كل عدو يأتيه من البحر.

المسار الثاني: مضى أرجونا يضرب عصي التجوال في الأرض الواسعة، ومازال يسعى في كل طريق حتى بلغ سفوح جبال (الهملالايا) ورأى عن بعد بلداً، فجذّ في السعي إليه.

¹ - السابق، ص 84.

المحطة الثانية: نزل عاصمة مملكة (مانيبورا) وطلب يد الحساء (تشيترانغادا) من أبيها الملك الذي اشترط عليه أن يبقى ابنه منها ولها لعده، وهكذا أقام أرجونا ثلاث سنوات، ليشد بعدها عصا الترحال.

المسار الثالث: ظل (أرجونا) يضرب في الأرض حتى قادته قدماءه إلى شاطئ المحيط الجنوبي.

المحطة الثالثة: وهناك توقف حيث الأقاليم الخمسة التي نأى عنها أهل القداسة بسبب التماسيح الخمسة، التي لم تكن سوى حوريات مسخن تماسيح استطاع أن يخلصهن من هذه اللعنة.

المسار الرابع: شد الرحيل إلى (غوكارنا) ليلتقي قريبه (كريشنا) ويمكث في قصره ويتعرف على أخته فيقرر الزواج منها.

المحطة الرابعة: أقام عاما كاملا في (دافاركا) عاصمة (اليادفا).

المسار الخامس: بعد عام كامل من الإقامة خرج نحو (بوشكارا).

المحطة الخامسة: قضى بعدئذ بقية أعوام النفي في (بوشكارا).

ت- **فضاء الهدف/ الوصول: (العودة):** حين انتهت سنوات النفي عاد إلى عاصمتهم (إندرا براستا) حيث ترك إخوته، وقد حقق الإطمئنان بالتطهر، تتحدث الكثير من المسارات الأسطورية والملحمية عن هدف التطهر من الخطايا (أرجونا وياسون) أو التطهر من الدماء الملوثة التي لوثت دماء الرحالة عند تخلصهم من الأشرار (تيسوس).

الثانية: رحلة (بهيمبا) لإحضار زهرة اللوتس: كانت القافلة تسير شمالا حتى تتمكن من اللقاء

بـ(أرجونا) حين عودته من رحلته إلى سماء (الهملايا) حيث جنة (إندرا).

وفي أحد الأيام هبت ريح حملت معها بعض زهرات اللوتس، لا نظير لها، فالتفتها دروبدي، وتنسمت رائحتها، فأخذت بروعة الأريج، وجمال الألوان، فتاقت نفسها إلى زهرة ندية منها تهديها إلى (يوديشترا) فسألت (بهيم) أن يأتي لها بواحدة، فأسرع إلى تلبية طلبها، يضارع الرياح في سرعتها، مثيرا الفرع في سكان الغابة من غزلان وفيلة وأسود.⁽¹⁾

أ- فضاء الإنطلاق: انطلق (بهيم) لما التمسست منه (دروبدي) زهرة لوتس جميلة عطرة تهديها إلى (يوديشترا).

ب- فضاء المسارات:

المسار الأول: مثل الريح أسرع (بهيم) مثيرا الفرع في سكان الغابة، حتى لقيه القرد (هانومان) الذي يحاول مساعدته في مسار ضيق، في إحدى ممرات الجبل الضيقة التي تلقي إلى هاوية سحيقة، وعرف فيه أخاه (هانومان) الأسطوري الذي سبق وأن ساعد راما في رحلته الأسطورية نحو (سيريلانكا) لاستعادة (سيتا)، وتغننت به (الراماينا).

المحطة الأولى: وصل إلى جبل (كايلاس) حيث بحيرة رائعة الجمال تحيط بها الغابات من كل جانب، ويحرسها الراكشا المردة، وتطفو على سطح مائها الصافي الرقراق ألف ألف زهرة لوتس وعود زنبق.⁽²⁾

عوائق الرحلة: اعترض بهيم أحد عفاريت (الراكشا) المردة، فهو أحد حراس مملكة (كوفيرا) مملكة إله الثروة، ولم يقبل بهيم الإعتراض، فالمكان هبة الطبيعة للجميع وليس حكرا على أحد، فما كان

¹ - السابق، ص 140.

² - نفسه.

من المارد إلا أن صرخ وجمع بقية رفاقه، بيد أن بهيما قد غطس في بحيرة، وبدأ يجمع الأزهار، فدارت معركة رهيبة بينه وبين هذا الجيش الهائل من المردة.

ت- فضاء الوصول: وهناك التحق به أخوه (يوديشترا) والبقية، ثم قرروا البقاء هناك في انتظار (أرجونا).

ثانيا: في ملحمة الرامايانا:

قد سجّلت الملحمة خطوات (راما) "بدقة بالغة لايزال أهل الهند يحفظونها رغم مرور ثلاثين قرناً عليها فالماضي لا يموت في الهند ولا يوارى التراب، وإنما هو في أذهان الناس بوجه عام، وفي قلوب ملايين النساء بوجه خاص اللاتي يتخذن من سیتا مثالا لهنّ، نظرا لإخلاصها ووفائها لزوجها ولايزال كثير من المواقع التي حل بها راما وزوجته تعتبر من مناطق الحج التي يذهب إليها الناس".⁽¹⁾

أ - فضاء الإنطلاق: أيودها: خرج (راما) ممثلاً لأمر أبيه بالخروج من المملكة نحو الغابة مدة أربعة عشر عاماً فتبعه الناس حتى نهر تامسا.

ب- فضاء المسارات:

الرحلة الأولى: التوغل في الغابة:

المسار الأول: من: أيودها حتى نهر تامسا.

المحطة الأولى: نهر تامسا.

¹ - ترحيني، فايز: الملاحم بانوراما حضارية حيّة، مجلّة الباحث، العدد الثاني، السّنة الثامنة/ 1986، بيروت، ص

المسار الثاني: اتجهت العربية من الشمال نحو الجنوب فعبروا نهر تامسا، ووصلوا إلى الحدود الجنوبية لمملكة (كوسالا) وتقدم الراكب حتى وصل إلى الضفاف الشمالية لنهر الغانج.

المحطة الثانية: إقليم صديق رام (نيشا دراج).

المسار الثالث: عبور النهر: رفض سائق القارب أن يساعدهم في العبور، حتى غسل قدمي (راما).

المحطة الثالثة: عبروا النهر ووصلوا إلى الضفة.

المسار الرابع: عبر (راما) الغابة بصحبة زوجته وأخيه، وصديقه (نيشا دراج) ووصلوا إلى (براياج)، وهي مدينة عند ملتقى نهري الغانج و(يامونا).

المحطة الرابعة: وصلوا (براياج) وزاروا صومعة الكاهن (بهار دواج) الذي استشاروه في المكان المناسب للإقامة فقال: "هناك رابية تدعى شيتراكوت Shitrakoot إلى جانب نهر اليامونا، وهذا المكان مليء بالنباتات الجميلة المزهرة وأشجار الفاكهة والينابيع ومساقط المياه، وغيرها من مظاهر الجمال الطبيعي، وفي رأيي أن هذا المكان هو أنسب الأماكن لسكناكم".⁽¹⁾

المسار الخامس: اتجهوا نحو (شيتراكوت).

المحطة الخامسة: ولأن (داشارات) الملك الأب كان قد مات فقد وافاه أخوه (بهارات) بلوازم التتويج في شيتراكوت، ولكنه رفض.

المسار السادس: غادر (شيتراكوت) ووصل إلى صومعة الكاهن (آتري).

¹ - الرامايانا، ملحمة الاله رام، تر/ دائرة المعارف الهندية، ص 74.

المحطة السادسة: مكث أياما معدودات لدى الكاهن (آثري) وزوجته (آنسويا) اللذين استقبلاه استقبالا حافلا ورحبا به.

المسار السابع: ترك صومعة الكاهن (آثري) ورافقه في رحلته عدد من النساك، وفي الطريق مروا بأكوام من بقايا الأجسام البشرية، فسأل (راما) مرافقيه فأجيب أن الشياطين أكلوا الأولياء وألقوا بعظامهم. وسرعان ما ظهر لهم أحد الشياطين، لكن (راما) قضى عليه، ثم وصلوا صومعة الكاهن (أجاستيا).

المحطة السابعة: وصلوا صومعة الكاهن (أجاستيا)، وطلب راما بركته، وبعض الأسلحة الدينية، وسأل عن المكان المناسب للإقامة فقال الكاهن: "هناك مكان يدعى بنشفاتى على بعد أربعة أميال".⁽¹⁾

المسار الثامن: في الطريق إلى (بنشفاتى) التقوا بـ (جاتابو) الملك العقاب، وكان صديقا للملك (داشارات) والد (راما) الذي طلب من (راما) السماح له بمرافقته.

ت- فضاء المحطة الهدف (المحطة الثامنة): وصلوا (بنشفاتى)، وبنوا كوخا للإقامة. حينها شعر النساك في المنطقة بالأمان لأن (راما) صار جارا لهم.

إن كل ما كان يريده (راما) الجديد في حياته التي ستبدأ منذ الآن هو الأمان والعمل على الإستقرار طيلة الأربعة عشر عاما التي فرضت عليه نفيا عن موطنه. "وهام على وجهه في هضبة الذكن وانتقل إلى جنوب الهند، وسجلت هذه الملحمة هذه الرحلة واهتمت اهتماما خاصا بمقابلاته مع رجال الدين... وحملته الرحلة إلى مناطق لم تكن مطروقة من قبل، فاكتشفها لأول مرة، وأخيرا

¹ - السابق، ص 83.

ابتنى له كوخا في مكان يبعد حوالي مائة ميل عن مدينة بومباي الحديثة، حيث استقرّ به المقام مع زوجته وأخيه لاکشمانا⁽¹⁾

لقد كان ظلما إخراجا من بلده، وعرشه ولكن (راما) كان بارا بوالده، طائعا لقتاليد العهد والمواثيق، فلذلك كان هينا عليه وميسورا أن يتقبل حياته الجديدة ويسعى للإستقرار وفق ما توفر له من جو جديد.

الرحلة الثانية: البحث عن (سيتا): حين مكث (راما) في (بنشيفاتي) مع زوجته وأخيه، سعد أهل المنطقة بضيافته المباركة، فقد وفر لهم جواره الأمن والسلام، ولكن حدث وأن مرت (شورباناخا) بالمكان وهي شقيقة (رافانا) ملك (لانكا) وهي شيطانة قاسية وفاجرة فرأت (راما) وأخيه (لاکشمان) ففكرت في نفسها وفي امكانية الزواج بأحدهما، فعرضت نفسها على (راما)، فاعتذر لأنه متزوج. وقال لها (لاکشمان) أنه مجرد خادم عند سيده بينما هي أميرة سيدة، فغضبت وأرادت التخلص من (سيتا) لتتمكن من الزواج من (راما)، فحاولت التهامها، فتصدى لها، وجدها أنفها، فجئ جنونها وفرت تشكو لابني عمها (كارا) و(دوشان) فهجما بجيش يربو على ألف وأربعمائة من المحاربين الأشداء، بيد أن (راما) تغلب على الجميع وقتل حتى ابني العم، فقط فر أحدهم ويسمى (أكامبان) بعربته الهوائية باتجاه الجنوب ليخبر (رافانا) ملك (لانكا) الذي ذهل وصرخ "أبقتل أصدقائي رجل، هذا غير ممكن، وإذا كان هذا صحيحا فلا بد أن هذا الأمير قد كتب بيده موته، فلن أسمح له بالبقاء على قيد الحياة"⁽²⁾ واستعان بـ (ماريش) الشيطان الذي نصحه في البداية بعدم التعرض لـ (راما) وتعرض شعبه للخطر، ولكن (رافانا) لما رأى أخته (شوربانكا) باكية شاكية عدل عن رأيه

¹ - ترحيني، فايز: الملاحم بانوراما حية، مجلة الباحث، دار الباحث، بيروت، العدد الثاني، السنة الثامنة، 1986، ص 74.

² - السابق، ص 87.

وعاد يريد مقاتلة (راما) وأجبر (ماريش) أن يتحول إلى غزال يطارده (راما) و(لاكشمان) بعيدا عن الكوخ، ويتركان سيتا وحدها فيختطفها، ويتحول معنى الرحلة إلى السجال والحرب من أجل استعادتها.

الرحلة الثالثة: وهي رحلة العودة إلى الوطن إلى مملكة (أيوداهيا)، ولم تقدم الملحمة تفاصيل رحلة العودة فوردت مقتضبة جدا.

الرحلة الرابعة: بعد وفاة (سيتا) و(لاكشمان)، باختصار شديد تنبهنها الملحمة إلى قيام راما وأخويه (بهاراتا) و(شاتروجننا) برحلة إلى النهر حيث سيستلقون عليه لتكون هذه هي الرحلة الأخيرة وإلى عالم الأموات.

3- اتجاه الرحلة الملحمية عند الفرس، رحلة البطل رستم بن زال إلى مازندران:

أ- فضاء الإنطلاق: إن الطريق إلى مازندران طويل جدا، لقد ساره الملك (كاوس) في ستة أشهر، ولكن هناك طريق مختصر، تُقَطَّع مسافته في أسبوعين وهو مليء بالأسود والظلمات، وتظل العين حائرة فيه مضطربة (فاختر الطريق القصير وشاهد العجائب وعونك هو الله خالق العالم، ورغم أنه شاق فإنه ينتهي، وستقطعه أقدام (رخش) الميمون، هكذا نصح البطل زال ابنه البطل رستم، وعندما أطلت الشمس برأسها من وراء الظلام وصار العالم منها كالحديقة في النوروز، لبس الدرع ورفع قامته، وامتطى جواده (رخش) كأنه الفيل. وخرج في منتصف النهار من بيت أبيه البطل المنير للدنيا، وكان يقطع مسيرة يومين في يوم واحد، وكان يعتبر الليل المظلم نهارا... ولما جاع اصطاد

حمارا وحشيا شواه وطعمه، ثم جعل القصب فراشا لنومه، واطمأن في مكان الخوف والوحشة، وهكذا قطع هذه المسافة المهولة من الصحراء المجهولة، وقد اعترضته سبعة خطوب.⁽¹⁾

ب- فضاء المسارات:

المرحلة الأولى من الرحلة: نام وسيفه تحت رأسه ووضع رأسه في هدوء فجاء الأسد إلى عرينه، فكفاه فرسه (رخش) مؤونة نزاله، بيد أنه لما استفاق لامه على مغامرته، فهو يحتاجه في حمل أسلحته، وليس النياية عنه في القتال، وعاد ثانية إلى غفوته.

المرحلة الثانية من الرحلة: عندما أطلت الشمس من جبل الظلمة وجد نفسه يسلك طريقا لا مفر منه، ووجب عليه السير فيه حائرا، صحراء لا ماء فيها اشتعلت حرارة، فترجل عن فرسه ومشى مهرولا كالثلمل، ولم يجد حيلة للنجاة غير الصلاة والدعاء إلى رب السماء، حتى لمح حملا اقتفى أثره حتى بلغ مورد الماء.

المرحلة الثالثة من الرحلة: ارتوى واغتسل ولسانه يلهج بحمد ربه، ثم نام واستراح حتى منتصف الليل، حيث ظهر التتين للنزال، وملأ الأرض بالقتال، فكانت له معه جولة أو جولتان.

المرحلة الرابعة من الرحلة: امتطى (رستم) جواده ومشى متبخترا إلى مكان السحرة، وكان يقود (رخش) مسرعا في طريقه الطويل، وعندما نزلت الشمس المضيئة من عليائها رأى العشب والماء الجاري، فأكل وشرب وجلس يغني على عود وجده هناك حتى ظهرت له عجوز ساحرة ظننها فتاة حسناء فتمكن من الفتك بها لتكون عبرة لقلوب السحرة، ثم واصل طريقه.

¹ - الفردوسي: الشاهنامه، ص

المرحلة الخامسة من الرحلة: كان (رستم) يجد في المسير حتى وصل إلى مكان لم ير للدنيا فيه نورا، وكان الليل كوجه العبد الزنجي، ولم تكن النجوم ظاهرة ولا القمر منيرا، وكانت الشمس وكأنها في الأسر. والنجوم في فخ الوهق⁽¹⁾ فأطلق العنان لـ (رخش) فلم ير وهادا ولا نجادا من شدة الظلام وجد إلى حيث النور، فرأى الأرض مخضرة ولكنه اضطر إلى مقاتلة بعض الأبطال ممن جاؤوا للصيد مع ملكهم (أولاد) الذي أسره واتخذة دليلا لرحلته.

المرحلة السادسة: عندما أطلت الشمس من فوق قمة الجبل، وزادت العالم حسنا وجلالا استيقظ البطل الواهب للتاج من النوم، وتوجه إلى معسكر الشياطين حيث قائداهم (أرزنك) وصرخ في الجميع صرخة كأنها شقت البحر وصدعت الجبل وحث جواده وجاءه كالنار المحرقة واقتلع رأسه عن جسده، ومن هناك سمع الملك (كيكاوس) صهيل الجواد فاطمأن قلبه لمجيء رستم.

المرحلة السابعة: اصطحب معه أولاد الذي أشار عليه بانتظر الظهيرة حتى يتعب الجني الأبيض ويخاد للقليلة وهكذا تمكن رستم من القضاء عليه، ليواصل معاركه حتى تحرير "كاوس" والبقية والعودة بأمان إلى الأوطان، وتنصيب (أولاد) ملكا على عرش (مازندران)⁽²⁾

ت- فضاء الهدف: انطلق من مملكته (زابل) إلى (مازندران) عبر الصحراء بلد المتناقضات القاتلة فهي المستطاب لكونها الجنة على الأرض بخيراتها وكنوزها ولكونها الجحيم بمنعتها بالسحر والشياطين، لتخليص الملك (كيكاوس) وجنده، واستعادة عرشه.

¹ - الوهق والوهق: حبل في طرفه أنشودة، يطرح في عنق الدابة حتى تؤخذ، جمع أوهاق.

² - بكر، أحمد حسين: أشهر الأساطير الفارسية، ص 4، 5.

4- اتجاه الرحلة الملحمية في عالم الأحياء عند الإغريق:

أولاً: في الأوديسة: رحلة عودة أوديسيوس:

أ - فضاء الإنطلاق: نحو العودة:

بعد أن صارت طروادة رمادا، ودخانا، أفلح أوديسيوس منها في أسطوله الذي جاء به من إيتاكة، وكله أمل وعزم على الإجتهد في الإبحار مع كل الرفاق للوصول بسرعة، وسلامة إلى أرض الأوطان، وكانت طروادة مدينة حصينة، جاءها غازيا مع حلفائه الآخيين بزعامة (أجاممنون بن أتريز)، لإسترجاع هيلانة زوجة أخيه التي اختطفها الأمير (باريس بن بريام) ملك المدينة، وظلت تلك المدينة الجبارة قوية صامدة عشرة أعوام كاملة، بفضل أبطالها الصناديد، أمثال (هكتور بن بريام الملك)، واستطاع الرحالة (أوديسيوس) بعد مقتل عشرات الأبطال، أن يفكر ويدبر خطة الحصان الذي أدخل المدينة، وفي جوفه أبطال الإغريق. وبعد أن جمع سلبا ونهبها، ما تيسر له من كنوزها وتحفها، ركب السفن على عجل، ولما دُكر بأنه لم يقم بطقوس العبادة والرحلة، استدأر عائدا تائبا، لينطلق من جديد، مخلفا الرماد والدخان.

ب - فضاء المسار:

المسار الأول: أفلعت السفن تشق البحر جنوبا ولكن الرياح دفعته شمالا باتجاه بلاد (السيكون- إسماروس) على الشاطئ الشمالي لبحر إيجه. "إسماروس هو جبل على ساحل طراقيا الجنوبي، والكيكونيون هم قبيلة طراقية تسكن بالقرب من نهر هيربوس"⁽¹⁾ وهكذا كان الإتجاه نحو شمال اليونان هو الخطأ الفادح الأول بعينه في مسار الرحلة لأنه كان الأجدر به أن يتوجه "جنوبا أو

¹ - السيد، صلاح: الأوديسة، ص 146.

نحو أية جزيرة مواجهة لطرودة من جزر بحر إيجه المنتشرة على شرق بلاد اليونان حتى جنوبها"⁽¹⁾

المحطة الأولى: وانتهازا للفرصة بدا للرحالة أن ينزل المدينة للسلب والنهب من أجل الإستزادة في الكنوز والثروات، ولكنهم عصوا أمره بسرعة الرحيل وجلسوا يعاقرون الخمر، ويشوون اللحوم حتى لم أعداؤهم شعثهم وفاجؤوهم بجيش عرمرم وقذفوا بهم في البحر.

المسار الثاني: انسحب الرحالة ورفاقه يجرون أذيال الهزيمة والخزي والحزن، لأنهم قد فقدوا ستة من رجال كل سفينة، وإذا كنا نعلم أن عدد رجال كل سفن الأسطول الأوديسي كانت إثنا عشرة سفينة فإن عدد القتلى سيكون $(6 \times 12 = 72)$ بحارا!)، وإنها لحصيلة ثقيلة جدا، ربما لم تحدث خلال حرب طروادة كلها التي دامت عشر سنين! كما سخرت عليهم ريح صرصر عاتية عصفت بالمركب وأطاحت بالقلاع ومزقت الشراع.

المحطة الثانية: لمحاو شطآن جزيرة (ماليا)، ولكن الموج دفعهم نحو الجنوب إلى جزيرة (كوثيرا) ببحر إيجه، ليشير (أوديسيوس) بضرورة الإرساء لإصلاح المراكب.⁽²⁾

المسار الثالث: بمجرد هدوء الرياح يبحر، ويدخل مياه البحر المتوسط بجنوب (البيلوبونيز) ويدور حول نتوء ماليا ثم يتجه شمالا نحو وطنه (إيتاكا)، إلا أن الرياح الشديدة والأمواج القوية تضرب أسطوله وتجبره على تغيير مساره. ويظل البطل ورفاقه على غير هدى مدة تسعة أيام حتى يصلوا في اليوم العاشر - دون قصد - إلى أرض (أكلي اللوتس)⁽³⁾

¹ - السابق، ص 146.

² - السابق، ص 18.

³ - نفسه.

المحطة الثالثة: نزلوا عند شعب (لوتو فاجي) الذي يقات بالفاكهة فقط، ولكنهم يستعملون ثمرة اللوتس العجيبة التي تنسي آكلها ما سلف من حياته، واستطاع الرحالة أن يسيطر على الوضع قبل استفحاله وانطلق فارا بذاكرته وذكرياته.

المسار الرابع: ركب البحر، وكله أمل أن يجد محطة أفضل وأسلم، وظل متنقلا بين الجزر "ناحية الشمال الشرقي"⁽¹⁾ حتى لمح جزيرة آية في الخضرة والنماء.

المحطة الرابعة: نزل في جزيرة توحى بالثراء والغنى ووفرة الأطعمة، لما فيها من أنعام وأشجار مثمرة، ولكن مرآى الدخان جعله ينتقل إلى الجزيرة المجاورة ويدخل أحد كهوفها، وأعماه الطمع فاقترح المكوث حتى يأتيه صاحب البيت بالقرى والهدايا، وليته ما جاء وما رأى، فقد سد المضيف باب الكهف وشرع يأكل رفاق الرحلة مثنى مثنى، حتى تغطفن أوديسيوس إلى حيلة يفتأ بها عينه الوحيدة، ويفر بما تبقى من الصحب الذين امتلأوا رعبا وفزعا، وجفت شرايينهم وأوردتهم.

المسار الخامس: نشر أوديسيوس ورفاقه أشعة سفنهم وأصلحوا قلاعها، ولأذوا بالفرار يحميمهم الموج الذي كان يدفع المراكب إلى الشمال بعيدا عن السيكلوب وإخوانه الجبابرة العتاة، وظل البحر صديقا طيبا حتى أوصلهم بأمان إلى جزيرة الأيوليين.

المحطة الخامسة: يحكم الملك (إيولوس بن هبوتاس) جزيرة تلوح طافية فوق العباب، بسورها النحاسي الهائل، واستقبل الرحالة ورفاقه بالبشر والإيناس، واستضافهم شهرا كاملا، ناعمين طامعين في مساعدته لهم للعودة إلى البلاد، ثم أنه ضرع إليه أن يعيده إلى بلاده فأجاب سؤله، وأمده بكل ما يبسر رحلته، وقدم له جعبة مصنوعة من جلد عجل كبير، حبست فيها رياح العالم أجمع، وأحكم

¹ - السابق، ص 19.

رباطها بسلك فضي متين، حتى لا يفلت منها نفس واحد إلا بإذن "إذ لم يترك سوى الرياح الغربية التي سوف تصل به آمنا إلى وطنه إيتاكا"⁽¹⁾

المسار السادس: ملأ (زفيروس) أشعة مراكب (أوديسيوس) وهب بين أيديهم فجرت بهم الفلك آمنة مطمئنة طوال تسعة أيام حتى بدت لهم شطآن (إيتاكا) الجميلة فخفقت القلوب فرحا واستطاع (أوديسيوس) نفسه ان يلمح مواطنيه الأعراء يوقدون النار في شعاب الجبال، ولكنه كان منهوكا، موهونا، من طول السهر وشدة المراقبة، فداعت عينيه سنة من كرى، فلعب الوسواس في صدور رجاله ظانين أنه يحمل أذخارا من الكنوز في القربة، فامتدت أيديهم إليها، فحلوا رباطها، وبسرعة انطلقت كل الرياح الحبيسة، وزمجت العواصف الهوج من كل صوب، وطفقت تكسحهم في شدة وعنف، بعيدا عن (إيتاكا).

قفز الرحالة من غفوته فزعا مذهولا، وتدفقت الأحزان على قلبه المسكين.

المحطة السادسة: عادوا القهقري إلى جزيرة (أيولوس) الذي اكفهر وجهه بعد البشر والنباشة، وعبس وطرده الجميع من حضرته صارخا: "اغرب عن جزيرتنا هذه، يا أتعس الناس، انطلق فوالله إنني لأستغفر إن أكرمت مثوى رجل مثلك مغضوب عليه من السماء"⁽²⁾

المسار السابع: خرج (أوديسيوس) ورفقته يفرغون في اليم المصطخب عرق الأجساد المحمومة بالندم والأسف، وقد أفرغ القلب من الأمل والرجاء مدة ستة أيام.

¹ - السابق، ص 25.

² - هوميروس: الأوديسة، تر/ دريني خشبة، ص 96.

المحطة السابعة: وصلوا مدينة (ليستريجونيا) المدينة الموحشة التي بناها (منالاموس) العظيم. والتي تغزوا الحشرات مروجها نهارا، فيختبئ الرعاة حتى هدأة الليل.⁽¹⁾

وهي محصنة بسور عظيم من الحجر الصلد ينحدر قليلا إلى الميناء بمضيق صغير لا تعلو فيه موجة، ولا يتحرك ماء، فأدخل رجاله سفائنهم في هذا البوغاز، بينما ترك الرحالة سفينته خارجا. وللأسف اكتشفوا بعد فوات الأوان أن أهل هذه الأرض أكلة لحوم البشر. ولأن السفن كانت محاصرة داخل البوغاز لم يستطع البحارة الخروج بها إلى عرض البحر بسهولة للنجاة مما مكن الأعداء الوحوش، من قذفها بالصخور حتى هلك الجميع وحملوهم في حراهم ليقنطوا بهم! إلا (أوديسيوس) وبحارة سفينته التي كانت خارج البوغاز.

المسار الثامن: أسرع (أوديسيوس) إلى حبال المرساة فقطعها وبادر رجاله إلى مجاديفهم، فنجوا من هذا الموت الفضيح. وظلوا يجذفون بهلع وأسى و"يبحر بسفينته ويدخل البحر التيرانى ليصل إلى جزيرة (إيايا) على الجانب الغربي لإيطاليا".⁽²⁾

المحطة الثامنة: كانت تجربة مريرة قاسية تلك التي مرت بهم، لذلك لم يستطيعوا المغامرة في جزيرة (إيايا) لما رسوا فيها، بيد أن الرحالة عزم على اكتشاف أهلها. بعد يومين. لما آنس دخانا، فقسم ما تبقى له من رفاق فريقين، جعل (يوريلاخوس) رئيسا على أحدهما، وكان هو نفسه رئيس الفريق الآخر، ووجهت القرعة (يوريلاخوس) وفريقه المكون من إثنين وعشرين رفيقا إلى قصر (سيرسة) التي حولتهم إلى خنازير برية، ترتع في حديقته الجميلة، إلا الرئيس الذي عاد يرتعد من حمى الخوف والأسف والقهر، فما كان من (أوديسيوس) إلا أن يسرع إليها محميا بعقار من صديقه

¹ - السيد، صلاح: الأوديسية، ص 96.

² - السابق، ص 27.

(هرمز) الذي علمه كيف يتحايل على سحرها لينقذ رفاقه ويكسب صداقتها، فيمكثون لديها عاما كاملا، حتى تنبهوا إلى ضرورة العودة إلى الوطن، فنصحته (سيرسة) بزيارة العالم السفلي لمقابلة (تريسياس) الذي يساعده بعرفته على مسار الرحلة.

المسار التاسع: يتجهون نحو الغرب تدفعهم الرياح الشمالية، يقول (أوديسيوس) يصف مساره إلى العالم السفلي "أقلعنا وظلت السفينة تجري يوما كاملا، حتى إذا أوشكت الشمس على المغيب أشرفنا على تخوم البحر الأعظم، حيث تنهض مدينة السمريين التي ينعقد فوقها دجن كثيف وظلمات داجية، فلا تنفذ إليها شعاعة من نور ولا يحييها رسول شمس هذه الدنيا العاملة"⁽¹⁾ وهنا توجد أجمة (برسيفوني) حيث الفتحة المؤدية إلى العالم الآخر، حيث نهر (أخيرون) الموجود في (أبيروس) بالمنطقة الشمالية الغربية لبلاد اليونان.⁽²⁾

المحطة التاسعة: هناك ألقوا مراسيهم، وقدموا الطقوس الواجبة، كما أشارت عليهم (سيرسة)، ولبث (أوديسيوس) وحده حتى ظهر (تريسياس) الحكيم الذي أعلمه بمسار الرحلة، وكيف يمكن تجنب الأسوء منها، ثم قابل غيره كثيرا من أهل الدار المظلمة.

المسار العاشر: خرجوا من العالم السفلي، فحملهم تيار سريع عبر البحر المحيط بعد أن أعملوا مجاذيفهم وقتا غير طويل، واحتملوا العباب وذرعوا اليم المترامي بموجه العالي كالجبال، حتى عادوا إلى (إيايا).

المحطة العاشرة: عادوا إلى جزيرة (إيايا) ليقوموا بواجب جنازة رفيقهم (ألبينور) الذي . قبل رحيلهم إلى العالم الآخر . سقط من سطح قصر (سيرسة) ودق عنقه فمات. وأكرمتهم (سيرسة) كعادتها،

¹ - هوميروس: الأوديسة، تر/ دريني خشبة، ص 106.

² - السيد، صلاح: الأوديسية، ص 30.

وجلست تتصح (أوديسيوس) وترشده، وتحذره من بعض العقبات كالسيرينات الشاديات بوجوب وضع الشمع في آذان الرفاق وتقييد نفسه إلى سارية السفينة.

- صخور (إراتيك) الملساء التي لا يستطيع حتى الطير الوقوف عليها.

- كهف (إربوس) السحيق مأوى سكيلا المخيفة.

- الهضبة التي نمت فوقها تينة برية كبيرة وتحتها عين (خاريديس) التي يغيض فيها ماء البحر كله ثم يعود فتمجه ثلاث مرات في اليوم.

- ومن عجل الشمس المحمية التي لا يتعرض لها أحد إلا لقي حتفه.

المسار الحادي عشر: ودعوا (سيرسة) المضيافة، متجهين نحو جزيرة السيرينات المسار الخطر الذي لا بد منه، فهدأت الرياح فجأة ونام الموج وخفتت أنفاس الطبيعة، فسد (أوديسيوس) آذان رفاقه بالشمع وشدوا وثاقه شدا محكما إلى سارية السفينة، فتمكن من الإصغاء إلى الشدو الساحر دون أن ينجذب نحو الهلاك المحقق.

- بيد أنه ما كتبت لهم النجاة من أسر السيرينيات حتى وجدوا أنفسهم في خضم الموج العالي الذي كانت تمجه (خاريديس) فجاهدوه جهاد الموت لتمد سكيلا رؤوسها الستة وتلتقم ستة من الرحالة، وأوديسيوس يئن ويتحسر.⁽¹⁾ وبالكاد تمكن من الإفلات بالباقي متجهين نحو جزيرة الشمس.

المحطة الحادية عشرة: اقترح (أوديسيوس) على رفاقه عدم النزول بالجزيرة والإستمرار في الابتعاد عن مراكز الشر المستطير، حيث لا معين ولا مجبر، ولكنهم رفضوا. وصاح (يوريلوخوس) معاتبا معارضا: "أوديسيوس، أيها القاسي الطاغية، أما أوهنت كل تلك الشدائد جلدك؟ أمخلوق أنت من

¹ - هوميروس: الأوديسة، تر/ دريني خشبة، ص 125.

حديد فما ترق وما تلين؟ أتأبى على رجالك الموهونين المكودين أن يرسوا بهذه الجزيرة الفيحاء المعشبة ليريغوا مما بها من آلاء، وليطعموا من خيرها الكثير".⁽¹⁾ وزعم أنهم يريدون قضاء الليل والمغادرة في الصباح، فحبذ الملاحون رأيَه فنزل (أوديسيوس) عند رغبتهم بعد أن أخذ مواثيقهم بأن لا يذبحوا شاة ولا ينحروا عجول الشمس.

ولكن الريح الجنوبية (الدبور) عارضت إبحارهم شهرا كاملا، ولبثوا على عهدهم ما دام طعامهم بين أيديهم، غير أنه بدأ يتناقص فعاد (يوريلوخوس) التعس يوسوس لرفاقه ويحضهم على ذبح الشاء والنعم، ونذر التوبة حين الوصول إلى إيتاكة الوطن المأمول.

وكان (أوديسيوس) غافلا في إحدى جولاته بالجزيرة، ولما عاد وملاً خياشيمه قطار الشواء أسقط في يده، فوجم وانخرط في بكاء مرير ودعاء طويل، حينها كانت الشمس تتوعد: "لأهبطن بشمسي إلى (هيدز) فأنير أفاقها، وأضفي أضوائي على الأشباح ثمة، وأدع هذا العالم المشرق الجميل يضرب في دياجير ما مثلها دياجير"⁽²⁾ فأجابها (زيوس) مستمها ومؤملاً: "إني مسخر صواعقي على سفينتهم في لمح البصر فتذهب بها وبهم أبدياً"⁽³⁾ وكان ذلك بعد ستة أيام لما توقفت (الدبور) وهب (زفيروس).

المسار الثاني عشر: عندما هبت الريح المواتية للإقلاع من جزيرة الشمس سرعان ما ركبوا سفينتهم الوحيدة المتبقية لهم، وتوسطوا بها اليم، وصارت الأرض بعيدة عن مرمى البصر، حينها شرع (زفيروس) يهب بقوة ويقلب الأمواج بعنف، فأطبق على السفينة بجميع ركابها وغاص بهم إلى

¹ - السابق، ص 126.

² - السابق، ص 129.

³ - نفسه.

الأعماق بيد أن (أوديسيوس) ظلت اللُّجج تلهو به وتعبث عشرة أيام كاملات أمام (خاربيديس) وسكيلا، قبل أن تلفظه إلى جزيرة أوجيجيا.

المحطة الثانية عشرة: بعد عشرة أيام من العراك والصراع مع الموج وهو متشبث بإحدى خشبات سفينته الهالكة، ألقت به الأمواج على جزيرة عروس الماء (كاليبسو) التي استقبلته وأكرمتها واستضافته قسراً سبعة أعوام كاملة، "تلك الجزيرة التي لم يصل إليها أحد قبل (أوديسيوس)، وهي جزيرة أسطورية تشبه في الوصف حقول الإليسيوم الواقعة بالغرب من المحيط، إلى الحد الغربي من الأرض".⁽¹⁾

المسار الثالث عشر: تسعى أثينة لدى زعيم الأولمب ليرسل هرمز يأمر (كاليبسو) بإطلاق سراح (أوديسيوس) الرحالة المتقاعد، ليمتطي البحر من جديد، مادام (بوسيدون) غائبا وغافلا عنه، فيصنع طوفا بعيني قلبه، وبهجة الآتي المرسوم في الأفق الآخر، وراء البحر والشمس والأيام. "وبعد عمل دام أربعة أيام في صنع الطوف يضع أوديسيوس عليه كل ما يحتاجه في رحلته... وفي فجر اليوم الخامس يرحل أوديسيوس مغادرا جزيرة أوجيجيا والحرورية كالوبسو وأخذ يبحر وحيدا في البحر مدة سبعة عشر يوما في اتجاه وطنه إيتاكا مسترشدا بالنجوم الموجودة في كبد السماء، تبعا لما نصحته به كالوبسو، فقد نصحته بأن يجعل مجموعة الجوزاء عن يساره دائما"⁽²⁾، يتفطن بوسيدون زعيم البحار الغاضب من أوديسيوس أبدا لأنه فقاً العين الوحيدة لابنه السيكلوب، فيعصف بالأمواج ويقلب الطوف الصغير، ويصفع بجسده المتهالك صخور جزيرة الفيسيانيين.

¹ - السابق، ص 100.

² - السابق، ص 49.

المحطة الثالثة عشر: يتمكن (أوديسيوس) من التثبيت بأرض الجزيرة، حتى تجده الأميرة (ناوسيكّا) ابنة (ألكينوس) التي تصف جزيرتها: "تسكن بعيدا عند البحر المتلاطم الأمواج، ولأننا أبعد البشر فلا يتصل بنا أي شخص آخر من البشر"⁽¹⁾

المسار الرابع عشر: يخطو أوديسيوس على الأرض الآهلة بالناس، والبشر أمثاله، ويقترب من القصر، حيث العلاج والغذاء والهدايا.

المحطة الرابعة عشر: يمكث في القصر أياما حتى يتعافى، ثم يجلس في حضرة الملك (ألكينوس) يملأ مجلسه قصا وحكاية عن خبر الرحلة الأسطورية من (اليوم) حتى (أوجيجيا).

المسار الخامس عشر: أعجب الملك (ألكينوس) بقصة الرحلة، وبشخصية الرحالة بطلها (أوديسيوس)، فأزعم مساعدته فمنحه الكثير من الطرائف والكنوز وأمر بحارته بحمله إلى جزيرته وفي غفوته.

ت - فضاء الهدف/ الوصول: الإتجاه نحو المعلوم:

المحطة الخامسة عشرة: استفاق (أوديسيوس) ليجد نفسه أخيرا على أرض جزيرته (إيتاكا)، لم يصدق ذلك، وظنها خيانة من الفيسيانيين، ثم تأكد له الوصول الأسطوري، فهب نحو بيته ينود ويذب عنه المناكيد.

خلاصة: منذ أن انطلق مخلقا الرماد والدخان، بقي هذا الرماد وهذا الدخان يقتنيان أثره في سفائنه، وبين رفاقه وداخل نفسه، إذ كانت جل مساراته تحمل الأحزان والمزيد من الفقد والضياغ، والتراجع.

- كلها عبرت البحار الصاخبة والأمواج العاتية، وانتهت إلى محطات مفزعة، تلتهم الرفاق:

¹ - السابق ص 101.

- واحدا واحدا.
 - أو مثنى مثنى: (السيكلوب).
 - أو ستة دفعة واحدة: (سكيللا).
 - أو ستة من كل سفينة من أسطول الإثني عشر مركبا: (إسماروس).
 - أو تغرق أسطولا كاملا إلا سفينته: (الليستروجيون: آكلي لحوم البشر)
 - أو تغوص بالسفينة اليتيمة المتبقية بحفنة من الرفاق المساكين (جزيرة عجل الشمس).
- فجائع بالجملة كانت تنزل على قلبه، وما بدل تبديلا، لأنه برمج قلبه على توقيت (إيتاكة) قبيل خروجه منها. فعاش لا يرى قدامه ولا وراءه إلا هي، وأهليه فيها، وصحبته التي يجب أن يوصلهم إليها، ولكنهم . للأسف . دفعوا حيواتهم ثمنا لسوء تقديرهم لعواقب الأمور، وبمعصيتهم لقائدهم الأمين.
- كانت مساراته كثيرة جدا، لأنها كانت تائهة شمالا، جنوبا، شرقا، وغربا، ولم تكن المسار الافتراضي المرسوم من خط الإياب أول مرة، فقد كانت عرضة لتلاعب (بوسيدون) و(زفيروس) وغيرهما، وكانت صعبة متعبة، ومميتة في أحيان أخرى.
- كانت محطاته كثيرة قريبا أو بعيدا عن الوطن وجلها فضاءات للخطر والموت، حتى وإن كان فيها اللبن واللحم، إذ انقسم فضاء مسار الرحلة ومحطاتها إلى نوعين:
- أحدهما: فضاء الخطر/ الموت:

- جزيرة (إسماروس) في (تراقيا).
- جزيرة السيكلوب.
- جزيرة آكلي اللوتس (اللوتوفاجي).

- جزيرة آكلي لحوم البشر (الليستروجيون).

والثاني: فضاء الدعم:

- جزيرة (أولوس) ملك الرياح.
- جزيرة الساحرة (سيرسة).
- جزيرة الحورية (كاليبسو).
- جزيرة الملك (ألكينوس).

عندما كان (أوديسيوس) مبحرا في ملكوت العالم القديم، كان دائم الشعور بالضيق لأن الفضاء الذي يحضن وجدانه وأفكاره كان مفتوحا جدا، ولم يكن يعنيه أن يبقى خارج حدود الحرية، بل ظل يبحث عن الحيز الدقيق الذي يوطر القلب والفكر وهو فضاء (إيتاكا) الوطن الصغير، والبيت يكتض بالأسرة فيه.

إن الطمع والبحث عن الثراء والكنوز هما اللذان يطوّحان بالناس بعيدا عن أوطانهم في أغلب الأحيان، ولكنّ دفع الروح والوجدان لا يحتاجان إلى مساحة واسعة.

ثانيا: في ملحمة الأرجوناوتيكا (رحلة جاسون):

الرحلة الأولى: رحلة الذهاب:

أ- فضاء الإنطلاق: من شاطيء باجاساي، يقول الشاعر:

"بداية بك يا فويوس سوف أذكر رجال العصور

القديمة هؤلاء الذين دفعوا الأرجو المصنوعة جيدا

عبر مدخل بونتوس، وخلال الصخور الكوانية

بأمر من الملك بلياس من أجل الجزء الذهبية.

(أبولونيوس الرودي: الأرجوناوتيك، الكتاب الأول، أبيات 1.4) ⁽¹⁾

ب- فضاء المسارات:

المسار الأول: إذا كنا لاحظنا شيئاً من التّريث والتمهل والإستغراق في الوقت في الرحلة الأوديسية

فسنرى على العكس من ذلك كله، قمة السرعة والنشاط والتوثب، ففي اليوم الأول تمر السفينة على

جبل بليون، سيبياس، جزيرة سكياثوس.

المحطة الأولى: النزول إلى شاطئ ماجنيسيا.

المسار الثاني: اليوم الثالث: تواصل إبحارها إلى جزيرة باليني حتى تصل مقدونيا، وهي تتخذ

مسارها من الغرب نحو الشرق، وهي تجالد الرياح طول النهار والليل حتى تصل مع شروق الشمس

إلى جزيرة لمنوس.

المحطة الثانية: ينزلون جزيرة لمنوس جميعاً ويمكثون بها طويلاً إلا رفيقهم هرقل "الذي حين ينسون

أنفسهم هناك يستدعيهم ويوبخهم" ⁽²⁾

المسار الثالث: ينطلقون من لمنوس إلى جزيرة إليكترا المواجهة لمصب نهر هيبروس تراقي "وعلى

مدى أربعة عشر بيتاً يعطي أبولونيوس وصفاً جغرافياً أدبياً رائعاً ومفصلاً للمناطق والجزر التي

يمر عليها ياسون حتى يدخل الهيليسبونت ذي الدوامات العالية، وكانت السفينة تقطع كل يوم

¹ - السيد، صلاح: رحلة الأرجوناوتيك، ص 08، 09.

² - السابق، ص 22، 23.

أربعين ميلا تقريبا، وهي تسير بداخل الهيلليسيونت دون أن يحذف أبوللونوس أية مسافة من خط سير الرحلة⁽¹⁾

المحطة الثالثة: جزيرة إكترا؛ طلبا للراحة والمؤن ينزلون بميناء خوتس التابع لأملاك كوزيكوس ملك الدوليين الذي رحب بهم وأحسن ضيافتهم، فغادروه في صباح اليوم الموالي، ولكن أثناء الليل تهب رياح عكسية قوية تعيدهم مرة أخرى إلى الميناء نفسه، لكن الملك وشعبه الدوليين ظنوا الأرجوا قراصنة أءاء لهم فهاجموهم وتحارب الفريقان، وقاتل كل منهما الآخر دون أن يعرف حقيقته، حتى انبلج نور الشمس عن الحقيقة المرة الفادحة والخسارة الجمة، خاصة وقد كان من بين الجثث كوزيكوس الملك نفسه، ثم شارك رفاق الأرجو الدوليين الجنازة وظلوا إثني عشر يوما في حزن مقيم قبل أن يشدوا الرحال في اليوم الثالث عشر.⁽²⁾

المسار الرابع: اتجه ياسون برحلته نحو الشرق حتى وصل جبل أرجانثوس في موسيا.

المحطة الرابعة: رسى في جبل أرجانثوس بغرض التزود بالمؤن والأغنام، وهناك سيخلفون هرقل الذي ذهب يبحث عن صديقه هيلاس.

المسار الخامس: يواصلون الرحلة حتى بيثونيا، ينزلون في بيثونيا حيث يسكن البييروكيون الذين يحكمهم الملك المتغطرس أموكوس الذي لم يكن هناك من ينافسه في الوقاحة، والذي يسارع بالنزول داخل سفينتهم ويطالبهم باختيار أحدهم للمصارعة، دون أن يهتم بمعرفة هويتهم، ومن أين جاؤوا وإلى أين يتجهون، فينبري له الرفيق بولوديوكوس، فيقضي عليه ويأخذون حاجتهم من الزاد وبيتعدون بسرعة.

¹ - السابق، ص 148 (الهامش).

² - السابق، ص 24، 25.

المسار السادس: يغادرون بيثونيا متجهين نحو الشرق، حتى يصلوا الجزيرة حيث يقيم العراف الأعمى (فينيوس).

المحطة السادسة: ينزلون (تراقيا) ضيوفا على (فينيوس) الذي ينقذونه من طيور (الهاربيات) المفزعة. وبعد تناول الطعام الشهي والشراب اللذيذ أخذ يحذرهم مما سوف يواجهونه في رحلتهم وأخبرهم بتفاصيل سير رحلة الذهاب، أما رحلة العودة فأخبرهم أنها سوف تكون عبر طريق آخر، حتى أصابتهم نبوءاته بالذعر مما ينتظرهم.⁽¹⁾

المسار السابع: قبل الدخول إلى البحر الأسود كان عليهم أن يمروا بالمضيق الفاصل بينه وبين البوسفور ويمثل اجتياز هذا المضيق نهاية الأخطار الكبيرة التي تواجه الأرجو، إذ كان اختراق البوسفور يسبب الهلع لرفاق الأرجو لأن صوت ارتطام الصخور المتحركة كان يصم آذانهم، وكذلك صوت تكسر الأمواج على الشطآن، كل ذلك كان يوتر أعصابهم خاصة وأنهم كانوا يتوقعون انطباق الصخرتين عليهم أثناء مرورهم بينهما، وهنا تحدث المعجزة فتتوقف حركة الصخرتين إلى الأبد.

المحطة السابعة: تتجه الرحلة نحو جزيرة الثونيين طلبا للراحة.

المسار الثامن: يواصلون الرحلة حتى رأس آخيروسيس موطن الملك لوكوس.

المحطة الثامنة: يرحب بهم الملك لوكوس أشد الترحيب خاصة وأنهم قد خلصوه من عدوه اللدود أموكوس. وهناك يجلس جاسون يسرد على مسامع مضيفه قصة الأرجو منذ الإقلاع، وهنا ستفقد

¹ - السابق، ص 28.

الأرجو عراف الرحلة أدمون بن أياس، وقائد دفة السفينة تيفوس. ثم يبحرون بعد أن أمضوا ستة عشر يوما في ضيافة لوكوس.

المسار التاسع/ المحطة التاسعة: أبحروا ليتوقفوا مستذكرين رفيقهم هرقل في الهجوم على الأمازونات.

المسار العاشر/ المحطة العاشرة: ثم أبحروا ليتوقفوا على شاطئ الآشوريين حيث سينظم إليه ثلاثة من رفاق هرقل.

المسار الحادي عشر/ المحطة الحادية عشر: يغادرون بسرعة حتى يصلوا جزيرة طيور أريس، حيث وجدوا هناك أبناء (فريكسوس) من أخت أيتيس ملك (كولخيس) الذين قصّ عليهم قصة الأرجو حتى أنهم "كانوا خائفين وهم يسمعون لأنهم تحدثوا عن عدم استعداد أيتيس بشكل لطيف إذا رغبوا الحصول على جزء الخروف (أبولونيوس الرودي: الأرجوناوتيكا، الكتاب الثاني، أبيات 1196 - 1198)"⁽¹⁾

المسار الثاني عشر/ المحطة الثانية عشرة: يواصلون رحلتهم عبر البحر الأسود متجهين إلى أقصى شرقه، ويمرون أثناء ذلك بالقرب من صخور القوقاز العالية حتى مصب نهر (فاسيس) وهو نهر مدينة (كولخيس).

ت- فضاء الوصول/ المحطة الهدف: يصل رفاق الأرجو إلى (كولخيس) وينتخبون فريقا يزور الملك الذي يرحب بهم ويقيم لهم وليمة فاخرة، (نتذكر وفد إنياس للاتتيوس)، لكن حين يعرف

¹ - السابق، ص33، 34.

قصدهم من زيارته يتطاير الشرر من عينيه، وعندما تهدأ ثورته يصل إلى فكرة يستطيع بها التخلص من (ياسون) ورفاقه، فهو لا يفكر أبداً في التنازل عن الجزّة الذهبية.

لحسن حظ (جاسون) تلفت شخصيته انتباه ميديا ابنة الملك، فتسعى لمساعدته مع أختها (أم أبناء فريكسوس)، فيتمكن من إنجاز المهام التعجيزية المستحيلة التي طلبت منه، ثم يستولي على الجزّة الذهبية وينطلق في طريق العودة ترافقه ميديا.

الرحلة الثانية: رحلة العودة:

أ- فضاء الإنطلاق: من مدينة (كولخيس) حيث عثر على الجزّة الذهبية واستولى عليها، ينطلق صحبة رفاقه في الأرجو عائدين إلى أرض الوطن، وقد حققوا ما كانوا يصبون إليه بفضل مساعدة (ميديا) الساحرة.

المسار الأول: أبحروا غرباً، وبعد ثلاثة أيام من الإبحار المتواصل يصلون أرض (بفلاجونيا) قرب منبع نهر (هالوس).

المحطة الأولى: يتوقفون هناك، ليفكروا في مسار العودة. الذي سوف يختلف عن طريق الذهاب، وهنا يظهر أرجوس بن فريكسوس اقتراحه بأن يسلكوا طريقاً عبر أنهار (أوروبا).

المسار الثاني: يبحرون حتى الجزر (الكوانية) عند مخرج البحر الأسود، فتعترضهم إحدى القوات (الكولخية) بقيادة (أبسورتوس) أخي (ميديا).

المحطة الثانية: يتحایل بحارة الأرجو على القوات (الكولخية) حتى يتمكنوا من القضاء على قائدها.

المسار الثالث: عبر الجغرافية الطبيعية والبشرية لمنطقة أنهار أوروبا والشعوب المحيطة بها يشرع (جاسون) ورفاقه في رحلة الإياب، يدخل نهر (إيريدانوس) (البو حالياً)، ثم البحر (الأدرياتيكي)،

وبعد عبور إيطاليا يبحرون جنوباً، ثم يعود إلى شواطئ نهر (إيريدانوس)، ويتجه إلى نهر (الرون)، ثم جزر (إستويخاديس)، ومنها جنوباً حتى جزيرة (أيثاليا) (إلبا) حالياً بالبحر الإيطالي، وطلباً للتطهر من جريمة قتل أخيها يتجه (جاسون) إلى جزيرة (كيركي) عمة (ميديا).⁽¹⁾

المحطة الثالثة: تقوم (كيركي) العمة بتطهيرهما، وطردهما.

المسار الرابع: تبحر الأرجو نحو (البحر التيراني) وعند الشواطئ الجنوبية لإيطاليا حيث (أنثيمويسا) جزيرة السيرينيات ذوات الصوت العذب اللائي يغرين أحد رفاق الرحلة فيلقي بنفسه في البحر سابحاً إليهن فيهلك، وتستمر الرحلة إلى حيث يلتقي المتوسط مع البحر التيراني، ويترصّد الجميع الهولة (سكوللا) والدوامة (خاروبيديس) المهلكتان من جهة، والصخرتان المتلاطمتان من جهة أخرى. وهنا يجب على (ياسون) أن يقرّر أيّ المنفذين يسلك، وكلاهما يحتمل أن يحمل النهاية المأساوية للرحلة ورجالها.

المسار الخامس: تتجاوز الرحلة جزيرة (ثريناكيا)، ويأخذ البحارة في التجذيف نهارة كاملاً حتى يصلوا إلى البحر (الأيوني)، ثم جزيرة (دريباني)، أرض الشعب الكريم المضياف (الفايكيان) الذي يحكمه (ألكينوس) وزوجته (أريتي).⁽²⁾

المحطة الخامسة: يرحب (الفايكيان) بـ (المينويين) ويشعرونهم بأنهم في وطنهم وبين أهليهم، ولكن ودون سابق إنذار، ومن دون توقع من أي أحد يظهر (الكولخيون) الذين ما انقطعوا عن مطاردة الأرجو، فيتدخل (ألكينوس) بين الفريقين، ويتعهد بحل النزاع سلماً، فيقرر إعلان الزواج بين (ميديا)

¹ - السابق، ص 37، 38.

² - السابق، ص 39، 40.

و(ياسون)، وبالتالي بقاء الفتاة مع زوجها، فلا يجد المطاردون حلاً لمشكلتهم سوى البقاء والإستيطان بدل العودة خائبين إلى الملك (أيتيس) الغاضب.

المسار السادس: بعد سبعة أيام تغادر الأرجو مبحرة نحو الجنوب، وتمرّ على خليج (أمبراكيا) وأرض (الكورينيس)، ثم مدة تسعة أيام في اتجاه البحر الليبي.

المحطة السادسة: دخلوا (سورتس)، ذلك الميناء الذي لا تستطيع أية سفينة الخروج منه إذا دخلته، فيرون الموت المحقق في صحراء ليبيا الجذباء الموحشة. فيجلس ياسون ورفاقه المذعورين على الرمال يندبون الحظ العاثر، والمصير السيء، ينتظرون الموت المحدث وهو يخطو متعجلاً نحوهم، وهنا تظهر الحوريات الحارسات ويوحين لياسون بفكرة حمل السفينة على الأكتاف، واجتياز الصحراء سيرا على الأقدام.⁽¹⁾

المسار السابع: يحمل (المينيويون) الأرجو على أكتافهم ويسيرون بها إثني عشر يوماً وليلة، حتى يضعوها في ماء بحيرة تريتون.

المحطة السابعة: قبل المغادرة يفقدون رفيقهم: (كانثوس) و(موبسوس) منجم الرحلة.

المسار الثامن: أخذ البحارة يجذّفون مدّة ثلاثة أيام كاملة حتى ظهرت لهم جزيرة (كريت)، ورغبة في الراحة من عناء التجديف يتّجه البحارة بالسفينة نحوها.

المحطة الثامنة: كان هناك وحش برونزي، أخذ يقذف السفينة بالصخور، ومن جديد تمكنت ميديا من القضاء عليه بسحرها المذهل.

¹ - السابق، ص 41، 42.

المسار التاسع: غادروا (كريت) مبحرين في مياه (إيجة) حتى جزيرة (أنافي). ويختتم أبولونيوس أحداث الأرجو بقوله:

"والآن فلن يقابلکم أي عائق وأنتم عائدون

من أيجينيا. ولن تقاكنم زوابع الرياح،

ولكنكم سوف تجتازون الأرض الكيكرية

المواجهة لأوليس بسلام، والمدن الأيونية

للسكان اللوكرين بداغل أيوبيا.

ونزلتم شواطئ باجاساي بسرور.

(أبولونيوس الرودي الأرجوناوتيكا، الكتاب الرابع، أبيات 1776 - 1781) ⁽¹⁾

ب- فضاء الوصول/ المحطة الهدف، شاطيء باجاساي: عاد (ياسون) حيا يرزق ! وكان العم قد أرسله إلى (هاديس) بطريق غير مباشر، وربما هذا ما جعل أبولونيوس يغفل هذا المسار في هذه الرحلة الملحمية (الإطالة على العالم الآخر!) فكل مسارات ومحطات ياسون كانت تفتح نافذة نحو الموت، ولكنه هاهو ذا يعود ببهارته، وسفينته السريعة، والجزء الذهبية، وميديا الأميرة الزوجة الساحرة ولا أبدع، وكنوز وطرائف وأصدقاء كثر وأشياء أخر، أهمها رحلة تغنى بها العالم ومازال يقتني آثار بخارتها.

ما يلاحظ في خط سير هذه الرحلة أنها شغلت مسارين:

¹ - السابق، ص 45.

أولا/ مسار الذهاب: كان الأطول زمنا، إذ استغرق ثلاثة وأربعين يوما ذهابا، بيد أنه الأقصر مسافة، بما لا يزيد عن ثلث مسافة رحلة الإياب، وكان العالم القديم يعرف اتجاهها واحدا الذي سلكته الأرجو دون مناقشة.

ثانيا/ مسار الإياب: كان الأقصر زمنا، إذ استغرق ثمانية وثلاثين يوما إيابا، رغم أنه الأطول مسافة، وهنا يظهر المسلك الجديد الاختياري الثاني الذي يمكن اجتيازه عبر أنهار أوروبا، أي داخل الأراضي القارية، وهكذا يعرفنا الرحالة على الملاحة النهرية، وحتى الملاحة الصحراوية (البيبا)، وكان الموت يترصد الأرجو وبحارتها في كليهما ذهابا وإيابا، وكانت العناية الإلهية تتقذ الموقف في كل مرة، وكان لميديا ذات الأعشاب الفعالة دورها في تصحيح اتجاه الكفة لصالح الأرجوناوتيكيين.

كما يلاحظ أنها استعملت مجموعة من المحطات اتسمت بسمتين:

أولا: محطات خطرة؛ وهي بدورها اتخذت شكلين: محطات اضطرارية، ومحطات اختيارية، وفي كل الأحيان كانت جميعا من أجل الراحة أو المؤونة.

ثانيا: محطات آمنة؛ وهي أيضا اضطرارية أو اختيارية، مثل النزول في جزيرة (إيايا) الذي اختاره جاسون لأن (سيرسة) التي تسكنها هي عمة ميديا وبإمكانها مساعدتهما، وكذا جزيرة الملك (ألكينوس).

5- اتجاه الرحلة الملحمية في عالم الأحياء عند الرومان:

في ملحمة الإنيادا (رحلة إنياس):

أ- فضاء الإنطلاق: نحو الهجرة:

احتترقت طروادة، وأمر إنياس بالفرار بأهله ومواطنيه لوجهة يجهلها من أجل بناء وطن جديد. فمكث بسفح جبل (أيذا) سنة كاملة يعد العدة ويبني السفن اللازمة. التي بلغت عشرين سفينة.

ب- فضاء المسار:

المسار الأول: انطلقوا من سفح جبل (أيذا) ومخروا البحر غربا إلى أعلى الشمال حسب الريح الموسمية التي تدفع السفن (تماما مثلما حدث مع أوديسيوس قبل سنة).

المحطة الأولى (تراقه): التي أحبها مارس دون الأرض جميعا، هناك بنى إنياس لنفسه بلدا دعاها باسمه، ولكنه اضطر إلى مبارحتها عندما علم أن ملكها قتل (فوليدروس بن برياموس) طمعا في كنوزه وهو المؤتمن عليه.

المسار الثاني: هبت الريح الجنوبية رقيقة فأقلعوا نحو جزيرة (ذلوس).

المحطة الثانية: نزلوا جزيرة ذلوس فاستقبلهم كاهنها صديق أنخيس.

المسار الثالث: انطلقوا من ذلوس إلى جزيرة كريت.

قال أنخيس: هناك في وسط الأوقيانوس تقوم جزيرة تدعى كريت حيث أمتنا، ومن هنالك قدم طفقير أبونا الأول،⁽¹⁾ وأبحروا إليها خلال ثلاثة أيام. مارين بجزر السيكلاد.

المحطة الثالثة: بلغوا كريت وبنوا عليها مدينة فرغامة (نسبة إلى فرغام قلعة طروادة) وحرثوا الأرض وتزوجوا على أمل الاستقرار النهائي، وتكون هذه الأرض هي الوطن⁽²⁾. ولكن فجأة بدأت الأمراض تفتك بالنبات والحيوان، وجاء إنياس في أحلامه من يخبره أن الأرض التي يدعوها

¹ - فرجيل، الإنيادة، ص 41.

² - السابق، ص 42.

الإغريق (هسبيريا) "وهي أرض قديمة، سكانها ذوو بأس وقوة، أرض تتبث الكرمة والحنطة، هناك موطننا الحق، ومن هناك قدم أبونا (دردانوس)"⁽¹⁾ وبسرعة تذكر أبوه ما كانت تقوله (كسندرا) ابنة (بريام) شقيقة كنته (كروسا) عن (هسبيريا) وأرض (إيطاليا).

المسار الرابع: برحوا (كريت)، فهبت عليهم عاصفة عظيمة بريح عاتية، وكانت الأمواج تلتف عالية، والبرق يسطع بشدة، فحولوا عن مقصدهم السوي، وظلوا ثلاثة أيام بلياليها، لا يرون شمسا ولا نجوما، ولكنهم بلغوا في اليوم الرابع أرضا شاهدوا هضابها، ورأوا الدخان يتصاعد منها. فكدحوا على مجاذيفهم مسرعين حتى أتوا الشاطيء.

المحطة الرابعة: نزلوا إحدى جزر (الستروفاد)، حيث كان يسكن هذه الجزر مخلوقات تدعى (الهاريية)، وهم قوم ذوو شر لهم ملامح النساء وأجنحة الطيور، ولهم إلى ذلك مخالب طويلة، ووجوههم مصفرة كمن قل طعامه.

كانت الجزيرة مليئة بقطعان الثيران وأسراب الماعز وليس لها راع، فغنموها، وراحوا يقدمون الأضاحي أيضا. ولكن فجأة أمطرت عليهم بهؤلاء المخلوقات (الهاريية) التي راحت تشن الهجوم على موائدهم، فاضطروا إلى قتالها. فقالت له سيدتهم أنهم لن يبلغوا مقصدهم حتى يرضيهم الجوع فيأكلون موائدهم بعد طعامهم.⁽²⁾

المسار الخامس: أبحروا تهب عليهم الريح الجنوبية، فمروا بالقرب من (زاسيننوس) و(دولخيوم) و(إيتاكة) التي لعنوها وهم يمرون بها. حتى وصلوا (أكتيوم).

المحطة الخامسة: احتفلوا فيها بالنجاة من أعدائهم وأقاموا حتى نهاية الشتاء.

¹ - السابق، ص 43.

² - السابق، ص 46.

المسار السادس: مع مطلع الربيع أبحروا باتجاه (بتروتوم) الكائنة في جزيرة (أفيروس) حيث صار (هيلانس بن فريام) ملكا لتلك الأرجاء.

المحطة السادسة: في جزيرة (أفيروس) التي كانت ملكا لـ (فيروس بن أخيل) وصارت ملكا لـ (هيلانس بن بريام) التقوا بـ (أندروماخ) زوجة (هيكتر).

عندما فتك (أورست بن أجامنون) بـ (فيروس بن أخيل) صارت جزيرة (أفيروس) ملكا لـ (هيلانس بن برياموس). وهناك التقوا به وبزوجته (أندروماك) أرملة (هكتور).

ولقد كان (هيلانس) كاهنا وعرفاء، استطاع تقديم مجموعة هامة من النصائح لـ (إنياس) خاصة تلك المتعلقة بمسار رحلته ودروبها البحرية، إذ حذره من (سيلا) و(خاربيديس الدوامة) وغيرهما، قائلا إنه من الأفضل أن تدور حول أرض صقلية جميعها من أن تقترب من هذه الأشياء.⁽¹⁾ كما نصحه بضرورة زيارة سيبييل العرافة، حين بلوغه أرض (إيطاليا).

المسار السابع: خرجوا من ضيافة (هيلانس) مشيعين بالنصائح والمعلومات الجغرافية والهدايا الثمينة والمؤن وحتى بالرجال المتمرسين بالحرب والبحر. واجتازوا (تارنتوم) التي بناها هرقل، وهضاب (قولون) و(سيلاسيوم). وحينها سارعوا إلى التجذيف يسارا للفرار من (خاربيديس) حتى بلغوا جزر (السيكلوب).

المحطة السابعة: كان جبل (أتنا) يزمجر ويقذف سحباً من دخان الزفت وحما حارة وكرات من نار، وصخورا. "يقول الناس أن (انكيلادس) الجبار يجثم تحت هذا الجبل وهو يصلى بضياء (جوبيتر)، وجاءهم غريب من ناحية الغابات زري المنظر، ممزق الثياب كث اللحية، لأنه قد مكث

¹ - السابق، ص 51.

على الجزيرة ما يقرب ثلاثة أشهر، بعد أن فر أوديسيوس وأصحابه من وجه (السيكلوب) تخلف عنهم. وظل يتحاشى دروب (السيكلوب) الأعمى وإخوانه ذوي العين الوحيدة.

المسار الثامن: لما سمع الأعمى أصوات التجذيف نادى رفاقه فظهروا مثل غابة البلوط ففر إنياس من السيكلوب العمالقة، متجنباً (سيلا) و(خاريديس).

المسار التاسع: مع ربح الشمال مخروا البحر إلى الأمام ومعهم (أخمديس) رفيق (أوديسيوس) ومروا بـ (كامارينا) و(جيلا) وغيرها من المدن حتى بلغوا (اليبيوم). ثم دربانوم.

المحطة التاسعة: نزلوا دربانوم من أرض صقلية ومكثوا فيها لأيا حتى توفي (إنخيسيس) والد (إنياس).

المسار العاشر: ركبوا سفنهم، لم تكد أرض صقلية تغيب عن عيونهم حتى كانت لهم (جونو) بالمرصاد، جونو الحانقة عليهم، والتي آلت على نفسها ألا تقوم لطروادة الجديدة قائمة، فاتجهت نحو ملك الرياح (أوليوس) وحرضه على أن يرخي لعواصفه العنان ويغرق سفنهم. فارتجف إنياس برداً ورعباً متذكراً أبطال طروادة الذين سقطوا في حماها فحسدهم على ذلك المصير. ومن جديد "عصفت الرياح بشراعه الأمامي فضربته واستدارت سفينة تعترض الأمواج، والتطمت ثلاث من السفن على الصخور التي يدعونها (المحاريب) كما غيبت ثلاث آخر في أوغاس (سيرتيس) وضربت أمواج الخضم مؤخر سفينة الليقيين الذين يتزعمهم (أورونتيس) فأغرقتها. ونظر إنياس من حوله، وبالهول ما رأى؛ رأى البعض يكافحون الموج. كما رأى الألواح المتحطمة وأسلحة طروادة ونفائسها. وحطمت الأمواج غير هذه. كلا من سفن اليونوس، وأخات، إاباس وألثيس العجوز"⁽¹⁾ وظل الأمر على هذه الحال المضطربة حتى "أحس الملك نبتون بالضجة وهو قائم في أعماق

¹ - السابق، ص 61، 62.

البحر، فرفع رأسه فوق الأمواج، ونظر من حوله، فرأى السفن تتبعثر هنا وهناك، ورأى رجال طروادة يعانون أقصى العذاب، وكان يعلم بسخط أخته ومهارتها. فدعا الرياح وقال: ما هذا الذي تصنعين أيتها الرياح فتقلقين الأرض والسماء بغير إذن مني؟⁽¹⁾ وأعاد الأمور إلى نصابها.

المحطة العاشرة: اجتهد إنياس للوصول إلى أقرب شاطئ إليه، فكان شاطئ إفريقيا الذي قام على جانبه جوف تناهت في العلو واكتست بالغابات البهيجة... وكان على رأس المرفأ كهف في داخله ينبوع عذب قد اتخذته حوريات الماء سكنا. وإلى هذا المكان قدم إنياس بسبع سفن⁽²⁾ وراح ورفقته يجددون نشاطهم وقواهم بالصيد والغذاء. وإلى جانب أعالي الأولمب كانت (فينوس) تتوسل إلى (جوبيتر) كي يلقي بحمايته على ولدها إنياس وصحبته.

المسار الحادي عشر: بعد أن أحكم (إنياس) إخفاء سفنه في خليج تستره الأشجار، قام يجوس خلال الأرض الجديدة التي قدموها ولا يصحبه غير أخات وحمل في كل يديه رمحا فلقيته أمه في منتصف الغاب وقد كانت متتكرة وحثته على تقديم نفسه إلى ملكة قرطاجة بعد أن أوجزت له قصتها فسعى إليها.⁽³⁾

المدينة في رحلة إنياس: لما دفعت العاصفة الهوجاء التي دفعتها (جونو) الساخطة من جند طروادة إلى سواحل إفريقية، توغل إنياس عبر الأرض حتى اكتشف وجود مدينة قرطاجة بتحريض من (فينوس) وصعد هضبة تشرف على المدينة التي كانت تبنى لتوها، فرجالها على قدم وساق يخططون وينجزون.

¹ - السابق، ص 62.

² - السابق، ص 63.

³ - السابق، ص 67 إلى 70.

بنيت قرطاجنة كالحلقة حول الغابة، يتوسطها المعبد الجميل الذي جعلت له عتبة من البرونز، ونقشت أحداث معارك وحرب طروادة على الأسوار.

موقف الرحالة من المدينة: لقد دهش (إنياس) لما رأى المدينة لأول وهلة فقد كانت بلدة عظيمة وكبيرة حقاً⁽¹⁾ ذات أبواب جبارة وشوارع تسير فيها الجموع وتحتشد فصرخ عند رؤيتهم: "يا لسعادة أولئك الذين يجدون مدينة لإيوائهم"⁽²⁾

ولم يتهيب الإقتراب منها والإختلاط بناسها، والتفرج على مبانيها وأسوارها المنقوشة بتاريخ أحداث طروادة وحروبها.

إنياس وملكة المدينة: كانت ديدو ملكة قرطاجنة تشبه ديانا جمالا وبهاء، وحين كانت في إحدى جولاتها بالمدينة وقف بين يديها بقية رفاق طروادة الضائعين بفعل العاصفة فأخبروها خبرهم، فطمأنتهم. حين ذاك استطاع إنياس أن يظهر أمام الملكة وجنودها، التي أكدت ثانية على حسن الجوار وحسن الضيافة غير أن (جونو) الحانقة استطاعت أن تجعل فينوس حليفة لها ضد إرادة (جوبيتر) في مواصلة (إنياس) رحلته إلى إيطالية لبناء الوطن الجديد لهم. فجعلتا (ديدو) تغرم بالأمر إنياس وتسكنه قصرها، وتشيع في العالمين أنه زوجها.

إنياس ومشروع المدينة الوطن: كاد (إنياس) ينسى مشروعه وهو في قلب مدينة قرطاجنة، وقلب مليكتها (ديدو) الفاتنة العظيمة، حتى أرسل (جوبيتر) رسوله (مركوري) إليه يذكره ويستعجله بالرحيل، فطار إنياس إلى سفنه وخرج إلى عرض البحر، ليرى من بعيد دخان محرقة أقامتها الملكة المفجوعة، لتتسلل خلف روح زوجها الفقيد (سخاوس).

¹ - السابق، ص 71.

² - السابق، ص 72.

لقد كان مجبرا على الخروج لأن الأقدار انتدبته لبناء مدينة جديدة بعد سقوط طروادة العظيمة، فقد أحب (ديدو) حقا ولكنه لم يكن يستطيع البقاء، كما كان يستحيل عليها أن ترافقه وهي الملكة المؤسسة للوطن الجديد (قرطاجنة الجبارة) فانسل بحزن وألم. وانتحرت مخلفة للجميع جرحا لا يندمل ووجعا لا ينطفئ.

المسار الثاني عشر: خرج إنياس وصحبه إلى عرض البحر متجهين رأسا إلى إيطاليا ولكن عاصفة عاندتهم، فتركوا سفينتهم تجري أمام الريح حتى بلغوا صقلية بأقصى سرعة.

المحطة الثانية عشر: نزلوا أرض صقلية من جديد، وكان يومهم ذاك يصادف يوم عامهم المنصرم الذي توفي فيه (أنخيس) والد (إنياس). فأقاموا للذكرى إحتفالات باهرة. ولكن نسوتهن انشغلن بفكرة أخرى وهي إحراق السفن حتى يقضين على بؤسهن الذي لا ينقطع برحلة لا تنتهي. ولم يجد إنياس حلا غير الدعاء فلبى (جوبيتر) نداءه بزوبعة شمالية فيها رعد وبرق ومطر غزير أخمد النار بعد أن أتت على أربع سفن تركتهن حطاما.

حيرة الرحالة: لم يحر إنياس جوابا أمام صنيع نسوة فريقه. فلم يعرف هل يأمر بالإقلاع أم بالبقاء حتى ناب عنه الشيخ العجوز (فوتيس) كاهن (فلاس) بالنصح والإرشاد، بأن يترك الذين لا يقدرّون على السفر والحرب ويأخذ الأقوياء الصناديد المحاربين. وجاء أبوه في الحلم يشير عليه بالأخذ بمشورة الحكيم (فوتيس).

المسار الثالث عشر: هبت الريح الجنوبية رخاء، فاشتد النحيب والعناق، لأن من شملهم العفو من الرحلة صاروا يريدون الذهاب حتى لا يفترقوا عن الأهل والصحاب. وسارت السفن باتجاه إيطاليا، وكانت سفينة (إنياس) في الطليعة يسير دفتها (فليدوروس) الذي غافله النوم وألقى به في البحر!⁽¹⁾

¹ - السابق، ص 125.

فأمسك (إنياس) بالدفة واستمرت الرحلة حتى أرض إيطاليا بالقرب من (كومو) موطن (سيبيل) العرافة.

المحطة الثالثة عشر: في (كومو) موطن العرافة (سيبيل) بالأرض الإيطالية أوثقوا السفن بالمراسي وقفزوا إلى الشاطئ. واتجه إنياس مباشرة إلى كهف (سيبيل) التي سمح لها (أفنون) بالنبوءة. وكان هيكلها رائعاً وقد نقشت فوق الصخور على مدخله قصة (ديدالوس) الهارب من (مينوس) ملك (كريت) وقصة متاهة (اللابيرانت) وهناك التمس إنياس من سيبيل المساعدة للقيام برحلة إلى العالم الآخر، من أجل لقاء أبيه، ليعلمه بمسار رحلته وأخبار مستقبله. فنصحته بالحصول على الغصن الذهبي من الغابة، وبتقديم الطقوس والقرايين، على مدخل المغارة المؤدية إلى عالم الموتى.⁽¹⁾

المسار الرابع عشر: رحل (إنياس) رفقة سيبيل إلى العالم الآخر عبر المغارة المظلمة، ليخرج منها من طرف آخر، حيث السفن ليواصل إبحاره إلى الرأس الذي سمي فيما بعد (كاتيا) نسبة إلى حاضنته.

المسار الخامس عشر: خرج من العالم الآخر مواصلاً إبحاره، ماراً بسرعة بجزيرة (سيرسا ابنة الشمس) التي كانت تحول زوارها إلى حيوانات، وحين بزغ الفجر كانت الرحلة قد انتهت.

ت - فضاء الهدف/ الوصول: اتجاه نحو المعلوم/ اتجاه نحو المجهول:

المحطة الخامسة عشر: (أرض الملك لاتينوس/ نهر التيبر/ المحطة الأخيرة ونهاية المسارات):

¹ - السابق، ص 130، 131، 132، 133.

عندما بزغ الفجر وقد عم الهدوء تماما، بلغوا غابة على الشاطئ وفي وسطها نهر (التيبر) وطيور كثيرة، حيث يحكم الملك (لاتينوس بن فونوس بن بيكوس بن ساتورن) وهو والد الأميرة الوحيدة لافينيا.

أرسل إنياس وفدا ينوب عنه في حمل رسالة السلام فقد "اختار مائة من رجاله، وقد طوقوا رؤوسهم بتيجان من الزيتون وحملوا بأيديهم الهدايا، وطلب منهم الذهاب إلى مدينة الملك، وبث الدعوة لقيام السلام، بين هذا الشعب ورجال طروادة"⁽¹⁾ وفي أثناء ذلك اختار لمعسكره مقرا، وجعل سدا، وحفر خندقا، ولأن لاتينيوس كان يعتقد أن القادم الغريب هو رجل الأقدار، الذي تتحدث به النبؤات والإشارات، فقد وافق على الجيرة والسلام والمصاهرة.

بيد أن العدو الأولى للرحلة وحلفائها، أجهزت على هذه الخطة وهذا العهد، فانتشرت الحرب أمدا طويلا، قبل أن يتمكن إنياس من الحصول على أمله وتنجح الرحلة، وتقوم المدن الطروادية الإيطالية الجديدة، في انتظار نشوء روما بعد أربعة قرون أو أكثر.

هدف الرحلة: لم يكن الرحالة يخطط للرحيل قبل أن يأتيه (هكتور) في الحلم طالبا منه الخروج، وإنقاذ بعض أهل طروادة، ولم يفكر في أي وجهة معلومة، ولم يكن له أي قرار خاص بالتوجه إلى هنا، أو هناك، بل كانت قرارات وقضاء القدر، حتى أنه قال: لو كان له الخيار لإختار أن يجدد طروادة في مكانها.⁽²⁾

لقد تعادل العلم والجهل في مسار رحلة (إنياس) ورفاقه.

¹ - السابق، ص 154.

² - السابق، ص 92.

المعلوم: فضاء الهدف/ الوصول معلوم: إذ كانت الكثير من النبوءات تشير إلى أنه يجب أن يسير باتجاه إيطاليا/ هيسبيريا/ أرض الجد (دردانوس):

- قالتها الفتاة كسندرا التي لم يصدقها أحد، قبل أن تسقط طروادة.

- قالتها الزوجة القتيلة (كرّوسا) وظيفها يودع الزوج والإبن.

- قالها الأب مرة بعد مرة وهو في عالم الأحياء، وفي عالم الأحلام، وفي عالم الأموات.

- قالتها الرفيقة (سيبيل)، على مشارف الوطن القادم.

- قالها الكهنة والعرافون حيث كانوا (هلينوس)...

ولكن (جونو) كانت تطمس هذه الإشارات والنبوءات وترسم مسارات أخرى للرحلة شمالا، وجنوبا، شرقا، وغربا. وتبعد إنياس عن إيطاليا زمانا ومكانا.

المجهول: فضاء الهدف/ الوصول مجهول:

- لقد اعتقدوا للوهلة الأولى أنهم يستوطنون تراقيا، قبل أن يكتشفوا خيانة ملكها وجريته.

- ظنوا أن الجد المعني بالنبوءة هو (طفقير) القادم من كريت التي استوطنوها زمنا.

- تناسوا الأمر لأيا في قرطاجنة، وصقلية، حتى جاء فصل الخطاب، ولكن للأسف كان للفضاء

الهدف وجهان متناقضان عطلا نجاح الرحلة، وأخرا القول بانتصارها:

الوجه الأول: الفضاء الهدف الإيجابي/ الموافقة والترحاب: بمجرد أن وصل (إنياس إلى أرض

اللاتين، حتى أرسل وفدا يتكون من وجاهة المائة رفيق محملين بالهدايا والأمل والرجاء، وجاءتهم

الموافقة السريعة كالماء العذب البارد، لأن لاتينيوس الملك الأب كان أيضا مؤمنا بإشارات الأقدار.

الوجه الثاني: الفضاء الهدف السلبي/ الرفض والحرب: لأن ترونوس أحد حلفاء (لاتينوس) كان موعودا من أم (لافينيا) بالزواج والمصاهرة والملك، فقد رفض هذا الغريم الغريب (إنياس) وأعلن الحرب، وأسرع ينشر الخلاف والنزاع والبلبلة في صفوف جميع اللاتين والإيطاليين حتى لا ينجح إنياس في مشروعه الهدف (الاستقرار وبناء الوطن)، فكانت الحرب الحمراء الضارية، هي الحل لتنجح الرحلة وتنتهي، ويأتي التاريخ بروما.

النتيجة: مسارات الرحلة ومحطاتها: لم يختار إنياس أيا من مسارات الرحلة واتجاهاتها، كان يبحث عن إيطاليا وحسب، وكان يترك أمر الوجهة للدفة وصاحبها (فليدروس)، وللرياح واتجاهها، وللنبوءة ومشيتها.

فكانت كل مسارات ومحطات الرحلة مقدرًا لها، أو مشارًا إليها، إما بالعنف (جونو: قرطاجنة)، أو بالنصيحة (هيلينوس: صقلية)، أو بالحلم (الأب: كريت)، إذ كان إنياس شبيها بسفينته، يسبح طواعية سواء أكان البحر هائجا أو هادئا.

وإن المحطة الأخيرة للرحلة لم تكن هي الهدف كله، لأن الهدف من الرحلة لم يكن بلوغ أرض إيطالية فحسب، وإنما كان بناء مدينة وإنشاء وطن بديل، فالرحلة لم تنتهي بإرساء السفن والنزول إلى البر الإيطالي، بل احتاجت إلى مزيد من الكفاح المسلح من أجل أن تحقق الهدف والغاية وتنتهي إلى السلام.

فضاء التقاطع: إن أساطير الإغريق تكوّن شبكة عنكبوتية رائعة من العلاقات المتجانسة فيما بينها، وإن الأساطير الرومانية قد حاكتها في ذلك ببراعة فذة، فيما أخذته وفيما نسجته متاخلا ومتقاطعا مع أساطير الإغريق أيضا لمزيد من الجمال والمصادقية، ومثلما وجدنا (إيفاندر) تتقاطع

رحلته مع رحلة هرقل، نجد (إنياس) تتقاطع رحلة مع رحلة إيفاندر مرة ومع رحلة (أوديسيوس) مرة أخرى.

1- فضاء تقاطع رحلة (إنياس) مع رحلة (إيفاندر): فقد أدرك (إنياس)، أن من الصعب، بل من المستحيل التصدي للعدو دون حلفاء، وهكذا ترك ابنه (أسكانيوس) في المعسكر، وتوجه إلى إيفاندر العجوز طلباً للنصيحة والنجدة، لكن إيفاندر لم يعد قادراً على مساعدته في شيء، ولذا فقد اكتفى بأن أعطاه فصيلاً من المحاربين بقيادة حفيده (بالانتوس) الذي يعتبره البعض ابنه، ونصحه باللجوء إلى الملك الأتروسكي (تارخون) الذي اغتصب (ميزينسي) جزءاً من مملكته، ولما كان (ميزينسي) قد انضم إلى العدو (تورنوس)، فإنه من المحتمل أن يقبل (تارخون) بمساعدة (إنياس)، وهكذا انطلق قاصداً (إتروريا).⁽¹⁾

2- فضاء تقاطع رحلة (إنياس) مع رحلة (أوديسيوس): في جزيرة (السيكلوب) ظهر لإنياس ورفاقه شخص أوضح أنه أحد رفاق (أوديسيوس) وقد تركه على الجزيرة لفرط تسرعه بالفرار من وجه السيكلوب وعشيرته. كما مرت سفن (إنياس) المبحرة بالقرب من جزيرة (إيتاكة) وطن (أوديسيوس).

3- فضاء تقاطع رحلة إنياس مع رحلة ياسون ورحلة أوديسيوس: مر ياسون بالسيرينيات وكان رفيقه (أورفيوس) العازف البارع هو الذي سد بأنغام قيثارته آذان رفاقه فلم يجنحوا إلا أحدهم. بينما سد أوديسيوس آذان رفاقه بالشمع، وربط نفسه إلى سارية السفينة. واكتفى إنياس بالمرور بعيداً.

كما مر (ياسون)/الأرجو بـ (سكيلا) و(خاروبيديس) ونزل ضيفاً على (ألكينوس) مضيف (أوديسيوس) فيما بعد.

¹ - سيركين، يولي: أساطير روما القديمة ص 152.

ثانيا: اتجاه الرحلة الملحمية إلى العالم الآخر:

1- اتجاه الرحلة الملحمية في بلاد الرافدين، رحلة جلجامش الثانية: (إلى جده أوتنابشتيم):

أ- فضاء الإنطلاق: انطلاق نحو الذهاب/ الإياب: من مدينة أوروك، كان جلجامش مدفوعا إلى الخروج ولقد رأينا صورة مدينة أوروك الحصينة، في مقدمة/ خاتمة الملحمة، إذ ضاقت نفسه بالمكان وأهل المكان، فبمجرد أن أقام جنازة لصديقه إنكيديو حتى هام على وجهه في البراري متخذا منها مسلكا نحو الجبال معتقدا أنه سيجد فيها السلوى عن فقد صديقه، أو الإجابة عن سر الموت، وتفسخ الجثث، ففي البرية رفاق إنكيديو وهي موطنه الأصلي وهي الرحابة والسعة والهدوء والعطاء دون مقابل.

إن الهلع بمرآى آية الموت أعمته عن رؤية المدينة وأسوارها وشيوخها، فمباشرة نجده هائما على وجهه خارج بيته وقصوره.

ب- فضاء المسار: (الاتجاه في مسار مجهول):

المسار الأول: (البراري) متجها نحو العالم الآخر خرج جلجامش من مدينة أوروك قاطعا مساحات شاسعة من البراري الخضراء المليئة بالحيوانات والأسود، وقد ركز شاعر الملحمة على لسان الرحالة جلجامش كثيرا، على كلمة البراري.

المحطة الأولى: الجبال: كانت الأرض تمتد في هدوء ببراري واسعة نهبها جلجامش نهبا حتى بلغ الجبال، والأرض الجبلية أنواع فيها البسيط الإرتفاع والممتد إلى أعالي السماء، وفيها الأجرد الصخري، مثلما أن بعضها أخضر يموج بالحياة، وفي العادة تعرف الجبال بغطائها النباتي وسكانها من وحوش الغاب ولطائف المخلوقات، وهنا، لم يبد شيء من سمتها وثوبها "وصل

جلجامش جبل ماشو/ الذي يحرس الشمس في قدومها وإيابها كل يوم/ وتتأطح ذراه حدود السماء/
وتمتد قواعده عميقا نحو العالم الأسفل/ يحمي مداخله البشر العقارب/ ولم يعبر مسالك هذه الجبال
إنسان/ لمسافة إثنتي عشرة ساعة مضاعفة أعماقها تمتد/ لا نور هناك، بل ظلام دامس⁽¹⁾ وهذه
الجبال تعتبر بوابة إلى العالم السفلي، إذ يقول جlgامش للحارس الرجل العقرب: "في التتهد
والنحيب سأمضي/ فافتح لي الآن بوابة الجبال"⁽²⁾ فأجابه الرجل العقرب: "امض يا جlgامش جبال
ماشو أسمح لك بعبورها/ فلتقطع سلاسل الجبال/ ولتعد بك قدماك سالما/ ها بوابة الجبال مفتوحة
لك"⁽³⁾

فهذه الجبال المتناهية في الإرتفاع، حتى ولو كانت خضراء ومصدر حياة ونماء إلا أن وظيفتها
في النص هو كونها حاجزا بين عالمي الحياة الدنيا والحياة الأخرى، والشمس التي تعبر بين
الجبليين، توحى بالحياة التي تغيب في الرمس. غياب الشمس هو غياب للحياة، ولكنها لا تغيب
أبدا، بل لتعرج من مسار آخر من جديد يعود فينبليج بها من المشرق وكلها نور وضياء. فلماذا لا
تكون الحياة هكذا تغيب لتشرق وهذا ما جعل جlgامش يتشجع ويتبعها.

المسار الثاني: طريق الشمس: إنها مفارقة عجيبة أن يكون مسار الشمس⁽⁴⁾ غائما مظلما، دامسا
حيث اضطر جlgامش إلى قطع مسافات زمانية ومكانية كبيرة يعدو خلف الشمس بعد أن ترجى
الحراس على بوابة سلسلة جبال ماشو للسماح له بالعبور، وبالتالي:

"مضى عبر طريق الشمس.

¹ - السواح، فراس: جlgامش، ص192، إلى 194.

² - السابق، ص195.

³ - نفسه.

⁴ - يذكرنا برحلة رع، ورحلة الإسكندر، انظر هذا البحث، ومصادره في الموضوع.

اجتاز ساعة مضاعفة،

ظلام دامس وما من شعاع

لا يرى مَنْ أمامه ولا مَنْ خلفه

اجتاز ساعتين مضاعفتين

اجتاز أربع ساعات مضاعفات

ظلام دامس وما من شعاع،

لا يرى مَنْ أمامه ولا مَنْ خلفه.

اجتاز خمس ساعات مضاعفات،

ظلام دامس وما من شعاع،

لا يرى مَنْ أمامه ولا مَنْ خلفه.

اجتاز ست ساعات مضاعفات،

ظلام دامس وما من شعاع،

لا يرى من أمامه ولا من خلفه.

اجتاز سبع ساعات مضاعفات،

ظلام دامس وما من شعاع،

لا يرى مَنْ أمامه ولا مَنْ خلفه.

اجتاز ثماني ساعات مضاعفات، علا صراخه.

ظلام دامس وما من شعاع،

لا يرى من أمامه ولا من خلفه.

اجتاز تسع ساعات مضاعفات، فأحس بريح الشمال،

تضرب وجهه.

ظلام دامس ولا من شعاع،

اجتاز عشر ساعات مضاعفات،

صار قريباً بعد أن قطع إحدى عشرة ساعة مضاعفة،

تخايل شفق الشمس.

وبعد أن قطع اثنتي عشرة ساعة مضاعفة، عم الضياء.⁽¹⁾

لم يتضح من النص هل أن جلامش قد سبق الشمس في مسارها حيث تركها نهارة تتوسط السماء، أم أنه قد تبعها لما نزلت بين الجبلين، وكانت تسبقه بمسافة كبيرة فلم نجد لنورها أثراً قبل أن يستنفد كل المسار ويخرج من الجهة الأخرى، حيث علا ضياؤها.

إنه مسار خطر جداً، فيه وحشة ورهبة وانقطاع تام عن رمز الحياة (النور)، ولكن جلامش العنيد غامر بالمسير فيه، فهو لم يكن يريد رمز الحياة بقدر ما كان يريد الحياة، فهو لا يريد النور بل يريد الشمس.

¹ - السواح، فراس: جلامش، ص 196، 197.

شمس الحقيقة، وشمس المعرفة والعلم بأسرار الحياة ولكنه عندما كان وحيدا في مسيره، فقد استدعى صوته بالصراخ ليؤنس وحشته، ويستشعر رفقته، فالصوت كالظل أحيانا يكون أفضل من صاحب صدقا ووفاء.

المحطة الثانية:

"وبعد أن قطع اثنتي عشرة ساعة مضاعفة عم الضياء

وجد نفسه أمام حديقة أشجارها من حجر

كريم فدنا لرؤيتها

كان شجر العقيق يحمل ثماره،

عنا مدلى، فتنة للناظرين

وشجر اللازورد يحمل [.....]

ينوء بثمره، فتنة للناظرين.⁽¹⁾

وبعد مسار مظلم حالك السواد في إثر الشمس الهاربة بنورها وحقيقتها من وجه جلامش، هاهو آخر خيوط ذيل الشفق تتير المكان ليكتشف كم هي ثمينة وجميلة تلك الكنوز التي يسفر عنها الضياء. وهناك سأله شمس في أسى: إلى أين تمضي، وإلى أين تسعى، بك قدماك؟

"إن الحياة التي تبحث عنها لن تجدها."⁽²⁾

¹ - السابق، ص 197، 198.

² - السابق، ص 200.

فأجاب جلامش: "أَبْعَدَ جري البراري، وتطوافي،

أسند رأسي في باطن الثرى.

أنام السنين الآتية؟"⁽¹⁾

المسار الثالث: بعد محطة الحديقة السحرية الساحرة التي وصلها عبر مسار الشمس، وحديثه فيها مع شمش، لا يتضح مسار جلامش وكيف وصل إلى الفتاة سيدوري التي تقيم عند حافة الأوقيانوس العظيم الذي يحيط الكون. (فبداية اللوح مكسورة) بيد أننا لا نجد في حديثه إليها إشارة إلى اجتياز البحر.

المحطة الثالثة: ثم إنه يتوجه بالحديث إلى الفتاة سيدوري ساقية الحان التي تقيم عند حافة الأوقيانوس العظيم الذي يحيط بالكون يعدد مناقبه، ويشكو إليها مرارة حزنه ودوام أساه على فقده لرفيقه إنكيديو ثم يستفسرها في إلحاح "أين الطريق إلى أوبتناشتيم يا فتاة الحان؟ أين أتجه؟ أوأه كيف المسير؟

لأقطعن البحر إن استطعت."⁽²⁾

في هذه المحطة يزداد إلحاح جلامش على مواصلة الرحلة رغم أنه مازال يجهل محطاتها ودروبها ومساراتها. مازال يسأل ويلح في السؤال. ثم سألها: "فيا فتاة الحان، كما أرى وجهك الآن ألن يكتب لي ألا أرى الموت الذي أخاف؟"⁽³⁾

¹ - نفسه.

² - السابق، ص 207.

³ - السابق، ص 201.

فأجابته: "الحياة التي تبحث عنها لن تجدها"⁽¹⁾ وأشارت عليه أن يستغل مباحج الحياة المتوفرة له.

أبدا لم تعبر هذي المياه،

ولم يقدر قادم من بعيد على قطع هذي البحار.

....

شمش القدير يقطعها، فمن غيره يستطيع ذلك؟

صعبة العبور، عصية على الإجتياز،

فيها مياه الموت تصد العابرين.

فمن أي مكان تعبر يا جلجامش؟

وما عساك فاعل إن وصلت مياه الموت؟

جلجامش، هناك أورشنابي، ملامح أوتتابشتيم،

في الغابة يحتطب ومعه صور من حجر.

فامض الآن عساك واجده.

فإن استطعت فاعبر معه، أو فعد إلى وطنك"⁽²⁾

¹ - نفسه.

² - السابق، ص 207، 208.

الفتاة ابنة الحانة تدهش لمقدم الرحالة باحثاً عن طريق إلى أوتنابشتيم القصي، ورغم ذلك فهي تشرح له المسلك الذي يمكن أن يعبره افتراضاً إن وجد الملاح أورشنابي، وهي دائماً تتصح به بالعودة أدراجه من حيث أتى ليتنعم بحياته وأسرته. فهذا المسلك الأسطوري يستحيل على أي كان عبوره. فهذه البحار فيها مياه الموت، إنه الفضاء الأسود في رحلة جلجامش.

المسار الرابع: دلت فتاة الحان سيدوري جلجامش على ملاح أورشنابي الذي كان حينئذ يحتطب في الغابة المجاورة. وفي قوة اندفاعه منفعلاً دون انتباه يحطم "رقماً أو صوراً سحرية وضعها الملاح قربه، وهي الرقم التي يحملها معه دوماً في إبحاره لتساعده على قطع مياه الموت المؤدية إلى أرض دلمون حيث يعيش سيده الخالد"⁽¹⁾

لما أشارت الفتاة سيدوري على جلجامش بمحاولة لقاء أورشنابي ملاح أوتنابشتيم "حمل بلطته بيده/ وانتضى الخنجر من حزامه، وانسل هابطاً إليها/ واقعا بينها كسهم مارق."⁽²⁾

فتسبب في تكسيرها وتهشيمها دون قصد، فلما ترجى أورشنابي في مساعدته تأسف النوتي لأن جلجامش كسر تلك الصور الحجرية التي تساعده على عبور بحر الموت، قائلاً: "قد حالت يداك دون عبورك/ إذ قمت بكسر الصور الحجرية"⁽³⁾

وطلب منه أن يهبط إلى الغابة ممسكاً بالبلطة ليقطع بها مائة وعشرين مردياً بطول ستين ذراعاً، ويطلقها بالقار ويصفح أطرافها ويأتيه بها، ففعل. بعدها ركبا السفينة، وأبحرا تتقاذفها الأمواج. وكان

¹ - السابق، ص 202

² - السابق، ص 208.

³ السابق، ص 210، 211

"في اليوم الثالث قد قطعنا رحلة شهر ونصف"⁽¹⁾ ووصلا إلى مياه الموت. فصاح به (أورشنابي) أن يضغط بعزم وأن يأخذ مجذافا من تلك الحزمة من المجاذيف التي صنعها بنفسه وألا يمس مياه الموت. وكان يصيح به في كل مرة: "لا تلمس يدك مياه الموت

خذ يا جلامش مجذافا ثانيا وثالثا ورابعا

خذ يا جلامش مجذافا ثامنا وتاسعا وعاشرا

خذ يا جلامش مجذافا حادي عشر وثاني عشر

مع الدفعة العشرين بعد المائة، استنفذ جلامش مجاذيفه

حل حزامه... ثم نزع جلامش رداءه، وبيديه رفعه شراعا"⁽²⁾

حتى اقتربا من شاطئ الجزيرة، واستقبلهما أوتنابشتيم لي طرح الأسئلة الحائرة المستغربة على جلامش الذي يجيبه تماما كما أجاب فتاة الحان وأورشنابي.

ت- المحطة الهدف: المحطة الرابعة: استقبل أوتنابشتيم جلامش بالاستفهام والإستفسار فلما سمع منه وجعه عن فقد صديقه وألمه من توقع مصيره، أجابه بطرح أسئلة أخرى يكتشف بها الإجابة دون عناء، وقص عليه قصته مع الطوفان وكيف تمكن من أن يكون من الخالدين.

ثم تساءل: "والآن من سيدعو مجلس الآلهة إلى الإجتماع من أجلك يا جلامش، فتجد الحياة التي تبحث عنها؟ تعال، لتمتنع عن النوم ستة أيام وسبع ليال،" وفشل جلامش في امتحان الأربعة

¹ - السابق، ص 211.

² - السابق، ص 212.

التي كانت تحضرها الجدة. وتحسر: "أواه يا أوتتابشتيم ماذا أفعل، أين أسير؟" فطلب الجد من الملاح أن يساعد جلامش على التطهر وتغيير الملابس:

أما الرجل الذي قدته إلي، يغطي جسده الشعر الطويل

وتخفي قامته المهيبة جلود الحيوان،

فخذه يا أورشنابي وقده إلى مكان الغسل.

ليغسل شعره الطويل في الماء، فيطهر كالثلج.

لينفض عنه جلود الحيوان، يحملها البحر، ويظهر جمال جسمه.

ولتستبدل عصابة رأسه بأخرى جديدة وليعط ثوبا يستر بعد ذلك عريه...

غسل شعره الطويل في الماء فطهر كالثلج

ونضى عنه جلود الحيوان، حملها البحر.

فظهر جمال جسمه

استبدل عصابة رأسه بأخرى جديدة

وأعطاه ثوبا يستر بعد ذلك عريه

وإلى أن يصل وطنه

إلى أن يلقي عصا الترحال

سيبقى ثيابه جديدة لا تتَمُّ عن قَدَمٍ".⁽¹⁾

المسار الخامس: نهبت الجدة الجد بأن يمنح الرحالة شيئاً عزاء عن تعبها في الوصول إليهما. فقال

أوتنابشتيم لجلجامش: "سأبوح لك بأمر خبيء

وأطلعك على سر من أسرار الآلهة.

هناك نبتة تشبه الشوك،

تخز يدك أشواكها كما الورد

فإذا جنت يداك تلك النبتة، وجدت حياة متجددة.⁽²⁾

نقطة الهدف: ففتح جلجامش القناة وربط إلى قدميه حجراً ثقيلاً، جذبته غائصاً إلى الأبسو هناك رأى النبتة اجتثها، وخزت يديه، حل عن قدميه الحجر الثقيل. فعاد صاعداً إلى سطح الماء، وهو أشد ما يكون فرحاً وسروراً، عازماً على أن يحملها إلى أوروك المنيع ليشرك الشيخ فيها ويأكل منها حين يشيخ.

لقد عقد الرحالة آمالاً عريضة جداً على هذه النبتة، إنها ألف مرة خير من لاشيء، إنها كنز عظيم بالنسبة لمن كان سيعود بخفي حنين، الآن صارت هذه النبتة هي نقطة مركز الهدف، أضحت وكأنها هي الهدف نفسه الذي سعى إليه منذ الوهلة الأولى، فيها ستتغير أشياء كثيرة في نفسه وفي كامل أوروك الكبيرة، فها هو سيقفل عائداً من رحلة بعيدة طويلة، كان يطاردها الحزن من أجل أنكيكو، والفرق من الدود الذي يخرج من الجثة.

¹ - السابق، ص 231.

² - السابق، ص 232.

المسار السادس: مسار الإياب:

"بعد عشرين ساعة مضاعفة توقفا للطعام.

بعد ثلاثين ساعة مضاعفة توقفا القضاء الليل.

فرأى جلامش بركة ماء بارد"⁽¹⁾

المحطة السادسة: نزل يستحم فتشممت أفعى رائحة النبتة، وتسالت لخطفها وفيما هي عائدة يتجدد جلدها. فجلس جلامش يبكي وينوح سوء طالعها، ويتأسف على ما أضاع من جهد من أجل حياة التراب. وقرر أن يترك السفينة عند الشاطيء.

المسار السابع (مسار الإياب): "بعد عشرين ساعة مضاعفة توقفا للطعام.

بعد ثلاثين ساعة مضاعفة توقفا لقضاء الليل.

وعندما وصلا أوروك المنبعة...."⁽²⁾

بيد أنه لا يظهر منذ البداية أن السفر خلال هذا المسار كان عبر البحر بوساطة سفينة!

قال الرجل العقرب حارس جبل مانشو "امض يا جلامش، جبال مانشو أسمح لك بعبورها فلتقطع سلاسل الجبال ولتعد بك قدماك سالما، ها بوابة الجبال مفتوحة لك"⁽³⁾ فيمكننا أن نفهم أن جلامش قد عاد عبر مسار الإياب من نفس مسلك سلسلة جبال مانشو وبالتالي نفترض أنه قد

¹ - السابق، ص 234

² - السابق، ص 235

³ - السابق، ص 195.

عبر درب الظلام في درب عكسي عما مشاه في رحلة الذهاب. ثم إن خروجه من الجبل يعني عودته إلى براري أوروك.

ت- فضاء الهدف (الوصول): لرحلة جلامش الثانية هدفان:

الأول: الوصول إلى جده أوتنابشتيم الذي يعيش خالدا في جزيرة نائية مع زوجته وحيدتين، ثم سؤاله عن سبيل الخلود، والحصول عليه، وقد تمكن فعلا من اختراق جميع الحواجز والوصول إلى جده، ولكنه لما سأله عن سر الخلود، لم يحصل على شيء منه.

الثاني: الوصول بسلام وأمان إلى (أوروك) القاهرة المدائن، والعودة برmq جديد فيه العزم على الإستمرار في سيرته الأولى نفسها من البناء والتشييد والإعمار، والإشارة إلى الكتابة والتدوين أنها سر من أسرار الخلود أيضا.

الغرض من الفضاء الهدف: فشل جلامش في تحقيق ما كان يريد من رحلته وهو الحصول على الخلود، ولكنه حصل على الحكمة، ونور المعرفة، والعلم. فمن الحكم التي حصل عليها:

- اجعل من كل يوم عيدا.
- هذا نصيب البشر.
- الحياة التي تبحث عنها لن تجدها.
- حصل على صديق/ رفيق جديد: أورشابي الحكيم ملاح أوتنابشتيم الحكيم.
- الإيثار وروح الجماعة والمشاركة: أراد أن يطعم شيوخ أوروك من نبتة الشباب.

- القناعة: أوروک التي صممها الحكماء السبعة، ليست سيئة أو سلبية، ومن نور المعرفة، الخبرة الجديدة بالطرق، والسبل، وأهل الطريق والسبيل، وكيف يتعامل مع الذين يلتقيهم ويحاورهم ويدخل قلوبهم فيجلب عطفهم وتعاونهم.

ومن العلم: كيف تستعمل الوسائل لقطع البراري، والجبال، والبحار كيف يصطاد الوحوش للغذاء والكساء.

المكان بين الجغرافيا الواقعية والتمثيل الأسطوري في رحلتي جلجامش (غابة الأرز وجنة أوتنابشتيم):

أولاً: الجغرافيا: لا تظهر في نص ملحمة جلجامش ورحلتها الكثير من المواقع الجغرافية الواضحة، بل هي قليلة جداً:

1- أوروک: (الوركاء / الوركاء) تذكرها (أثبات الملوك السومرية)⁽¹⁾ باسم (أي . أنا) وهو اسم الشطر القديم من المدينة، وكان شطرها الآخر يعرف باسم (كلاب). ذكر اسم مدينة أوروک خمسين (50) مرة أو أكثر⁽²⁾، وهي فعلاً مدينة تاريخية مازالت قائمة إلى هذا اليوم في العراق الحالي. ووجد إنكيدو في مكان يبعد ثلاثة أيام عن أوروک.⁽³⁾

¹ - مدونة كتبت في عهد سلالة أيسون الأولى (2017-1794 ق.م). دونت بعد جلجامش بحوالي ثمانية أو تسعة قرون.

² - خلال الرحلتين في نص الملحمة كله حسب النص الوارد في كتاب جلجامش لفراس السواح.

³ - السواح فراس: جلجامش، ص 116.

2- الفرات: نهر الفرات أحد أشهر نهري العراق منذ القديم. "بماء الفرات غسلا أيديهما"،⁽¹⁾ "ترقد على ضفة نهر الفرات"⁽²⁾

3- نيبور: تقول الملحمة: قال جلجامش للبوابة التي صنعوها بخشب شجر الأرز بعد الفتك بـ (حواوا). قال وهو يتألم لمرض إنكيديو الذي مات به "نجرِك الصانع في نيبور"⁽³⁾

4- شوريباك: (تل فارة) هي إحدى المدن الخمسة لبلاد الرافدين القديمة، (مدن ما قبل الطوفان). قال أوتنابشتيم لجلجامش: "شوريباك، مدينة أنت تعرفها/ ترقد على ضفة نهر الفرات"⁽⁴⁾

5- جبل نصير: قال أوتنابشتيم يروي قصة الطوفان لجلجامش: "على بعد اثنتي عشرة ساعة مضاعفة، انبثقت قطع من اليابسة.

واستقرت السفينة على جبل نصير.

جبل نصير، أمسك بالسفينة، منع حركتها"⁽⁵⁾

6- أنشان: وردت في الملحمة: "جاؤوا له بأسلحته.../ قوس أنشان."⁽⁶⁾ وأنشان هي منطقة في عيلام الإيرانية، مشهورة بصناعة الأقواس.

كما يمكن أن نجد مناطق أخرى، حسب مصادر أخرى.

¹ - السابق ص 172.

² - السابق، ص 217.

³ - السابق، ص 177.

⁴ - السابق، ص 217.

⁵ - السابق، ص 225.

⁶ - السابق، ص 145.

7- سريون: يطلق على سلسلة لبنان الشرقية مع جبل الشيخ، ويطلق اسم لبنان على جبال لبنان الغربية⁽¹⁾. تقول الملحمة عن المعركة التي قامت بين خمابا وجليامش يساعده رفيقه إنكيديو: "لقد هزوا بدورانهم جبل سريون ولبنان"⁽²⁾ هذه المعركة التي انتهت بنحر "الوحش، حارس الغابة الذي كانت تنشق لصيحته ذرى جبال سيريون ولبنان"⁽³⁾.

8- لارسا: قال إنكيديو محذرا جليامش: "قبل أن يسمع الإله العظيم بفعلا/ فيغضب الآلهة العظام علينا: (أنليل) في نفر، شمش في (لارسا)". كانت لارسا من المدن المهمة في جنوب بلاد الرافدين، وقد قامت فيها سلالة حاكمة من أصل أموري في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، ولارسا إحدى مدينتين قديمتين اعتبرتتا مركزين مهمين، ويعرف موقع (لارسا) اليوم باسم (تل السنكرة) الذي يبعد حوالي 20 كلم إلى الجنوب الشرقي من موقع مدينة (أوروك)⁽⁴⁾.

9- لبنان: جاء في الملحمة "لقد هزوا بسريانهم جبل سريون ولبنان"⁽⁵⁾ "لقد نحر الوحش حارس الغابة، الذي كانت تنشق لصيحته ذرى جبال سيريون ولبنان"⁽⁶⁾.

10- نهر أولا: قال جليامش يرثي صديقه إنكيديو: "ليندبك نهر أولا الذي مشينا على ضفافه/ وليبكك الفرات الطاهر الذي كنا نسقي منه"⁽⁷⁾.

¹ - حنون، نائل: ملحمة جليامش، ص 152.

² - السابق، ص 144.

³ - السابق، ص 149.

⁴ - السابق، ص 53.

⁵ - السابق، ص 144.

⁶ - السابق، ص 149.

⁷ - باقر، طه: ملحمة كلكامش، ص 64.

لا يعلم موقع هذا النهر على وجه التأكيد، وإنما يحتمل أنه نهر (كارون) الآن في خوزستان الذي ورد ذكره في المصادر اليونانية والرومانية بصيغة (أولاس)⁽¹⁾

ثانياً: المتخيل الأسطوري:

1- البراري/ البرية: تحدثت الملحمة كثيراً عن البرية والبراري في الرحلة الأولى والرحلة الثانية، وهي الأراضي الشاسعة التي تبتعد عن أوروك نحو غابة الأرز، ونحو سلسلة جبال ماشو وتبدو طبيعية جداً.

2- سلسلة الجبال؛ جبل ماشو: جبل أسطوري بقميتين تقول الملحمة أن جلامش قد اجتازه متعباً الشمس في مسار مظلم باحثاً عن جده.

3- غابة الأرز: تقول الملحمة أن جلامش ورفيقه إنكيديو سافرا مسافة شهر ونصف حتى بلغا غابة الأرز التي يسكنها (حواوا) وهي مكان أسطوري لا تحدد الملحمة موقعه، ولكن معظم الباحثين يتحدثون عن (لبنان) باعتبارها المكان المثالي لنمو شجر الأرز.

4- الأبسو/ البحر؛ مياه الموت/ المرفأ/ الشاطئ.

لقد نوعت الرحلتان في تضاريس الفضاءات التي اجتازها الرحالة جلامش بين الأزرق والأخضر والأسود، والمنبسط والمرتفع، وتحدثت عن الماء سر الحياة الذي كان يحفر جلامش آباره كل ليلة، و(مياه الموت) التي كان يجب عليه أن يتجنبها حتى يصل بسلام إلى جده أوتنابشتيم.

¹ - السابق، ص 80.

2- اتجاه الرحلة الملحمية إلى العالم الآخر في الهند:

رحلة (أرجونا) إلى الهملايا/ جنة (إندرا): كان الجميع يحاولون إقناع كبير الإخوة (يوديشترا) بضرورة حزم أمره على رفض الإهانة بالنفي من دون جريرة ارتكبوها، وخاصة (دروبيدي)، ولكنه ظل يردد بكل قناعة آراءه بضرورة الحلم والصفح، "فلا يقوم الكون إلا بالحب، فهو غرسة الله في النفس... أما نحن فليس لنا أن نستسلم للحق والغضب، تلك هي قناعتني، فصبرا! صبرا"⁽¹⁾. ومازال على هذه الحال حتى قطع خلوته ذات يوم، واستدعى إليه (أرجونا) في تلك البقعة النائية التي كان يختلف إليها لممارسة اليوغا، وإذا به يعرض له أسباب قوة حلف (داريودانا) وأشياعه، ثم يعرض له أسباب ضعف معسكره. وإذن فهيا يا (أرجونا) في ممارسة رياضة النفس فإنني عاقد عليك أعظم الآمال، وأعد العدة للرحيل، ثم اقصد طريق الشمال متسلحا بقوسك.⁽²⁾

دواعي الرحلة: أمر الأخ الأكبر (يوديشترا) شقيقه (أرجونا) بالسفر إلى جنة إندرا من أجل الحصول على الأسلحة الفتاكة التي تضمن لهم استعادة حقهم في المملكة، فقد غير رأيه الذي كان عاكفا عليه؛ أو ذلك الرأي الذي كان يبديه ويضمر غيره.

أ- فضاء الإنطلاق: انطلق (أرجونا) من منطقة بحيرة (دفتافانا) المقدسة نحو طريق الشمال (جبال الهملايا).

عدة الرحالة: كان متسلحا بقوسه مرتديا درعه، حاملا سيفه، وقد لقنه أخوه (المانترا) التي تدعم قوته وحضوته عند أهل السلاح (إندرا).

ب- فضاء المسارات:

¹ - المهاباراتا، تر/ عبد الإله الملاح، ص 135.

² - السابق، ص 136.

المسار الأول: ضرب (أرجونا) في الأرض الواسعة وخاض الأهوال، وتابع طريقه شمالا كما أمر، ولم يحط الرحال إلا في مملكة (إندرا)، في جبال (الهمالايا).

المحطة الأولى: حط رحاله في مملكة (إندرا)، وما كاد يبلغ تلك البقعة حتى فاجأه صوت: قد أخطأت المكان يا بني، فليست هذه ساحة للحرب، والأجدر بك أن تتشد الجنة بدلا من السلاح، فأجاب (أرجونا) إنما جئت في طلب السلاح، وإخوتي ينتظرون، ولست أريد الخلود، فاخترني (إندرا) وظل (أرجونا) ينتظر (شيفا).

المسار الثاني: ظل (أرجونا) خالدا إلى رياضته، ومازال بها حتى تجلى (شيفا) وتحقق الشرط، وتهيأ عندئذ للمضي إلى مدينة (إندرا) الأسطورية.⁽¹⁾

المحطة الثانية: وصل أرجونا إلى مدينة (إندرا) الأسطورية بزهرها ووردها، وأشجارها المقدسة، وحيث جنته (ناندانا) التي ترتع فيها الحوريات، وقد كفلهما الإله لمن أخلص العبادة، فلا يدخلها الكافر أو من ارتكب شرا أو معصية، أو كان يفرط في الشراب، أو يأكل اللحم المحرم... استقبله (إندرا) وأجلسه قريبا منه، وهو على عرشه، ثم قرب منه وأجلسه في حضنه...

ت- فضاء الهدف: أقام أرجونا ردحا من خمس سنوات في جنة (إندرا) ولكنه لم ينس مهمته، فكان لا ينقطع عن جمع الأسلحة وتكديسها، ولما أراد الإنصراف تمسك به (إندرا) مزيذا من الوقت، وأخضعه لتجربة الأهواء والعواطف الإنسانية، ولكنه أعرض.

أهداف الرحلة ونتائجها: عاد (أرجونا) بتاج وعقود محملا بالأسلحة والهدايا، ويروي لهم ما صادف من المتاعب في رحلته:

¹ - السابق، ص 137.

- القوس الرهيب (الغانديفا) الذي أفاض (إندرا) في وصف قدرته، لما حاول أن يتبين قدرته في شد الوتر فإذا الأرض تهتز وتضطرب مذعورة، والأنهار تجري متفكة والصخور تتشقق، ويثبت الهواء فلا أثر لنسمة فيه... فأرخی (أرجونا) الوتر، وللتو هدأت الطبيعة.
- البوق المصنوع من صدفة سحرية من أصداف البحر.

3- اتجاه الرحلة الملحمية في العالم الآخر عند الإغريق: في ملحمة الأوديسية:

أ- **فضاء الإنطلاق:** انطلق (أوديسيوس) من جزيرة (إيايا)، جزيرة الساحرة (سيرسة) التي نصحته أن يتوجه إلى العالم الآخر ليلتقي العراف (تريسياس) فيخبره بكيفية النجاة من اللعنات التي تطارده والوصول إلى الوطن المنشود، وهي الجزيرة التي كان قد أمضى بها سنة كاملة متنعما هو ورفاقه حتى قاموا يذكرونه بالأهل والوطن.

ب- **فضاء المسارات:** لم تكن هناك مسارات كثيرة أو معقدة في توجهه نحو العالم الآخر.

المحطات: مذ ألق بسفينته مع رفاقه متجها نحو منفذ العالم الآخر لم يتوقف حتى وصل إلى مقربة من هدفه فترك السفينة، والرفاق، وقدم الطقوس.

ت- **المحطة الهدف:** استطاع (أوديسيوس) بمفرده أن يلج عالم الأموات ويستدعي الأرواح الساكنة هناك، وعلى رأسها العراف (تريسياس) الذي حاوره وقدم له النصائح المهمة التي تقيده في طريق العودة، ولم يستقد منها شيئا، إذ فقد جميع رفاقه.

النتائج: لقد زاد (أوديسيوس) على سؤاله (تريسياس)، أن حاور الكثيرات من النسوة الشهيرات في أساطير الإغريق بما حدث لهن، وجعل هذا من رصيده الذي سيستثمره في الحكي لما يعود إلى عالم الأحياء.

يجب ملاحظة عدم ذكر أو توضيح أين تعيش الأرواح التي تقابل معها أوديسيوس، هل هي أرواح تعيش في حقول السعداء، أم حقول الحداد، أم أنها أرواح هائمة، باستثناء روح ألبينور، وكذلك لم يوضح لنا هوميروس إذا كان العالم الآخر جزء واحد لا يتجزأ أم أنه هناك جزء للعداء الصالحين، وجزء آخر للأشرار الذين يستحقون العذاب على ما ارتكبوا من آثام في الحياة الدنيا.⁽¹⁾ لم يتحرك أوديسيوس من مكانه، بل كان الجميع يتساقطون نحوه بفعل تأثير القرابين التي وضعها، وحتى أولئك النسوة اللاتي حدثن بقصصهن، "وعرفت مجموعة هذه الأرواح باسم كتالوج نساء الأوديسية لهوميروس".⁽²⁾ وتفسر الإطالة في مكوث (أوديسيوس) بالعالم الآخر لمحادثة الكثيرين "رغم تحقيق هدف الرحلة، بالرغبة في تدوين أحداث رحلة ومغامرات رحالة من قبل الشاعر هوميروس".⁽³⁾

4- اتجاه الرحلة الملحمية في العالم الآخر عند الرومان: في ملحمة الإنيادا:

الاستعداد للرحلة إلى العالم الآخر: لما بلغ (إنياس) أرض إيطاليا بالقرب من (كومو) والتقى سبيل العرافة الشهيرة وأخبرته بشيء من توقعاتها عن مصير رحلته، راح يرجوها طالبا منها أن تساعد في اجتياز باب مسكن الموتى القريب منهما.

الغصن الذهبي: كان على (إنياس) أن يبحث في الغابة عن شجرة بها غصن ذهبي، حتى يأخذه معه في رحلته إلى العالم السفلي ويهديه إلى مليكته (برسيفوني).

¹ - السيد، صلاح: الأوديسية، ص161 (الهامش).

² - السابق، ص 158.

³ - السابق، ص 157.

أ- الإنطلاق: قالت (سبيل) تحذر إنياس من عدم قدرته على مبارحة العالم الأسفل إن ولجه: "إنه لمن السهل يا ابن (أنخيس) أن تتحدر إلى الجحيم، فإن الباب مفتوح ليل نهار. ولكن الرجعة ومكافحة الهواء الأعلى فيها كل المشاق ولم يفعل ذلك إلا التعليل، وهم إما من نسل الأرباب الأعزاء لدى جوبيتر... في الغابة يختبئ فرع شجرة من الذهب المقدس لدى ملكة الجحيم ليس لرجل أن يذهب إلى رحلته هذه، قبل أن يجتثه لكي تأخذه الملكة هدية لها"⁽¹⁾ وقد تمكن إنياس فعلا من الحصول على هذا الغصن. واتجه نحو مغارة كبيرة تنبعث منها رائحة كريهة جدا. وقدم القرابين حتى سمع للأرض من تحتهم صوت زاعق، ونباح كلاب. فاستل سيفه، وتبع سبيل وغاص في الكهف.

ب- فضاء المسارات والمحطات:

المسار الأول: مضى إنياس مع رفيقته (سبيل) يقطعان أرض الأشباح الشبيهة بغابة لا يتخللها إلا نور مريب يلقيه البدر، ولكن الغيوم تعبت به.

المحطة الأولى: بعد أن اجتاز شارون الملاح بهما النهر توقف إنياس بعض الوقت ليتبادل أطراف الحديث مع بعض من وجدهم هناك وهو على معرفة بهم.

المسار الثاني: اجتاز أبواب الجحيم مروراً بغرف ملكات الرعب وجميع أنواع الهولة الشريرة مثل برياروس ذي المائة يد. وصولاً إلى الملاح شارون.

المسار الثالث: توقفا عند سربروس الكلب الحارس في كهفه فأعطته (سبيل) فطيرة منومة من العسل.

¹ - فرجيل: الإنيادة، ص 130.

المسار الرابع: وصلا سيرهما يجتازان أهل المكان مثل حقول الحداد، والتي يسكنها الأبطال.

المحطة الثانية: توقف (إنياس) مستمهما رفيقته حتى يتجاذب أطراف الحديث مع ذيغوب بن بريام، وكان الوقت قد جاوز الظهيرة. وقد استهلكا كل الوقت المحدد لهما بالحديث حتى حثته (سبيل) على المغادرة ومواصلة الرحلة.

المسار الخامس: قال (سبيل) لقد أقبل الليل يا إنياس وأضعنا النهار بالدموع، فيا بنا وهاك سبيلين، هنا أحدهما إلى اليمين، وهو يقود إلى قصر فلوتو وسهول إيليز. والآخر إلى الشمال يأخذك إلى طرطوس مقر الأشواك... إن قدم الصالحين لا تجتاز عتبة هذا المكان.

المحطة الثالثة: توقفا عند قصر ملكة العالم الآخر (بريسيفوري) وقدم إنياس لها الغصن هدية.

المسار السادس: واصلا سيرهما إلى مساكن الصالحين، وجابا دوره ودروبه سائلين أهله عن مكان الأب (أنخيس)

المحطة الرابعة: أبصر أنخيس وقد جلس إلى واد أخضر، فاتجها إليه وقد حاول إنياس عناقه، ولكنه كان كمن يقبض على الهواء.

ت- المحطة الهدف: وجعلهما أنخيس يريان من الهضبة جمعا كبيرا وهو للذين سيأتون في مستقبل الأيام من ذريته ويشيدون مجد الوطن.

الإياب: دل الأب أنخيس ولده إنياس ورفيقته على بوابتي النوم محذرا من البوابة البوق التي تخرج منها الأعلام الصادقة. إذن عليهما ببوابة العاج التي تخرج منها الأحلام الكاذبة. فمن هناك تمكن إنياس من الخروج من العالم السفلي والرجوع إلى سفنه الرابضة. وبذلك لم يسلك نفس مسارات الذهاب، بل كان الإياب مباشرة من منفذ واحد مختلف.

استنتاجات:

إن النص الأسطوري أقصر حجماً من النص الملحمي، وبالتالي فالرحلة الأسطورية أقصر من الرحلة الملحمية، ولكن الفرق بينهما يبقى واهياً:

- فكلّ منهما يتتبع خطى الرحالة عبر مسارات ومحطات.
- تتعدد المسارات والمحطات بشكل كثيف في كليهما.
- تذكر المحطات والمسارات وتسمى بدقة، وتحدد مواقعها.
- يتم وصف فضاءات المحطات والمسارات.
- كلّ منهما فيها اتجاهات مشتركة: فضاء للإنتلاق، للعبور، للوصول (الفضاء الهدف).
- فضاء الإنتلاق: يبدو مغلقاً مليئاً بالألم والحسرة والحزن، يبرحه الرحالة أملاً في العودة إليه، أو فراراً منه، أو يغادره مودعاً لأنه لا يمتّ إليه بصلة، وقد انتهت مهمته فيه، والإنتلاق يكون نحو فضاء معلوم، أو مجهول، أو افتراضي.
- فضاءات المسار: يتخذ الرحالة اتجاهه للعودة، أو الهجرة، أو ذهاباً وإياباً، فيضطر إلى تقسيم الرحلة إلى العديد من المسارات.
- فضاءات المحطات: تتخلل مسارات الرحلة محطات يتخذها الرحالة إضطراراً، أو اختياراً من أجل الراحة والتزود بالمؤن، أو فراراً من العواصف أو الأعداء.
- فضاء الوصول (الهدف): تكون نهاية المسار، وآخر محطة، هي المحطة الهدف التي سعى من أجلها الرحالة الأسطوري/ الملحمي.

- أغلب مغامرات الرحالة (أحداث الرحلة) تكون أثناء فضاء المحطات ونادرا ما يكون ذلك خلال الحركة (المسار)، أو أن حركة الحدث توقف حركة الرحلة (الإنشغال بالمغامرة).

- يتم التأكيد على هوية الفضاءات الثلاث بشكل أقرب إلى الدقة (الإنطلاق، العبور، الوصول)، لأنها تلعب دورا هاما جدا في إبراز هوية الرحالة وشخصيته.

- كان البحر هو الفضاء المفتوح على مصراعيه أمام مرآى ومسمع أوديسيوس وإنياس وياسون والآخرين، ولكن هذا البعد المطلق بلا حدود، كان يصنع الغربة، ويحمل التهديد بالخطر، لحياة الرحلة والرحالة، لذلك كان سعي الجميع نحو الأمكنة المطوقة بحواجز الملكية (العرش) والوجدانية (الأنا/ الأسرة)، فأغلبية الرحالة (الأسطوريين والملحميين لم يخرجوا طلبا للحرية والإنعتاق من فضاءات الإنطلاق، حتى وهي أمكنة مغلقة ومحاصرة بنوعية من إمكانات الحصار، وحتى وهي أيضا أمكنة للأوبة المطلوبة بقوة.

المكان المفتوح في الرحلة الأسطورية/ الملحمية هو فضاء المسار والعبور، واتجاه الحركة ومحطاتها لأن كل المسارات والمحطات تحتوي على منفذين، باب للدخول، وباب للخروج، ونية الاستقرار غير واردة، بينما فضاء الإنطلاق والفضاء الهدف هما فضاءان مغلقان ومؤطران ولو بأسوار ذهنية يبننها الخيال ويقيم دعائمها الوجدان.

إن قوة المكان الهدف (المحطة الأخيرة/ الفضاء الهدف) تكمن في أنه يرحل مسافرا في قلب الرحالة، ويظل ينشط الدورة الدموية فيه، هو مكان يحمل طاقة وسحر الأسطوري، فالرحالة يضرب عصافيرين بحجر واحد: يستغل كل الأمكنة التي يمر بها ويجتازها ويسلبها امتيازاتها وخصوصياتها، هو المسلوب أمام سلطة الوطن القاهرة.

- البطل فرد قيادي لنفسه، ولعصبية من رفاقه، وهو ملك المدينة (جلجامش) أو مشروع ملك (ياسون...) وتكون المدينة فضاء للإطلاق فهي ضمن الفضاء الأخضر (طروادة). أو تكون فضاء للمسارات والمحطات فهي ضمن الفضاء الأزرق عادة (قرطاجة). أو تظهر فضاء للهدف فهي داخل الفضاء الأخضر أيضا الذي يكون وطننا (إيتاكة) أو يدعو للإستيطان (إيطاليا).

الفصل الثالث

الزمن في الرحلة الأسطورية والرحلة الملحمية

المبحث الأول: الزمن في الرحلة الأسطورية.

أولاً: الزمن في الرحلة الأسطورية في عالم الأحياء.

ثانياً: الزمن في الرحلة الأسطورية في العالم الآخر.

المبحث الثاني: الزمن في الرحلة الملحمية.

أولاً: الزمن في الرحلة الملحمية في عالم الأحياء.

ثانياً: الزمن في الرحلة الملحمية في العالم الآخر.

المبحث الثالث: وسيلة حركة الرحلة.

أولاً: وسيلة الرحلة الأسطورية.

ثانياً: وسيلة الرحلة الملحمية.

الفصل الثالث: الزمن في الرحلة الأسطورية والرحلة الملحمية:

المبحث الأول: الزمن في الرحلة الأسطورية:

مدخل في مفهوم الزمن الكوني: لا يبدو سهلاً أبداً أن نحاول مقارنة الزمن الأسطوري (الزمن البدئي/ الزمن المقدس) بنظيره الزمن الدنيوي (الزمن التاريخي/ زمن الحياة)، لأن الأسطورة أنشئت وفق ظروف وأفكار خاصة، فبقدر ما أحاطها جنون الإبداع وجمالياته، وخيالاته، بقدر ما طوحت بها رهبة الاعتقاد في ملكوت عظيم لا توطئه حدود الجغرافيا ولا الزمن، وفي هذا السياق يقول فراس السواح: "عندما كنا صغاراً، كان أستاذ الجغرافيا يحدثنا عن نظرية لابلاس في نشأة الكون وتشكل العوالم من الكتل السديمية الأولى وتحولاتها، وكنا في جدال دائم حولها وخصام، قال البعض إنها هراء يتعارض والكتب المقدسة التي تقول بخلق السماوات والأرض في ستة أيام، وقال آخرون إننا في عصر لا نستطيع فيه غض الطرف عن الحقائق والمكتشفات العلمية... وأذكر أنني مضيت إلى أبي يوماً أسأله كيف خلق الله العالم في ستة أيام، والعلم يقرر أن الكون قد تشكل ببطء عبر مليارات السنين؟... فتح القرآن الكريم فقرأ لي بضع آيات أذكر منها:

﴿يَذِئْبُ اللَّامِرُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ



﴿تَعْرِجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۖ﴾

ثم قال: ما طول اليوم الواحد من تلك الأيام الستة التي خلق فيها الله الكون؟ أكان ألف سنة مما تعد، أم خمسين ألف سنة، أم عدداً آخر من السنين لا يعرفه إلا الله؟... مرت الأيام، وعرفنا أن

نظرية لابلاس لم تعد صالحة لتفسير النشأة الأولى، وأن نظريات أخرى قد حلت محلها⁽¹⁾ ونحن بصدد معالجة شيء من زمن الرحلة الأسطورية، وزمن الرحلة الأسطورية في النص الملحمي، سنحاول التقريب بين المسافتين الفاصلتين بين زمن النص الأسطوري الذي يحاول أن يتعالى فوق الأزمنة، والزمن الرحلي الذي تصنعه أنفاس الرحالة وخطواته وهو يسعى داخل بيئة الإنسان المكيف مع وجوده الجديد، وعلى هذا الأساس ظهرت نظريات كثيرة تحاول الإقتراب من تفسير الأساطير، ومنها النظرية التاريخية التي بها نجد أنفسنا داخل إطار الزمن المألوف والأحداث الطبيعية. وهكذا يحاول البحث في هذا الفصل أن يلقي ضوء ولو بسيطاً على كل ما له علاقة بالزمن الأسطوري، والزمن الملحمي، وحتى زمن ما قبل النص، أو الأجواء التاريخية لظهور النص:

- المفهوم الأسطوري للزمن عند مطلع كل حضارة في تلك الحقب البعيدة.
- موقع النص من زمنه الميثولوجي، زمن ما قبل النص.
- الزمن الذي يصنعه الراوي/ الشاعر.
- الزمن الذي يعيشه البطل.

أولاً: الزمن في الرحلة الأسطورية في عالم الأحياء :

1- الزمن في الرحلة الأسطورية في عالم الأحياء في أساطير العراق القديم:

تقع الأحداث التي تقصها أساطير التكوين في العراق القديم عند الحد الفاصل بين السرمدية والتاريخ، أي أن الزمن (الكوزموغوني) زمن الخلق الذي يظهر ما دون الخالق إلى الوجود، ومع

¹ - السواح فراس: مغامرة العقل الأولى، دراسة في الأسطورة، سوريا، أرض الرافدين، دار علاء الدين، دمشق، ط13/ 2002، ص 9، 10 (الإستشهاد الأول: سورة السجدة، الآية 5، الإستشهاد الثاني: سورة المعارج، الآية 4).

انتهاء فعل الخلق تغادر هذا الزمن . الكوسموغوني . ويدخل الإنسان وآلهته معا في الزمن الخطي الذي يسير من الماضي إلى المستقبل عبر الحاضر، أي في الزمن التاريخي.

يمكننا أن نميز ثلاث مراحل في التاريخ الذي تكشف عنه الأسطورة.

(1) السرمدية: إن الخالق سرمدى في وجوده.

(2) الزمن الكوسموغوني: أي زمن الخلق والتكوين.

زمن الأصول والتنظيم/ الأزمان الميثولوجية/ مطالع التاريخ: وهنا يعقب فعل الخلق البدئي مجموعة أخرى من الفعاليات المبدعة للآلهة، تنشط في الأزمان الميثولوجية الأولى الواقعة عند جذور الزمن التاريخي، أي أزمان الأصول والتنظيم، وهذه الفعاليات تسجلها لنا الزمرة التي نطلق عليها عادة اسم أساطير الأصول، والتي تعمل على تأسيس وتأصيل كل ما هو قائم، سواء على المستوى الطبيعي أم على المستوى الثقافي.⁽¹⁾ ويزخر تراث بلاد العراق القديم بنصوص كثيرة تمجد اهتمام الإنسان بالحياة والزمن، ومن أمثلة ذلك هذا النص الجميل:

"وحسب رغبة الإرادة الإلهية، تعين الأحكام

منذ الأزمنة الأكثر قدما...

الحياة بكاملها، ليست سوى لمحة بصر،

لم تعط للبشر أيام مديدة، هذا هو

الحال ولا جدل في ذلك

أين الملك ألولو الذي حكم 3600 سنة

¹ - السواح، فراس: الأسطورة والمعنى، ص 92، 93.

أين الملك إيتانا الذي صعد إلى السماء

أين جلامش (العظيم) الذي سعى إلى

الحياة الأبدية مثل زيوسودرا...

أين هم الملوك العظام الذين فيما مضى

وحتى يومنا هذا:

لم تعد الأرحام تحمل مثلهم ولم يولد مثلهم

الحياة بدون بهجة أليست مماثلة للموت...

من أجل يوم واحد من البهجة، هناك

36000 يوم من الحزن.⁽¹⁾

الزمن في رحلة (إنانا): إن المحطات المكانية التي تحدثت عنها رحلة عودة (إنانا) بالنواميس

المقدسة من (إيريدو) إلى (أوروك) ما هي في الأصل سوى محطات زمانية:

- الأب لحظة الغفلة (السكر): يمنح.
- الأب لحظة الصحو (الوعي): يحارب.
- الأب لحظة الهزيمة (التراجع): يبارك.

1- سأل (إنكي) خادمه (إيسموند) : "زورق السماء المحمل بالنواميس الإلهية أين هو الآن؟؟"

فأجابه الخادم: "إن زورق السماء في الميناء الأول على الطريق".

2- عاد يسأله بعد فشل المحاولة الأولى لإسترداده: "أي معيني إسموند! أين زورق السماء

الآن؟"، فأجابه: "إنه في المرفأ الثاني على الطريق".

¹ - الشواف، قاسم: ديوان الأساطير، ج4، ص 441، 442.

(3) - سأل: "أين زورق السماء الآن؟" . أجابه: "لقد دخل لتوه محطة دوما".

(4، 5) - لا يظهر للمحطتين الرابعة والخامسة اسم لكننا نتعرف عليهما من خلال معارك الهجوم والمقاومة، التي حدثت فيهما بين (إنانا) مع خادمتها و(إسموند) خادم الأب مع جنده.

(6) - بعد ذلك نادى (إنكي) خادمه للمرة السادسة: "أي معيني إسموند! أين زورق السماء الآن؟ فرد عليه "إنه على وشك الدخول إلى أوروك".

(7) - أجابه: "إن زورق السماء في الميناء الأبيض".

(8) - "إن المكان الذي قدمت فيه النواميس سوف يدعى بالميناء اللازوردي".

إن نواميس الحضارة وتعاليمها، مثل نواميس الديانة وعقائدها تأتي عبر السماء، والسماء تستعمل لغة الزمن أكثر من استعمال لغة المكان، إن هذه المحطات التي قطعها (إنانا) هي محطات زمنية قطعها (أوروك) لتلحق بالركب الحضاري السومري لبلاد (إيريدو).

إن حضارة الأمكنة (إيريدو... أوروك...) تبنى عبر مراحل وخطوات ومحطات تتشكل مع السنين والعقود والحقب، تكون محفوفة بالشدائد والعقبات، والإنتصار يتحقق بالصبر، والصبر هو سلاح ضد الزمن المؤلم.

إن فرق الزمن يجعل من الأب المانح عدوا، يريد استرجاع هبته بالقوة والعنف، ثم يتحول إلى راض ومبارك:

"لتزدهر أحوال أوروك

ويبتهج صغار مدينتك

ليكن شعب أوروك حليفا لشعب إيريدو

ولتتنبأ أوروك مكانتها العظيمة".⁽¹⁾

بعد زمن تخطى السرمدية والتكوين، ووصل إلى التأصيل والبناء، فكرت (إنانا) في مدينتها (أوروك)، التي كانت فتية ناشئة ومدينة أبيها (إنكي)، مدينة (إيريدو) كانت الأقوى والأجمل والأكثر نماء وفتوة، بفضل ما كان يملكه الأب من نواميس سحرية مقدسة، تضمن للمدينة التفوق والعظمة، لهذا فكرت في الوقت المناسب الذي يحقق لمدينتها كل ما احتكرته (إيريدو) وفي الوقت الذي كانت تجلس ضيفة مبدلة بالشرف والمسرة في إيوان أبيها، كانت تفكر في (أوروك) فقط، إن الأب مسرور جداً، إذن يمكنه أن يشرب نخبا في صحة ابنته، ثم يضيف كأساً أخرى، وأخرى، ويشرع يلبي للبنية الطموح آمالها في استعارة النواميس المقدسة، واحدة إثر أخرى.

لقد استغلت (إنانا) بكل خبث وجشع لحظات سرور أبيها بزيارتها له، فراحت تسقيه خمراً، ليسقي مدينتها مطر الحضارة والنماء، إذ توضح الدراسات التاريخية أن المستوطنات الزراعية لم تظهر في وادي الرافدين الجنوبي، حتى وقت متأخر من الألف السادس قبل الميلاد، فبين أواخر الألف السادس وأوائل الألف الخامس تبدأ المستوطنات الزراعية الأولى بالظهور في هذه المنطقة التي ستدعى (سومر)، وتأخذ بالتشكل ملامح الثقافة، التي عرفت بالثقافة العبيدية، والتي كانت مدينة (إيريدو) أهم وأكبر حواضرها.⁽²⁾

¹ - السابق، ص 125.

² - السابق، ص 126.

استمرت آثار الثقافة العبيدية قائمة منذ حوالي عام 5300 ق.م إلى حوالي عام 3600 ق.م، (قربة ألفي سنة) وهنا بدأ الآثاريون يلتمسون حلول ثقافة جديدة مكانها، دعيت بحضارة (أوروك)، وفي هذه المدينة تم اكتشاف أولى المصنوعات اليدوية التي أُشِّرت إلى بداية هذه الثقافة الجديدة، وكانت (أوروك) أكبر وأهم موقع خلال هذه الفترة التي استمرت إلى حوالي عام 2900 ق.م، وقد استطاعت التنقيبات الأثرية أن تتبع الانتقال الحضاري من مرحلة العبيد حيث كانت (إيريدو) مركز الثقافة في سومر، إلى مرحلة (أوروك) الأولى، عندما تحول النقل الحضاري من (إيريدو) إلى (أوروك)، كما أمكن لعلماء الآثار، تلمس التغييرات الواضحة في النواتج المادية التي أُشِّرت إلى ذلك الانتقال.⁽¹⁾

ومن أهم الملاحظات الأركيولوجية الخاصة بموضوعنا هنا أن مدينة (إيريدو) التي استمرت قائمة خلال فترة جارتها (أوروك)، قد تبنت الأنماط المعمارية والفنية الأوركية الجديدة، أما أوروك التي كانت عبيدية الطابع حتى ذاك الوقت فقد أخذت منذ عام 3600 ق.م بإظهار جميع التقاليد الثقافية التي اصطلح الآثاريون على تسميتها بالتقاليد الأوروكية.⁽²⁾

إن هذا ما أرادت أسطورة (إنكي) و(إنانا) قوله، إذ أن (إنانا) ربة مدينة (أوروك) استحوذت على نواميس الحضارة من أبيها (إنكي) رب (إيريدو) الرئيس، وبانتقال النواميس من هنا إلى هناك غابت ثقافة الأولى لتحل محلها ثقافة الثانية "ونحن هنا أمام حالة فريدة من تطابق مضمون تاريخ مقدس مع مضمون التاريخ الدنيوي، ولكن مع التذكير بأن الأسطورة هنا تبقى

1 - نفسه.

2 - نفسه.

أمنية بالتاريخ المقدس لأنها لا تعطي الإنسان أهمية تذكر في صنع حضارته وتقرير مصيره".⁽¹⁾ ولكن رحلة الحضارة قد حدثت و(إنانا) امرأة صنعت مجدا لمدينتها.

تعطي الرحلة الأسطورية التي تقوم بها (إنانا) من مدينة إلى أخرى بعدا تاريخيا مدروسا بدقة، إذ يلعب الزمن الأسبق دوره أمام الزمن اللاحق، لقد سبقت مدينة الأب مدينة الإبنة في الظهور والنشاط والتحضر، ولقد احتاجت إلى فترة طويلة تكونت فيها أمجادها وقوتها، لكن الشيخوخة قد اعترتها، ودب في أوصالها الوهن، فحان موعد مدينة أخرى، ظهرت لاحقا واحتاجت إلى فترة حتى تمتص تراث وتقاليده المدينة الأب.

(أوروك) مدينة الرحالة الأنثى، التي تبني وتشيد وتحقق الكثير من التفوق، والتطور باستيراد نواميس الحضارة من جارتها، بالتحايل والقوة والتراضي. ربما كانت رحلة الأنثى تالية، ومتأخرة عن رحلة الأب الرجل، ولكنها تستطيع كسب الوقت وتحقيق النمو، والمستقبل هو الذي ينتصر على الماضي في النهاية، إن الأب (الحضارة الذكورية) هي الماضي، والمعركة هي الحاضر، والإبنة (الأنثى/ الأمومة) إذ تصير شريكا في بناء المستقبل، وإعمار الأرض، ونص هذه الرحلة الأسطورية، بقدر ما أرخ لما كان فهو نص يتنبأ بالآتي:

- يتحين الملوك فرص الإنقضاض على بعضهم.
- تتحين المدائن فرص الإستحواذ على بعضها.
- إن لكل مبادرة زمن مناسب (الزيارة، الذكاء، المطاردة، العنف، الحمى، الأهazيج).
- إن كل شيء يبني لبنة لبنة، والحضارة أيضا تتم عبر مراحل ومحطات.

¹ - السابق، ص 127.

ويبدو أن كل الحضارات قد مرت بالنهج نفسه، خصوصا مساهمة الحضارة الأصلية في إنشاء مدائن وحضائر أخرى، وهي غافلة عما يمكن أن تسببه هذه المدن الناشئة من خطر، بعد استكمال نموها، وتضطر للدخول معها في حروب طويلة مستميتة في الدفاع عن كيائها قبل أن ترفع رايات الإستسلام أو الهدنة، وتباركها عسى أن يكتب لهما التعامل الجيد وتبادل المنافع في مستقبل الأيام بينهما خدمة لأمتيهما، ونجد هذه الفكرة متداولة بكثافة في أساطير الشرق القديم (بلاد الرافدين) وعلى مستوى موضوعات رحلة المدينة إلى مدينة أخرى، عن طريق رموزها (المقدسات/المعبودات)، وكل هذا يقع في الزمن الأسطوري الأول.

2- الزمن في الرحلة الأسطورية في عالم الأحياء عند المصريين:

مدخل: الواقع أن الكثير من العلماء قد اعتبروا الأسطورة في منشئها حادثة أو مجموعة من الأحداث التاريخية الهامة، التي تحولت في مخيلة الإنسان القديم إلى أحداث خارقة للمألوف، وربطت بالدين ومن ثمة خلع أبطالها رداءهم البشري وأصبحوا أربابا "ومن ذلك تفسير العالم الألماني الشهير كورت زيتة للأسطورة الأوزيرية التي تزعم أن الخالق أتوم انبثق من محيط مياه أزلي فوق ربة عالية وخلق الهواء والرطوبة (تسو وتغنوت) ومنهما جاء زوج ثان الأرض والسماء (جب ونوت)، ومنهما جاء زوجان، أوزيريس وإيزيس، وست ونفتيس، وجعل جب (الأرض) ابنه أوزيريس ملكا على البشر الذين خلقوا من دموع أتوم، وعلم أوزيريس البشر فنون الحضارة والزراعة فأحببه شعبه وحنق عليه ست الذي دبر مؤامرة دنيئة للقضاء عليه، واغتصب ملكه بعد أن قتله ومزق أوصاله. رأى زيتة وغيره من العلماء في أحداث تلك القصة صياغة أسطورية لوقائع تاريخية دارت في عصر ما قبل التاريخ السابق لوحدة الملك مينا (نعرمر) في مستهل الألف الثالث قبل

الميلاد، وزعم أنها تصور صراعا بين مملكتي الدلتا والصعيد واعتبر ست ملكا للصعيد وأوزوريس ملكا للوجه البحري وأن مصرع أوزوريس هو غزوة ناجحة أخضع بها الجنوبيون أهل الدلتا، وأن انتصار حورس النهائي هو تنويع لكفاح أهل الشمال وانتصارهم على الجنوب وإخضاعهم لسائر أنحاء الوادي لحكمهم في الألف الرابع ق.م ورده البعض إلى صراعات وحروب أهلية في الأسرة الثانية أو الثالثة".⁽¹⁾

- الزمن الأسطوري في رحلة خنسو: مرضت الأميرة (بنت . رشت) ابنة (خاتوسيلي) أمير مملكة (بختن) الحثية، ولأنها شقيقة (نفرو . رع) زوجة رمسيس الثاني، فقد أرسل أبوها يطلب المساعدة من حكماء مصر الذين فشلوا في علاجها، فترجى الأب الملتاع فرعون مصر أن يرسل "بإله يستطيع التغلب على هذا الروح الشرير فحمل الإله (خنسو) منفذ المشاريع الذي يطرد الأرواح الشريرة في سفينة كبيرة تحرسها خمسة قوارب نيلية، ولما وصل مملكة (بختن) وشفيت الأميرة احتفظ به الأب احتياطاً، حتى رأى رؤيا تحثه على إرجاعه، ففعل على جناح السرعة.

نلتمس كثافة الاستعمال للفظ الدال على الزمن في هذه الرحلة الأسطورية العجيبة، التي بقدر غرابتها تبدو معقولة جداً وطبيعية، فلقد أرسل القوم (المصريون) صنما (إلها) إلى مملكة أخرى (بختن في بلاد ما بين النهرين)، ثم أعادوه.

الزمن الأول: طلب يد المساعدة الطبية للأميرة المريضة من حكماء مصر، "وحدث في العام الثالث والعشرين، في اليوم الثاني والعشرين، من الشهر الثاني، من الفصل الثالث أن كان جلالته في مدينة طيبة القاهرة، سيدة مدن مصر... لقد حضرت أي مولاي من أجل (بنت . رشت)... فهل

¹ - رندل، كلارك: الرمز والأسطورة في مصر القديمة، تر/ أحمد صليحة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1988، ص 3، 4.

لجلالتكم أن تتفضلوا بإرسال أحد حكمائكم ليفحصها؟".⁽¹⁾ ويقوم الملك بإرسال حكيمة (تحت إمام حاب) الذي يجتهد في طريق الرحلة، التي تكوّن نصّ أسطورة رحلية هي الأخرى.⁽²⁾

الزمن الثاني: طلب يد المساعدة المعنوية بإعارة مجسم الإله "ووصل رسول الأمير إلى الملك في العام السادس والعشرين، الشهر الأول من الفصل الثالث، في موعد الإحتفال بآمون وكان الملك في طيبة".⁽³⁾

الزمن الثالث: وصول المجسم (تمثال الإله) "ووصل هذا الإله إلى بلاد (بختن) بعد رحلة بلغت عاما وخمسة شهور".⁽⁴⁾

الزمن الرابع: مدة مكوث المجسم المصري لدى مملكة (بختن)، "واستقر المقام لهذا الإله في بختن مدة ثلاثة أعوام وتسعة أشهر.

الزمن الخامس: عودة مجسم خنسو إلى موقعه في معبده، "ونزل خنسو منفذ المشاريع بسلام وسعادة إلى معبده في السنة الثالثة والثلاثين من اليوم التاسع عشر، من الشهر الثاني، من الفصل الثاني من حكم ملك الشمال والجنوب (أوسر . معات . رع . ستب . إن . رع) معطي الحياة مثل (رع) إلى الأبد".⁽⁵⁾

¹ - عادل، أيمن: أشهر الأساطير الفرعونية، ص 63.

² - ناردو، دون: الأساطير المصرية، تر/ أحمد السرساوي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1/ 2011، ص 99 إلى 103.

³ - السابق، ص 64.

⁴ - السابق، ص 65.

⁵ - السابق، ص 67.

خلاصة:

- دامت حوادث القصة عشر سنوات من سنة 23 إلى سنة 33.
- دامت رحلة خنسو من عام 26 إلى عام 33، أي حوالي سبع سنوات.
- يبدو أن هذه الرحلة كانت ذات أهمية بالغة جدا في حياة المصريين القدماء وأهل المعابد منهم خاصة، فقد قدروا لها وعدّوا زمنها ودوّنوه باهتمام واحترافية مدهشة.
- ورغم أن "الإله الرحالة . المجسم" قد غاب أمدا طويلا إلا أنه قد وجد من يحتفي به عند عودته، ويعيده إلى ركنه، وكأنه لم يتحرك من مكانه أبدا.
- وتظل هذه الروزنامة شاهدة دائما على هذه الرحلة وعلى أهم محطاتها، وأن المصريين القدماء كانوا كثيرا ما يتبادلون الرحلات بين جيرانهم وأصهارهم في إمارة (بختن) وغيرها من ممالك ما بين النهرين، وحتى إلى أماكن أخرى (رحلة خرخوف إلى مجاهل إفريقيا).
- المغزى الأسطوري للزمن في أسطورة إيزيس ورحلاتها:** لقد قدس المصريون القدماء الزمن إلى أبعد الحدود، وحاولوا معاشته بوعي كثيف فظهر عزيزا وغزيرا في إبداعهم الأسطوري، ومن أروع هذا التجلي أسطورة (رع/ قارب رع/ منعجت ليلا) وكذا أسطورة ميلاد (إيزيس) وإخوتها.
- حين شعر الجد (رع) أن ذرية قادمة من صلبه ستتسبب في صراع شديد على عرش العالم، منع حفيده (نوت) من أن تتجب أطفالا خلال أيام السنة الثلاثمائة والستين (360 يوما)، وكان هذا هو عدد أيام السنة آنذاك. فتحايلت (نوت) مستعينة بحكيم العلوم واللغات (تحت) على (سيلينا/ القمر) التي تعكس ضياء (رع/ الشمس) ليلا. فخسرت (سيلينا) رهانا مع (تحت) يقضي أن تمنحه حزما من نورها إن تغلب عليها، وهكذا جمعت (نوت) ما يغطي خمس ليال قمرية، وأضافتها إلى

بداية ونهاية كل سنة شمسية (5 + 360). فتمكنك من إنجاب أطفالها الخمسة دون عقوق جدها، وبقيت السنة القمرية (سيلينا) تعاني من آثار هذه الخسارة، إلى يومنا هذا، فلا تملك القدرة على الإشعاع بنفس الطاقة طوال الشهر.⁽¹⁾

3- الزمن في الرحلة الأسطورية في عالم الأحياء عند الفرس:

الزمن الأسطوري في رحلة الإسكندر: تولى الإسكندر العرش وهو بعد فتى يطرق باب الشباب، ولم تكن مملكته بسيطة، هادئة تسكن تحت ظل دوحة كبيرة، بل كانت هي الدوحة الكبيرة التي يستظل بفيئها الكثير، كانت مملكة مسافرة بين العالم شرقا وغربا، وتمتد جنوبا وشمالا، لذلك قام الفتى . وهو بعد لم يعرك الزمن ولم يعركه . إلى الحياة ومعاركها، فقفز التلال والجبال، والبحار والوديان، من أرض إلى أخرى، يحقق الأمجاد لأمتة ويحافظ على ذكر أبيه، وذكره.

قام الفتى الإسكندر إلى الحياة يحيها بسرعة قصوى، في مراطون كبير مع الأيام، إذ لم يكن للسنين تعداد في حياته القصيرة، لقد قرر أن يجعل من العالم صفحات قليلة تملأ، وتكتب، وتقرأ في مدونة صغيرة اسمها رحلات الإسكندر الأكبر ومغامراته.

لقد كانت فتوة الشباب المضمومة في صدره، وعقله، وعضلاته هي التي ضاعفت مجهوده ونشاطه في رحلة حربية وسلمية، رحلة الفتوحات والإكتشافات، وهكذا كان مقتصدا جدا في عامل الزمن، مستهلكا جدا للأمكنة الشاسعة، بدون حساب أو تمهل، أو تراجع.

¹ - حامد، إسماعيل: موسوعة الأساطير الفرعونية، ص 105.

الزمن هو الحياة في فلسفة الإسكندر، فكثيرا ما أثر السلم، والصلح، لكي يكسب المزيد من الحيات لمعسكره وللإنسانية. لأن حياة الجميع تمدد حياته نحو المعرفة والإستكشاف والبحث. فهو يتخطى الحروب ويتجاوز المعارك كسبا للوقت وللأرواح التي تصنعه. فالمكان الخالي، الفارغ من الحياة هو مكان لا أثر للزمن فيه فلا يظهر ماضيه ولا حاضره، بله مستقبله.

ولكنه في الوقت نفسه كان يختار الحروب ويجنح لها، إن رأى بعين الآتي أنها تقضي إلى الخير وتقضي على الشر، وعلى أعداء الحياة وسيرورتها، ومستقبلها.

لقد استثمر الإسكندر الكبير في رحلته كل فصول السنة، فلم يكن يعيقه برد ولا حر، كما أنه سافر آناء الليل وأطراف النهار. وفي الضحى وحر الهجيرة.

إذ كانت تربيته وإعدادة إعدادا لهذه الظروف وهذا الزمن واختزل فيه مكنونه، وأسائذته الشيء الكثير من الوقت فصار رجلا، بطلا محنكا، خبيرا، بينما مازال أقرانه يلهون ويعبثون في ساحة المدينة على أبعد تقدير، ومن مفارقات نظرتة إلى الزمن والحياة هو نذره حياة الخلود -لو منحت له- للعبادة فقط، فحياته على قصرها كان يكافح باجتهاد ليل نهار من أجل استثمارها في الكثير جدا من الأعمال، وفي كل بقاع الأرض، بينما اكتشف أن الخالدين لا يسعهم سوى عبادة الله أبدا، فهذا هو الفعل الوحيد الذي يمكن أن نشكر به الله على نعمة الحياة والوجود.

ورغم أنه التقى في رحلته بمن تنبأ له بالموت القريب، ورغم جزعه الشديد من هذا القول إلا أنه لم يركن إلى اليأس والقنوط، بل واصل رحلته بهدوء، فالزمن الحي هو زمن الأحياء وليس للأموات زمن، وربما كان للمرضى والمعلولين زمن بطعم آخر، وهاهو ذا الإسكندر العليل بوهج الحمى يخطط لمسار رحلة الإياب ليسرق من مماته فترة يسد بها حاجته إلى فترة أطول تمدد زمن الرحلة،

وهكذا يكون الملك الوحيد الذي لم يجلس من الوقت على عرش بلاده، بقدر ما جلس على شعر جواده، والملك الوحيد الذي أدار شؤون مملكته وهو في رحلة أدارت به الدنيا شرقا غربا.

4- الزمن في الرحلة الأسطورية في عالم الأحياء عند الإغريق:

خرونوس/ كرونوس الزمن⁽¹⁾:

زعمت أساطير الإغريق أن كرونوس كان ابنا للسماء (أورانوس)، وأنه ثار ضد أبيه، واستولى على العرش، ثم خشي أن يثور أبنائه ضده، فقرر أن يلتهم كل ابن له فور ولادته، وقد فسر بعضهم هذا الإلتهام وهذا المصطلح الذي سيطلق على مفهوم الزمن بأنه جاء من مرجعية هذه الأسطورة، فالوقت رويدا رويدا "يطوي كل شيء"⁽²⁾ وابتلع كل دقيقة يصدرها لنعيشها ثم تنتهي بسرعة، وينتهي معها الإنسان مهما طال أمده، إلا الزمن فهو باق في ديدنه.

لقد لاحظ (هيزيود) وهو يؤرخ للأزمنة الأسطورية التي عاشتها الخليقة، أن الكون قد مر به عدد من الحقب، وكان دائم الشعور بأن الماضي الذي تكتنفه الأجواء الأسطورية هو الأفضل:

أ - العصر الذهبي: يمثل جيل البشر الأول. وكان جيلا سعيدا في عهد (كرونوس) سيد السماء.

كان الناس يعيشون بدون مشاغل ولا أعمال ولا أحزان ولا أهواء ولا أسقام، فإذا ما جاءهم الموت

¹ - شعراوي عبد المعطي: أساطير إغريقية، ج2، ص 22.

² - حاتم، عماد: أساطير اليونان، ص 54 (الهامش).

بعد عمر مديد جاءهم شبيها بحلم هانئ رقيق. فصاروا أرواحا ترعى أبناء العهود التالية وتنتقل مجللة بالضباب لتصون الحق.⁽¹⁾

II - العصر الفضي: كانوا يقلون قوة وفطنة وطفولتهم تمتد مائة عام يقضونها في ديار الأمهات فلا يغادرونها إلا رجالا ثم تنطوي حياتهم بسرعة لم يكتمل رشدهم، ولم تكتمل سعادتهم، فكانت تنخر حياتهم الهموم والمصائب والمحن كما لم يكونوا أتقياء فحشرهم زيوس في ظلمات العالم السفلي حيث يعيشون بعيدين عن المسرات والأحزان والناس يجلونهم أيما إجلال⁽²⁾

III - العصر النحاسي: نشأوا من سنان الرمح، فكانوا أشداء عتاة متعجرفين وكانوا يعيشون الحروب المليئة بالفواجع، ولم يفلحوا الأرض. وبالنحاس الذي كانوا يهتمون بأبادوا بعضهم بعضا بعد عهد غير طويل، وساقهم مارس إلى حيث لا تنفذ أشعة الشمس.⁽³⁾

IV - العصر الرابع (العصر البرونزي): جاء الجنس البشري الذي امتاز أبناؤه بحب الخير والإنصاف، وذهبوا جميعا إلى ساحات الوغى الطاحنة والمعارك الدامية الرهيبة، فقضى قسم منهم أمام بوابات طيبة السبع دفاعا عن عرش أوديب في بلاد قدموس، وقضى قسم آخر على مشارف طروادة وهؤلاء جعلهم (زيوس) يسكنون فوق الجزائر السعيدة قريبا من مياه "أوكيان" الشجاجة ويعيشون حياة هائلة سعيدة⁽⁴⁾ وهذا هو العصر الذي تحدث فيه كل الأساطير الإغريقية.

1 - السابق، ص 149.

2 - السابق، ص 150.

3 - نفسه. ويطلق عليه عبد المعطي شعراوي العصر البرونزي، بينما يطلق على العصر الذي يليه: العصر البرونزي الآخر، أو النحاسي.

4 - السابق، ص 150، 151.

٧- العصر الخامس الحديدي: وهو العصر السائد وفيه غرق البشر في الأحزان والأعمال ليل

نهار، وقل الضمير والعدالة وتغلب الغرور والجشع.^(١)

1- الزمن في رحلات هرقل:

الرحلة الأولى: ومضى توا إلى الجبال ليبحث عن مريض الأسد، فأدرك سفح الجبل وقد انتصف النهار، لكنه لم يقع على أحد من الأحياء الذين كانوا قد هجروا المكان فرارا من وجه الأسد الكاسر، وبحث هرقل طويلا عن عرين الوحش بين صدوع الجبال المغطاة بالغابات وداخل حنايا الكهوف، ولكنه لم يجد شيئا، حتى مالت الشمس للمغيب، ثم ظهر الأسد الرهيب وقد خيم العصر...^(٢)

لقد كان التركيز في الرحلة الأولى على بعض الظواهر الطبيعية الدالة على الوقت (انتصف النهار، مالت الشمس، المغيب، العصر) وهذا ما يدفع المستقبل لقصة الرحلة سواء قراءة أو إصغاء يتماهي مع المشهد المثير للمطاردة والترقب، ثم المعركة الرهيبة، وتلعب الظاهرة الزمنية دورها في تتبع خطوات الرحلة التي دامت نهارا كاملا، وكيف استمات البطل في الصبر والعزيمة دون كلل أو تراجع، بل مضى توا... وبحث طويلا فلم يكن يهمه توقيت الإجهاد على خصمه، فهو لم يتحرر صباحا ولا عشية، بل ترك ذلك لقدره، ولأنه "يصبح المكان مرجعا مذوتا حينما يتم تناوله في سرود مباشرة من خلال مشاهدات الراوي أثناء الإنتقال والتوقف في زمن الرحلة".^(٣)

¹ - السابق، ص 151.

² - السابق، ص 227، 228.

³ - حليفي، شعيب: الرحلة في الأدب العربي، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1/ 2006، ص 343.

الرحلة الثالثة: "كان لتلك المهابة قرنان ذهبيان وقوائم نحاسية، وكانت ذات جمال لا يجارى تنتقل فوق الجبال والوهاد سريعة كالريح لا تعرف الكلل، فظل هرقل يلاحقها مدة عام بكامله"،⁽¹⁾ "ظل عاما كاملا يتجول من أقصى بلاد الإغريق إلى أدناها"⁽²⁾

*هل يمكننا أن نتصور رحلة صيد دامت سنة بطولها؟! هذا ما حدث لـ (هرقل) وهو يحاول الإمساك بأيلة جبل سيرينا حية وقبل أن يتمكن من القبض عليها على ضفاف نهر (لادون)، ولم يثنه عدوها السريع، ونطها الخفيف من مكان إلى آخر حتى جالت به أرض البوليبيونيز كاملة، وربما تخيل نفسه أَيْلا مثلها! لا شيء أمامه أو ورائه غير العدو في إثرها، وملاحقة ظلها، وطيفها، ظل سابحا مثلها في الزمان، فلم يعد يعنيه الصباح أو المساء، لا الليل ولا النهار، لا الربيع ولا الشتاء... كانت المهابة السحرية هي عقارب الساعة التي ينظر إليها ويتأمل حركتها وتنتقلها، كانت هي وجه الشمس الذي يعرف منه المشرق والمغرب، وكانت هي النجوم التي يعلم بها الشمال والجنوب...

حتى وقعت في يده وعاد بها إلى سيده!، ذلك السيد الذي ما هَمَّه أسرع هرقل في إنجاز ما طُلب منه أم أبطأ. كانت شخصيته الضعيفة تلغي هرقل من وجودها فور اختفائه عن ناظرها، كانت تختفي وراء الزمن الذي يغيب فيه هرقل بضآلتها وسوء حظها من الحياة، أما إذا حضر البطل الضخم اختبأت داخل القدر النحاسي الغليظ الذي صنعت له لنفسها اتقاء لهيبته وطلعتة المؤثرة. وخوفا من صيده الرهيب.

كان هرقل يجدُّ بالعودة بعد كل رحلة، ليجر من جديد وحتى يتخلص من حمولة ما تراكم عليه من ديون، بينما كان خصمه (يوريثيوس) يراهن على زمن غيابه ورحيله حتى يحس بالانتعاش ونسائم

¹ - حاتم، عماد: أساطير اليونان، ص 231.

² - شعراوي، عبد المعطي: أساطير إغريقية؛ أساطير البشر، ج1، ص 410.

الحياة فحضور هرقل كان يرهقه ويؤلمه، لذلك سرعان ما يملئ عليه مسودة الفرض الجديد المتمثل في رحلة أخرى.

الرحلة الثامنة: رحلة العودة: كان لـ "ديوميد" ملك "تراقيا" أفراس لا مثيل لها في القوة والجمال ولكنها مربوطة في حضائرها بالسلاسل الحديدية لأنها تقتات بلحوم البشر من الغرباء، فقصده هرقل وثلة من أصحابه لترويضها، فأخضعها وقادها إلى سفينته، وفي طريق عودته عنَّ له أن يزور صديقه الملك (أدميت)، فاختار له القدر توقيتاً عصيباً على المضيف الذي كان عليه أن يفجع بزواجه في ذلك اليوم، لأنها هي الوحيدة من بين الجميع التي قررت أن تذهب بدلاً عنه إلى مملكة (هاديس) الموحشة، "إذن فلتشرق الشمس من أجلك أدميت" ويدخل هرقل المدينة وقد تهيأ القوم لحمل الجثمان، فيخفون عنه أمر مصيبتهم، حتى لا يقصروا في حق ضيافته، ولكنه فطن للأمر فشدد على أحد الخدم حتى أخبره أن سيدتهم قد فارقت الحياة منذ قليل، "أيها الغريب لقد انتقلت زوجة أدميت اليوم إلى مملكة (هاديس)، اغتم هرقل واعتصرت قلبه الأحزان، ولكنه أسرع نحو قبر الملكة (الكستيدا) وانتظر نزول (تانات) ملك الموت إلى القبر فوثب وانقض عليه، فالتفت ذراعاً (تانات) المعروفتان حول صدر (هرقل) وراحتا تعصرانه بينما أخذت أنفاسه الباردة تنزل على البطل وراحت أجنحته تتشر برودة الموت حوله، وبرغم ذلك أطاح البطل المجيد بخصمه وأوثق يديه، وطالبه أن يفندي نفسه بإعادة الملكة فامتثل... فرجاه الصديق الممتن بعمق أن يمكث ليكرمه، فاعتذر لأن عليه أن يسرع بالعودة ليوصل رحلاته.⁽¹⁾

لقد اختار القدر لهرقل موعداً مهماً جداً تمكن فيه من إنقاذ حياة زوجة صديقه، ورب صدفة خير من ألف ميعاد، ولقد أنجز عملاً معجزاً بسرعة وفي وقت وجيز وتظهر هذه الرحلة مدى تقديس هرقل

¹ - حاتم، عماد: أساطير اليونان، ص 236 إلى 241.

لوقت فهو يفكر بسرعة، ويقرر بسرعة، وينفذ بسرعة، ثم يعود إلى مهمته الأولى بسرعة أيضا. إن الحياة زمن قصير مهما طال أمده، وهي زمن عزيز جدا على صاحبه يستحيل أن يفترق به آخر.

لقد رضيت الملكة الشابة أن تفتدي زوجها في حياتها حبا فيه، ولأن قلب الأم حدثها بحاجة طفليها إلى أبيهما في رهن أيامهما، وفيما تبقى لهما من زمن الطفولة أكثر من حاجتهما إلى حنانها، فإن فقدان الأب في هذا الوقت بالذات قد يفقدتهما حقهما في المملكة، والتاج، ويجمع الطامعين والمتآمرين، فقررت ربها للوقت، أن تموت بدلا عنه. فيوفر بحياته حياة كريمة لطفليها وزمنا آمنا أرحب.

- إن زيارة الأصدقاء عملة نادرة إن سنحت الفرصة فيجب أن تسرق من الزمن هذه الأوقات التي تزرع السعادة في نفس الضيف والمضيف خاصة وقت الضيق.
- إن تتبع مغامرات هرقل تمكن من الملاحظة بشكل دقيق أن الرحلات الأسطورية التي قام بها قد اعتنت بتقديس عامل الوقت إذ كانت تظهر فيها من حين لآخر كلمات وألفاظ خاصة بالمعجم الدلالي للزمن.
- فإن طال أمده في رحلة فهي الشهادة له بأنه الصبور المجالد القوي العزيمة الذي لا ييأس فلا يتراجع.
- وإن قضاها بسرعة وفي أقصر أمد فهي الشهادة له بأنه القوي السريع النشط، ونقف في مجمل رحلاته هذه وفي غيرها على كونه يحرص أحيانا على إنجاز المهمة بأقصر وقت ممكن للعودة بسرعة للانطلاق من جديد في رحلة جديدة، بينما يحرص في أحيان أخرى على القيام بأعمال تطوعية تستهلك منه وقتا إضافيا. حتى وإن أرجأ مهمته الأساسية إلى وقت لاحق فهو بطل اجتماعي يشير بضرورة مشاركة الآخرين ومساعدتهم.

2 - الزمن في رحلة تيسيوس:

قيل بأنه قد ظهرت أسطورة (تيسيوس) في القرن الخامس قبل الميلاد لتعمل للدعاية لمدينة أثينا، أي لتضيف إليها العراقة السياسية التي كانت تنقصها، إذ لم يبرز دور أثينا الحضارة بشكل واضح ضمن فعاليات الحضارة الموكينية، كذلك لم يبرز دورها السياسي واضحاً في التراث الأدبي المبكر كالإلياذة والأوديسة، فهوميروس يذكر مشاركة زعمائها في حرب طروادة باقتضاب شديد، وذكر بعض أسمائهم دون أن يفصل في إنجازاتهم وبطولاتهم، وهذا يعني أنها كانت خلال الألف الثاني قبل الميلاد مدينة عادية لم تؤدّ دوراً مميزاً في العالم اليوناني سياسياً أو حضارياً.

ترمز رحلة (تيسيوس) الأثيني إلى كريت للقضاء على وحشها إلى الإشارة إلى أن (كريت) (الحضارة المينوية) ظلت فترة طويلة من الزمن أقوى وأعلى شأنًا من الحضارة الناشئة الوليدة (الموكينية) في بلاد اليونان، ثم بدأ التمرد على التفوق (الكريتي) والإعتراض على مدّه، وكانت أثينا وفق أسطورة رحلة (تيسيوس) هي صاحبة الريادة في التصدي لهذا المدّ الكبير نيابة عن جميع بلاد الإغريق، ودفعت هي وحدها - في النهاية - ضريبة هذا الموقف دون بقية الإغريق الذين تصالحوا مع الكريتيين (ضريبة الشباب الذين كان يلتهمهم المينثور وسينقذهم الرحالة تيسيوس)، ولكنها أيضاً ترمز إلى التأثير الأثيني بالحضارة الكريتيّة، وتعلمهم منها الكثير (الفتاة الكريتيّة تعلّم الرحالة الأثيني كيفية الخروج من متاهة اللابرينت)، وهذه الفترة استمرّت فيما يبدو قرابة القرنين من 1600 إلى 1400 ق. م، في بدايات نهضة الحضارة الموكينية في العصر الهلادي الأول والثاني، وخلالها أصبح منحى حضارتها في صعود، في حين كان منحى الحضارة الكريتيّة في هبوط (القضاء على المينثور، وفرار الفتاة ابنة القصر من مملكتها والتّخلي عنها وحيدة في جزيرة دايا النائبة، والرحالة يعود بالانتصار إلى اليونان/ أثينا).

وهكذا فإن أسطورة رحلة (تيسوس) إلى كريت تعتبر إمتداداً للكفاح الأثيني ضد التّدخل الأجنبي في الشؤون اليونانية، وينسب إلى أثينا الدور الكبير في الإجهاز على خصوم الإغريق.⁽¹⁾ كما ارتبط المكان بمسارات زمنية متنوعة بين الماضي والراهن، بمختلف تلويناتها الإحالية (التاريخي، المقدس، الاجتماعي، الحضاري...) وأيضاً المستقبل، والإرتباط باليوتوبيا والحلم.⁽²⁾

5- الزمن في الرحلة الأسطورية في عالم الأحياء عند الرومان:

مدخل: عصر الأساطير الرومانية:

العصر الذهبي: ولد سكان إيطاليا الأوائل من أشجار البلوط...

ولما شبّ (جانوس) ابن (أبولون) بنى المراكب وتوجه إلى إيطاليا، فكان أول ملك على شعب اللاتيوم" (الشعوب الأصلية). وكان ساتورن" يحكم العالم، ولم يكن الناس يعرفون الثروة ولا الفقر، ولا الملكية، ولا الحسد ولا الحرب، ولا السلاح...

ثم لما أطاح (جوبيتر) بأبيه (ساتورن) فر إلى إيطاليا التي كانت تعرف بـ(جيسيريا)، وملكها (إيتال) الذي أصبحت تحمل إسمه.

¹ - محمد، عبد الغني محمد السيد: نظرة الأثينيين إلى الأسطورة، ص 27.

² - حليفي، شعيب: الرحلة في الأدب العربي، ص 344.

وقد حاول (سيكول) السيطرة على إيطاليا فطرد إلى الجزيرة التي حملت اسمه (صقلية)، وهنا علم (ساتورن) الإيطاليين الزراعة وصناعة المراكب وصك النقود، ثم انفصل (بيكوس) عن أبيه (ساتورن) فأسس (لافرينتي)⁽¹⁾

عصر الحروب: أفلت شمس العصر الذهبي وحلت الحروب التي شارك فيها بيكوس بنفسه، الذي استعمل العربات، والبلطات، والخوذات، والرماح، والتروس... وكان مغرماً بترويض الخيول والصيد حتى مسخته الساحرة (سيريسيا) طائراً (نقار خشب) فخلف (فونوس) أباه (بيكوس) في الحكم، وفي عهده جاء (إيفاندر) إلى إيطاليا، وهو من أصل إغريقي من منطقة (أركاديا) الواقعة وسط شبه جزيرة (البيلوبونيز)، وهنا تلتحم الأساطير الرومانية بالأساطير الإغريقية في عصرها البطولي.⁽²⁾ ومع هذا فثمة بين الميثولوجيا الرومانية والإغريقية فرق مبدئي، فالأسطورة كانت بالنسبة للإغريق تفسيراً للعالم... أما بالنسبة للرومان فكانت توطيداً لعظمة روما، وبالبدئية كان الإغريق يفصلون الزمن الميثولوجي عن زمنهم الواقعي، صحيح أن الآلهة لا تزال تمارس نشاطها، لكن زمن أفعالها الأكثر شهرة، وخاصة زمن نشاط الأبطال يعود إلى العصر البطولي الذي يقع في الماضي. إن الأساطير تبدو وكأنها تشكل ما قبل تاريخ العالم واليونان ودوله المنفصلة وعشائره النبيلة، لكن مثل هذه الحدود لم تكن موجودة بالنسبة للرومان الذين اعتبروا الأساطير حول تأسيس روما (أما التاريخ فنعود ونشير إلى أنه لم يكن يهمهم كثيراً). وتحوّل الأسلاف الإلهيون إلى شخصيات في الروايات التاريخية المحددة جزء لا يتجزء من تاريخهم، أما الشخصيات التاريخية التي قامت بأعمال عظيمة، فقد رفعها الرومان إلى مصاف الأبطال الميثولوجيين، وهكذا امتزجت الميثولوجيا الرومانية بالتاريخ الروماني، ومن هنا فقد كان بوسع مجلس الشيوخ في فترة متأخرة حتى في عهد الإمبراطورية أن

¹ - سيركين، يولي: أساطير روما القديمة، تر/ هاشم حمادي، ص 138، 139.

² - السابق، ص 140، 141.

يسن قانونا حول الإعتراف بالوهية الإمبراطور الراحل، وإقامة العبادة الخاصة به، كل هذا سمح للرومان باقتباس الأساطير الإغريقية بكل سهولة، شرط أن لا تلحق الضرر بعظمة روما.⁽¹⁾

في أساطير الرومان يتم عبر تحوّل زمني نقل التأويل باستغلال الأحداث التاريخية وقراءتها ميثولوجيا على الطريقة الإغريقية، فحتى القوانين تتحول تدريجيا مع الزمن لتعارض المقدس القديم المتداول، مع الرؤيا الجديدة التي تنمو مثل النبتة التي تنتقل بذرتها إلى مكان آخر فيه شروط الحياة، حيث تسعى البشرية إلى التوسع، إذ يورد (أوفيد) أسطورة رحلة نحو الهجرة، لتأسيس وطن جديد، حيث حصّت رؤيا (ميسيلوس بن أليمون الأرجي) على الخروج من (كوريس) لوضع الأسس لأسوار مدينة (كروتونا الإيطالية) وما انجرّ من معارضة وتأيب:

"هيا اهجري وطنك

امض إلى إيزار

التي تجري مياهها فوق سرير من الحصى

في بلاد بعيدة...

فكّر طويلا في القرار الذي ينبغي

أن تتخذه:

والقوانين تمنع الهجرة

فهي تعاقب بالموت كل من يترك وطنه إلى وطن آخر...

¹ - السابق، ص 19، 20.

ارتعب ميسيلوس وأخذ يتهيأ

لكي ينقل مقام آبائه إلى بلد آخر

غير أن الخبر شاع في المدينة...⁽¹⁾

الزمن في رحلات بسيشة:

في الوقت الذي كان فيه الزمن يعالج شخصية (بسيشة) وينضجها على نار هادئة، كان أيضا في الجانب الموازي يعمل على إنضاج اليقين بالحب في قلب الحب ذاته (كوبيدو)، وهو الذي فر منه سلفا، وهكذا صار بإمكانهما (الحب والنفس) الالتقاء ثانية، وفي الوقت المناسب الذي تختفي فيه العقبات، ويلين فيه الأعداء، ويحدث التطور الذي يسمح بالإتحاد، ولقد انقسمت حياة الرحالة (بسيشة) إلى أربعة أزمنة اختلفت فيها أدوارها:

- زمن السيادة على قلوب الناس.
- زمن انتظار الزوج.
- زمن الزواج من مجهول.
- زمن البحث عن الزوج المختفي، وهي الفترة التي تشكل رحلات (بسيشة) في عوالم الناس، وفي عوالم الموتى، وكانت على عداء مستمر مع الزمن، إذ لم تكن صبورة على الأذى، والأسى، فكم فكرت في الإنسحاب من حياة الناس، رغم ما أبدته من تمسك برحلة البحث عن الزوج، ولم تكن تضيع وقتها عبثا، بل ظلت في رحلة دائمة غير منقطعة، ولم تتشغل عنها بسواها.

¹ - أوفيد: التحولات، تر/ أدونيس، دار التكوين، دمشق، ط 2 / 2011، ص 889 إلى 893.

وانقسم زمن الرحلة إلى قسمين:

- زمن الإنتقام من الأختين اللئيمتين (زمن الصحوة من السذاجة): الرد بخبث لتحقيق العنف، واستعمال الذكاء والذهاء لخطّة شريرة (المعاملة بالمثل).
- زمن البحث عن الزوج، وانقسم هذا الزمن بدوره إلى قسمين:
 - زمن التحدي والإصرار، والتكرار: وهو الزمن الذي سبق القرار بالإلتحاق بالحماة (فينوس)، فهو زمن الرحلة الحرة غير المقيدة بأمكنة مشروطة أو محدّدة.
 - زمن اليأس والتعب، والشعور بالعبودية والإنهاك: وهنا أمرت (فينوس) الحماة، الكنة الرحالة (بسيشة) بمجموعة من المهام الصعبة جداً، وهي على شكل رحلات يستوجب عليها القيام بها حتى تحقق المطلوب منها مثل كنوز (الجزات الذهبية)، والماء السحري، وللتخلص منها (رحلتها إلى العالم السفلي للحصول على علبة جمال بروسرينا). وإذا كان حضور الزمن وتوظيفه في الرحلة يختلف من نص لآخر، وعند الرحالة عموماً، فإن الرحلة هي نص زمني بامتياز، سواء كانت هذه البنية من أجل التأريخ أم بقصد إبراز الحرص على إمداد القارئ بوقائع حقيقية ذات مرجعيات مضبوطة لا متخيلة، بينما هناك نصوص أخرى تغيب عنها المؤشرات الزمنية... مقابل هذا تخلق النصوص الرحلية المتخيلة أزمنة خارقة تستجيب للبناء العام للرحلة، سواء بإيهام الواقع أو بتثبيت زمن الآخرة، ويتمظهر الزمن في كل بنيان النص الرحلي بشكل واضح أو ضمني⁽¹⁾.

¹ - حليفي، شعيب: الرحلة في الأدب العربي، ص 356، 357.

ثانيا: الزمن في الرحلة الأسطورية إلى العالم الآخر:

1- الزمن في الرحلة الأسطورية في عالم الأموات في أساطير العراق القديم:

لا يُظهر النص السومري: (جلجامش وإنكيديو والعالم الأسفل)⁽¹⁾، كم مكث إنكيديو في العالم الأسفل، حين استدعاه المحارب البطل (نرجال) بعد أن توسل سيده جلجامش إلى الأب (إيا) ليساعده في استرجاعه شارحا له كيف حدث وأن غاب إنكيديو في فضاء الأسفل.

ولكن من خلال وصف إنكيديو لما حل بجسده نخمن أنها أيام معدودات، تحول فيها هذا الجسم إلى خرقه بالية وجثة مليئة بالتراب بعدما كان يرتدي أجمل الملابس وأنظفها ويتنعل صندلا صاخبا، ويتضمخ بالعطر الفاخر الذي جمع حوله أهل العالم الأسفل.

فالزمن في العالم الآخر يفعل فعله مثلما يفعل في أهل الأحياء، ويحيل الأجساد إلى تراب تحوم حولها الحشرات، بعدما كان أهله ينجذبون إلى العطر الفواح، وصدى الصندل الصداح.

وفي المقابل الزمني لتواجد (إنكيديو) في العالم الأسفل، كان جلجامش خلال تلك الفترة يسعى وحيدا بين الأب (إنليل)، والأب (سن)، والأب (إيا)، وهكذا يكون قد فات الأوان على استرجاع الصديق والخادم المخلص، فقد حدث وأن أمسك به صراخ العالم الأسفل لأنه استقر الجميع بملابسه النظيفة، وصندله المصوت وعطره الفواح...، فليس مرور الوقت هو الذي قهر الحياة الدنيا في جسد إنكيديو ووأدها في العالم الأسفل، ولكنها الجلبة التي أحدثها في مقابل الهدوء، والصمت، والفراغ، فلو أنه أصاح السمع بعقله لتحذيرات سيده، ما كان هذا مصيره.

¹ - السواح، فراس: جلجامش، ص 54.

لم ينصح جلامش رفيقه بالسرعة في إنجاز مهمته وهو ينزل إلى العالم الأسفل، إذ لم يكن من شروط الزيارة الإسراع فيها قبل أن يتقطن سكانه الأصليون. ولكن التوصية بضرورة الخفة دون ترك بصمات في آذان وأنوف سكان العالم الأسفل هو دليل منطقي على ضرورة الإسراع وعدم الإهتمام بالشكليات التي تضيع الوقت، ثم تجلب الهلاك (العطر الفواح، النعل المزعج...) ولأن إنكيديو لم يضع في حسابه التركيز على إنجاز المهمة بأقل قدر ممكن من الوقت، هو الذي جعله يسرف في سفاسف الأمور، ويبالغ في تصرفات لا معنى لها، في غير وقتها المناسب، ووقتها المناسب أبدا ليس هو العالم الآخر حتى وإن كانت ذات أهمية في توقيت لاحق.

أسرع أنكيديو بالنزول إلى العالم الأسفل، ولكنه لم يسرع بالخروج منه، ولهذا فهو لم يحسن استعمال الوقت الذي أتيح له هناك، بل راح يعبث ويشاغب كطفل صغير.

لم ينصح جلامش خادمه (أنكيديو) بالسرعة حتى لا يربكه، بل تركه يركز أكثر، فلربما التقطت عيناه وأذناه بعض الأشياء والملاحظات عن ذلك العالم، بدليل أنه لما استعاده بعد طول توسط، سرعان ما راح يسأله في فضول وحماس عما رأى وعاین من صور ومظاهر ذاك المكان.

2- الزمن في الرحلة الأسطورية في عالم الأموات عند قدماء المصريين:

كانت مسارات رح عبر الدوات، مسارات ذات طابع زمني فهي لا تقطع الأمكنة الجغرافية، بقدر ما تقطع الوقت.

إن هذه الرحلة هي رحلة عبر الزمن، وهي رحلة رمزية، لا أهمية فيها للمكان في حد ذاته، بل العبرة بما يحمله توقيت ذلك المسار. إنها إثنتا عشرة مملكة مبنية على المقدار الزمني لليل، وهي

مختلفة عن بعضها البعض، مثلما تختلف الساعات، وهي تتقدم نحو أعماق الليل تارة ثم هي تتقدم نحو انبلاج الفجر، فالزمن الأول من الليل يختلف عن جوفه، وعن منتهاه، وكلما اشتد ظلامه اقترب من الخطر (أبو فيس)، والتوقيت المناسب يلعب دوره في اشتداد الأزمة أو في انفراجها. فكلما توغل عبر الممالك ولج إلى عمق الليل.

ساعات الليل إثننا عشرة ساعة لا تشبه بعضها البعض، وساعات النهار مثلها تعدادا، كما أن (رع) هو من يقطعها عبر نهر السماء، بقاربه الذهبي المقدس (منعجت)، لا بد أنها رحلة سلام وأمان وحياة، بينما الإشارة إلى ممالك الظلام مملكة إثر مملكة، كل بصفاتها الخاصة يفيد بأن خطواتنا في الزمن تقترب بنا من الظلام الدامس أو المملكة المناسبة في الوقت المناسب، وإلا ضاع كل العمر هباء.

وهناك إصرار من النص على ذكر لفظ الساعة بعد ذكر المملكة، وكأنه يقول قد كانت مملكة عندما كنت تملكها قبل أن تستحيل إلى مجرد ساعة قد مضت من عقد الأيام، أو هي سابعة تمضي قدما.

إن النص هو أسطورة عن رحلة داخل الزمن الليلي المنسكب في مجرى نهري، وهي تنقسم بحسب إحساس الساهرين بزمن الظلام إلى مسارين تفصل بينهما ساعة المعركة مع (أبو فيس):

أولا: مسار نحو الظلام: الست ساعات الأولى.

الساعة الأولى: المملكة الأولى: بلاد الليل والظلام الدامس.

الساعة الثانية: المملكة الثانية: تدعى أورانوس، إنهم سعداء أولئك الذين يعيشون فيها، "هكذا تنقضي الساعة الثانية من الليل، وربة هذه الساعة تفتح الطريق أمام ربة الساعة الثالثة".⁽¹⁾

الساعة الثالثة: المملكة الثالثة: هذه الساعة التي يخشاها الأشرار... تنقضي الساعة الثالثة من الليل وتفتح ربة الساعة الثالثة الطريق أمام ربة الساعة الرابعة فتنسج الأبواب.⁽²⁾

الساعة الرابعة: المملكة الرابعة: (فوهة المقبرة)، وهكذا تنقضي الساعة الرابعة من الليل، وتفتح ربة الساعة المنفضية الطريق أمام ربة الساعة الخامسة فتنسج الأبواب.⁽³⁾

الساعة الخامسة: المملكة الخامسة: (المختفية)، وهكذا... تنقضي الساعة الخامسة من الليل وتفتح ربة الساعة المنفضية الطريق أمام الساعة الجديدة فتنسج الأبواب.

الساعة السادسة: المملكة السادسة:

(نبح المياه)... هذه أبعد حدود الدوات وخلف البوابة يمتد الطريق إلى شروق الشمس... وهكذا تنقضي الساعة السادسة من الليل وتفتح ربتها الطريق أمام الساعة السابعة من ممالك الدواة... ساعات الليل أوشكت أن تنقضي.⁽⁴⁾

الساعة السابعة: المملكة السابعة: (الكهف السري)... هنا تكون المعركة الحاسمة بين (إيزيس) حامية قارب رع و(أبو فيس) المستعد لالتهامه ويبقى القارب يمضي وئيذا هادئا عبر الدوات سائرا

¹ - حامد، إسماعيل: موسوعة الأساطير الفرعونية، ص 143.

² - السابق، ص 144.

³ - السابق، ص 146.

⁴ - السابق، ص 147.

خلال الظلام، إلى شروق الشمس والنهار الجديد. وهكذا تنتقضي الساعة السابعة من الليل وتفتح ربتها الطريق أمام ربة الساعة الثامنة.

ثانياً: المسار نحو الضياء: الساعات الأخيرة.

الساعة الثامنة: المملكة الثامنة: (مئوى الآلهة) يسير القارب عبر الظلمات إلى الشروق.

الساعة التاسعة: المملكة التاسعة: يمضي قارب (رع) في هدوء عبر الدوات متجهاً نحو الشروق والنهار الجديد.

الساعة العاشرة: المملكة العاشرة: تسير نجمة الصباح تسبق قارب (رع) الذي يسير قدماً خلال الظلمات إلى الشرق، والنهار الواضح الجديد.

الساعة الحادية عشر: المملكة الحادية عشر: يمضي القارب نحو الشروق والنهار الوليد.

الساعة الثانية عشر: المملكة الثانية عشر: انقشع الظلام وأقبل النور، وكل الكائنات تبدو مسرورة في الساعات الأولى من انبلاج الفجر وبلاد النهار.

ملاحظة: عند الساعة السادسة (المملكة السادسة) يبدأ العد التنازلي لمسار ساعات الليل، إذ ينقلب اتجاهها نحو ممالك الظلام، بالاتجاه نحو ممالك الضياء.

أعطى المصري القديم لمفهوم الزمن بعداً دينياً يتماهى في المعتقد الأسطوري الذي آمن به، والنهار هو الحياة، والشمس هي التي تنجب النهار، وبالتالي الحياة، ولكن بما أن هذا الحي خطأ فالشمس تغيب لتجدد النفوس وتعلم الخطائين طقوس الطهارة والتوبة.

وللزمن وجهان، وجه أسود، هو ظلام الليل الذي يحمل الوحشة والخوف، لكنه يجدد علاقتنا بالحياة ويعلمنا مساوئ الخطايا وضرورة التطهر من أدران الشر.

ووجه نوراني مشرق، هو نور النهار، نور الشمس حين تخرج المركبة وقد تخطت اثنتي عشر محطة سوداء وعادت صافية ببيضاء، تزهر بما أتيح لها من حظ الحياة وحظ الشمس من جديد.

هذا هو الزمن، وهذا هو الكون، والحياة هي هذه الحركة الدؤوب والمستمرة بين عالمي ساعات الظلام وساعات الضياء، وإن الوصف الدقيق لكل محطة هو دعوة لاستثمار الحياة بوعي وتركيز.

3- الزمن في الرحلة الأسطورية في عالم الأموات عند الفرس:

في رحلة الإسكندر الأكبر: تقول الأسطورة إنه سار وحده حتى مغرب الشمس فبقي ينتظر غروبها. فلما كان عند الغروب شاهد قرص الشمس وهي تغيب في تلك العين... ثم انصرف إلى معسكره... وتزود لأربعين يوما... فتقدم (الخضر)، وسار (الإسكندر) في أثره حتى سار في الظلمات مرحلتين ولما كان المنزل الثالث عرض لهم في الظلمات طريقان...

لقد قرر الإسكندر أنه سيسير أربعين يوما في (الظلمات) إن شرع يتبع الشمس بعد مغيبها في تلك العين، فالطريق كلها ظلام لا يعلم منتهاه أحد، ورغم ذلك فقد جازف وغامر لأن الهدف الموعود كنز مفقود لا يتأتى لأي كان، لقد كان تواقا لأن يبلغ العين فيشرب منها فينال الخلود، ثم يغتسل بمائها فتتساقط ذنوبه.

إن الزمن في رحلة (الإسكندر) في الفضاء الأسود هو رهان الخلود للزمن القادم، إن الظلمات هي الماضي وهي الذنوب بينما الماء هو الوضوء للجسد والروح والمستقبل. وقد سير خطاه أمله العظيم في أبد يملؤه بنور العبادة للخالق، وقد فاز به (الخضر) - عليه السلام -.

4- الزمن في الرحلة الأسطورية في عالم الأموات عند الإغريق:

الزمن في رحلة هرقل: كان الظلام في هذه الرحلة هو سيد المكان والزمان، وهكذا لا تظهر أي إشارة إلى الوقت أو الزمن في رحلة هرقل إلى عالم عمه هاديس. إنها زيارة سريعة قام بها البطل من أجل اصطحاب كلب الجحيم (سربروس) إلى (ميكيناى) التي يريده سيدها، الذي بمجرد أن يرى الوحش الرهيب حتى يأمر بإرجاعه إلى مكانه في عالمه الأسود الموحش، الذي لا تقول فيه الشمس، ولا النجوم، ولا الكواكب كلمتها فيما يتعلق بالزمن.

الزمن في رحلة أورفيوس: ذهبت اللسعة السامة بحياة يوريداسي، فمزقت اللوعة فؤاد (أورفيوس) وبرّح الحزن الثقيل بقلب الثاكل الولهان فقرّر أن يهبط إلى مملكة الظلام السفلي ويتوسل إلى ملكها العظيم هاديس وزوجته (بيرسيفون) أن يعيذاها إليه، فتسلل إلى شاطئ نهر ستيكس عبر كهف (تينار)، وبلغ مشارف المملكة الموحشة، وتحلقت أشباح الموتى حوله، وترددت زفراتهم الواهنة شبيهة بحفيف الأوراق عند تساقطها عن الأغصان في آخر أيام الخريف.⁽¹⁾

في هذه الرحلة الأسطورية تتجلى عناية الإنسان الإغريقي القديم بالزمن واحتقائه بمرحلة الشباب. وتغنيه بالحياة ككل، وحلمه بأن تستعيد البشرية فترة الحياة البطولية التي كانت سائدة من

¹ - حاتم، عماد: أساطير اليونان، ص 317، 318.

قبل، (يبدو أن الإنسان كان في بداية عهوده يعيش طويلا (آدم ونوح... - عليهم السلام -) ثم لماذا يمكننا أن نرسل في أي لحظة نشاء من نشاء إلى عالم (هاديس) ولا يمكننا أن نستعيده؟ ما الفرق بين الإحتفال لحظة استقبال مولود جديد؟ ولحظة توديع شخص أليف؟

... وتقدم من العرش حتى وصل إليه وهو يعزف ويغني* وتململت أصابعه على الأوتار السحرية فصدت أعذب الأنغام وتنفس صدره عن أغنية حزينة سعدتها أعماق فؤاده المكوم فغنى حياته السعيدة الماضية وربيع أيامه المشرقة إلى جانب زوجته التي اختطفها يد الموت، وغنى فراقها له إذ قضت في زهرة العمر...⁽¹⁾

ويجب عليك المتسائل عن سر هذه الزيارة الغريبة وهذه الألحان الجريحة الجارحة: "...جئتكم ضارعا متوسلا أن تعيد إلي زوجتي الحبيبة، فقد أشقاني فراقها... إن زوجتي لن تغادر مملكتك إلى الأبد فهي عائدة إليها دون ريب فحياتنا وجيزة... أجز لها... بالعودة إلى الحياة لتتهدأ ولو قليلا من لذاتها، فقد قضت صغيرة فتية في ميعة الصبا..."⁽²⁾

قد تكون أطماع الإنسان في أحلامه كبيرة جدا، لأن قوة الحزن القاهر، وطاقة الموت المدمرة، تجعله يصنع بالأحلام معادلا يوزع به طاقة الحزن حتى لا تقصم ظهره، ويطمع في أن يكسر الزمن ويعود فيلحمه كرة أخرى، ويصنع حياة جديدة، يحيل فيها الماضي مستقبلا جميلا، ولكن رغم هذا الطمع . الذي تصنعه الأحلام على إثر الفجعة وتتجبه أنغام الفنان المفجوع في المحبوب . يبقى الإغريقي على يقين أن لغة الزمن صريحة ومفهومة، فما للإنسان إلا زمن قصير، مهما طال،

*-الحن هو تعاقب خطي من النغمات الموسيقية التي يتم إدراكها ككيان واحد، بمعناها الحرفي؛ الحن هو تسلسل اهتزازات ومدد زمنية.

1 - السابق، ص 318.

2 - السابق، ص 320.

زائل مهما عاش، فكل ما كان يطمع فيه (أورفيوس) هو أن تستثمر (يوريداسي) الفتية مباحج الحياة أطول فترة ممكنة، فما أجمل الحياة حين يعيشها الشباب، ولكن موتها مؤلم جدا بالنسبة إليه هو أيضا، وإنقاص من زمن سعادته وحياته. فالموت هو بتر الزمن فجأة بالنسبة للميت. ولكنه أيضا هو خطط للوتيرة، وللمألوف، وللانسجام الذي كان يصنعه لمن هم حوله. فالوجع بقص الزمن يرثه الأحياء، وقد يكون سببا في قص حياة أخرى، (أورفيوس)!

"حسنا... امض بها إلى ضوء الشمس المشرقة... احذر أن تلتفت إليها فإنك إذا ما فعلت ذلك أعدتها من جديد إلى مملكتي لتقيم فيها أبد الآبدين"⁽¹⁾

ويلي ذلك تصوير دقيق وشيق لطريق العودة إلى زمن النور، ونور الزمن. تبدأ معالم باب الخروج تقترب ببصيص النور الذي يلوح من بعيد، ولكن التجسس والقلق يضاعفان من مدة الوقت ويفرغان مخزون الصبر، فيرتكب حماقة يدفع حياة (يوريداسي) الثانية ثمنها لها. وهكذا "عاش موت زوجته مرتين"⁽²⁾ فقد كان الزمن يسير بخطى (أورفيوس) ودليله (هرمس) وخطى طيف الزوجة، وكاد ذلك الزمن الميت أن يستحيل حياة ونورا لو اتصل بنور الشمس، ولو بقي (أورفيوس) سائرا إلى الأمام يسوق زمن (هاديس) الأسود وزمن الطيف الذي مازال يخطو داخل بوابة النور، ولكنه استدار وكانت لما تفعل فامتصها الظلام من جديد.

إنها أحلام الإنسانية القديمة، هل يمكن للزمنين أن يتحدا؟ هل يتراجع الزمن الأقل فيعيد ما سلبه من الحياة؟ هل الزمن الذي تعفن في الماضي يمكنه أن يعاود الكرة فيصير مستقبلا دافئا ناميا خصبا؟

¹ - السابق، ص 321.

² - السابق، ص 222.

إن الزمن الذي ضاق به صدر (أورفيوس) شوقاً إلى (يوريدايسي) واختنقت به خطاه أعدم الزمن الجديد والفرصة الذهبية التي منحت لها. وهكذا وحيداً من جديد "جلس (أورفيوس) على الشاطئ وأقام هناك سبعة أيام وسبع ليالٍ، وهو يذرف الدموع، فلما حل اليوم الثامن غادر تلك الديار المظلمة ممزق الفؤاد"⁽¹⁾ إنه لم يعلم كم دامت رحلته داخل ذلك العالم ولكن بمجرد أن يخرج من هناك يشع الضوء، ويبدأ الزمن في الاشتغال، إذ لا شيء كان في مملكة (هاديس) يوحى أو يشير ولو من بعيد إلى عامل الزمن، إنه مكان أبدي الطواف، أبدي الليل أبدي الأحزان، فالشمس هي التي تصنع الوقت والزمن والفصول، ولا أثر للشمس هناك فلا نهار ولا ظهيرة ولا ربيع.

ملاحظة واستنتاج: هرقل الرحالة لم يكن يعنيه الزمن وهو يزور (هاديس)، وقد تغلب على صاحب القارب الذي ينقل أرواح الموتى بطاقة شكله ومظهره الذي يوحى بالقوة والسطوة، فهل القوة تفيد في معراج الزمن؟

أورفيوس كان الزمن شاغل قلبه وروحه: الحياة... الفتاة... المستقبل، وقد تغلب على صاحب القارب الذي ينقل أرواح الموتى بطاقة الفن وسحر الأنغام: القيثارة، والغناء، فهل يفيد الفن في قلب الزمن.

لو انشغل (أورفيوس) بالعزف والغناء في رحلة عودته من العالم السفلي لربما لم يفقد (يوريدايسي) بقهر الزمن المختبئ في العجلة والتوجس والقلق والتهور والتسرع.

أسطورة رحلة (أورفيوس) إلى العالم الآخر تتضمن قصة عظيمة، ومعاني كبيرة، إن أسطوريته ككل تمثل كنزاً في التراث الإغريقي: فنا وفلسفة ورحلة.

كان أورفيوس موسيقياً رحالة، قبل رحلته إلى العالم الآخر، واستمر في رحلاته بعد ذلك.

5- الزمن في الرحلة الأسطورية في عالم الأموات عند الرومان:

بسيشة: لما أرسلت (بسيشة) إلى العالم السفلي لاحظت "أن هذه هي ساعتها الأخيرة فصعدت إلى برج عال لتلقي بنفسها منه... لكن البرج نطق... لماذا تريد أن أيتها الشقية أن ترمي بنفسك لتطفئي شعلة حياتك، ولماذا تيأسين من القيام بهذا العمل الأخير دونما روية؟"⁽¹⁾

كانت الفتاة (بسيشة) شابة في مقتبل العمر، على قدر كبير من الجمال والحسن، ولكنها كانت بسيطة جداً في تقديرها للأمور، وعدم حرصها على الأخذ بالنصائح، ولذلك فهذه السن الصغيرة لم تمنحها الطاقة الكافية لإستيعاب الأمور وتقدير العواقب، فالخبرة، والحكمة، والوعي، والتجربة، تكتسب بطول العهد، وبمرور الزمن على الجسم والعقل والنفس، والنفس (بسيشة) كانت مجرد طفلة لاهية، فلهت بها الأحقاد وقلوب الحاسدين، فالنفس (بسيشة) تحتاج إلى نمو التجربة، والخبرة بالسير على مسرح الحياة خارج القصور، وبمسايرة زمنها خطوة خطوة.

إن النفس (بسيشة) الجميلة ليست جديرة بالحب (كيوبيد) وهي بعد لا تعرف كيف تحافظ عليه.

إن كل تجربة ناجحة في مسارات رحلة (بسيشة) كانت تبدأ بالتأني، والتروي، ثم القيام بالعمل بهدوء، ليأخذ الزمن حظه من الفعل، حتى وإن كانت مجرد شاهد على التجربة.

العجيب أن (بسيشة) في رحلتها السابقتين الناجحتين في عالم الأحياء، لم تقم فيهما بدور إيجابي، بل كانت المساعدة الخارجية هي التي أنجحت الرحلتين، بينما في رحلتها الثالثة، وهي

¹ - أبوليوس، لوكيوس: الحمار الذهبي، ص 139.

رحلتها إلى عالم الأموات كانت أكثر إيجابية، وإصغاء للنصائح، وتطبيقاً فعلياً لها، لقد قامت (بسيشة) بنفسها بكل خطوة في عالم الأشباح، وكانت وحيدة مهتدية بضوء نصائح (البرج الناطق) وقد تحلت بالشجاعة والرزانة، والصبر، فخرجت من فضاء الموت ومعها اللعبة، ولقد كسبت رهانها مع شعلة حياتها ورحلتها الأخيرة، فلقد ساوى البرج بين حياة (بسيشة) وهذا العمل الأخير بميزان التروي وهو عملة الأذكى، إذ لم تعد عملتها الآن هي الجمال الأخاذ الساحر الفتان، الذي جلب لها المصاعب والمتاعب، بل العمل بتركيز وترو، وسنرى بسرعة كيف كادت أن تخسر حياتها وهي الحريصة على الجمال في الحياة، بمجرد خروجها من العالم السفلي، وعودتها إلى التسرع، والسذاجة، وعدم الإصغاء إلى النصائح بفتحها لعلبة الجمال (البرسيفوني) الزائف.

المبحث الثاني: الزمن في الرحلة الملحمية:

١ - الزمن في الرحلة الملحمية في فضاء الأحياء:

1- في ملاحم العراق القديم: (سومر/ بابل/ آشور)

الزمن في رحلة جلجامش:

تتحدث مقدمة الملحمة عن الرحالة الذي رأى كل شيء إلى تخوم الدنيا، وجاءنا بأخبار عن زمان ما قبل الطوفان والمقصود بها رحلته الثانية. لأن نص الملحمة (هو الذي رأى) يتحدث عن رحلتين الأولى إلى غابة الأرز رفقة الخل (إنكيديو) بهدف التخلص من حواوا (خمبابا) العدو الشرير، بينما كانت الرحلة الثانية إلى العالم الآخر وحيدا إثر فقدان الخل إنكيديو بهدف الحصول على الخلود، وهزيمة الموت.

لما قرر جلامش القيام برحلته الأولى أخبر خله (إنكيدو) الذي رحب بالفكرة أولاً ثم اهتم لما عرف وجهتها ومقصدتها. وكذلك شيوخ مدينة (أوروك) حاولوا ثنيه عن عزمه، ولما أدركوا صلابته وتشبته بقرار الرحلة تقدم الناس إلى جلامش قائلين:

"متى تعود إلينا يا جلامش؟"

فتقدير العامة من الرعية للزمن هو غير تقدير الكبار الحكماء، وتقدير زمن الغياب، هو غير تقدير زمن الحضور، كما أن تقدير زمن غياب الشخص المحبوب أكثر حساسية وقوة وقسوة، فقد تعودت الرعية غياب ملكها في بعض رحلاته حين كان ملكاً طاغية جباراً، لذلك فإن غيابه راحة لها من كثرة مشاغله ومطالبه، ولهذا فهي لم تسأل ولم تبال بفترة الغياب بل هي تعيشه وتغتتم فرصه. أما الآن فما هي الرعية قد غيرت عاداتها فتتقدم نحوه غير هيابة لتسأله، وفي صيغة السؤال نغمة الطيبة والرجاء:

"متى تعود إلينا يا جلامش؟" (1)

"قبالإسم جلامش قد دعي منذ يوم مولده." (2)

إن الناس الذين قدموا وتقدموا نحوه بالاستفسار عن مدة رحلته، لم يذكروه بالألقاب أو الأوصاف أو الدرجات، وإنما باسمه المجرد كشخص محبب مقرب حميم وهذا يدل على مدى تغير شخصيته حين لقائه وصحبته لإنكيدو، وبالتالي استطاع الناس أن يرفعوا التكلفة التي كانت بينهم وبينه. لقد اعتنى نص الملحمة بمفهوم الزمن إذ نجد ألفاظاً كثيرة تشير إلى ذلك:

1 - السواح، فراس: جلامش، ص 145.

2 - السابق، ص 110.

"تتسع الغابة عشرة آلاف ساعة مضاعفة"⁽¹⁾ قال هذا شيوخ أوروك يحذرون جلامش من مغبة ما اعتزم.

ومن اصطلاحهم على مساحة الغابة أو طول مسار عبورها بـ (عشرة آلاف ساعة مضاعفة) يظهر مدى اهتمامهم بالحجم الساعي على حساب المكايل الأخرى أو الأوزان، فإن ذكر أي رقم أو عدد مرافق لمسافة ما فهو قد لا يعطي الإنطباع بالإعجاز والإعجاب، ولكن التعامل مع أرقام زمنية تستهلك عمر الرحالة، فهنا تبدو الغرابة التي تطرح المزيد من الأسئلة عن هذا البطل الأسطوري الذي يتخطى المسافات زمنا لا مكانا فحسب.

ويقول فراس السواح "أن الأعمدة الأربعة من اللوح الرابع مفقودة وهي تحتوي بالتأكيد على وصف مفصل لرحلة غابة الأرز، وقد تم العثور خلال الحفريات في موقع أوروك على كسرة لوح صغير تعود إلى نسخة مفقودة للنص الأساسي، وقد اعتبر بعض الباحثين الأسطر القليلة الباقية في هذه الكسرة بمثابة بداية للوح الرابع"⁽²⁾ الذي يصف بعض مسار الرحلة مقدرا زمنها: "فنحن نعلم أن الرحلة إلى غابة الأرز تمت ضمن ست مراحل سفر، وثلاثة أيام لكل مرحلة"⁽³⁾

"بعد عشرين ساعة مضاعفة توقفا، لبعض الزاد.

وبعد ثلاثين ساعة مضاعفة أخرى، توقفا لقضاء الليل.

خمسین ساعة مضاعفة قطعاً في كل نهار.

¹ - السابق، ص 144.

² - السابق، ص 153.

³ - الشواف، قاسم: ديوان الأساطير، الكتاب الرابع، ص 307.

فاجتازا مسيرة شهر ونصف في ثلاثة أيام.⁽¹⁾

ثم نجدهما قد وصلا مشارف غابة الأرز ووقفا عند بوابتها المسحورة التي يقف عندها حارس أوكله خمبابا. يتهيب جلامش، لكن أنكيديو يحفزه: "أي جلامش يا ابن أوروك/ هيا انحدر نحو الغابة".⁽²⁾

فقضيا على حارس بوابة الغابة، وفتحا البوابة التي شلت يد إنكيديو، وواصلوا السير حتى الجبل الأخضر، وغرقا في الصمت وهما ينظران إلى الغابة تمتد أمامهما وبيبتان هناك حتى الصباح ثم يواصلان رحلتهما:

"بعد عشرين ساعة مضاعفة توقفا لبعض الزاد.

بعد ثلاثين ساعة مضاعفة أخرى توقفا لقضاء الليل"⁽³⁾

¹ - السواح، فراس: جلامش، ص 153، ولكن النص عند الشواف: "بعد سير مسافة عشرين بيرو تناولوا بعض الطعام.

ثم بعد اجتياز ثلاثين بيرو خيما:

وهكذا في يوم كامل سارا مسافة خمسين بيرو

وهي المسافة الإعتيادية التي تقطع خلال شهر ونصف

وبعد ثلاثة أيام بلغا جبل دونو... الشواف: ديوان الأساطير، الكتاب الرابع، ص 304، 307. ويتكرر هذا ست مرات (مراحل)، فتصير مدة الرحلة ثلاثة أيام ضرب ست مراحل، والنتيجة ثمانية عشر يوما، وإن كانت تعادل مائتين وسبعين يوما بالنسبة للرحالة العادي، وإن كان بيرو يعادل عشرة كلم، ففي اليوم يقطع 500 يوم، وفي كل الرحلة $18 \times 500 = 9000$ كلم. وهكذا تستلزم هذه المسافة الأسطورية الزمن الأسطوري ليحقق فيها البطولة السومرية. وماذا عن زمن المعركة وزمن رحلة العودة إلى أوروك.

² - السابق، ص 154.

³ - السابق، ص 158.

يبدو أن الزمن داخل الغابة في رحلة جلجامش شبيه بالزمن الذي استهلكه من أوروك وحتى بوابة الغابة، إذ أن الشاعر قد استعمل نفس وحدة قياس الزمن/ المسافة، وهكذا يكونان قد قطعاً يوماً كاملاً داخل الغابة، وإن كان التعداد بهذا الشكل: (خمسين ساعة مضاعفة قطعاً في كل نهار. فاجتاز مسيرة شهر ونصف في ثلاثة أيام).

فإن النتيجة تكون مسيرة نصف شهر في اليوم الواحد، وهذا هو البعد/ العمق الذي بلغاه داخل الغابة ليواجهها صباح غده خمبابا الرهيب. ثم يعودان.

إذن لم تدم رحلتها طويلاً فهي ثلاثة أيام قبل بلوغ الغابة، ثم يوماً واحدة داخلها ويفترض أن يكون مسار العودة معادلاً لهذا العدد فيصير الزمن ثمانية أيام، وقد نظيف يوماً آخر هو يوم المعركة (المواجهة).

جلجامش وأرض الأحياء: وجاءت إلينا قصة سومرية ملحمة ثالثة تروي طرفاً من أعمال جلجامش البطولية وتضاهي إلى حد كبير ما جاء في ملحمة جلجامش البابلية وهو الحدث المتعلق بسفره مع تابعه إنكيديو إلى غابة الأرز وقتل العفريت (خمبابا) أو (خواوا) بحيث يصح القول أنها أحد الأصول السومرية لملحمة جلجامش البابلية.⁽¹⁾

فبمجرد أن كسب جلجامش صديقاً وحليفاً شديداً والقوة والمراس، خبيراً بدروب الرحلة حتى بدأ خياله يطوّح به بعيداً:

"إلى أرض الأحياء، تاق السيد إلى السفر

فقال لخادمه إنكيديو:

¹ - السابق، ص 141، 142.

أي إنكيدو، إن الختم والآجر لم يأتيا بالمصير المحتوم بعد.

ولسوف أدخل أرض الأحياء وأخلد لنفسي هناك ذكرا⁽¹⁾

"فالإنسان مهما علا لن يبلغ السماء طولا.

ومهما اتسع لن يغطي الأرض عرضا

وما دام الختم والآجر لم يأتيا بالمصير المحتوم بعد"⁽²⁾

وهكذا جلس جلعامش يراجع وثائق يومياته فيلاحظ أنها تتناقص يوما بعد يوم، والزمن لا يمكن أبدا أن يعوّض ما استهلكه سلفا، وحجم الإنسان يبقى عاجزا جدا عن إدراك الفضاء البصري بطوله أو عرضه، فلا مكان للإنسان غير هذا الجسد الصغير الذي سيقضي عليه الختم والآجر (الموت والقبر) مهما ظن أنه علا واتسع.

لهذا يحسب جلعامش أنه إذا سافر إلى أرض الأحياء⁽³⁾ فلسوف يحقق الذكر المجيد لنفسه قبل أن يدركه الموت المحتوم، وهذا الذكر هو لغة أخرى من لغات الزمن، وهو القرش الأبيض المخبأ رصيда من الحياة لما بعد الحياة، وكان جلعامش قنوعا بالذكر الحسن بديلا عن الحياة بعد الحياة. ولكن مرأى الدود هو الذي التهم هذه القناعة.

الحدث في هذه الرحلة هو مغامرة جلعامش، وصديقه إنكيدو في جبال الأرز، وقتلهما لحارس الغابة العفريت (خاوا)، فإن جلعامش قد أدرك أنّ مصيره إلى الموت مثل البشر الآخرين وأن لا

¹ - السابق، ص 42.

² - السابق، ص 43.

³ - المنطقة التي تاق إليها جلعامش هي منطقة شجر أرز جبلية، كما نعرف من سياق الأحداث التالية. أما تسميتها بأرض الأحياء فغير واضح الدلالة. السواح 42.

سبيل له لبلوغ الخلود المادي، عزم على إتيان بعض الأعمال البطولية التي تخلد اسمه معنوياً، قبل أن يوافيه الأجل المحتوم. وكان من بين الأعمال أنه قرر أن يذهب إلى أرض الحياة. ولا يعلم سير الحملة من بعد اجتياز تلك الجبال لإنخراط النص.

فبذكاء شديد جداً تعامل شاعر العراق القديم مع زمن رحلة جلعامش بقوله إنها رحلة بعيدة.

إن غابة حواوا تمتد عشرة آلاف ساعة مضاعفة⁽¹⁾ فإذا كان بالإمكان قطع خمسين ساعة مضاعفة كل نهار (يوم)⁽²⁾ فإن الغابة لا يمكن أن تقطع في أقل من مائتي نهار (يوم)، وإذا كان النهار (خمسين ساعة مضاعفة) ما عادل خمسة عشر يوماً فإن الغابة مسافتها "15 ضرب 200 = ثلاثة آلاف نهار! (ثمانية سنوات وثلاث السنة!)"⁽³⁾

- يمكننا الإعتماد على النص السومري (جلجامش وأرض الأحياء) الذي يعتبر من روائع الأدب السومري القديم، سواء بأفكاره أم بأسلوبه وبنائه الفني وإيقاعه الذي يعتمد التكرار، ويدور الموضوع هنا حول انشغال الرحالة بفكرة الموت التي تلاحقه وهو يرى المنيّة تخطف الناس من حوله، وبحثه عن طريقة يخلد بها اسمه قبل مماته.⁽⁴⁾

¹ - السواح، فراس: جلجامش، ص48.

² - السابق، ص153.

³ - هل يمكننا التكهن بأنه رقم فلكي بالنسبة لموقع جغرافي يفترض أنه يقع في جغرافية العالم القديم القريب من أرض الرافدين. ولا يمكن أن يكون أبعد عنها (غابة الإستواء/ الأمازون) مثلاً، وإلا انعدم إدراك مفهوم هذه البطولة بالنسبة للآخرين الذين لم يصطحبوه، فما أدراهم أنه قد قطع كل هذه المسافات؟ وما مبلغ الخطر الذي يخشاه جلجامش من وحش يسكن بعيداً كل هذه المسافة؟

⁴ - السابق، ص41، 42

حيث لا تظهر في نص الملحمة⁽¹⁾ نية جلجامش في السفر بسبب البحث عن تخليد اسمه وتحقيق الأمجاد والذكر الحسن، ولكن هذا ما يقوله في النص الأسطوري السومري (جلجامش وأرض الأحياء) بينما في الملحمة يقول أنه لسبب القضاء على الوحش الرهيب الشرير/ نستعير بعض الأسطر من النص السومري (جلجامش وأرض الأحياء) الذي يصرح فيه بهدف الرحلة وهو تحقيق الأمجاد والذكر الحسن لأن الموت يقضي على الإنسان مهما ظن أنه طويل أو عريض. ويستعين في رحلته بسبعة جبابرة (؟، أفعى، تنين، النار، الحية، الطوفان، البرق) ويجمع خمسين متطوعا دون زوجات ولا أولاد،⁽²⁾ وأعطى تعليماته إلى الحدادين ليصنعوا له ولمرافقيه أجود أنواع الأسلحة وعندما أكمل شرع في حملته. فقطع بجماعته ستة جبال هائلة وعند عبور السابع يتوقف الركب للراحة، وهناك يقع جلجامش في سبات عميق وطويل ويجتهد إنكيدو كثيرا حتى يستطيع إيقاضه، لأن النوم إعاقة للرحلة، وتقييد للرحالة، بينما الزمن مازال يواصل رحلته دون حاجة إلى الراحة، ثم إنه "خلال رحلته الأولى إلى غابة الأرز كان يتحرك ضمن حيز وزمان أرضيين، فالمسافة محسوبة بدقة يقطعها بمقياس الساعة المضاعة التي تعادل بمقياسنا 10.8 كم، والأمكنة التي يرتادها أمكنة حقيقية ومعروفة، والزمن يمر بالأيام والليالي والشهور.

الزمن والنوم: كانت الملحمة دائمة الإشارة إلى النوم:

- إنه فترة يستريح فيها الجسد من تعب الرحلة، والسير الطويل.

¹ - نص الملحمة الذي ركه فراس السواح في توليفة متداخلة من جميع النصوص الملحمية (الألواح) التي تمكن الأركيولوجيون من الوصول إليها (النص البابلي القديم - الوسيط - الأساسي).

² - مثلما فعل ياسون في الأرجو.

- إنه فترة يسترد فيها الجسم حيويته ونشاطه.

- إنه فترة للتنبؤ بالمستقبل، فكثيرا ما كانت الأحلام والرؤى تزور جلامش، ورفيقه إنكيدو، فيريان بعض ما يؤولانه، ويجدان له تفسيراً بالأمل والتوقعات الطيبة لصالح خطوات الرحلة.

2- الزمن في الرحلة الملحمية في عالم الأحياء عند الهنود:

عالم (المهاباراتا) واسع تكاد تضيع تخومه، لا يتحدد بالزمان كما نعرفه، بل لابد له من مقياس زمني يناسب أغراضه، فهو إذن زمن ملحمي، أسطوري، مديد مثل جغرافيا (بهاراتا)، فلا يقاس بالوحدات الزمنية المعهودة مثل الساعة واليوم والسنة، وإنما يقاس بالأحقاب، ومفهومه بيولوجي بدائي: عهد البروز (كالبا) الذي تتفتح فيه قوى الكون، ويمضي في آلاف الأحقاب، ثم ينتهي إلى عهد الانحطاط (بيري) الذي تخمد فيه القوى وتقنى العوالم الثلاث: الأرض والماء والسماء. وقد قسمت الملحمة عهد (كالبا) إلى أربعة عصور فرعية:

1. أويوكا: كاريثايوكا، عصر الكمال، ويمتد مليوناً وسبعمائة وثمانية وعشرين ألف سنة.

(1728000 سنة). وهو عصر الكمال والبراءة، تحكمه طبقة واحدة، بلا تقسيم للعمل، أو

الجنس، وعمر الفرد فيه أربعة آلاف سنة، ورمزه اللون الأبيض.⁽¹⁾

2. التريتাকা يوكا: أو العصر الثلاثي، لأن ثلاثة أرباعه خير وربعه شر، ويمتد مليوناً

ومائتين وستة وتسعين ألف سنة. (1296000 سنة)، ويبلغ متوسط عمر الإنسان فيه

ثلاثة آلاف سنة، وهدفه المعرفة، ورمزه الأحمر.

¹ - المهاباراتا، تر/ عبد الإله الملاح، ص14.

3. **دفابارا يوكا:** عصر المهابهاراتا، ويستمر ثمانمائة وأربعة وستين ألف عام (864000

عاما)، ويمتد العمر فيه ألف عام، ويتساوى فيه الخير والشر، ورمزه الأصفر.

4. **كالي يوكا:** عصر الظلام، ورمزه الأسود، وهو العصر الذي يغلب فيه الشر، ويحل

الدمار بالالام لفساده، ثم يكون صلاحه ويبدأ يوم 17 . 18 من العام 3102 ق.م.

إن عهد (كالبايوكا) يبلغ امتداده أربعة آلاف يوكا! ويعادل يوما واحدا من أيام براهيمما.⁽¹⁾

يقول الهندوس أن (يوكا) هو دورة زمنية للعالم وأنه له أربع دورات أو عصور:

- كريتيا.
- تريتا.
- دفابارا.
- كالي: والعصر الحالي هو (كالي) وهو يبلغ عند الآلهة 4320 مليون سنة بقياس الزمن، وفي تاريخ الإنسان 8640 مليون سنة، وهو يعادل (كالبا) أو يوما واحد عند (براهيمما)، (كالي) هي رمز الكوارث، وعصرها هو العصر الرابع من حياة البشرية، بدأ عام 3102 ق.م، ومدته 420 ألف سنة، وبعده تبدأ دورة كونية جديدة. و(كالي) السوداء: تصفها أسفار (الفيدا) بأنها إلهة الزمن، وبالسوداء، أو ذات اللسان الرهيب بين الألسنة السبعة التي تطلق اللهب لتشرب قرابين الزبدة، أما في الأساطير المتأخرة فهي زوجة (شيفا) التي تبارك الذين يدركون الحقيقة وسر الزمان.⁽²⁾ وهكذا فإن المعركة التي ترويها الملحمة هي افتتاح هذا العصر الرابع الذي نعيش فيه منذ خمسة آلاف عام خلت، حسب التراث

¹ - السابق، ص 15.

² - السابق، ص 317.

الهندوسي، لكن هذا العصر أيضا هو الأخير في الحلقة الكونية، لذلك مهابهاراتا ليست ملحمة مفرحة، موضوع القدر فيها راجح؛ وهو الذي يفسر خبث البعض غير المتوقع وفضاظة الحرب والآلام وموت الأبطال.⁽¹⁾

أ - الزمن في رحلة المهابهاراتا:

يحاول الراوي أن يذكر كل شيء عن الأصول، قبل أن يصل إلى الفروع، حتى يضع المتلقي أمام الراهن، إنها قصة آل بهاراتا الذين حاولوا الحفاظ دائما على الشرعية والعدالة، ولكن الحسد كان يتسلل إلى قلوب الضعفاء منهم، فينجب الخطأ، الذي يحطم كل شيء جميل.

تبنى المهابهاراتا على ترتيب زمني خطي يراعي تسلسل الأحداث إلى أن تصل إلى أخبار الإخوة الخمسة ومكائد أقرانهم أبناء عموماتهم.

■ الإخوة الخمسة (أبناء) باندو هم ثلاثة أشقاء، من الأم (كونتي) ثم التوأم من الأم (مداري) وهم متقاربون سنا.

■ الإخوة المائة: أبناء العم (دتراشترا) تقول الأسطورة أن أمهم (قندهاري) حملت بهم جميعا مدة سنتين دفعة واحدة، ثم راحت تلدهم الواحد إثر الآخر، خلال شهر، وكان أولهم (دريودانا) رأس الفتن الكثيرة والمشاكل العديدة، وولد (بهيمّا) ابن (باندو) يوم مولدهم فهو توأم لهم.

فبالأسطورة/ الملحمة/ الرحلة أعطت أهمية كبرى للزمن، حين جعلت هؤلاء الإخوة المائة توأم جميعا، وجعلت حتى أحد أبناء عمهم توأمًا لهم.

¹ - فيليوزات، بيار سيلفان: معجم آداب الهند، تر/ حبيب نصر الله، كلمة، مجد للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2009، ص 396.

إذن، فالمشكلة بين هؤلاء وأولئك لم يصنعها الفارق الزمني المنعدم بينهم، بل صنعها التطابق الزمني لديهم، إذ حدث هذا التطاحن على السلطة والعرش لأن الجميع كانوا ذوي سن واحدة، أتراباً أندادا.

وفي المقابل،، لقد كان الإخوة الخمسة دائما يجلسون (يوديشترا) ويحكمون رأيه لأنه أكبرهم، وحتى عندما أخطأ لم يتمكنوا من معاتبته بله معاقبته، كانوا يحسبون ألف حساب لذلك الفارق الطفيف في زمن ولادته السابق لهم، ولقد أفلحوا كثيرا كلما اعتنوا بهذا الاعتبار.

- لقد حكم (باندو) المملكة قبل أن يكون أباً ثم لما تعرض لتلك المحنة من اللعنة، قرر الإعتزال والإعتكاف في الغابة وفضلت زوجته مرافقته، فولد أبنائه الخمسة في الغابة سنوات الإعتزال، ليموت ويتركهم صغارا (أكبرهم اثنتا عشرة سنة).
- ولد أبناء (ديتراشترا) المائة يوم مولد (بهيم) وهذا يعني أنه لم يكن أباً قبل ذلك (لديه طفل من زوجة أخرى ولد قبيل مولد إخوته).
- كان (ديتراشترا) هو الأخ الأكبر ولكن لأنه كان ضريرا فقد تولى (باندو) الأصغر العرش، ثم تنازل عنه وذهب يعتكف في الغابة ويموت فيها، فأراد أبناء الأخ الأكبر أن يسأثروا بالمملكة والعرش، فهل سقطت ولاية العرش عن آل (باندو) عندما أسلم الروح قبل أخيه، وهل تموت الحقوق إذا مات أصحابها وإذا غير تاريخ الموت مواعيد الحياة وطقوسها.
- كان (باندو) هو الأصغر . عند أبيه . وكان ابنه هو الأكبر بالنسبة لأبناء أخيه، وكان هو أول من جلس على العرش، وهو أول من أنجب ولدا للعهد، رغم أن الآخر كان هو الأكبر وأنجب مائة من الأبطال الأقوياء الصناديد الذين تنقصهم الحكمة والرأي السديد.

- لقد تخلص المائة (الكورفاس) من الخمسة (الباندافاس) بأن أبعدهم إلى احتقال خارج العاصمة في مدينة (نافاراتا)، وقد أزمعوا على قتلهم حرقا في قصر شيدوه خصيصا لذلك، ولكن الخمسة تفتنوا، ففروا، واختفوا مدة طويلة قبل أن يتمكنوا من الحصول على حليف قوي (درويدا) فيعودون إلى الوطن ويرضخ العم فيقسم السلطة بين أبنائه وأبناء أخيه فلقد غير الزمن شيئا مما في قلب العم، وفي الآن نفسه، كان أبنائه يطبخون على نار هادئة مؤامرة خسيصة لنفي أبناء (باندو) بطريقة تبدو شرعية موافقة للعدالة!
- لقد ظن الجميع أنهم قد قضوا في ذلك الحريق الذي شب ذات عام، ولكن عندما يدور الزمن دورته وتعود الجثث التي صارت رميما إلى الحياة فإنها ستغير شيئا مما فات.

الزمن في رحلة المنفى مع (درويدي):

- الرحالة (يوديشترا): ظل طيلة الوقت - قد تكون مدة سبع سنوات⁽¹⁾ من الإثنتي عشرة سنة - هادئا رزينا، يوصي بالتريث، والحلم والصفح عن الذين أخطؤوا في حقهم، فألقوا بهم حفاة، عراة خارج حدود المدينة الجميلة، الرائعة التي بنوها بعرق جباههم، وأثبتوا جدارتهم فيها بالحكم العادل.
- ولكنه فجأة استدعى (أرجونا) ليكلفه بمهمة إحضار السلاح المدمر، الذي لا يبقى ولا يذر، كي ينتقم من أبناء عمه الذين ساموه الذل والخسف والهوان وألقوا به وراء الحياة.

لقد غيرت سبع سنوات كاملات من طعم الثرى والبرودة ورائحة جلود الحيوان من قناعات (يوديشترا) الأخ الأكبر، القائد لرحلة النفي، يريد أن يقود رحلة نحو العودة بالانتصار والمجد، وبمحو كل رائحة للظلم من جديد.

¹ - لأن (أرجونا) سيفارقهم مدة خمس سنوات، ويعود عند نهاية مدة النفي.

الرفيقة (دروبي): لقد سمح لها العم أن تطلب ما شاءت، فلبى لها ما طلبت، ولكنها لم تكن تريد منه غير الحرية لها وللإخوة الخمسة، وكان بإمكانها أن تبقى ملكة المدائن والقصور لو أشارت، ولكنها بعد أن تعرضت لتلك التجربة القاسية من الذل والهوان، تعلمت كيف تكون قنوعة في حضرة الظالمين، وأن تزرع جوعاً لا يشبع أبداً من الحقد عليهم حتى الانتقام، فلم تمنح السنون شيئاً من إصرارها على رد الاعتبار لعزتها، بالعنف الكاسح المطهر للكون من الغاصبين، وظلت تحدث وتحض (يوديشترا) على ذلك كلما سنحت لها الفرص.

الإخوة الأربعة: كانوا على رأي (دروبي)، وإن كانوا يلهون عن مصابهم ويسلون، وهم يتسلون ببعض مشاغل الحياة لأنهم سبق وأن خبروا الرحلة والعزلة.

الزمن في رحلة النفي/ سنة الإختباء: فرض على الإخوة الخمسة النفي مدة إثني عشر عاماً، وأن يتواروا بعدها عاماً كاملاً أيضاً، وإلا فلن تعاد إليهم مملكتهم.

ولأن الإخوة الخمسة قتلوا (كتشاك) فقد صارت مملكة (فيراتا) مكشوفة للأعداء الذين هبوا للحصول عليها، هي الغنية بحقول الذرة وقطعان الماشية، فكلف ملكها ابنه (أوطارا) بقيادة المعركة فلم يتمكن من دحر الأعداء الذين لم يكونوا سوى أبناء العم، وعلى رأسهم (دريودانا) الذي كان مطمئناً إلى أن الفوز سيكون حليفه، ووضع لذلك الخطط للدفاع والهجوم، وباله مشغول بأبناء عمه الخمسة الذين رصد العيون للبحث عنهم، ولم يُقَفْ لهم على أثر، فقال يحدث بهيشما: "أي عم، يخالجنني إحساس بأن السنة الثالثة عشرة لما تنتقض بعد، ولعلنا نوفق في استدراج أرجونا فنكشف أمر أبناء باندو!"⁽¹⁾ فأجابه عمه (بهيشما) قائلاً: "اعلم يا بني أن الزمن يدور في عصور وقرون وسنين وشهور وأسابيع وأيام، وهي في مواسم وفصول، وقد جرى حساب الزمن على إضافة شهرين

¹ - المهابهاراتا، تر/ عبد الإله الملاح، ص 164.

كلما مرت خمس سنين، وإذا فقد انقضت مدة النفي، وتذكر أن يوديثترا ليس بالمغفل أو الأحمق، فلن تجده يسمح لأي من آل باندو في الظهور طالما كان النفي سارياً".⁽¹⁾

إذن؛ حتى صدفه توقيت المعركة كانت في صالح الإخوة الخمسة فلم يكشفوا عن أنفسهم إلا في الوقت المناسب، الذي كان أعداؤهم (أبناء عمهم وحلفاؤهم) أحرص منهم على معرفته، ولم يستطيعوا عده وإحصاءه بدقة، ولعب فيه الحظ دورا كبيرا.

يسرد الراوي قصة رحلات الإخوة الخمسة في (المهابهاراتا) في نسق خطي زمني متواتر محافظا على ترتيب حدوثها الافتراضي على أرض الواقع فلا نجد رحلة سابقة أو لاحقة لأوانها:

1. رحلة عودة الأبناء الخمسة من الغابة إلى قصر العم مع أمهم (كونتي) بعد وفاة أبيهم باندو، والتحاق (مدري) أم التوأم به.
2. خروجهم من قصر (فارانافاتا) فرارا نحو جدهم لأمهم (فياسا).
3. عودتهم إلى قصر عمهم الذي سيمنحهم مدينة (إندرابراستا).
4. خروج أحد الإخوة الخمسة نفيا مدة اثنتي عشرة سنة.
5. عودة الأخ (أرجونا)، ثم رحيل الإخوة جميعا نفيا مدة اثنتي عشرة سنة، بعد لعبة النرد.
6. رحلة (أرجونا) إلى سماء (إندرا) لإحضار الأسلحة.
7. رحلة (بهيمّا) لإحضار (زهرة اللّوتس): ربما لاحظنا حدوث رحلتين (6، 7) داخل زمن رحلة النفي الجماعية (5).
8. رحلة الإخوة جميعا للعودة والإنقاذ.
9. رحلة الإخوة الخمسة، ودروبدي نحو السماء.

¹ - نفسه.

10. رحلة (يوديشترا) في جنة (إندرا) بحثاً عن إخوته و(درويدي)، فرحلة (يوديشترا)

بجسده متزامنة مع رحلة إخوته بأرواحهم إلى سماء (إندرا).

الزمن الأسطوري والزمن الواقعي والزمن التاريخي في رحلات المهابهاراتا: حفلت رحلات الإخوة الخمسة بالأزمدة الثلاثة:

1. الزمن الأسطوري: لقد قيل أن زمن (المهابهاراتا) هو زمن العصر الثالث، وهو

(دافاباريوكا) الذي يستمر ثمانمائة وأربعة وستين ألف عام. ويمتد العمر فيه ألف عام،

ويتساوى فيه الخير والشر، ورمزه الأصفر. وأن (أرجونا) رحل إلى سماء (إندرا) ليعيش

زمنًا مختلفًا، ثم إن الإخوة الخمسة، سيصعدون إلى جنة (إندرا) لينظموا إلى تاريخ آخر

مختلف.

إن المشكلة الهامة التي يطرحها ما نسميه البعد الأسطوري للمهابهاراتا، هي المعركة التي تواجه

فيها (الكورافا) و(الباندافا) قد دشنت العصر الحديدي (كالي يوغا)، المرحلة الرابعة من الزمن

الكوني وهي التي نعيش فيها اليوم، إن عائلة (كورافا) ودون أن تعرف هي أداة قوى الشر، فكانت

أعمالها الإعتراض على ميراث (يوديشترا) بتمزيق المملكة ونفي (الباندافا) ورفض الحكم لصالح

مطالبهم الشرعية، والمساعدة في تأسيس الفوضى التي تسرع نهاية العالم، ويجب على الإطلاق

تدخل إلهي كي يصبح لدى (الباندافا) الشجاعة والمثابرة الضرورييتين للانتصار الذي ما هو إلا

انتصار النظام الكوني، بعد تقلبات تعكس الطابع الغامض والمقلق لغسق الزمن، هذا الذي هو

الانتقال من عصر إلى آخر. (1)

¹ - فيليوزات، بيار سيلفان: معجم آداب الهند، ص 400.

2. **الزمن الواقعي:** كانت أحداث الرحلات جميعا ترد وفق الزمن البشري العادي، بتوظيف

جميع الوحدات الزمنية العادية ومؤشراتها: الصباح، المساء، الليل، النهار، الفصول

الأربعة، الأيام، السنوات. وورد حساب الزمن وفق أعداد معقولة (رحلة أرجونا دامت

إثني عشر عاما، ورحلة الإخوة الخمسة معا دامت أيضا اثنتي عشرة سنة، رحلة

الإختباء سنة واحدة، مدة الحكم ستة وثلاثين عاما...).

3. **الزمن التاريخي:** تتحدث المصادر عن إمكانية حدوث وقائع الملحمة ورحلاتها،

فالمهابهاراتا أو (فجيا) أي أنشودة النصر، هي ملحمة الهند ما انقطع الناس عن ترادها

عبر القرون، ومازال هذا العهد بهم منذ ثلاثين قرنا أو تزيد، إننا لانعلم على وجه اليقين

التاريخ الذي وضعت فيه، ولكن المرجح من إشارات في النص أنها تعود إلى ألف سنة

قبل الميلاد، وقد ترجع إلى خمسمائة سنة أخرى قبل هذا التاريخ، ومما لا ريب فيه أن

الملحمة كانت في بدايتها أكثر بساطة، واقتصرت على رواية قصة (آل بهاراتا)، والحرب

التي قامت بين عشيرتين من هذه القبيلة.⁽¹⁾

قادت إنسانية أبطال الملحمة هذه المتزاوجة مع ابتذال الحجة السياسية محللين عديدين في الهند

وفي الغرب، إلى أن يطرحوا من حيث المبدأ أن المهابهاراتا تستند إلى عمل تاريخي، وإذا أخذنا

بعين الإعتبار ما كشفه علم الأثریات عن ماضي هذه المنطقة، علينا أن نضع الحدث في نهاية

الألف الثاني قبل الميلاد، ويقودنا هذا إلى التفكير أن النواة الأساسية للقصيدة نظمت في حوالي

القرن العاشر قبل الميلاد، وهذا غير مستحيل لغويا، لأنه تبين أن لسنسكريتية المهابهاراتا كل

مميزات اللغة الحية... نستنتج من ذلك أن الملحمة كانت قد اكتملت بالشكل الذي نعرفها فيه في

¹ - المهابهاراتا، تر/ عبد الإله الملاح، ص 9، 12.

حوالي القرن الرابع قبل الميلاد، لكن من المناسب أن نوضح أن بعض الكتاب الذين نصفهم بالنقاد الدقيقين تمكنوا من دفع إكمال القصيدة حتى القرنين الخامس والسادس للميلاد، ومنه فإن ناظمي المهابهاراتا بوجه الإحتمال قد أخذوا حادثاً تاريخياً كان قد أثر بهم ليمجدوه بشدة بقصيدة كانوا يدخلون فيها رؤيتهم للعالم، ربما دون أن يدركوا ذلك، وكان هذا يقودهم لاستخدام قصتهم لغايات تعليمية، عن خبرة تامة هذه المرة: الملحمة هي كتاب أخلاق اجتماعية وفردية أيضاً⁽¹⁾

ب - الزمن في رحلة الرامايانا:

مدخل: لحسن الحظ، تم حفظ قسم لا بأس به من المخطوطات والكتب العائدة لإمبراطورية رام الهندية، بعكس ما حصل في الصين، أمريكا الوسطى، والبيرو، معظم هذه الحضارات هي الآن إما أراض صحراوية قاحلة، أو بلعتها الغابات الكثيفة، أو قابضة الآن في قاع المحيط، لكن في الهند رغم الدمار الذي شهدته تلك الحضارة نتيجة الحروب والغزوات، إلا أنها تمكنت من المحافظة على قسم كبير من تاريخها القديم. إنه لفترة طويلة من الزمن كان الاعتقاد سائداً بأن الحضارة الهندية لم تكن عريقة جداً بحيث تتجاوز أكثر من خمسمائة سنة قبل الميلاد، أي قبل غزو الإسكندر لتلك البلاد بمائتي سنة، لكن في القرن الماضي، تم اكتشاف مدينتي (موهنجو دارو) و(هارابا) المتطورتين جداً في وادي اندوس في الباكستان، هذه الاكتشافات المثيرة أجبرت علماء الآثار على إعادة النظر في تاريخ أصول الحضارة الهندية، التي بدا واضحاً أنها تعود آلاف السنين الإضافية إلى الوراء، أما الأمر الذي أذهل الباحثين العصريين هو أن تلك المدن كانت متطورة جداً، بحيث

¹ - فيليوزات، بيار سيلفان: معجم آداب الهند، ص 399، 400.

تبين لعلماء الآثار البارزين أن هذه المواقع قد تم تخطيطها وتصميمها قبل بنائها على أرض الواقع، إنها مثال رائع على التقدم الذي عرفته تلك الحضارة القديمة.⁽¹⁾

في رحلة رامما:

اضطر (رامما) إلى الخروج في رحلة نفى تدوم أربعة عشر عاما، مثلما اشترطت الملكة أم أخيه (بهاراتا) على والده الملك (داشارتا)، ورغم أن (بهاراتا) كان هو المتوج بديلا عن (رامما) الحقيقي بالتتويج والعرش، إلا أن الملك الجديد لم يكن موافقا على ما أقدمت عليه الملكة أمه في حق أخيه (رامما)، ولهذا لم يعتبر نفسه ملكا حقيقيا، وإنما ملكا بالنيابة، ووضع نعلي (رامما) على العرش رمزا لسلطته المؤجلة، في انتظار عودة أخيه من رحلة المنفى، وفعلا قد استقبله بابتهاج شديد، وأعاد إليه مقاليد الحكم حين رجع بعد أربعة عشر عاما.

ومثلما لم يغير (رامما) الرحالة من أخلاقه شيئا، ولم يبتتر رحلة النفي لما توفي أبوه الملك (داشارتا) الذي كان قد أبرم معه عهد التنازل والوعد بالرحيل خارج المملكة.

وكذلك بقي الأخ (بهاراتا) وفيا لعهد الذي قطعه على نفسه بإعادة العرش فور إياب رامما من منفاه. وهذا يعود إلى التنشئة الواحدة التي أنشأ بها الملك الأب أبناءه جميعا، فرغم مرور كل هذه الفترة من السنوات على الأخوين إلا أنهما لم يتراجعا عن موقفهما وعهودهما بيد أن كلا منهما عصفت به ظروف متناقضة ومحفزة على نقض العهد:

- قضى (رامما) أربعة عشر عاما في الغابة، في ظروف قاسية، وسيئة جدا، وهو ابن المملكة والرفاه، وتعرضت زوجته للإختطاف فاضطر إلى الحرب والكفاح من أجلها.

¹ - الحلبي، علاء: تاريخ المدن المفقودة، من الطوفان إلى باطن الأرض، دار رسلان، دمشق، ط1/ 2017، ص 166.

- قضى (بهاراتا) أربعة عشر عاما على كرسي المملكة، يأمر فيطاع، ولا أحد أعلى منه مقاما أو سلطانا، فكيف له أن يتنازل الآن وبكل بساطة وسهولة!

وإذا كانت بنيات الزمن تختلف وتتعدد فإن الزمن... الرحلي الخطي المتعلق بلحظات السفر، يحظر في كل الأنواع والأشكال بصياغات مختلفة من أجل تحقيق وظائف شتى تظهر مع كل نص ورحالة، فتحتفل هذه البنيات بأزمة أصبحت في الرحلة جزءا من البناء العام، وهي غير الأزمنة التي يحياها الرحالة في الواقع ويدونها بعد ذلك، وإنما أزمات مستدعاة من الماضي القريب أو البعيد تخص تواريخ خاصة بالأمكنة والشخصيات أو بالأحداث من جهة، وتصب فيما هو ديني وسياسي وثقافي واجتماعي من جهة ثانية.⁽¹⁾ وهذا ما زخرت به الراماينا رغم بعدها الميثولوجي، فهي قد حاكت أشياء كثيرة عاشها الهندي القديم، ومازالت متداولة في تراثه وحياته المعاصرة.

الوسيلة والزمن: لم يستعمل راما وزوجته وأخوه أي وسيلة للتنقل في رحلة النفي داخل الغابة، لأن العبرة كانت بقطع أطول مسافة دون حساب للزمن، فطقوس النفي تفرض السياحة في الأرض مثل الرهبان والبراهمة، ولكن بما أن الفترة الواجب تجاوزها قد انتهت فقد سمح لراما ورفاقه بالعودة بأقصى سرعة ممكنة إلى المملكة مستعملين العربات الهوائية.⁽²⁾ من أقصى الجنوب (سيريلانكا) إلى أقصى الشمال.

¹ - حليفي، شعيب: الرحلة في الأدب العربي، ص 359.

² - فكما حضارة أطلنطس، كانت حضارة راما لديها سفن هوائية (طائرات) وغيرها من وسائل نقل متطورة غالبا ما كانت كهربائية بطبيعتها، (لكن ليست الكهرباء التي نعرفها اليوم). الحلبي: تاريخ المدن المفقودة، ص 167.

3- الزمن في الرحلة الملحمية في عالم الأحياء عند الفرس:

البناء الزمني لملمحة الشاهنامة: تبدأ بالتغني بكيومرث (أبي البشر) ثم بكل ما ورث الفرس من أساطير وبطولة وتاريخ، تتدرج في كل ذلك وفق بنية زمنية، بحيث يتسلسل الملوك الخمسون حسب أسرههم (دولهم) الأربعة، وهكذا يتميز موضوع الشاهنامة عن غيره من الملاحم بحيث تسرد فترة 3874 سنة: 1. الأسرة البشداية: ملوكها عشرة، مدتها 2441 سنة. (العصر الأسطوري الخالص، من سنة 3232 ق.م حتى 791 ق.م)

2. الأسرة الكيانية: ملوكها عشرة، مدتهم 732 سنة (عصر الأساطير، من 791 ق.م حتى 59 ق.م).

3. الأسرة الأشكانية: ملوكها ثلاثون، مدتهم 200 سنة (العصر البطولي من 59 ق.م حتى 141 م)

4. الأسرة الساسانية: ملوكها تسعة وعشرون، مدتها 501 سنة (من 141 م حتى 642 م "الفتح الإسلامي").

وفق ثلاث مراحل هي: 1. الأسطورية: من كيوميرث إلى أسر الضحاك. / 2. البطولية (الحماسية) هي الأغنى والأهم والأجمل في الشاهنامة من اعتلاء فريدون الحكم بعد الثورة على الضحاك إلى مقتل بطل أبطال الفرس رستم بن زال بن سام. / 3. التاريخية: من بهمن بن اسفنديار حتى يزدجرد الثالث آخر ملوك بني ساسان الذي ينهزم أمام الفتح الإسلامي (القرن السابع الميلادي). فإذا كان الفتح الإسلامي حوالي سنة 640 للميلاد، فإن الأحداث تبدأ من حوالي سنة 3232 ق.م، وهو ما يوافق بداية التاريخ، أي ظهور الكتابة، وبذلك يكون الفردوسي قد اختار هذا التاريخ تقريبا لبداية الجنس البشري على الأرض! (كيوميرث)! وإذا حاولنا الإقتراب من عصر رستم (الدولة الكيانية)

فسيكون بداية من 791 ق. م، وهكذا نكون قريبين من عالم هوميروس، وتأسيس روما وغيرهما من الأزمنة الأسطورية للعالم القديم.

في رحلة رستم (في ملحمة الشاهنامة):

قبل الشروع في الرحلة نحو (مازنداران) أطلع الأب (زال) ابنه (رستم) بأول المعلومات الهامة والدقيقة جدا للرحلة، قال إن الرحلة تتطلب شخصا فتيا بينما هو (الأب زال) قد بلغ من العمر عتيا (مائتي سنة)، فسن الرحالة يلعب دورا مهما في مدى نجاح الرحلة أو إخفاقها.

وقال إن الملك (كيكاس) قد سلك بجيشه من مملكته إلى (مازنداران) طريقا استهلك منه ستة أشهر، ولكن بإمكان الرحالة الحريص أن يسلك مسارا آخر أقصر وأقصد للوقت، حتى يستطيع الوصول بسرعة، وإنقاذ العالقين في ظلام الجني الأبيض، عند حدود أبواب (مازنداران) الجميلة، وحدث وأن قدر أن الرحلة يمكنها أن تتجز خلال أسبوعين فقط، أي (26 / 2).

إن رستم لم يراهن على قوته الجسدية فحسب، فالجن أقوى منه، ولكنه تحرى الوقت المناسب للإجهاد على خصمه، فنجاح مهمة الرحلة رهين بنجاح تقنية الرحالة وتدابيره في معالجة وقته، ليصنع الحدث، مثلما كانت خطة الجني في المراهنة على الظلام لما سجن أعداءه فيه، إذ لم يضيع وقته في قتال الملك (كيكاس) وجنده بل اكتفى بأن أطبق عليهم الدجى، إنها استراتيجية العدو، من عالم الظلال والظلام، بينما استراتيجية (رستم) من عالم الإنسان العاشق للنور، وحركة الشمس بميعادها الذي لا تخلفه تصنع هذا النور، وكان (رستم) على موعد دائم مع الشمس، وحساب الوقت المعلوم لصناعة الإنتصار في المعركة وقلب موازين الكفة من الظلام إلى الضياء.

فالزمن المقدر بعناية هو ثمن الحرية والفوز، وإن الاستعانة بذوي المشورة الذين يحسنون تدبير الأمور هو ربح للوقت في حد ذاته، فرستم يسأل (أولاد): "الآن دلني على هذا الجني، فقال: إن

الجن إذا حميت الشمس ناموا، فلا يبقى على باب المغارة إلا قليل من الحراس، فتهجم عليه في ذلك الوقت وتأخذه".⁽¹⁾

4- الزمن في الرحلة الملحمية في عالم الأحياء عند الإغريق:

أ- في رحلة الأوديسة:

دامت رحلة (أوديسيوس) في ملحمة الأوديسة عشر سنين كاملة، غير أن (هوميروس) سرد أحداثها مقسما مراحلها إلى فترات متقطعة:

1- سرد الشاعر بعض أحداث الرحلة: يبدؤها تقريبا من أشهرها الأخيرة حيث يكون البطل قد قضى بعضها الأقل متنقلا بين البحار والجزر، وبعضها الأكثر محجوزا لدى (كاليبسو) الحورية، فيبدأ التفاوض بشأن السماح له بالإبحار من جديد.⁽²⁾

2- سرد الرحالة نفسه معظم أحداث رحلته بطريقة استرجاعية، قص بها مغامراته منذ خروجه من طروادة حتى وقوعه لدى مضيفه الملك ألكينوس الذي يجلس في حضرته ويقص عليه خبره.⁽³⁾ حيث يبدأ نص الرحلة من قلب نص الملحمة، بعد أن يصل الرحالة وحيدا كسيرا إلى شواطئ (الفيثيانين) وتعثر عليه الأميرة (ناوسيكيا) (ابنة الملك ألكينوس) الذي يداوي جروحه، ويقوم مآدبة على شرفه، حينها يشرع الرحالة في قص مغامراته ومسيرة رحلته منذ أن بارح طروادة المتفحمة.

¹ - الفردوسي: الشاهنامه، تر/ البنداري، ص 114.

² - هوميروس: الأوديسة، ترجمة دريني خشبة، ص 7 إلى 84.

³ - السابق، ص 84 إلى 130

3- يعود (هوميروس) إلى سرد بقية الرحلة منذ أنهى الرحالة حكايته للملك وحتى العودة إلى الوطن واستعادة المملكة.⁽¹⁾

4- يتخلل سرد الشاعر تدخل الرحالة بقصتي رحلتين لبطلين يخترعهما ليقنع صديقه (يومايوس) الراعي الأمين بشخصه المزعوم:⁽²⁾ "سأقص عليك من أنبائي التي لا يأتيها الباطل ما لو لبثت عندك عاما كاملا... إذا فأنا ابن (كاستور هيلاسيد) أحد سرة كريت"⁽³⁾، وحتى يقنع أيضا زوجته (بينيلوب) بأنه مجرد متسول محظوظ.⁽⁴⁾

5- سرد الشاعر أيضا وفي الجانب الموازي لنص الملحمة/ الرحلة، رحلة أخرى، هي رحلة (تليماخوس) الفتى الابن للرحالة (أوديسيوس)، ذاك الذي خرج من (إيتاكة) يتنسم أخبار أبيه، ويسأل عنه رفاق الحرب والبحر.⁽⁵⁾

ويجعل ملك اسبارطة (منيلوس) يحكي للفتى قصة رحلة عودته إلى الوطن، وما رأى فيها من عجائب ومغامرات.

فالمحمة الرحلة تبدأ من منتصف الأحداث، إذ كان البطل (أوديسيوس) على وشك الوصول إلى (إيتاكة) الوطن الغالي (تسعة أيام)، غير أن تقنية الشاعر هوميروس تجعله يقص أحداث وخطوات رحلته بالعودة إلى بداياتها، وإلى أولى ساعات انطلاقها، وإلى جميع الأماكن التي زارها أو مكث بها أو مر بصفافها.

¹ - السابق، ص 130 إلى 211.

² - السابق، ص 145 إلى 148.

³ - السابق، ص 145.

⁴ - السابق، ص 178، 179.

⁵ - السابق، ص 25 إلى 44.

اهتم هوميروس بالزمن لذلك نجده يبني النص بناء زمنيا حسب ما يراه مناسباً من تفاصيل الأحداث، ويتحدث بدقة عن كميات الوقت المستهلكة في هذا الحدث أو ذاك. كما كان (أوديسيوس) الرحالة أيضاً على وعي عميق بقيمة وأهمية الزمن، لذلك وهو يقص أخبار رحلته راح يشير إلى المدد الزمنية، التي تصنع أحداث رحلته، وتعطي قيمة أخرى للمكان، وحيث كان (أوديسيوس) يعلم مسبقاً قبل مغادرته أرض الوطن أنه سوف يتجول رغم أنفه مدة عشرة أعوام، قبل أن يعود، هكذا أعلنت النبوءات على اختلافها⁽¹⁾، وبالتالي لم تكن مفاجأة بالنسبة إليه أن يمكث هنا أو هناك كل هذا الوقت، وكان مستعداً نفسياً للتجوال وقد تحصن بالصبر.

وكان الزمن ينقسم في رحلته قسمين بحسب موقعه:

أ- على البرّ: والبر كله جزر، قضى بها الرحالة الوقت الأعظم من الرحلة:

- سنة واحدة: جزيرة سيرسة (أيايا).

- سبع سنوات: جزيرة كاليبسو (أوجيجا).

ب- على البحر: رغم أسطورية الرحلة الأوديسية، إلا أنها كانت منطقية جداً في توزيع الزمن بين البر والبحر، إذ لم يكن أوديسيوس يمكث على سطح البحر إلا أياماً معدودات، ولكن بعض هذا الوقت المعدود، هو ما يمكن أن يكون أطول مما يعده على ظهر البر، فلا يُسأل إن كان هادئاً والرياح رخاء، ولكن يُسأل إن كان هائجاً وهو على طوف يوشك أن يغوص، أو على سفينة غاصت وتركته سابحاً عشرة أيام، فهذا مما يُعدّ بطول السنين.

¹ - شعراوي، عبد المعطي: أساطير إغريقية، ج2، ص 397.

- (إسماروس): كانت أول معركة للرحالة هي معركته مع الزمن، وكان الفشل الذريع نصيب الرحالة ورفاقه لأنهم لم يحسبوا لقوة الزمن حساباً، إذ حين خرجوا من (اليوم) نحو (إسماروس) وعثوا فيها مفسدين، تمهلوا فيها بعد الغنيمة، وضيعوا الوقت في شرب الخمر وعقر الشاء، وهذا ما مكّن أهالي المدينة من جمع شتاتهم، ورد الضربة بقوة على الغزاة من بحارة أوديسيوس فألقوا بهم في البحر مهزومين، وقد فقدوا ستة من رجال كل سفينة.

- (السيكلوب): لقد أخطأ (أوديسيوس) لما تمهل في كهف (السيكلوب) ينتظر إياهم، لقد أفسد شطرا من زمنه من أجل أمر غير ممكن الحدوث إذ أنه كان يحدس أن صاحب الكهف غير مضياف، ولكنه استطاع استغلال فرصة غياب (السيكلوب) طيلة النهار . في المرعى . ليصنع الودت الذي يفتأ به العين الوحيدة لمضيفه البخيل، كما استغل فترة نومه لينجز خطته.

- (أبولوس): كانت الرحلة على وشك أن تنتهي، فتمتو أزاهير كثيرة على ربي (إيتاكة) المنتصرة برجوع الرحالة ورفاقه، وكان عطر عشبها يصل خياشيم (أوديسيوس) عندما قهره الزمن بالنوم، النوم صنو الموت ومحو لكل معنى للوقت، النوم اكتسح جفني الرقيب على جعبته ورحلته، لحظات معدودات خرج فيهن الرحالة من زمن الرحلة، ليبقى فيه طويلاً⁽¹⁾ بفعل لحظة غباء رفاقه الذين تطفلوا على الجعبة، فأطلقوا سراح الرياح، ليقولوا بعدها وداعاً (إيتاكة) إلى أبد الآبدين، إلا هو المغدور . فلو أنه قهر زمن الغفوة ما خسر رفاقه جميعاً، ولرجع سريعاً.

¹ - زمن سوء الأحوال الملاحية وتأثيره في زمن الرحلة (هل يمكن أن نرجع سبب تباطؤ الرحلة إلى واقع ملاحٍ؟! لقد كانت طروادة تسيطر على الهلسنت (الدرانييل) الذي كان طريقاً تجارياً لدول المدن اليونانية إلى آسيا، وكانت التجارة مع الشرق قد تطورت بالفعل في دول هيلاس الكبرى إلى الدرجة التي كان يجب الإنتفاع فيها بكل ظرف موات، وذلك لأن دول المدن هذه كانت أكثر من أن تقف عند حد الإكتفاء الذاتي، وكان ازدهارها يتوقف على بيع البضائع بتصديرها، وكان أيسر الطرق في الأحوال الجوية السيئة هو الهلسنت، وكانت طروادة تتحكم في هذا الطريق... كانت الملاحة في بحر إيجه والبحر المتوسط لمدة لا تقل عن ألفي سنة قبل آخر تاريخ حدد للحرب الطروادية علماً راسخ الدعائم رسوخاً كبيراً، ولقد كان في وسع الملاحين ألا يلقوا بالا للرياح الأيولية أو لعصفات التيار المضاد الغربية التي تأتي في فصول معينة من الإقليم الواقع وراء مصبات النيل، ولكنهم كانوا يعلمون متى تحدث، وكانوا يعملون لها حساباً. (راسكو برتون: عمالة الأدب الغربي، ص 60).

- (اللوئوفاجي): من بين أهم محطات الرحلة خلال مساراتها العديدة، كانت محطة أرض آكلي ثمرة اللوتس هذه الثمرة السحرية العجيبة التي تنسي آكليها ذكارتهم، وتمحو علاقتهم بالزمن "وعندما يعلم أوديسيوس بهذا، فإنه يسرع بحمل رجاله بالقوة إلى سفينته والإبحار بهم بعيدا حتى لا ينسوا وطنهم"⁽¹⁾ وهذا هو رأس مال الرحالة: الذاكرة والوطن، وعملته هي المؤشرات الزمنية التي يجب أن يحافظ عليها حتى يعود وهو مدرك لماضيه لبناء مستقبله، وهو الآن رهين ثلاث ذكريات:

- ذاكرة إيتاكة وقلبه فيها.
- ذاكرة طروادة وحربه بها.
- ذاكرة الرحلة ومساره فيها.

(سيرسة): رغم أن معظم المصادر تتحدث عن بقاءه مدة سنة واحدة إلا أن مصادر أخرى تتحدث عن تأويل آخر للفترة الزمنية التي عاشها الرحالة في (إيايا) جزيرة (سيرسة) "دون أن أدري أنني وباقي الناجين كنا على جزيرة الفاتنة (كيرس) قابلها رجالي وأغرموا بها وبحركة من عصاها السحرية انقلبوا خنازير، هيرميس أحد الآلهة، وهو من يرسله (زيوس) لنجدي دائما، وقد سبق أن ساعدني منذ فترة قريبة، أعطاني عشبا يقوم بحمايتي منها ومن جمالها الساحر، ومن عصاها السحرية، ظللت بين حوائط قصرها خمسة أيام وست ليال، لأدرك بعدها أن العالم قد خاض خمس سنوات ونصف في غيابي، فقد كان القصر مسحورا، وكان اليوم بعام كامل خارج تلك الحوائط"⁽²⁾

(جزيرة الشمس): حذرت (سيرسة) كما فعل تريسياس أيضا الرحالة من النزول بجزيرة الشمس، فإن أي لحظة فيها قد تحدث الكارثة للرحلة، لذلك قرر (أوديسيوس) عدم الإقتراب منها، ولكن الرفاق

¹ - السيد، صلاح: الأوديسية، ص 19.

² - كامل، مجدي: الإلياذة - الأوديسية، دار الكتاب العربي، دمشق، القاهرة، ط1/ 2009، ص 339، 340.

توسلوا إليه ورجوه في أن يسمح لهم بالمبيت ليلة واحدة فقط، فأخذ "منهم ميثاقا بالمغادرة في الصباح الباكر، ولكن وقبل بزوغ فجر صباح اليوم التالي، تهب رياح قوية قاسية تحول دون مغادرتهم الجزيرة مدة شهر كامل"⁽¹⁾ والحقيقة أنهم صبروا وجالدوا الجوع والإستقزاز من قطيع (هيلوس هوبيريون) الذي كان يغدو ويروح متبخترا أمامهم، كل هذه المدة، حتى نفذ صبرهم وتحينوا فرصة نوم سيد الرحلة فانقضوا على القطيع ذبجا وشواء، وعلى العهد نقضا وفسخا، يقول المسكين:

"ومن ثمة أخذ رفاقي المخلصون يسوقون أفضل ثيران هيلوس ويأتمنون بها لمدة ستة أيام (هوميروس: الأوديسية، الكتاب الثاني عشر، أبيات 397، 398)."⁽²⁾

وفي اليوم السادس من الوليمة. هدأت الرياح، فتمكنوا من الإبحار في اليوم السابع، وهكذا كانوا قد أمضوا ستة وثلاثين يوما بهذه الجزيرة، وفجأة تهب الرياح الغربية العاتية، وتهطل الأمطار ويموج البحر ويتلاعب بالسفينة حتى تحطمت تماما وغرق جميع من فيها، عداه الذي بقي سابحا في الماء مدة تسعة أيام، وفي العاشر وصل (أوجيجيا) التي أمضى بها سبعة أعوام كاملة⁽³⁾

بطريقة بارعة، شبيهة بتقنية الرحالة في عالم الحقيقة ظل الرحالة يشير إلى كل حدث وتوقيته ومدته، ومدى تأثير كل ذلك على الرحلة ورهانها، بعدم النزول إلى الجزيرة، ولو لليلة واحدة، فقد ترتب عليه وقائع مفجعة إذ حوصر فيها بالأحوال الجوية المعيقة على الإقلاع، ثم حوصر الرفاق بالجوع والإستقزاز من وعول الشمس المحمية بالعهود والمواثيق، وإن كل يوم يمر هناك في تلك

¹ - السيد، صلاح: الأوديسية، ص 45.

² - نفسه.

³ - السابق، ص 46.

الجزيرة هو اقتراب من المأساة الدموية الرهيبة التي أودت بحياة كل الرفاق الذين تبقوا رصيدا للرحلة والرحالة، من دمع القلب المهاجر من إيتاكة اليتيمة كثيرا بفقدهم جميعا.

(كاليبسو): أشارت (كاليبسو) إلى تأثير الزمن في الأنثى، فالمرأة عرضة للتجاعيد والترهل، كلما تقدمت بها السن، إنها تعلم مصير البشر الذي ينتهي بالشيخوخة والموت، فهي تحذره من سوء المنقلب في أهله وخيبة أمله حين مقابلته لـ (بنيلوب) العجوز، ولكنه يجيبها أن الزمن واحد وإن شطّ الفضاء بينهما، فمثلا يكون قد عبث بملامحها، فهو قد فعل ذلك معه أيضا، وحَرَفَ شيئاً من ملامحه، ولكن ملامح القلب باقية لا تتغير، إذ يمكنها أن تصبر وتقاوم وتبقى على حالها دون تشوه، وأن تتجدد لو تعهد لها صاحبها بالذكرى الطيبة، فهي العزاء عن الجلد المتجدد. وهكذا "تشارك كالوبسو مع آكلي اللوتس، وكيركي، وسيرينيات في إفقادهم للزمن وللذاكرة لمن يصل إليهم"⁽¹⁾

جزيرة سخيريا/ الملك ألكينوس وابنته ناوسيكاً/ شعب الفاياكيا (الفيثيانين): هم شعب بحري أسطوري وضعه هوميروس على جزيرة سخيريا والمعروفة بأنها جزيرة كوركورا، بغرب بلاد اليونان، وتعرف الآن باسم كورفو،⁽²⁾ ونلاحظ هنا أن أوديسيوس أمضى ثلاثة أيام وثلاث ليال كاملة بجزيرة سخيريا، وأن هذه هي المدة الوحيدة التي يغادر فيها أوديسيوس مكانا بعد غروب الشمس وليس بعد شروقها، ونلاحظ كذلك أن مغادرته لشعبها يمثل مغادرة العالم الأسطوري، الخيالي والعودة مرة أخرى إلى العالم الواقعي.⁽³⁾

¹ - السابق، ص 167 (الهامش).

² - نفسه.

³ - السابق، ص 172 (الهامش).

وهكذا أعطى الشاعر (هوميروس) برحالته (أوديسيوس) درساً جميلاً في مدرسة الرحلة، إن الزمن لا يفعل كل شيء؛ بل يمكن للإنسان الفاني المقهور بالزمن الجبار، أن يعيش أجمل العمر لما يصنع بهجته خارج آلة الوقت، وقد لا يستطيع أن يفعل ذلك لو منح الخلود، أي رقبة كل الزمن.

كانت رحلة (أوديسيوس) تجالذ الزمن أكثر من جهادها المكان، فالهدف كان في أن يتحدى الرحالة النسيان رغم طول الزمن، وأن يبقى وفيًا وصبوراً متمسكاً بأمل العودة إلى الوطن والأهل، وأن الزمن لا يمكنه - أحياناً - أن يقهر بعض المبادئ والعواطف، مادام الإنسان متشبثاً بها ووثاقاً منها.

فالرحالة لم يفتر في جهاد العودة ومقاومة الإغراءات والتصدي للمكاره وتحدي العوائق والصعاب... وزوجته بنيلوب لم تقتر عزيمتها هي الأخرى في جهادها بالوفاء والحنين والانتظار والصبر ومجادة الإستقرازمات... إنها الطرف الآخر الذي كان ينتظر العودة بصبر لا يفرغ ولا ينضب، لذلك راهن هوميروس على عامل الزمن الطويل ليصنع من الرحالة بطلاً، عكس أبولونيوس الذي راهن على الزمن القصير ليفجع عدوه بأوبته السريعة الظافرة محققاً البطولة الباهرة.

المفارقة في رحلة (أوديسيوس): هي مفارقة زمنية، ففي الوقت الذي نستشعر فيه العدالة والمنطقية بين المسافات الكبيرة لمسارات الضياع والنتية، والفترة الزمنية المستهلكة نتفاجأ بأن ذلك ليس إلا صدفة ومجرد تهويل، إذ أن الذي امتص الزمن الطويل هو المكان المغلق (الحبس/ الحجر/ الحصار) المفروض والجبري من طرف الحورية (كاليبسو) سيدة جزيرة أوجيجيا على الرحالة (أوديسيوس) وهو فرد وحيد.

- كما كان السكون إلى الدعة والطمأنينة والهدوء، والإستسلام للملذات والشهوات في قصور الساحرة الجميلة (سيرسة) سيدة (أيايا) بفعل رضوخ إختياري وتواطؤ الرحالة مع جميع رفاقه نفسيا دون ميثاق.
- وهكذا تتغلق الأمكنة ليبقى الزمن مفتوحا في الواقع ولكننا ننظر إلى الفضاء المفتوح/الواسع جدا (كل حوض المتوسط) والذي يعادل زمن الرحلة الافتراضية.
- إن الرحلة استهلكت الزمن الساكن أكثر من استهلاكها الزمن المتحرك، فزمن الحركة لم يتعد الأشهر (أقل من سنتين).

ب - في ملحمة الأرجوناوتيكا:

حاول الشاعر أبولونيوس أن يرد على نقد أستاذه بما رآه قسطا وعدلا تلميحاً لا تصريحاً، ولكن لما بلغ السيل الزبى، وشط عليه بهجاء فاحش مقذع غيره بعدم القدرة على نظم الملاحم الطويلة مثل الأرجوناوتيكا المجيدة!⁽¹⁾، وظل متشبثاً برأيه ومبادئه مثل أستاذه لا يلين ولا يتراجع، وظلت الأرجو تبخر في الزمان والمكان ألفي عام حتى أدركتنا مثلما أبحرت ألفي عام قبل أن تدرك سيدها الثاني أبولونيوس الرودي الذي كان رحالة أيضاً جاب الأقطار والأمصار رفيقا لبطله (جاسون) وبطل الأسطورة الغابرة التي صنع منها تحفة أدبية تكالب عليها الحساد وما تمكنوا من إغراقها أو إعاقة تقدمها في البحر والبر، وأبحرت في سلام وعادت في سلام محققة نصرا مؤزرا بإعادة الجزة الذهبية السلبية وعاد أبولونيوس بنصر مؤزر بإعادة الملحمة إلى عصرها الهومييري الذهبي، لقد فاز البطل ذات زمان، وفاز الشاعر كل الزمان، شاعر الأسطورة القديم المجهول،

¹ - إبراهيم، محمد حمدي: الأدب السكندري، ص 215.

وشاعر الملحمة الجديد الذي أحيّاها وبث فيها روحا خالدة باقية ما بقي دهر فيه شعر وشاعر وبطل.

الأرجوناوتيكيا ومرجعياتها:

إنّ لقد كانت الأرجوناوتيكيا الرحلة - الملحمة - بعيدة ثلاث مرات:

- 1 - مرة عن سياق أحداثها الأسطورية بحوالي ألف عام (1200 ق.م).
 - 2 - ومرة عن سياق نصها الأسطوري بأكثر من ألف عام أيضا (الأساطير الإغريقية ظهرت قبل القرن العاشر قبل الميلاد).
 - 3 - ومرة عن سياقها الملحمي وأنموذجه، فالتقاليد الملحمية الإغريقية الهومييرية العريقة، قد استهلكت منذ أكثر من خمسمائة عام (منذ 800 سنة ق.م)
- ورغم كل هذا فقد جاءت في حلة جميلة هادئة استقبلها جمهور عريض بالترحاب والفرح، ومازالت إلى يومنا هذا تستقبل في سياقات مختلفة لا تمت إليها بصلة؛ إلا صلة التمتع بالجميل التليد، الذي يزداد بريقا وتألّقا مع الأيام والسنين والقرون.

كان جاسون مثل الخبير الإقتصادي في تعامله مع الزمن، ولهذا "نلاحظ أن الرحلة استغرقت ثلاثة وأربعين يوما ذهابا، وثمانية وثلاثين إيابا، أي واحد وثمانين يوما الرحلة جميعها ذهابا وإيابا وترجع صغر⁽¹⁾ مدة الرحلة . رغم طولها . إلى كونها رحلة في مهمة خاصة، وليست بالرحلة

¹ - صغر (قصر) مدة الرحلة: ترى مصادر أخرى أن المدة كانت أطول: "ذات أمسية من أمسيات الخريف وصل ياسون ورفاقه أبطال السفينة أوجو إلى شاطيء باجاساي، ذلك الميناء الذي خرج منه الأبطال سعيا وراء الحصول على الفروة الذهبية تلبية لرغبة الملك بلياس، قضى الأبطال أعواما أثناء رحلة الذهاب والعودة" عبد المعطي شعراوي: أساطير إغريقية، ج2، ص 189، 188.

الإستكشافية"¹) سرد أخبارها الشاعر (أبولونيوس) جملة وتفصيلا نيابة عن رحالته مركزا عن واحد وعشرين محطة توقفت فيها سفينة (الأرجو)، مع أن البطل سيقص على مضيفه الملك لوكوس بعض ما مر به من أحداث أثناء رحلاته منذ خروجه ورفاقه من بلادهم (يولكوس) حتى وصولهم محطة رأس (آخيروسيس).

رغم أن مسار الرحلة كان كثير المحطات إلا أن جلها اضطر إليها الرحالة ورفاقه، بسبب قلة المؤن والإجهاد، وكان هدف الرحلة هو المعجل بها، والمحفز لخطواتها، والمسرّع لعجلاتها، جاعلا الرحالة جميعا كقلب رجل واحد، همهم الأعظم هو العودة بسرعة إلى الديار، وقد يبدو هذا في خط الأوبة، أكثر من ملاحظتنا له في مسار الذهاب، رغم أنه مختلف عنه جغرافيا، وطبوغرافيا، وملاحية، فلم يسلك البحارة نفس الخط رغم أن المنطق يقول أنّ الإقتصاد في الزمن يكون في الخط المعلوم الذي خبره وألفه الرحالة وطاقم رحلته.

كان مسار الرحلة خطيرا جدا، ومحطاتها تحمل الكثير من المفاجآت غير السارة، ورغم ذلك لم يدع الرحالة هذه الشدائد تعيق حركته السريعة إذ كان يحارب جبهتين:

1. جبهة الفضاء الذي لا يستطيع تحريكه.
2. جبهة الزمن المتحرك الذي لا يستطيع إيقافه: إذ كان الزمن يجري بغير هوادة نحو الأمام والمستقبل دائما، ولا يرحم المتساقطين من سفينته، فراح (ياسون) يغامر بالتجذيف محايثا له، كان يريد أن يجعل منه رفيقا لرحلته وصديقا، وقد أصاب هدفه.

وإذا ما استعرضنا مقطعا صغيرا من نص الرحلة، بدا لنا كم كان الإهتمام بعامل الزمن في حياة الرحلة، ومنذ الإنطلاقة الأولى، حيث يعدد الشاعر بسرعة الأشواط التي قطعتها وهي تنساب

¹ - السيد، صلاح: رحلة الأرجوناوتيك، ص 47.

كالسمكة الزئبقية الملمس: "وفي خلال اليوم الأول من الرحلة تمر السفينة على جبل بيليون Pelion وسيبياس Sepias وعلى جزيرة سكياثوس Sciathus، وبعد إبحاره لمدة يوم واحد تجبرهم الرياح القوية على النزول إلى شاطئ ماجنيسيا Magnesia... ويقوم ياسون ورفاقه لمدة يومين على هذا الشاطئ، وفي فجر اليوم الثالث تستأنف الرحلة طريقها وسرعان ما تصل إلى شبه جزيرة باليني Pallene، وبعد يوم من الإبحار تصل الرحلة إلى جبل أثوس Athos في مقدونيا، ومن جبل أثوس تعبر الرحلة البحر من الغرب إلى الشرق وهي تعاني شدة الرياح طول النهار والليل حتى تصل في الفجر وعند شروق الشمس إلى جزيرة لمنوس⁽¹⁾."

ومما يثير الإعجاب هو ارتباط كل لفظ زمني بلفظ جغرافي، فلا معنى لعبارة "خلال اليوم الأول" إن لم ترافقها عبارة "تمر السفينة على جبل بيليون وسيبياس وعلى جزيرة سكياثوس" فندرك مدى حرص البحارة والرحالة على قهر الأمكنة بأقصر معدود من الأزمنة لقهر الملك (بلياس) وشرطه المجحف الظالم، وقهر جهله بالعالم خارج المملكة التي اغتصبها من أخيه.

إن الزمن الأسطوري الذي صنع رحلة الطفلين من مملكة الإنطلاق ذاتها (تساليا) إلى مملكة الوصول نفسها (كورخيس) على ظهر الخروف ذي الجزة الذهبية، كان يوحي بأن الزمن الأسطوري مازال قائما في اعتقاد الرحالة ورفاقه، وهذا ما غفل عنه العم (بلياس)، وأعماه سوء تقديره لعواقب الأمور، في حين كان الزمن خير ناصح له، لو تأمل قصة الجزة الذهبية . عينها . تلك التي أرسل القوم في طلبها، فكما قبض الله للطفلين سبيل النجاة من الظلم برحلة معاكسة للزمن باختراق الأجواء والأنواء، فيمكن لـ (الأرجو) أن تتجح أيضا، ويظهر بين ليلة وضحاها ألها وقد عادوا ظافرين! وفعلا فعلوا!

¹ - السابق، ص 20.

جزيرة لمنوس: صراع النسوة ضد الزمن:

أجبرت العاصفة (الأرجو) على التوقف في جزيرة لمنوس، تلك الجزيرة التي قتلت نسوتها كل رجالها في لحظة غضب وانتقام، ثم رأين أن وجود الرجل ضروري لأعمال كثيرة لا تستطيع النساء القيام بها خاصة بعد أن يهرمن، فحاولن استبقاء بحارة (الأرجو) "فهن لا يستطعن بمفردهن مواجهة أعباء الحياة، من حرث وزراعة وحصاد محصول، وماذا يفعلن صغيرات السن إذا تقدم بهن العمر ثم رحلن"⁽¹⁾ إذ كانت سفن العمر العابرة على الأجساد تقلقهن على مصيرهن، الذي سيذوب ويزول دون مساعدة أو اهتمام، فعزمن على ترقيع مجرى الزمن بسلبه من طاقم الأرجو المتعجلين، فاستمهلنهم أياما، ضيوفا مكرمين حتى صاح هرقل بالغافلين أن هبوا إلى رحلتكم مسرعين.

الحزن يلتهم الإحساس بالزمن: بعد أن يفر من نسوة (لمنوس) ويسترد وقته الضائع بالعدو بين الأمواج "وطلبا للراحة والمؤن يتجه ياسون ببهارته إلى ميناء خوتوس Chytus التابع لأملاك الملك كوزيكوس Cyzicus ملك الدوليين، ويغادرها في الصباح ولكن في أثناء الليل تهب رياح عكسية قوية تعيدهم مرة أخرى إلى الميناء، إلا أن الدوليين ظنوا بحارة الأرجو أعداء لهم فهاجموهم وحاربوهم، وقاتل كل منهما الآخر دون أن يعرف حقيقته"⁽²⁾ وعلى نور الشمس أدرك الجميع فداحة خطبهم؛ إذ كان الملك مسجى على الأرض بين القتلى "وظل البحارة إثني عشر يوما في هذا الحزن حتى رحلوا صباح اليوم الثالث عشر عن جزيرة كوزيكوس"⁽³⁾ إذ استهلك الحداد من الرحلة إثني عشر يوما، لم يستطع خلالها أهل الأرجو إبداء أي حركة اتجاه الرحلة، فقد أخطأوا بقتلهم الملك المضيف، دون أن يدركوا ما يفعلون، فالمشاعر القاهرة، التي تسحقنا بسبب ما جنت أيدينا

¹ - السابق، ص 22.

² - السابق، ص 24.

³ - السابق، ص 25.

تلتهم بعض ما ادخرناه من سويغات اقتطعناها من العمر اقتطاعا، فالحزن يوهن حركة الجسم بينما الزمن مازال في عدوه المستقيم نحو المستقبل.

لقد تحدى (ياسون) الزمن في رحلته وبرحلته، وقد نجح في الاختبار، وعاد منتصرا، محققا الهدف: العودة، واستعادة الجزة الذهبية، وحقق فوزه بأقصر مدة ممكنة، نصرنا باهرا لأنه لم يكن هناك من ينتظر أوبته بتلك السرعة، فالملك (بيلياس) عمه، كان يريد أن يتخلص منه نهائيا، لذلك فقد كان يتمنى له الموت أو الفشل أو الضياع إلى الأبد. وأمه التي صورتها الرحلة في مشهد مؤثر وهي تودعه، ربما تكون هي الأخرى قد أيست من رجعت، وهي التي أبعد عنها وهو طفل صغير.

زمن الموت (سيرت - ليبيا): يرد الحديث عن الزمن على لسان الرحالة البطل جاسون:

"والآن ماذا نفعل والرياح تحتجزنا كي

نقيم هنا فترة قليلة من الزمن؟ والتخم

الموحش ينتشر عبر الأرض الواسعة

(أبولونيوس الرودي: الأرجوناوتيكا، الكتاب الرابع، أبيات 1256 . 1258)⁽¹⁾

إن صحراء ليبيا موحشة مقفرة، تعول على الزمن حتى تفنك بزوارها الذين لا يجدون بُداً من النزول في ضيافتها، فيهلكون إذا استمروا لاثنين على أرضها الجذباء وعيون الزمن محدقة بهم. ولكن حوريات ليبيا الحارسات يوحين إليه بفكرة حمل السفينة والهروب من ذلك المكان بسرعة.

"عليكم أن تحملوا سفينتكم بقوتكم وشجاعتكم

¹ - السابق، ص 42.

عبر رمال ليبيا الموحشة، كما حملتكم سفينتكم

بداخلها من قبل. ولأنكم في ريعان الشباب، فعليكم

أن تحملوها على أكتافكم لمدة إثني عشر يوما وليلة كاملة بالمثل.

(أبولونيوس الرودي. الأرجوناوتيكا. الكتاب الرابع. أبيات 1384. 1387) ⁽¹⁾

وهكذا يقايض الرحالة زمن ليبيا القاتل بقوة سواعدهم الأسطورية فيحملون الأرجو على أكتافهم
إثني عشر يوما وليلة حتى يضعوها في ماء بحيرة (تريتون) الجارية التي تدفع الأرجو نحو جزيرة
كريت فينجون من موت محقق كان يطرق أبواب حيواتهم جملة.

مضيق سمبلحيز: من بين المغامرات المدهشة التي تقوم بها سفينة (الأرجو) وبحارتها هو مرورهم
بمضيق (سمبلحيز) الخطير حيث تقف على الجانبين صخرتان هائلتان تسحقان كل سفينة تعبر
المضيق، وعندما وصلت السفينة باب المضيق أرسلوا حمامة شقت طريقها بين الصخرتين وعبرت
بسلام، ولم تقعد سوى بعض الريشات من ذيلها، فقد (جاسون) وبحارته المدة التي يستغرقها
العبور الآمن، فأجهدوا أنفسهم في التجديف السريع ليعبروا كما عبرت الحمامة، فمروا بسلام. ⁽²⁾

لقد ظل نص الأسطورة القديم، ونص الملحمة الحديث يعتني إلى أقصى حدود الإعتناء بمعنى
وقيمة الوقت في حياة الرحلة والرحالة و(الأرجو) رغم ذلك (الجهاز) البدائي جدا الذي استعمله
جاسون (الحمامة)، إلا أنه كان ناجعا حين أمكنه تقدير الموعد الزمني لإطلاق الحمامة، ثم الفترة
الزمنية التي احتاجتها للإجتياز، ثم عزمه وكفاحه لتنفيذ المغامرة في الوقت المقدر بدقة متناهية

¹ - السابق، ص 42، 43.

² - إمام، عبد الفتاح إمام: معجم ديانات وأساطير العالم، ج2، مكتبة مدبولي، القاهرة، د. ت، ص 222.

جدا، ليُكْتَبَ له نجاح العبور نحو الهدف، والنجاح في الحفاظ على السفينة والرفاق دون أي أذى يذكر.

المستقبل والعرافة: نظرا للأهمية القصوى التي توليها الرحلة للمستقبل فقد وظيفة ثلاثة عرافين شاركوا الرحالة مسيرته (أمفياروس، آدمون، موبسوس) يفسرون الأحلام وحركات الطفل، كما أنهم يلتقون بالعراف الضرير (فينيوس بن أجينور) الذي كان يعيش محنة كبرى مع طيور الهاريات التي تتقض على طعامه، فيساعده الأرجوناوتيكيون في التخلص منها، وبإمتنان عميق يشرع فينيوس في التنبؤ لرفاق الأرجو بمستقبل رحلتهم إيابا، وما تبقى لهم من ذهابهم سيشير إلى العراقيل وينبه إلى كيفية التخلص منها وتجاوزها "وجلس العجوز نفسه وسطهم بالقرب من المدفئة متحدثا عن نهايات إبحارهم وتمام رحلتهم" (أبولونيوس الرودي: الأرجوناوتيكا، الكتاب الثاني، أبيات 309 - 310) واستمرت نبوءته عن مستقبل رحلتهم على مدى واحد وتسعين بيتا وكانت هذه النبوءة دون مسعى أو مطلب منهم⁽¹⁾ ولكن يبدو أن الشاعر وظف هؤلاء خدمة للمتلقي أو تقنية تسهل عملية نقل وقص بعض الأخبار والأنباء قبيل حدوثها لمزيد من التشويق والتنسيق ولتفسير بعض الأحداث أو المواقف. بحيث لم يجعل البحارة خاضعين للمعلومة التي يكمن مصدرها في العرافة.

5- الزمن في الرحلة الملحمية في عالم الأحياء عند الرومان:

- في الإنيادة: دامت رحلة (إنياس) أكثر من ثماني سنوات، غير أن فيرجيل سرد أحداثها مقسما مراحلها إلى فترات متقطعة:

¹ - السيد، صلاح: رحلة الأرجوناوتيكا، ص 135.

أولاً⁽¹⁾: سرد فرجيليوس بعض أحداث الرحلة: يبدو أنها تقريبا من سنواتها الأخيرة، حيث كان إنياس قد قضى معظمها منتقلا بين الجزر والبحار، فيسرد الشاعر حادثة خروج البطل من صقلية وكيف ألقت به ورفاقه العواصف الهوجاء إلى شواطئ ليبيا (قرطاجنة) ويشمل هذا الكتاب الأول من الإنيادة.

ثانياً: يحكي الرحالة بنفسه معظم أحداث رحلته بطريقة استرجاعية (لواحق) وهو يجلس ضيفا على مأدبة شرفية تقيمها له (ديدو) ملكة (قرطاجنة) التي تطلب منه أن يحكي حكايته، فيقص عليها جزءاً من رحلاته والتي دامت مدتها "سبعة أعوام حتى الآن"⁽²⁾ وتشغل حرب طروادة من الحصار إلى الحريق، الكتاب الثاني من الملحمة، بينما يذكر بالتفصيل، والتتابع خطوات رحلته بعد خروجه من طروادة، إلى جبل أيدا (فريجيا)، وكل مساراته حتى وصوله إلى إفريقية.

ثالثاً: يمكث إنياس لدى (ديدو) ملكة (قرطاجنة) عاما كاملا. فيسرده (فرجيليوس) مع بقية أجزاء الرحلة التي ستتواصل بعد ذلك من (قرطاجنة) إلى (صقلية)، إلى (كوماي)، نزولا إلى عالم الموتى، ثم إلى (إيطاليا). (مطلع الكتاب السابع من الإنيادة).

كانت الرحلة تسير على خط زمني رتيب، إذ كان الرحالة يتخذ مساراته بحرا، ومحطاته في الجزر أو الأراضي القارية، وكانت تختلف مدة مكوثه على هذه الأرض أو تلك، وتختلف مدة إبحاره بين هذه الجزيرة وتلك أيضا.

¹ - نجد بعض الترجمات والملخصات للملحمة ترتبها ترتيبا منطقيا حسب الأولوية الزمنية، أي منذ بدأت قصة إنياس من حصار طروادة (قصة إنياس لا رواية فرجيل).

² - السيد، صلاح: الإنيادة، ص32.

أ- الماضي: وكان الماضي (إحراق طروادة) يعيش في ذاكرته ووجدانه، وبإشعاعه كان يرسم خط حاضره ومستقبله.

ب- الحاضر: كان حاضره الموج والعباب، أو البناء والتشييد على تلك الجزر التي كان ينزل بها ضيفا، وهو يظن نفسه مقيما (تراقيا، كريت...)، كان يحيا أيامه وهو ينظر إلى المستقبل ويتمنى أن يقفز إليه قفزا، حتى وهو يعيش في قرطاجنة معززا مكرما حين عرضت عليه ديدو الإستيطان في مملكتها، كان ينظر إلى هذا الحاضر على أنه ماض سيزول، ويموت على هذه الأرض، ليعت مستقبل أمته هناك في إيطاليا.

ت- المستقبل: صورة المستقبل وأمانيه كانت في ذاكرة الماضي، وفي خطوات الرحلة حاضرا، وكانت عينا الرحالة مليئة بالرؤيا، والأحلام، بهذا المستقبل الذي سيبدأ عندما تنتهي الرحلة.

■ كان أنخسيس الوالد يحدث ابنه بالآتي الجميل.

■ ورأته كروسا الفقيدة.

■ وهكتور القتيل.

■ وهيلينوس العراف.

■ والحكيمة الرفيقة سيبيل...

كانت العملة الزمنية للرحلة في حاضرها هي العيش بأمل للمستقبل القادم، من أجل الوطن الذي استهلكه الماضي وأحرقه الإغريق في طروادة الكبيرة القلب، ولقد أحرقت نسوة رفاق إنياس السفن في صقلية من أجل أن يعيش حاضره في سلام وأمان، فقد سحقهن الماضي وأتعبهن الحاضر المسافر من بين ضلوعهن، من أجل مستقبل لا يدرين هل هو قادم فعلا، أم سيمضين قبل قدومه. ففضلن راهن (صقلية) الحاضر على مستقبل (إيطاليا) الغائب.

أما إنياس فقد كان يرى أن الحياة الحقّة هي العيش بالإستقرار، ومدّ الجذور في مكان ينمو فيه السلام والهدوء، وهذا المكان يعيش في المستقبل.

ديدو: كان قرارها بوضع نهاية عاجلة لحياتها موقفاً من الزمن، الذي ظننته خائناً لها، لقد ظلمها الزمن وهو يسلب منها للمرة الثانية الشخص الذي أحبت، وأرادت أن تمنحه كل الحياة، لقد رحل إنياس، وأخذ معه زمن الحب والحياة الجميلة من ديدو، فكان موتها محواً لزمن عاشه إنياس في قرطاجة، لقد انتهى الماضي هناك بانتهاء زمن ديدو، فلم يعد أي شيء يربطه بتلك الأرض، لقد قدمت ديدو بموتها خدمة جليلة لمستقل إنياس الذي لم يبق ما يشده إلى الوراء، إن ماضيه هو طروادة، ومستقبله إيطالية، وتاريخه في قرطاجة قد تبخر وتلاشى مع دخان المحرقة.

الغريب أن زمن ديدو التاريخية (بناء قرطاجة)، هو غير زمن إنياس الأسطوري (سقوط طروادة)، أقحمه الشاعر فيرجيليوس صانعا بذلك أسطورة جديدة، لتلعب دوراً في تفسير زمن روما المستقبلي (حربها مع قرطاجة).

إن زمن ديدو في الحقيقة التاريخية هو مستقبل روما، ولا يعتبر أبداً من ماضيها، ولكنه بالنسبة إلى إنياس هو فترة من الدخول في المستقبل مثلاً فعل وهو يطرق العالم الأسفل، ليرى أحفاده وأحفادهم طوال ألف سنة أو أكثر، إذ كان يفترض أن تعيش ديدو زمن ريموس وروميلوس وروما، لا زمن إنياس.

لقد تلاعب فرجيل بثلاثة أنواع زمنية ومزجها مزجاً عجيباً في رحلة إنياس:

الأول: الزمن الأسطوري: الذي لا شك أنه ما تحدث أبداً عن ديدو في أسطورة إنياس الهارب من طروادة في أواخر الألف الثاني قبل الميلاد (1083ق.م).

الثاني: الزمن التاريخي: الذي يشير إلى بناء قرطاجة بيد الملكة الذكية (ديدو) الهاربة من فينيقيا.

الثالث: الزمن الملحمي: الذي تغنى بأمجاد وأصول الأمة الإيطالية، والشعب الروماني، وقياصرته وأباطرته العظام، خلال فترة زمنية طويلة جدا، منذ سقوط طروادة حتى أيام الشاعر، ومليكه أغسطس الممجد.

لقد جعل فيرجيليوس البطل إنياس يرحل من صقلية ليدخل إفريقية (ليبيا) ولكنه في الحقيقة أدخله زمن مستقبل تونس المتمثل في تأسيس وبناء قرطاجة.

قضى إنياس سنة كاملة وهو يستعد للرحلة العظيمة، ورغم مرور كل هذا الوقت إلا أنه بقي متشبثا بمشروع الرحلة ولم يتراجع عنه، فقد اختار أن يبقى كل هذه المدة حتى تتغير هذه الفصول وتدور دورتها، وحتى يجهز كل شيء من بناء الأسطول (20 سفينة)، إلى التزود بالمؤن الضرورية الكافية لعدد رفاقه، ولمدة رحلة مفتوحة الأمد، لم تقدرها إلا الأقدار.

عندما تبدأ الرحلة إبحارها نلاحظ أنها سريعة لا تستهلك وقتا طويلا في التنقل، فبسرعة يصلون (تراقيا) شمالا، ثم (ديلوس)، ثم يتجهون غربا مبحرين مدة ثلاثة أيام متواصلة دون توقف، يقول الرحالة: " ولقد غادرنا موانئ أوتيجيا ومررنا فوق البحر

وعلى ناكسوس التي تحتفل بباخوس على تلالها وعلى

دونوسا الخضراء، وعلى أولياريوس، وباروس الثلجية وعلى الكيكلاديس المتناثرة

فوق الماء، ولقد طفنا بالمضايق المحتشدة

عند الأراضي العديدة وارتفع صياح البحارة بتنافس متباين، وصاح الرفاق

علينا أن نبحث عن كريت والأسلاف. (فيرجيليوس: الإنيادة، الكتاب الثالث، أبيات 124، 129).⁽¹⁾

وعندما وصلوا كريت استثمروا كل دقائق العمر في البناء والتشييد، فسنوا القوانين، وتزوجوا، وبنوا المدينة الجديدة...

"وفجأة جاء وباء تعس وعام مميت

بشكل كافٍ بتعفن لأعضاء أجسادنا وللأشجار

عبر طريق فاسد في السماء، فكان عليهم أن

يغادروا حياة السعادة أو يجروا أجسادا مريضة.

إذ إن سيوريوس العقيم أصاب الحقول، وأخذ

الكأ يجف، والمحصول المريض يرفض الحياة. (فيرجيليوس: الإنيادة، الكتاب الثالث، أبيات 137، 142).⁽²⁾ ويظهر (سيوريوس) هنا مصطلحا زمنيا، فهو نجم الكلب، وهو ألمع نجم في مجموعته، ويمثل ظهوره فصل الصيف في أرض هيلاس، ويعني هذا أن الرحالة قد قضى سنة كاملة منذ أن ألق في رحلته.⁽³⁾ فهو قد خرج من طروادة صيفا، ثم خرج من جبل (أيدا) صيفا، ثم ها هو ذا يخرج من (كريت) صيفا أيضا، ليكون قدره مرتبطا بحرارة زمن الحريق واللهيب الذي خلفه في (ليون) المتقدمة.

¹ - السابق، ص 20.

² - السابق، ص 21، 22.

³ - السابق، ص 124 (الهامش).

كان إنياس يتوقف إختياراً واضطراباً في بعض الجزر، ويمكث فيها مدداً زمنية متباينة بين طويلة وقصيرة، وكان القضاء يمتحن بالعامل الزمني صبر إنياس في قوة طموحه ومراسه وصموده بالتمسك بإنشاء الوطن الجديد.

لم يكن إنياس عادة يندفع بقوة بنفسه من أجل الخروج لإتمام الرحلة بعد كل محطة يحلو له فيها البقاء، بل كان دافعاً خارجياً، مثل أوديسيوس: (ذكرني الرفاق) ومثل جاسون: "صرخ فينا هرقل الذي بقي بالسفينة". فقد كان هرمل رسول جوبيتر هو من يفعل ذلك، ولكن كان بمجرد أن يذكر حتى يهب قائماً.

- لقد كبر الطفل إسكانيوس (أيول) وصار شاباً يافعاً يحمل عن أبيه بعض مهام المعركة.

- لم تكن إيطاليا بعيدة عن طروادة، لكن الضياع في البحر هو الذي التهم المزيد من الوقت سدى كما يبدو، ولكن فرجيل (والأسطورة سلفاً) فرض هذا التأخر، وهذا التأخير، لحكمة سيجدها إنياس وهو بيني وطنه، وسيجدها الرومان وهم يعتبرون من أحداث الرحلة وزمن التأسيس.

ثانياً: الزمن في الرحلة الملحمية إلى العالم الآخر:

1- الزمن في الرحلة الملحمية في عالم الأموات في ملاحم العراق القديم:

• في ملحمة جلجامش:

الزمن والنوم: في رحلة جلجامش حديث عن النوم، لأنه سلطان دهري لا يغلب، مثل الموت تماماً بل قد يمرض الإنسان ويشرف على الهلاك ويبرأ فيعود أدراجه إلى الحياة، ولكنه إذا نعس نام، أو غفى، أو استسلم إلى سِنَّة عاجلة. فالنوم زمن خارج الزمن مقتطع من العمر، محسوب على الحياة

وما هو منها! إنه الضريبة التي يدفعها الأحياء لضمان استمرار الحياة. ولأن (جلجامش) يستيقظ بعد كل نوم، فقد طمع في أن يُبقي على هذه العملية، ولكنه لم يطمع في أن يقضي على النوم الذي يسرق أكثر من نصف العمر! فهو يتقدم بهدوء وخفة نحو كل أحد، وبطريقة لا تُفسّر، يسلب النظر والتركيز والنشاط.

لم تكن لجلجامش مشكلة مع الزمن، فقد كان يرى الأحداث وكان يعرف مصيره من خلالها، وقد كان بالإمكان أن يعتاد على غياب (إنكيديو)، ويسلوه فيعود إلى سابق عهده يفتش عن المجد في القوة والسلطان.

كانت حضارة بلاد الرافدين تمجد وتكرس قيم الجميل، فجلجامش نموذج للإنسان الجميل الذي يهتم بمظهره وأناقته، حتى أن (عشتار) المولعة بالجمال أيضا راحت تخطبه لنفسها، ولكن الدود هو الذي أحدث الإرتباك في البنية الجسدية والقيمة الجمالية لإنكيديو ماديا، وجلجامش معنويا، فقام يسعى باحثا عن الخلود الذي سيضمن له الجمال الأبدي، وألا يعيث به الدود، بدليل أنه رضي بنبتة الشباب الدائم التي ستبعد شبح التجاعيد والإلتواءات والإنحناءات عن شباب أوروك. لقد أرادها جلجامش رحلة بحث فكانت رحلة علم ويقين وسلوى، رحلة الذهاب كانت مشحونة بوجع الفقد، وكان إنكيديو رفيقا لجلجامش في أحزانه وآهاته، فكان حيثما تلفت رآه، ورأى تلك الدويبة تخرج من منخره فقد ملأ موته ماضيه وحاضره ومستقبله. لكن رحلة الإياب حملت السلوى والسكينة وشيئا طيبا من الهدوء لروحه ونفسه المضطربة، لقد كاد يخرج قانطا من جنة جده، ولكنه استدرك فدلّه على النبتة المرممة للشباب، وخلال فترة الانتقال من الجد إلى حيث النبتة حدث نوع من الانقلاب الوجداني في نفسه، ولما عثر عليها حدث المزيد من التطور في تفكيره وعاطفته، ولما قفل عائدا كان يفكر في أمته ووطنه، وعندما التهمت الحية النبتة اكتمل ذلك الانقلاب في كيانه، وما ذاك

الإنقلاب سوى عودة إلى الأصل، إلى ما قبل موت إنكيديو فواصل رحلته مع رفيقه الجديد الملاح الطريد حتى أبواب أوروك القوية، وكله نشاط ليصنع المزيد من الأمجاد والمفاخر وما بدل تبديلا.

الحكمة الخالدة: لقد عَلمَ جلامش الإنسانية - مخترقا حقبا زمنية عظيمة - أن روح الخلود في تقديس كل لحظات العمر وتكريسها لبناء المستقبل الذي يعيش في حياة الآخرين بالذكر الطيب والأثر الصالح، مثل (هو الذي رأى) النص، و(أوروك) المدينة، اللذين يستمران في اختراق الزمن منذ آلاف السنين.

إذ تبدو الرحلة في بعدها الزمني رحلة دون كلل يسعى من خلالها الشاعر إلى الخلاص من زمن ميقاتي مدنس إلى زمن الديمومة المطلق المقدّس، ويتجاذب هذا الزمان لحظتان هما لحظة الواقع أو الزمن الواقعي، يجليها التصور الخطي الدائري لأبعاد الزمن، ولحظة المنشود يمثلها الحنين إلى زمن سرمدى لا ينتهي هو زمن خلود الترحل، وبذلك يتوق الشاعر إلى زمن مطلق ويرفض حركة الزمن في تقطعها إلى وحدات زمنية ميقاتية تستوحي الفعل (فعل الرحيل، وتعطله).⁽¹⁾

2- الزمن في الرحلة الملحمية في عالم الأموات عند الهنود:

• في ملحمة المهابهاراتا:

أولا: في رحلة (أرجونا): لا يظهر حديث يجعل من زمن (أرجونا) يختلف عن زمن أولئك الرفقة الذين غادرهم على سطح الأرض عند سفوح جبل الهيمالايا، لقد صعد إلى العالم الآخر، إلى سماء إندرا وجنته وكأنه ينتقل في فضاء العالم الأرضي تماما.

¹ - السلايمي، محمد علي: الأسطوري في شعر المتنبي، الدار التونسية للكتاب، ط1/ 2013، ص 110، 111.

ثم عن طريق طقوس صلاة خاصة استطاع إقناع (إندرا) و(شيفا) بالسماح له بدخول الجنة ليجمع الأسلحة الأقوى، الكفيلة بإحداث الدمار الكلي بأعدائهم من أبناء عمهم وحلفائهم.

لقد غاب خمسة أعوام كاملة، ربما كانت مجرد أوقات بسيطة في ذلك العالم المختلف، لأنه لم يفعل شيئاً غير كونه قد جمع أسلحة وليست بالعدد الكبير لكل الجند، وإنما له ولإخوته الأربعة فقط.

ثانياً: في رحلة (يوديشترا): بعدما سئم الإخوة الخمسة من الحياة الدنيا، ومن حياة الحكم والسياسة قرروا التنازل عن كل شيء والصعود إلى السماء، فخرجوا في رحلة أرضية طويلة نحو الشمال، إلى الموقع نفسه الذي صعد منه أرجونا إلى جنة إندرا سابقاً، فأساطيرهم تشير إلى موقع جغرافي متميز وثابت لتجعل منه مكاناً للإرتقاء إلى الجنة.⁽¹⁾

وكان الإرتقاء أولاً عبر معبر أرضي (جبل الهملايا) لذلك فالزمن فيه سيكون زمناً أرضياً، وإنّ تساقط الرحالة ورفيقتهم (درويدي، بناكولا، سهديفا، أرجونا، بهيما) الواحد تلو الآخر خاضع لحساب زمني أرضي، مرتبط بمدى التعب والإرهاق، والإعياء الذي يصيب البدن، والنفس من شدة الجهد والمثابرة، وكذا مدة العمر (سن الإنسان).

لقد مات جميع رفاق يوديشترا، وهذا يعني أنهم قد استهلكوا كل زمنهم الأرضي في الحياة الدنيا، ولكن موتهم يعني أيضاً انتقالهم إلى جنة وسماء (إندرا) مباشرة، وبهذا سبقوا (يوديشترا) الذي ظل يواصل رحلة الصعود وحيداً مرهقاً بالجسد والروح.

¹ - يذكرنا هذا بحرص الأساطير الإغريقية على موقع بعينه، لجعل منفذاً إلى العالم السفلي، وحرص الأساطير الرومانية على محايثة هذا الموقع.

إن احتفاظه بالجسد جعله يتعب، فيفكر في العودة للإستراحة، حتى سمع صراخ الإستغاثة ممن شبه له أنهم أهله الذين ظنهم أهل رضوان، فقرر القضاء على زمن التعب في نفسه بإحلال زمن التحدي من جديد من أجل مبدأ عنه لا يحدد.

3- الزمن في الرحلة الملحمية في عالم الأموات عند الإغريق:

• في ملحمة الأوديسة:

لم يظهر اهتمام أوديسوس بالزمن في العالم الآخر، فهو لم يكن مرتبطا بسرعة الإنجاز، بل لقد عمل بتمهل، وأصغى بهدوء وتأن، وراح يطرح الكثير من الأسئلة على مجموعة كبيرة من سكان العالم الأسفل تلك الأسئلة التي لم تكن لتعنيه لا من قريب ولا من بعيد، بل لمجرد إشباع الفضول ثم إن الظلام الدامس الذي كان يغطي كل المكان بفعل غياب الشمس التام عن ذلك العالم لم يجعل للزمن أي علامة، ولأن أوديسيوس كان لا يزال من أهل العالم الحي، فلم يكن معنيا بالخوف من هذه الأشباح أو من الوقت الذي يستهلك داخل هذه الدار.

كما أن رفاقه لم يشعروا بطول غيابه عنهم وهو يسامر الموتى.

- ثم أن أوديسيوس لم يكن يفكر كم سيستهلك من الوقت في رحلة كهذه ذهابا وإيابا ومكوثا تحت سطح الدجى. مادام الثمن هو العودة إلى الوطن والأهل، وهما كل الحياة. والمقايضة مقبولة حينما يكون البديل أفضل مما هو متاح ومما هو مطلوب. وأن يخسر الرحالة بعض الزمن ليكسب البعض الآخر جعل الرحلة ناجحة وتامة.

رحلة أوديسيوس أرادت أن تقترب من عالم الإبداع القصصي والحكائي، إذ راح هوميروس يصلح ويجول بحكاياه عن (أوديسيوس) ويجعل منه حكواتيا بامتياز، وحتى أهالي العالم الآخر استثمروهم ليقدموا إبداعا قصصيا هم أيضا ويشاركوا في سلسلة القصص والحكايا التي يبثها حيث سار وارتحل.

تريسيوس: تتصح سيرسة (أوديسيوس) بالنزول إلى عالم الراحلين إلى الأبدية حتى يلتقي بأبي العرافة الإغريقية (تريسياس) الطبيي الأعمى الذي وافاه أجله وهذا اللقاء هو لقاء مع الزمن، ومع الزمن المستقبلي القادم مع مطالع الأيام والسنوات، ولم يكن الرحالة مولعا بالنطلع إلى معرفة المستقبل بقدر ما كان مولعا بأن يذهب إليه بقدميه ويلججه بروحه المشتاقة الملتاعة هناك في إيتاكة حيث الآل والإستقرار، ربما كان متشعبا بالنبوءة التي قصمت ظهره حين تنبأت له بالضياح في الآتي عشر سنين كاملات، وهامو ذا يدفع ضريبة ذلك المستقبل في حاضره، لم يكن أوديسيوس ممن يتشوقون للمعرفة خارج إطارها الزمني (على العكس من إينياس/ فرجيل)، بل كان يحب أن يحيا مع المعرفة في حينها ويعايشها، ولكن (سيرسة) قالت:

"ولكن عليك في البداية أن تقوم برحلة أخرى

وتذهب إلى منزل هاديس وبيرسيفوني المخيفة

كي تستشير روح تريسياس الطبيي ذلك

العراف الأعمى إذ أن مشاعره صادقة

(هوميروس: الأوديسة، الكتاب العاشر، أبيات 490، 493).⁽¹⁾

¹ - السيد، صلاح: رحلة الأرجوناوتيك، ص 32.

ولم يكن أمامه كي يشق باب مستقبه سوى أن يرضخ، ويقبل بالنصيحة، عسى أن يكون فيها ما يخدم تطلعه إلى غده مع رفقة وقد أضناهم تعب التّجذيف بأمل تقّات منه أيامهم وسنون العمر التي تمضي نحو الماضي البارد قبل معانقة أحضان إيتاكة الدّافئة.

إن حضور تريسيس في النصوص الأسطورية الإغريقية هو حضور للمستقبل، وإن استحضر روحه هو استحضر للآتي وتواجد شخصيته لا يضيف للحدث أهمية، وإنما أهميته تتركز على ماتقدمه من مديد على مستوى الزمان، فيبدع هوميريس الشاعر/ السارد في اللواحق والإستباقات ويصير السيد بلا منازع.

4- الزمن في الرحلة الملحمية في عالم الأموات عند الرومان:

• في الإنيادة:

لما اقترح الرحالة (إنياس) على العرافة (سبيل) أن ترافقه إلى "مساكن الموتى"⁽¹⁾ كان يأمل أن يلتقي بوالده (أنخيسيس) ليطلعه على بعض التنبؤات مثلما أخبره حينما زاره في المنام. ولكنه عندما ولج العالم السفلي رأى له كم هو كبير وعظيم، ومليء بالأشباح، بعضها قديم جداً، والآخر حديث العهد، والآخر لم يحن موعده! وهكذا انقسم الزمن في رحلته إلى:

زمن ما قبل الزمن:

شاهد مخلوقات غريبة يعود عهدها إلى ما قبل الزمن، حين نشوء الكون وصراع الآلهة والجبابرة.

¹ - فرجيل: الإنيادة، ص 132.

الماضي البعيد: رأى الملوك القدامى المنشئين للمدائن والممالك الأولى مثل داردانوس.

الماضي القريب: التقى (بذيفوب ابن بريام)، و(ديدو) ملكة قرطاجة. وقائد دفة سفينته الذي كان قد

سقط لتوه في البحر.⁽¹⁾

الحاضر: كان إنياس في رحلته إلى العالم الآخر يعيش حاضره بشكل طبيعي جدا، وكأنه لا يزال

في عالم الأحياء. وقد ظهر الحديث عن مقاييس الزمن الدنيوية: الليل والنهار. إذ تحدث إنياس

طويلا مع (ذيفوب بن برياموس) وكان الوقت قد جاوز الظهيرة حين نبهته رفيقته قائلة: "لقد أقبل

الليل يا إنياس، وأضعنا نهارنا بالدموع، فهيا بنا"⁽²⁾ وكان في حديثها لون من التنبيه واللوم لأنه

حتى في العالم الآخر هناك معنى وأهمية للوقت.

• وقد كانت (سيبيل) العرافة المتطلعة دائما إلى المستقبل صارمة. لا ترى جدوى من

الإلتفاف إلى الوراء، وذرف العبرات على ما مضى وانصرف. فالحياة هي المستقبل

وليست أبدا الماضي المنصرم.

• كما ظهر الحديث عن مظاهر الزمن: الشمس/ النجوم.

• كان بالإمكان في رحلة إنياس إلى مساكن الموتى أن يجمع بين حاضره ومستقبله.

الحاضر والمستقبل: حيث يلتقي بروح والده تعنتي بأرواح الخلف القادم: "فأبصرا بأنخيس".⁽³⁾

¹ - السابق، ص 136.

² - نفسه.

³ - السابق، ص 145.

المستقبل: لقد اطلع إنياس على العالم الماضي، كما اطلع على الآتي من مستقبل الأيام والسنين والقرون من حياة الأفراد والممالك والحضارات من خلال زيارته العاجلة إلى العالم الآخر الذي هو سكنى لأرواح الماضي وأرواح المستقبل. "تعال أريك هؤلاء الذين..."⁽¹⁾

وكان هدف إنياس من رحلته هذه هو استشراف المستقبل:

- رؤية المستقبل الأول: مستقبله هو وأتباعه (تأسيس الوطن).

- رؤية المستقبل الثاني: مستقبل الوطن على امتداد التاريخ.

- رؤية المستقبل الثالث: الحياة بعد الموت عبرة وعضة للإنسان قبل الموت.

إن الإطلاع على ما سيكون في المستقبل هو خدمة للمستقبل في حد ذاته، حتى وإن كان ذلك من جانب الإستئناس بالتفاؤل والتطلع بأمل وشوق إلى الجميل الذي ستحملة الأيام للذات والأجيال في وطن مازال حلما. وفيه تشجيع للأتباع بأن ما يسعون إليه حق، وجزاء، وأن بعد التعب والنصب راحة ورجاء.

كان الخروج من العالم الآخر عبر بوابة الأحلام الكاذبة، حتى تكون الزيارة كأنها مجرد نوم عابر، لم يستهلك من الزمن إلا قليلا. ولو نفذنا من البوابة الأخرى لكانا قد مكثنا هناك أبد الأبد، فالحلم الحقيقي هو الخلود في العالم الآخر. بينما الكاذب فهو منفذ للعودة إلى زمن الدنيوي الذي لن يلبث حتى ينقلب إلى حقيقة لا تنتهي مهما طال عمر المستقبل.

تقدم الزمن/ تقدم العمر: الخبرة والتجربة:

¹ - السابق، ص 146.

لم تكن تجارب إنياس سوى محنا واختبارات ابتلي بها كي يثبت كفاءته وقدرته على تحقيق قدره الإلهي، ورسالته الحضارية، لذا لم تكن زيارته للعالم السفلي سوى حلقة من سلسلة الإختبارات التي صقلت موهبته، وفتقت وعيه بدوره الحضاري، فقبل رحلته الأخروية كان إنياس شخصية إنقيادية وبعد نزوله واجه أشباح الماضي فتعرف على أخطائه وذنوبه وتخلص من بقايا ذكرياته العاطفية (ديدو)، وبعد هذه المواجهة التطهيرية من الماضي يلتقي أباه، ومن هناك سيبعث إنسانا جديدا قرأ ماضيه قراءة واعية واستشرف مستقبله استشرافا بينا لذا أصبح أكثر إيمانا بثقل المسؤولية، وأكثر استعدادا ليكون في مستوى الدور البطولي.⁽¹⁾

المبحث الثالث: وسيلة حركة الرحلة في الفضاء:

أ - وسيلة حركة الرحلة الأسطورية:

أ - وسيلة حركة الرحلة الأسطورية في فضاء الأحياء:

أولاً: وسيلة الرحلة الأسطورية عند السومريين: تتحدث الرحلة عن رحلة عودة (إنانا) بالنواميس المقدسة إلى مدينتها (أوروك)، وكان الأب الغافل عما منحها من كنوزه قد أمر خادمه (إيسموند) بأن يعيرها زورق السماء حتى تبخر في أمان راجعة إلى وطنها بالأسفار الخالدة:

"أي تابعي وعيني إسموند.

إن المرأة الشابة ستتوجه إلى أوروك،

وإني أرغب في وصولها سالمة إلى مدينتها

¹ - عتيق، مديحة: أسطورة العالم الآخر في الشعر العربي الحديث والمعاصر، دراسة موضوعاتية، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1/ 2010، ص 52، 53.

جمعت إنانا النواميس المقدسة،

وحملتها جميعا في زورق السماء

وتم دفع الزورق فانساب بعيدا عن المرفأ⁽¹⁾

ولأن الرحالة بطله أسطورية من صنف الآلهة، فقد كانت الوسيلة من هذا الصنف الثقيل، إنه زورق السماء الذي يسهل الحركة الخارقة، ويكون آمينا على الحمولة الثمينة.

ثانيا: وسيلة الرحلة الأسطورية عند المصريين: القوارب/ السفن:

- في رحلة (إيزيس): عندما خرجت إيزيس في رحلة قصيرة حانت الفرصة الكبيرة لـ (ست) للقضاء على (أوزير)، وعندما عادت وعلمت بالمأساة بحثت في كل شبر من النيل حول المنطقة التي قام فيها المجرمون القتل بالتخلص من التابوت، ولكن بعد ذلك تيقنت من إندفاعه عبر النهر إلى مياه البحر، وبعد حساب تيارات أمواج (المحيط الأخضر/ البحر المتوسط) المتعارف عليها وجدت انه سار نحو الشمال، فغادرت مصر وأقلت عربة تجرها الخيول متجهة إلى بلاد فلسطين (التي تقع شمال مصر).⁽²⁾
- في رحلة خنسو منفذ المشاريع.⁽³⁾
- في رحلة نفر. كا. بتاح: في نص الأمير وكتاب الحكمة.⁽⁴⁾
- في رحلة حرخوف: في نص رحلات حرخوف أول مكتشف لمجاهل إفريقيا.⁽¹⁾

¹ - السواح، فراس: الأسطورة والمعنى، ص120، 121.

² - ناردو، دون: الأساطير المصرية، تر/ أحمد السرساوي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1/ 2011، ص 43، 44.

³ - السابق، ص 98.

⁴ - السابق، ص305 إلى 314.

ثالثا: وسيلة الرحلة الأسطورية عند الفرس:

رحلة الإسكندر الأكبر: لقد خرج من مقدونيا في جيش عظيم مستعملا أسطولا عظيما من السفن التي كانت معروفة آنذاك، كان بعضها سفنا حربية مجهزة بالسلاح، وكان بعضها الآخر عبارة عن خزائن للمؤونة، والبعض الثالث يحمل الجند، كما كانت له سفينته الخاصة التي تقله هو وحاشيته. ثم لما نزل على البر كان يمتطي صهوة جواده كأبي فارس شاب، ونادرا ما ركب عربته الملكية إلا لضرورة التأثير بهيبة السلطان.

كما أنه سار على قدميه، وركب القوارب، والطوف حسب ما تستدعيه ظروف المكان، والفضاءات الكثيرة المتنوعة والمتباينة التي مر بها شرقا وغربا، في رحلته الطويلة زمانا ومكانا. "...وسار حتى وصل إلى بحر عظيم، فرأى عنده رجالا متنقيين كالنساء لا يعرف لسانهم عربي ولا فلهوي، وكان قوتهم من السمك وحيوان البحر، ثم أنه لمح وسط البحر جبلا أصفر كالشمس، فأمر بإلقاء سفينة في الماء، ليركبها ويشاهد عجائب ذلك الجبل، فمنعه من ذلك بعض الفلاسفة، وقال لا تخاطر بنفسك، وليركبها غيرك ممن يأتي بخبره، فأركب تلك السفينة ثلاثين من الروم وغيرهم، فلما قربت السفينة الجبل تحرك، وإذا به حوت، فالتقم السفينة بمن فيها وانساب في البحر" (2)

رابعا: عند الإغريق:

أ- وسيلة الرحلة الهرقلية:

¹ - السابق، ص 322 إلى 324.

² - الفردوسي: الشهنامة، تر/ البنداري، تحقيق: عبد الوهاب عزام، ج2، ص 17، 18.

1- أريون الحصان المجنح: لم يكن هرقل مهتما كثيرا بوسيلة الرحلة، بقدر ما كان معتدا بسلاحه، بحيث كثيرا ما كان يعول على قدميه، فيسير مسافات طويلة، لفترات مديدة راجلا معتمدا على قوة ساقيه، وصحة جسمه، وقوته البدنية التي كانت إحدى أهم سماته الرئيسية.

ومما يروى أنه قد اتخذ لنفسه حصانا عجيبا، قيل أنه ابن بوسيدون (البحر) وديميتر (القمح) ويسمى أريون.⁽¹⁾ وهو مجنح يملك قوى عجيبة وخارقة على العادة، وقصف اليمنى قدم إنسان. أخذه (أدرستون) معه في الحملة ضد طيبة، فأنقذ حياته.⁽²⁾

2- عربية سريعة (الرحلة الثانية): استعمل عربية سريعة قادها الشاب (يولايوس) ابن شقيقه (إيفيكس)⁽³⁾

3- الكأس الذهبية الضخمة (الرحلة العاشرة): لما اتجه إلى أقصى الغرب، واخترق المحيط، أهداه (هيلوس) كأسا ذهبية ضخمة تشبه في شكلها زهرة زنبق الماء... قفز هيراكليس داخل تلك الكأس الذهبية الضخمة. ظل يجدف كما لو كان فوق ظهر قارب. أحس (هيراكليس) بأموج المحيطات تتماوج بشدة من حوله، استولى عليه الغضب... وجه سهمها من سهامه نحو (أوكيانوس)، استولى الرعب على (أوكيانوس) فأمر أمواج المحيطات أن تهدأ... ظلت الكأس الذهبية تشق ماء المحيط حتى وصل إلى جزيرة إروتيا...⁽⁴⁾

4- سفن/ أسطول/ جيش (رحلات أخرى):

¹ - شابيرو، ماكس - رودا هيندريكس: معجم الأساطير، تر/ حنا عبود، دار علاء الدين ط3/ 2008، ص 45.

² - إمام، عبد الفتاح إمام: معجم ديانات وأساطير العالم، ج1، ص 119

³ - شعراوي، عبد المعطي: أساطير إغريقية - أساطير البشر، ج1، ص 408

⁴ - نفسه، ص 419.

* ذات مرة جمع جيشا ضخما، سار به نحو مدينة (أويخاليا) لينتقم من ملكها (يورتوس)⁽¹⁾

* ست سفن: عاد البطل إلى "اليوم" مملكة (لاوميدون) مع ستة سفن وحاصر المدينة، وأخذها

قسرا، لأن ملكها رفض أن يقدم له مكافأة لما أنقذ له ابنته الأميرة من أنياب التنين.⁽²⁾

خامسا: وسيلة الرحلة الأسطورية عند الرومان:

رحلة (بسيشة):

- لقد قامت برحلتها الأولى إلى زوجها على أجنحة الهواء، فقد تولى (زفيروس) القيام بذلك.
- لما خسرت زوجها وفر من وجهها، راحت تجوب الدنيا على قدميها: فهي المطرودة، الفقيرة، المعوزة، التي ظلت طوال مسيرة رحلتها هنا وهناك، سائرة على قدميها، لم تعل صهوة جواد، أو عربة، أو قارب، ولكن رغم ذلك لم تيأس ولم تتراجع، وواصلت مهمة البحث دون وسيلة تنقل.

رحلة (إيفاندر): خرج من (أركاديا) إلى (إيطاليا) مع أمه ومجموعة من مواطنيه على ظهر المراكب التي كانت معروفة آنذاك، لقد استغل ما توفر له من وسائل للتنقل والهجرة من أجل بناء وطن جديد.

ب- وسيلة الرحلة الأسطورية في فضاء الأموات:

أولا: وسيلة الرحلة الأسطورية عند البابليين: (إنكيدو): هناك فرق شاسع وكبير جدا، في معالجة النزول إلى عالم الأموات أسطوريا ومعالجة الرحلة إلى عالم الخالدين ملحيميا، إن الرؤية الملحمية

¹ - نفسه، ص 227.

² - معدي، الحسيني الحسيني: أساطير الأبطال، ص 16.

تختلف عن الرؤية الأسطورية كثيرا جدا. فأنكيو ينزل إلى العالم الأسفل حيث الأرواح والأشباح من خلال كوة، أو منفذ عبر الأرض، ثم يتنقل هناك مسافات معتبرة على قدميه مثيرا جلبة وصخبا بالصّندل المزعج الذي انتعله، ويكون أحد الأسباب التي تورطه ليبقى أبدا في العالم الأسفل، ويبدو السير على الأقدام هو المستهلك أسطوريا في بلاد ما بين النهرين (رحلة إنانا/ عشتار إلى العالم الآخر).

ثانيا: وسيلة الرحلة الأسطورية عند المصريين: رحلة رع:

قارب: قارب رع الذهبي: قارب ملايين السنين.

- المركب المقدس (مسكتت): إذا جن الليل. "عندما يحل الليل، ينحدر رع/ الشمس في جلال نحو الأفق الغربي، ويغرب في ظلمات (الدوات) عند ثغرة (أبيدوس) وكم هو رائع قارب (مسكتت) في الليل، إنه مزيج من الألوان الرائعة البديعة، مزيج من القرمز، والأرجوان، واللازورد، والذهب الخالص الجميل".⁽¹⁾
- المركب المقدس (معنجت) إذا حل النهار.
- مركب الشمس/ المركب الذهبي/ القارب المقدس.

يبدأ نص الأسطورة/ الرحلة بالحديث عن النهر، وبالتالي سنتوقع رحلة عبر مجرى مائي. "لما خلق الكون خلق به نهران: نهر مصر ونهر السماء... كان يجري عبر السماء، وخلال (الدوات)، عالم الليل والظلام الدامس، على هذا النهر كان قارب (رع) الذي يدعى قارب ملايين السنين..."⁽²⁾

¹ - حامد، اسماعيل: موسوعة الأساطير الفرعونية، ص 142.

² - السابق، ص 141.

لاحظ البحث أن كل الرحلات الأسطورية المصرية القديمة قد استعملت القارب، سواء في عالم

الأحياء (إيزيس، خنسو، نفر كا بتاح، حرخوف) أو عالم الأموات (رع).

ثالثاً: وسيلة الرحلة الأسطورية عند الفرس: في تغريبة الإسكندر:

المهر: عندما سأل الإسكندر عن كيفية تعقب الشمس إلى مغربها للوصول إلى عين ماء الخلود أجابه أحد العارفين، أنه المهر، من أراد أن يسلك طريقها لا ينبغي أن يركب إلا مهراً⁽¹⁾، لذلك فقد أمر الإسكندر أن يوفر له أكبر عدد من المهور حتى بلغت عشرة آلاف مهر رباع قوي فأمّر جنود جيشه الذي قسمه فريقين بينه وبين الخضر -عليه السلام- أن يستعملوا هذه المهور في رحلتهم في سرداب الظلام نحو عين الحياة.

رابعاً: وسيلة الرحلة الأسطورية عند الإغريق:

في رحلة هرقل: (ذهاب/ إياب): القارب العتيق للمعداوي خارون: (الرحلة الثانية عشر): كان على (هيراكليس) أن يجتاز النهر الذي يفصل بين عالم الأحياء وعالم الأرواح، إذ لم يكن يسمح بعبوره إلا للموتى. وكان هناك المعداوي (خارون) الذي يحمل في قاربه العتيق الموتى فقط، ولما وصل (هيراكليس) إلى شاطئ نهر ستوكس استولى الفزع على المعداوي عند رؤيته، فلم يجرؤ على منعه من العبور، وحمله في قاربه العتيق، ثم أوصله إلى عالم (هاديس)، حيث نزل (هيراكليس) إلى الشاطئ⁽²⁾.

رابعاً: وسيلة الرحلة الأسطورية عند الرومان:

¹ - الفردوسي: الشاهنامه، تر/ البنداري، ج2، ص 21.

² - السابق، ص 224.

في رحلة بسيشة: (ذهاب/ إياب): القارب المرقع للمراكبي الجشع (خارون): قال البرج ينصح (بسيشة) لما أجبرتها حماتها (فينوس) على النزول إلى العالم السفلي لإحضار جمال (بروسرينا): "إنه لا يحق لك أن تمرى عبر مملكة الظلام دون أن تحملي معك شيئاً، عليك إذن... أن تحملي قطعتين نقديتين في فمك، وبعد أن تقطعي مسافة كبيرة من طريق الموت... لن يمر عليك بعدئذ وقت طويل حتى تكوني قد وصلت إلى نهر الأموات، وهو يقع تحت سيطرة خارون الذي يطالب بأجرته في الحين قبل أن ينقل القادمين في قاربه المرقع عبر النهر إلى الضفة الأخرى - إذن فالجشع يعيش حتى بين الموتى - فلا خارون هذا ولا الأب ديس (بلوتو، ملك الجحيم)... يفعل شيئاً دونما ثمن... وعندما تستلمين منها ما ستقدمه لك، خذي طريق العودة.. ثم قدمي قطعة النقد إلى المراكبي الجشع، وحين تعبرين النهر اقتني آثارك السابقة."⁽¹⁾

II - وسيلة حركة الرحلة الملحمية:

أ - وسيلة حركة الرحلة الملحمية في فضاء الأحياء:

1- في بلاد الرافدين (رحلة جلجامش الأولى إلى غابة الأرز): ما هي الوسيلة السحرية القادرة على تجاوز كل هذه المسافات والأزمنة؟ في عهد جلجامش وشاعر جلجامش؟

أولاً: وسيلة الذهاب: العجيب أن ملحمة جلجامش في رحلته ورفيقه إنكيديو إلى غابة الأرز لم تذكر شيئاً عن وسيلة السفر التي استعملها ذهاباً أو إياباً، رغم الحديث العجيب عن المسافة الأسطورية والسرعة التي تمت بها. لم تتحدث الملحمة عن دابة أو مركبة استعملها جلجامش أو إنكيديو في هذه الرحلة. رغم الحديث عن السرعة الفائقة التي قطعت بها المرحلتان الأولى: أوروك - بوابة

¹ - أبوليوس، لوكيوس: الحمار الذهبي، تر/ أبو العيد دودو، ص 139، 140.

الغابة، الثانية: بوابة الغابة . لقاء وحش الغابة: (داخل الغابة مسيرة نهار) كما لم تتحدث عن وسيلة العودة.

ولكننا نجد في دعاء شيوخ أوروك لجلامش عندما قرر الرحلة: "قليسط إلهك حمايته عليك، وليضمن لعودتك طريقاً سالمة، ليعد بك سالماً إلى مرفأ أوروك"⁽¹⁾

كما دعا جلامش لنفسه على إثر دعائهم، ومباركتهم لرحلته: "أي شمش، إني ماض إليك أرفع يدي/ لتهدأ، إذن، بك روعي المضطربة/ ولتعد بي سالماً إلى مرفأ أوروك"⁽²⁾ ويمكن أن نفهم من هذه الكلمة (مرفأ) أنه قد يعود إلى أوروك عن طريق مجرى مائي (نهر/ بحر) وقد يكون هو ذاته المنطلق، فالناس عادة ينتظرون الغائب في نفس المكان الذي ودعوه فيه.

ثانياً: وسيلة العودة: عندما استولى جلامش على الغابة، قال أنه سيصنع لمعبد (أنليل) باباً يكون لوحاً واحداً ضخماً، وقام إنكيديو بنقل الخشب: "شدوا (كذا) سوية طوفا وحملوا خشب الأرز عليه، كان إنكيديو على الدفة، وحمل جلامش رأس خمبابا"⁽³⁾

2- وسيلة الرحلة الملحمية عند الهنود:

أ - في المهابهاراتا:

أولاً: في رحلة النفي: كانت الإشارات شديدة الإقتضاب إلى وسائل حركة الرحلات الهندية داخل ملحمة (المهابهاراتا) إلا حديثاً سريعاً عن استعمال العربية، وسائسها. في القليل من المرات، رغم الحديث عن الإستعداد للسفر أو الرحيل لإعداد العدة اللازمة له، بيد أن وسيلة النقل كانت مغفلة.

¹ - السواح، فراس: جلامش، ص 144.

² - نفسه.

³ - حنون، نائل: ملحمة جلامش، ص 150.

ثانيا: في رحلة الفرار: ركبوا نهر الغانج في قارب وتابعوا الرحلة.

ب - في الرامايانا:

- لا تظهر المركبة الطائرة لراما خلال رحلة النفي، ولكن أثناء رحلة العودة يستعملها، فلا نعرف مصدرها، وربما كانت غنيمة الحرب من الشيطان رافانا: "وأرسل فيبهيشانا يطلب عربة هوائية فركب فيها كل من راما ولاكشمانا وسيتا واتجهت نحو أيودهايا، وطارت العربة الجوية فوق ساحة القتال التي اندهشت سيتا لرؤيتها، ثم قام راما بإرشادها إلى الجسر الذي كان مبنيا فوق البحر..."⁽¹⁾

- المركبة الطائرة للشيطان رافانا: "أخذ الناسك العجوز يضحك ويصفق، ثم إذا بقامته تعتدل وظهره يستقيم، وإذا به ينتفض ليصير شابا قويا، له عشرون ذراعا، وعشرة رؤوس! لقد كان العملاق الواقف أمامها هو رافانا نفسه، وانقض ملك الشياطين على سيتا وهو ينادي على مركبته، ودفع الأميرة إلى داخلها، وانطلقت بهما المركبة تخترق الجو في طريقها إلى جزيرة سرنديب، وهي سيلان أو سيريلانكا الحالية، حيث مقر عرشه. ظلت المركبة تطير والأميرة مشدوهة حائرة، لا تكاد تعي وأطلت، فإذا ملك النسور غير بعيد فاستغاثت به، وانتبه ملك النسور إلى الإستغاثة، فإذا عدوه ملك الشياطين قد اختطف فتاة حملها في عربته السحرية الطائرة... واستمرت العربة تطير... حتى اجتازت غابة وانداك"⁽²⁾

3- وسيلة الرحلة الملحمية عند الفرس: في رحلة رستم (الشاهنامة):

- جواده (رخش).

¹ - الرامايانا الهندية، تعريب دائرة المعارف الهندية، ص 138.

² - مظهر سليمان: أساطير الشرق، ص 167.

- سار على قدميه.

4 - وسيلة الرحلة الملحمية عند الإغريق:

أولاً: في الأوديسة:

أسطول⁽¹⁾ 12 سفينة: يخرج أوديسيوس من (اليوم) المحترقة آملاً أن يعود أدراجه إلى (إيتاكة) الجميلة، وتكون له من المراكب الشراعية إثني عشر مركباً، فهو قد جاء طروادة بجيش كامل في أسطول كبير، ولكنه يفقد أحد عشر سفينة كاملة في الخليج الضيق الذي حوصرت فيه عند جزيرة آكلي لحوم البشر.

سفينة واحدة: وهكذا تتبقى له سفينة واحدة يواصل بها بعض بقية الرحلة قبل أن يفقدها هي الأخرى أيضاً بالقرب من جزيرة عجول الشمس عقاباً لرفاقه الذين اعتدوا على المحمية.

طوف: بعد أن يمكث سبع سنوات في جزيرة (أوجيجا) يصنع طوفاً، إذ تمنح كاليبسو فأساً برونزياً لأوديسيوس وترشده إلى مكان به أشجار زيتون طويلة يستطيع أن يقطع منها ما يريده كي يصنع له طوفاً حتى يكون وسيلة لإتمام رحلته، وبعد عمل دام أربعة أيام في صنع الطوف يضع عليه كل ما يحتاجه في رحلته من مؤن وفي فجر اليوم الخامس يرحل مغادراً (أوجيجا) ويبصر به وحيداً في البحر مدة سبعة عشر يوماً في اتجاه (إيتاكة) مسترشداً بالنجوم، جاعلاً مجموعة الجوزاء على يساره دائماً، ولكن الرياح والأمواج والأنواء كانت له بالمرصاد، فتحطم الطوف ونجا بأعجوبة بمساعدة الحورية (لوكوثيا) ابنة (قدموس) ونزح إلى جزيرة (سخيية).

¹ - الأسطول: كلمة يونانية الأصل Stolos معناها مجموعة السفن الحربية.

سفينة ألكينوس: يُعدّ الملك المضيف لأوديسيوس في صباح اليوم الثالث سفينة وعلى متنها بحارة أكفاء أشداء، يوصلونه حتى (إيتاكة).

ثانيا: في الأرجوناوتيكيا:

سفينة: كان لفظ الأرجو/ الأرجوناوتيكيا/ الأرغونت يعني:

- سفينة.
- نصا أسطوريا.
- نصا ملحميا.
- نصا رحليا بدون منازع.
- أحد فضاءات الرحلة.
- رفاق الرحلة.

فقد اعتمدت هذه الكلمة/ المصطلح لتؤدي الكثير من المعاني والمفاهيم، فهي إسم مشترك لجملة من المسميات. عندما حظ بلياس ابن أخيه ياسون على القيام بالرحلة دعا هذا الأخير عصابة هامة من الحرفيين لصناعة سفينة عملاقة قادرة على القيام بهذه المهمة الصعبة، ويقال أن أهم هؤلاء كان أرجوس أحد أبناء فريكسوس الفتى الذي طار بالخروف ذي الجزء الذهبية فسميت باسمه. بينما تجعل نصوص أخرى اللقاء بأرجوس في إحدى محطات ذهاب الرحلة:

"وكما ينشد المنشدون فإن السفينة أرجو تم/ صنعها بناء على اقتراحات أثينا (أبولونيوس الرودي

الأرجوناوتيكيا، الكتاب الأول: أبيات 18-19)"⁽¹⁾

¹ - السيد، صلاح: الأرجوناوتيكيا، ص17.

طلب من أرجوس الذي هو أمهر بنائي السفن في ذلك الوقت، أن تبني له سفينة بها مقاعد لخمسين مجدفاً، وأرسلت منيرفا إلى جاسون كتلة خشبية من شجرة بلوط مقدسة ليصنع منها حيزوم السفينة على صورة رأس سيدة لها القدرة على الكلام⁽¹⁾

5 - وسيلة الرحلة الملحمية عند الرومان:

في ملحمة الإنيادا:

عشرون سفينة: قال إنياس لملكة (قرطاجة ديدو) "قد أبحرت في عشرين سفينة... ولم يبق من هذه السفن إلا سبع"،⁽²⁾ لأن (جونو) قصدت ملك الرياح (أوليوس) وقالت: "إن شعباً ممقوتاً مني يمخر الآن بحر توسكان فازخ لعواصفك العنان وادفعها إليهم لكي تغرق سفنهم في أعماق البحر"،⁽³⁾ فدفع برمحه أبواب السجن المغلقة من دون الرياح فعصفت الرياح بشراعه الأمامي فضربت واستدارت سفينته والتظمت ثلاث من السفن على الصخور التي يدعونها المحاريب كما غيببت ثلاثاً آخر في (أوعاس سيرتيس)، وضربت أمواج الخضم مؤخر سفينة الليقيين فأغرقتها.⁽⁴⁾

ب - وسيلة حركة الرحلة الملحمية في فضاء الأموات:

1- وسيلة الرحلة الملحمية في بلاد الرافدين (رحلة جلجامش الثانية):

¹ - سلامة، أمين: الأساطير اليونانية والرومانية، دار الفكر العربي، د. ت، ص 150.

² - فرجيل: الإنيادا، ص 69.

³ - السابق، ص 60.

⁴ - السابق، ص 61، 62.

السفينة: قالت ساقية الحان لجلامش: أبدا لم يعبر هذي المياه/ ولم يقدر قادم من بعيد على قطع هذه البحار/ صعبة العبور، عصية على الاجتياز/ فيها مياه الموت تصد العابرين/ هناك أورشنابي، ملاح أوتنابشتيم، عساك واجده فإن استطعت اعبر معه.⁽¹⁾

صور من حجر: هناك أورشنابي، ملاح أوتنابشتيم، في الغابة يحتطب ومعه صور من حجر:

لما جرى جلامش نحو الملاح أصاب من دون عمد الصور الصخرية فكسرها، فقال له الملاح: قد حالت يداك دون عبورك إذ قمت بكسر الصور الحجرية، فالصور الحجرية الآن مهشمة.⁽²⁾

120 مرديا: جلامش يصنع مائة وعشرين مرديا بطول ستين ذراعا، ويطيها بالقار ويصفح أطرافها ليستعملها بديلا عن الصور الحجرية التي كانت تسهل مهمة العبور. بعدها ركبا السفينة وأبحرا تتقاذفهما الأمواج وفي اليوم الثالث قطعا رحلة شهر ونصف ووصلا إلى مياه الموت وهناك استعمل جلامش المائة والعشرين مرديا.

2 - وسيلة الرحلة الملحمية عند الهنود: في المهابهاراتا:

1 - استعملت عربة (إندرا) يسوسها (ماتياي) في عودة (أرجونا) من سماء (إندرا) محملة بالأسلحة والهدايا.

2 - واستعملت عربة أخرى في الحديث عن رحلة (يوديشترا) إلى سماء الخالدين، حين رافقه (إندرا) و(شيفا)، ثم ترك بعهدة الدليل (نارادا) لأن الحديث عن التنقل إلى فضاءات غير مرئية

¹ - السواح، فراس: جلامش، ص 207، 208.

² - السابق، ص 210، 211.

وغير معروفة لدى المتلقين، وهي فضاءات تفترض نوعاً من الشساعة غير المحدودة، لذلك وجب الحديث عن استعمال العربية التي تقلص هذا الإمتداد المفتوح.

3- وسيلة الرحلة الملحمية عند الإغريق: في ملحمة الأوديسة:

يبدو أن (أوديسيوس) قد استدعى أرواح الموتى التي تسكن عالم (هاديس)، فجاءته، (تريسياس، أمه، والآخرين...)، فلا يظهر أنه قد ولج أعماق العالم السفلي أو تنقل فيه، مثلما فعل (هرقل، إنياس، بيسيثة، تيسيوس، أورفيوس)، بل اكتفى بالبقاء عند مدخله، وعلى أبوابه، وسفينته ذاتها التي بارح بها طروادة، وتبقت له من معركته مع أكلة لحوم البشر، هي التي تنقل بها إلى بوابة العالم السفلي، تقول سيرسة:

"لا تهتم بالمرشد أو بما تريده إلى جانب السفينة،

فقط ارفع الصاري لأعلى وانشر الأشرعة البيضاء

واجلس، وسوف يحملها نسيم الرياح الشمالية إلى هدفها (هوميروس، الأوديسية، الكتاب العاشر، أبيات 505 / 507)"⁽¹⁾

4- وسيلة الرحلة الملحمية عند الرومان: في الإنيادة:

1- سيرا على الأقدام: يبدو أن إنياس ورفيقته (سيبيل) دخلا العالم الآخر راجلين، وعبرا كل المسارات على قدميهما.

¹ - السيد، صلاح: الأوديسية، ص 32.

2- قارب شارون الخفيف: إلا مسار نهر الجحيم (ستيكس) الذي استعانا فيه بالملاح شارون وسفينته. إذ قام بإقصاء الجميع وحملهما معا في رحلة واحدة، وقد ظهر تأثير ثقل جسميهما على سفينته مقارنة بأولئك الذين كان ينقلهم وهم مجرد أرواح، ويبدو أنهما لما وصلا إلى الضفة المقابلة، وقاما بالتجول في أرجاء عالم الموتى على مهل، لم يعودا أدراجهما من حيث أتيا بل خرجا من منفذ آخر، وهكذا لم يستعلا قارب (شارون) ثانية عكس ما فعل (هرقل) و(بسيشة).

ملاحظات ونتائج: كانت بعض الوسائل الرحلية في فضاء الأحياء، وحتى في فضاء الأموات في الأساطير عادية تماما، ومألوفة جدا، إنها السفن والقوارب والأقدام والدواب (الفرس).

كما استجذبت الرحلة الأسطورية أحيانا بما هو خاضع للجوّ الأسطوري المحض، مثل:

- الحمل الطائر ذي الجزء الذهبية.
- الجوادان المجنّحان (بيجاسوس) و(أريون).
- العربة الهوائية (الرامايانا).
- القرد القافز للأميال.
- القارب المبحر في نهر السماء.
- الريح (الهواء).

وهكذا اشتركت كل الأساطير القديمة على اختلاف أمكنتها وأزمنتها في استعمال السفينة والتي عرفت منذ عهد (نوح) عليه السلام، كما تركت نافذة للخيال المجنّح كي يحوم ويطيّر بوسائل آخر، وهي نفس الملاحظة التي يمكن أن تسحب على الرحلة الملحمية بشقيها: عالم الأحياء وعالم الأموات، إذ استنتج البحث من خلال عيّناته الملحمية أن كلا من الأوديسة والإنيادا والأرجوناوتيكا وظفت السفينة وسافر جلامش على قدميه بعض المسافة وأتم بعضها في سفينة، ليعود بها أيضا.

وهذا راجع إلى طبيعة الرحلة والأرض المنطلق، والأرض الهدف، فأرض العراق (أوروك) يختلف فضاءها كثيرا جدا عن أرض الإغريق والرومان وكذا أرض الهند وبلاد فارس. بينما يظل الخيال الأسطوري متشابها إلى حد بعيد وقد أولت الأساطير (والملاحم) عناية كبرى وفائقة بالوسيلة الرحلية فهي الفضاء الذي يتوسط بين المبتدأ والنهاية، والجسر الذي يوصل الرحالة إلى هدفه، لذلك فهي تسمو أحيانا حتى تتقمص دور رفيق الرحالة: رخش رستم (الفرس)، كما نرى ذلك التدقيق والإهتمام بالحديث عن بنائها وتجهيزها خاصة عند (جاسون) في الأرجونوتيكا فتصير كأنها أحد أبطال الرحلة، و(إنياس) الذي مكث حولا كاملا يجهز السفن، و(أوديسيوس) الذي صنع قاربا بنفسه، و(جلجامش) الذي صنع المجاذيف المائة والعشرين بمفرده.

فالخيال الإنساني على مستوى النص الأسطوري ووسائل الرحلة والانتقال لم يشتط بعيدا، أو للأسف هو الآن لا يبدو خارقا أو غير مألوف، وقد يشعرا بسذاجة أساطير الأولين، ولكن بمزيد من التمعن والفحص نقف على بعد النظر الذي سرّبه الرحلات الأسطورية (والملاحم) بوسائل تنقل بطلها في أمكنتها وأزمنتها سواء تلك الطبيعية المألوفة أو غيرها مما يبدو غريبا غارقا في الأسطورية.

وبذكاء جميل ومدهش، تحتفظ جميع أساطير العالم الآخر عند الإغريق واللاتين بالوسيلة نفسها، (قارب النوتي شارون) وكأنها حقيقة لا تقبل النقاش (هرقل، أورفيوس، ثيسبيوس، بيسيثة، إنياس).

والوسيلة مكان آخر وفضاء من فضاءات الرحلة، فهي ذلك الحيّز من الوجود يعيش به الرحالة نصيبا من حياته، إنها جزء من زمن الرحلة الذي يربط ماضيه بمستقبله.

ملاحظات واستنتاجات الفصل الثالث:

الزمن وتجلياته في سن الرحالة الأسطوري:

1 - سن رع: (في الأسطوريات المصرية)، يظهر رع بشخصية شيخ ورع مسن، بلغ من العمر عتيا، فهو والد بعضهم، وجدّ بعضهم الآخر، وقاربه هو قارب ملايين السنين.

2 - سن هرقل: بدأ مغامراته الرحلية وهو في مطلع شبابه بعد أن قتل زوجته وطفليه في لحظة جنون، فاضطر إلى التطهر بهذه الرحلات التي كان يطلبها منه ابن عمه ملك (مسينا)، وانتهت حياته وهو بعد يعدو هنا وهناك.

3- سن الإسكندر الأكبر: تولى العرش وهو يفتح أبواب الشباب في العشرين من عمره ويفتح أبواب الدنيا نحو المشرق وفي تغريبة يصول ويجول فيها ليعود من حيث أتى، وينتهي العمر والرحلة لما تنتهي، والشباب ما انتصف. (توفي وعمره حوالي خمس وثلاثون سنة).

4- سن بيسيثة: كانت شابة في مقتبل العمر تنقصها الخبرة والتجربة فهي لم تتدرّب ولم تتمرّس ولم تختبر نتوءات الحياة، ولكن هذه الرحلة جعلتها أكثر نضجا، رغم أنها لم تستهلك من شبابها الشيء الكثير.

الزمن وتجلياته في سن الرحالة الملحمي:

في مجمل هذه الرحلات إشارة إلى أن المسنين لا يمكنهم القيام بالرحلة:

- في الرامايانا: لم يستطع الوالد (داشارات) مرافقة ابنه (راما) في رحلة النفى، وسرعان ما مات حسرة.

- في الشاهنامة: قال الأب (زال) لابنه (رستم) أنه وقد جاوز المائتين فهو غير قادر على القيام برحلة، وناشده النيابة عنه.⁽¹⁾
- في الأوديسة: بحثا عن أوديسيوس، يخرج الابن (تيلماخ) وليس الأب (ليرتيس).
- في الإنيادا: لا يوافق (أنخيسيس) على الرحلة، وعندما يقتنع ويرافق ابنه (إينياس) يموت في إحدى محطاتها قبل انتهائها.
- قدموس: لم يخرج الأب (أجينور) بحثا عن ابنته (أوروبا) بل خرج الإخوة مع أمهم التي ربما كانت أصغر سنا من زوجها.

1- سن جلامش: لا يوجد أي تلميح إلى سن جلامش، ولكنه في سن العطاء والعمل والتّباهي بالقوة الجسدية والبأس الشديد، فرعيته حين سئمت منه لم تتمنّ موته، فهو أبعد عن الموت بعلّة أو الموت غيلة، لهذا تمّنّت له ندّا يشغله عنها.

2- سن الإخوة الخمسة: ولد الإخوة الخمسة في فترات متقاربة، لم تتعدّ العقد الواحد، وقد استمرت رحلاتهم طيلة فترة شبابهم، حتى قضوا بالحرب على الفتنة واستقروا ستة وثلاثين عاما قبل أن يرحلوا رحلتهم الأخيرة إلى عنان السماء، وقد انهكتهم رحلاتهم الأخيرة وجعلتهم يتساقطون في طريقها الواحد إثر الآخر، فواصلوا رحيلهم أرواحا بلا أجساد إلا يوديشترا الذي بدا عليه الإعياء حتى وهو يسلك ذلك النّهج الطويل في فردوس السماء، ففكّر في الرجوع ليستريح.

3- سن راما: (الراماينا) ولد وإخوته توائم للملك الذي لم يرزق بهم إلا بعد فترة طويلة من زواجه بالملكات الثلاث، وبمجرّد أن عاد من الرحلة العلمية التي أرسل إليها صحبة إخوته حتى بايعه أبوه الشيخ ملكا وتنازل له عن عرشه، ولكنّ أم شقيقه اعترضت وطلبت العرش لابنها (بهارات)، ونفي

¹ - يبدو أن أبطال الشاهنامة كانوا يعمرّون طويلا، إذ جاء في (الغرر) أن الأعداء لما فتكوا برستم غنموا كنوزا عظيمة استهلك في جمعها مع والده مدة سبعمائة سنة !

(راما) الذي خرج مع زوجته وشقيقه (لاكشمان) في رحلة نفى دامت أربعة عشر عاما، ومات الشيخ غما وهما، بينما أظهر الفتى الكثير من الحكمة والصبر والحنكة والقوة والشجاعة رغم صغر سنه حتى عاد واستعاد العرش.

4- سن ياسون: (الأرجوناتىكا) كان فتى شابا حديث العهد بالحياة، ولكن رعاية (القنطور خيرون) له جعلته خبيراً، وأعيا بالكثير من الأمور، فاستطاع قيادة رحلة ناجحة بمجموعة كبيرة من سرّاء أبطال الإغريق.

5- سن أوديسيوس: (الأوديسة) الكثير من المؤشرات تدل على أن البطل كان رجلاً كامل الرّجولة امتصّت فترة الرّحلة (عشر سنين) بقية شبابه وأسلمته لبوابة الكهولة، فقد انطلق نحو (طروادة) وهو حديث العهد بالزّواج والأبوة وأبواه على قيد الحياة، إذ كانت أمه كما يقول: "تركها يوم يمت شطر طروادة قوية غريضة الصبا، ريانة الشباب".⁽¹⁾ وعاد إلى إيتاكة وابنه (تليماك) صار شاباً يرحل طلباً لأثره، وتنسما لخبره، كما أن مضيفه (ألكينوس) تمناه صهراً وزوجاً لابنته عارضا عليه البقاء والإستيطان.

6- سن إنياس: (الإنياذة) كان قد صار رجل ميدان الحرب والضرب (بارز إخيل) واشترك في إدارة المعارك. وحين احترقت طروادة حمل أباه وقاد طفله (أسكنيوس) وزوجته (كروسا) الشابة التي ضاعت بين ألسنة اللّهب وندف الدّخان، واستطاعت هيئته أن تجعل (ديدو) تنسى عهداً لوح (سيخاوس) زوجها. والتهم المدّ والجزر آخر أنفاس الشباب ليسلمه إلى نضج الكهولة التي لم تعقه عن الحرب في إيطالية وقد صار (إسكانيوس) الصبي محارباً يعضد والده. وهبّ الملك (لاتينيوس) يعرض عليه (لافينيا) ابنته زوجة.

¹ - هوميروس: الأوديسة، تر/ دريني خشبة، ص 108.

الزمن في العالم الآخر:

إن العالم الآخر، أو العالم الأسفل، أو عالم الأموات، أو عالم الخالدين، أو جنة (إندرا) وجحيمه... هي كلها تسميات لمفهوم الحياة بعد الموت، فمعناها متصل بفضاء الزمان لا فضاء المكان، لأن مكانهم لا يعني شيئاً، لأنهم قد خرجوا من التوقيت الأرضي الذي نستعمله، خرجوا من الماضي ومن الحاضر ومن المستقبل، ودخلوا الأبد المفتوح دون توقيت ولا فواصل ولا تسميات، لكن توظيف الرحلة لهذه الرحلة المتميزة يجعل منها بعداً زمنياً رابعاً غير أنه اتخذ وجهين مختلفين بين الإغريق واللاتين:

- في رحلة (أوديسيوس) (مكرها): أبحر (أوديسيوس) نحو العالم الآخر أثناء رحلته ومغامراته، فهي جزء من ماضيه الذي يقص أخباره لاحقاً على مضيفه (ألكينور) ورصد في هذه الرحلة نبوءة تخص رحلته الشخصية في طريق عودته إلى وطنه، لقد ذهب وحيداً يسأل تريسيس العراف الأعمى، كما قصت عليه النسوة - نزيلات العالم السفلي - حكاياتهن، وما حدث لهن من مأس في ماضي حياتهن الدنيوية، وهي حكايات أسطورية تماماً تخدم الفن والإبداع، والشعر، وهي قصص منفصلة لا يلماها اتجاه معين، مليئة بالأحزان والأتراح.

- رحلة (إنياس): ولج (إنياس) عالم الأموات ملبياً دعوة أبيه بعد مغامرات رحلته التي قصها على مضيفته ديدو ملكة قرطاج، والتي تجاوزت السبع سنين كاملات، فكانت هذه الرحلة إلى العالم الآخر، آخر رحلاته وخاتمتها، إذ منها مباشرة يطرق (إيطاليا). ورصد في هذه الرحلة نبوءات تشمل أخبار مستقبل رجال أمتة الذين سيعلون شأن التاريخ والسياسة في روما القادمة، لقد ذهب يسأل أباه (أنخيسيس) الذي طالما أيده بالنصائح والأفكار، وهناك

تعرف على الأرواح المستقبلية لرجال روما الأجلاء، والأمجاد، والعظماء، بعضها حكايات أسطورية لكنها جميعا تخدم التاريخ الذي يربطها بوشائج صلبة من الآمال والإنصارات وبناء الإمبراطورية العظمى.

كانت الرحلة ومازالت تستغل وتوظف كجنس أدبي دخيل أو متداخل مع بقية الأنواع والأشكال الأدبية. ورغم أننا لاحظنا أن فن الرحلة قد ظهر في فترة بعيدة وفي الأزمنة السحيقة كمحاولة لنقل تجربة حقيقية قام بها الرحالة . الكاتب، إلا أن هذه التجربة قد انتقلت إلى المبدعين فاستغلوها لنقل تجربة فنية جمالية ولكن التاريخ المدون لا يظهر ما يدل على من كان الأسبق إلى الوجود؟ هل هو إبداع الحقيقة أم إبداع الخيال؟!

أن ما يهم هذا البحث هو إبداع الخيال في علاقته بالرحلة التي جابت جوانب العالم القديم تنقيباً عن متعة السياحة والسفر والتعرف على الآخر، وجمع النفائس والدرر والعقري الحسن. ويتباهى الشاعر بقدراته وإمكاناته الإبداعية في التجول بالكلمات والإبحار بالعبارات والسياحة بوساطة قوارب الخيال والتصور في بحار تتلاطم فيها لجج الحقيقة بلجج الاختراع والخلق والإبداع.

إذا استحضرنّا شاعر العراق القديم، و(هوميروس)، و(أبولونيوس)، و(فيرجيليوس)، كل في هندامه لرأينا بسهولة كم هي بعيدة جدا هي هاتيك المسافات الزمانية والمكانية بينهم، ولكن، رغم بعد الشقة آنا، ومكاننا، بين جلجامش (الألف الثالث ق.م)، و(أوديسيوس) (800ق.م)، و(جاسون) (280ق.م) وإينياس (19ق.م) ... إلا أنه ليس هناك فارق شاسع بين هذه الأعمال الأدبية في تناولها للرحلة وتتبعها للرحالة واستغلالها للسفينة، والموجة، والجزيرة، والجميلة والوحش! والمضيف الطيب... ويصل الرحالة بأمان وسلام ليوصل حياته في هدوء واطمئنان.

راح جل الكتاب من شعراء الملاحم يتقنون في توظيفها واستغلالها أيما استغلال. حتى اتخذت طابع الأدبية وأضحت فنا قائما بكيانه سواء استقلت بنصها أو ذابت في أنواع أدبية أخرى، مثلما نجدها الآن في الأسطورة والملحمة.

إذا كانت الأساطير سابقة لعهود الفلسفة والعلوم، فهذا لا يبخل حقها في الريادة بمساءلة كل ما شغل الإنسان القديم.

وظهرت موضوعة الرحلة في النص الأسطوري، والنص الملحمي محملة بهذه الأسئلة بما فيها علاقة الإنسان بالزمن، وهل هو شرط للوجود، لذلك لم تكتف الرحلة بالسير قدما لتنتهي ولا ينتهي الزمن، بل اخترقت هذه الإستقامة الأفقية بإحداث كسر عمودي نحو الأسفل، ليلائم طبيعة الرؤية الدونية لعالم الراحلين إلى حيث وجود لا يدركه التحول أو العدم، ولا تأثير للزمن فيه.

وباستثمار الزمن المتاح بشكل إيجابي، عن طريق الكفاح والإستماتة القوية يمكن للإنسان أن يحقق أشياء كثيرة يرسمها أهدافا لنفسه، أو ترسمها له أقدار حياته، وما الرحلة إلا أنموذج بسيط لمسار الإنسانية في وجودها، هذا الوجود الذي يعتبر مغامرة تحتاج إلى الشيء الكثير من المواجهة، والصبر، والإستعداد لكل الإحتمالات السيئة، دون إقصاء للحدس الجميل والتفاؤل الحَيّر.

وسواء كانت الرحلة طويلة أو قصيرة في فضاءها الزمني (الأوديسة: عشر سنوات، الأرجو: 81 يوما)، فإنها لا تختلف في مساحة الفضاء المكاني، ولا في حجم الأحداث وكثافتها.

إن النص الأسطوري قصير ولكن تحوله إلى نص ملحمي، زاخر بالأحداث، وإلى نص رحلي كثير المسارات، يجعل منه قطعة أدبية تثري الرصيد الإنساني في تراثه.

كان المستقبل هو الزمن السيد في كل رحلة أسطورية وفي كل رحلة ملحمية، حتى وإن كان شبيهاً بالحلم نتمنى تحقيقه مع الرحالة، فالرحلة تسعى في خطاها عبر الأمكنة فتنتقل نحو الأمام بتجديد الفضاء وتغييره قدماً، كذلك هو المسار الزمني الذي تشتغل عليه الرحلة، النظر والسعي نحو الأمام، والتطلع نحو القادم. ولهذا استثمرت الأساطير والملاحم بشكل كثيف عامل النبوءات، والعرافة، والتنجيم، والأحلام، والرؤيا، جاعلة منها نوافذ نحو المستقبل المنشود.

إن هناك علاقة وطيدة جداً بين زمن ظهور النص، والزمن المعالج داخله، لأن النص الأسطوري يمت بصلة القرابة للنص التاريخي، وقد تجلت صلة الرحم تلك التي تربطهما.

والرحلة الأسطورية تدوين لسيرة رحالة يتخذ مساره وفق زمن شبيه بالزمن التاريخي، فينتقل في فضاءات زمنية، تاريخية، فيزيائية (الماضي/ الحاضر/ المستقبل) وأخرى أسطورية كاستحضار الغائبين في العالم الآخر، واستحضار المستقبل في النبوءة العرافة.

ويمكن أن تسحب الفكرة على زمن الرحلة الملحمية، لأنها مستقاة من الرحلة الأسطورية المبنية عليها.

والزمن في العالم الآخر ليس ماضٍ، وليس حاضراً، وليس مستقبلاً، بالمفهوم الأرضي الذي يحياه الأحياء، ولكنه في السياق المنطقي سيكون حاضراً بالنسبة للرحالة حين ينزل إليهم ويحاورهم ويأتي بأخبار ماضيهم (أوديسيوس)، أو يأتي بأخبار مستقبلهم (إنياس)، فهم يعيشون في خط مواز للحياة الدنيا.

الرحلة والزمن وصناعة البطل:

لاحظ البحث أن الكثير من الإنجازات الكبرى تجعل من الرحالة بطلا، كما كان البطل مستعدا لأن يكون رحالة بفعل نفسي، وتأثير خارجي، وهذا أيضا يمكن أن يستنتج من سياق البحث ويكون لعامل الزمن دوره المتميز في هذه النتيجة، وفي حين أن كثيرا من الناس يظنون أن البطل الميثولوجي صنيع الأسطورة وحسب، بينما الواقعي صنيع الحقيقة فقط، ولو تعمقنا الأمور لرأينا أن الاثنين يتمتعان بالحقيقة والأسطورة معا، وأحيانا تكون الشخصيات الواقعية أشد أسطورية من الشخصيات الأسطورية ذاتها، بينما تكون الشخصيات الأسطورية أقرب إلى الواقع النفسي من كثير من الشخصيات الواقعية، فإذا التزمنا بعلم الدلالة، فدلالات البطل الميثولوجي أكبر وأعمق وأشمل من البطل الواقعي، ومن ناحية أخرى، أغلب الدارسين يرون البطل الأسطوري خارج الزمن، بينما يرون البطل الواقعي شخصية تاريخية، وبمعنى أوضح إنهم يربطون البطل الواقعي بالتاريخ على افتراض أنه ابن الضرورة التاريخية، بينما يظل البطل الأسطوري مثل الأعشاب البرية بعيدا عن التاريخ ينشأ نشأة عجائبية ويقوم بأعمال غرائبية، ويموت ميتة مأساوية بعد اختراق المعجزات، يبدو هذا الرأي صحيحا في مظهره، ولكن لو دخلنا في عمق الشخصية الميثولوجية لرأينا أن الضرورة في ظهورها لا تقل عن الضرورة في ظهور الشخصية الواقعية، إذ كانت الوحوش الضارية تغير على المدن والقرى، وكان الناس ينتظرون بطلا حتى ينقذهم من هذا الوحش، وظهور هرقل أو الخضر قاتل التنين وباعث الخصب والخضرة عند المسيحيين والأديان الأخرى في الشرق الأوسط، ضرورة أساسية وتاريخية تماما مثل ضرورات ظهور البطل في الأزمات الاجتماعية والسياسية، على فرض أننا سلمنا بتلك العوامل الضرورية لظاهرة البطولة، التي أكثر من الحديث عنها هربريت سبنسر والماركسيون الذين سموها بالاحتمية التاريخية، حتى أن إنجلز رأى أنه لو لم يظهر نابليون لظهر شخص آخر يقوم بدوره، فكل بطل ميثولوجي، أو حتى ليجندي أو فولكلوري، يظهر في

الظرف اللازم والوقت الحاسم، ومن هنا ظهر الأبطال الحضاريون في المفصل الكبرى للحياة الإنتاجية البشرية.⁽¹⁾

أهداف الرحالة: هي أهداف زمانية، إن كل ما كان يريده الرحالة هو نقل الزمن، والتنقل عبر الزمن، كان يريد حاضره في المستقبل.

إن المكان بكل ما حمل من صعوبات، وأفرز من مصائب، ومصاعب ما هو إلا عقرب ساعة، يتعلق بها الرحالة محاولاً أن يكون المتحكم في هذه الرحلة دون انقطاع:

- كانت هناك نبوءة تخبر (أوديسيوس) بأنه ضائع في البحار عشرة أعوام كاملات.
- ملحمة (جلجامش/ هو الذي رأى) عدت مسافات الرحلة الأولى عدا زمانيا (الساعات المضاعفة، كما كانت رحلته الثانية دخولا إلى زمن الخالدين، وسؤالا عن الأبدية، واكتشف أن الإنسان مادام قد جاء إلى الحياة، فهو أبدي الخلود، وما الموت سوى محطة صغيرة، مثل محطة الانتقال من الطفولة (عدم الوعي) إلى الرشد (الإدراك).
- (إنياس) سألته (ديدو)، عن السنوات السبع التي قضاها في الرحلة، ثم سأل (سيبيل) أن تساعد في دخول عالم الأرواح ليرى المستقبل.
- فما المكان سوى عقبة في وجه استمرار تدفق الزمن، لهذا يجتهد الرحالة في أن يطوّعه ويجعل منه بوابة ووسيلة لهدف رحلته وهي التغلب عليه. إذ أن هناك صراعا بين السائرين المتسابقين في طريق الرحلة. إذ ربما كان المكان يحاول أن يعطل الرحالة لكي يخسر سباقه مع زمنه.

¹ - عبود، حنا: الميثولوجيا العالمية، ص 46، 47.

- إن وصول الرحالة إلى نقطة الوصول حيا هي قمة النجاح بالنسبة إليه، وإلى الرحلة: فما دام حيا فقد فاز، فهو الآن في حاضره، يعيش مستقبل أمسه، وبإمكانه الآن أن يحقق الإنجازات المطلوبة عقب الرحلة، وكل رحلة سينجز أهداف ما بعد الرحلة، لأنه نجح في التفوق على التاريخ، فلم يخسر حياته:

✓ جلامش يواصل البناء والتشييد في أوروك الحصينة.

✓ الإخوة الخمسة بنوا المدينة/ حققوا العدالة/ دخلوا جنة إندرا.

✓ راما وفي بالوعد/ حرّر سيتا/ استرجع التاج.

✓ رستم أنقذ كيكائوس من الجني الأبيض.

✓ أوديسيوس يستعيد زوجته، وبيته، وعرشه.

✓ جاسون استعاد الجزء الذهبية ومملكة أبيه.

✓ إنياس يبني طروادة الجديدة. (لافنيوم).

✓ إيزيس استرجعت التابوت/ الجثمان/ التاج/ ربّت حورس.

✓ بيسيثة استرجعت زوجها.

✓ إيفاندر بنى مملكة/ نقل الأبجدية.

✓ هرقل حقق إنجازات كبرى.

النتائج والمناقشة والتوصيات

أنتج الإنسان القديم كما هائلا من الأساطير، محاولا بها قراءة واقعه، ومعالجة حاجاته إلى التعبير، والجمال، والسلام. وهو ينتج هذه الأساطير استغل استغلالا ملحوظا موضوعة الرحلة. وانتقلت هذه الأساطير بحمولتها الثرية والمتنوعة، من الرؤى والأفكار، والأحلام إلى متن النص الملحمي، فبقيت موضوعة الرحلة سائدة على هذا المتن الجديد (والبحث لا يدرس النص الأسطوري ولا النص الملحمي، ولكنه يدرس نص الرحلة المتضمن في الأسطورة، والملحمة).

ومنه، فقد تناولت هذه الأطروحة البحث في هذه السمة بمختلف تمايزاتها بتعدد النصوص وتباينها. إذ لم يكن بالإمكان الإشتغال على أنموذج واحد أو بعض النماذج المقترحة لأن مجرد اختيار الأنموذج يعني الحكم بنتيجة البحث قبل البدء فيه! وكان البحث يريد أن يصل إلى النتيجة بنفسه، بعد أن يسبح في كل هذه النصوص المتاحة، عبر الأزمنة، والأمكنة. وبعد أن صال وجال، وأشعل العديد من الشموع والفوانيس، وقف على جملة من النتائج والملاحظات:

- ❖ إن معظم الأساطير عالجت حدث الرحلة.
- ❖ إن كل الملاحم عالجت حدث الرحلة، أو بنت عليه بعض أحداثها.
- ❖ إن لكل رحلة أسطورية بطلا عتيذا جسديا، عنيذا نفسيا، وروحه متسامية نحو النُّبل والحق والخير، فبقدر ما يسعى في رحلته من أجل مصالح شخصية، بقدر ما يتجلى بوضوح إثاره وسعيه من أجل الآخرين.
- ❖ الرحالة إيجابي في معظم تصرفاته وردود أفعاله، نادرا ما تحسب عليه بعض المواقف أو التصرفات، لقد قيل إن (ياسون) شارك (ميديا) في قتل أخيها، وحرّض (أوديسيوس) رفاقه على الإستزادة من الأسلاب في (إسماروس)، وتملص (إنياس) من حبه لـ (ديدو) بطريقة

جعلتها تنتحر، وجرى (راما) خلف ظبي تاركا زوجته (سيتا) عرضة للإختطاف، ووافق (تيسوس) رفيقه المتهور على النزول إلى العالم السفلي لإختطاف (برسيفون)، وبدأت (بسيشة) رحلاتها بالانتقام من شقيقتها الجشعتين: وهكذا لم يكن الرحالة معصوما من الخطأ، إذ لم تحاول النصوص الأسطورية، ولا النصوص الملحمية رسمه بالشكل الملائكي الناصع البياض، بل تركته على سجيته، وحقيقته الإنسانية العفوية لمزيد من الإفادة، والموعظة، فالرحلة كلها درس في السلوك والأخلاق، نحو الذات والآخر والزمان والمكان، وهي تقيض بالعطاء الأدبي حين تجعل من الرحالة كيانا يؤدي ما عليه كشخصية جميلة تحرك الحدث في النص.

❖ إن جل الرحالة هم رجال، شباب، ذوو قوة وحنكة ومراس.

❖ وإن المرأة الرحالة كان لها نصيب يسير في النص الأسطوري، والنص الملحمي (إيزيس، بسيشة، إنانا) أو كانت رفيقة للرحلة (ميديا، سيبيل، أم إيفاندر، مرضعة إنياس ونساء رفاقه) وعلى العموم تظهر الأنثى في كل نص رحلي، فهي متعلقة بوجدان الرحالة إن كانت غائبة (أوديسيوس لم يصطحب نساءه معه، ولكنه استحضرهن في رحلته: أمه أنتيكليا، زوجته بينيلوب. جلجامش ودعته أمه ننسون واستقبلته عشتار).

❖ سواء أكان الرحالة وحيدا منفردا وهو يخوض غمار رحلته، أو يصحبه رفيق، أو عدة رفاق، أو جيش من الرفاق، فسماته البطولية واضحة، ويقتسمها مع رفاقه، أو يلعب دور القائد الخبير، فيسير دفة السفينة بحذر ونشاط ويصل بها إلى بر الأمان والنجاح.

❖ كل رحلة أسطورية تكلل بالتوفيق والنجاح. وكل رحلة ملحمية تكلل بالتوفيق والنجاح أيضا، إن كانت مساراتهما في عالم الأحياء، أما إن كانت الرحلة إلى العالم الآخر فهي صعبة جدا، وهدفها قد يخيب فجلجامش لم يحصل على الخلود، وكذلك الإسكندر الأكبر،

وأورفيوس فشل في استعادة يوريديكي، وتيسوس ورفيقه فشلا في اختطاف بيرسيفوني، وهرقل استعار سربروس بوعده إرجاعه، وبسبب كادت أن تقعد حياتها جراء علبة الجمال البرسيفوني المزيف، و(إنكيدو) لم يتمكن من استعادة أشياء سيده كما لم يستطع الإنسحاب.

❖ تظهر ملامح وسمات الرفيق، واضحة وقوية (إنكيدو). أو باهتة شاحبة (رفاق أوديسيوس). أو متعادلة مع البطل (رفاق جاسون في الأرجو)، وهو إما من البشر يضاهي الرحالة جمالا وقوة وفتوة، وحكمة وتديبرا. أو هو من الحيوانات الأليفة، الودودة، تسبغ على الرحالة فيض عطائها وعطفها وصبرها (رخش فرس رستم، وبيجاسوس جواد بيرسيوس)، فينقسم دورها بين الرفقة والوسيلة.

❖ الرحالة الأسطوري، ونظيره الملحمي، كلاهما فضولي يبحث عن العلم والاكتشاف والمعرفة، حتى وهو يزور العالم الآخر، يود أن يرى بأم عينيه، ويملاً مسامع أذنيه بمعلومات من ذلك الفضاء الغريب، وتظهر تقنية طرح الأسئلة بكثافة من قبل الرحالة.

❖ قد لا يكون الرحالة خبيراً بدروب الرحلة قبل الإنطلاق، ولكنه ذو شخصية موهوبة بالفطرة والفتنة، تستطيع تدبر أمرها واستغلال مواهبها الجمّة، وإمكاناتها المتاحة.

❖ إن الرحالة نشيط وماهر في كثير من الأعمال، ومعظم الرحالة قاموا ببناء أو تأسيس المدن (قدموس: طيبة، هرقل: تيرنتوم، إنياس: لافينيوم، جلجامش: أوروك، الإسكندر: الإسكندرية) أو هو محرر للمدن من الأشرار (الملك الشرير)؛ راما: سيريلانكا، رستم: مازنداران.

❖ يمكن أن يكون الرحالة من غير البشر: مجسما (تمثال الإله خنسو) أو كوكبا (الإله رع. الشمس).

❖ الرحالة بطل، والرحلة مغامرة جريئة، للقيام بعمل لا يتأتى للناس العاديين، فالرحالة يقوم بمهام مستحيلة.

❖ ما لاحظناه ونحن ننتبع بالدراسة هذه النماذج الكثيرة من الرحلات الأسطورية، والرحلات الملحمية؛ أنها تتمسك وتتشبث بالمكان/ الموقع/ المسار وتوليه أهمية كبيرة بالتسمية (فجله مكان ذو اسم علم)، أو بالوصف، أو بعلاقة الرحالة البطل به، ونادرا ما كان الإهمال، أو الإغفال أو التجاوز. وكثيرا ما استثمرت الأمكنة الجغرافية الحقيقية الموجودة على خريطة عالم اليوم، والعالم القديم.

❖ خط الرحلة ومسارها حتى محطاتها الأخيرة يكون عادة مجهولا بالنسبة للرحالة، لم يطرقه سلفا أبدا (إلا أوديسيوس . فرضا .)، فلا خبرة للرحالة الأسطوري، ولا الملحمي بمسلك رحلته.

❖ تتقاطع في معظم الأحيان مسارات الرحلات، وخاصة بالنسبة للرحلات في حوض المتوسط، كرحلات الإغريق والرومان (الأوديسة، الإنيادة، الأرجو، هرقل، برسيوس)، وحتى في العالم الآخر (أوديسيوس، إنياس، هرقل، بيسيثة، تيسيوس).

❖ إن لكل رحلة أسطورية، أو ملحمية منطلقا، ومسارات، ومحطات، ومحطة هدفا، وكل نص كان حريصا على الوصول بالبطل إلى نهاية هدفه بنجاح، وكانت هذه الفضاءات الثلاثة مليئة بالصعوبات والمشقات، فلا فرق بين المبتدأ والمنتهى، والبطل الرحالة مثابر وحريص على قطعها وإكمال الرحلة مهما شطت، فلم يسجل البحث أي نموذج استسلام، أو تراجع أو تراخ عن القيام بالرحلة أو إتمامها. كما لم يسجل أي فشل للرحلة في عالم الأحياء أسطوريا أو ملحميا.

❖ الرحلة الملحمية رحلة طويلة، وشاقة، مسارها متقطع لضرورة التوقف عند محطات اختيارية أحيانا، واضطرارية أحيانا أخرى، ويجني منها الرحالة فوائد أو مصائب.

❖ الرحلة الأسطورية والرحلة الملحمية كلاهما استهلكتا واستغلتا الفضاء الأخضر والأزرق والأسود، وفضاء النور، والمدينة، وجعلتنا نتعرف على معالم وعوالم العالم القديم برا وبحرا، وحتى في أعماق الحياة الأخرى، وأعالي السماء، جعلتنا نقف عند الواقع والأسطوري، وعلى تماس مع الحلم واليقظة بين الجمال الذي تسعى إليه والقبيح الذي تفر منه. وإن أدب حضارة المتوسط (الإغريق والرومان) استهلك البحر أكثر من الحضارات الأخرى (العراق، الهند، فارس) ورغم أن مصر محسوبة على المتوسط إلا أن حضارتها القديمة، كانت في أعالي النيل (الجنوب) أكثر من شماله، لذلك كان تركيزها على النهر (النيل)، ولكنها لم تغفل المتوسط أيضا (إيزيس في بيلوس/ جبيل).

❖ لم تغفل الرحلات الأسطورية النموذجية المدروسة، والملحمية أيضا أي فضاء كان، بل قد شملت على وجه التقريب والتدقيق كل أنواع الأمكنة الممكنة في الواقع الجغرافي، أو المتخيل، أو التصور الأسطوري، فهي تستثمر مواقع بعينها، في اليونان، وإيطاليا، ومصر، والعراق، وفارس، وقرطاجة، والهند. أو تدع الخيال الأسطوري ينشؤها، ويشيدها، ويعمرها ثم يرسل رحالته إليها (عالم الأموات، جزر الخالدين، العالم الآخر، جنة السماوات، نهر السماء الذي يبحر فيه قارب رع كل مساء، جزر السرينيات، السيكلوب...). أو مواقع متخيلة (جزيرة سيرسة، كاليبسو، مازنداران، متاهة اللابرينث...) وهكذا تكونان قد استثمرتا كل ما استعمل لدى شقيقتيهما الرحلة الوقائية من أمكنة وفضاءات، بالإضافة إلى ما أتيح لهما على وجه الخصوص بفضل منح الخيال الأسطوري، وعطاءات المتخيل الأدبي.

❖ النص الملحمي يستثمر أكثر من رحلة واحدة منذ جلجامش فمعظم الأمم أرسلت أبطال أساطيرها وملاحمها رحالة في رحلتين، الأولى في العالم الدنيوي، والثانية إلى العالم الأخروي، وقد تكون الرحلة إلى العالم السفلي ضمن مسارات الرحلة العامة (أوديسيوس، إنياس، الإسكندر) أو تكون رحلة ثانية مستقلة (جلجامش، بيسيثة، إنكيديو، هرقل، أورفيوس) أو هي رحلة في فضاء الأحياء أيضا (الرحلة الثانية) مثل رحلة الابن تليماخ/أوديسيوس. أو رحلة الصديق هانومان/راما.

❖ اليوتوبيا: في فضاء الرحلة الأسطورية/ الملحمية: إن المنطلق، والمسارات، والمحطات، وحتى الوصول كلها أمكنة وفضاءات محكومة بصورة رسمها مبدعو الأساطير، والملاحم، وزرعوا فيها روح الواقعية، والحقيقة، إنه مكان نغادره، ومكان نمضي فيه خطوة خطوة، ثم مكان نصل إليه ونحط الرحال، فنرى كل هذه الفضاءات بعيون مبدعيها: حيث نرى الأهوال والأخطار، كما نرى الأشياء الجميلة. والرحالة شخصية فعالة في مسار الرحلة كله، تعمل على تغيير واقع الفضاء الذي تنطلق منه، أو تسير عبره، أو تصل إليه، حيث تظهر بكل جلاء بصمات وآثار الرحالة، والعينات التي درسها البحث وقفت عند الشخصية العملية الإيجابية التي تحدث التغيير، سواء نحو الأسوء أو الأحسن، وهكذا لا تبدو الأحلام اليوتوبية في رؤى ومسارات الرحالة الأسطوري أو الملحمي، بل كان يقوم بما يراه صالحا ونافعا للمكان (مغامرات تنظيف الفضاء من المجرمين: هرقل، تيسيوس، بريسيوس، بليريفون، رستم...) أو يساهم في بناء المكان (قرطاجة: إنياس)، أو استثمار الدفء فيه (إيزيس، بيبيلوس، أوديسيوس: إيايا، ياسون: الفيسيانيين)، فالرحالة يراه كما هو، فيتركه على حاله، أو يحدث فيه تغييرا بسيطا، أو جذريا، ولا يمني قلبه بما ليس واقعا، وإن

كانت تظهر أحيانا تطلعاته إلى فضائل ومزايا المكان الذي يعبره، عسى أن يسهل أمر رحلته (فتظهر آماله، أو طموحاته، أو أطماعه).

❖ تنقل الرحالة بوسائل شتى، متباينة أحيانا، ولكنها في الأغلب الأعم تنطلق مما هو معقول ومقبول ومتداول، في الرحلة الفعلية (السفن، القوارب، الخيل، العربية...)، ولكنها أحيانا تذكرنا بمرجعياتها الأسطورية فتتحفنا بغرابتها (العربية الهوائية...) كما أن هناك أحصنة مجنحة، أو ذات امتيازات خاصة جدا.

❖ الرحلة الأسطورية والرحلة الملحمية، كلاهما رحلة نحو السلام، والبحث عن الهدوء والاستقرار، ولكن غالبا ما يضطر الرحالة إلى أن يتحول إلى محارب من أجل هذا السلام (أوديسيوس، جاسون، إنياس، راما، الإسكندر، هرقل...) فالرحلة الأسطورية دائما هو بطل مقاتل. وكذلك هو الرحالة الملحمي، إنه بطل مقاتل.

❖ الرحلة الأسطورية، والرحلة الملحمية كلاهما رحلة أدبية حيكّت ذات زمن في ثوب ديني موشى بالمعتقد، ولكنها انسحبت لتستقر عند تخوم مملكة الأدب الأكثر أسطورية، ورحابة، وها هو ذا الإنسان يتعلم من النصوص الرحلية الأسطورية كيف يعيش الحياة داخل المستحيل، وكيف يحيل الماضي إلى مستقبل جميل، حتى وإن كان نصيبه منه زهور تنمو بعشوائية على لحدّه (الإسكندر). أو أن ما يفعله هو مجرد تعبيد سبيل لأحفاد مؤسسي روما العظيمة (إنياس).

❖ تحكى الرحلة بصيغة الماضي، ولكن الحاضر جزء منها، والمستقبل هو روحها وهدفها. فكل رحلة أسطورية هي رحلة نحو المستقبل. وكل رحلة ملحمية هي مسير نحو المستقبل أيضا، فالبطل الرحالة يسعى بكل جهد لأن يطوي الآفاق والفضاء مكانا وزمانا للوصول إلى بغيته.

❖ يتحقق هدف الرحلة في النهاية وهي الآتي، وآخر الأحداث، لذلك يبقى التركيز على التصور المستقبلي الذي س يحمل الهدف المحقق بنجاح، فلا يستطيع المتلقي/ القارئ البقاء مع الفعل الماضي، بل يبحث دائما عن النافذة التي تشرق منها شمس الغد في ذات اليوم البارح. ويكفي أورفيوس، وجلجامش، وإنكيكو الذين خابت رحلاتهم أن نرى في الخيبة عبرة أبدية تتجدد ولا تتغير، تعيش في مستقبل الإنسان وليس في ماضيه، فالإخفاق في صناعة المستقبل بالنسبة للعالم الآخر هو موعظة خالدة وثابتة يجب على الرحالة ألا يضيع مستقبله بالبحث عنها.

❖ يطرح الرحالة آلاف الأسئلة خلال مشوار رحلته، ويتلقى إجابة عن كل سؤال، وبقدر ما نستشف الأسئلة الكثيفة التي يطرحها الرحالة، بقدر ما نجد زخما في إنتاج الأجوبة، وهي ميزة الأسطوري، والبطولي الذي يحاول الإقتراب من كل تسأل أو غربة يعيشها الإنسان مع نفسه أو أي شيء آخر، وقد يكون الإخفاق هو الإجابة الصحيحة الحقة الوحيدة بالنسبة للمستقبل عن العالم الآخر/ عالم الأموات الذي يساوي ويطابق مفهوم عالم الخلود في الآن نفسه، فالرحلة إلى العالم الآخر تؤكد أنه الجزء الوحيد من حياة الإنسان المعلوم تماما، والحقيقي كلية، والمسلم به إلى آخر الحدود.

❖ تستهلك كل من الرحلة الأسطورية والرحلة الملحمية فترة زمنية معتبرة تزداد طولا بالعوائق والعقبات التي تنتشر أمام خطوات الرحالة، فتربك سيره الحثيث، وإن صراع الرحالة في رحلته هو صراع مع الزمن، إنه يريد أن يعيش المستقبل ولو في الرؤى والأحلام والعالم السفلي، يريد أن يلغي الماضي والحاضر ليعيش كل المستقبل الذي يتوقعه أنيقا جميلا، مليئا بالسعادة والطموحات المحققة.

❖ تستغل الرحلة المراحل الزمنية الثلاث، وتشتغل عليها في الآن نفسه، فكل رحلة تاريخ عزيز يبني عليه حاضره ورؤيته للمستقبل، إذ لا نجد الرحالة يقص ماضيه بدون أن يتطلع إلى الآتي، ولا نجده يتطلع إلى الآتي دون استحضار للغائب، ومن الحاضر يكون المشهد عبر نافذتين مشرعتين، إلى الماضي وإلى المستقبل. هكذا بنيت تقنية الشبكية الزمنية للنص الرحلي داخل نصه الأسطوري، والملحمي على حد سواء، وفي هذا قد تشبهان إلى حد ما رفيقتهما الرحلة الوقائعية، وإن كان المستقبل قوي الحضور يشكل البعد الأسطوري فيهما ويؤكد سعي المبدع إلى استثمار جمالياته في غير موعده ودون استئذان.

❖ إن لكل رحلة وقتا مناسباً لا يعوض، وكان على الرحالة دائما البحث وتصيد الموعد المناسب ليتخذ القرار، فكل قرارات الرحلة كانت مرتبطة دائما بالتمهل والتريث حتى يحين التوقيت الذي يحمل النسبة العالية من توقع النجاح، فكل خطوة في المكان كان الرحالة يحسب لها ألف حساب في الزمان.

❖ هناك إشارة في النص الأسطوري وفي النص الملحمي خاصة، إلى وجود سياق رحلي داخل النص الأصلي، فهما يوظفان مفردات دالة على الرحلة/ السفر/ المغادرة. والبطل الرحالة هو من يروي قصة رحلته (أوديسيوس، إنياس، جاسون) أو يقتسم ذلك مع الشاعر السارد، أو ينوب الشاعر السارد عن الرحالة كلية.

قائمة المصادر والمراجع.

القرآن الكريم.

أ - المصادر:

1. ابن خلدون عبد الرحمن: المقدمة، (تاريخ العلامة ابن خلدون)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982.
2. أبوليوس، لوكيوس: الحمار الذهبي. أول رواية في تاريخ الإنسانية، تر/ أبو العيد دودو، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت/ منشورات الإختلاف، ط2/ 2004.
3. أرسطوطاليس: فن الشعر، مع الترجمة العربية القديمة وشروح الفارابي، وابن سينا وابن رشد، تر/ عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت، د. ت.
4. أوفيد: التحولات، تر/ أدونيس، دار التكوين، دمشق، ط2/ 2011.
5. باقر، طه: ملحمة كلكامش. وقصص أخرى عن كلكامش والطوفان، دار الرشيد للنشر/ دار الحرية، بغداد، ط4/ 1980.
6. بالدوين، جيمس: أقاصيص من الأساطير اليونانية، تر/ جميل منصور، دار العرب ودار نور، دمشق، ط1/ 2011.
7. بكر، أحمد حسين: أشهر الأساطير الفارسية، دار المشارق، القاهرة، ط1/ 2007.
8. تادرس، خليل: أحلى الأساطير الهندية، كتابنا للنشر، المنصورية، لبنان، ط1/ 2011.
9. الثعالبي، أبو منصور: الغرر في أخبار ملوك الفرس وسيرهم، نشره زوتنبرج، باريس، 1900.
10. حاتم، عماد: أساطير اليونان، دار الشرق العربي، بيروت، ط3/ 2008.
11. حنون، نائل: ملحمة جلجامش؛ ترجمة النص المسماري مع قصة موت جلجامش والتحليل اللغوي للنص الأكدي، دار الخريف للنشر والتوزيع، ط1/ 2006.
12. السواح، فراس: الأسطورة والمعنى، دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية، منشورات دار علاء الدين، دمشق، ط2/ 2001.
13. السواح، فراس: جلجامش ملحمة الرافدين الخالدة، دار علاء الدين، دمشق، ط2/ 2002.

14. السواح، فراس: مغامرة العقل الأولى، دراسة في الأسطورة، سوريا، أرض الرافدين، دار علاء الدين، دمشق، ط 13 / 2002.
15. السواح، فراس: مدخل إلى نصوص الشرق القديم، منشورات دار علاء الدين، دمشق، ط 1 / 2006.
16. السيد، صلاح عبد الحي: رحلة الأرجوناوتيك، للشاعر أبولونيوس الرودي، دار النافذة، الجيزة، ط 1 / 2010.
17. السيد، صلاح عبد الحي: الأوديسية للشاعر اليوناني العظيم هوميروس، مكتبة النافذة، الجيزة، ط 1 / 2010.
18. السيد، صلاح عبد الحي: الإنيادة، لشاعر العصر الأوغسطي بوبليوس فرجيليوس مارو، مكتبة النافذة، الجيزة، ط 1 / 2010.
19. سيركين، يولي: أساطير روما القديمة، تر / هاشم حمادي، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2011.
20. شعراوي، عبد المعطي: أساطير إغريقية، أساطير البشر، ج 1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2008.
21. شعراوي، عبد المعطي: أساطير إغريقية، أساطير الآلهة الصغرى، ج 2، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط 2 / 1995.
22. شعراوي، عبد المعطي: أساطير إغريقية، أساطير الآلهة الكبرى، ج 3، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 2005.
23. الشواف، قاسم: ديوان الأساطير، سومر وآكاد وآشور. الكتاب الثاني، (الآلهة والبشر)، دار الساقى، بيروت، ط 1 / 1997.
24. الشواف قاسم: ديوان الأساطير، سومر وآكاد وآشور. الكتاب الثالث، (الحضارة والسلطة)، دار الساقى، بيروت، ط 1 / 1999.
25. الشواف، قاسم: ديوان الأساطير، سومر وآكاد وآشور. الكتاب الرابع، (الموت والبعث والحياة الأبدية)، دار الساقى، بيروت، ط 1 / 2001.
26. عادل، أيمن: أشهر الأساطير الفرعونية، دار مشارق للنشر والتوزيع ودار طيبة للطباعة، الجيزة، ط 1 / 2008.

27. عبد العزيز، كارم محمود: أساطير العالم القديم، مكتبة النافذة، الجيزة، ط1/ 2007.
28. عكاشة، ثروت: الإغريق بين الأسطورة والإبداع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ج 15، ط 2/ 1994.
29. غوستاف، لوبون: حضارات الهند، تر/ عادل زعيتر، دار العالم العربي، القاهرة، ط1/ 2010.
30. فرجيل: الإنيادة، تر/ عنبرة سلام الخالدي، دار العلم للملايين، بيروت، ط2/ 1978.
31. الفردوسي: الشاهنامه، ملحمة الفرس الكبرى، تر/ سمير مالطي، دار العلم للملايين، بيروت، ط2/ 1932.
32. الفردوسي، أبو القاسم: الشاهنامه، تر/ الفتح بن علي البنداري، تحقيق: عبد الوهاب عزام، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط1/ 1932.
33. فيليوزات، بيار سيلفان: معجم أساطير الهند، تر/ حبيب نصر الله نصر الله، دار كلمة ومجد، بيروت، ط1/ 2009.
34. الكاتب، سيف الدين: أطلس التاريخ القديم، دار الشرق العربي، بيروت، ط7/ 2016.
35. كامل، مجدي: الإلياذة.. الأوديسة، دار الكتاب العربي، دمشق، القاهرة، ط1/ 2009.
36. كامل، مجدي: المهابهاراتا. الرامايانا، قلعة دم دم . (حم) و(زين)، (سلسلة ملاحم وأساطير خالدة . وراء كل بطل أسطوري قصة)، دار الكتاب العربي، دمشق، القاهرة، ط1/ 2009.
37. مجهول: الرامايانا الهندية، ملحمة الاله راما، تر/ دائرة المعارف الهندية، دار نينوى، دمشق، 2014.
38. مجهول: المهابهاراتا، ملحمة الهند الكبرى، تر/ عبد الإله الملاح، دار ورد للنشر والتوزيع، 2002.
39. مظهر، سليمان: أساطير الشرق، دار الشروق، القاهرة/ بيروت، ط1/ 2000.
40. معدى، الحسيني الحسيني: أساطير الأبطال، سلسلة أساطير العالم، كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1/ 2012.
41. هوميروس: الأوديسة، لشاعر الخلود هوميروس، تر/ دريني خشبة، دار العودة، بيروت، 2005.

ب - المراجع:

– المراجع باللغة العربية:

1. إبراهيم، محمد حمدي: الأدب السكندري، مكتبة لبنان، ناشرون، بيروت، ط1/ 2013.
2. الأزمي، نادية: الآخر في الرحلة المغربية: (الرحلة التطوانية إلى الديار الفرنسية للشيخ عبد الله الصفار) (الرحلة الحجازية للشيخ ماء العينين) أنموذجين، مؤسسة آفاق، مراكش، ط1/ 2016.
3. أمين، أحمد وزكي نجيب محمود: قصة الأدب في العالم، الجزء الأول: في الأدب القديم وأدب العصور الوسطى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1955.
4. البستاني، سليمان: مقدمة الإلياذة (ج2)، درس ومنتخبات: فؤاد أفرام البستاني، دار المشرق، بيروت، ط4/ 1981.
5. بحراري، حسن: بنية الشكل الروائي، الفضاء – الزمن – الشخصية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط2/ 2009.
6. توما، جان عبد الله: أدب الرحلة والرحالون العرب، المؤسسة الحديثة للكتاب. طرابلس/ لبنان، ط1/ 2014.
7. حاتم، عماد: مدخل إلى تاريخ الآداب الأوروبية، الدار العربية للكتاب، بيروت، ط2/ 1984.
8. - الحلبي، علاء: تاريخ المدن المفقودة، من الطوفان إلى باطن الأرض، دار رسلان، دمشق، ط1/ 2017.
9. خفاجة، محمد صقر: النقد الأدبي عند اليونان، من هوميروس إلى أفلاطون، مكتبة الأنجلو المصرية، 1981.
10. حليفي، شعيب: الرحلة في الأدب العربي، التجنس.. آليات الكتابة.. خطاب المتخيل، دارة رؤية، القاهرة، ط1/ 2006.
11. راغب، نبيل: فنون الأدب العالمي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1/ 1996.
12. ساره، خليل: تاريخ الإغريق، منشورات جامعة دمشق، 2015، 2016.
13. الساوري، بوشعيب: الرحلة والنسق دراسة في انتاج النص الرحلي . رحلة ابن فضلان نموذجاً، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1/ 2007.

14. السعدي، البشير بن ناصر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق محمد الصالح العثيمين، دار الغد الجديد، المنصورة، مصر. ط1/ 2005.
15. الشرقاوي، عبد الكبير: شعرية الترجمة. الملحمة اليونانية في الأدب العربي، دار توبقال للنشر، ط1/ 2007.
16. الشرقاوي، عبد الكبير: الترجمة والنسق. تعريب الشاهنامه في الأدب العربي، دار توبقال، الدار البيضاء المغرب، ط1/ 2009.
17. شعراوي، عبد المعطي: النقد الأدبي عند الإغريق والرومان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1999.
18. الضاوي، محمد الصالح: أساطير الأولين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/ 2011.
19. عبود، حنا: الميثولوجيا العالمية، سلسلة الدراسات (4)، إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2009.
20. عثمان، أحمد: الأدب اللاتيني ودوره الحضاري، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989.
21. عثمان، أحمد: الشعر الإغريقي تراثاً إنسانياً وعالمياً، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1984.
22. عتيق، مديحة: أسطورة العالم الآخر في الشعر الحديث والمعاصر. دراسة موضوعاتية، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1/ 2010.
23. المناصرة، عز الدين: الأجناس الأدبية؛ (في ضوء الشعرية المقارنة) ، دار الراجية للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، ط1/ 2010.
24. مرعي، فؤاد: الآداب الأوربية، عالم الأدب للترجمة والنشر، بيروت، ط1/ 2016.
25. محمد، عبد الغني محمد السيد: بعض ملامح الفكر اليوناني القديم، المكتبة الجامعية، المكتب الجامعي الحديث. الإسكندرية. 1999.
26. ندا، طه: الأدب المقارن، دار النهضة العربية، بيروت، 1975.

- المراجع المترجمة:

1. أرمسترونغ، كارين: تاريخ الأسطورة، تر/ وجيه قانصو، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1/ 2008.
2. راسكو، برتون: عمالقة الأدب الغربي، تر/ دريني خشبة، أحمد قاسم جودة، عالم الأدب للترجمة للنشر، بيروت، ط1/ 2017.
3. رندل، كلارك: الرمز والأسطورة في مصر القديمة، تر/ أحمد صليحة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1988.
4. فرانكفورت، هنري وآخرون: ما قبل الفلسفة. الإنسان في مغامراته الفكرية الأولى، تر/ إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2/ 1980.
5. فينسون لابي سي: نظرية الأنواع الأدبية، تر/ حسن عون، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط2/ 1978.
6. ميناوا، جورج: تاريخ جهنم، تر/ أنطوان الهاشم، دار عويدات، بيروت، ط/ 2016.
7. نارود، دون: الأساطير المصرية، تر/ أحمد السرساوي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1/ 2011.
8. ويليك، رينيه، أوستن وارين: نظرية الأدب، تر/ محي الدين صبحي، الدار العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2/ 1981.

- الرسائل والأطروحات:

1. قرطي، خليفة: المرجعيات التراثية في الرواية العربية التجريبية؛ بحث في الأشكال والبنى، أطروحة دكتوراه (مخطوط)، جامعة الجزائر، 2010.

- الموسوعات:

1. حامد، إسماعيل: موسوعة الأساطير الفرعونية وروائع القصص وحكايات التراث الشعبي، مكتبة النافذة، الجيزة، ط1/ 2009.

2.

- المعاجم:

1. ابن منظور: لسان العرب، ج1، (من أ إلى ج)، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

- ج3، (من ذ إلى س)، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
- ج5، (من غ إلى ل)، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
- ج6، (من م إلى ي)، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
2. آرون بول، دينيس سان، جاك آلان فيالا: معجم المصطلحات الأدبية، تر/ د. محمد محمود، نشر مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1/ 2012.
3. إمام، عبد الفتاح إمام، معجم ديانات وأساطير العالم، ج1، مكتبة مدبولي، القاهرة، د.ت.
- ج2، مكتبة مدبولي، القاهرة، د.ت.
4. أنيس، إبراهيم وآخرون: المعجم الوسيط، الجزء الأول، ط2، القاهرة، د.ت.
- الجزء الثاني، ط2، القاهرة، د.ت.
5. شابيرو، ماكس، ورودا هيندريكس: معجم الأساطير، تر/ حنا عبود، دار علاء الدين، ط3/ 2008.
6. فيليوزات، بيار سيلفان: معجم أساطير الهند، تر/ حبيب نصر الله نصر الله، دار كلمة ومجد، بيروت، ط1/ 2009.
7. المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت، ط43/ 2008.
8. وهبة، مجدي وكامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط2/ 1984.
9. يونس، عبد المجيد: معجم الفولكلور مع مسرد إنكليزي/ عربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2009.

- المجلات:

1. ترحيني، فايز: الملاحم: بانوراما حيّة، مجلّة الباحث، دار الباحث، بيروت، العدد الثاني، السنة الثامنة، 1986.

2. سليمان، محمد عبد الفتاح: الأسطورة والتوظيف الحضاري في الثقافة المصرية القديمة، مجلة علم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 04، المجلد 40، 2012.

3. شعراوي، عبد المعطي: الأسطورة بين الحقيقة والخيال، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، المجلد 4، العدد 40، 2012.

4. محمد، عبد الغني محمد السيد: نظرة الأثنيين إلى الأسطورة، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، المجلد 4، العدد 40، 2012.

– المواقع الإلكترونية:

1. - <https://ar.wikipedia.org/wiki/>

– المراجع باللغة الأجنبية:

1. ALAIN REY: Le rebert. Dictionnaire historique de la langue française. sous le direction. 2000. Paris. Tome .2
2. ALAIN REY: Le rebert. Dictionnaire historique de la langue française. sous le direction. 2000. Paris. Tome .3
3. Christophe Carlier. Nathalie Criton: Des mythes aux mythologies ; Rotterdam Edition Marketing ; France. 1994.
4. Edith Hamilton : La Mythologie, traduit par Abeth de Beughem, Marabout, Allzur Balgique, 1978, 1997.
5. Homère : Odyssée . traduction de Victor Bérard, edition Gallimard, France 1949.
6. Louis Sabatié: Contes et légendes, des hommes volants, Fernand Nathan, éditeur, 1961, Paris.

قائمة الملاحق

هذه الخرائط تجمل الإشارة إلى بعض فضاءات الرحلات الأسطورية والملحمية التي

جاءت في متن البحث:

- الشكل (1): خريطة لمواقع من رحلة جلامش/ إنانا (شرقا)، ومواقع من رحلة إيزيس (غربا).⁽¹⁾
- الشكل (2): خريطة توضح بعض الفضاءات في رحلتي المهابهاراتا والراماينا.⁽²⁾
- الشكل (3): خريطة تقريبية لمسارات ومحطات رحلة الإسكندر الكبير.⁽³⁾
- الشكل (4): خريطة تقريبية لمسارات ومحطات الرحلة الأوديسية.⁽⁴⁾
- الشكل (5): خريطة تقريبية لمسارات ومحطات الرحلة الأوديسية.⁽⁵⁾
- الشكل (6): خريطة تقريبية لمسارات ومحطات الرحلة الأوديسية.⁽⁶⁾
- الشكل (7): خريطة تقريبية لمسارات ومحطات رحلة الأرجو.⁽⁷⁾

¹ - الكاتب، سيف الدين: أطلس التاريخ القديم، سلسلة أطلس تاريخ الحضارات، دار الشرق العربي (بيروت) // دار العزة والكرامة (الجزائر)، ط7/ 2016، ص 30.

² - السابق، ص 88.

³ - السابق، ص 96.

⁴ - Homère : Odyssée. traduction de Victor Bérard, edition Gallimard, France 1949. P46.

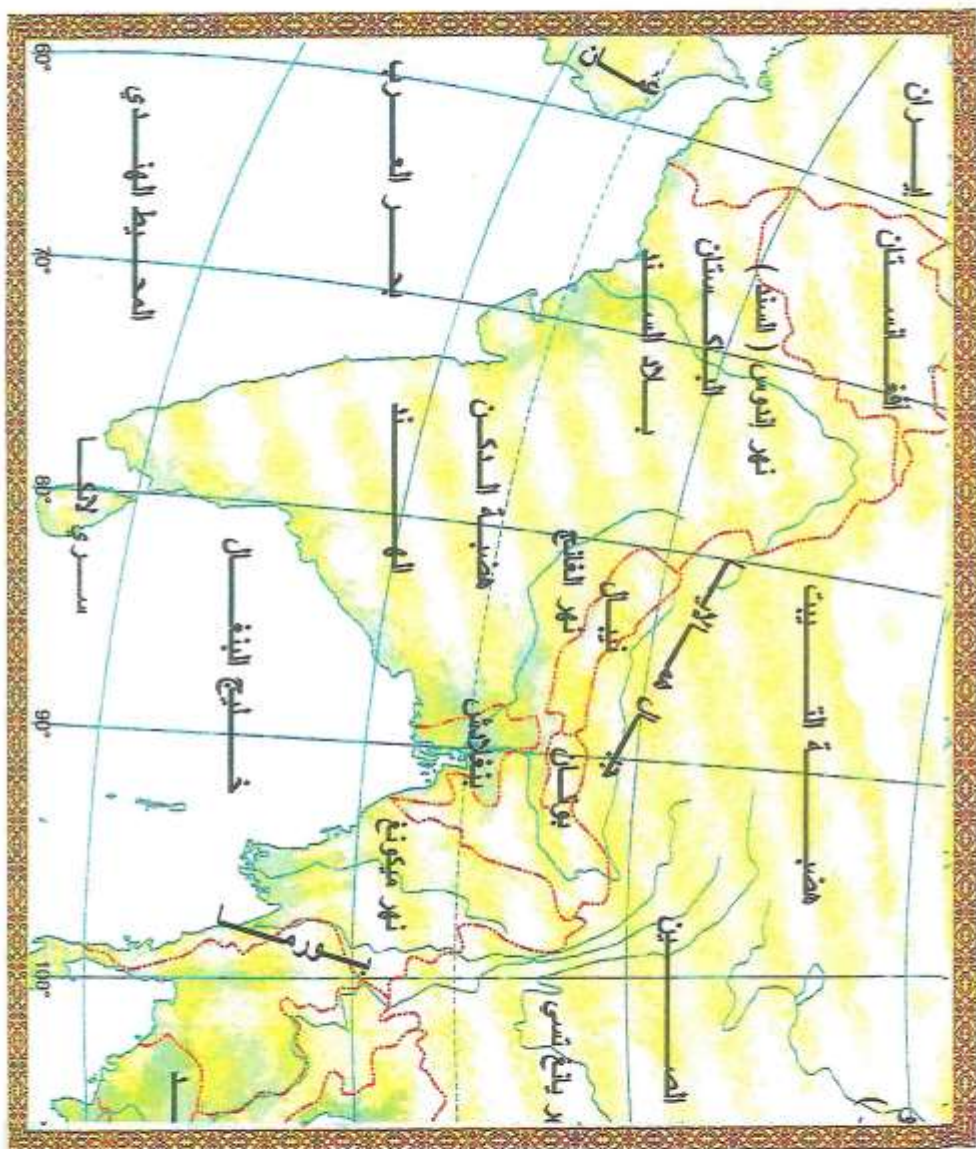
⁵ - السابق، ص 47.

⁶ - السابق، ص 45.

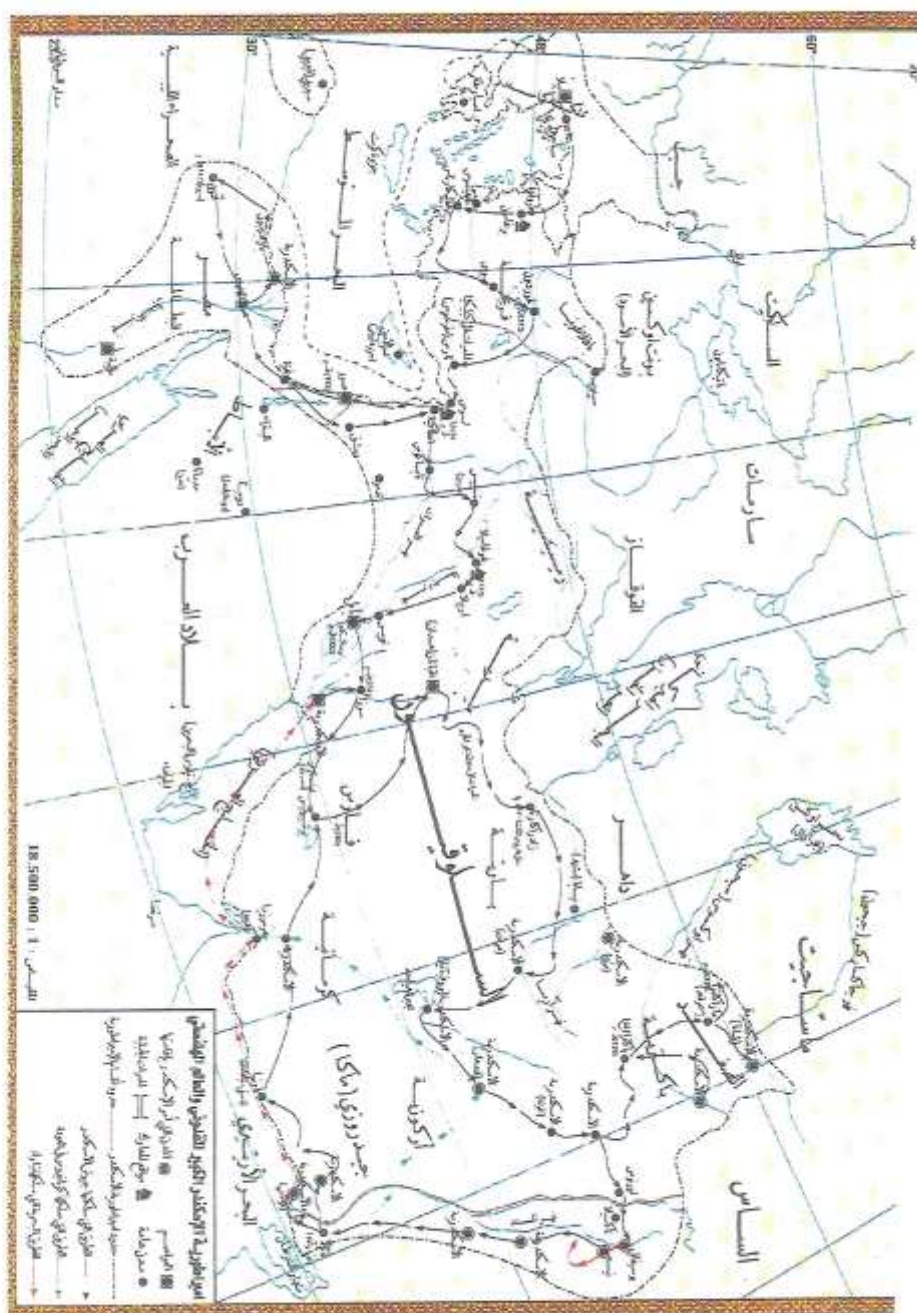
⁷ - <https://ar.wikipedia.org/wiki/>



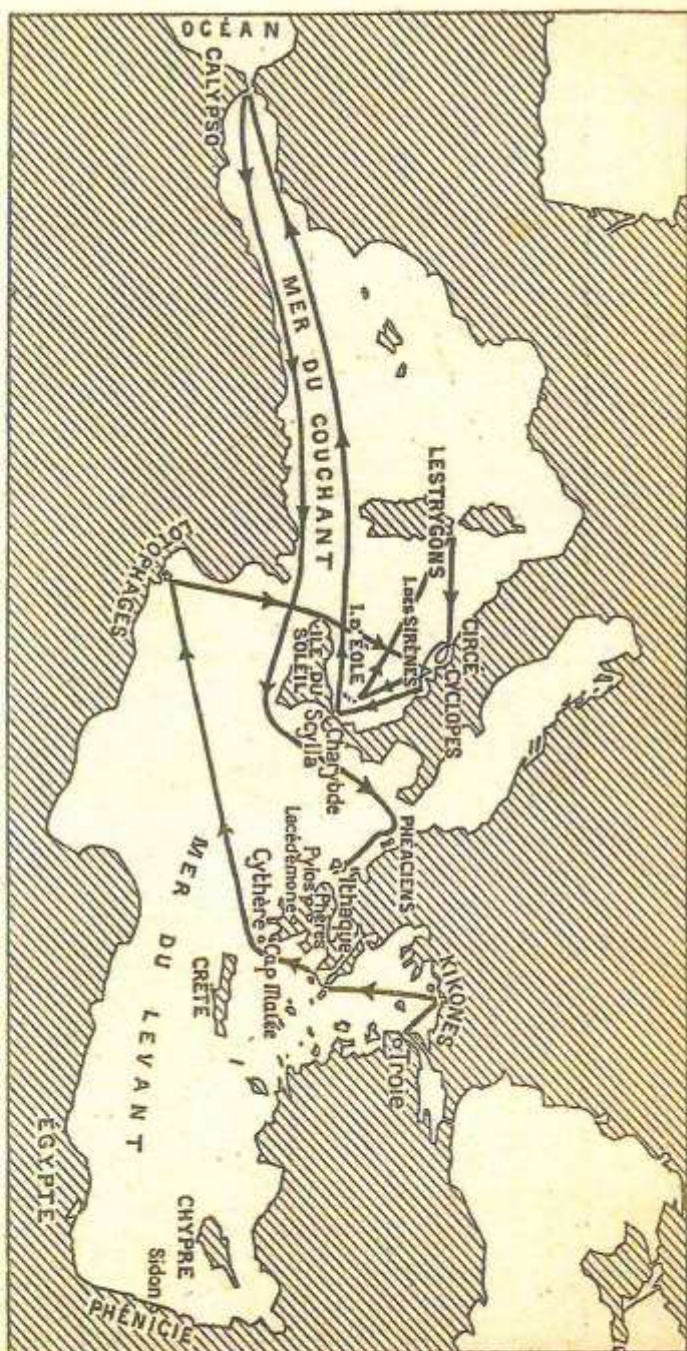
الشكل (1): خريطة لمواقع من رحلة جلجامش / إنانا (شرقاً) ومواقع من رحلة إيزيس (غرباً).

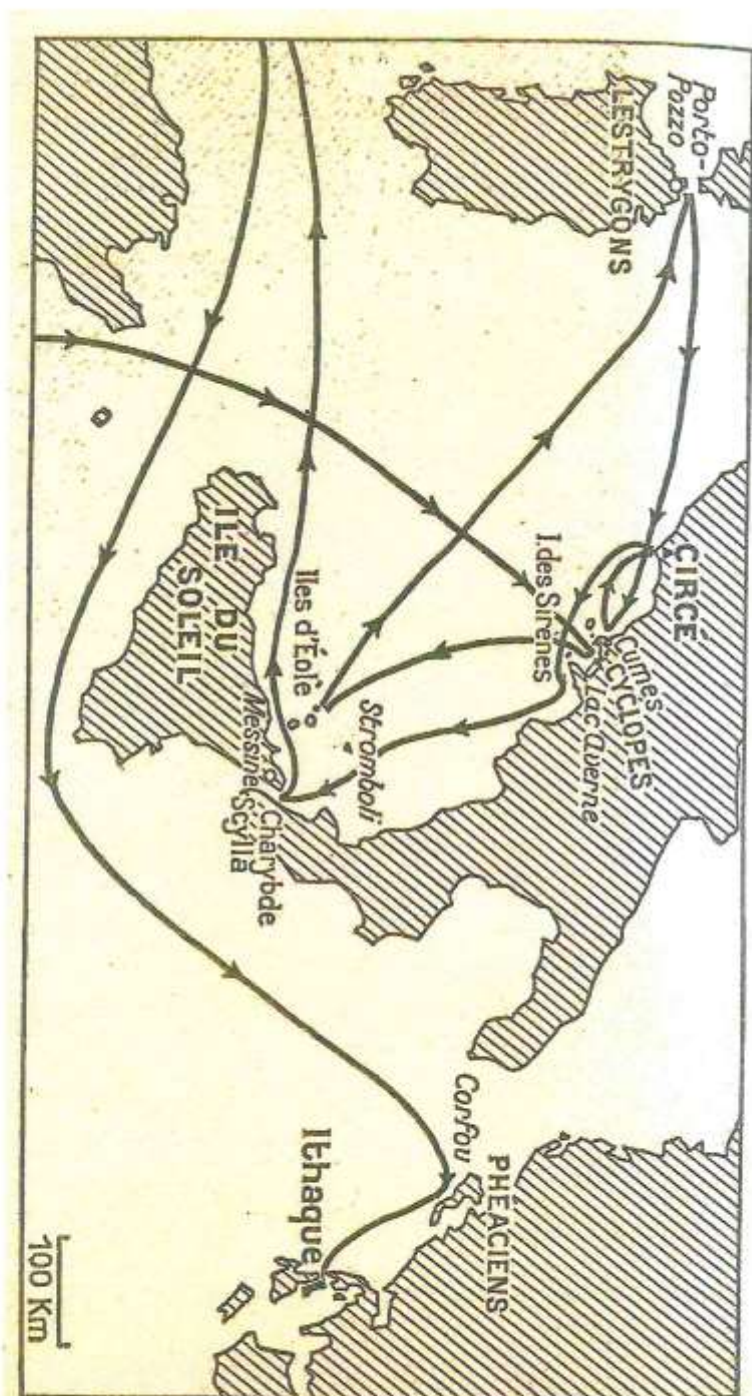


الشكل (2): خريطة توضح بعض القضاعات في رحلتنا، المهابهاراتا والرامايانا

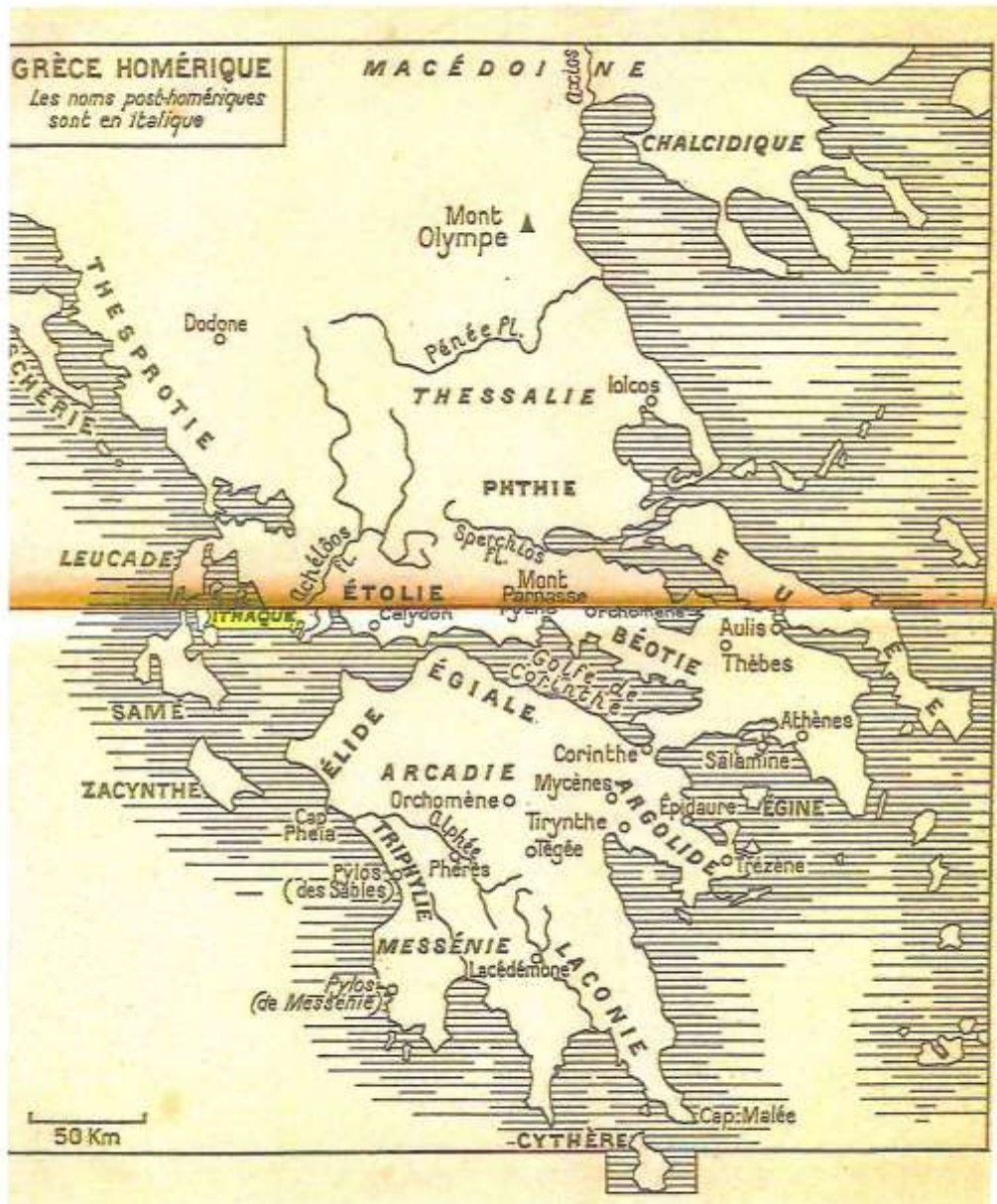


الشكل (4): خريطة تقريبية لمحطات ومحطات الرحلة الأليسيبية



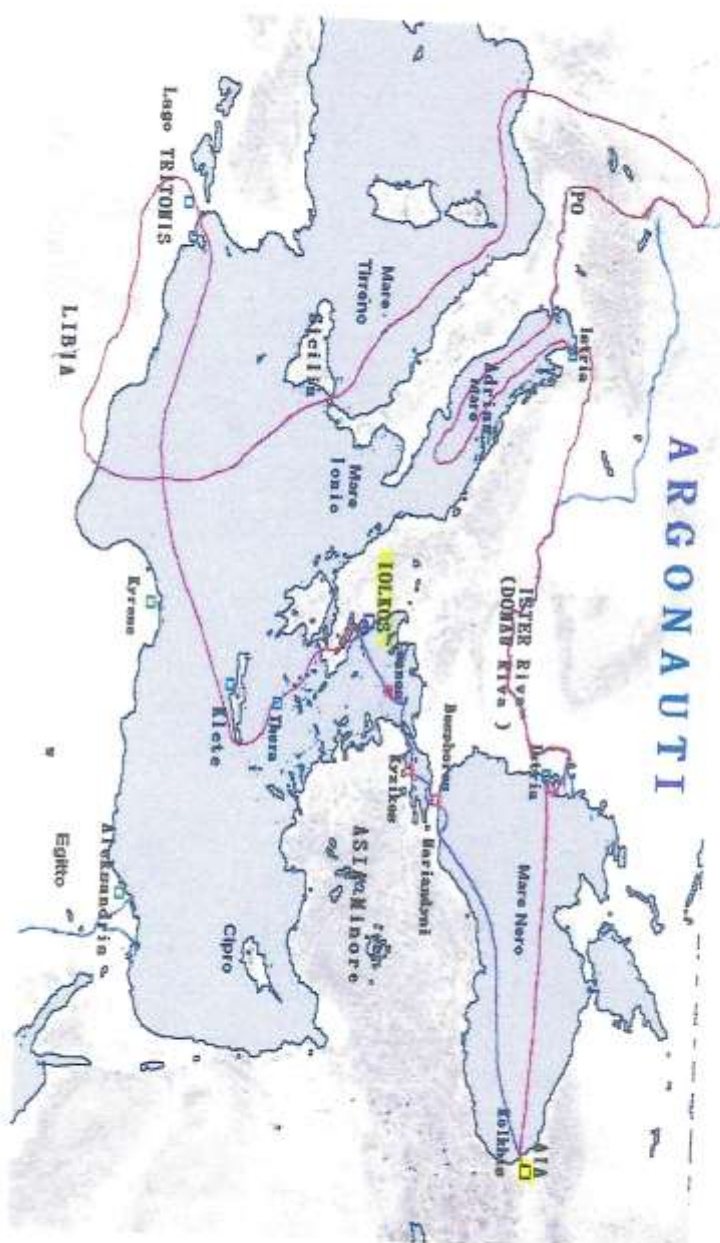


الشكل (5): خريطة تقريبية لمسارات ومحطات الرحلة الأوديسية



الشكل (6): خريطة تقريبية لمسارات ومحطات الرحلة الأوديسية

<https://ar.wikipedia.org/wiki/>



الشكل (7): خريطة قديمة لمسارات ومجاذب رحلة الأرس.

الملخص باللغة الأجنبية (الفرنسية)

Le voyage dans les mythes et anciennes épopées.

Etude dans l'espace, temps et personnages.

On a beaucoup travaillé sur le voyage et les voyageurs dans la littérature en générale, mais ce qui concerne le voyage mythique et le voyage épique (dans diverses civilisations anciennes : Sumer/ Egypte/ Inde/ Grec/ Romain, sont peu et rares études qui sont effectuées sur ce thème; pour cela notre tâche principale est basé à répondre a des questions bien précises afin de résoudre cette problématique :

- Quelles sont les caractéristiques fonctionnelles des personnalités mythiques du voyageur ?
- Quelles sont les caractéristiques fonctionnelles des personnalités épiques du voyageur ?
- Quelles sont ses différenciations et les traits distinctifs de l'espace mythique/ épique. En commençant d'abord par ce voyage (comment traverser et comment arriver à la fin de ce voyage) ?
- L'espace de la mer (bleu) mer verte/ espace d'autre monde (noir !)
- Et puis quelles sont les caractéristiques du temps mythiques/ temps épiques. (passé, présent, futur).
- Le voyageur est un héros qui va hardiment au devant des aventures difficiles et impossibles (autre monde). Il peut (seul –ou avec ses compagnons –) affronter l'espace difficile, la mer et ses vents forts, et ses hautes vagues, et la mer verte et belle qui cache

des monstres et des démons ou des êtres myhiques etaussi làutre monde avec ses habitants bien câches.

Il peut aussi atteindre son passé autant que son futur à partir du prèsent il fait valoir ses forces intiligentes et ses rêves pour obtenir son désir.